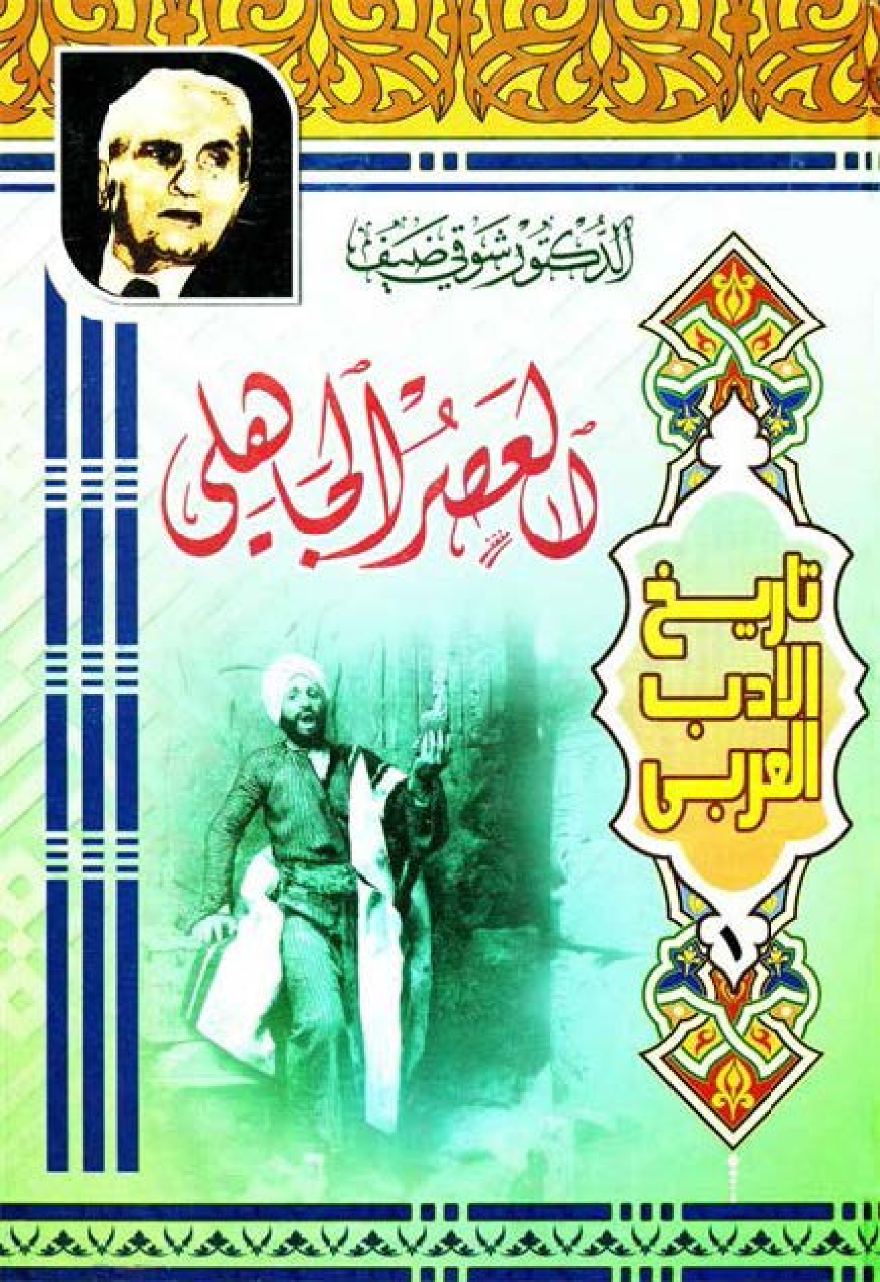

الدكتور شوقي ضيف
العصر الجاهلي
تاريخ الأدب العربي
١

تاريخ
الأدب العربى
١

العصر الجاهلى

تأليف
الدكتور شوقى ضيف





منشورات ذوي القربى

اسم الكتاب :	تاريخ الادب العربي (ج ١)
المؤلف :	شوقي الضيف
الناشر :	ذوي القربى
الطبعة :	الثاني
تاريخ الطبع :	١٤٢٧
الكمية :	١٥٠٠ نسخة
المطبعة :	سليمانزاده
شماره مجوز كتاب :	ف/ ٢٦/ ٢٥٨٠٣ ـ ٣٠/ ٤/ ٨٤
شابك دوره ۴ جلدى :	٩٦٤ـ ٥١٨ـ ٠٣٥ـ X
شابك ج ١ :	٩٦٤ـ ٥١٨ـ ٠٣١ـ ٧

مركز التوزيع : قم ـ پاساژ قدس ـ الطابق الاوّل ـ رقم ٥٩ ـ تليفون: ٧٧٤٤٦٦٣ـ٢٥١ـ٩٨+

العراق ـ النجف الأشرف ـ سوق الحويش ـ النقال: ٠٧٨٠١٠٠٣٥٧٢

العراق ـ البصرة ـ العشار ـ النقال: ٠٧٨٠١٠٤٦٢١٣

العصر الجاهلي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

للباحثين المحدثين من عرب ومستشرقين كتبٌ مختلفة فى تاريخ الأدب العربى أدّتْ كثيراً من الفائدة والنفع منذ ظهورها ، غير أن من الحق أنه ليس بين هذه الكتب ما يبسط الحديث فى أدبنا وأدبائنا على مرّ التاريخ من الجاهلية إلى العصر الحديث بَسْطاً مفصلا دقيقاً . وأغزرُ هذه الكتب وأحفَلُها مادة كتابُ «تاريخ الأدب العربى » لبروكلمان ، وهو دائرة معارف جامعة ، لا تقتصر على الحديث عن شعرائنا وكُتّابنا ، بل تُفيض فى الكلام عن فلاسفتنا وعلمائنا من كل صَنْف وعلى كلّ لون ، مع استقصاء آثارهم المطبوعة والمخطوطة فى مشارق الأرض ومغاربها والإشارة إلى ما كُتب عنهم قديماً وحديثاً. وهذه العناية من وصف التراث العربى جميعه جعلتْ بروكلمان لا يُعْنى عناية مفصلة ببحث العصور والظواهر الأدبية ولا ببحث شخصيات الأدباء بحثاً تاريخيًّا نقديًّا تحليليًّا ، إذ شغلته عن ذلك مواد كتابه المتنوعة الكثيرة .

وإذن فأنا لا أبالغ إذا قلت إن تاريخ أدبنا العربى يفتقر إلى طائفة من الأجزاء المبسوطة تُبْحَثُ فيها عصوره من الجاهلية إلى عصرنا الحاضر كما تبحث شخصياته الأدبية بحثاً مُسْهباً ، بحيث ينكشف كل عصر انكشافاً تامًّا ، بجميع حدوده وبيئاته وآثاره وما عمل فيها من مؤثرات ثقافية وغير ثقافية ، وبحيث تنكشف شخصيات الأدباء انكشافاً كاملا ، بجميع ملامحها وقسماتها النفسية والاجتماعية والفنية .

وقد حاولتُ أن أنهض بهذا العِبْء ، وأنا أعلم ثِقَلَ المئونة فيه ، فإن كثيراً من الآثار الأدبية القيمة لا يزال مخطوطاً لما يُنْشَر ، وكثيراً مما نُشر فى حاجة إلى أن يعاد نشره نشراً علميًّا . وهناك بيئات أدبية يغمرها غير قليل من الظلام ، إما لقلة ما بين أيدينا من تراثها الأدبى ، وإما لأن الباحثين لم يكشفوا دروبها ومناجمها كشفاً

كافياً . يُضاف إلى ذلك أن تحليل آثار الأدباء وتقويمها ليس عملا سهلا ، لكثرة ما يداخلها من عناصر الحياة والفن المتشابكة ، ولأنها تتألف من معان وأساليب جميلة ، وهى لا تخضع خضوعاً مطلقاً لقواعد العلم وقوانينه، حقًّا تخضع للطريقة العلمية، ولكن باستمرار تظل فيها جوانب خاضعة للذوق ونفاذ البصيرة والإحساس المرهف . وذلك كله مما يضاعف الجهد على من يريد تأريخ أدبنا العربى تأريخاً مفصلا دقيقاً على اختلاف عصوره وتفاوت بيئاته ، غير أنه يضاعف فى الوقت نفسه لذّته فيه ، إذ يرى أمنيته فى إتقان عمله بعيدة عسيرة، لا يمكنه بلوغها إلا بشق النفس، فيَجِدّ ويُلحّ، ويمضى فى الجِدّ والإلحاح، حتى يظفر بما يريد، مؤمناً بأنه لا يقول الكلمة الأخيرة فيما يبحثه ، إذ البحثُ الأدبىّ لا يعرف الكلمة الأخيرة فى مسألة من مسائله .

ومعنى ذلك أن هذا الجزء من تاريخ أدبنا العربى الخاص بالعصر الجاهلى — والذى ستتلوه أجزاء أخرى تتناول بقية عصور هذا التاريخ — لا أزعم أنه يحمل إلى القراء الصورة الأخيرة لهذا العصر ، كما لا أزعم أن الأجزاء التالية ستحمل الصورة الأخيرة للعصور المتعاقبة . وإنما أزعم أن هذه الصورة هى التى استطعت رسمها مع ما بذلت من جهد واصطنعت من نهج وتحرّيت من دقّة ، وقد يأتى بعدى منْ يعدّل فى جانب من جوانبها بما يهتدى إليه من حقائق أدبية غابتْ عنى فى بعض العصور أو بعض البيئات والشخصيات الأدبية . وتلك طبيعة الأبحاث يكمل بعضها بعضاً ولا تزال فى نمو مطرد . والله أسأل أن يلهمنى السداد فى القول والفكر والعمل ، وهو حسبى ، ونعم الوكيل .

القاهرة فى ٢٠ من ديسمبر سنة ١٩٦٠ — شوقى ضيف

تمهيد

١

كلمة أدب

كلمة أدب من الكلمات التى تطور معناها بتطور حياة الأمة العربية وانتقالها من دور البداوة إلى أدوار المدنية والحضارة . وقد اختلفت عليها معان متقاربة حتى أخذت معناها الذى يتبادر إلى أذهاننا اليوم ، وهو الكلام الإنشائى البليغ الذى يُقصَد به إلى التأثير فى عواطف القراء والسامعين ، سواء أكان شعراً أم نثراً .

وإذا رجعنا إلى العصر الجاهلى ننقّب عن الكلمة فيه لم نجدها تجرى على ألسنة الشعراء ، إنما نجد لفظة آدب بمعنى الداعى إلى الطعام ، فقد جاء على لسان طرفة بن العبد[١] :

نحن فى المَشْتاةِ ندعو الجَفَلَى لا ترى الآدبَ فينا يَنْتَقِرْ[٢]

ومن ذلك المأدُبة بمعنى الطعام الذى يُدْعَى إليه الناس . واشتقوا من هذا المعنى أدُبَ يأدُب بمعنى صنع مأدُبة أو دعا إليها .

وليس وراء بيت طرفة أبيات أخرى تدل على أن الكلمة انتقلت فى العصر الجاهلى من هذا المعنى الحسى إلى معنى آخر ، غير أننا نجدها تُسْتَخْدم على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم فى معنى تهذيبى خلقى ، ففى الحديث النبوى : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى »[٣] ويستخدمها شاعر مخضرم يسمى سهم بن حنظلة

---

(١) انظر ديوان طرفة (طبعة آلوارد) القصيدة رقم ٥ بيت ٤٦ .

(٢) المشتاة : الشتاء ، الدعوة الجفلى : العامة ، الآدب : الداعى إلى الطعام ، لا ينتقر : لا يختار أناساً دون آخرين .

(٣) انظر النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير (طبع القاهرة ١٣١١ هـ) ج ١ ص ٣ .

الغَنوى بنفس المعنى إذ يقول [١] :

لا يمنعُ الناسُ منِّى ما أردتُ ولا أعطيهمُ ما أرادوا حُسْنَ ذَا أدبا

وربما استُخدمت الكلمة فى العصر الجاهلى بهذا المعنى الخلقى، غير أنه لم تصلنا نصوص تؤيد هذا الظن . وذهب « نالينو » إلى أنها استخدمت فى الجاهلية بمعنى السنّة وسيرة الآباء مفترضاً أنها مقلوب دأب ، فقد جمع العرب دأباً على آداب كما جمعوا بئراً على آبار ورأياً على آراء، ثم عادوا فتوهموا أن آداباً جمع أدب ، فدارت فى لسانهم كما دارت كلمة دأب بمعنى السنة والسيرة ، ودلوا بها على محاسن الأخلاق والشِّيم [٢] . وهو فرض بعيد، وأقرب منه أن تكون الكلمة انتقلت من معنى حسى وهو الدعوة إلى الطعام إلى معنى ذهنى وهو الدعوة إلى المحامد والمكارم ، شأنها فى ذلك شأن بقية الكلمات المعنوية التى تستخدم أولا فى معنى حسى حقيقى ، ثم تخرج منه إلى معنى ذهنى مجازى .

ولا نمضى فى عصر بنى أمية حتى نجد الكلمة تدور فى المعنى الخلقى التهذيبى ، وتضيف إليه معنى ثانياً جديداً، وهو معنى تعليمى فقد وجدت طائفة من المعلمين تسمى بالمؤدِّبين ، كانوا يعلمون أولاد الخلفاء ما تطمح إليه نفوس آبائهم فيهم من معرفة الثقافة العربية ، فكانوا يلقّنونهم الشعر والخطب وأخبار العرب وأنسابهم وأيامهم فى الجاهلية والإسلام . وأتاح هذا الاستخدام الجديد لكلمة الأدب أن تصبح مقابلة لكلمة العلم الذى كان يُطْلَق حينئذ على الشريعة الإسلامية وما يتصل بها من دراسة الفقه والحديث النبوى وتفسير القرآن الكريم .

وإذا انتقلنا إلى العصر العباسى وجدنا المعنيين التهذيبى والتعليمى يتقابلان فى استخدام الكلمة ، فقد سمى ابن المقفع رسالتين له تتضمنان ضروباً من الحكم والنصائح الخلقية والسياسية باسم « الأدب الصغير » و « الأدب الكبير » . وبنفس هذا المعنى سمى أبو تمام المتوفى سنة ٢٣٢ هـ/ ٨٤٦ م الباب الثالث من ديوان

---

(١) انظر الأصمعيات (طبع دار المعارف) رقم ١٢ بيت ٣٠ .

(٢) تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية لكارلونالينو (طبع دار المعارف) ص ١٤ وما بعدها .

الحماسة الذى جمع فيه مختارات من طرائف الشعر ، باسم باب الأدب . وينطبق هذا المعنى تمام الانطباق على كتاب الأدب الذى عقده البخارى المتوفى سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠ م فى مؤلفه المشهور فى الحديث والمعروف باسم الجامع الصحيح ، كما ينطبق على كتاب الأدب الذى صنفه ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م. وفى هذه الأزمنة أى فى القرنين الثانى والثالث للهجرة وما تلاهما من قرون كانت الكلمة تطلق على معرفة أشعار العرب وأخبارهم ، وأخذوا يؤلفون بهذا المعنى كتباً سموها كتبَ أدبٍ مثل « البيان والتبيين للجاحظ » المتوفى سنة ٢٥٥هـ وهو يجمع ألواناً من الأخبار والأشعار والخطب والنوادر ، مع ملاحظات نقدية وبلاغية كثيرة . ومثله كتاب « الكامل فى اللغة والأدب للمبرد » المتوفى سنة ٢٨٥ هـ وقد وجّه اهتمامه إلى اللغة لا إلى البلاغة والنقد كما صنع الجاحظ ، وقدم فيه صوراً من الرسائل النثرية التى ارتقت صناعتها فى تلك العصور ، جاء فى مقدمته : « هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب ما بين كلام منثور وشعر مرصوف ومثل سائر وموعظة بالغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة ». ومما أُلِّفَ فى الأدب بهذا المعنى كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ والعقد الفريد لابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٨ هـ وزهر الآداب للحصرى المتوفى سنة ٤٥٣ هـ .

ولم تقف الكلمة عند هذا المعنى التعليمى الخاص بصناعتى النظم والنثر وما يتصل بهما من الملح والنوادر ، فقد اتسعت أحياناً لتشمل كل المعارف غير الدينية التى ترقى بالإنسان من جانبيه الاجتماعى والثقافى ؛ فقد جاء على لسان الحسن ابن سهل المتوفى سنة ٢٣٦ هـ : « الآداب عشرة ، فثلاثة شهرجانية[١] . وثلاثة أنوشروانية[٢] ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن ، فأما الشهرجانية فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصوالج ، وأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية ، وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس ، وأما الواحدة التى أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم فى المجالس »[٣] . وبهذا المعنى الواسع نجدها عند إخوان الصفا فى القرن الرابع للهجرة ، فقد دلوا بها فى رسائلهم إلى جانب

---

(١) الشهرجانية : نسبة إلى الشهارجة أو الشهاريج وهم أشراف الفرس .

(٢) الأنوشروانية : نسبة إلى كسرى أنوشروان ملك الفرس من سنة ٥٣١–٥٧٩ م.

(٣) انظر زهر الآداب للحصرى (طبع مصر) ج ١ ص ١٤٠ .

علوم اللغة والبيان والتاريخ والأخبار على علوم السحر والكيمياء والحساب والمعاملات والتجارات[١] . ولا نصل إلى ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ حتى نجدها تطلق على جميع المعارف دينية وغير دينية ، فهى تشمل جميع ألوان المعرفة وخاصة علوم البلاغة واللغة ، ومن ثم قال : « الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف »[٢] .

ومنذ القرن الثالث للهجرة نجد الكلمة تدل — فيما تدل عليه — على السنن التى ينبغى أن تراعى عند طبقة خاصة من الناس ، وألفت بهذا المعنى كتب كثيرة مثل أدب الكاتب لابن قتيبة وأدب النديم لكشاجم المتوفى حوالى سنة ٣٥٠ هـ . وتوالت كتب مختلفة فى أدب القاضى وأدب الوزير وأخرى فى أدب الحديث وأدب الطعام وأدب المعاشرة وأدب السفر إلى غير ذلك . على أن أكثر ما كانت تدل عليه مقطعات الأشعار وطرائف الأخبار .

وأخذت الكلمة منذ أواسط القرن الماضى تدل على معنيين : معنى عام يقابل معنى كلمة Littérature الفرنسية التى يطلقها الفرنسيون على كل ما يكتب فى اللغة مهما يكن موضوعه ومهما يكن أسلوبه، سواء أكان علماً أم فلسفة أم أدباً خالصاً ، فكل ما ينتجه العقل والشعور يسمى أدباً . ومعنى خاص هو الأدب الخالص الذى لا يراد به إلى مجرد التعبير عن معنى من المعانى ، بل يراد به أيضاً أن يكون جميلا بحيث يؤثر فى عواطف القارئ والسامع على نحو ما هو معروف فى صناعتى الشعر وفنون النثر الأدبية مثل الخطابة والأمثال والقصص والمسرحيات والمقامات .

---

(١) راجع الرسالة السابعة من القسم الرياضى فى رسائل إخوان الصفا .

(٢) مقدمة ابن خلدون (طبعة المطبعة البهية) ص ٤٠٨ .

٢

تاريخ الأدب

واضح الآن أن تاريخ الأدب لأمة من الأمم إما أن يلتزم فيه المؤرخ المعنى العام لكلمة أدب ، فيؤرخ للحياة العقلية والشعورية فى الأمة تاريخاً عاماً، وإما أن يلتزم المعنى الخاص ، فيؤرخ للشعراء والكتّاب تاريخاً خاصاً بالأدب ونشأته وتطوره وأهم أعلامه ، ولعل أهم من أرخوا لأدبنا بالمعنى الأول بروكلمان فى كتابه «تاريخ الأدب العربى»، ونسج على منواله جرجى زيدان فى كتابه المسمى بتاريخ آداب اللغة العربية . ونراهما يعرضان لتاريخ الحياة الأدبية والعقلية عند العرب فى نشأتها وتطورها مع الترجمة للفلاسفة والعلماء من كل صنف والشعراء والكتاب من كل نوع . ومن غير شك يتقدم بروكلمان جرجى زيدان فى هذا الصدد بسبب المادة الغنية التى يحتويها كتابه ، فقد أحصى إحصاء دقيقاً أدباء العرب وعلماءهم وفلاسفتهم مع ذكر آثارهم المطبوعة والمخطوطة وما كُتب عنهم قديماً وحديثاً ، مبيناً مناهجهم ومكانتهم فى الفن أو العلم الذى حذقوه ، مع نبذة عن كل فن وعلم ومدى ما حدث له من تطور ورقى .

ومؤرخ الأدب العربى إما أن ينهج هذا النهج الواسع ، وإما أن ينهج النهج الثانى الذى أشرنا إليه ، فيقف بتاريخه عند الشعراء والكتاب مفصلا الحديث فى شخصياتهم الأدبية وما أثر فيها من مؤثرات اجتماعية واقتصادية ودينية وسياسية ، ومتوسعاً فى بيان الاتجاهات والمذاهب الأدبية التى شاعت فى كل عصر . ومن المحقق أن المؤرخ للأدب العربى بمعناه الخاص يأخذ الفرصة كاملة كى يؤرخ لهذا الفرع المونق من فروع الأدب بالمعنى العام ، وهو الفرع الذى يُراعَى فيه الجمال الفنى والتأثير فى ذوق القارئ والسامع وإثارة ما يمكن أن يثار فى نفسيهما من مشاعر وعواطف متباينة . فهو يؤرخ للأدب الخالص تاريخاً مفصلا لا يكتفى فيه بالنبذ الموجزة عن الاتجاهات والفنون الأدبية ولا بالتراجم المجملة عن الشعراء والكتاب ، على نحو ما يصنع بروكلمان فى تاريخه العام ، بل يكتب فى ذلك الفصول الواسعة مطبِّقاً المناهج الحديثة فى دراسة الأدب الخالص ومن أنتجوه من الأدباء .

وكان من آثار سيطرة العلوم الطبيعية والتجريبية فى القرن الماضى على العقول الغربية أن نادى بعض مؤرخى الأدب هناك بوجوب تطبيق مناهجها وقواعدها على الدراسات الأدبية ، وحاول نفر منهم أن يضع للأدب قوانين كقوانين الطبيعة ، وتقدم سانت بيف (Sainte-Beuve) يدعو إلى العناية بشخصيات الأدباء وتعقُّب حياتهم المادية والمعنوية ومؤثراتها ، حتى نتبين ما ينفرد به الأديب وما يشترك فيه مع سواه من الأدباء ، فإذا تبينا الطرفين أمكن أن نضع الأدباء فى فصائل وأسَر على نحو ما يصنع علماء النبات إذ يرتبونه فى أنواع وفصائل نباتية مختلفة . وبالمثل يضع مؤرخو الأدب أصحابه فى طبقات وفصائل على أساس ما يقوم بين الأديب وفصيلته من تشابه ، وهو تشابه تستخلص منه قوانين الأدب العلمية وما يمتاز به أصحاب كل فصيلة من خصائص وصفات . وتلاه تين (Taine) يقرر أن هناك قوانين ثلاثة يخضع لها الأدب فى كل أمة وهى الجنس والزمان والمكان ، وكأنه أراد أن يحوِّل تاريخ الأدب إلى ضرب من التاريخ الطبيعى ، فأدباء كل أمة يخضعون لهذه القوانين الثلاثة خضوعاً جبريًّا ملزماً ، فلكل جنس خواصه ، ولكل زمان أحداثه وظروفه الاقتصادية والسياسية والثقافية ، ولكل مكان ميزاته الإقليمية والجغرافية ، وتلك هى مؤثرات الأدب ، بل قوانينه التى تطبع الأدباء بطوابعها الدقيقة . ولاحظ مؤرخو الأدب ونقاده أنه تجاهل شخصيات الأدباء وفرديتهم ومواهبهم وأصالتهم ، ولو أن قوانينه صحيحة لكان كل أديب صورة مطابقة للأدباء الآخرين ، ولما تميز أديب من سواه . والواقع يثبت عكس ذلك فلكل أديب شخصيته التى تجعل منه أديباً بعينه ، له مقوماته .

وبجانب هذين المنهجين فى دراسة تاريخ الأدب وجد منهج ثالث عند برونتيير (Brunetière) الذى فُتن بمذهب داروين المعروف فى التطور ونشوء الكائنات العضوية وارتقائها ،وكان (سبنسر) سبقه إلى نقله من العضويات إلى المعنويات ، وطبقه على الأخلاق والاجتماع ، فحاول هو أن يطبقه على الأدب وفنونه المختلفة ، واختار لهذا التطبيق ثلاثة فنون ، هى : المسرح والنقد الأدبى والشعر الغنائى . فتتبع كلا فى نشأته ونموه وتطوره وما عمل فيه من مؤثرات ، وذهب إلى أن الفنون الأدبية مثل الكائنات الحية تخضع للتطور ، وقد يتولد بعضها من بعض

على نحو ما تولد الشعر الغنائى الرومانسى فى القرن التاسع عشر من الوعظ الدينى الذى شاع بفرنسا فى القرن السابع عشر : فهذا الشعر لم يتطور عن شعر مماثل له ، سبقه ، وإنما تطور أو تولّد عن فن آخر على نحو ما يتطور أو يتولد كائن عضوى من كائن آخر .

وهذه الموجة الحادة التى اندفع خلالها هؤلاء المؤرخون فى القرن التاسع عشر يريدون أن يلحقوا تاريخ الأدب بالعلوم الطبيعية ويطبقوا عليه قواعدها لم تلبث أن هدأت فى أوائل هذا القرن العشرين بتأثير نمو العلوم الإنسانية ، فإن هذه العلوم أثبتت أن عالم الإنسان يخضع لقوانين أعمق من القوانين الطبيعية وأن تاريخ الأدب ينبغى أن لا يلحق بالعلوم الطبيعية وإنما يلحق بالدراسات الإنسانية مثل التاريخ والقانون والسياسة وعلمى الاجتماع والنفس . وسرعان ما أخذ مؤرخو الأدب ونقاده يطبقون على الأدب نظريات اللاشعور الفردى وعُقَد الجنس ومكبوتاته واللاشعور الجماعى ورواسب الحياة الإنسانية البدائية التى تتجلى فى الأساطير وما يتصل بها والعلاقات الاجتماعية والإنتاجية .

وسنحاول أن نؤرخ فى أجزاء هذا الكتاب للأدب العربى بمعناه الخاص مفيدين من هذه المناهج المختلفة فى دراسة الأدب وأعلامه وآثاره ، فنقف عند الجنس والوسط الزمانى والمكانى الذى نشأ فيه الأديب ، ولكن دون أن نبطل فكرة الشخصية الأدبية والمواهب الذاتية التى فسح لها سانت بيف فى دراساته . وكذلك لن نبطل نظرية تطور النوع الأدبى ، فما من شك فى أن الأنواع الأدبية تتطور من عصر إلى عصر ، وقد يتولد بعضها من بعض فيظهر نوع أدبى جديد لا سابقة له فى الظاهر ، ولكن إذا تعمقنا فى الدرس وجدناه قد نشأ من نوع آخر مغاير له ، على نحو ما يلاحظ ذلك مَنْ يدرس فن المقامة فى العصر العباسى ، فإنها فى رأينا تولدت من فن الأرجوزة وما ابتغى به أصحابه فى العصر الأموى عند رؤبة ونظرائه من تعليم الناشئة والموالى ألفاظ اللغة العربية الغريبة وتراكيبها العويصة . فاقتران هذه الغاية بالأرجوزة يلفتنا إلى نفس الغاية فى المقامة عند بديع الزمان والحريرى وما بين الفنين من صلات وروابط . ولابد أن نستضىء فى أثناء ذلك بدراسات النفسيين والاجتماعيين وما تلقى من أضواء على الأدباء وآثارهم . وبجانب ذلك لابد أن نقف

عند أساليب الأدباء وتشكيلاتهم اللفظية وما تستوفى من قيم جمالية مختلفة ، ولا بد من المقارنة بين السابق واللاحق فى التراث الأدبى العربى جميعه .

٣

تقسيمات تاريخ الأدب العربى وعصوره

أكثر من أرخوا للأدب العربى وزعوا حديثهم فى هذا التاريخ على خمسة عصور أساسية ، هى (١) عصر الجاهلية أو ما قبل الإسلام (٢) والعصر الإسلامى من ظهور الرسول صلى الله عليه وسلم إلى سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م وهو العصر الذى تكونت فيه الدولة العربية وتمت الفتوح الإسلامية . ومن المؤرخين من يقسم هذا العصر قسمين ، فهو إلى نهاية عصر الخلفاء الراشدين يسمى عصر صدر الإسلام ، وما يليه إلى آخر الدولة الأموية يسمى العصر الأموى . (٣) والعصر الثالث هو عصر العباسيين أو العصر العباسى ويستمر إلى سقوط بغداد فى يد التتار سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م. ويقسم بعض المؤرخين هذا العصر قسمين : العصر العباسى الأول ويمتد نحو مائة عام ، والعصر العباسى الثانى ويستقل ببقية العصر . ومن المؤرخين من يقسمه ثلاثة أقسام ، يبقى فيها على القسم الأول بنفس الاسم ، أما العصر العباسى الثانى فيقف به عند سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م وهى السنة التى استولى فيها بنو بويه على بغداد والتى أصبحت الخلافة العباسية منذ تاريخها اسمية فقط ، ويمتد العصر العباسى الثالث إلى استيلاء التتار على بغداد . وقد يقسم بعض المؤرخين هذا العصر العباسى الثالث قسمين ، فيقف بالقسم الأول عند دخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ويستقل القسم الثانى أو العصر العباسى الرابع ببقية العصر . (٤) وباستيلاء التتار على بغداد يبدأ العصر الرابع ويستمر إلى نزول الحملة الفرنسية بمصر سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م (٥) ثم العصر الحديث الذى يمتد إلى أيامنا الحاضرة .

وسنبقى فى كتابنا على العصرين الأولين ، أما العصر الثالث وهو العصر العباسى فسندخل عليه بعض التعديل ، وذلك أننا سنبقى على قسمين منه : عصر عباسى أول ينتهى بانتهاء خلافة الواثق سنة ٢٣٢ هـ ؛ وعصر عباسى ثان ينتهى باستيلاء

البويهيين على بغداد سنة ٣٣٤ هـ . ومن هذا التاريخ إلى نهاية العصور الوسطى نبتدئ عصراً رابعاً نمده إلى العصر الحديث وهو عصر الدول والإمارات ، فقد تفككت أوصال الدولة العباسية وظهرت إمارات وخلافات ودول كثيرة كإمارات الفرس فى إيران وما وراءها وسيف الدولة الحمدانى فى حلب والفاطميين ثم الأيوبيين والمماليك والعثمانيين فى مصر والأمويين ثم ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين ومن خلفوهم فى الأندلس . وحرىّ أن يبحث الأدب العربى فى هذا العصر الرابع ويؤرّخ فى كل إقليم على حدة ، فيكون هناك جزء لإيران والعراق وجزء لمصر والشام والجزيرة العربية وجزء للأندلس وبلاد المغرب ، وقد ينمو البحث وتتولد أجزاء أخرى ، حتى إذا انتهينا من ذلك أرخنا للعصر الخامس وهو العصر الحديث وقسمناه بدوره أجزاء على البلاد العربية .

ولا أشك فى أن هذا التقسيم الجديد لعصور الأدب العربى أكثر دقة ومطابقة لتطوره وللظروف المختلفة التى أثرت فيه فإن بغداد لم تعد منذ القرن الرابع الهجرى تحتل المكانة الأولى فى الحركات الأدبية ، بل لقد نافستها فى الشرق والغرب مدن كثيرة تفوقت عليها فى النهوض بالشعر والنثر تفوقاً واضحاً .

الفصل الأول
الجزيرة العربية وتاريخها القديم

١

صفة الجزيرة العربية[١]

تشغل جزيرة العرب الجنوب الغربى لآسيا ، وقد سماها أهلها جزيرة لأن الماء يدور بها من ثلاث جهات فى جنوبيها وغربيها وشرقيها ، فهى شبه جزيرة ، وليس فى الأرض شبه جزيرة تضاهيها فى المساحة . ويرى علماء الجيولوجيا أنها كانت متصلة بإفريقية فى الزمن المتعمق فى القدم ، ثم فصلهما منخفض البحر الأحمر الذى يمتد فى غربيها ، كما يرون أنه كان يغطى جزءاً منها فى العصر الجليدى مروج خضراء ، وكانت تجرى بها بعض أنهار ، ولا تزال تشهد عليها أودية جافة عميقة. ويطلّ عليها فى الجنوب المحيط الهندى وفى الشرق بحر عُمان وخليج العرب. وتترامى متوغلة فى الشمال على حدود فلسطين وسوريا غرباً والعراق وبلاد الجزيرة شرقاً .

وكان جغرافيو اليونان والرومان يقولون إنها ثلاثة أقسام : العربية الصحراوية والعربية الصخرية أو الحجرية والعربية السعيدة . أما العربية الصحراوية فلم يعيّنوا حدودها ولكن يفهم من كلامهم أنهم كانوا يطلقونها على البادية الشمالية التى تصاقب بلاد الشام غرباً وتمتد شرقاً إلى العراق والحيرة . وكانت تقع فى شماليها مملكة تدمر التى حكمتها أسرة الزبّاء المشهورة . وأما العربية الصخرية فكانوا يطلقونها على شبه جزيرة سيناء والمرتفعات الجبلية المتصلة بها فى شمالى الحجاز وجنوبى البحر الميت ، وهى التى أقام فيها النبط مملكتهم واتخذوا مدينة سلع « بطرا »

---

(١) انظر فى صفة الجزيرة العربية كتب الجغرافية العربية و كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على (طبع بغداد) ج ١ ص ٨٦ وما بعدها وكتاب تاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى (الترجمة العربية) ج ١ ص ١٥ ومابعدها وكتاب «قلب جزيرة العرب» لفؤاد حمزة

حاضرة لهم ، وامتدت هذه المملكة فى عهد الحارث الرابع أوائل القرن الأول للميلاد إلى دمشق ، غير أن الرومان استولوا عليها سنة ١٠٦ م . أما العربية السعيدة فكانت تشمل وسط الجزيرة وجنوبيها ، أو بعبارة أخرى كل ما وراء القسمين الأول والثانى .وربما دل ذلك من بعض الوجوه على أن هذا القسم الثالث كان يدين بالولاء للدول الجنوبية مثل معين وسبأ .

ويقسم جغرافيو العرب الجزيرة إلى خمسة أقسام ، هى : تِهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن ، وتِهامة هى المنطقة الساحلية الضيقة المطلة على بحر القُلْزُم أو البحر الأحمر . وتسمى فى الجنوب باسم تِهامة اليمن ، وقد يبلغ عرضها فى بعض الأمكنة خمسين ميلا ، وكان العرب القدماء يسمونها الغَوْر لانخفاض أرضها ، وهى أرض رملية شديدة الحرارة ، وقد قامت بها بعض المرافئ والثغور مثل الحديّدة فى اليمن ومثل جدة وينبع فى الحجاز . ويقع فى شماليهما ثغر صغير يعرف باسم الوجه ، ويظن أنه كان ثغر مدينة الحِجْر المعروفة الآن باسم مدائن صالح . وفى جنوبى الوجه قرية الحوراء وربما كانت هى الموضع الذى أرسى فيه إليوس جالوس القائد الرومانى بجيوشه سنة ٢٤ ق .م وهى الغزوة التى أراد بها أن يفتح بلاد اليمن وباءت بالفشل الذريع .

وتمتد فى شرقى تِهامة سلسلة جبال السَّراة من الشمال إلى الجنوب فاصلة بينها وبين هضبة نجد ومؤلفة إقليم الحجاز المعروف ، وتكثر فى هذا الإقليم الأودية والمناطق البركانية ، والحرّات وهى أراض رملية تعلوها قمم البراكين . وإذا وجدت فى هذه الأراضى آبار وعيون آذنت بالخصب وقيام القرى الكبيرة مثل المدينة أو يثرب ووادى القُرى فى شماليها وهو يقع بينها وبين العُلا وكانت تسمى قديماً دادان . ومن مدن هذا الوادى قُرْح وكانت تقام بها سوق عظيمة فى الجاهلية ومدينةُ الحِجْر أو مدائن صالح وقومه من ثمود . ونزل اليهود ببعض قرى هذا الوادى مثل خَيْبر وفَدك ، وامتدوا إلى تَيْماء فى الشمال ويثرب فى الجنوب . وكان ينزل فى هذه الجهات قبل الإسلام قبائل عُذْرة وبَلِيّ وجُهَيْنة ، وقُضاعة وكانت تمتد عشائرها إلى شبه جزيرة سيناء. وعثر المنقبون فى وادى القرى على نقوش عربية جنوبية وأخرى شمالية كالثمودية واللِّحْيانية. وأهم مدن الحجاز مكة واسمها

عند بطليموس مكربا (Macoraba) وكانت قبل الإسلام تمسك بزمام القوافل المصعدة إلى البحر الأبيض والمنحدرة إلى المحيط الهندى، وكان بها الكعبة بيت أصنامهم حينئذ فكان العرب يحجون إليها ويتّجرون فى أسواقها ويبتاعون ما يحتاجون إليه . وعلى بعد خمسة وسبعين ميلا إلى الجنوب الشرقى من مكة تقع الطائف، وقد أقيمت على ظهر جبل غَزْوان، وتحف بها أودية وآبار كثيرة أتاحت للمملكة النباتية أن تزدهر هناك من قديم ، وقد عُثر فيها على نقوش ثمودية .

وينبسط الحجاز شرقاً فى هضبة نجد الفسيحة التى تنحدر من الغرب إلى الشرق حتى تتصل بأرض العَروض وهى بلاد اليمامة والبحرين . ويسمى العرب جزءها المرتفع مما يلى الحجاز باسم العالية ، أما جزؤها المنخفض مما يلى العراق فيسمونه السافلة، بينما يسمون شرقيها إلى اليمامة باسم الوشوم وشماليّها إلى جبلى طيئ: أجأ وسلمى باسم القَصيم، وهو عندهم الرمل الذى ينبت الغَضا وهو ضرب من الأثل، وإليه يُنْسَبُ أهل نجد فيسمون أهل الغضا. وشمالى نجد صحراء النفود وهى تشغل مساحة واسعة ، إذ تبتدئ من واحة تيماء وتمتد شرقاً نحو ٣٠٠ ميل وتزخر بكثبان من الرمال الحمراء ، تتخللها مراع فسيحة . وإذا اقتربت من العراق مدت ذراعاً لها نحو الجنوب، فتفصل بين نجد والبحرين متسمية باسم الدهناء أو رملة عالج وهى منازل قبيلتى تميم وضبّة فى الجاهلية والإسلام، حتى إذا أحاطت باليمامة انبطحت فى الرُّبْع الخالى وهو صحراء واسعة قاحلة يظن أنها تبلغ نحو خمسين ألف ميل مربع ،وهى تفصل بين اليمامة ونجد من جهة وبين عُمان ومَهرة والشِّحْر وحضرموت من جهة ثانية ، وتندمج فيها صحراء الأحقاف التى تمتد إلى الغرب فاصلة اليمن من نجد والحجاز . وهذه الصحارى التى تطوق نجداً فى الشمال والشرق والجنوب قفار متسعة ،وخيرها القسم الشمالى إذ تكسوه الأمطار فى الشتاء حلة قشيبة من النباتات والمراعى . ووراء هذا القسم فى الشمال بادية الشام وهى كثيرة الأودية والواحات وبادية العراق أو بادية السماوة ، وواضح أنهما لا تعدان من نجد .

وتشمل العروض اليمامة والبحرين وما والاهما . وعَدّ ياقوت فى معجم البلدان اليمامة من نجد ، وكانت عند ظهور الإسلام عامرة بالقرى، مثل حِجْر وكانت حاضرتها ، ومثل سدوس ومنفوحة وبها قبر الأعشى ، ويقال إنها كانت موطن

قبيلتى طَسْم وجديس البائدتين . وقد عُثر فيها على نقوش سبئية متأخرة . وتمتد البحرين من البصرة إلى عُمان وبها كانت تنزل قبيلة عبد القيس فى الجاهلية ، وهى تشمل الآن الكويت والأحْساء وجزر البحرين وقطر . وتكثر فى هذا الإقليم الآبار والمياه وخاصة فى الأحساء ، ومن مدنه القديمة هَجر وفى أمثالهم «كجالب التمر إلى هجر» ، والقَطيف وكانت تسمى أيضاً الخطّ وإليها تنسب الرماح الخطية . وفى جنوبى البحرين عمان ومن مدنها صُحار ودَبا وكان بها سوق مشهورة فى الجاهلية . وعُرف سكان هذه المنطقة من قديم بالملاحة واستخراج اللآلئ .

أما القسم الخامس من الجزيرة وهو اليمن فيطلق على كل الجنوب ، فيشمل حَضْرموت ومَهْرة والشِّحْر ، وقد يطلق على الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة ، وهو الإطلاق المشهور الآن . وتتألف اليمن من أقسام طبيعية ثلاثة : ساحل ضيق خصب هو تِهامة اليمن وجبال موازية للساحل هى امتداد سلسلة جبال السراة ثم هضبة تفضى إلى نجد ورمال الربع الخالى ، وبها كثير من الأودية والسهول والثمار والزروع بفضل أمطار الرياح الموسمية الغزيرة وقد وصفها القرآن الكريم بأنها «جنَّتان عن يمين وشمال» . وأتاح ذلك لسكانها أن يقيموا فيها دولا وحضارة منذ أواخر الألف الثانى قبل الميلاد إلى أوائل القرن السادس الميلادى . ويسمى قسمها الشمالى المجاور للحجاز باسم عَسير ، وكانت تنزله قبيلة بَجيلة فى الجاهلية ومن أشهر مدن اليمن زَبيد وظَفار وصنعاء وعدن ونَجْران . ومن أشهر وديانها تَبالة وبيشة وكانت به مأسدة . وتمتد شرقى اليمن حضرموت على ساحل بحر العرب ، فإقليم مهرة ، والشِّحْر ومعناه فى اللغة الجنوبية الساحل ، وتنمو فى جباله أشجار الكُنْدُر وهو اللُّبان الذى اشتهر به جنوبىّ بلاد العرب فى الجاهلية .

ومناخ الجزيرة فى جملته حار شديد الحرارة ، وتكثر فى نجد رياح السموم التى تهب صيفاً ، فتشوى الوجوه شيًّا ، وألطف رياحها الرياح الشرقية ويسمونها الصَّبا ، وأكثرَ شعراؤهم من ذكرها . أما ريح الشمال فباردة وخاصة فى الشرق إذ تتحول إلى صقيع فى كثير من الأحيان . والأمطار عامة قليلة إلا فى الجنوب حيث تهطل أمطار الرياح الموسمية فى الصيف ، وإلا فى الشمال الغربى حيث تهطل أمطار الرياح الغربية شتاء . وكثيراً ما يتحول المطر إلى سيول جارفة فى اليمن وشمالى الحجاز ؛ وقد

وصف امرؤ القيس فى معلقته سيلا جارفاً حدث بالقرب من تيماء حيث كانت منازل بنى أسد . وتقل الأمطار فى الداخل ولقلّتها سموها غَيْثاً وحَياً (من الحياة) واستنزلها الشعراء على ديار معشوقاتهم وقبور موتاهم . ومتى احتبست الأمطار جفت الأرض وأجدبت وحلّ الهلاك والفناء على القطعان والرِّعاء . ولطول ما كان يحدث لهم من ذلك سموا الجدب سنة ، فيقولون : أصابتنا سنة أتت على الأخضر واليابس . ومن أجل ذلك كثرت عندهم الرحلة فى طلب العُشْب والكلأ ، فترحل القبيلة بإبلها وأغنامها إلى مراع جديدة . وليس فى الجزيرة بحيرات إلا ما يقال من أن هناك بحيرة مالحة فى الرّبْع الخالى . وليس بها كذلك غابات ولا أنهار جارية .

وفى الجنوب والشرق وقرى الحجاز واليمامة تكثر الزروع والثمار وتتناثر بعض الفواكه ، وقد اشتهرت اليمن وما والاها قديماً بأشجار اللبان والطيب والبخور ، كما اشتهرت حديثاً بأشجار البن ، وتشتهر الطائف بالكروم . ولم يكونوا يعتمدون عليها وحدها فى الخمر بل كانوا يعتمدون أيضًا على مدن الشام . والنخلة أهم الأشجار فى الجزيرة كلها . ويتردد على ألسنة الشعراء نجد ذكر طائفة من الأزهار على رأسها العَرار والخُزَامى وطائفة من الأشجار على رأسها الغَضا والأَثْل والأَرْطى والسِّدْر (الطَّلح) والحنظل والضَّال والسَّلَم .

أما الحيوان فقد صور شعراؤهم كثيراً من أليفه مثل الخيل والإبل والأغنام ووحشيِّه مثل الأوعال والظباء والنعام والغزال والزراف وحمار الوحش وأتُنه وثور الوحش وبقره ومثل الأسد والضبع والذئب والفهد والنمر . ودارت الطيور الجارحة على ألسنتهم مثل الحدأة والصقر والنسر والغراب . وقلما وصفوا منهلا دون أن يذكروا القَطَا وهو يشبه الحمام . وذكروا كثيراً الجراد ، وتحدثوا عن النَّحْل واشتهرت به هذيل التى كانت تعنى ببيوته وخلاياه . ومن زواحفهم الثعبان والعقرب والوَرَل والضبّ ، وفى أمثالهم : « أعقد من ذنب الضبّ » .

٢

الساميون[١]

تطلق كلمة الساميين على مجموعة من الشعوب فى الشرق الأوسط دلت القرابة بين لغاتها على أنها كانت فى الأصل تتكلم بلهجات متقاربة تطورت إلى لغات سمِّيت جميعاً باسم السامية أخذاً من اسم سام بن نوح الذى ورد ذكره فى التوراة ، وهى تسمية اصطلاحية ، فليس هناك أمة تسمى بالأمة السامية إنما هناك صلات لغوية بين طائفة من اللغات تدل على أنها ترجع إلى أصل لغوى واحد ؛ إذ تتشابه فى أصول أفعالها وأزمانها وفى كثير من أصول الكلمات والضمائر والأعداد . وقد قسمها علماء اللغات إلى شمالية وجنوبية وقسموا الشمالية إلى شرقية وغربية ، أما الشرقية فاللغة الأكدية (البابلية والأشورية) وأما الغربية فاللغة الأوجريتية (لغة نقوش رأس شمرا) والكنعانية (الفينيقية والعبرية والمؤابية) ثم الآرامية . وقسموا الجنوبية إلى عربية شمالية وهى الفصحى وعربية جنوبية وهى لغة بلاد اليمن وما والاها فى الزمن القديم ، ثم الحبشية .

وتساءل العلماء عن المهد الأصلى لأسلاف الناطقين بهذه اللغات السامية المختلفة ، وتعددت إجاباتهم فى هذا الصدد ، فمن قائل إنهم نشأوا مع الحاميين فى موطن واحد ، لعله فى شمال إفريقية أو فى ناحية الصومال ، ومنه هاجر الساميون إلى بلاد العرب عن طريق باب المندب أو عن طريق شبه جزيرة سيناء . ومن قائل إنهم نشأوا مع الآريين فى أواسط آسيا أو فى أرمينية ، ومن قائل إنهم نشأوا فى شمالى سوريا . ومن قائل إنهم نشأوا فيما بين النهرين . ومهما يكن المهد القديم لأصل نشأتهم الذى يتعمق فى عصور ما قبل التاريخ فإن الباحثين يتفقون على أن موطنهم فى العصور التاريخية هو الجزيرة العربية ؛ فقد نزلوا بها واستقروا فيها

---

(١) راجع فى الساميين وموطنهم الأول وأسرهم تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ج ١ ص ١٤٨ وما بعدها وتاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى ج ١ ص ٨ وما بعدها ومقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة لطه باقر (الطبعة الثانية) ج ١ ص ١١٥ وما بعدها و ج ٢ ص ٢٣٢ – ٣٠٦ .

وعاشوا حياة مشتركة اكتسبوا خلالها هذا التشابه فى لغاتهم .

ودفعهم جدْب الجزيرة وخصب ما حولها من العراق والشام واليمن إلى الهجرة فى موجات يتلو بعضها بعضاً فى فترات متباعدة وكأنما كانت الجزيرة تشبه خزاناً كبيراً يفيض على ما حوله فى الحين بعد الحين . وأول موجة فاضت من هذا الخزان موجة الأكديين (البابليين والأشوريين) خرجت من الجزيرة إلى العراق فى أواخر الألف الرابع ق . م وأوائل الثالث فوجدت هناك السومريين وقد عاشوا مدة تحت حكمهم ، تأثروا فيها بلغتهم ودينهم وعاداتهم وكل ما سبقوهم إليه فى الحضارة والعمران . ولا نمضى طويلا فى النصف الثانى من الألف الثالث ق.م حتى نجدهم يقيمون مملكة لهم يتخذون حاضرتها مدينة أكّد كان أهم ملوكها سرجون الأول (فى حدود ٢٣٥٠ ق.م) الذى مد فتوحه حتى وسعت دولته العراق والجزيرة والشام ، فكانت تلك أول دولة سامية عُرفت فى الشرق الأوسط . ولم تلبث أن انهارت ، فقامت على أنقاضها دويلات مستقلة ، وتقدمت دولة بابل فى أوائل الألف الثانى ق . م فأعادت الأمور إلى نصابها ، ومن أشهر ملوكها حمورابى الذى تولى الملك فى القرن الثامن عشر ق.م وكان سياسيًّا ومشرعاً عظيماً، واشتهر بين المؤرخين بمسلته التى سجل عليها فى ثلاثمائة سطر شريعته ، وهى تصور تصويراً دقيقاً القانون البابلى القديم . وامتازت هذه الدولة بشخصية سامية حية ، فقد ازدهر القانون فى عهدها وازدهر الأدب بفرعيه من الشعر والقصص . على أننا لا نمضى طويلا حتى تفد أمم غير سامية من الشرق — هم الكشيون — فتخرِّب بابل ؛ ولا يلبث الحيثّيون وهم من أمم آسيا الصغرى أن يقضوا عليها فى أوائل القرن السادس عشر ق.م. وبينما كانت بابل تعانى من الكشيين والحيثيين كان إخوانهم الذين هاجروا معهم من الجزيرة العربية ويمموا نحو الشمال فيما بين النهرين وهم الأشوريون ينهضون ، ومعنى ذلك أنهم من نفس الموجة الأكدية . وتاريخهم يتضح منذ القرن الرابع عشر ق.م وقد اتخذوا نينوى فى بعض عصورهم حاضرة لهم ، وكانت دولتهم حربية عسكرية ، واستعمروا الشام وآسيا الصغرى واستولوا على بابل وحاربوا مصر . ولغتهم الأشورية تخالف البابلية فى بعض خصائصها ، وقد ازدهرت فى عهدهم علوم الطب والفلك والرياضيات كما ازدهرت فنون الأدب. ولا نصل إلى القرن السابع ق.م

حتى تنهكهم حروبهم ، ويهجم عليهم الميديون من هضبة إيران ، ويستولوا على حاضرتهم نينوى . فتستقل عنهم بابل وتقوم بها الدولة البابلية الحديثة أو دولة الكلدانيين (٦٢٦ — ٥٣٨ ق.م) الذين اشتهروا بإتقانهم لعلم الفلك كما اشتهر ملكهم بختنصر بتخريبه لبيت المقدس . وسرعان ما يقضى عليهم الفرس بقيادة كورش سنة ٥٣٨ ق.م ويخضعون لدولتهم المعروفة بالكيانية . ويدور الزمن دورة وإذا الإسكندر المقدونى فى القرن الرابع ق . م يستولى على الشرق الأوسط ، وبذلك ينتهى تاريخ هذه الموجة السامية القديمة موجة الأكديين من بابليين وأشوريين .

والموجة السامية الثانية التى خرجت من الجزيرة العربية هى موجة الكنعانيين . وقد بدأت فى خروجها منذ أوائل الألف الثانى ق. م ويممت الشام وسواحل البحر الأبيض الشرقية ، وأسست هناك مدناً تجارية مثل صَيْدا وصور وجُبَيْل وبيروت . وكان اليونان يسمون أهل السواحل من هذه الموجة باسم الفينيقيين ، وقد أسسوا لهم مستعمرات فى إفريقية وآسيا الصغرى والأندلس وهم الذين اخترعوا الخط الأبجدى وعنهم انتشر فى العالم . ومن هذه الموجة الأوجريتيون الذين تغلغلوا فى شمالى سوريا وقد وصلتنا عنهم نقوش رأس شمرا فى شمالى اللاذقية وفيها شعر وحكم . ومن هذه الموجة أيضاً المؤابيون الذين استقروا فى شرقى الأردن وأسسوا به مملكة فى القرن العاشر ق . م ، وكذلك منها العبريون الذين استقروا فى فلسطين منذ القرن الثالث عشر ق.م وقد استولى الأشوريون على مملكتهم الشمالية فى القرن السابع ق.م. وهدم بختنصر ملك بابل حاضرتهم أورشليم فى القرن السادس ق.م وأجْلَى سكانها إلى بابل . ولا تلبث الآرامية أن تغلب على لغتهم ، إلا أنهم ظلوا يحافظون عليها فى تعاليمهم الدينية وفى بعض كتاباتهم .

والآراميون هم ثالث الموجات السامية الكبيرة التى خرجت من الجزيرة العربية قبل الميلاد ، وقد بدأ خروجهم منذ منتصف الألف الثانى ق.م. والمظنون أنهم كانوا بدواً رحّلا يتنقلون شمالى صحراء النفود فى باديتى الشام والعراق ويتغلغلون إلى خليج العقبة غرباً وجنوبى الفرات شرقاً . وقد استطاعوا أن يكوّنوا لهم إمارة بين بابل والخليج العربى ، عرفت باسم كلد ومنها أخذ اسم الكلدانيين . ونراهم فى القرن الثالث عشر ق.م ينزحون إلى أراضى الرافدين دجلة والفرات فى الشمال ، ويعرف

هؤلاء النازحون باسم آرام النهرين . ولا نلبث أن نراهم فى القرنين الحادى عشر والعاشر ق.م يبلغون أوج قوتهم فيغيرون على شمالى الشام ويكونون به دويلات صغيرة بين حلب وجبال طوروس ، وقد استولوا على دمشق وأسسوا بها مملكة اشتبكت فى حروب طويلة مع الفينيقيين والعبريين . وكان لها دور مهم فى شئون التجارة فقد كانت قوافلها الصلة بين العراق والشام وآسيا الصغرى . وكانت تلتقى فى شمالى الحجاز بقوافل اليمن وقوافل الثموديين من الحجازيين . وظلت للآراميين هذه الأهمية التجارية بعد سقوط دويلاتهم ، فإنها سرعان ما سقطت إذ لم تكن تجمعها وحدة سياسية تشد من أزرها أمام هجمات الأشوريين ، فقضوا عليها واحدة بعد أخرى. وقد أخذوا عن الفينيقيين أبجديتهم بسبب اختلاطهم بهم فى التجارة وكتبوا بها لغتهم . ولما سقطت دويلاتهم تفرقوا فى ممالك غربى آسيا . فكان ذلك سبباً فى انتشار لغتهم وثقافتهم وحضارتهم . إذ وجدت أمم العراق وإيران سهولة فى أبجديتهم ، مما جعل الدولة الكيانية تتخذها إحدى لغاتها الرسمية . وقد أصبحت اللغة اليومية للأشوريين والبابليين والعبريين والفينيقيين ، وربما كان من الأسباب الممهدة فى ذلك سهولة نحوها بالإضافة إلى سهولة أبجديتها . وتقوم الحرب بين الفرس والروم ويتخذون من بلادهم ميداناً لها ، فيتأثرون بحضارتيهما ، وبذلك أصبحوا ورثة الحضارات القديمة فى هذا المحيط : الحضارة الفارسية والرومانية والبابلية والأشورية والفينيقية. وقد كُتبت الأناجيل بالآرامية إذ كان يستخدمها حواريو المسيح كما كتبت بها معظم المؤلفات الدينية للكنائس الشرقية ، ولها لهجات عدة ، أهمها اللغة السريانية التى كانت منتشرة فيما بين النهرين ، وقد اتخذتها المسيحية لغة أدبية لها ، وهى اللغة التى كان يدرس بها الطب والعلوم الطبيعية بجانب اليونانية فى مدارس الرُّها فيما بين النهرين ومدرسة جُنْدَيْسابور الفارسية وغيرهما . ومن لهجاتها أيضاً لهجة الصابئة فيما بين النهرين . وقد ظلت بلهجاتها المختلفة لغة حية فى الشرق الأوسط إلى أن جاء الإسلام فقضت عليها وعلى لهجاتها لغةُ القرآن الكريم . وإن ظلت معروفة فى بعض البيئات .

والموجة السامية الأخيرة هى موجة العرب الجنوبيين وما تفرع عنها من موجة حبشية ، وقد بدأت فى أواخر الألف الثانى ق.م متجهة إلى الجنوب وساحل المحيط

الهندى . ويظهر أن جماعات ممن نزلت فى تهامة اليمن هاجرت إلى السواحل الإفريقية ، بقصد التجارة وتغلغلت فى هضبة الحبشة وكونت هناك مملكة ، نشبت بينها وبين العرب الجنوبيين سلسلة من الحروب انتهت بقضائها على دولتهم فى سنة ٥٢٥ م . وقد اعتنق حكامها المسيحية منذ القرن الرابع الميلادى .

٣

العرب الجنوبيون(١)

تقسم الظروف الطبيعية بلاد العرب قسمين كبيرين ، تفصل بينهما صحراوات واسعة ، تجعل حياة كل منهما تختلف عن الأخرى . فبينما تحضر الجنوبيون كان الشماليون فى الحجاز ونجد يعيشون معيشة بدوية ، إذ كانوا فى الجملة بدواً رُحّلا ينتقلون وراء مساقط الغيث ومواضع العُشْب والكلأ . ونشأت عن ذلك فروق واسعة بين القسمين المتناقضين فبينما ظل الشماليون يحيون فى الغالب حياة بدوية إلا ما تسرب إليهم من الحضارات الأجنبية المجاورة فى العراق والشام نهض الجنوبيون بحضارة لا تزال حصونها وهياكلها وقلاعها وأبراجها قائمة لم تندثر اندثاراً تامًّا . وقد استطاعوا أن يَشيدوا سَدّ مأرب لحبس الماء فى فصل الأمطار ، مما يدل على أنه كان لديهم نظام محكم لتدبير شئون الزراعة وتوزيع المياه ، فقد أقاموا السدود والصهاريج ، وكانت أرضهم مهيأة لتزدهر فيها حياة نباتات وأشجار واسعة بفضل مياه الأمطار الموسمية وطرق الرى الصناعية . ونشأت بينهم وبين بلاد العراق والشام ومصر علاقات تجارية واسعة فقد كانت قوافلهم تجوب الصحراء العربية شرقاً وشمالا منذ الألف الثانى ق . م تحمل توابل الهند ورقيق إفريقية وأفاويه اليمن وعُروضها من اللُّبان والطيب والبخور وتعود محمَّلة بعُروض البلاد التى تتجر فيها .

---

(١) انظر فى أصل تسمية العرب باسمهم كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ١/١٦٩ وراجع فى تاريخ العرب الجنوبيين كتاب التاريخ العربى القديم لطائفة من المستشرقين ترجمة فؤاد حسنين على (نشر وزارة التربية والتعليم) وانظر تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ١/٣٧٥ ، ٢/٨ – ٢٧٦ ، ٣/١٣٦ – ٢١٤ .

وكان المعروف عن هؤلاء العرب الجنوبيين قليلا ، فهو لا يتجاوز إشارات وردت عنهم فى العهد القديم وفى بعض الآثار المصرية والبابلية والأشورية وفى كتابات المؤرخين والجغرافيين من اليونانيين والرومانيين ، ثم ما كتبه العرب عنهم بعد الإسلام ، وتختلط به الأساطير . وظل تاريخهم غير واضح إلى أواسط القرن الماضى ، فقد جد علماء الغرب فى قراءة نقوشهم المنثورة على الأبراج والهياكل والنُّصُب والأحجار ، وهى مكتوبة بخط يسمى الخط المُسْنَد . وهو خط سامى قديم ، وقد عرف هؤلاء العلماء اللغة التى كتبت به ولهجاتها ، فهى لغة سامية قريبة من الحبشية والعربية الشمالية ، انبثقت فيها لهجتان أساسيتان هما المعينية والسبئية .

ومن هذه النقوش استطاع الباحثون أن يعرفوا الحضارة العربية الجنوبية بدياناتها وآلهتها وأنظمتها الحكومية ودولها وملوكها ، واستقر بينهم أنه كانت هناك خمس ممالك هى مملكة مَعين وكانت حاضرتها معين فى الجوف اليمنى ثم مملكة سبأ فى جنوبيها وعاصمتها مأرب ، ومملكة قتَبان فى الجنوب الغربى لسبأ وعاصمتها تِمْنَع . والمملكة الأوْسانية جنوبى قتبان ، ثم مملكة حضرموت وحاضرتها شَبْوة . ويظهر أنه كان للمعينيين دولة قوية منذ القرن العاشر ق.م وقد سيطروا على القتبانيين والحضرميين ، أو بعبارة أدق سيطروا على طريق القوافل التجارية لا فى الجنوب فحسب ، بل أيضاً على طول الطريق إلى الشمال ، فقد وجدت نقوش معينية فى شمالى الحجاز بدادان فى منطقة العُلا الحالية وفى الحِجْر أو مدائن صالح ، مما يدل على أنهم أنشأوا فى هذه الجهات مراكز لقوافلهم التجارية كى تحميها ، وأغلب الظن أنه كان لهم بها حاميات نزلت بها بعض عشائرهم . ومع مرور الزمن غلبت عليهم طوابع العرب الشماليين . فكانوا بذلك أول من حمل الحضارة الجنوبية إلى إخوانهم فى الشمال .

ولا نصل إلى القرن السابع ق.م. حتى يغلب السبئيون على المعينين ويمدوا سلطانهم بعد ذلك على الاتحاد الجنوبى كله ، كما يمدونه على مراكز المعينيين فى الشمال ، وقد تحولت إلى أيديهم أزمة القوافل التجارية ، واتخذوا مأرب حاضرة لهم ، وقصة سدّها وخرابه مشهورة ، وكذلك قصة ملكتها بلقيس مع سليمان عليه السلام . وحدث حوالى سنة ٢٧٠ ق.م أن أنشأ بطليموس الثانى أسطولا بحرياً فى البحر الأحمر يحمل إلى مصر عُروض الهند وإفريقية الشرقية فأحدث ذلك اضطراباً فى

شئون السبئيين الاقتصادية، ونازعهم ملوك رَيْدان أصحاب ظَفار وغلبوا عليهم وعلى الدول الجنوبية منذ سنة ١١٥ ق.م. وكانوا يتلقبون باسم ملوك سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمنات ، وهم الحميريون . ودولتهم آخر الدول العربية الجنوبية ، ولا نصل إلى سنة ٢٤ ق.م حتى نجد إليوس جالوس والى الرومان على مصر يجهز حملة كبيرة لفتح بلاد الحميريين والاستيلاء على ما بأيديهم من مفاتيح تجارة التوابل والأفاويه ، وفشلت حملته فشلا ذريعاً . غير أن الرومان اتجهوا إلى الملاحة فى البحر الأحمر. ويقال إنهم استولوا على ميناء عدن واتخذوها قاعدة لتموين سفنهم، فشلّوا بذلك تجارة الحميريين وساءت أحوالهم الاقتصادية، فأهملوا شئونهم العمرانية. وأخذ الخراب يدبّ فى البلاد ، وظهر لهم خصم ثان هو ملوك الحبشة الذين حاربوهم واستولوا على بلادهم فى منتصف القرن الرابع الميلادى وظلوا بها نحو عشرين عاماً ، عادت بعدها الدولة الحميرية ، ولكنها لم تعد إلى سابق قوتها ، فإن القبائل الشمالية أخذت تُغير عليها كما أخذ كثير من عشائرها يهاجر إلى الشمال . وفى نقوشهم ما يدل على أن الأعراب نزلوا بديارهم منذ القرن الرابع الميلادى واستقروا فيها ، وقد أخذت لغتهم تتغلب فى بعض الجهات على لغة البلاد الأصلية كما أن من هاجر من عرب الجنوب إلى الشمال غلبت عليه لغة الشماليين ، مما أعد لانتصار العربية الشمالية على العربية الجنوبية فى أواخر العصر الجاهلى .

وفى هذه الأثناء تغلغلت اليهودية فى الجزيرة العربية منذ اضطهد أباطرة الرومان اليهود فى القرن الأول للميلاد . واندفعت بعثات دينية مسيحية إلى الجنوب . واعتنقت مدينة نجران فى القرن الخامس هذا الدين الجديد . وربما كان السبب فى هذه البعثات المنافسة الشديدة بين فارس وبيزنطة . وأفزع ملوك حمير تغلغل النصرانية فى ديارهم ، خوفاً من تحولها إلى البيزنطيين . فناهضوها وأيضاً فإنهم كانوا يخافون من ملوك الحبشة المسيحيين أن يدخلوا عن طريقها بلادهم . ونشب هناك صراع حاد بين اليهودية والنصرانية . ولا نلبث أن نرى ذا نواس آخر الملوك الحميريين يعتنق اليهودية ويحاول القضاء على المسيحيين فى نجران . فأوعزت بيزنطة إلى النجاشى أن يغزو اليمن . فغزاها سنة ٥٢٥ واستولى عليها وضمها إلى بلاده . وظل هذا الاحتلال الحبشى نحو خمسين عاماً ، ثارت فيها اليمن ثورات عنيفة . وأخيراً استنجد

أهلها بالفرس أعداء بيزنطة . فردوا الأحباش وظلوا بها حتى سنة ٦٢٨ م إذ اعتنق باذان عاملهم الإسلام . وبذلك ينتهى التاريخ القديم للعرب الجنوبيين .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على أن عرب الجنوب لعبوا دوراً واسعاً فى تاريخ الحضارة العربية القديمة . وكانت حضارتهم عربية صافية لم تأتهم من الخارج . بل نمت وتطورت فى الداخل . إذ كان لهم قوانينهم وأنظمتهم ودساتيرهم ، وكان لهم قَدَم راسخة فى عمارة القصور والهياكل وتشييد السدود. وكانوا يؤلهون السيارات الفلكية والنجوم. وأثرت دياناتهم الوثنية فى العرب الشماليين إذ يُظَن أنهم أخذوا عنهم — كما أخذوا عن الآراميين — عبادة الكواكب . وكانت تقوم على أساس ثالوث هو القمر واسمه عند المعينيين وَدّ ، وكان إلههم الأكبر . وتليه الشمس التى اعتبروها زوجه وهى اللات ، ومنهما ولد عثتر أو العُزّى أى الزهرة أو فينوس . وبجانب هذا الثالوث كان عندهم آلهة أخرى ترمز لبعض النجوم أو بعض الطير أو بعض مظاهر الطبيعة ، وكانوا يقدمون لها القرابين ويبنون الهياكل ويقوم عليها كهنة ذوو نفوذ كبير . ويظهر أنه كان لهم أدب دينى كثير . إلا أن الإسلام قضى عليه كما قضى على الأدب الوثنى فى الشمال . وقد حملوا مع قوافلهم وهجراتهم دينهم وحضارتهم إلى العرب الشماليين . فأثروا فيهم آثاراً بعيدة . وظلوا حتى ظهور الإسلام يشكلون عنصراً مبايناً لهم ، على الأقل من حيث النَّسَب ، فكانوا يُدْعَوْن القحطانيين أو اليمنيين ، بينما دُعى عرب الشمال باسم العدنانيين أو النزاريين . ويلاحظ أن قبائلهم المهاجرة اختارت فى الأكثر جوار الأمم المتحضرة ، فنزلت غسان وقضاعة ومن إليهما فى الشام ونزلت لخم فى العراق . ومنهم من نزل فى داخل الجزيرة وأظهر ميلا إلى التحضر والاستقرار كالأوس والخزرج فى المدينة وكندة فى الشمال . على أن من تم منهم اندماجه فى البدو تلاشت فيه هذه النزعة مثل طيئ فى جبلى أجأ وسلمى . ومن يتعقب القبائل القحطانية فى الإسلام يرى أنها كانت تحترم النظام المطلق ، بينما كان يمقته النزاريون .

٤

العرب الشماليون[١]

هم العرب العدنانيون الذين كانوا يسكنون فى الحجاز ونجد وتمتد عشائرهم وقبائلهم إلى باديتى الشام والعراق ، وقد ظلوا يعيشون معيشة صحراوية بدوية تعتمد فى أكثر الأحيان على رعى الإبل والأغنام . ولم تهيئ لهم هذه الحياة الاستقرار فى سكنى دائمة ، إلا حيث توجد بعض الواحات فى الحجاز . ويظهر أنهم أنشأوا فى بعض الأزمنة مملكة لهم بالجوف (دُومة الجندل) فى أقصى الشمال بين العراق والشام ، وقد خضعت لنفوذ الأشوريين إذ نرى ملوكهم يفخرون بالانتصار عليها كما نراهم يفخرون بالانتصار على الثموديين فى شمالى الحجاز حيث كانوا يقيمون فى العُلا والحِجْر (مدائن صالح) . وقد اتخذ نابونيد آخر ملوك دولة بابل الثانية أو الحديثة تيماء حاضرة له من سنة ٥٥٠ إلى سنة ٥٤٥ ق.م مما يدل على أنه كان بها حضارة زاهية .

وكل الدلائل تدل على أن العرب الشماليين لم يتجمعوا قبل الميلاد فى وحدة سياسية تجمع شملهم ، فقد كانت طبيعة بلادهم تدفعهم إلى التشتت والتفرق والانقسام ، ولم يهتدوا فى أثناء ذلك بهدى كهدى الإسلام يجمع كلمتهم ويؤلف بينهم ، ويجعل منهم دولة واحدة ، تلعب دوراً واضحاً فى التاريخ القديم . وقد كشفت نقوش آرامية فى تيماء الواقعة شمالى مدائن صالح تدل على أنه قامت فيها مستعمرة آرامية تجارية فى القرن الخامس ق.م . وكان للمعينيين مستعمرة فى ناحية « العُلا » شمالى الحجاز ، كُشفت فيها نقوش معينية كثيرة ، وكانت تسمى معين مُصْران ، وكان سكانها من عرب الجنوب ، وقد نقلوا إليها عباداتهم وهياكلهم المقدسة ، وما زالوا ناشطين فى التجارة ، حتى نشأت دولة النبط فى سلع « بطرا » ، فكانت هى التى تنقل تجارة الجنوبيين إلى الشام ومصر ، حتى إذا دالت دولتهم فى مستهل القرن الثانى الميلادى حملها اللِّحْيانيون الذين كانوا ينزلون فى دادان (العلا الحالية) .

---

(١) انظر فى تاريخ العرب الشماليين كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ١ / ٢٢٠ - ٣٧٤ ، ٢ / ٢٧٧ وما بعدها ، ٣ / ٥ ومابعدها ، ٣ / ٤٢٣ وما بعدها .

واللحيانيون عرب شماليون ، كتبوا نقوشهم بالخط المعينى المسند مما يدل على أثر الجنوبيين فيهم ، ولعلهم كانوا يختلطون بقوم منهم ، وقد كتب الثموديون ، الذين كانوا يقيمون هم أيضًا فى شمالى الحجاز وكانوا عرباً مثلهم ، بهذا الخط الجنوبى ، الذى انتشر إلى منازل العرب فى الصفا بحوران جنوبى دمشق ، مما يؤكد علاقة وثيقة بين هذه الأجزاء وعرب الجنوب حين كانوا يسيطرون على طريق القوافل التجارية من القرن الثامن إلى القرن الثالث ق.م وهو القرن الذى قامت فيه إمارة عربية فى شمالى الجزيرة هى إمارة النبط ، فقد كان أهل هذه الإمارة يأخذون عن الجنوبيين تجارتهم ويحملونها بدورهم إلى الشام ومصر ، واتخذوا « بطرا » حاضرة لهم ، هكذا ورد اسمها عند اليونان ولعله ترجمة لاسمها الذى جاء فى التوراة وهو « سلع » ، وكانت الحِجْر (مدائن صالح) حاضرتهم فى الجنوب بينما كانت بُصْرى حاضرتهم فى الشمال . ويظهر أن قبائل من هؤلاء النبط كانت قد سبقت إلى الإغارة على بلاد الآراميين شمالا ، فتحضرت بحضارتهم واستخدمت كتابتهم الآرامية فى نقوشها ، بينما ظلت تتكلم العربية فى أحاديثها اليومية . وبذلك نلتقى عند هؤلاء النبط بنقوش عربية كتبت بالخط الآرامى على نحو ما التقينا عند اللحيانيين والثموديين بنقوش عربية كتبت بالخط المعينى المسند ، غير أن الخط الآرامى هو الذى انتصر فقد تطورت نقوشه حتى انتهت إلى الخط العربى الذى أشاعه الإسلام .

والمظنون أن الأنباط لم ينزحوا من نجد إلى شمالى الحجاز ، بل نزحوا من بادية الشام ، واستطاعوا أن ينهضوا بحضارة راقية لا تزال تدل عليها آثارهم فى بطرا حاضرتهم الكبيرة . وقد ظلت دولتهم نحو أربعة قرون ، من القرن الثالث ق.م. إلى أوائل القرن الثانى الميلادى ، وكانت العلاقة بينهم وبين البطالسة ثم بينهم وبين الرومان حسنة ، إذ حالفاهم ولم يتعرضا لاستقلالهم حتى كانت الفتنة اليهودية على عهد طيطوس ، فقضى الرومان على استقلالهم وضموا بلادهم إلى دولتهم الرومانية سنة ١٠٦ للميلاد .

وعاد العرب الشماليون إلى الظهور فى مملكة تدمر شمالى بادية الشام فى أثناء القرنين الثانى والثالث الميلاديين ، وكانت السيادة فيها لهم ، غير أن السكان كان

أكثرهم من الآراميين . ووقفت تدمر صامدة خلال المنافسة الشديدة بين روما والفرس لخطة حياد التزمتها ، زادت فى قوتها ومنعتها ، وأصبحت من أهم المراكز التجارية . وبلغ من علو شأنها أن استولى ملكها أذينة على سوريا كلها واعترف به الرومان إمبراطوراً على المشرق ، إلا أنهم عادوا فنكثوا عهودهم فى عهد زنوبيا (الزّباء) إذ حاربوها وقضوا عليها سنة ٢٧٣ م ودمروا تدمر فلم تقم لها بعد ذلك قائمة . وظلت سيرة هذه الملكة وأبيها أذينة فى ذاكرة العرب إلى ما بعد الإسلام ، وإن شابتها الأسطورة وبعدت عن أساسها التاريخى الصحيح .

٥

النقوش ونشأة الكتابة العربية [١]

لا يكاد يخلو حجر فى جنوبى الجزيرة العربية وقلبها وشماليها من نقش تذكارى نقشه كتاب محترفون أو غير محترفين من الرعاة ورجال القوافل ، يذكرون فيه أسماء آلهتهم متضرعين إليها أن تحميهم ، وقد يذكرون ما يقدمون إليها من قرابين ، وقد يكتبونها على قبورهم مسجلين أسماءهم وأسماء عشائرهم وما قام به الميت من أعمال وقد يودعونها بعض قوانينهم وشرائعهم .

ولا تخلو ديار أمة سامية من هذه النقوش التى أتاحت لعلماء الساميات اكتشاف تاريخ هذه الأمم من جهة وقيام دراسة اللغات السامية وخصائصها ومعرفة تطورها ومقارنتها بغيرها من أخواتها من جهة ثانية . وبذلك وقفوا وقوفاً دقيقاً على حقائق هذه اللغات وحضارات أهلها وثقافاتهم ودياناتهم وكل ما اتصل بهم من رقى وتطور على مر العصور والأزمان .

---

(١) انظر هنا كتاب أصل الخط العربى وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام لخليل يحيى نامى (بحث فى مجلة كلية الآداب المجلد الثالث ، العدد الأول) وكتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ج ١ ص ١٠ و ج ٣ ص ٤٢٣ وما بعدها ، ج ٧ ص ٣٦ وما بعدها وكتاب تاريخ الأدب العربى لبلاشير (ترجمة إبراهيم الكيلانى – طبع دمشق) ج ١ ص ٧٠ وما بعدها .

وقد عُرف الأكديون فى العراق بخطهم المسمارى أو الإسفينى ، بينما عرف عرب الجنوب بخطهم المسند . ومنه نشأ الخط الحبشي وخطوط اللهجات العربية الشمالية القديمة وهى اللحيانية والثمودية والصفوية . واللحيانيون – كما قدمنا – قبيلة عربية شمالية ، كانت تسكن فى منطقة العلا ، ونراهم يستعملون « ها » أداة للتعريف بدلا من أل . وقد اختُلف فى تاريخهم ، فمن الباحثين من يرجعهم إلى القرون الأولى ق.م ومنهم من يتأخر بهم إلى ما بعد الميلاد ، بل منهم من يتأخر بهم إلى القرن الخامس إذ ضعفوا وتلاشوا فى قبيلة هذيل . وعدّهم الهمدانى من بقايا جُرْهم . ولعله يشير بذلك إلى صلتهم باليمنيين ويظهر أنهم كانوا يدينون لهم بالولاء . أما الثموديون فيعود تاريخهم إلى ما قبل الميلاد بعدة قرون ، وقد عاشوا إلى ما بعد الميلاد وكانت منازلهم كما مرّ بنا فى الحِجْر (مدائن صالح) وحولها . ويظهر أنهم أصيبوا بكارثة عظيمة ، فثارت بهم بعض الزلازل أو بعض البراكين . وفى القرآن الكريم « فأخذتهم الرَّجْفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين » . وقد خلّفوا كثيراً من النقوش كتبوها بالخط المسند المعينى . وهم مثل اللحيانيين والصفويين كانوا يستخدمون « ها » أداة للتعريف بدلا من أل . وأما الكتابات الصفوية فعُثر عليها فى الحرّة الواقعة بين جبل الدروز وتلول أرض الصفا . وكلمة الصفويين لا تعنى شعباً معيناً أو قبيلة معينة ، إنما هى اصطلاح حديث للدلالة على تلك الكتابات التى عُثر عليها فى تلك الجهات . وقد عُرف من دراستها أنها كتبت بالخط المعينى وأنها لهجة عربية قديمة كالثمودية واللحيانية . وكثير من نقوشها يرجع إلى القرون الأولى للميلاد . ويظهر أن من كتبوها كانوا بين التبدى والتحضر ، فمنهم البدو الرعاة ومنهم الفلاحون ، ولهم قرى ومزارع . وربما كان لهم تجارات .

وهذه النقوش الصفوية والثمودية واللحيانية عربية كما قدمنا برغم أنها كتبت بالخط المعينى الجنوبى ، فخصائصها اللغوية قريبة من خصائص العربية التى نزل بها القرآن الكريم ، وإن اختلفت عنها فى أداة التعريف وفى بعض الصفات اللغوية ، إلا أنها على كل حال تصور طوراً من أطوار اللغة العربية الشمالية . وقد احتوت على كثير من أسماء الرجال وأسماء الآلهة والأصنام .

وبجانب هذه النقوش نجد نقوشاً أخرى بالخط النبطى ، وهى تنتشر فى بطرا

حاضرة ملكهم وما حولها وفى الحجْر حاضرتهم الجنوبية وبُصْرى بحوران فى الشام عاصمتهم الشمالية وما يتصل بهذه الجهات فى شرقى الأردن وجبل الدروز . وقد مر بنا أنهم كانوا الصلة بين العرب الجنوبيين وحوض البحر المتوسط . وبلغ من قوتهم أن كان يخشاهم اليهود وبقية أمم الشام حتى أهل روما كانوا يخشونهم . فعملوا على القضاء على دولتهم حتى تم لهم ذلك كما قدمنا سنة ١٠٦ للميلاد . ولم ينته بذلك تاريخهم . فنقوشهم تستمر إلى القرن الثالث الميلادى . ويظهر أنهم تلاشوا بعد ذلك فى العرب . وكانوا يتكلمون فى أحاديثهم اليومية العربية . إلا أنهم اختلطوا بالآراميين عن طريق التجارة وأخذوا عنهم أبجديتهم أو خطهم وكتبوا به نقوشهم . ولذلك قد يعدهم بعض الباحثين من الآراميين ، ولكن من المتحقق أنهم كانوا عرباً يتخاطبون بالعربية .

ولما سقطت دولتهم وانتشروا فى الحجاز ونجد أخذ شيوخ العرب وأمراؤهم يتخذون خطهم فى كتابة نقوشهم وهجروا الخط اللحيانى والثمودى والصفوى . وسرعان ما تطور هذا الخط النبطى الآرامى إلى الخط العربى الذى كُتب به القرآن الكريم والمؤلفات الإسلامية . وهناك روايات عند المؤرخين المسلمين تزعم أن الخط العربى منشؤه الحيرة وأنه نُقل منها إلى مكة والحجاز . غير أن هذه الروايات لا تتفق ووثائق النقوش التى كشفت فى الحجاز ودرسها علماء اللغات السامية . فقد وجدوا نقوشاً حجازية وغير حجازية تصور انتقال الخط الآرامى إلى خط نبطى . ثم انتقال هذا الخط إلى الخط العربى . والمعروف أن الحيرة قبيل الإسلام كانت نصرانية وكانت تزخر بالثقافة السريانية . كما كانت تكتب بالخط السريانى قلم المسيحيين فى هذه الأنحاء . ولا يعقل أن يكونوا هم الذين تطوروا بالخط النبطى واشتقوا منه الخط العربى ، لأنه لم يشع فى ديارهم ولأنه كان خط الوثنيين فى شمالى الحجاز . وقد يكون مرجع هذا الوهم فى روايات المؤرخين الإسلاميين أن الخط الكوفى نما وازدهر فى الكوفة ، فظنوا أن هذه البيئة هى التى ابتكرت الخط العربى وأنه نما وتطور فى الحيرة .

والحق أنه إنما حدث له هذا النمو والتطور فى الحجاز نفسها ، فقد كانت بها حياة تجارية مزدهرة ، جعلتهم يأخذون الخط المعينى أولا ، ويتطورون به إلى

خطوطهم اللحيانية والثمودية والصفوية . ثم لما ظهرت مملكة النبط واستخدمت الخط الآرامي وتطورت به ، وتفرق أهلها بعد سقوطها في داخل الجزيرة وعلى طول طريق القوافل التجارية نشروا قلمهم النبطي . فهجر عرب الحجاز القلم المعيني وأخذوا يتداولون المنحوذ من الخط النبطي إلى خطهم العربي الجديد متطورين به ضروباً من التطور حتى أخذ شكله النهائي .

وليست المسألة مسألة فرض واحتمال . وإنما هي مسألة نقوش حملت إلى علماء الساميات الدليل القاطع الذى لا مطعن فيه على هذه الحقيقة ، فقد عثروا على نقوش فى شمال الحجاز وعلى طول طريق القوافل إلى دمشق تثبت تطور الخط النبطي تطوراً سريعاً إلى الخط العربي . وأهم هذه النقوش على الترتيب نقش عثر عليه ليتمان فى قرية أم الجمال غربى حوران . ويرجع تاريخه إلى سنة ٢٧٠ م وهو لفهر بن سُلَيّ الذى كان مربياً لجذيمة ملك تنوخ ، وخطه نبطى إلا أنه يمتاز بظهور روابط بين الحروف . ويليه نقش النمارة الذى اكتشفه دوسو وماكلر سنة ١٩٠١ على بعد ميل من النمارة القائمة على أطلال معبد رومانى شرقى جبل الدروز ، بالقرب من الأماكن التى عُثر فيها على الكتابات الصفوية . وقد كُتب شاهداً لقبر ملك من الملوك اللخميين يسمى امرأ القيس بن عمرو ، وأُرِّخ بشهر كسلول من سنة ٢٢٣ بتقويم بُصْرى وهو يوافق شهر كانون الأول (ديسمبر) من سنة ٣٢٨ م وهذا نصه :

تى نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج
وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرّب مذحجو عكدى وجا
بزجى فى حبج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه
الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه
عكدى . هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده

ويلاحظ أن الكاتب بدأه فى السطر الأول بكلمة تى الإشارية التى للمؤنث لأنها داخلة على نفس ولعلها هنا بمعنى جسد . وقد استخدم ذو بمعنى الذى ، وهى لغة معروفة بين بعض القبائل مثل طيئ ، كما استخدم كلمة أسر بمعنى عصب وعقد ، وهو من معانيها فى المعاجم العربية . وقد حذف الألف من كلمة « التاج » ،

ولم يكونوا يثبتونها حينئذ . وليس فى هذا السطر كلمة غريبة سوى بر التى استخدمها الكاتب بمعنى ابن وهى آرامية. ونراه فى السطر الثانى يضيف واواً إلى نزرو ومذحجو وفقاً لكتابة النبط التى تضيف إلى الأعلام الواو . أما عكدى فلعلها عكديا ، حذفت منها الألف . وفى المعاجم العكد : القوة . ويريد بالأسدين قبيلتى أسد . ونراه فى السطر الثالث يستخدم كلمة يزجى من فعل زجا بمعنى دفع أى باندفاع ، ومعنى حبج فى المعاجم أشرف وكأنها استعملت فى النص مصدراً بمعنى مشارف أو حدود ، وشمر من الملوك الحمير يين . واستخدم كلمة نزل بنيه الشعوب بمعنى جعلهم على الشعوب . وفى السطر الرابع ووكلهن بإضافة نون التوكيد إلى الفعل بعد الضمير . ومعنى العبارة ووكله الفرس والروم . وفى السطر الخامس بلسعد ذو ولده أى ليسعد الذى ولده .

وواضح أن النص يمثل طوراً من أطوار اللغة العربية التى نزل بها القرآن الكريم فكلماته جميعاً عربية ما عدا كلمة بر الآرامية ، وقد استخدمت فيه أل أداة للتعريف . وإذا أردنا أن نكتبه ونقربه إلى لغتنا اليوم كتبناه على هذا النحو :

هذه نفس (قبر) امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلها الذى عقد التاج
وملك قبيلتى أسد ونزاراً وملوكهم وشتت مذحجاً بالقوة وجاء
باندفاع (بانتصار) فى مشارف نجران مدينة شمر. وملك معدا وولى بنيه
الشعوبَ ، ووكّله الفرس والروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه
فى القوة . هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ من كسلول ، ليسعد الذى ولده

ولعل فى هذا النص ما يدل على أن اللغة العربية التى سيشرفها القرآن الكريم بنزوله فيها كانت قد أخذت تبسط سلطانها إلى شمالى بلاد العرب منذ أوائل القرن الرابع الميلادى . وتوجد الروابط بين الحروف فى هذا النص وتتخذ الحروف شكلا أكثر استدارة .

ولهذا النص أهمية تاريخية بعيدة ، فهو يحدثنا عن ثانى ملوك الحيرة جدود المناذرة ويذكر أنه ملك قبيلتى أسد وقبيلة نزار وملوكهم ، وشتت قبيلة مذحج ، وانتصر على جموع نجران . ولعل هذه أول إغارة ثابتة تاريخيًّا لعرب الشمال على عرب الجنوب ومدينتهم نجران . ويحدثنا النص أيضاً أنه ملك معدًّا وولى بنيه على الشعوب

والقبائل الكبيرة ، وقد عقد المعاهدات مع الفرس والروم ، ولم يبلغ ملك مبلغه فى القوة . وليس هذا كله ما يحدثنا به النص ولا كل دلالته ، فوراء ذلك دلالة أعمق ، إذ يقول هذا الملك ملك العرب كلهم ، وتلك — ولا ريب — أول محاولة فى إيجاد وحدة سياسية للعرب الشماليين ، بعد أن دمر الرومان دولتيهم فى بطرا وتدمر . على أن إمارة الحيرة لم تلبث أن خضعت للفرس ، وقد خضع الغساسنة فى الشام للبيزنطيين وأخذت البعثات المسيحية تغزو الشمال فى غربيه وشرقيه . ولعل ذلك ما جعل العرب يلتفون حول مكة ، وخاصة بعد أن فقدت اليمن استقلالها واحتلها الحبشة ثم الفرس . وقد نقلوا إليها من الجنوب والشمال أصنامهم ، فكانت دار كعبتهم وعبادتهم الوثنية ، وأخذت تقوم بما كانت تقوم به اليمن من نقل التجارة وعروضها بين المحيط الهندى وحوض البحر المتوسط .

ونمضى بعد نقش النمارة نحو مائة وثمانين عاماً ، فنلتقى فى زبد الواقعة جنوبى شرق حلب بنقش وُجد على باب أحد المعابد هناك أُرِّخ سنة ٥١٢ م وفيه نرى خصائص الكتابة العربية الجاهلية تتكامل . ومن غير شك حدثت تطورات متعددة بينه وبين نقش النمارة ، أعدَّت لهذه الصيغة العربية الخالصة التى نجدها فيه أو بعبارة أدق فى خطِّه . وعلى شاكلته نقش حَرَّان اللَّجا الذى عُثر عليه فى الشمال الغربى لجبل الدروز جنوبى دمشق وهو مؤرخ بسنة ٥٦٨ م .

ومعنى هذا كله أن الخط العربى نشأ وتطور شمالىّ الحجاز ، وأنه لا يرجع فى نشأته وتطوره إلى بلاد العراق . فتلك الوثائق السابقة دليل لا يرقى إليه الشك فى أنه نشأ من الخط النبطى وتطور حتّى أخذ صيغته النهائية فى أوائل القرن السادس الميلادى فى تلك البيئة الوثنية العربية الخالصة . وهو يختلف اختلافاً تامًّا عن الخط الكوفى ذى الزوايا الذى يُرْسَم فى أشكال مستديرة . فالحجاز هو موطنه ، وهو الذى نشره فى محيط العرب الشماليين على طول الدروب والطرق التى كانت تسلكها قوافل المكيين التجارية .

الفصل الثانى

العصر الجاهلى

١

تحديد العصر

قد يتبادر إلى الأذهان أن العصر الجاهلى يشمل كل ما سبق الإسلام من حقب وأزمنة ، فهو يدل على الأطوار التاريخية للجزيرة العربية فى عصورها القديمة قبل الميلاد وبعده . ولكن من يبحثون فى الأدب الجاهلى لا يتسعون فى الزمن به هذا الاتساع ، إذ لا يتغلغلون به إلى ما وراء قرن ونصف من البعثة النبوية ، بل يكتفون بهذه الحقبة الزمنية . وهى الحقبة التى تكاملت للغة العربية منذ أوائلها خصائصُها . والتى جاءنا عنها الشعر الجاهلى . ولاحظ ذلك الجاحظ بوضوح إذ قال : « أما الشعر (العربى) فحديث الميلاد صغير السن . أول من نهَج سبيله وسهّل الطريق إليه امرؤ القيس بن حُجْر ومهلهل بن ربيعة .. فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له — إلى أن جاء الله بالإسلام — خمسين ومائة عام . وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتى عام »[1]. وهى ملاحظة دقيقة . لأن ما قبل هذا التاريخ فى الشعر العربى مجهول ، ونفس تاريخ العرب الشماليين يشوبه الغموض منذ قضى الرومان على دولتيهم فى بطرا وتدمر . إلا بعض أخبار فارسية وبيزنطية قليلة وبعض نقوش عثر عليها علماء الساميات . وتشير تلك النقوش والأخبار إلى إمارات الغساسنة فى الشام والمناذرة فى الحيرة ومملكة كندة فى شمالى نجد . غير أن معلوماتنا عن هذه الإمارات فيما وراء القرن السادس الميلادى محدودة . وهى إنما تتضح فى العصر الجاهلى الذى نتحدث عنه . إذ حمل إلينا العرب كثيراً من الأخبار عن تلك الإمارات وأمرائها الذين كانوا يستولون فيها على الحكم . كما حملوا إلينا كثيراً من

---

(١) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبى) ١ / ٧٤ .

الأخبار عن مدن الحجاز وخاصة مكة بيت الكعبة المقدسة ، وكذلك عن القبائل وما كان بينها من أيام وحروب .

من أجل هذا كله نقف بالعصر الجاهلي عند هذه الفترة المحدودة أي عند مائة وخمسين عاماً قبل الإسلام ، وما وراء ذلك يمكن تسميته بالجاهلية الأولى ، وهو يخرج عن هذا العصر الذي ورثنا عنه الشعر الجاهلي واللغة الجاهلية ، والذي تكامل فيه نشوء الخط العربي وتشكله تشكلا تامًّا كما قدمنا في غير هذا الموضع . فذلك العصر المتميز الواضح في تاريخ العرب الشماليين هو العصر الجاهلي .

وينبغي أن نعرف أن كلمة الجاهلية التي أُطلقت على هذا العصر ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم ونقيضه [1] ، إنما هي مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والنزق . فهي تقابل كلمة الإسلام التي تدل على الخضوع والطاعة لله جلّ وعز وما يطوى فيها من سلوك خلقي كريم . ودارت الكلمة في الذكر الحكيم والحديث النبوي والشعر الجاهلي بهذا المعنى من الحميَّة والطيش والغضب . ففي سورة البقرة : (قالوا أتتخذنا هزُواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) وفي سورة الأعراف : (خُذ العفو وأمرْ بالعرف وأعرضْ عن الجاهلين) وفي سورة الفرقان : (وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) . وفي الحديث النبوي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذرّ وقد عيَّر رجلا بأمه : « إنك امرؤ فيك جاهلية » . وفي معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي :

أَلا لا يجهلنْ أَحدٌ علينا فنجهلَ فوق جَهْل الجاهلينا

وواضح في هذه النصوص جميعاً أن الكلمة استُخْدمت من قديم للدلالة على السفه والطيش والحمق . وقد أخذت تطلق على العصر القريب من الإسلام أو بعبارة أدق على العصر السابق له مباشرة وكل ما كان فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحمية والأخذ بالثأر واقتراف ما حرَّمه الدين الحنيف من موبقات .

---

(١) انظر مادة جاهلية في دائرة المعارف الإسلامية .

٢

الإمارات العربية فى الشمال (الغساسنة ـ المناذرة ـ كندة)

ليس بين أيدينا وثائق توضح فى دقة نشأة هذه الإمارات ، التى ظهرت على صفحة التاريخ إثر قضاء الرومان على تدمر ، فتاريخها قبل العصر الجاهلى أو قبل أواخر القرن الخامس الميلادى يحيط به الغموض ، ويظهر أن الرومان وخلفاءهم البيزنطيين اتخذوا من الغساسنة فى الشام إمارة تحجز بينهم وبين البدو وغاراتهم وتساعدهم فى حروبهم ضد الفرس ومن كان يؤيدهم من عرب المناذرة أو الحيرة فى العراق . وبالمثل اتخذ الساسانيون ملوك الفرس من دولة المناذرة درعاً تحميهم من غارات البدو وجنوداً تقف فى صفوفهم فى أثناء حروبهم ضد الرومان والبيزنطيين والغساسنة . وبين الطرفين قامت إمارة كندة فى شمالى نجد ، وكانت تدين بالولاء فيما يبدو لملوك اليمن الحميريين : ملوك سبأ وذى ريدان ويمنات .

والغساسنة[1] يعودون فى رأى نسّابى العرب إلى أصل يمنى ، فهم من عرب الجنوب الذين نزحوا إلى الشمال مع قبائل أخرى كثيرة أهمها جُذام وعاملة وكلب وقضاعة . وقد أقاموا إمارتهم فى شرقى الأردن ، ولم يتخذوا لها حاضرة بعينها فتارة تكون حاضرتهم الجَوْلان أو الجابية ، وتارة تكون جَلولاء أو جلّق بالقرب من دمشق . وقد يكون فى ذلك ما يدل على أنهم ظلوا بدواً يرحلون بخيامهم وإبلهم وأنعامهم من مكان إلى مكان فى تلك الأنحاء . ويقال إنهم أول نزولهم بالشام اصطدموا بعرب يسمون الضجاعمة ، تغلبوا عليهم ، وأصبحوا سادة تلك المنطقة التى حلوا فيها ، وقرّبهم الرومان منهم والبيزنطيون ومنحوهم ألقاباً رسمية من ألقابهم .

ويزعم مؤرخو العرب أن مؤسس سلالتهم جفنة بن عمرو مُزَيْقِياء ، ولذلك

---

(١) انظر فى الغساسنة تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهانى ، وكتاب « أمراء غسان » لنولدكه ترجمة قسطنطين زريق وبندلى جوزى ، وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٤ / ١١٨ وما بعدها ومحاضرات فى تاريخ العرب لصالح أحمد العلى ١ / ٤٤ وتاريخ سورية ولبنان وفلسطين لفيليب حتى (نشر دار الثقافة ببيروت) ١ / ٤٢٦ .

يسمون آل جَفْنة ، وأول ملك من ملوكهم يمكن الاطمئنان إلى أخباره من الوجهة التاريخية هو جبلة الذى غزا فلسطين سنة ٤٩٧ للميلاد ، وخلفه ابنه الحارث (٥٢٨ — ٥٦٩) ويسمى أحياناً الحارث بن أبى شمر ، وقد لعب دوراً مهماً فى حروب الإمبراطور جستنيان ضد الفرس وعرب العراق ، فأنعم عليه بالإكليل ، واعترف بسيادته المطلقة على جميع العرب فى الشام ومنحه لقب فيلارك ومعناه شيخ القبائل ، ولقب البطريق ، وهو أعظم الألقاب فى الدولة البيزنطية بعد لقب الملك . وقد اشتبك مع المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة فى حروب طاحنة ، وقع فى أثنائها أحد أبنائه فى قبضته سنة ٥٤٤ فقدمه المنذر ضحية للعُزَّى . وثأر الحارث لنفسه فى يوم حَليمة بالقرب من قنسرين سنة ٥٥٤ إذ أوقع بالمنذر موقعة فاصلة قُتل فيها ، وفى أمثال العرب : « ما يوم حليمة بسرّ » .

وتعد أيام الحارث بن جبلة أزهى أيام مرت بالغساسنة ، إذ امتد سلطانهم من بطرا إلى الرصافة شمالى تدمر . وكانوا قد دخلوا فى المسيحية منذ القرن الرابع الميلادى ، وزار الحارث القسطنطينية ، فاستقبل استقبالا حافلا ، واستطاع أن يقنع أولى الأمر هناك بتعيين يعقوب البرادعى أسقفا على الكنيسة المونوفيستية السورية فنشر عقيدته فى سوريا وبين الغساسنة . وخلفه ابنه المنذر (٥٦٩ — ٥٨١) فسار سيرته فى تأييد العقيدة المونوفيستية التى لم تكن تتفق مع عقيدة البيزنطيين الرسمية ، كما سار سيرته فى حروبه مع المناذرة ، فاشتبك مع قابوس ملك الحيرة منذ سنة ٥٧٠ فى سلسلة معارك أهمها معركة عَيْن أُباغ وفيها انتصر عليه انتصاراً حاسماً تغنى به الشعراء طويلا . وتدل الدلائل على أن خلافاً نشب بينه وبين البيزنطيين ، لعل مرجعه إلى تأييده للعقيدة المونوفيستية ، وربما خافوا منه أن يثور عليهم كما ثارت الزباء على الرومان من قبل ، فحرموه من الإعانات التى كانوا يقدمونها إليه وإلى أبيه ، وقلبوا له ظهر المجنّ ، ولكنهم عادوا إلى مصالحته ، حتى إذا حانت لهم فرصة منه قبضوا عليه ونفوه إلى صقلية ، وثار أبناؤه بقيادة النعمان عليهم ، غير أنه لقى نفس المصير حوالى سنة ٥٨٤ .

ومنذ هذا التاريخ تمزقت وحدة الغساسنة ، إذ تجزأت إمارتهم أجزاء ، على كل جزء أمير كبير أو صغير ، ويلمع اسم الحارث الأصغر ، ويظهر أن جيوشه كانت

تشتبك مع القبائل النجدية فى حروب دامية ، وقد أسَرَ فى إحداها شأساً أخا علقمة ابن عَبَدة الشاعر التميمى المشهور ، فرحل إليه يمدحه[1] رجاء أن يفك أخاه من أسره ، ونراه يذكر فى مديحه معاركه وما كان ينزله بأعدائه من خسائر ، يقول :

كأنهمُ صابتْ عليهم سحابةٌ ... صواعقُها لطَيْرهنَّ دَبيبُ[2]

فلم تَنْجُ إلا شَطْبةٌ بلجامها ... وإلا طِمِرٌّ كالقناة نَجيبُ[3]

وإلا كَمِىٌّ ذو حِفاظٍ كأنَّه ... بما ابتلَّ من حَدِّ الظُّباتِ خضِيبُ[4]

وأنت أَزلتَ الخُنْزُوانةَ عنهمُ ... بضربٍ له فوق الشُّئون دَبيبُ[5]

وأنتَ الذى آثارُه فى عدوِّه ... من البؤْس والنُّعْمَى لهن نُدوبُ[6]

وكان لابنيه النعمان وعمرو جيوش قوية ، تجوب نجداً والصحراء الشمالية وتدين لها القبائل بالطاعة ، ويظهر أن جيوش عمرو اشتبكت فى حروب مع بنى أسد وبنى فزارة ، ووقع كثير من أسرى القبيلتين فى يد عمرو ، فقصده النابغة الذبيانى يمدحه متوسلا إليه فى فكاكهم ، فأكرمه . كما أكرمه أخوه النعمان ، ودبّج فيهما مدائح كثيرة . لعل أروعها قصيدته البائية التى يقول فيها[7] :

إذا ما غزوا بالجيش حلَّقَ فوقهم ... عَصائبُ طيرٍ تهتدى بعصائبِ

ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فُلولٌ من قِراعِ الكتائبِ

---

(١) يذكر أكثر الرواة أن علقمة إنما قصد بقصيدته الحارث بن جبلة (انظر ديوان علقمة بشرح الشنتمرى طبع الجزائر سنة ١٩٢٥ ص ٢٥) وراجع القصيدة فى المفضليات. وقد دحض دولدكه هذه الرواية ذاهباً إلى أن القصيدة فى مديح الحارث الأصغر . انظر جواد على ٤ / ١٤٣ .

(٢) صابت : مطرت . يقول أصابهم بصواعق لم تقدر على الطيران فذهبت تلتمس النجاة .

(٣) الشطبة : الفرس الطويلة ، والطمر : الفرس المتحفزة للوثوب ، شبهها بالقناة فى الضمور .

(٤) الكمى : الشجاع ، والظبات : جمع ظبة وهى حد السيف ، وخضيب : مصبوغ بالدماء .

(٥) الخنزوانة : الكبر ، وشئون الرأس : ملتقى عظامها .

(٦) ندوب : جروح .

(٧) مختار الشعر الجاهلى لمصطفى السقا (طبع الحلبى) ص ١٥٩ .

وعمرو وهو ممدوح حسان بن ثابت ، وقد كان ينزل به وبغيره من أمراء الغساسنة ، وله فيه مطولة مشهورة يقول فى تضاعيفها[١] :

أولاد جَفْنَةَ حول قَبْرِ أبيهمُ قبر ابن ماريةَ الكريم المُفْضِلِ
بِيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابهم شُمُّ الأُنوف من الطِّراز الأوَّلِ

وعلى نحو ما كان ينزل به كان ينزل بجبلة بن الأيهم الذى لحق الفتوح الإسلامية ، وحارب فى صفوف الروم ، ثم أسلم وعاد فتنصَّر فى عهد عمر بن الخطاب ، ورحل إلى بيزنطة . ويقال إنه حين أسلم دخل المدينة فى موكب حافل من حاشيته وكان يضع على رأسه تاج أجداده تزينه لؤلؤتان كانتا فيما مضى قُرطين لأم الحارث بن جبلة .

وفى أخبار الغساسنة المتأخرين ما يدل على أنهم كانوا يصيبون حظوظاً من الترف والنعيم ، فقد وصف حسان بن ثابت مجلساً من مجالس جبلة بن الأيهم ، فقال : « لقد رأيت عشر قيان : خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة ... وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها . وكان إذا جلس للشراب فُرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضُرب له العنبر والمسك فى صحاف الفضة والذهب ، وأُتى بالمسك الصحيح فى صحاف الفضة ، وأُوقد له العود المندى إن كان شاتياً ، وإن كان صائفاً بطِّن بالثلج وأُتى هو وأصحابه بكساء صيفية . يتفضل هو وأصحابه بها فى الصيف . وفى الشتاء الفراء الفنك وما أشبهه . ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلا خلع على ثيابه التى عليه فى ذلك اليوم[٢] » .

ويقابل الغساسنة فى الشام المناذرة[٣] فى العراق . وهم من لخم ، ويعود بها النسابون إلى أصل يمنى . هى وبعض قبائل عربية نزلت هناك مثل تنوخ . وقد

---

(١) ديوان حسان (طبعة ليدن) ص ١٦ .

(٢) أغانى (ساسى) ١٦/ ١٤ .

(٣) انظر فى المناذرة تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٤/ ٥ — ١١٧ ، وتاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى (الترجمة العربية) [illegible] ومحاضرات فى تاريخ العرب لصالح أحمد العلى ١/ ١٥ وما بعدها .

احتذى الفرس الساسانيون معهم سياسةَ الرومان والبيزنطيين أعدائهم التقليديين مع عرب الشام . وربما كان جَذيمة الأبرش أهم ملك أسطورى ظهر فى هذه الأنحاء قبل اللخميين ، ويقال إنه كان يعاصر الزباء ، وخلفه ابن أخته عمرو بن عدى اللخمى وهو رأس المناذرة . وتاريخهم أكثر وضوحاً من تاريخ الغساسنة ، وربما كان ذلك يرجع إلى أن ملوك الفرس دونوا تاريخهم ، فأخذه عنهم العرب ، على أن ابن الكلبي يزعم أنه استخرج تاريخهم من بِيَع الحيرة وأديرتها .

وكان هؤلاء العرب العراقيون ينزلون فى الخيام أولا ، ثم تحولوا إلى قرية فى الجنوب الشرقى من النجف الحالية ، كانت تقع فى منطقة خصبة يرويها نهر الفرات ، وهى الحيرة (تحريف لكلمة حرتا فى السريانية ومعناها المخيم أو المعسكر) وسرعان ما نصب عليها الساسانيون المناذرة ليحموهم من غارات البدو وليساعدوهم فى حروبهم ضد الرومان والبيزنطيين وأحلافهم من الغساسنة عرب الشام . ويقال إن سابور (٢٤١ — ٢٧٢) هو الذى نصب عمرو بن عدى ، وتتابع من بعده خلفاؤه من بيته ، وربما كان ابنه امرؤ القيس الذى عُثر على نقشه فى النمارة كما أسلفنا يدين بالولاء للفرس والروم جميعاً . أما من خلفوه فكانوا يدينون بهذا الولاء للفرس وحدهم . ومن أهمهم النعمان الأعور أو السائح ، وكان له جيش قوى يتألف من كتيبتين هما الشهباء والدوسر ، واشتهر ببنائه قصرى الخورنق والسَّدير ، ونرى الملك الساسانى الذى كان يعاصره وهو يزدجرد الأول (٣٩٩ — ٤٢٠) يرسل أكبر أبنائه إليه ، لينشأ فى قومه ، وليتعلم الفروسية والصيد ، وهو بهرام جور . ولما توفى يزدجرد أراد الفرس إقصاءه عن العرش فتدخل النعمان ، وأيده بجيش مكنه من استرداد عرشه ، فأعلى ذلك من شأن المناذرة والحيرة . وهيأ لها موقعها فى طرق القوافل أن كانت مركزاً مهماً للتجارة ، فعاش المناذرة معيشة يسودها غير قليل من الترف ، بسبب التجارة التى كانوا يشاركون فيها وبسبب ما كان عندهم من حياة زراعية . ومن غير شك يسبق المناذرة الغساسنة فى الرخاء ، ولعل ذلك ما جعل حياتهم أكثر استقراراً بالقياس إلى غساسنة الشام ، كما جعلهم أكثر حضارة ورقياً .

وأزهى عصورهم عصر المنذر بن ماء السماء (حوالى ٥١٤ — ٥٥٤ م) وقد

ساءت العلاقات بينه وبين قُباذ ملك الفرس فى أوائل حكمه ، ولعل ذلك يرجع إلى أن قباذ اعتنق المزدكية واتخذها ديناً رسمياً للدولة وحاول أن يفرضها على المناذرة فأبى المنذر ، فعزله وولى مكانه الحارث بن عمرو أمير كندة ، ولكن الأمور سرعان ما تطورت فتوفِّى قباذ. وخلفه كسرى أنو شروان وكان يكره المزدكية والمزدكيين ، فأعاد المنذر إلى حكم الحيرة ، ونشبت بينه وبين الحارث الكندى وأبنائه سلسلة حروب قضت عليهم جميعاً . وربما كان من أسباب القضاء عليهم استيلاء الحبش على اليمن وانحلال ملك الحميريين هناك ، منذ سنة ٥٢٥ . ومهما يكن فقد تحولت قبائل نجد وشرقى الجزيرة إلى الحيرة ، فدان معظمها للمنذر بالولاء ، ويظهر أنه مدّ سلطانه إلى عُمان كما تحدثنا بذلك الأخبار . وقاد منذ عاد إلى عاصمته سنة ٥٢٩ حروباً طاحنة ضد الغساسنة والبيزنطيين كُتب له النصر فى كثير منها ، ونستطيع أن نقف على مدى انتصاراته فى هذه الحروب من معاهدة عُقدت بين البيزنطيين والفرس سنة ٥٣٢ أدّوا له فيها ما أدّوه للفرس من أموال . واشتهر بين العرب بأن كان له يومان : يوم نعيم ويوم بؤس . فكان أول من يطلع عليه فى اليوم الأول يعطيه مائة من الإبل ، وأول من يطلع عليه فى اليوم الثانى يقتله ، وممن قتله فى هذا اليوم المشئوم عبيد بن الأبرص ، ويقولون إنه راجع نفسه ، فأقلع عن هذه العادة السيئة ، ويقال أيضاً إنه قتل — وهو ثمل — نديمين له ، فلما صحا من سكره وعرف ما قدمت يداه ندم وأمر ببناء صومعتين عليهما ، وهما الغَرِيّان اللذان يذكران فى أشعار العرب . وقد يكون هذا كله من باب الأسطورة ، وربما كان الغريان نصْبين من الأنصاب التى كان العرب الوثنيون يهرقون دماء الأضحيات والذبائح عندها . وما زال المنذر يشن الحرب على الغساسنة حتى قتل فى يوم حليمة كما أسلفنا .

وخلفه ابنه عمرو بن هند (٥٥٤—٥٦٩م) وينسب إلى أمه فى بعض الروايات دير هند فى الحيرة ، وربما كانت نصرانية ، أما هو فكان وثنيًّا على دين آبائه ، وكان طاغية مستبدًّا ، وفيه يقول أحد الشعراء[1] :

أَبَى القلبُ أن يَهوى السَّديرَ وأهله ... وإن قيل عيشٌ بالسَّدِيرِ غريرُ

(١) أغانى (طبعة الساسى) ٢١/١٢٦ .

به البَقُّ والحُمَّى وأُسْدُ خَفِيَّةٍ   وعمرو بن هندٍ يَعْتَدى ويجورُ

ولقّبه العرب بالمحرِّق لأنه نذر أن يقتل مائة رجل من تميم حرقاً وبرَّ بنذره فى يوم أوارة باليمامة . واشتبك مع تغلب وطيئ فى بعض معاركه . ويظهر أن سلطانه امتد على قبائل كثيرة فى شرقى نجد وشماليها وغربيها ، وكان بحكم استبداده يتعرض له كثير من الشعراء بالهجاء . وقصته مع طرفة والمتلمس مشهورة . وينسب إليه شعر كان ينظمه ، وقد أصبحت الحيرة فى عهده مركزاً أدبيًّا مزدهراً ، إذ كان يجزل العطاء للشعراء ، فوفد عليه كثيرون منهم عمرو بن قميئة والمسيَّب بن علَس والحارث بن حِلِّزة وعمرو بن كلثوم التغلبى الذى يقال عنه إن ابن هند لقى مصرعه على يده ثأراً لكرامة أمه ليلى حين أهينت فى بيته .

وولى أمرَ الحيرة بعد عمرو قابوس ثم المنذر الرابع ، ولم تطل مدتهما ، وبذلك نصل إلى النعمان الثالث ابن المنذر الرابع المكنى بأبى قابوس (٥٨٠ — ٦٠٢) وقد نشأ فى حِجْر أسرة مسيحية هى أسرة عدى بن زيد العِبادى ، ولعل ذلك سبب تنصره فهو أول من تنصّر من ملوك الحيرة الوثنيين . وكان سلطانه يمتد إلى البحرين وعُمان ، وكانت له قوافل تجارية أو لطائم تجوب الجزيرة . وسار سيرة عمرو بن هند فى رعايته للشعراء ، فوفد على بابه منهم كثيرون مثل أوس بن حَجر والمنخل اليشكرى ولبيد والمثقِّب العبدى وحجْر بن خالد الذى يقول فيه[1] :

سمعتُ بفعل الفاعلين فلم أجد   كمثل أَبى قابوسَ حزمًا ونائلا

وهو ممدوح النابغة الذبيانى ، وله فيه غير قصيدة ، وحدثت جفوة بينهما ، بسبب وفود النابغة على الغساسنة ، وأرسل له بمجموعة طريفة من قصائده يعتذر إليه وهى من أجود ما خلّف الجاهليون ، وفى إحداها يقول :

نُبِّئت أن أبا قابوسَ أوعدنى   ولا قرارَ على زأرٍ من الأسدِ

وكان الشعراء يتعرضون له بالهجاء أحياناً وينالون منه ، على نحو ما نرى عند يزيد بن الخذّاق الشنّى من بنى عبد القيس[2] وعبد قيس بن خُفاف البُرْجُمِىّ

---

(١) الحيوان ٣/٥٨ والمرزوقى على ديوان الحماسة (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٦٤٠ .

(٢) انظر المفضليات (طبع دار المعارف) رقم ٧٨ ، ٧٩ .

التيمى[١] . ويظهر أن النعمان لم يكن سهل القياد . ويقال إنه قتل عدى بن زيد فضاق به كسرى الثانى ملك الفرس واستدرجه إلى حاضرته بالمدائن . وألقاه فى غيابة السجن ، ثم قتله ، ويقال إنه رمى به تحت أرجل الفيلة فمزقته إرباً . ولم يول الفرس بعده أحداً من هذا البيت فقد نصبوا على الحيرة إياس بن قبيصة الطائى ، وثارت قبيلة بكر حمية للنعمان على إياس والفرس وهزمتهما شر هزيمة فى يوم ذى قار . وبقيت الأمور مضطربة حتى استولى على الحيرة خالد بن الوليد سنة ٦٣٣ م .

واحتلت الحيرة وأمراؤها حيزاً كبيراً فى أقاصيص العرب وأخبارهم وأشعارهم فطالما تحدثوا عن الغريين وقصرى الخورنق والسدير، وطالما قصوا عن أمرائهم الحقيقيين والأسطوريين مثل جذيمة الأبرش. ويظهر أن المناذرة عرفوا من تقاليد الملك أكثر مما عرف الغساسنة . وكانوا أوسع منهم سلطاناً إذ دانت لهم بالطاعة اليمامة والبحرين وعمان وقبائل العراق وعلى رأسها بكر وتغلب وكذلك كثير من قبائل نجد وخاصة بعد انحلال مملكة كندة . وعلى نحو ما أكثر الشعراء فى مديح النعمان بن المنذر وأسلافه أكثروا من استعطافهم حتى لا تغزوهم جيوشهم[٢] وقد يشكون من ثقل الضرائب ومما كانوا يدفعون ويؤدون من الإتاوات فى أسواق العراق وفى غير أسواق العراق[٣].

وكل الدلائل تدل على أن الحياة كانت مزدهرة فى الحيرة قبيل الإسلام ، وكان أكثر سكانها من القبائل العربية ، وكان يجاورهم العباديون من النصارى . ويظهر أنهم كانوا أخلاطاً من العرب وغير العرب . كما كان يجاورهم الأحلاف من بعض العرب ومن النبط : سكان العراق من بقايا الأكديين والآراميين . وكانوا يحترفون الزراعة ، وكانت هناك جالية فارسية ، تمتهن بعض المهن والحرف . ويظن أنه كان هناك بعض اليهود . وكانت الحيرة كما قدمنا سوقاً تجارياً كبيراً . وكل ذلك أعد لأن تتحضر ، وأن تتأثر بالثقافة الهيلينية الفارسية التى كانت تعم فى تلك الأنحاء .

---

(١) الحيوان ٤/٣٧٩ .

(٢) الأصمعيات (طبعة دار المعارف) رقم ٥٨ .

(٣) المفضليات رقم ٤٢ البيت ١٦ - ١٧ وقارن مع رقم ٤١ البيت ١٧ .

وبين إمارة الحيرة وإمارة الغساسنة قامت إمارة ثالثة فى شمالى نجد كان أمراؤها يدينون – فيما يظهر – بالولاء لليمن ، وهى إمارة كندة[١] . ويرجع النسابون بها – كما رجعوا بالغساسنة والمناذرة – إلى عرب الجنوب ، وقد ظلت شعبة كبيرة منها تقيم فى مواطنها الأصلية بحضرموت إلى أن جاء الإسلام . وعثر على نقوش تؤكد قيام هذه الإمارة الكندية فى القرن الرابع الميلادى .

وأشهر ملوكها فى القرن الخامس حُجْر الملقب بآكل المُرار . وقد استطاع أن يفرض سيادته على القبائل الشمالية فى نجد وأن يمد نفوذه إلى اليمامة وتخوم إمارة المناذرة ، ويقال إن بكراً وتغلب دانتا له بالطاعة . وخلفه ابنه عمرو المقصور ، وقد يكون فى هذا اللقب ما يدل على أن سلطانه كان محدوداً ، وفى عهده نقضت بكر وتغلب ولاءهما له ، ولم تلبث الحرب أن استعرت بين القبيلتين أربعين عاماً ، وهى حرب البسوس المشهورة .

وأعقبه ابنه الحارث ، وفى عهده بلغت كندة ذروة مجدها . فقد خضعت له قبائل نجد ، ولجأت إليه بكر وتغلب فأصلح بينهما ، وأقام على بكر ابنه شرحبيل وعلى تغلب ابنه معديكرب كما أقام على أسد ابنه حُجْراً وعلى قيس عيلان ابنه سلمة ، وعقد محالفة بينه وبين إمبراطور بيزنطة ، ووجه همه إلى الإغارة على المناذرة وزوج أخته المنذر بن ماء السماء ، وانتصر فى غير موقعة . ولم يلبث قباذ ملك الفرس أن خلع المنذر وعينه والياً على الحيرة كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، غير أن قباذ لم يلبث أن توفى ، فعاد ابن ماء السماء إلى الحيرة ، ويقال إنه أوقع بالحارث هزيمة نكراء ، قتل فيها وقُتل معه أكثر من أربعين أميرًا من بيته . ودس المنذر بين أبنائه ، فتحاربوا وسقط شرحبيل وسلمة فى ميادين الحرب وجُنّ معد يكرب ، وانتقضت قبيلة أسد على حُجْر أبى امرئ القيس وقد حاول أن يسترد ملك أبيه ولكن المنذر كان له بالمرصاد ، ففشلت محاولاته وباءت بالخذلان ، ويقال إنه رحل إلى إمبراطور بيزنطة يستعين به فى محاربة المنذر خصمه ، غير أنه لم يعد

---

(١) انظر فى كندة وأمرائها Olinder, The Kings of Kinda وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٣/٢١٥ – ٢٧٣ ومحاضرات فى تاريخ العرب لصالح أحمد العلى ١/٦٨ وتاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى ١/١١٤ وما بعدها .

من رحيله ، فقد مات دون أمنيته . وشعره يفيض بالحقد على ابن ماء السماء وأصحابه الحيريين ، بينما يفيض شعر عبيد بن الأبرص شاعر بنى أسد بالسخرية منه وبيان عجزه عن استرداد ملك آبائه مع الوعيد الشديد والتهديد .

٣

مكة وغيرها من مدن الحجاز (١)

فى منتصف الطريق المعبَّد للقوافل بين اليمن والشام تقوم مكة فى واد من أودية جبال السَّراة ، تحفه الجبال الجرداء من كل جانب ، وقد وصفها القرآن الكريم بأنها « بوادٍ غير ذى زرْع » . وهى تتراءى لنا فى العصر الجاهلى ممسكة بزمام القوافل التجارية ، كما تتراءى لنا أكبر مركز دينى للوثنية الجاهلية . ويقال إنه كان يسكنها فى غابر الأزمنة قبائل من جُرْهم وبقايا من الأمم البائدة ، ثم نزلتها قبيلة خزاعة اليمنية حين هاجر كثير من القبائل اليمنية إلى الشمال ، ولعلها نزحت إليها لتسيطر على هذا المركز التجارى المهم . ولا نصل إلى منتصف القرن الخامس حتى يظهر بها قصىّ ومعه قبيلة قريش فيستولى عليها ويخرج منها خزاعة . ولا يعرف بالضبط أصل قريش ، وهل هى من عرب نجد أو من العرب الأنباط الذين تراجعوا ناحية الجنوب أمام غزو الرومان لبلادهم . وقد دعم مكانتها غزو الأحباش المسيحيين لليمن ، فتحولت أفئدة العرب الوثنيين إليها ، وفزعت أرستقراطيتهم الشمالية والجنوبية إلى هذا المركز البعيد عن أعدائهم ، وحاول أبرهة والى الحبشة على اليمن أن يستولى عليها سنة ٦٧٠ أو ٦٧١ فباءت حملته بالفشل الذريع ، فزاد ذلك فى تقديس العرب لها وإعظامها وعدّوها رمزاً لاستقلالهم وعزتهم وقوتهم ، إذ لم تدِنْ لأى ملك أجنبى ، وفى ذلك يقول حرب بن أمية (٢) :

أَبا مَطَر هلمَّ إلى صلاحٍ فتكفيك النَّدامى من قريشٍ

---

(١) انظر فى هذه المدن تاريخ العرب قبل الإسلام ٤ / ١٨١ وما بعدها وصالح أحمد العلى ص ٧٧ وما بعدها وفيليب حتى ١ / ١٤٤ وما بعدها ودائرة المعارف الإسلامية وكتابى مكة والطائف قبل الهجرة ، للامنس .

(٢) الحيوان للجاحظ ٣ / ١٤١ وصلاح هنا : مكة .

فتأمنَ وَسْطهم وتعيش فيهم أَبا مطرٍ هُديتَ لخير عَيشٍ
وتنزلَ بلدةً عزَّتْ قديمًا وتأمن أن يزورك ربُّ جَيش

وقد هيأ لها التصادم المستمر بين الفرس والروم أن تزدهر بها التجارة ، فقد كان الطريق بين العراق والشام مقفلا . وكانت أكثر تجارة الشمال والجنوب تهبط فيها . وكانت قوافلها تجوب الصحراء العربية إلى الجنوب فى اليمن وحضرموت وإلى الشرق فى الحيرة وإلى الشمال حيث تذهب إلى بُصْرى فى الشام وإلى غزة ومصر . وفى الوقت نفسه كانت راعية الكعبة وأصنامها وأوثانها ، وبذلك كان أهلها أشرف العرب وكان كثير منهم يعترفون لهم بالسيادة ، يقول ابن الفقيه : « إن أهل مكة لم يؤدوا فى الجاهلية إتاوة قط ، ودانت لهم خُزاعة وثقيف وعامر بن صعصعة ، وفرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحِلِّ إذا دخلوا الحرم ، وهم بعد أعزّ العرب ، يتأمّرون عليهم قاطبة »[١] وكانوا يأخذون منهم إتاوة تسمى الحريم إذا نزلوا فى بلدهم[٢] كما كانوا يأخذون إتاوة من التجار الأجانب إذا ألموا بهم ، وكان ينزلها بيزنطيون وفرس للتجارة[٣] يدل على ذلك الصحابيان الجليلان : صُهَيْب الرومى وسلمان الفارسى .

وكل ذلك يؤكد مكانتها وزعامتها على العرب ، فهى بيت تجارتهم وبيت كعبتهم المقدسة . فيها يقيمون أعيادهم الدينية ، كما يقيمون أسواقهم التجارية كسوق عُكاظ ومجنّة وذى المجاز . ولم تكن أسواقاً تجارية فحسب ، بل كانت أسواقاً أدبية أيضاً ، تعرض فيها سلع الشعر ، فيتنافس الشعراء ويقوم بينهم المحكّمون من أمثال النابغة فيحكمون للمتفوق ببراعته . وبذلك هيأت لحركة أدبية واسعة النطاق ، سيطرت فيها لغتها بحكم مكانتها الدينية وتنقلها بتجارتها فى أسواق العرب خارج ديارها ، فأصبحت لغة الأدب الرفيعة .

ولعل فى هذا كله ما يدل على عظم شأنها فى الجاهلية ، وقد زعم لامنس فى

---

(١) كتاب البلدان لابن الفقية (طبعة أوربا) ص ١٨ .

(٢) الاشتقاق لابن دريد ص ١٧٢ وأخبار مكة للأزرق (طبعة أوربا) ص ١٧٥ .

(٣) انظر O'leary, Arabia Before Muhammad (London, 1927) P.184 وراجع مروج الذهب للمسعودى (طبعة باريس) ١٤٨/٢

كتابه عنها أنها كانت جمهورية كجمهورية البندقية التجارية[١] . وقد وقف طويلا عند ملئها ونظامها التجاري المعقد ، ومعروف أنه كان بها ملأ يجتمع بدار الندوة ، وهو مجلس شيوخ مصغر ، لم يكن يدخله إلا من بلغ أربعين سنة ، وكانوا يختارون على ما يظهر حسب ثرائهم وخدماتهم التى يؤدونها وهم سادة بطونها فى البطاح وكانوا ينظرون فى شئونها التجارية والدينية . وكانت تشبه مصرفاً كبيراً ، به المكاييل والموازين والبيع الحاضر والمؤجل والربا وصنوف المضاربة المختلفة . واشتهر فيها بيتان بالثراء هما بيتا الأمويين والمخزوميين ، وكان للأولين أكثر قافلة بدر ، ولعل ذلك ما جعل أبا سفيان يرأسها ، وفى الاشتقاق لابن دريد معلومات طريفة عن ثروات المخزوميين وكان منهم من يسمى ربَّ مكة[٢] . ولم يكن الثراء خاصًّا بهذين البيتين فقد كان عبد الله بن جُدْعان وهو من تَيْم ثريًّا ثراء مفرطاً ، وشبهه بعض الشعراء بقيصر ، فقال[٣] :

يوم ابن جُدْعان بجنْب الحَزْوَرَه   كأنه قَيْصَرُ أو ذو الدَّسْكره

وكان كثير من العرب يرى سادة قريش فوق آل جفنة الغساسنة ، بل فوق كسرى وآل كسرى ، وكانوا يقصدونهم بالمديح طلباً للعطاء والنوال ، ومديح أميه بن أبى الصلت فى عبد الله بن جدعان مشهور .

وبهذا كله كانت مكة أهم مدينة عربية فى الجاهلية إذ كانت مثابة للعرب وأمناً . وكان مجتمعها يتألف من قريش البطاح الذين ينزلون حول الكعبة ، وهم : هاشم وأمية ومخزوم وتيمُ وعدى وجُمَح وسهم وأسد ونوفل وزهرة ، وكانوا أصحاب النفوذ فيها ، ومن قريش الظواهر الذين ينزلون وراءهم ومعهم أخلاط من صعاليك العرب والحلفاء والموالى ، والعبيد وكان أكثرهم من الحبشة ، ويظهر أنهم كانوا كثيرين كثرة مفرطة ، ولعل مما يدل على كثرتهم أن هنداً بنت عبد المطلب أعتقت فى يوم واحد أربعين عبداً من عبيدها[٤] ، وكانوا يقومون على حرف ومهن كثيرة . ومن غير شك كان يعيش سادة قريش معيشة مترفة ، بحكم ثرائهم واتصالهم بالفرس

---

(١) Lammens, La Mecque, P. 175

(٢) الاشتقاق ص ٦٠ و٩٢ .

(٣) معجم ما استعجم للبكرى (طبعة السقا) مادة حزورة ٢/ ٤٤٤ . والحزورة : الرابية .

(٤) المحاسن والأضداد ص٧٧ وقارن بالأغانى (طبعة دار الكتب) ١ / ٦٥ .

والروم . ويقال إنهم كانوا يصيفون فى الطائف ويشتون فى جدة ، ونجد فى سورة الزخرف استهزاء بمن ينشأ فى الحلية والزينة[١] . ويقال أيضاً إن عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم دُفن فى حُلَّتين قيمتهما ألف مثقال من الذهب[٢] . ومن يقرأ أخبار قوافلهم التجارية يخيل إليه أن مكة كانت قافلة كبيرة مقيمة ، تخرج منها القوافل إلى الجنوب والشمال والشرق ، ودعاهم ذلك إلى أن يعقدوا معاهدات بينهم وبين القياصرة[٣] والنجاشيين والأكاسرة[٤] ، كما دعاهم إلى عقد معاهدات بينهم وبين القبائل التى كانوا يمرون بها فى طرقهم التجارية[٥] .

ولكن هذا جميعه ينبغى أن لا يجعلنا نبالغ مبالغة لامنس ، فنظن أن مكة كانت جمهورية بالمعنى الكامل للجمهورية . فمع نمو العلاقات التجارية والاقتصادية فيها كان مجتمعها قبليًّا ، فهو لا يعدو اتحاد عشائر ارتبط بعضها ببعض فى حِلْف لغرض سدانة الكعبة من جهة والقيام على تجارة القوافل من جهة أخرى . ولا سلطان لعشيرة على عشيرة ، بل كل عشيرة تتمتع بالحرية التامة ولا طاعة عليها لأحد ، وكل ما هناك أن اشتراكهم فى مصلحة واحدة خفف من غلواء هذه الحرية ، ولكنه تخفيف لا يخرج بنظام الجماعة القرشية عن النظام المعروف فى القبائل الجاهلية ، ووجود مَلأ فيها أو مجلس شيوخ لا ينقض هذه الحقيقة . إذ لم يكن عمله يعدو عمل مجالس القبائل ، فقد كان فى كل قبيلة مجلس يتكون من رؤساء العشائر ، ينظر فى شئونها حسب قوانين العرف والعادة ، ولكنه لم يقض على حرية الأفراد ، فقد كان كل فرد متمتعاً بحريته ، مع شعوره بحقوق الجماعة أو حقوق القبيلة . وهذا نفسه هو النظام الذى كان سائداً فى مكة قبل الإسلام ، فللفرد حريته وللجماعة عليه حقوق لا تتناقض مع هذه الحرية .

وإلى الجنوب الشرقى من مكة على بعد خمسة وسبعين ميلا تقوم الطائف على ارتفاع يبلغ نحو ستة آلاف قدم وسط رياض وبساتين تجعلها أشبه ما تكون بقطعة من رياض الشام ، وجعلها ارتفاعها طيبة الهواء ، فكان القرشيون كما قدمنا يصطافون فيها حيث يجدون كل الثمرات كما يجدون الخمر الصافية . وكانت

---

(١) سورة الزخرف ، آية رقم ١٨ .

(٢) تاريخ اليعقوبى (طبعة أوربا) ٢ / ١٣ .

(٣) اليعقوبى ١ / ٢٨٠ والطبرى (طبعة أوربا) ١ / ١٠٨٩ .

(٤) اليعقوبى ١ / ٢٨٢ والطبرى نفس الصفحة السابقة .

(٥) اليعقوبى ١ / ٢٨٠ .

تنزلها قبيلة ثقيف الوثنية ، وهناك قصة تزعم أنها من بقايا ثمود ، وربما كان لهذه القصة أصل صحيح ، وأن الثموديين حين تقوضت إمارتهم فى الشمال هاجروا إلى الطائف كما هاجر اللحيانيون إلى منازل هذيل بين مكة والمدينة ، وقد يدل على ذلك أننا نجد النسابين يذكرون من بطون هذيل بنى لحيان ، وكأنهم ظلوا يحتفظون فى أحد بطونهم باسمهم القديم . ولم تكن حياة الثقفيين تختلف عن حياة القبائل البدوية النجدية فى شيء سوى ما أتاحته لهم زروعهم وثمارهم من الاستقرار على نحو ما استقرت قريش فى مكة .

ونمضى إلى شمالى مكة على بعد نحو ثلاثمائة ميل ، فنلتقى بيثرب التى ذكرها بطليموس فى جغرافيته كما ذكرتها الكتابات المعينية ، وهى تقوم فى واد خصب ، تكنفه مرتفعات يعلو بعضها بعضاً ، وتكثر الآبار والعيون فى هذا الوادى كثرة أتاحت له أن يصبح واحة جميلة تكتظ بالنخيل والأشجار والزروع ، مع الجو المعتدل ، إلا فى بعض فترات الصيف ، إذ تشتد بها الحرارة ، ولكنها لا تبلغ حرارة مكة القاسية.

ويقال إن العمالقة أول من سكنوا المدينة أو يثرب ، وظلوا بها حتى نزلها اليهود فى القرن الثانى الميلادى على أثر اضطهاد الرومان لهم فى فلسطين ، والمظنون أنهم الذين سموها باسم المدينة (مدينتا) وهو اسم آرامى . وقد ظلوا على دين آبائهم إلى أن جاء العرب هدْى الإسلام الحنيف ، واتخذوا العربية فى حياتهم اليومية ، وإن ظلوا يحتفظون بالعبرية فى طقوسهم الدينية وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت أن يتعلم لسانهم ولغتهم[1] ، وظهر بينهم غير شاعر كان ينظم بالعربية مثل كعب بن الأشرف[2].

وما زال هؤلاء اليهود مسيطرين على المدينة حتى وفدت عليهم قبائل الأوس والخزرج الأزدية من الجنوب ، فأصبحوا هم سادتها الحقيقيين ، وقد اتخذوا العربية الشمالية لساناً لهم ، وكانوا وثنيين يحجون إلى مكة وأصنامها ، مثلهم مثل بقية العرب . ولم يكونوا يعتمدون على التجارة مثل المكيين ، إنما كانوا يعتمدون

---

(١) انظر البلاذرى (طبعة أوربا) ص ٤٧٤ .

(٢) راجع فى شعراء اليهود بالمدينة السيرة النبوية لابن هشام وطبقات الشعراء لابن سلام ، والأغانى ١٩/٩٧ ، ١٠٦ .

على زروع بلدهم وثمارها ، بينما كان اليهود يقومون على الحرف والصناعات ، وخاصة صناعة الأسلحة والأقمشة . ويظهر أن النصرانية كانت معروفة هناك ففي السيرة أن شخصاً كان بها يسمى عبد عمرو بن صيفي خرج على الرسول وحاربه مع قريش ، وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح[1] .

وتدل دلائل مختلفة على أن حياة الأوس والخزرج لم تكن تختلف في شيء عن حياة البدو في الخيام ، مع أنهم سكنوا آطام المدينة . ومن أكبر الدلالة على ذلك أنهم كانوا يتحاربون على نحو ما تتحارب القبائل البدوية ، وأكبر الظن أن اليهود هم الذين عملوا على الوقيعة ونشر العداوة والبغضاء بينهم ، حتى يشغلوهم عنهم ، وكانوا يصنعون لهم الأسلحة التي استخدموها في تلك الحروب الدامية. وفي كتب التاريخ والأدب أيام ومواقع لهم كثيرة مثل يوم سمير ويوم حاطب ويوم السرارة ويوم فارع ويوم الربيع ويوم البقيع ويوم معبّس ومضرّس ويوم الفِجار ويوم بُعاث .

وتحرجت الظروف تحرجاً شديداً بين الأوس والخزرج حتى غدا كأنه من المستحيل أن يكفوا عن هذه الأيام والحروب وكأنما تعاهدوا على الفناء ، لولا أن نزل بينهم الرسول صلى الله عليه وسلم فأصبحوا بنعمة الله إخواناً إذ دخلوا في دينه الحنيف أفواجاً ، وتحولوا إليه يشدون أزره وينصرونه حتى أضاءت بتعاليمه الجزيرة العربية من جميع أطرافها ومسالكها ودروبها .

وكان لليهود في شمالي المدينة قرى خاصة بهم أشهرها خيبر وفدك وتيماء ، وما زالوا بها حتى أخرجهم عمر من الجزيرة فأصبحت عربية خالصة . والمظنون أن هؤلاء اليهود مثلهم مثل يهود المدينة نزلوا في هذه القرى حين اضطهدهم الرومان منذ أوائل القرن الثاني الميلادي ، واتخذوا العربية لساناً لهم ، وعبروا بها عن عواطفهم ، فجرى الشعر على ألسنة نفر منهم ، لعل أشهرهم السموءل صاحب حصن الأبلق بتيماء وكان معاصراً لامرئ القيس ، ويقال إن أمه كانت عربية من غسان ، ولعل ذلك العرق فيه هو الذي أنطقه بالشعر العربي ، وكان أخوه شعية شاعراً مثله . ومن المؤكد أن عرب الجاهلية لم يكونوا يطمئنون إلى هؤلاء اليهود جميعاً ، ولذلك لم يؤثروا في حياتهم الدينية فقد ظلوا بعيدين عنهم .

---

(١) السيرة النبوية (طبعة الحلبي) ٢ / ٢٣٤.

٤

القبائل البدوية

يقسم النسابون هذه القبائل، بل قبائل العرب الشمالية جميعها، قسمين كبيرين : قسم عدنانى مضرى، هو عرب الشمال المنحدرون من عدنان ونزار ومضر، وقسم قحطانى ينحدر من قحطان (ولعله يقطان المذكور فى الإصحاح العاشر من التوراة) وقد هاجر هذا القسم من الجنوب، من اليمن وحضرموت وعاش بين العرب الشماليين .

وتشكك بعض المستشرقين فيما ساقه رواة الأخبار من هذا التقسيم وما يندرج فيه من أنساب القبائل الشمالية عامة[١]، وقالوا إنه من وضع القرن الأول للهجرة وما كان من منافسات بين مكة التى نُسبت إلى عدنان والمدينة التى نُسب العرب فيها من الأوس والخزرج إلى قحطان، وتداخلت عوامل سياسية واقتصادية مكّنت من انتشار فكرة هذا التقسيم، كما مكّنت من ترتيب الأنساب العربية فى نظامها المعروف . ويبالغ بعض المستشرقين فينكر جملة أن يكون عرب الجنوب قد هاجروا إلى الشمال، ويظن ذلك حديث خرافة .

ولكن من يرجع إلى الشعر الجاهلى يجد فيه الفخر باليمنية والقحطانية والعدنانية والمضرية . كما يجد فيه العصبيات مشتعلة بين القبائل على أساس الاشتراك فى الدم وفى أب واحد أو أم واحدة . ومن التحكم أن نجرى وراء ظنون لا دليل عليها . وحقًّا اختلف النسابون فى أصل بعض القبائل وهل هى عدنانية أو قحطانية مثل خُزاعة وقضاعة وخَثْعم ولكنه اختلاف محدود، والرأى الصحيح أن هذه القبائل قحطانية . ومن الثابت الذى لاشك فيه أن القحطانيين هاجروا بتأثير ظروف اقتصادية وسياسية إلى الشمال، وأن هذه الهجرات بدأت منذ أزمان مبكرة، فقد كان المعينيون على ما يظهر يضعون حاميات فى طرق قوافلهم التجارية، ولما ضعفت الدولة الحميرية : دولة سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمنات هاجر كثير من

---

(١) راجع فى ذلك تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ١ / ٢٢٠ وما بعدها وتاريخ الأدب العربى لبلاشير ١ / ٢١ وما بعدها والفصل الأول من كتاب سميث :
Kinship and Marriage in Early Arabia.

الجنوبيين إلى الشمال ، وخاصة بعد سيل العرم الذى خرب سدّ مأرب . ويؤكد ذلك أننا نجد للقبيلة الواحدة فروعاً وشعباً مختلفة فى الجزيرة العربية ، فكندة التى هاجرت إلى الشمال وأسست لها مملكة أو إمارة فى شمالى نجد كانت لا تزال بقيتها الكبرى تقيم فى حضرموت حين ظهور الإسلام ، ونجد فى أسماء رجالها نفس الأسماء الجنوبية مثل شرحبيل بن الحارث ومعديكرب أخيه ، كما مر بنا فى الحديث عن إمارة كندة . وكانت عشائر من إياد لا تزال تنزل فى شمالى نجران بينما يممت عشائر منها حوض الفرات ، أما الأزد فقد توزعت عشائرها بين شمالى اليمن وعُمان، والمدينة حيث أقام الأوس والخزرج، وشمالى الجزيرة فى الشام حيث نزل بنو غسان[١] . وفى هذا دلالة واضحة على أن هجرة الجنوبيين إلى الشمال لا يعتريها الشك . وهاجرت تنوخ إلى البحرين، ثم استقرت فى جنوبى العراق حيث أسست أهم عشائرها ، وهى لخم ، دولة المناذرة فى الحيرة . ولما نزحت قبائل همدان من حضرموت إلى الجوف اليمنى بين مأرب ونجران هاجرت قبيلة طيئ إلى الشمال واستقرت فى جبلى أجأ وسلمى . وهاجرت قبائل أخرى إلى شمالى الحجاز وانتشرت فى بادية الشام وأهمها قضاعة وبَهْراء وجُهَيْنة وبَلِىّ التى نزلت فى مساكن ثمود وجُذام وكلب وعاملة اللائى نزلن فى حدود فلسطين وعُذْرة التى نزلت بالقرب من تيماء ووادى القرى . وممن هاجر من الجنوب أيضاً خُزاعة وكانت مستقرة قبيل الإسلام فى منطقة مكة وَبجيلة وكانت تنزل جنوبى الطائف .

ويقابل هذا القسم القحطانى اليمنى قسم عدنانى مضرى ، ومن أهم قبائله قريش فى مكة ، وثَقيف فى الطائف ، وعبد القيس فى البحرين ، وبنو حنيفة فى اليمامة ، وتميم وضبّة فى صحراء الدهناء ، وبكر وعشائرها الكثيرة التى تمتد من الشمال الشرقى للجزيرة إلى اليمامة والبحرين ، ويرد إليها النسابون بنى حنيفة وبنى عِجْل وشيبان وذُهْل ، ثم تغلب وكانت تتوغل أكثر من بكر فى شمالى الجزيرة صوب الشرق ، وكان يجاورها بنو النمر ، بينما كانت تنزل أسد فى شمالى نجد وتنتشر عشائرها إلى تيماء . ومن هذه القبائل العدنانية أيضاً كنانة وهُذَيْل بالقرب من مكة ،

---

(١) انظر مادة إياد والأزد فى دائرة المعارف الإسلامية وكذلك مادة خثعم .

وقيس عيلان فى نجد ، وأهم قبائلها هوازن ، وسليم ، وعامر وعشائرها كلاب وعقيل وقُشَيْر ومزينة وبنو سعد ، وغطفان وفرعاها الكبيران : عبس وذُبْيان . وفى المفضليات قصيدة طريفة للأخنس بن شهاب يحصى فيها منازل كثير من هذه القبائل[1] .

وهذه الأنساب التى قدمناها كان يؤمن بها العرب إيماناً شديداً ، وظلوا على هذا الإيمان فى الإسلام ، فتكتلوا على أساسها فى مجموعتين كبيرتين : مجموعة قحطانية يمنية ، ومجموعة مضرية عدنانية ، وكان التنافس شديداً بين الطرفين ، وكثيراً ما جرّ إلى منازعات فى الكوفة والبصرة كما جر إلى حروب فى الجيوش المقاتلة فى أقصى الشرق بخراسان وفى أقصى الغرب بالأندلس ، فكانت تتجمع عشائر كل فريق حين تصطدم مصلحة عشيرة يمنية بمصلحة عشيرة مضرية ، وسرعان ما تنشب بين الفريقين معارك دامية .

ومن المؤكد أن عرب الجاهلية كانوا يتمسكون بهذه الأنساب التى أجملناها وعنهم ورثها أبناؤهم فى الإسلام ، وهى تؤلف علماً واسعاً عند العرب هو علم الأنساب ، وكأنهم رأوا فى النسب ما نراه نحن الآن فى الوطن ، فكل قبيلة تؤمن بنسبها وتعتز به وبأنها تعود إلى أصل واحد ، فهى من دم واحد ولحم واحد ، ومن أجل ذلك عبروا عن القرابة باللُّحْمة كما عبروا عن عشائرهم وفروعهم بالبطن والفخذ.

وهذه القبائل جميعها المتبدية منها والمستقرة فى مدن كمكة والحيرة كانت تتحد فى نظمها السياسية ، وهى نظم قبلية ، تقوم على أساس القبيلة واشتراك أبنائها فى أصل واحد وموطن واحد ، وهو موطن متنقل مع المراعى . وكذلك اشتراكها فى تقاليد وعُرْف تتمسك بهما تمسكاً شديداً . وكان الرباط الذى يوثق الصلة بين أفراد القبيلة هو العصبية ، وهى عصبية قبلية ، ليس فيها شعور واضح بالجنس العربى العام ، وحقًّا تكونت عندهم إمارات فى الشمال ، ولكنها ظلت تقوم على أساس العصبية القبلية ، وإن بدا فى تضاعيفها شعور ضئيل بالوحدة ، لا بين القبائل الشمالية فحسب ، بل بينها وبين القبائل الجنوبية ، فقد كان أمراء هذه الولايات من العرب الجنوبيين كما يقول رواة الأخبار والنسابون ، وإنما نقول

---

(١) المفضليات : القصيدة رقم ٤١ .

شعوراً ضئيلا ، لأن أصحاب هذه الإمارات لم ينفذوا فعلا إلى فكرة الأمة العربية أو الجنس العربى بحيث يجمعون العرب تحت لواء واحد ، إنما كل ما هناك اتحاد قبلى ، له رئيس .

ومن الاتحادات التى كانت تجمعهم اتحادات الأحلاف ، ويُظَنّ أن هذه الاتحادات لعبت دوراً كبيراً فى تكوين القبائل إذ كانت تنضم العشائر الضعيفة إلى العشائر القوية الكبيرة لتحميها وترد العدوان عنها ، يقول البكرى : « فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة وتنافس الناس فى الماء والكلأ ، والتماسهم المعاش فى المتسع ، وغلبة بعضهم بعضاً على البلاد والمعاش واستضعاف القوى الضعيف ، انضم الذليل منهم إلى العزيز ، وحالف القليل منهم الكثير ، وتباين القوم فى ديارهم ومحالهم ، وانتشر كل قوم فيما يليهم »[1] ومن القبائل التى تمثل ذلك خير تمثيل قبيلة تنوخ فى العراق ، فقد انضم إليها وتلاشى فيها كثير من القبائل والعشائر العراقية[2] .

وبمجرد أن تدخل القبيلة فى حِلْفٍ يصبح لها على أحلافها كل الحقوق ، فهم ينصرونها على أعدائها ويردون كيدهم عنها فى نحورهم . وقد تنفصل بعض قبائل الحلف لتنضم إلى حلف آخر يحقق مصالحها ، ومن ثم كنا نجد دائماً أحلافاً تضعف ، وتحل محلها أحلاف أخرى . وقبائل قليلة لم تدخل فى أحلاف ، ولذلك سميت باسم جمرات العرب ، لما كان فيها من شجعان يكفونها فى الحروب ، على أن هذا كثيراً ما كان يؤول بها إلى أن تنهك فى المعارك . أما القبائل المتحالفة فكانت تهاب الخشونة مسّها . وأصل الحِلْف والتحالف من كلمة الحَلِف بمعنى اليمين الذى كانوا يقسمونه فى عهودهم . وكانوا يغمسون أيديهم فى أثناء عقد أحلافهم فى طيب أو فى دم ، وكانوا يقولون[3] : الدم الدم والهدم الهدم ، لا يزيد العهد طلوع الشمس إلا شدًّا وطول الليالى إلا مدًّا ، ما بلّ بحر صوفة وأقام رَضْوى فى مكانه ، إن كان جبلهم رضوى وإلا ذكروا ما يجاورهم من جبال . وربما أوقدوا النار عند تحالفهم ، ودعوا الله على من ينكث العهد بالحرمان من منافعها ، ويقال إن قبائل مرة بن

---

(١) معجم ما استعجم للبكرى (طبعة السقا) ٥٣/١ .

(٢) انظر مادة تنوخ فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٣) انظر الحيوان للجاحظ ٣/٤ .

عوف الذبيانيين تحالفت عند نار ودنوا منها حتى محشتهم (أحرقتهم) فسمى حلفهم باسم المحاش . ومن الأحلاف المشهورة فى مكة حلف المطيَّبين وقد تعاقد فيه بنو عبد مناف وبنو زهرة وبنو تَيْم وبنو أسد ضد بنى عبد الدار وأحلافهم، ويقال إنهم غمسوا أيديهم فى جفنة مملوءة طيباً . وأكرمُ من هذا الحلف حلف الفضول وفيه تحالفت قبائل من قريش على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً إلا نصروه وقاموا معه حتى تُردَّ عنه مظلمته . ومن أحلاف العرب المشهورة حلف الرِّباب ، وهم خمس قبائل: ضبة وثور وعُكْل وتيم وعدى، وحلف عبس وعامر ضد ذبيان وأحلافها من تميم وأسد وحلف الحُمْس بين قريش وكنانة وخزاعة .

وكان لهذه القبائل جميعاً المتحالفة وغير المتحالفة مجلس يضم شيوخ عشائرها[١] وهو ندوتهم ، التى ينظرون فيها شئون قبيلتهم. وكان كل فرد يستطيع أن يحضره وأن يتحدث فيه ، ولم يكن له موعد معين ، وفى العادة كانوا يجتمعون مساء وكلما حزب أمر أو ظهر ما يدعو إلى الاجتماع ، فيتناقشون ويتحاورون ، وقد يخطبون ، أو يستمعون إلى بعض ما ينظمه شعراؤهم ، وفى أثناء ذلك يدلى سادتهم بحِكَمِهم وتجاربهم فى الحياة . وإلى ذلك يشير زهير بن أبى سُلْمى إذ يقول فى مديح هَرِم بن سنان وقومه[٢] :

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوههم ... وأنديةٌ يَنْتَابُها القولُ والفعلُ

وإن جئتهم ألفيتَ حول بيوتهم ... مجالس قد يُشْفَى بأحلامها الجهل

وكانت قرارات هذه المجالس نافذة ، فجميع أفراد القبيلة تذعن لها ولا تشذ عليها .

وغالباً ما يتقدم شيوخَ القبيلة شيخ كبير مجرب . هو سيدها . له حنكة وحكمة وسداد فى الرأى وسعة فى الثروة . وهو الذى يقود القبيلة فى حروبها ويقسم غنائمها ويستقبل وفود القبائل الأخرى ، ويعقد الصلح والمحالفات . ويقيم الضيافات ، غير أنه ينبغى أن لا يفهم من ذلك أنه كانت له أو لشيوخ القبيلة سيادة واسعة ،

---

(١) انظر فى مجالس القبيلة وحقوق سيدها وواجباته القسم الثالث من كتاب لامنس : Le Berceau de l'Islam.

(٢) ديوان زهير (طبعة دار الكتب المصرية) ص ١١٣ .

فسيادته رمزية ، وإذا بغى كان جزاؤه جزاء كُليب التغلبي حين بغى وطغى على أحلافه من بكر ، فقتلوه ، مما كان سبباً فى نشوب حرب البَسوس المشهورة .

فالسيد فى القبيلة إنما هو الشخص الألمعى الذى حنكته التجارب ، وغالباً ما يرث سيادته عن آبائه ، حتى يتم له الحسب الرفيع ، وليس له أى حقوق سوى توقيره ، أما واجباته فكثيرة ، فلابد فيه من الشجاعة والكرم والنَّجْدة وحفظ الجوار وإعانة المعوز والضعيف ، ولا بد أن يتحمل أكبر قسط من جرائر القبيلة وما تدفعه من ديات . ولا بد أن يكون حليما متسامحاً . وإلى ذلك كله يشير معاوية سيد بنى كلاب حين يقول[1] :

إنِّى امرؤٌ من عُصْبةٍ مشهورةٍ ... حُشُدٍ لهم مجدٌ أَشَمُّ تَليدُ[2]

أَلفَـوا أَباهم سيدًا وأَعانهم ... كرمٌ وأَعمامٌ لهم وجـدود

إذ كل حىٍّ نابتٌ بأُرومةٍ ... نبتَ العِضاه فماجدٌ وكسيدُ[3]

نعطى العشيرة حقَّها وحقيقَها ... فيها ونغفر ذنبها ونسـود

وإذا تحمَّلنا العشيرةُ ثِقْلَها ... قمنا به وإذا تعود نعود[4]

وإذا نوافق جُرْأَةً أَو نَجْدَةً ... كنا ، سُمَىَّ ، بها العدوَّ نكيد[5]

بل لا نقول إذا تبوَّأَ جيرةٌ ... إن المحَلَّة شِعْبُها مكدود[6]

وواضح أن السيد فى رأى معاوية لابد أن يكون شريف الأصل والأرومة ، من عشيرة لها مجد فسيح الفناء ، ولا بد أن يرعى حقوق هذه السيادة ، وهى الحلم والصفح عن السفهاء وكظم الغيظ مع العفو والمغفرة ، ولا بد له أن يبذل المال والنفس فى جنايات القبيلة وأن يسارع إلى النجدة والحرب وأن يكون كريماً مضيافاً ،

---

(١) المفضليات ، القصيدة رقم ١٠٤ .

(٢) الحشد : الذين يحتشدون ويجتمعون للملمات ، والتليد : القديم .

(٣) الأرومة : الأصل ، العضاه : شجر ضخم من أشجار البادية ، الماجد : ذو المجد ، والكسيد : الدون .

(٤) الثقل : الغرم والدية .

(٥) سمى : مرخم سمية ، وحذف ياء النداء .

(٦) الشعب : ما انفرج بين جبلين ، مكدود : فى ضيق وشدة . يقول إنه لا يعتذر لأضيافه بما يلم به من شدائد .

إذا نزل به جار أضافه وأعانه وحفظ له كل ما يمكن من حقوق الجوار . وكان من أهم مايقوم به السيد إصلاح ذات البَيْن فى القبيلة ولَمّ شعثها ، مستعيناً فى ذلك بشيوخها وأصحاب الشرف فيها . ودائماً لا بد له من استشارتهم ، بل لا بد له من أن يستمع إلى كل فرد من أفراد القبيلة . فهم جميعاً أكفاء يتساوون فى الحقوق . ومن أهم ما يدل على هذه المساواة نظام الإجارة . وهى حق التوطن فى القبيلة ، إذ كان لكل فرد فيها أن يجير من يشاء . وإذا أجار شخصاً أصبحت قبيلته ملزمة به ، وأصبح له ما لأفرادها من حقوق . وعليه ما عليهم من واجبات .

وكان أفراد القبيلة جميعاً يضعون أنفسهم فى خدمتها وخدمة حقوقها ، وعلى رأسها حق الأخذ بالثأر ممن سولت له نفسه من القبائل الأخرى أن يعتدى على أحد أبنائها ، فكل فرد فيها يضحى لها بنفسه كما يضحى لها بماله . فهى حياته وكيانه ، وهو مع اعتزازه بفرديته وشخصيته وحريته يعيش لها وداخل إطارها ، مدفوعاً فى ذلك بعصبية شديدة ، وهى عصبية سيطرت على نفوسهم ، وقدسوها تقديساً كان أعظم من تقديسهم للشعائر الدينية . فتلك الشعائر تشركهم فيها قبائل أخرى ، أما شعائر العصبية القبلية فإنها خاصة بالقبيلة وأبنائها الذين يجمعهم دم واحد ونسب واحد . وربما تسامح الواحد منهم فى دينه ، إذ لم يكن يهمه فى كثير من الأحوال ، أما فى العصبية فإنه لا يتسامح فى أى واجب من واجباتها ، ومن خير ما يصور ذلك قول دُرَيْد بن الصِّمَّة[1] :

وما أنا إلا من غَزِيَّةَ إن غَوَت غويتُ وإن تَرْشُدْ غزية أَرشدِ

فغيه ورشده مرتبطان بعشيرته غزية ، فإن ضلت ضل معها وأمعن فى ضلاله ، وإن اهتدت اهتدى معها وأمعن فى هداه .

وكانت القبيلة من جانبها تعطى لأبنائها عليها نفس الحقوق ، فهى تنصرهم فى الملمات التى تنزل بهم ظالمين أو مظلومين ، فحسب أحدهم أن يستغيث فإذا السيوف مشرعة ، وإذا الدماء تتصبب على أتفه الأسباب . وقد تحولوا بسبب اختصامهم على المراعى واتخاذهم الغزو وسيلة من وسائل عيشهم إلى ما يشبه كتائب حربية ،

---

(١) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ١١٢
وانظر المرزوقى على الحماسة ٢ / ٨١٥ .

فكل قبيلة مستعدة دائماً للحرب والجلاد والإغارة على من حولها من البدو والحضر ، وهي دائماً شاكية السلاح حتى تحمي حماها ومنازلها وآبارها ومراعيها . ولذلك كانت الشجاعة مثلهم الأعلى ، فدائماً يفتخرون ببطولتهم وبعدد من قتلوا في حروبهم مما يدور في أشعارهم ويدور معه اعتدادهم بسيوفهم اليمانية والهندية ، ولبعضها أسماء اشتهرت بينهم ، وكما يعتدون بسيوفهم نراهم يعتدون برماحهم وقسيهم ودروعهم وتروسهم وبَيْضاتهم أو خوذاتهم ، وأشاد فرسانهم بالخيل إشادة بالغة وسموها أسماء كثيرة .

٥

حروب وأيام مستمرة

لعل أهم ما يميز حياة العرب في الجاهلية أنها كانت حياة حربية تقوم على سفك الدماء حتى لكأنه أصبح سُنَّة من سننهم ، فهم دائماً قاتلون مقتولون ، لا يفرغون من دم إلا إلى دم ، ولذلك كان أكبر قانون عندهم يخضع له كبيرهم وصغيرهم هو قانون الأخذ بالثأر ، فهو شريعتهم المقدسة ، وهي شريعة تصطبغ عندهم بما يشبه الصبغة الدينية ، إذ كانوا يحرِّمون على أنفسهم الخمر والنساء والطيب حتى يثأروا من غرمائهم . ولم يكن لأي فرد من أفراد القبيلة حق ولا ما يشبه الحق في نقض هذه الشريعة ولا في الوقوف ضدها أو الخروج عليها ، فما هي إلا أن يُقْتَلَ أحد منهم ، فإذا سيوف عشيرته مسلولة ، وتتبعها العشائر الأخرى في قبيلته ، تؤازرها في الأخذ بثأرها ، ويتعدد القتل والثأر بينها وبين القبيلة المعادية ، وتتوارثان الثارات حتى يتدخل من يصلح بينهما ويتحمل الديات والمغارم ، ولم يكونوا يقبلونها إلا بعد تفاقم الأمر وإلا بعد أن تأتي الحرب على الحرث والنسل . أما قبل ذلك فكانوا يعدونها سُبَّة وعاراً ، وفي ذلك يقول عبد العُزَّى الطائي[1] :

(١) حماسة البحتري (طبع بيروت) ص ٢٨ وانظر ٢٩ ، ٣١ والمرزوقي على الحماسة ١/٢١٥ - ٢١٦ وراجع المفضليات ، القصيدة رقم ٤٢ البيت ١٥ والأصمعيات القصيدة رقم ٤٤ البيت ١ ، ٢ .

إذا ما طلبنا تَبْلَنا عند معشرٍ أبينا حِلاب الدَّرِّ أَو نشربَ الدَّما[١]

فهم لا يرضون بالدية ويرونها ذلاً ما بعده ذل أن يستبدلوا بالدم الإبل وألبانها ، فالدم لا يشفيهم منه إلا الدم ، وكأنما أصبح سفكه غريزة من غرائزهم لا تزايلهم ، فهم يطلبونه وهم يتعطشون إليه تعطشاً شديداً على شاكلة تأبط شرًّا إذ يقول[٢] :

قليلُ غِرار النوم أكبر همِّه دَمُ الثأْر أَو يلقى كَمِيًّا مُسَفَّعا

فأكبر ما يهتم به وينصب له طلبُ الثأر ولقاء بطل سفعت وجهه الهواجر. وأكثر حروبهم كان يجرها نزاع بين بعض الأفراد فى قبيلتين مختلفتين ، إما بسبب قتل أو بسبب إهانة ، أو بسبب اختلاف على حد من الحدود . وحينئذ تشتبك عشيرتا هؤلاء الأفراد ، وتنضم إلى كل عشيرة عشائر قبيلتها . وقد تنضم أحلافهما ، فتنتشر نيران الحرب بين قبائل كثيرة ، وصور ذلك شاعر الحماسة إذ يقول[٣] :

الشىء يبدؤه فى الأَصل أَصغرهُ وليس يَصْلَى بكل الحرب جانيها

والحربُ يلحق فيها الكارهون كما تدنو الصِّحاح إلى الجَرْبَى فتُعْديها

فهى تبدأ صغيرة ضعيفة ، ثم تقوى وتستحكم وتعظم بمرور الزمن ، فتصبح لها عدوى كعدوى الجرب ، لا يفلت منها راغب فيها ولا كاره ، فالجميع يصطلون بنارها ، بل يترامون فيها ترامى الفراش ، فهى أمنيتهم ومبتغاهم ، يقول زهير[٤] :

إذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهم طوالَ الرماح لا ضِعافٌ ولا عُزْل[٥]

فإن يُقْتلوا فيُشْتَفى بدمــائهم وكانوا قديمًا من مناياهمُ القتلُ

فجميعهم يطيرون إلى المستغيث بخيلهم ورماحهم ، وتدور رحى الحرب فيقتلون

---

(١) التبل : الثأر ، وحلاب الدر : كناية عن الإبل التى تحلب وتشرب ألبانها .

(٢) المرزوقى على حماسة أبى تمام ٢/٤٩٢ غرار النوم : قليله ، والكمى : الشجاع .

(٣) المرزوقى ١/٤٠٧ .

(٤) ديوان زهير ص ١٠٢ .

(٥) الأعزل مفرد عزل : من لا سلاح له ، وفزعوا : أغاثوا .

من أعدائهم ويشفون حقدهم ويقتل منهم أعداؤهم ويشفون غليلهم . يقول دريد ابن الصمة[١] :

وإنا لَلَحْمُ السيفِ غيرَ نَكيرةٍ ونُلْحمه حينًا وليس بذى نُكْرِ[٢]

يُغارُ علينا واترين فيُشْتَفَى بنا إن أُصِبْنا أَو نُغير على وِتْرِ[٣]

قَسَمْنا بذاك الدهرشَطرين بيننا فما ينقضى إلا ونحن على شَطْر

ومثلُ قبيلة دريد قبائلُ العرب جميعها ، فهم طعام السيوف ، يطعمونها أعداءهم . ويطعمهم أعداؤهم لها فى غير نكران، فهم دائماً واترون موتورون ، وحياتهم مقسومة على هذين الحدين وإلى هذين الشطرين . ولم يكونوا يرهبون شيئاً مثل الموت حتْف الأنف بعيداً عن ميادين القتال ، ميادين الشرف والبطولة ، حيث يموتون طعناً بالسيوف والرماح ، وحيث تتناثر أشلاؤهم وتأكلها السباع ، يقول الشنفرى[٤] :

ولا تَقْبُرونى إنَّ قبرى محرَّمٌ عليكم ولكن أَبْشِرى أُمَّ عامرِ

فهو يتمنى أن لا يقبر ، وأن يترك بالعراء فى ساحة الحرب تنوشه السباع ، ويبشر أم عامر وهى الضبع بجسده ، حتى يخلد فى سجل قتلى الجاهلية المجيد .

وكانوا يسمون حروبهم ووقائعهم أياماً . لأنهم كانوا يتحاربون نهاراً ، فإذا جَنَّهم الليل وقفوا القتال حتى يخرج الصباح . وأيامهم وحروبهم كثيرة ، وهى تدور فى كتب الأدب والتاريخ . ويقال إن أبا عبيدة المتوفى سنة ٢١١ للهجرة صنف فى ألف يوم ومائتين منها كتاباً اعتمد عليه من جاءوا بعده ، ولم يصلنا هذا الكتاب . وإنما وصلنا شرحه لنقائض جرير والفرزدق وفيه طائفة كبيرة منها . وألف فيها من بعده كثيرون أحصاهم ابن النديم فى المقالة الثالثة من الفن الأول بكتابه الفهرست . وفى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى وشرح حماسة أبى تمام للتبريزى منثورات منها كثيرة . وعقد لها ابن عبد ربه فى العقد الفريد وابن الأثير

---

(١) المرزوقى ٢/٨٢٥ .

(٢) نكيرة ونكر : نكران وامتراء ، ونلحمه : نطعمه اللحم .

(٣) الوتر : الثأر ، واترين : قاتلين ومسببين الوتر .

(٤) المرزوقى ٢/٤٨٧ .

فى الجزء الأول من كتابه الكامل والنويرى فى نهاية الأرب فصولا طويلة ، وكذلك صنع الميدانى فى الفصل التاسع والعشرين من كتابه مجمع الأمثال إذ تناول منها مائة واثنين وثلاثين يوماً ضبط أسماءها وذكر القبائل التى اشتركت فى كل منها .

وتسمَّى هذه الأيام والحروب غالباً بأسماء البقاع والآبار التى نشبت بجانبها مثل يوم عَيْن أباغ وكان بين المناذرة والغساسنة ومثل يوم ذى قار وكان بين بكر والفرس ويوم شِعْب جبلة وكان بين عبس وأحلافها من بنى عامر وذبيان وأحلافها من تميم . وقد تسمى بأسماء ما أحدث اشتعالها مثل حرب البسوس وحرب داحس والغبراء .

ومن أيامهم المشهورة يوم خَزاز وكان بين ربيعة واليمن من مَذْحج وغيرهم، ويوم طَخْفة بين المنذر بن ماء السماء وبنى يربوع، ويوم أُوارة الأول بينه وبين بنى بكر ويوم أوارة الثانى بين ابنه عمرو بن هند وبنى تميم، ويوم ظهر الدَّهْناء بين بنى أسد وطيئ، ويوم الكُلاب الأول بين بنى بكر وعشائر من تميم وضبة بقيادة شرحبيل ابن الحارث الكندى وبين تغلب والنمر وبهراء بقيادة أخيه سلمة وأيام الأوس والخزرج ومرّ ذكرها فى غير هذا الموضع ، ويوم حَوْزة الأول بين سُلَيم وغطفان، ويوم اللِّوى بين غطفان وهوازن ، ويوم الكلاب الثانى بين تميم وبنى عبد المدان النجرانيين ويوم الوَقيط بين تميم وربيعة وكذلك يوم جَدود وذى طُلوح والغبيط وزُبالة ومبايض والجفار ، ويوم الرَّحْرَحان بين قيس وتميم وكذلك الصرائم والمروت والنِّسار ، ويوم الشقيقة بين ضبة وبنى شيبان ، ويوم بُزاخة بين ضبة وإياد؛ ويوم دارة مَأْسَل بينها وبين بنى عامر . وكانوا لا يقتتلون فى الأشهر الحرم ، ومع ذلك وقعت فيها بعض مناوشات تسمى بأيام الفِجار بين كنانة وهوازن يومها الأول ، أما يومها الثانى فكان بين كنانة وقريش وبين بنى عامر وتبعت ذلك أيام أخرى . وسنقف قليلا عند حرب البسوس وحرب داحس والغَبْراء لأنهما من أشهر حروبهم وأطولها زمناً .

أما حرب البسوس فقد اشتعلت بين قبيلتى بكر وتغلب فى أواخر القرن الخامس الميلادى ، وكان سببها اعتداء كليب سيد تغلب — وكان قد طغى واشتد بغيه — على ناقة للبسوس خالة جَسّاس بن مرة سيد بنى بكر ، إذ رمى ضرعها بسهم ،

فاختلط لبنها بدمها . ولما علم جساس بما حدث ثار لكرامته ، وسنحت له فرصة من كُلَيب فقتله ، ودارت رحى حرب طاحنة ظلت — فيما يقال — أربعين سنة، فكثرت أيامها مثل يوم عُنَيْزة وكان سجالا بين الطرفين ، ويوم واردات وكان لتغلب على بكر ويوم قضَّة (تحلاق اللمم) وفيه انتصرت بكر . ولما أنهكت الحرب الفريقين لجآ إلى الحارث بن عمرو الكندى ، فأصلح بينهما ، وأقام كما مرَّ بنا على بكر ابنه شرحبيل وعلى تغلب ابنه سلمة . ونمت فى العصور الإسلامية أساطير حول هذه الحرب وبطلها التغلبي المهلهل أخى كليب ، وألفت عنه قصة شعبية باسم « الزير سالم » .

وأما حرب داحس والغبراء فكانت فى أواخر العصر الجاهلى ، وكان السبب فى نشوبها سباقا على رهان بين الفرسين ، فسميت باسميهما ، وكان قد أجراهما سيدا عبس وذبيان : قيس بن زهير وحذيفة بن بدر ، وأوشك داحس أن يفوز ، غير أن رجلا من ذبيان كان قد كمن له ، فاعترضه ونفَّره ، فعدل عن الطريق ، وبذلك سبقته الغبراء . وأبى قيس أن يعترف بهذا السبق وطُلب الرهان المضروب ، وحدث صدام بين الفريقين لم تلبث الحرب أن اندلعت على إثره ، وظلت سنوات طويلة حتى تدخل سيدان من ذبيان هما هرم بن سنان والحارث بن عوف المرِّى ، فتحملا ديات القتلى . وبذلك وضعت الحرب أوزارها بين القبيلتين ومن كان قد انضم إليهما من الأحلاف ، فقد انضمت عامر إلى عبس بينما انضمت تميم وأسد إلى ذبيان . وعلى نحو ما نمت الأساطير حول المهلهل بطل حرب البسوس نمت حول عنترة بطل هذه الحرب ، وكان من عبس ، فألفت عنه قصة شعبية مشهورة لا نبعد إذا قلنا إنها تحولت إلى إلياذة كبرى للعرب وفروسيتهم الرائعة .

الفصل الثالث

الحياة الجاهلية

١

الأحوال الاجتماعية

كانت القبيلة فى العصر الجاهلى تتألف من ثلاث طبقات : أبناؤها وهم الذين يربط بينهم الدم والنسب ، وهم عمادها وقوامها ، والعبيد ، وهم رقيقها المجلوب من البلاد الأجنبية المجاورة وخاصة الحبشة ، والموالى ، وهم عُتَقَاؤها ، ويدخل فيهم الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم ونفتهم عنها لكثرة جرائرهم وجناياتهم ، وكانوا يعلنون هذا الخلع على رؤوس الأشهاد فى أسواقهم ومجامعهم ، وقد يستجير الخليع بقبيلة أخرى فتجيره ، وبذلك يصبح له حق التوطن فى القبيلة الجديدة ، كما يصبح من واجبه الوفاء بجميع حقوقها ، مثله مثل أبنائها .

ومن هؤلاء الخلعاء طائفة الصعاليك المشهورة ، وكانوا يمضون على وجوههم فى الصحراء ، فيتخذون النهب وقطع الطريق سيرتهم ودأبهم ، على نحو ما نعرف عن تأبط شرًّا والسُّلَيْك بن السلكة والشَّنْفَرَى . على أن منهم من كان يظل فى قبيلته لفضل فيه مثل عروة بن الوَرْد ، وكان كريماً فياضاً ، وأُثر عنه أنه كان يجمع إلى خيمته فقراء قبيلته عَبْس ومعوزيها ومرضاها ، متخذاً لهم حظائر يأوون فيها ، قاسماً بينه وبينهم مغانمه[1] .

وهذا الخلع إنما كان يحدث فى حالات شاذة ، أما بعد ذلك فإن أفراد القبيلة كانوا متضامنين أشد ما يكون التضامن وأوثقه ، وهو تضامن أحكم عُراه حرصهم على الشرف وقد تكونت حوله مجموعة من الخلال الكريمة ، لعل خير كلمة تجمعها هى كلمة المروءة التى تضم مناقبهم ، من مثل الحلم والكرم والوفاء وحماية الجار وسعة الصدر والإعراض عن شتم اللئيم والغضّ عن العوراء .

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣ / ٧٨ ومابعدها .

ولم تكن خصلة عندهم تفوق خصلة الكرم ، وقد بعثها فيهم حياة الصحراء القاسية وما فيها من إجداب وإمحال فكان الغنى بينهم يَتَفَضَّلُ على الفقير ، وكثيراً ما كان يذبح إبله فى سنين القحط ، يطعمها عشيرته ، كما يذبحها قرير العين لضيفانه الذين ينزلون به أو تدفعهم الصحراء إليه . ومن سُنَنهم أنهم كانوا يوقدون النار ليلا على الكُثْبان والجبال ، ليهتدى إليهم التائهون والضالون فى الفيافى ، فإذا وفدوا عليهم أمَّنوهم حتى لو كانوا من عدوهم . ويدور فى شعرهم الفخر بهذه النيران وأن كلابهم لا تنبح ضيوفهم لما تعودت من كثرة الغادين والرائحين ، يقول عوف بن الأحوص[١] :

ومستنبحٍ يخشى القَواء ودونه ... من الليل بابا ظُلمة وسُتورها[٢]
رفعتُ له نارى فلما اهتدى بها ... زَجَرْتُ كلابى أن يَهِرَّ عَقورُها[٣]
فلا تسألينى واسألى عن خليقتى ... إذا ردَّ عافى القِدْرِ من يستعيرها[٤]
تَرَىْ أن قِدْرى لا تزال كأنها ... لذى الفَرْوَةَ المَقْرور أُمٌّ يزورها[٥]
مبرَّزةٌ لا يُجْعَلُ السِّترُ دونهـا ... إذا أُخْمِد النيرانُ لاح بَشيرها[٦]
إذا الشَّوْلُ راحتْ ثم لم تَفْدِ لحمهَا ... بألبانها ذاق السِّنانَ عَقِيرُها[٧]

واشتهر عندهم بالكرمِ الفياض كثيرون[٨] ، مثل حاتم الطائى الذى ضُربت الأمثال بكرمه ، وهو يصوره فى كثير من شعره كقوله[٩] :

إذا ما بخيلُ الناسِ هَرَّتْ كلابُهُ ... وشقَّ على الضيفِ الغريبِ عَقورُها

---

(١) المفضليات رقم ٣٦ والحيوان للجاحظ (طبعة الحلبى) ٥/١٣٦ .

(٢) مستنبح : من ينبح حتى ترد عليه الكلاب ، فيعرف أن حيا قريباً منه ، القواء : الفلاة . . .

(٣) يهر : ينبح نبحاً خفيفاً ، العقور : العاض .

(٤) عافى القدر : مستعيرها .

(٥) ذو الفروة : السائل ، المقرور : الذى اشتد به البرد .

(٦) بشيرها هنا : ضوءها .

(٧) الشول : الإبل العظيمة التى لا تحلب ، راحت : رجعت ، يقول إذا رجعت الإبل من مراعيها عقرها لأهل الحى والضيفان .

(٨) انظر فى أجواد الجاهلية كتاب المحبر لابن حبيب (طبع حيدر آباد) ص ١٣٧ .

(٩) الحيوان ١/٣٨٣ .

فإنى جبانُ الكلب بيتى موطَّأٌ جوادٌ إذا ما النفسُ شَحَّ ضميرها

وكانوا لا يقدرون شيئاً كما يقدرون الوفاء ، فإذا وعد أحدهم وعداً أوفى به وأوفت معه قبيلته بما وعد ، ومن ثم أشادوا بحماية الجار لأنه استجار بهم وأعطوه عهداً أن ينصروه . وجعلهم ذلك يعظمون الأحلاف فلا ينقضونها مهما قاسوا بسببها من حروب. وبلغ من اعتدادهم بهذه الخصلة أن كانوا يرفعون لمن يغدر منهم لواء فى مجامعهم وأسواقهم ، حتى يلحقوا به عار الأبد . يقول الحادرة لصاحبته سمية[1] :

أَسُمَىَّ – ويحك – هل سمعتِ بغَدْرَةٍ رُفع اللواءُ لنا بها فى مَجْمَعِ

وليس هناك خلة تؤكد معنى العزة والكرامة إلا تمدحوا بها ، فهم يتمدحون بإغاثة الملهوف وحماية الضعيف والعفو عند المقدرة ، كما يتمدحون بالأنفة وإباء الضيم ، وكيف يقبلون الضيم ، وهم أهل حرب وجلاد ، يقول المتلمِّس[2] :

إنَّ الهوانَ حمارُ الأهل يعـــرفه والحرُّ ينكره والرَّسْلَةُ الأُجُدُ[3]

ولا يُقيم على خَسْفٍ يُرادُ به إلا الأذلاَّن: عَيْرُ الأَهل والوَتِدُ[4]

هذا على الخَسْف معقولٌ برُمَّتهِ وذا يُشَجُّ فلا يبكى له أَحَدُ

فهم لا ينكرون شيئاً مثل إنكارهم للهوان والضيم ، فهما السوأة الكبرى والمثلبة العظمى إذ يعنيان الذل وأن القبيلة استبيحت فلم تعد تستطيع الدفاع عن كرامتها . وكل شيء إلا الهوان ، وكان أقل شعور به يثيرهم ، على نحو ما مر بنا من ثورة عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند حين علم بإهانة أمه فى بلاطه ، وكان نازلا معها عنده ، فاستل سيفه وقتله ، وتغنى شعراء تغلب طويلا بهذا الحادث مفاخرين بعزتهم . وكان للشجاعة والفروسية عندهم منزلة ليس فوقها منزلة ، بحكم حروبهم الدائرة التى لا تنى ولا تفتر .

وكان سادتهم يمثلون هذه الخصال جميعاً فى أقوى صورها ، مضيفين إليها

---

(١) المفضليات ص ٤٥ .

(٢) حماسة البحترى ص ٢٠ .

(٣) الرسلة : الناقة الذلول ، الأجد : الموثقة الخلق.

(٤) العير : الحمار .

حنكة وحكمة بالغة، وقد اشتهر من بينهم حكام تجاوزت ألمعيتهم حدود قبائلهم[١]، مثل عامر بن الظرب وأكثم بن صيفى، وكانت تفزع إليهم القبائل فى خلافاتها الكبيرة التى يصعب حلها فى دائرة قبائلهم وشيوخهم، وقد يفزعون فيها إلى الكهنة والعرافين.

على أن هناك آفات كانت تشيع فى هذا المجتمع الجاهلى، لعل أهمها الخمر واستباحة النساء والقمار، ونحن نجد الخمر تجرى على كل لسان، وقد اشتهر بالحديث عنها وعن كئوسها ودنانها وحوانيتها ومجالسها أعشى قيس وعدى بن زيد العبادى الحيرى، وعرض لها كثيرون فى أشعارهم مفاخرين بأنهم يحتسونها ويقدمونها لرفاقهم. وأكثر من كان يتجر بها اليهود والنصارى، وكانوا يجلبونها لهم من بصرى وبلاد الشام ومن الحيرة وبلاد العراق، ويقال إنهم كانوا يضربون خيامهم فى بعض الأحياء أو فى بعض القرى ويضعون فوقها راية تعلن عنهم، فيأتيهم الشباب ليشربوا وليسمعوا بعض القيان ممن يصاحبنهم. وكان من الشباب من يدمن عليها حتى تنفر منه قبيلته، وقد تخلعه لما يتدنى فيه من رذائل، على نحو ما يروى عن البراض ابن قيس الكنانى أحد أدلاء القوافل فى الجاهلية، إذ كان سكيراً فاسقاً، فخلعه قومه وتبرأوا منه[٢]. ويقول طرفة فى معلقته:

وما زال تَشْرابى الخمورَ ولذتى ... وبَيْعى وإنفاقى طريفى ومُتْلَدِى[٣]

إلى أن تحامتْنى العشيرةُ كلها ... وأُفْرِدْت إفرادَ البعير المعبَّد[٤]

ولولا ثلاثٌ هن من عيشة الفتى ... وجَدِّك لم أحفل متى قام عُوَّدى[٥]

فمنهن سَبْقُ العاذلات بشَرْبةٍ ... كُمَيْت متى ما تُعْلَ بالماء تُزْبِدِ[٦]

---

(١) انظر فى حكام العرب كتاب المحبر ص ١٣٢.

(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٩/٧٥.

(٣) الطريف: المال الحديث، والمتلد: المال القديم.

(٤) تحامتنى: تجنبتنى، المعبد: الأجرب.

(٥) عود: جمع عائد أو عائدة، ويقصد من يعودونه عند الوفاة ويبكونه. والجد: الحظ والبخت.

(٦) الكميت: الخمر، يقول إنه يباكر شرب الخمر قبل انتباه العواذل.

وكرّى إذا نادى المضافُ محنَّبًا   كسِيدِ الغَضَا نبَّهْتَهُ المتوردِ[1]

وتقصيرُ يومِ الدَّجْنِ والدَّجْنُ معجبٌ   بِبَهْكنَةٍ تحت الخِباء المعمَّدِ[2]

وواضح أنه يجعل من خلال الفتى هذه الخصال الثلاث ، وهى الخمر والفروسية أو الشجاعة فى الحرب والتمتع بالنساء . **على أن هذه الفتوة التى يصورها طرفة** كانت تتسامى عند كثير من فرسانهم مثل عنترة ، بل حتى من صعاليكهم مثل عروة ابن الورد وسنعرض لذلك فى موضع آخر .

ومهما يكن فقد كانت الخمر وما يتبعها من استباحة النساء شائعة فى هذا العصر ، وكان يشيع معها القمار أو الميسر ، وكانت عادتهم فيه أن يذبحوا ناقة أو بعيراً ، ويقسموا ما يذبحونه عشرة أجزاء ، ثم يأتوا بأحد عشر قدحاً ، يجرون عليها قمارهم ، وكانوا يجعلون لسبعة منها نصيباً إن فازت ، وعلى أصحابها غُرْمٌ إن خابت ، وأكبرها نصيباً يسمى المُعَلّى . أما الأربعة الباقية فلاحظّ لها حتى إن فازت .

وأكبر الدلالة على شيوع هذه الآفات بينهم الآيات الكثيرة التى هاجمتها فى القرآن الكريم وما وضعه الإسلام لها من عقاب صارم حتى يكفّ العرب عنها ، وقد شدد فى عقوبة استباحة النساء ، وأكثر من النهى عن الخمر والميسر من مثل قوله تعالى : (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما) وقوله جلّ وعز : (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) وقد وصف الخمر بأنها (رجس من عمل الشيطان) . ونجد فى الحديث النبوى نهياً كثيراً عنها وأن الله لعنها ولعن عاصرها ومعتصرها وشاربها[3] وقد جعل لها

---

(١) المضاف : الخائف المذعور ، والمحنب : الفرس الذى فى قوائمه أو ضلوعه انحناء قليل ، والسيد : الذئب ، والغضا : شجر ، نبهته : هيجته ، المتورد : الجرىء . يقول : إذا استغاث به خائف عطف فرسا يسرع فى عدوه إسراع ذئب الغضا الجرىء حين تهيجه .

(٢) الدجن : الغيم ، البهكنة : المرأة الجميلة ، المعمد : المرفوع بالعماد .

(٣) انظر كتاب الأشربة فى سنن أبى داود وابن ماجة والنسائى والبخارى ، وراجع دائرة المعارف الإسلامية فى مادة خمر .

الرسول صلى الله عليه وسلم حدًّا : أربعين جلدة ، ولما وجد عمر أن بعض العرب لا يزال يتورط فى شربها رفع حدها إلى ثمانين .

وهذا كله يشهد شهادة قاطعة بانتشار هذه الآفات بين عرب الجاهلية ، وفى أخبار الأعشى أنه لما سمع بالرسول صلى الله عليه وسلم رغب فى الوفود عليه بالمدينة ومديحه ، وعلمت قريش فتعرضت له تمنعه ، وكان مما قاله له أبو سفيان إنه « ينهاك عن خِلال كلها بك رافق ولك موافق » فلما سأله عنها أجابه : الزنا والقمار والخمر ، فعدل الأعشى عن وجهته[١] . وعلى نحو ما هاجم الإسلام هذه الآفات هاجم قانونهم الدموى المقدس : قانون الأخذ بثأر ، فهدمه هدماً وأبطله إبطالا إذ جعل حقه للدولة لا للأفراد، وأقام لهم نظاماً سماويًّا رفيعاً لمجتمعهم ليس هنا محل بحثه .

وحتى الآن لم نتحدث عن المرأة ومكانتها فى هذا المجتمع ، وقد كان هناك نوعان من النساء : إماء وحُرّات ، وكانت الإماء كثيرات ، وكان منهن عاهرات يتخذن الأخدان ، وقينات يضربن على المزهر وغيره فى حوانيت الخمارين ، كما كان منهن جوار يخدمن الشريفات ، وقد يرعين الإبل والأغنام . وكن فى منزلة دانية ، وكان العرب إذا استولدوهن لم ينسبوا إلى أنفسهم أولادهن ، إلا إذا أظهروا بطولة تشرفهم على نحو ما هو معروف عن عنترة بن شداد ، فإن أباه لم يلحقه بنسبه إلا بعد أن أثبت شجاعة فائقة ردّت إليه اعتباره .

وكانت الحرة تقوم بطهى الطعام ونسج الثياب وإصلاح الخباء، إلا إذ كانت من الشريفات المخدومات ، فإنه كان يقوم لها على هذه الأعمال بعض الجوارى . وتدل دلائل كثيرة على أن بنات الأشراف والسادة كان لهن منزلة سامية ، فكن يخترن أزواجهن ، ويتركنهم إذا لم يحسنوا معاملتهن[٢] . وبلغ من منزلة بعض شريفاتهن أنهن كن يحمين من يستجير بهن ويرددن إليه حريته إذا استشفع بهن ، على نحو ما ردت فكيهة إلى السُّلَيْك بن السلكة حريته حين وقع أسيراً فى يد عشيرتها من بنى عوار[٣] . وكانوا يعدونها جزء لا يتجزأ من عرضهم ، ولم يكن شىء

---

(١) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٩/١٢٦. والأمالى ٢/١٠٦ والمحبر ص ٣٩٨ .

(٢) انظر الأغانى ١٠/١٣ وما بعدها

(٣) الأغانى (طبعة الساسى) ١٨/٣٧ .

يثيرهم كَسْبَى نسائهم وهم بعيد عن الحى ، فكانوا يركبون وراءهم كل وَعْر حتى يلحقوا بهن وينقذوهن ويغسلوا عار سبيهن عنهم ، وهو عار عندهم ليس فوقه عار .

وكانوا يصحبونهن معهم فى الحرب ، وكن يشددن من عزائمهم بما ينشدن من أناشيد حماسية ، حتى إذا قتل فارس ندبنه ندباً حارًّا حاضّات على الأخذ بثأره والانتقام من قتلته . وتلمع فى هذا الجانب أسماء كثيرات على رأسهن الخنساء ومراثيها فى أخويها صخر ومعاوية مشهورة . وكن يَستشطن غضباً إذا رضيت العشيرة بأخذ الدية ، حقناً للدماء ، على نحو ما تصور ذلك كبشة أخت عمرو بن معد يكرب ، وقد قُتل أخ لها[1] :

فإن أنتمُ لم تثأروا واتَّدَيْتُمُ ... فمشُّوا بآذان النَّعام المصلَّمِ[2]

فهى ترى أن عشيرتها إن قبلت الدية فى أخيها أعطتْ عن يد وهى صاغرة صَغار الأسرى الذين تُجدَع آذانهم ، بل صَغار النعام المصلم المقطوعة آذانه . وتقول أم عمرو بنت وَقْدان فى أخ لها قُتل وقد فكرت عشيرتها فى قبول ديته[3] :

إن أنتمُ لم تطلبوا بأخيكمُ ... فذَروا السِّلاح ووحِّشوا بالأبْرَقِ

وخذوا المكاحل والمَجاسد والبسوا ... نُقَب النساءِ فبئس رهط المُرْهَقِ[4]

فهم إن لم يثأروا لأخيها حقٌّ عليهم أن يلقوا السلاح ويمضوا على وجوههم إلى مكان بعيد بالأبرق ، فيتزيوا بزى النساء ، ويتعطروا ويتزينوا بزينتهن . وكانوا يفرون من الحرب حين لا يكون من الفرار بد ، إلا أن تكون معهم النساء ويروهن فارات وقد حسرن عن وجوههن ، حينئذ يثبتون فى المعركة ويناضلون حتى الذَّماء الأخير[5] :

وكان جمالهن يثيرهم ، وينطق ألسنتهم بوصفه ووصف ما كن يتزين به من

---

(١) المرزوقى ١/٢١٨ وقارن الأصمعيات ص ١٥٧ .

(٢) اتديتم : أخذتم الدية ، وآذان النعام مصلمة خلقة .

(٣) المرزوقى ٣/١٥٤٦ .

(٤) المجاسد : جمع مجسد وهو الثوب المشبع صبغة ، والنقب : جمع نقبة ، وهى إزار للمرأة.

(٥) المرزوقى ١/١٧٧ .

طيب وحلي وثياب على نحو ما تصور ذلك معلقة امرئ القيس إذ يقول :

وتُضحى فَتيتُ المسك فوق فراشها نَؤُومُ الضُّحى لم تَنْتَطِقْ عن تفضّلِ

ويقول المنخّل اليشكرى فى فتاته[1] :

الكاعب الحَسْناء تَـرْ فُلُ فى الدِّمَقْسِ وفى الحَرير

ولم يقفوا عند جمالها الجسدى ، فقد فطنوا إلى جمالها المعنوى وما تتحلى به من شيم وخصال كريمة ، على نحو ما يقول الشَّنْفَرى فى زوجته أميمة[2] :

لقد أَعجبتْنى لاسَقوطا قِناعُها إذا ما مشتْ ولا بذات تلفُّتِ
تبيت -بُعَيْد النوم- تُهدى غَبوقها لجاراتها إذا الهديَّةُ قَلَّتِ[3]
تحلّ بمنجاة من اللوم بيتَها إذا ما بيوتٌ بالمذمة حُلَّتِ
كأن لها فى الأَرض نِسْيًا تَقُصُّه على أَمِّها وإن تكلمك تَبْلَتِ[4]
أُميمةُ لا يُخزى نَثاها حَليلَها إذا ذُكرالنسوان عَفَّتْ وجَلَّتِ[5]
إذا هو أَمسى آبَ قُرَّةَ عينهِ مآب السعيد لم يَسَلْ أَين ظَلَّتِ[6]

فصاحبته وقور خجول ، لا يسقط قناعها فى أثناء سيرها ولا تلتفت حولها ، وهى كريمة مؤثرة تؤثر جارتها فى الجدب بغَبوق اللبن ، وقد حصَّنت بيتها عن كل لوم أو ذم يلحقها ، وهى شديدة الحياء ، ومن أجل ذلك لا ترفع رأسها عن الأرض فى مسيرها ، حتى ليظن من يبصرها أنها تبحث عن شيء ضاع منها . وإذا اعترضها شخص وكلمها أوجزت ومضت لقصدها وغرضها . وإن الحديث العَطِر عنها فى العشيرة ليملأ زوجها زهواً وخيلاء ، إنها مثال العفة والجلال . وإنه ليرفعها عن كل شك وتهمة ، فإذا أمسى وعاد إليها من المرعى أو بعد رحلته

---

(١) الأصمعيات ص ٥٥ .

(٢) المفضليات رقم ٢٠ .

(٣) الغبوق : اللبن الذى يشرب فى العشى .

(٤) النسى : الشيء المنسى أو المفقود ، تقصه : تتعقب أثره ، أمها بفتح الهمزة : قصدها . تبلت : أوجزت .

(٥) النثا : الحديث عن الشخص ، الحليل : الزوج .

(٦) آب : رجع .

الطويلة عاد قرير العين بها سعيداً ، فلا يسألها أين كانت لأنها موضع ثقته .

وتدور فى كتب الأدب قصص وأشعار كثيرة تصور هُيام بعضهم بهن ، وكانوا دائماً يفتتحون قصائدهم بذكرهن وما كان لهم من ذكريات معهن فى بعض المعاهد والمنازل ، ويمزجون ذلك بالدموع ، على نحو ما يقول امرؤ القيس فى مطلع معلقته .

قفا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ　　بسِقْطِ اللِّوَى بين الدَّخول فحَوْمَلِ

فالمرأة لم تكن فى الجاهلية مهملة ، بل كان لها قدرها عندهم ، كما كان لها كثير من الحرية ، فكانت تمتلك المال وتتصرف فيه كما تشاء ، وقصة اتجار الرسول صلى الله عليه وسلم فى أموال السيدة خديجة أم المؤمنين مشهورة . وقد دعم الإسلام هذه الحرية ، فحرم أن تُعْضَلَ المرأة وتمنع من الزواج بعد وفاة زوجها كما حرم زواج المَقْت ، وهو أن يجمع الرجل بين أختين ، وحرم الشِّغار ، وهو أن يتزوج شخصٌ أخت صديق له على أن يزوجه أخته ، وأيضاً فإنه حرم أن يتزوج الابن امرأة أبيه بعد موته أو أن يتزوج عدة رجال امرأة واحدة ، إلى غير ذلك مما كانوا يبيحونه . وتلك كانت عادات عندهم ، وهى تلازم الأمم فى عصور بداوتها ، ولكن ينبغى أن لا نفهم منها أن المرأة كانت مهدرة الحقوق فى الجاهلية ، أما ما سجله عليهم القرآن الكريم من وأدهم للبنات فى قوله تعالى : (وإذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به أيمسكه على هُون أم يَدُسُّه فى التراب ألا ساء ما يحكمون) فأكبر الظن أن من كانوا يصنعون ذلك منهم أجلاف قساة القلوب كانوا يخشون عليهن من الفقر أو السبى ، إذ كان سباؤهن كثيراً فى الجاهلية ، وكانوا يعدون ذلك سُبَّة ما بعدها سبة .

٢

المعيشة

لم يكن العرب يعيشون فى الجاهلية معيشة واحدة ، فقد عُرفت الزراعة فى الجنوب والشرق وواحات الحجاز مثل يثرب وخيبر وفى الطائف ووادى القُرى . وعاش أهل مكة على التجارة ، إذ كانوا يحملون عُروضها وسلعها بين حوضى المحيط الهندى والبحر المتوسط . وكانت قوافلهم تجوب الصحراء شمالا وجنوباً فى طرق معلومة كما كانت تجوبها شرقاً فى طريقين معروفين : طريق إلى الخليج الفارسى من شرقى مكة وكان يمر بمدينة الرياض الحالية ، وطريق ثان كانوا يذهبون فيه شمالا إلى خَيْبر ، ثم يخترقون الصحراء فى وادى الرُّمَّة ، ويظن أنه كان مجرى نهر فى عصور ما قبل التاريخ ، ومنه يهبطون إلى الحيرة . وكان يصحبهم فى هذه القوافل أدلاء يحمونهم الضلال فى مجاهل الصحراء [١] ، ومن أشهرهم فُرات ابن حيان ، كما كان يصحبهم خفراء يحمون قوافلهم من ذؤبان البادية وقراصنتها أو صعاليكها الذين تعودوا النهب والسلب [٢] ، وقد يبلغون ثلاثمائة عداً ، ومن أهم القبائل التى كانوا يخشون ذؤبانها قبيلتا هُذَيْل وفَهْم . وكانوا ينقلون من الجنوب : من اليمن وحوض المحيط الهندى وإفريقية الشرقية اللُّبان والطيب والبخور والجلود وثياب عدن النفيسة وتوابل الهند ورقيق إفريقية والصمغ والعاج ، كما كانوا ينقلون من الطائف الزبيب ومن مناجم بنى سليم الذهب . كل ذلك كانوا ينقلونه إلى حوض البحر المتوسط ويعودون محملين بالأسلحة والقمح والزيوت والخمر والثياب القطنية والكتانية والحريرية [٣] .

فمكة فى الجاهلية كانت مدينة تجارية عظيمة ، وكان بها الكعبة أكبر معابد العرب حينئذ ، فكانوا يحجون إلى أصنامهم وأوثانهم فيها ، وتقيم لهم قريش الأعياد والأسواق كسوق عكاظ [٤] ، وكانت أكبر أسواقهم ، وكانوا يقيمونها فى نجد

---

(١) المغازى للواقدى (طبع كلكتا) ص٣٦ ، ١٩٦ ، والمحبر ص ١٨٩ .

(٢) المحبر ص ٢٦٤ .

(٣) انظر مكة فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٤) راجع فى تحقيق عكاظ رسالة بعنوان موقع عكاظ لعبد الوهاب عزام (طبع دار المعارف).

بالقرب من عرفات من منتصف ذى القعدة إلى نهايته ، ولم تكن سوقَ تجارة فحسب ، بل كانت سوقاً للخطابة والشعر أيضاً ، وقد استمع فيها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قُسّ بن ساعدة وهو يخطب فى الناس . وقالوا إنه كانت تقام للنابغة فيها قُبَّة ويفد عليه الشعراء يعرضون شعرهم ، فمن أشاد به طار اسمه . وكثيراً ما كانوا يفتدون الأسرى فيها وتدفع الديات ، وأيضاً كثيراً ما كانت تقوم المفاخرات والمنافرات . وعُرف غير واحد بأن الناس كانوا يحتكمون إليه فيها ، ويذكر فى هذا الصدد أناس من تميم مثل الأقرع بن حابس . ومعنى ذلك كله أن عكاظاً كانت أشبه بمؤتمر كبير للعرب ، فيه يجتمعون وينظرون فى خصوماتهم ، ومنازعاتهم ، وكل ما يتصل بهم من شئون . ومن أسواق قريش أيضاً ذو المجاز بالقرب من عكاظ ، وكانت تظل هذه السوق منعقدة إلى نهاية الحج .

وبجانب هاتين السوقين الكبيرتين كان للعرب أسواق أخرى كثيرة يميرون فيها كما يريدون ويشترون ويبيعون ، ومن أهمها سوق دَوْمة الجندل فى شمالى نجد وسوق خيبر وسوق الحيرة وسوق الحِجْر باليمامة وسوق صُحار ودَبا بعمان وسوق المشقَّر بهَجر وسوق الشِّحر وسوق حضرموت وسوق صنعاء وعدن ونجران . وكان لكل سوق من هذه الأسواق وقت معلوم تعقد فيه[١] .

ولم يكن عرب نجد يفيدون من هذه الأسواق فقط البيعَ والشراء فإن قوافل عُروضها القرشية وغيرها كانت تجعل الكثيرين منهم جُعْلا نظير حمايتها ، وكانت تتخذ منهم الخفراء والأدلاء ، فتنفحهم بأموالها . على أنه ينبغى أن لا نظن أن أهل مكة جميعاً كانوا أثرياء ، فقد كان بجانب الأثرياء فقراء وصعاليك كثيرون ، وكان الفرق شاسعاً بين ثراء السيد الشريف وفقر المعوز البائس ، كما كان بها رقيق كثير .

ووراء المجتمع المكى كان يعيش العرب فى تهامة ونجد وصحراء النفود وبوادى الشام والدهناء والبحرين معيشة بدوية تعتمد على رعى الأغنام والأنعام . وكانوا لا يفضلون شيئاً على حياتهم الرعوية البدوية ، لا يفضلون الزراعة ولا الصناعة ، بل يحتقرونهما ويزدرونهما ، فلا حياة مثل حياتهم حياة البساطة والحرية التى

---

(١) انظر فى أسواق الجاهلية كتاب المحبر ص ٢٦٣ ، واليعقوبى ١/٣١٣ وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٤/٢٢٣ .

لاتُحَدّ . ووقفت الصحراء تحميهم وتحرس تقاليدهم ولغتهم وتقيم أسواراً من دونهم ودون هذه الحياة الصحراوية ، وهى حياة كان غذاؤهم فيها بسيطاً ، فقليل من الشعير يكفيهم ، وإذا أضيف التمر واللبن فذلك غذاء رافه ، وكان لباسهم بسيطاً كغذائهم ، وهو ليس أكثر من ثوب طويل يضمه فى وسطه منطقة وقد تلفه عباءة ، وغطاء للرأس يمسكه عقال .

ولكن لا تظن أن هذه الحياة البسيطة كانت سهلة ، فقد كانت الصحراء مليئة بالمخاوف والمخاطر ، إذ فيها غير قليل من الوحوش والسباع والحشرات والحيات ، وفيها القفار الجرداء الزاخرة بالخنادق والمهاوى ورياح السموم ، وفيها حنادس الليل المظلم المخيف التى كانت تلقى فى روعهم بالخيالات والأوهام وما تمثل لهم من السعالى والجن والغيلان . وفى تضاعيف ذلك كان العرب يتربص بعضهم ببعض ، إذ كانت حياتهم كما قدمنا حياة حربية دامية ، وكاد أن لا يكون هناك حى أو عشيرة بل أسرة إلا وهى واترة موتورة .

وقد تحولت هذه الحياة الحربية من بعض وجوهها إلى مصدر من مصادر رزقهم ، إذ كانوا يتخذون الغزو وسيلة من وسائل عيشهم ، وهو عيش مشوب بالضنك والشظف وهذا الصراع العنيف الذى كانوا يخوضونه ضد مخاطر الصحراء ومن يترصدهم من الأعداء ، وصوّر ذلك تصويراً طريفاً تأبط شرًّا فى كلمة له ، فقال [1] :

يظلُّ بِمَوْمَاةٍ ويُمْسى بغيرها ... جَحِيشًا ويَعْرَوْرِى ظهورَ المهالكِ [2]

ويَسْبق وَفْدَ الريح من حيث يَنْتَحِى ... بمُنْخَرِقٍ من شدِّهِ المتدارك [3]

إذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل ... له كالئٌ من قلب شيحانَ فاتك [4]

ويجعل عينيه رَبِيئةَ قلبه ... إلى سَلَّةٍ من حدِّ أخضرَ باتكِ [5]

---

(١) المرزوقى ١/٩٥ وأمالى القالى ٢/١٣٨ وزهر الآداب ٢/١٨ .

(٢) يظل هنا : يغدو ، الموماة : الفلاة ، جحيشاً : منفرداً ، يعرورى : يركب .

(٣) وفد الريح : أولها ، ينتحى : يقصد ، منخرق : سريع ، يقصد العدو السريع ، الشد : العدو ، المتدارك : المتلاحق .

(٤) خاط عينيه كرى النوم : نام ، الكالئ : الرقيب ، الشيحان : الجاد فى الأمر .

(٥) الربيئة : الرقيب والديدبان ، والسلة : الواحدة من سل السيف ، والأخضر : السيف ، والباتك : القاطع .

إذا هزَّه فى عَظْم قِرْنٍ تَهلَّلتْ نَواجِذُ أفواه المنايا الضَّواحِكِ (١)
يرى الوحشةَ الأُنْسَ الأَنيسَ ويَهْتَدِى بحيث اهتدتْ أمُّ النجوم الشَّوابك (٢)

وتلك كانت حياة أكثرهم ، فهم يقطعون مفازة فى النهار ، فإذا جنَّهم الليل وجدتهم فى مفازة أخرى وقد ركبوا ظهور المهالك والمعاطب ، لا يستصحبون رفيقاً غالباً سوى أرجلهم التى تعودت العدو السريع . وهم دائماً مفزَّعون حتى فى النوم، فإذا ناموا لم ينم قلبهم بل ظل يكلؤهم ويرعاهم خيفة عدو راصد من وحش أو إنسان، بل إن النوم لا يكاد يلم بعيونهم إلا غراراً ، فهى معلقة بسيوفهم التى لا تلبث أن تستقر فى صدور من يهجمون عليهم ، فيضحك الموت ويكشر عن أنيابه الغلاظ . وعلى هذه الشاكلة هم دائماً مستوحشون، بل إنهم ليؤثرون الوحشة ويستحبونها إذ يرون فيها الأنس ، فأنسهم فى التفرد بالفلوات والقفار التى تمرسوا بها وعرفوا مسالكها ودروبها معرفة تجعلهم لا يضلون قصدهم، كما لا تضل الشمس قصدها، بل يهتدون دائماً إليه .

وهذه الحياة القاسية المخوفة هى التى دفعتهم إلى الإشادة باحتمال الشدائد والجرأة والشجاعة ، فإن القبيلة إن لم يكن لها حماة يذودون عنها تخطفتها القبائل من حولها وفنيت فيها . وكان أهم حيوان أعانهم على احتمال هذه الحياة المجهدة البعير الذى يتحمل — مثلهم — مشاق الصحراء ولا يرهقه عطش ولا جوع ولا ما يحمله من أثقال . فهو رفيقهم المفضل الذى يوافقهم ، ولذلك طالما أشادوا به فى شعرهم . وكثيراً ما يصفون معه الحيوانات التى تصادفهم من مثل أُتن الوحش وحمارها وبقر الوحش وثورها والنعام والظباء . وكان فرسانهم ينفقون أيامهم على صهوات الجياد يرتادون بها مجاهل الصحراء ويلقون عليها الأعداء ، وقد يتخذونها لصيد الوحش على نحو ما يصور لنا ذلك امرؤ القيس فى معلقته وزهير فى لاميته (٣).

وكان صيد الحيوان الشغل الشاغل لكثيرين منهم ، فكانوا يدربون الكلاب عليه ويضرُّونها تضرية ، حتى تصبح من الجوارح الفاتكة ، وفى شعرهم قطع كثيرة تصف المعارك التى كانت تنشب بينها وبين الأتن وحمارها أو البقر وثورها .

---

(١) القرن : الكفء والنظير ، تهللت : تلألأت وأشرقت .
(٢) أم النجوم : الشمس .
(٣) انظر ديوان زهير ص١٢٤ وما بعدها .

وفى معلقة لبيد وصف بارع لأتن وحمارها ، ثم لبقرة وحشية تعقبها الرماة بنبلهم ، ولما يئسوا أن يصيبوا منها مقتلا أرسلوا فى إثرها جوارح الكلاب فنشبت معركة حامية قتلت فيها البقرة كلبتين هما كَسابِ وسُخام ، يقول :

حتى إذا يئسَ الرماةُ وأَرسلوا غُضْفًا دواجِنَ قافلا أَعْصامها[١]
فلحِقْنَ واعتكرتْ لها مَدْرِيَّةٌ كالسَّمْهريَّة حَدُّها وتمامها[٢]
لتذودهنَّ وأيقنتْ إن لم تذد أن قد أَحَمَّ مع الحتوف حِمامُها[٣]
فتقصَّدتْ منها كَسابِ فضُرِّجَتْ بدمٍ وغودر فى المكَرِّ سُخامُها[٤]

ولأوس بن حجر قصيدة فائية[٥] وصَف فيها حمار الوحش وصفاً بديعاً ، ثم وصف الصائد وصفاً مسهباً ، أرانا فيه ناموسه وكيف كان يختبئ للوحش على عين ، حتى إذا ورد الحمار ختله بسهمه ، غير أنه أخطأه .

ويظهر أن صيد الوحش لم يكن هم شجعانهم وفرسانهم ، إنما كان هم فقرائهم ومعوزيهم ، ولذلك كان يأتى فى المرتبة الثانية من غزوهم ونهبهم اللذين يدلان على بطولتهم واستبسالهم ، ولعل ذلك ما جعل عمرو بن معد يكرب يهجو قوماً بأنهم يعيشون على الصيد ، إذ يقول[٦] :

أَبنى زيادٍ أنتمُ فى قومكم ذَنَبٌ ونحن فُروعُ أَصلٍ طَيِّبِ
نَصِلُ الخميسَ إلى الخميسِ وأنتمُ بالقَهْر بين مُرَبِّقٍ ومُكَلِّبِ[٧]
حِيدٌ عن المعروف سعىُ أبيهمِ طلبُ الوعول بوَفْضَةٍ وبأَكْلُبِ[٨]

وكما كانوا يصيدون الوعول أو الماعز الجبلى كانوا يصيدون الوحش ، ويتردد وصفهم له فى أشعارهم تردداً واسعاً ، وهو تردد أتاح للجاحظ فى حيوانه سيولا

---

(١) الغضف : الكلاب المسترخية الآذان ، الدواجن : الضاريات وقيل المعلمات ، وقافلا : يابساً ، والأعصام : قلائد من أدم تجعل فى أعناق الكلاب .
(٢) اعتكرت : رجعت وعطفت ، والمدرية القرون الحادة ، والسمهرية : الرماح .
(٣) الحمام : الموت ، وأحم : حان .
(٤) تقصدت : قتلت من قولهم رماه فأقصده .
(٥) انظر ديوانه بتحقيق محمد يوسف نجم (طبع دار صادر ببيروت) رقم ٣٠ .
(٦) حيوان ٢/٣٠٩ .
(٧) الخميس : الجيش . المربق : الصائد بالربقة وهى العروة فى الحبل ، والمكلب : الصائد بالكلاب .
(٨) الوفضة : جعبة للسهام من أدم .

من هذه الأشعار .

وتلك كانت معيشتهم بين صيد الوحش وصيد للإنسان ورعى للأنعام والأغنام ، فتلك موارد رزقهم ، وليس معنى ذلك أنهم كانوا متساوين فى هذا الرزق ، فقد كان فى كل قبيلة السادة الذين يملكون مئات الإبل والفقراء الذين لا يملكون شيئاً . وتحول كثير من هؤلاء الفقراء إلى قطاع للطرق يسلبون وينهبون ويقتلون على نحو ما هو معروف عن تأبط شراً والشنفرى وأضرابهما . وما كان يقوم به هؤلاء الذؤبان أو الصعاليك كانت تقوم به القبائل برمتها أحياناً حين تكفّ السماء عنهم غيثها وتجدب ديارهم وتُمْحل، فلا يكون أمامهم سوى الغزو وشن الغارات ، ولعل ذلك هو الذى دفعهم دفعاً إلى الإشادة بالكرم والكرماء ، وقد أشادوا طويلا بهذه الفضيلة كما أسلفنا ، وهى إشادة طبيعية فى هذه الصحراء المقفرة المهلكة ، التى يحفُّ بها المحل والجدب من كل جانب .

٣

المعارف

ليس بين أيدينا ما يدل على أن العرب الجنوبيين أورثوا عرب الشمال حضارة واضحة ، ويظهر أنهم لم يخْطوا فى طريق الحضارة خطى واسعة ، فقد كان عندهم علم بالزراعة وهندسة إرواء الأرض وإقامة المدن ، ولم يكن عندهم ثقافة ذات معالم بينة ، وحتى من وجهة التنظيم السياسى كان يعمهم النظام الإقطاعى ، ولذلك حينما ضعفت دولتهم الأخيرة دولة سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنات أو الدولة الحميرية تحولوا سريعاً إلى قبائل بدوية .

ومما لا ريب فيه أن العرب الشماليين كانوا على صلة بالحضارات المجاورة ، فقد كان تجّار مكة يدخلون فى مصر والشام وبلاد فارس ، وكان الحيريون يتصلون مباشرة بالفرس ، كما كان الغساسنة يتصلون بالروم، وقد تنصروا ، وشاعت النصرانية فى قبائل الشام والعراق ، ونزل بينهم كثير من اليهود فى الحجاز واليمن . وكل ذلك معناه اتصال العرب الشماليين بالأمم المجاورة وحضاراتها ، ولكن يبدو أن ذلك كان يجرى فى حدود ضيقة وأنه وقف فى جمهوره عند تأثرات بسيطة كأن يأخذوا عن الفرس والروم بعض فنون الحرب أو يعرفوا بعض أخبارهم وأساطيرهم ، فى السيرة

النبوية أن قريشاً حين جمعت العرب — بعد موقعة أحد — لغزو المدينة أشار سَلمان الفارسى على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحفر الخندق ، حتى لا يستطيعوا اقتحام المدينة عليه ، وكأنه كان أعلم مَنْ حوله بأساليب الحرب(١). وفى السيرة أيضاً أن النضر بن الحارث كان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رُسْتم وإسْفِنْديار، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم (وهو لا يزال فى مكة) مجلساً فذكر فيه الله وحذر قومه ما أصاب مَنْ قبلهم من الأمم من نقمة الله خلَفه فى مجلسه إذا قام، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهلم إلى فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس وأبطالهم الأسطوريين(٢) .

فالعرب الشماليون لم يكونوا منقطعين عن التأثيرات الحضارية الأجنبية ، غير أنه ينبغى أن لا نبالغ فى تصور ما وصل إليهم من هذه التأثيرات ، فقد كانوا لا يزالون فى طور السذاجة البدوية ، وكل ما يمكن أن يقال إنهم كانوا فى نهاية هذا الطور . وقد وقف من قديم قوم يقارنون بينهم وبين الشعوب المتحضرة من حولهم كالفرس والروم ، وكان على رأسهم الشعوبية ، وهى مقارنات تقوم على التحكم ، لأنها تقارن بين بدو ومتحضرين ، وقد مر الفرس والروم بطور بداوة كما مر العرب ، ولم يكن لهم فيه حضارة ولا نظر علمى دقيق . ومثل هذه المقارنات ما بعثه الغربيون منذ القرن الماضى من الموازنة بين الساميين جميعاً عرباً وغير عرب وبين الآريين ، على نحو ما هو معروف عن رينان(٣) ، فقد ذهبوا يزعمون أن الآريين هم الجنس المفضل الذى أحدث الحضارة ،وكأنهم يريدون أن يبرروا صنيع ساستهم واستعمارهم للشعوب السامية . . وهى نظرية لا تؤيدها الحقائق العلمية الخالصة ، إذ لا يستطيع أحد أن يثبت نقاء سلالة جنسية بعينها ، لها نسب صريح ، وأيضاً فإن هذه النظرية تتناسى أثر البيئة والظروف التى تلم بالشعوب ، ومن المحقق أن الحضارة الإنسانية ليست من عمل جنس واحد ، فقد تعاونت على تكوينها أجناس متباينة ، ولكل جنس فيها نسبه المتعادلة . ويدخل فى هذه المقارنات المضللة ما نجده عند ابن خلدون

---

(١) السيرة النبوية (طبعة الحلبى) ٣/ ٢٣٥ .

(٢) السيرة النبوية ١/ ٣٢١ .

(٣) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ١/ ١٦٨ .

من حكمه على العرب بأنهم ليسوا أصحاب صناعات ولا علوم[١] ، لأن ذلك إنما ينطبق عليهم فى الجاهلية ، أما فى الإسلام فقد عرفوا الصناعات ونهضوا فى الميادين العلمية والفلسفية نهضة كانوا فيها أساتذة العالم فى عصوره الوسيطة . ويقول أوليرى : إن العربى مادى ، ضيق الخيال والعواطف[٢] ، وكأنه يتجاهل أدبهم وما يزخر به من أخيلة ومشاعر ، وهو تعميم جنسى لا دليل عليه ، وكأنما قادته إليه نظرية الأجناس البشرية وما يدعو إليه أصحابها من تفوق الجنس الآرى على ما سواه من أجناس .

وندع هذه المقارنات المضللة وما سقط منها من أحكام خاطئة إلى بيان ما كان لدى العرب فى الجاهلية من معارف ، لعل أهمها علمهم بالأنساب والأيام وما ينطوى فى ذلك من المناقب والمثالب ، مما سجله العباسيون فى مجلدات ضخمة . وكأنهم رأوا فى ذلك كله تاريخهم ، فكانوا يروونه ويحفّظونه أبناءهم ، واشتهر عندهم كثيرون فى هذا الباب من أبواب الرواية .

ويلى هذا النوع من المعارف معرفتهم بالنجوم ومطالعها وأنوائها وأمطارها ، يقول الجاحظ : «وعرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء لأن من كان بالصحاصح الأماليس[٣] — حيث لا أمارة ولا هادى مع حاجته إلى بعد الشقة — مضطر إلى التماس ما ينجيه ويـؤْديه[٤] ، ولحاجته إلى الغيث وفراره من الجدب وضنه بالحياة اضطرته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث ، ولأنه فى كل حال يرى السماء وما يجرى فيها من كوكب ويرى التعاقب بينها والنجوم الثوابت فيها وما يسير منها مجتمعاً وما يسير منها فارداً[٥] ، وما يكون منها راجعاً ومستقيماً . وسُئلت أعرابية فقيل لها : أتعرفين النجوم ؟ قالت : سبحان الله أما أعرف أشباحاً وقوفاً علىّ كل ليلة . ووصف أعرابى لبعض أهل الحاضرة نجوم الأنواء ونجوم الاهتداء ونجوم ساعات الليل والسعود والنحوس ، فقال قائل لشيخ عِبادى كان حاضراً : أما ترى هذا الأعرابى

(١) المقدمة (طبع المطبعة البهية) ص ٢٥٢ وفى مواضع متفرقة .

(٢) فجر الإسلام لأحمد أمين (الطبعة الأولى) ص ٣٩ نقلا عن كتاب أوليرى : Arabia Before Muhammad.

(٣) الصحاصح : الأرض المستوية ، الأماليس : التى ليس بها ماء ولا شجر .

(٤) يؤديه : يعينه .

(٥) فارداً : منفرداً .

يعرف من النجوم ما لا نعرف ؟ قال : من لا يعرف أجذاع[١] بيته[٢]؟ !» .
وهى معرفة أداهم إليها فرط الحاجة ، ويقول صاعد بن أحمد المتوفى سنة ٤٣٥ هـ :
« كان للعرب معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغايبها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك فى أسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق ولا على سبيل التدرب فى العلوم[٣] » .

وبهذا القياس نفسه كانت معارفهم الطبية ، فقد عرفوها بالتجربة مثل الكى بالنار وفوائد بعض العقارات النباتية . وكان ينتشر بينهم فى تضاعيف ذلك كثير من الخرافات كإيمانهم بأن دم السادة يشفى من الكلب وأن عظام الميت تشفى من الجنون وأن روحاً شريرة تحلّ فى المريض، وكانوا يتداوون منها بالعزائم والرُّقى .
فطبهم كان قاصراً ولم يكن مبنيًّا على قواعد عقلية، وحقًّا ما يقول ابن خلدون :
« للبادية . . طب يبنونه فى غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ، متوارثة عن مشايخ الحى وعجائزه ، وربما يصح منه البعض ، إلا أنه ليس على قانون طبيعى ولا على موافقة المزاج ، وكان عند العرب من هذا الطب كثير ، وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كَلَدة وغيره[٤] » . ومن أهم معارفهم الطبية معارفهم البيطرية ، وخاصة فيما اتصل بالخيل والإبل ، فقد عرفوا شياتها وما يزينها ويعيبها وما يتصل بذلك من علل وأمراض وأدواء كالجرب وما كانوا يداوونه به .
وقد تحدثوا طويلا عن حيواناتهم وخصائصها حديثاً بل أحاديث أفاد منها الجاحظ فى حيوانه ، غير أنه يعلق على ذلك بقوله : « وإنما أعتمد على ما عند الأعراب ، وإن كانوا لم يعرفوا شكل ما أحتاج إليه منها من جهة العناية والفلاية[٥] ولا من جهة التذاكر والتكسب ، ولكن هذه الأجناس الكثيرة ما كان منها سبعاً أو بهيمة أو مشترك الخلق فإنما هى مبثوثة فى بلاد الوحش من صحراء أو واد أو غائط أو غيضة أو رملة أو رأس جبل ، وهى فى منازلهم ومناشئهم ، فقد نزلوا كما ترى بينها وأقاموا معها . . وربما بل كثيراً ما يُبتلون بالناب والمخلب وباللدغ واللسع والعض والأكل ، فخرجت بهم الحاجة إلى تعرف حال الجانى والجارح والقاتل

---

(١) الأجذاع : سيقان النخل تجعل سقفاً للخيمة.
(٢) الحيوان ٦ / ٣٠ .
(٣) طبقات الأمم لصاعد (طبع بيروت) ص ٤٥ .
(٤) المقدمة ص ٣٤٦ .
(٥) الفلاية : النظر العلمى .

وحال المجنى عليه والمجروح والمقتول ، وكيف الطلب والهرب ، وكيف الداء والدواء لطول الحاجة ولطول وقوع البصر ، مع ما يتوارثون من المعرفة بالداء والدواء[١] » .
وكانت لهم عناية خاصة بالفراسة والقيافة ، وهى تتبع الأثر فى الأرض والرمل ، ولهم فى ذلك أقاصيص طويلة ، وطبيعى أن تنمو عندهم القيافة ليتعقبوا من يضل منهم فى الصحراء ، أو ليتعقبوا الأعداء الذين يغيرون عليهم وينهبون أموالهم ونساءهم فى غيبتهم عن أحيائهم .

وهذه الضروب جميعها من المعرفة ضروب أولية ، تقوم على التجربة الناقصة ولا تؤسس على قاعدة ولا على نظرية ، فهم فى جمهورهم بدو ، ليسوا أصحاب علم ولا نظر عقلى مؤسس على أسلوب علمى . ولعله من أجل ذلك شاعت عندهم العيافة وهى التنبؤ بملاحظة حركات الطيور ، وقد اشتهر بها بنو أسد وبنو لِهْب ، وكانوا يتيامنون بها ويتفاءلون إن جرت يمنة ويتشاءمون إن جرت يَسْرة ، ولهم فى الطِّيرة أحاديث كثيرة ، قال الجاحظ : « وأصل التطير من الطير إذا مرَّ بارحاً (ميامناً) وسانحاً (مياسراً) أو رآه يتفلى وينتف ، حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم أو الأعضب أو الأبتر زجروا عند ذلك وتطيروا . . فكان زجر الطير هو الأصل ، ومنه اشتقوا التطير ، ثم استعملوا ذلك فى كل شىء . . وللطيرة سمت العرب المنهوش بالسليم والبرِّية بالمفازة وكنّوا الأعمى أبا بصير والأسود أبا البيضاء وسموا الغراب بحاتم . والغراب أكثر من جميع ما يتطيَّر به فى باب الشؤم »[٢]. ولإيمانهم بباب الطيرة كانوا يستقسمون بالأزلام والقداح ، وهى سهام ، كانو يكتبون عليها عبارات يصدرون عنها مثل الآمر والناهى والمتربص ، وهى غير أزلام القمار وقداحه .

وكل هذا يدل على أن التسبيب العقلى عندهم كان ضعيفاً ، وأنهم كانوا لا يحسنون ربط المسببات بأسبابها ربطاً محكماً ، وهذا طبيعى فقد كانوا فى طور البداوة ، فلم يكونوا يفهمون الارتباط بين العلة والمعلول ، وكانوا لا يتعمقون فى بحث الأشياء ، إنما كانوا ينظرون إليها نظراً عارضاً أو خاطفاً . يقفون عند الجزئيات ، ولا يتعلقون بمدركات كلية أو نظرات شاملة فكل ذلك لا يطوف بالدائرة التى يحيونها دائرة الحياة الفطرية الساذجة . وحقًّا شاعت عندهم الحكمة ، ولكن لا بمعناها

---

(١) الحيوان ٦/ ٢٩ .
(٢) الحيوان ٣/ ٤٣٨ وما بعدها .

الذى عُرفت به فى العصور الإسلامية وهو الفلسفة ، وإنما بمعنى الخبرة المحدودة التى تصورها عبارة من العبارات القصيرة . ومن أمثالهم « فى بيته يؤتى الحكم » وهو من يحكم بين الناس فى منافراتهم ومفاخراتهم وخصوماتهم . وربما اشتقت الكلمة من هذا المعنى ، فالحكم هو العاقل المجرب الذى يحقق بحكمه العدل ويمنع الخصام . وكذلك كانت الحكمة ، فهى تنبئ عن معرفة الشخص بالحياة ، ووقوفه على طرقها المستقيمة التى تهدى سبيل الرشاد .

وكثرت الحكم والأمثال عندهم ، وألفت فيها كتب ضخمة فى العصر العباسى ، من أشهرها كتاب « جمهرة الأمثال » للعسكرى و « مجمع الأمثال » للميدانى . واشتهر عندهم حكماء كثيرون كانوا يفصلون بينهم ، ويتناقلون ما يجرى على ألسنتهم من وصايا وتعاليم يفيدون منها فى حياتهم ، يقول الجاحظ : « ومن القدماء ممن كان يذكَر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنَّكْراء (الفطنة) لقمان بن عاد ولقيم بن لقمان ومجاشع بن دارم وسَليط بن كعب بن يربوع . . ولؤى بن غالب وقس بن ساعدة وقصى بن كلاب . ومن الخطباء البلغاء والحكام والرؤساء أكثم بن صيفى وربيعة بن حِذار وهرم بن قُطْبة وعامر بن الظَّرب ولبيد بن ربيعة »[1] . وللقمان سورة فى القرآن الكريم ، ويقال إنه كانت له حكم معروفة عند الجاهليين جمعوها فى صحيفة تدعى مجلة لقمان ، ففى أخبار سُوَيْد بن الصامت أنه «قدم مكة حاجًّا أو معتمراً ، فتصدَّى له رسول الله صلى الله عليْه وسلم فدعاه إلى الله عز وجل وإلى الإسلام ، فقال له سويد : لعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله : وما الذى معك ؟ قال : مجلة لقمان ، يعنى حكمة لقمان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعرضْها على ، فعرضها عليه ، فقال : إن هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل منه : قرآن أنزله الله علىَّ ، وهو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد ، وقال إن هذا القول حسن ، ثم انصرف ، وقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتلته الخزرج ، فكان رجال من قومه يقولون : إنا لنراه مات مسلماً ، وكان قتْلُه يوم بُعاث[2] » .

---

(١) البيان والتبيين (طبعة عبد السلام هارون) ١/٣٦٥ .

(٢) أسد الغابة ٢/٣٧٨ .

وتمتلئ كتب الأمثال والأدب بما دار على لسان لقمان وغيره من حكماء الجاهلية من حكم، مثل قول أكثم: «مقتلُ الرجل بين فكّيه» وقول عامر بن الظرب: «رب زارع لنفسه حاصد سواه». وفى الشعر الجاهلى كثير من هذه الحكم، وهى تُذْكَرُ فى ثنايا كلامهم من مثل قول طرفة فى معلقته:

أرى العَيْشَ كَنْزًا ناقصًا كلَّ ليلةٍ ... ومَا تَنْقُصِ الأَيامُ والدَّهْرُ يَنْفَدِ

وممن اشتهر بهذه الحكم الأفوه الأودى ولبيد وعَبيد بن الأبرص، وفى خاتمة معلقة زهير طائفة كبيرة منها على شاكلة قوله:

وأَعلمُ عِلْمَ اليومِ والأَمس قبله ... ولكننى عن علم ما فى غدٍ عَمِ

ومن لا يصانعْ فى أُمور كثيرة ... يضرَّس بأَنيابٍ ويوطأْ بمنْسِمِ[١]

ومن لا يَذُدْ عن حَوْضِه بسلاحِهِ ... يهدَّم ومن لا يَظْلِم الناس يُظْلَمِ

ومن هاب أَسبابَ المنية يلقها ... ولو رام أَسباب السماء بسُلَّم

ومهما تكن عند امرئٍ من خليقةٍ ... وإن خالها تخفى على الناس تُعْلم

وكان أكثر حكمهم يستقى من مروءتهم وسُنَنها التى وصفناها فيما مر من حديثنا، وهى تجرى مجرى التعاليم التى ينبغى أن يأخذوا بها فى حياتهم. وقد وقف شعراؤهم كثيراً عند فكرة الحياة والموت والدهر وما يرمى به الناس، وكانوا يرون أنه لا مفر من الموت ولا حيلة منه، فلا ينفع إزاءه صحة ولا شباب ولا قوة، وكثيراً ما يذكرون مَنْ سبقهم إليه متخذين من ذلك عظتهم، يقول قُسُّ بن ساعدة[٢]:

فى الذاهبين الأوَّلـ ... ـين من الشعوب لنا بَصائِرْ

لما رأيت مواردًا ... للموت ليس لها مصادرْ

ورأيت قومى نحوها ... تسعى الأَصاغرُ والأَكابر

لا يرجعَنْ قومى إلـ ... ـىَّ ولا من الباقين غابر

---

(١) المصانعة: الترفق والمداراة، يضرس: يعض، المنسم: خف البعير.

(٢) حماسة البحترى ص ٩٠٩ وانظر البيان والتبيين ١ / ٣٠٩.

أيقنتُ أنى لا محالة حيث صار القومُ صائرْ

وكثيراً ما يتسعون بهذه النظرة ، فيخرجون عن إفناء الزمان لعشائرهم وقبائلهم إلى إفنائه للدول والملوك من حولهم ، فالليالى والدهر والأزمان فى كل وقت تهدم جداراً كبيراً إما من ملك أو دولة ، وحتى الأنبياء وسليمان الذى سُخِّرت له الجن تلفتْ نفوسهم جميعاً وهلكوا كما هلك من قبلهم ، ويهلك من بعدهم[1] .

ودائماً يكررون أن الدهر بالمرصاد وأنه لا يؤمَنُ فى صباحه ومسائه ، ولهم فى عتابه على فجيعته لهم بالأهل محاورات طريفة ، كقول زهير إن صح أنه له[2] :

يا من لأقوامٍ فُجِعتُ بهم كانوا ملوك العُرْب والعُجْم
استأثر الدهرُ الغداةَ بهم والدهرُ يرمينى ولا أرمِى
لو كان لى قِرْنًا أُناضلُهُ ما طاش عند حَفِيظةٍ سهمى[3]
أو كان يعطى النِّصْفَ قلت له أحرزْتَ قسمك فالْهُ عن قسمى[4]
يا دهر قد أكثرتَ فَجْعَتَنا بسَرَاتنا ووقَرْتَ فى العظم[5]
وسلبتنا ما لستَ مُعْقِبنا يا دهر ما أنصفتَ فى الحكم

وعلى هذه الشاكلة كان لهم ضرب من التفكير فى حقائق الحياة والموت ، كما كان لهم حكم كثيرة مقتبسة من حقائق مجتمعهم ومعاشهم . وليس فى ذلك كله فلسفة ، ولكن فيه البساطة والفطرة وما يدل على حنكتهم وتجربتهم الحسية الواقعية .

(١) حماسة البحترى ص ٨٣ وانظر المفضليات ص ٢١٧ .

(٢) حماسة البحترى ص ١٠٥ وانظر الديوان (طبعة دار الكتب) ص ٣٨٥ .

(٣) الحفيظة : الغضب .

(٤) النصف : العدل .

(٥) السراة : السادة ، وقرت : صدعت .

٤

الدين[1]

كانت كثرة العرب فى الجاهلية وثنية تؤمن بقوى إلهية كثيرة تنبثّ فى الكواكب ومظاهر الطبيعة ، وفى أسماء قبائلهم ما يدل على أنهم كانوا قريبى عهد بالطوطمية (Totemism) إذ تلتف جماعة حول الطوطم تتخذه حاميها والمدافع عنها من مثل كلب وثور وثعلبة . وقد آمنوا بقوى خفية كثيرة فى بعض النباتات والجمادات والطير والحيوان ، وليس بصحيح ما يزعمه رينان من أنهم كانوا موحدين[2] ، فقد كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى كما جاء فى القرآن الكريم . وكانوا يتعبدون لأصنام وأوثان كثيرة اتخذوها رمزاً لآلهتهم ، ويفيض كتاب الأصنام لابن الكلبى فى بيان هذا الجانب . ويظهر أن عبادة النجوم والكواكب دخلت عندهم من قديم ، وقد جاءتهم من الصابئة وبقايا الكلدانيين ، كما جاءتهم من لدن عرب الجنوب الذين كانوا يرجعون بآلهتهم إلى ثالوث مقدس ، كما مر بنا ، هو القمر أو وَدّ ، والشمس أو اللات ، والزهرة أو العُزّى . ونراهم يقدسون النار ، ويظهر ذلك فى إيقادهم لها عند أحلافهم ، واستمطارهم السماء وتقديم القرابين إليها[3] ويقال إن المجوسية كانت متفشية فى تميم وعُمان والبحرين وبعض القبائل العربية[4] ، والمجوس كما نعرف ثَنَوية يؤمنون بإلهين يدبران العالم هما النور والظلمة أو الخير والشر .

وكانت عبادة الأصنام منتشرة بينهم انتشاراً واسعاً . وقد صوروها أو نحتوها رمزاً لآلهتهم . وقد يرون فى بعض الأحجار والأشجار والآبار ما يرمز إليهم . ففى أخبارهم أن العُزّى كانت لغطفان ، وهى شجرة بوادى نخلة شرقى مكة . وقد قطعها خالد بن الوليد . وهو يقول :

---

(١) انظر فى ديانات الجاهليين الجزءين الخامس والسادس من تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على وكتاب روبرتسن سميث : Lectures on the Religion of the Semites. وبقايا الوثنية العربية لفلهوزن : Reste Arabischen Heidentums. والأساطير العربية قبل الإسلام لمحمد عبد المعيد خان وتاريخ العرب القديم ترجمة فؤاد حسنين على .

(٢) راجع جواد على ٥/٢٠ وما بعدها و ٥/٢٣ وما بعدها حيث يذكر رأى رينان وآراء غيره من المستشرقين .

(٣) انظر الحيوان ٤/٤٦٦ وما بعدها .

(٤) جواد على ٦/٢٨٤ وما بعدها .

يا عُزّ كُفرانك لا سُبْحانكِ إنى رأيت الله قد أهانك[١]

ويشير القرآن الكريم إلى بعض آلهتهم ورموزها من أصنامهم وأوثانهم ، فيقول جل وعز : (أفرأيتم اللات والعُزَّى ومَناة الثالثة الأخرى) ويقول سبحانه وتعالى : (ولا تذَرُنَّ وَدًّا ولا سُواعاً ولا يغوثَ ويعوق ونَسْراً). وكانت عبادة اللات أو الشمس شائعة بين العرب الجنوبيين وفى الحجاز ، وكان معبدها فى الطائف ، ويقال إنه كان صخرة مربعة بيضاء بنَتْ عليه ثقيف بيتاً وكانت قريش وجميع العرب يعظمونه[٢] ، ويتردد فى أسمائهم وهب اللات وعبد شمس، وعبد العزى ومثلها مثل اللات فى تعظيم قريش والعرب لها وتقديسها . وكانت مناة صخرة منصوبة على ساحل البحر بين المدينة ومكة ، وربما كان فى اسمها ما يدل على أنها ترمز إلى إله الموت ، فهى إلهة القضاء والقدر ، وكانت معظمة عند هُذَيْل وخُزاعة والعرب جميعاً وخاصة الأوس والخزرج إذ « كانوا يحجون إلى مكة ، ويقفون مع الناس المواقف كلها ، ولا يحلقون رءوسهم ، فإذا نفروا أتوا مناة وحلقوا رءوسهم عندها ، لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك »[٣] . ووَدّ كما قدمنا من الآلهة الجنوبية ، وهو يؤلف مع اللات والعزى ثالوث الأب والأم والابن ، وكان صنمه بدومة الجندل ، وظل منصوباً هناك إلى أن جاء الله بالإسلام[٤] . وكان سُواع صنم هذيل وكنانة ، وهو حجر كانوا يعبدونه هم وعشائر كثيرة من مضر[٥] ، وربما كان فى اسمه ما يدل على أنه إله الشر والهلاك ، ويغوث وهو صنم مذحج وعشائر من مراد وهوازن[٦] . وكان يعوق صنم هَمْدان وخولان وما والاهما من القبائل[٧] . وفى اسمه واسم يغوث ما يشير إلى أرواح حافظة ، فمعنى يغوث يعين ، ومعنى يعوق يحفظ

---

(١) الأصنام لابن الكلبى ص ١٧ وما بعدها ومادة العزى فى معجم البلدان .

(٢) الأصنام ص ١٦ والمحبر لابن حبيب ص ٣١٥ ومعجم البلدان فى اللات .

(٣) الأصنام ص ١٤ وأخبار مكة للأزرقى (طبعة المطبعة الماجدية) ١ / ٧٣ ومعجم البلدان فى مناة والمحبر ص ٣١٦ .

(٤) الأصنام ص ٥٥ وما بعدها والمحبر ص ٣١٦ ومعجم البلدان فى « ود » .

(٥) الأصنام ص ٥٧ ومجمع البيان فى تفسير القرآن للطبرسى ١٠ / ٣٦٤ ومادة رهاط ، حيث أقاموه ، فى معجم ما استعجم للبكرى ومعجم البلدان لياقوت .

(٦) الأصنام ص ١٠ ، ٥٧ والمحبر ص ٣١٧ والطبرسى ١٠ / ٣٦٤ ومعجم البلدان فى يغوث .

(٧) الأصنام ص ١٠ ، ٥٧ والطبرسى ١٠ / ٣٦٤ ويعوق فى معجم البلدان .

ويمنع . وكان نسر معبود حمير[١] ، وانتشرت عبادته فى الشمال، ويشير اسمه فى وضوح إلى الطائر المعروف باسمه ، وفى الطبرسى : «كان وَدّ على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر من الطير »[٢] .

ووراء هذه الأصنام التى ذكرها القرآن الكريم أصنامٌ كثيرة كانت تتعبد لها قريش والقبائل العربية فى الجاهلية ، ويقال إنه كان فى الكعبة عند فتح الرسول صلى الله عليه وسلم لمكة ثلاثمائة وستون صنما[٣] . وكان أعظمها عند القرشيين هُبَل : « وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى ، وجعلتها له قريش من ذهب : وكان فى جوف الكعبة قدامه سبعة قِداح ، مكتوب فى أحدها : « صريح » والآخر : « مُلْصَقٌ ». فإذا شكّوا فى مولود أهدوا إليه هدية ، ثم ضربوا بالقداح (السهام) فإن خرج (صريح) ألحقوه بأبيه ، وإن خرج (ملصق) دفعوه . وقدْحٌ على الميت ، وقدح على الزواج .. وإذا اختصموا فى أمر أو أرادوا سفراً أو عملا أتوه فاستقسموا بالقداح عنده ، فما خرج عملوا به وانتهوا إليه .. وعنده ضَرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله »[٤] . وباسمه كان ينادى أبو سفيان فى معركة أحد ويصيح : اعْلُ هبل .

ومن أصنام قريش المشهورة إساف ونائلة ، ويقال إنهما كانا شخصين أتيا أعمالا سيئة فمُسخا حجرين ، وعبدهما الناس ، وكان أحدهما ملاصقاً للكعبة ، وثانيهما فى موضع زمزم ، ويقال إن إسافا كان بإزاء الحجر الأسود وكانت نائلة بإزاء الركن اليمانى[٥] . ومن أصنامهم مَناف وبه سمى عبد مناف .

ومن الأصنام المشهورة رضا وتَيْم وشمس لتميم وذو الخَلَصَة وهو صنم خَثْعم وبَجيلة وأزد السراة ، ويقال إنه كان مروة بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج ، وكان موضعه بتَبالة وله بيت يحجون إليه[٦] . وذو الشَّرَى وكان له معبد ضخم فى

---

(١) الأصنام ص ٥٧ والطبرسى ١٠ / ٣٦٤ ومادة نسر فى معجم البلدان واللسان وتاج العروس .

(٢) الطبرسى ١٠ / ٣٦٤ .

(٣) انظر الجزء الثانى من ابن الأثير فى ذكر فتح مكة .

(٤) الأصنام ص٢٨ والطبرسى ١٠ / ٣٦٤ .

(٥) الأصنام ص ٢٩ والمحبر ص ٣١٨ والطبرسى ١٠ / ٣٦٤ .

(٦) الأصنام ٣٤ ، ٤٧ والأزرقى ١ / ٢٥٦ والمحبر ص ٣١٧ .

سلع (بطرا)[١] ويظهر أن عبادته قديمة ، وهو يقابل الإله ديونيسيوس عند اليونان إله الخصب والخمر .

وكانوا يتخذون عند هياكل هذه الأصنام والأوثان أنصاباً من حجارة يصبّون عليها دماء الذبائح التي يتقربون بها إلى آلهتهم ، وكانوا يقدسون هذه الأنصاب ويعدونها مقرًّا لبعض الأرواح . وفي القرآن الكريم : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) . والأزلام هي القداح كما مر بنا .

وفرق بين الصنم والوثن ، فالصنم يكون غالباً تمثالا ، أما الوثن فيكون غالباً حجراً ، وقد يسمى الصنم بالوثن ، يقول ابن الكلبي : « واستهترت العرب في عبادة الأصنام ، فمنهم من اتخذ بيتاً ومنهم من اتخذ صنما ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن ثم طاف به كطوافه بالبيت .. فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار ، فنظر إلى أحسنها ، فاتخذه ربًّا وجعل ثلاثة أثافيّ لِقدْره ، وإذا ارتحل تركه ، فإذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك . وكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها »[٢] .

وهذه البيوت التي اتخذوها لأصنامهم كان منها كعبات كبيرة يحجون إليها ككعبة ذي الخَلَصة وهي الكعبة اليمانية وكعبة الطائف وهي بيت صنمهم اللات ، وأشهر كعباتهم كعبة مكة حارسة الوثنية في الجاهلية ، وهي التي وصلتنا عنها تفاصيل كثيرة توضح ما كانوا يتخذون في حَجِّهم إليها من شعائر . وكانوا يطوفون بها أسبوعاً ويسعون بين الصفا والمروة ، ويُظَنُّ أنه كان على كل منهما صنم . ويقال إنه كان على الصفا إساف وعلى المروة نائلة . وكانوا يقفون بعَرفة ويفيضون منها إلى المزدلفة ثم مِنى . وكانت إفاضتهم في عرفة عند غروب الشمس ، أما في المزدلفة فعند شروقها ، وكان يتولّى الإجازة في الأولى بعض التميميين . وفي الكعبة الحجر الأسود وكانوا يتبركون به ويتمسحون بأركان الكعبة جميعها . ويقال إن طوافهم بأصنامهم كان سبعة أشواط وكانوا يختلفون في طوافهم ، فمنهم من يطوف عرياناً وهم الحلة[٣] ، ومنهم من يطوف في ثيابه وهم الحُمْس[٤] من قريش

---

(١) الأصنام ص ٣٧ وتاج العروس واللسان في مادة الشرى .
(٢) الأصنام ص ٣٣ .
(٣) المحبر ص ١٨٠ وما بعدها .
(٤) المحبر ص ١٧٩ والأزرقي ١/١١٤ .

وكنانة وخزاعة، ويصور لنا الأزرقى طواف العريان بقوله : « يبــدأ بإساف فيستلمه (يعتنقه) ثم يستلم الركن الأسود ، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه ، فإذا ختم طوافه سبعاً استلم الركن (حيث الحجر أو الحطيم) ثم استلم نائلة ، فيختم بها طوافه ، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس فيأخذها ، فيلبسها ، ولا يعود إلى الطواف بعد ذلك عُرْياناً[1] » . وقد أبطل الإسلام العرى فى الطواف ، كما أبطل كثيراً من تقاليد الحُمْس[2] .

وكان من تقاليدهم رمى الجمرات فى مِنى وتقديم العتائر أو الضحايا وذبحها عند الأنصاب وكذلك تقديم الهدايا من الزروع والغلات ، وفى القرآن الكريم : (وجعلوا لله مما ذَرَأ من الحَرْث والأنعام نصيباً، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشُركائنا فما كان لشركائهم فلا يصلُ إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون) . وتدل الآية الكريمة على أنهم كانوا يجعلون لله نصيباً ، ثم يعودون فيجعلونه لآلهتهم الصغرى أو لأصنامهم . وذكر القرآن الكريم البَحيرة والسائبة والوَصيلة والحام ، وأولاها الناقة أو الشاة يحرِّمون لبنها والانتفاع بها ، والثانية مايسيِّب (يترك) نذراً للآلهة فلا يمنع من ماء ولا كلأ ، والثالثة ناقة أو شاة تحمل سبعة أبطن ، فإذا كان السابع ذكراً ذُبح وأكل منه الرجال والنساء ، وإن كان أنثى استحيوه ، وإن ولدت توأماً : ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها وحرّموا ذبحه على أنفسهم . أما الحام فالبعير ينتج عشرة أبطن من صُلبه ، ويقولون : قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى .

ويظهر أنه كانت عندهم طقوس كثيرة فى نذورهم وقرابينهم ، وقد هدمها الإسلام هدماً ، وأيضاً كانت هناك شعائر وطقوس كثيرة فى الحج نفسه لعل أهمها التلبية ، يقول ابن حبيب : « وكانوا يلبّون إلا أن بعضهم كان يشرك فى تلبيته ، وكان نسك قريش لإساف ، تقول : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك . وكان لكل قبيلة بعدُ تلبية ، فكانت تلبية من نسك للعزى : لبيك اللهم لبيك ، لبيك وسعديك ما أحبَّنا إليك . وكانت تلبية من نسك للات : لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، كفى ببيتنا بنيَّة ، ليس بمهجور ولا بلية ، لكنه من تربة زكية ، أربابه من صالحى البرية . . . وكانت تلبية من نسك لوَدّ :

(١) الأزرقى ١/١١٤ .

(٢) الأزرقى ١/١١٦ وما بعدها .

لبيك اللهم لبيك ، لبيك معذرة إليك . وكانت تلبية من نسك لذى الخَلَصة : لبيك اللهم لبيك ، لبيك بما هو أحب إليك . . . [١] ».

وجعلوا للحج أربعة أشهر معلومات ، سموها الأشهر الحرم ، وهى رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وكان الحج إلى مكة فى ثالثها ، وفى اسمه ما يدل على أن الحج المعظم للكعبة القرشية كان فيه . وكانت هذه الأشهر حراماً عندهم فلا يستباح دم ، ولا تنشب حروب ، إلا ما كان من حرب الفجار ، وعُدّت انتهاكاً عظيماً لحرمات البيت . وكأنما كانت هذه الأشهر هدنة لهم ، ومُعيناً لبعدائهم عن الأماكن المقدسة فى الوصول إليها دون أن تُمَسّ نذورهم . وكانوا فيها يتجرون ويميرون ويقيمون أسواقهم كسوق عكاظ .

وكانت هناك جماعات تقوم على سِدانة بيوتهم المقدسة ، ويسمونها الحجابة ، وكانت فى مكة لبنى عبد الدار ، وبجانب هؤلاء السَّدَنة كهان كانوا يدّعون معرفة الغيب وأنه سُخّر لهم طائف من الجن يسترق لهم السمع فيعرفون ما كُتب للناس فى ألواح الغد . وممن عُرف بذلك سَطيح الذئبى وشِق بن مصعب الأنمارى وعوف بن ربيعة الأسدى وسلمة الخزاعى وسواد بن قارب الدوسى وعُزّى سلمة [٢] . ونجد بجانب الكهنة كاهنات مثل الشعثاء والكاهنة السعدية والزرقاء بنت زهير وكاهنة ذى الخَلَصة [٣] . وفى أخبار الإسلام الأولى ما يدل على أنه كان يلحق ببيوت الأصنام بغايا ، وكانوا سبباً فى ثورة بحضرموت قضى عليها أمية بن أبى المهاجر لعهد أبى بكر الصديق [٤] .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على أنهم كانوا يؤمنون إيماناً واسعاً بالأرواح وأنها تحل فى كل ما حولهم من مظاهر الطبيعة ، وكان منها أرواح خيرة ، هى الملائكة وأرواح شريرة هى الشياطين . وفى القرآن الكريم : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستُكتب شهادتهم ويسألون) . فكانوا

---

(١) المحبر ص ٣١١ .

(٢) السيرة النبوية (طبع الحلبى) ١/ ١٥ والكامل لابن الأثير (طبع ليدن) ١/ ٣٠١ وأغانى (طبعة دار الكتب) ٩/ ٨٤ وطبعة الساسى ١٠/ ٧٠ والسيرة الحلبية (طبع بولاق) ١/ ٥ .

(٣) انظر مجمع الأمثال للميدانى ١/ ٩١ ، ١/ ٢٢٣ ، ٢/ ٥٤ .

(٤) المحبر ص ١٨٤ .

يزعمون أنها بنات الله ، وكانوا يعدونها — كأصنامهم — من شفعائهم عند الله وشركائه ، وحكى القرآن اعتقادهم فى ذلك إذ يقول جلّ وعز : (ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون) . وفى القرآن سورة للجن وكانوا يخافونها ويتعبدونها ويجعلون بينها وبين الله نسبًا ، يقول جل وعز : (وجعلوا لله شركاء الجن ، وخلقهم . وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون) . وفى أساطيرهم أو قل فى معتقداتهم أن الجن هى التى تصد الثيران عن الماء حتى تمسك البقر عن الشرب فتهلك . يقول الجاحظ : وكانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب إما لكدر الماء أو لقلة العطش ضربوا الثور ليقتحم الماء ، لأن البقر تتبعه[1] ، فكانوا إذا امتنعت ظنوا ذلك من عمل الجن وإيحائهم . ولهم فيها كثير من الأساطير ، عرض لها الجاحظ فى الجزء السادس من حيوانه ، فتحدث عن مواطنها فى رأيهم وأنها تركب النعام والظباء والحشرات وأنها تتصوّر فى صور كثيرة ، وتتوالد مع الناس ، وقد تستهويهم وتقتلهم أو تخبلهم ، ويُسْمَع ليلا عزيفهم وهتافهم . ومنهم من يألف الكهان ويخدمهم وهو الرَّئِىّ ، ومنهم من صورته على نصف صورة الإنسان ويسمى شِقًّا . ولكل شاعر شيطانه الذى ينفث فيه الشعر . ومنهم السعلاة ، والغول وهى من سباعهم . ويزعم تأبط شرًّا فى شعر يضاف إليه أنه لقيها فى ليلة مظلمة وهو يسعى فى فلاة ، فنازلها وما زال بها حتى قتلها وهو لا يعرفها . يقول[2] — إن صح أنه قائله — :

فلم أنفكّ متكئًا عليها لأَنظر مصبحًا ماذا أتانى
إذا عينان فى رأسٍ قبيحٍ كرأْس الهِرِّ مشقوق اللسانِ
وساقا مُخْدَجٍ وشَواة كلبٍ وثوبٌ من عَباءٍ أَو شِنانِ[3]

وهؤلاء الوثنيون كانوا ينكرون الرسل وأن هناك إلهاً واحداً قال جلّ وعز : (وعجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عُجاب ، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن

(١) انظر الحيوان ١/١٨ وما بعدها .
(٢) الأغانى (ساسى) ١٨/٢١٢ .
(٣) مخدج : ناقص الخلق ، الشواة : الأطراف ، الشنان : جلد القربة البالى .

هذا الشيء يُراد، ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق) . وكانوا لا يؤمنون ببعث ولا نشور يقول جلّ ذكره : (وقالوا إنْ هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) وقال : (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) وقال : (وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) .

ولا نصل إلى أواخر العصر الجاهلي حتى نجد استعداداً لفكرة الإله الواحد، وخاصة عند طائفة كانت تدعى باسم الحُنَفاء ، وكانت تشك في الدين الوثني القائم وتلتمس ديناً جديداً يهديها في الحياة . يقول ابن إسحق : « اجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه ويَنْحرون له ويعكفون عنده ويديرون (يطوفون) به ، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً ، فخلص منهم أربعة نفر نجيًّا، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكتمْ بعضكم على بعض قالوا أجل، وهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وعبيد الله ابن جحش . . . وعثمان بن الحويرث . . . وزيد بن عمرو بن نفيل . . . فقال بعضهم لبعض : تعلمون والله ما قومكم على شيء، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجرٌ نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً ، فإنكم والله ما أنتم على شيء . فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم ، فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية . . وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم . . وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر . . وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والمَيْتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان . . وقال أعبد ربَّ إبراهيم »(١) ومعروف أنه أسلم وكان من الصحابة الأولين المقدمين .

وأكبر الظن أن كلمة حنيف معناها المائل عن دين آبائه كما يدل على ذلك اشتقاقها ، ولم يكن هؤلاء الحنفاء في مكة وحدها ، فقد كانوا منتشرين في القبائل ، إذ تعدّ كتب الأدب والتاريخ منهم قس بن ساعدة الإيادي وأبا ذَرٍّ الغفاري وصِرْمة

---

(١) السيرة النبوية ١/٢٣٧ .

ابن أبي أنس أحد بني النجار في المدينة وعامر بن الظرب العُدْواني وخالد بن سنان العبسي وأمية بن أبي الصَّلْت الثقفي وعمير بن جندب الجُهَنِي . ويمكن أن ندخل فيهم كثيرين ممن حرّموا على أنفسهم في الجاهلية الخمر والسكر والأزلام (١) مثل عبد المطلب بن هاشم وقيس بن عاصم التميمي وحنظلة الراهب ابن أبي عامر غسيل الملائكة . ولا نرتاب في أن صنيع هؤلاء إنما كان شكًّا في حياتهم الدينية . وكل ذلك يؤكد أن الوثنية الجاهلية كانت على وشك الانحلال . فما انبلجت أضواء الإسلام . حتى اعتنقه العرب ودخلوا فيه أفواجاً .

٥

اليهودية والنصرانية

لا نصل إلى العصر الجاهلي حتى نجد اليهود منتشرين في اليمن والحجاز (٢) . والمظنون أنهم هاجروا من موطنهم الأصلي في فلسطين إلى الجزيرة على أثر اصطدامهم بالقيصر طيطوس (Titus) وهدمه للهيكل سنة ٧٠ للميلاد . وكذلك اصطدام القيصر هدريان بهم سنة ١٣٢ ففي هذه الأثناء فر كثير منهم إلى الحجاز . وسقط غير قليل منهم إلى اليمن . وقد تكون هجراتهم أقدم من ذلك . ولكن ليس بين أيدينا نصوص وثيقة . نعرف منها بالضبط مراحل وفودهم على الجزيرة سواء في الحجاز أو اليمن . وحتى هجراتهم في أيام طيطوس وهدريان غير واضحة تماما .

وقد استطاع يهود اليمن في أوائل العصر الجاهلي أو بعبارة أخرى في أوائل القرن السادس الميلادي أن يؤثروا في ملك من ملوك التبابعة هو ذو نُوَاس . وأن يدخلوه في دينهم . وقد دفعوه دفعاً إلى التنكيل بنصارى نجران وتحريقهم . وفي ذلك نزلت الآيات الكريمة : (قُتِل أصحاب الأخْدود النارِ ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) .

---

(١) المحبر ص ٢٣٧ .

(٢) راجع في اليهودية بجزيرة العرب كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على الجزء السادس وكذلك كتاب مرجليوث : The Relation between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam.

وربما كان السبب الحقيقى فى استجابته لليهود أنه كان يخشى من تغلغل النصرانية فى بلاده وأن يفتح ذلك الأبواب لنصارى الحبشة ، فيستولوا عليها بدون مقاومة . على أن الأحباش سرعان ما انتقموا لإخوانهم ، فأزالوا دولة ذى نُوَاس سنة ٥٢٥ وظلوا نحو خمسين عامًا ، حتى أجلاهم عنها أهلها بمساعدة الفرس .

ويظهر أن هذه الفترة التى قضاها الأحباش النصارى هناك كانت سببًا فى تفرق اليهود وخروج كثيرين منهم من اليمن وتشتتهم فى البلاد . ولكن ظلت بقايا هناك ، دخل كثيرون منها فى الإسلام من مثل كعب الأحبار ووهب ابن منبّه ، ولهما فى الإسرائيليات التى شاعت بين المسلمين ومؤرخيهم أثر كبير .

وأهم من يهود اليمن يهود الحجاز ، وكانوا قبائل وجماعات كثيرة انتشرت فى واحات الحجاز : يثرب وخَيْبَر ووادى القرى وتَيْماء ، وكان فى يثرب منهم عشائر كثيرة أهمها بنو النَّضير وبنو قريظة وبنو قَيْنُقاع وبنو بَهْدل ، وقد نزل بينهم الأوس والخزرج كما قدمنا ، وفرضت القبيلتان عليهم سيادتهما . وكانوا يشتغلون بالزراعة والصياغة والحدادة وصناعة الأسلحة ونسج الأقمشة ، وكانوا يعمدون عمدًا إلى الإيقاع بين القبيلتين العربيتين ، فاشتبكتا فى حروب دامية ، حتى جمعهما الرسول صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، فأصبح أفرادها بنعمة الله إخوانًا متحابين . وناهض اليهود الرسول ، فكانوا يثيرون معه مناقشات ومجادلات صوّرها القرآن الكريم ، وذهبوا يحاولون الوقيعة بين المسلمين ، ويؤلبون عليهم قريشًا وغير قريش ، مما اضطر الرسول عليه السلام إلى إجلائهم عن المدينة . وفى السيرة النبوية لابن هشام وطبقات ابن سعد ما يدل على أنهم كانوا يتدارسون دينهم فى دار ندوة لهم تسمى المدراس وأنهم كانوا يقرأون التوراة والمِشْنة والزبور (مزامير داود) بلغتهم القديمة العبرية ، ولكنهم اتخذوا العربية لغتهم اليومية ، ونظم فيها بعضهم شعرا عربيًا .

وعلى نحو ما تعرب يهود يثرب تعرب يهود خيبر ووادى القرى وفدك وتيماء ، واشتهر بينهم غير شاعر كالسموأل بن عادياء ، وقد قاوموا الإسلام وأظهروا له العداوة والبغضاء ، فحاربهم الرسول ، وانتصر عليهم ، ولم يلبث عمر أن أمر بإجلاء كل من ليس له عهد منهم ، فخرج جمهورهم من الجزيرة ، ولم يبق منهم إلا نفر قليل . وليس بين أيدينا ما يدل أى دلالة على أنهم خلفوا آثاراً واضحة فى الجاهليين ،

فقد ظل العرب الشماليون بعيدين عنهم وعن دينهم ، لا يتأثرون به فى قليل ولا كثير ، وإن حاول بعض المستشرقين إثبات هذا التأثير [١] .

وقد انتشرت النصرانية فى اليمن وشمالى الجزيرة الغربى والشرقى [٢] ، ويُظَنّ أن انتشارها فى اليمن بدأ منذ القرن الرابع الميلادى ، وكان من أهم الأسباب فى انتشارها هناك بعثات دينية كان يشجعها القياصرة ، ولعلهم أرادوا بذلك النفوذ إلى فرض سلطانهم على البلاد وتحول كنوز قوافلها إليهم . ولا نصل إلى العصر الجاهلى حتى نرى النصرانية منتشرة فى نجران وغيرها ويظهر أن نجران كانت أهم مواطنها ، وقد نكبهم ذو نواس نكبته المشهورة التى أشرنا إليها فيما أسلفنا ، ودخل الأحباش بقيادة أبرهة ، فدُعمت النصرانية واعتنقها كثيرون ، وبُنيت لها كنائس فى غير مدينة . ومن أشهر كنائسها كنيسة نجران ، وفى السيرة النبوية أن وفداً منها قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم وكان فيه العاقب والسيد ، وهما الرئيسان السياسيان كما كان فيه أسقفهم وحَبْرهم أبو حارثة بن علقمة ، وكان « قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه بدينهم ، فكانت ملوك الروم من النصرانية قد شرفوه وموّلوه وأخدموه وبنوا له الكنائس » [٣] . ويقال إن أبرهة أنشأ كنائس كثيرة فى مدن اليمن ، واهتم بزينتها وزخرفتها ، أشهرها القليس فى صنعاء ، وهى تعريب لكلمة Ecclysia اليونانية بمعنى الكنيسة ، ويقال إنه « نقشها بالذهب والفضة والفسيفساء وألوان الأصباغ وصنوف الجواهر . . وكان ينقل إليها آلات البناء كالرخام المجزّع والحجارة المنقوشة بالذهب . . ونصب فيها صلباناً من الذهب والفضة ومنابر من العاج والآبنوس » [٤] . ويظهر أنه استعان فى بنائها بأنقاض من قصور ملوكهم السابقين ومعابدهم القديمة . وقد حولها المسلمون إلى مسجد لا يزال قائماً إلى اليوم .

وكانت النصرانية منتشرة بين عرب الشام من الغساسنة وغيرهم مثل عاملة وجُذام وكلب وقضاعة ، وكانوا على مذهب اليعاقبة أو المنوفيستيين ، وهم القائلون بأن

---

(١) انظر جواد على ٦/٩١ وما بعدها وكذلك ص ١٧٧ وما بعدها .

(٢) انظر فى النصرانية بجزيرة العرب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على - الجزء السادس - والنصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية للويس شيخو .

(٣) انظر وفد نجران فى سيرة ابن هشام ٢/٢٢٢ .

(٤) مادة القليس فى معجم البلدان لياقوت وتفسير الطبرى ٣٠/١٩٣ .

للمسيح طبيعة واحدة وأقنوماً واحداً . ولذلك يسمون أصحاب الطبيعة الواحدة ، وصاحب هذا المذهب هو يعقوب البرادعي المولود حوالى سنة ٥٠٠ للميلاد ، وقد دخل فى مذهبه — كما قد منا — الغساسنة ومَنْ والاهم من عرب الشام .

ونفذت النصرانية إلى عرب العراق أيضا إلى تغلب وإياد وبكر ، وتغلغلت فى الحيرة على الرغم من ملوكها الوثنيين فكان يعتنقها بها العباديون ، وأغلب الظن أنهم سموا بذلك تمييزاً لهم من جيرانهم الوثنيين ، فهم عباد الله . ولم يكونوا يعاقبة كعرب الشام ، وإنما كانوا غالباً نساطرة نسبة إلى نسطوريوس (Nestorius) المتوفى سنة ٤٥٠ للميلاد وكان يرى أن للمسيح طبيعتين أو أقنومين : أقنوم الناسوت وأقنوم اللاهوت . وقد تأخرت الهيئة الحاكمة من آل المنذر فى التنصر ، ويقال إن هندا أم عمرو بن المنذر ابتنت ديراً هناك ويقال بل بَنَتْه هِنْد بنت المنذر . وقد دخل أخوها النعمان فى النصرانية ، وهو آخر المناذرة .

وكان الرقيق الحبشي الذى تزخر به مكة نصرانيًّا . ويظن أنه كان بها جالية من الروم النصارى[١] ، ويقال إنه كان بها عبدان نصرانيان أصلهما من عين التمر[٢] وإنه كان بها جوار روميات[٣] ، ويقال إن شماسا زار مكة فى الجاهلية[٤] ، وكان يعيش فى مَرّ الظهران راهب مسيحى[٥] . ويزعم اليعقوبى أن قوما تنصروا من قريش قبيل الإسلام منهم ورقة بن نوفل وعتبة بن أبى لهب وعثمان بن الحويرث الأسدى[٦] . والمظنون أنه كان فى المدينة بعض النصارى . وإليهم يشير حسان فى رثائه للرسول صلوات الله عليه — إن صح أنه له — إذ يقول[٧] :

فرحتْ نصارى يثربٍ ويهودُها لما تَوارى فى الضريح الملحَدِ

وكانت النصرانية منتشرة فى طيئ ودومة الجندل . وهى على هذا النحو كانت تختلف عن اليهودية التى لم تدع فى القبائل . على أنه ينبغى أن لا نبالغ فى تصور من تنصّروا من العرب قبل الإسلام . ونظن أنهم قاموا بتعاليم النصرانية قياماً دقيقا ،

---

(١) O'Leary, Arabia Before Muhammad p. 184.

(٢) أسباب النزول للواحدى ص ٢١٢ .

(٣) أسد الغابة ١/٣٨٧ ، ٤/ ٢٢٢ ، ٥/١٩٤ ، ٤٦٢ .

(٤) ابن هشام ١/ ٣٤٩ وأسد الغابة ٣/ ٢٧٥

(٥) السيرة الحلبية ١/ ٧٥ .

(٦) تاريخ اليعقوبى ١/ ٢٩٨ .

(٧) ديوان حسان (طبعة هرشفلد) ص ٥٩ .

فقد عرفوا الكنائس والبيع والرهبان والأساقفة والصوامع ، ولكنهم ظلوا لا يتعمقون فى هذا الدين الجديد ، وظلوا يخلطونه بغير قليل من وثنيتهم ، وربما كان مما يوضح ذلك خير توضيح قول عدى بن زيد العِبادى[١] :

سعى الأعداءُ لا يألون شرًّا علىَّ وربِّ مكة والصَّليبِ

فهو يجمع فى قسمه بين رب مكة الوثنية ورب الصليب ، وكذلك كان أكثر العرب من النصارى ، فهم مسيحيون وثنيون فى الوقت نفسه . ومن يقرأ شعره لا يجد فيه فكرة التثليث المعروفة فى النصرانية .

والحق أن نصارى العرب فى الجاهلية إنما عرفوا ظاهرًا من دينهم ، وقلما عرفوا حدوده . وقد سقطت إلى أشعارهم وأشعار الوثنيين أنفسهم كلمات ومصطلحات كثيرة منه ومن شخوصه وطقوسه . فمنذ امرئ القيس وقوله[٢] :

يضيىءُ سَناه أو مصابيح راهبٍ أهان السَّليط فى الذُّبال المفتَّل

والشعراء يرددون ذكر الرهبان ومحارب كنائسهم ، يقول الأعشى[٣] :

كدُمْيَــةٍ صُوِّر محرابها بمُذْهَبٍ ذى مَرْمَرٍ مائرِ

وطالما تحدثوا عن نواقيسهم وقَرْعها فى أواخر الليل . يقول المرقِّش الأكبر فى بعض شعره[٤] :

وتسمع تزقاءً من البوم حولنــا كما ضربتْ بعدالهدوِّ النواقسُ[٥]

وعرض النابغة الذبيانى فى مديحه للغساسنة لتدينهم . ولبعض أعيادهم كعيد الشعانين ويسميه السَّباسب إذ يقول فيهم[٦] :

رقاقُ النِّعال طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُمْ يحيَّوْن بالريحان يوم السَّباسِبِ

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٢/١١١ .

(٢) ديوان امرئ القيس (طبعة دار المعارف) ص ٢٤ . و والسليط : الزيت .

(٣) الديوان (طبعة جاير) القصيدة رقم ١٨ .

(٤) المفضليات (طبعة دار المعارف) ص ٢٢٥ .

(٥) التزقاء : الصياح . والهدو : أوائل الليل .

(٦) مختار الشعر الجاهلى للسقا ص ١٦٢ .

وذكر أوس بن حجر عيد الفصح الذى كانوا يحتفلون به فيوقدون المشاعل ويضيئون الكنائس بالقناديل والمصابيح ، يقول[١] :

عليه كمصباح العزيز يَشُبُّه لفِصْحٍ ويحشوه الذُّبالَ المفتَّلا

وجرى على لسانهم كثير من أسماء الأنبياء ، من مثل داود ، وكان يشتهر عندهم بنسجه للدروع المتينة القوية ،ومن ثَمَّ يقول سلامة بن جندل فى وصف بعض الدروع[٢] :

مُدَاخَلةٍ من نسج داود شَكُّهـا كحَبِّ الجَنا من أُبْلُمٍ متفلِّقِ[٣]

وقد يتحدثون عن ملكه فى صدر حديثهم عن الملوك البائدين وكيف يعتدى الدهر على الناس فلا يبقى ولا يذر.

ويكثر فى شعر الأعشى وأمية بن أبى الصلت وعدى بن زيد القصَصُ عن الأنبياء وسيرهم قصصاً نظن ظنًّا أنه موضوع . وهو إن قُبل من عدى النصرانى فإنه لا يقبل من الأعشى ، وكان وثنيا . وتبدو فى شعر بعض الشعراء نزعة إلى التفكير فى الحياة والموت على نحو ما أسلفنا فى غير هذا الموضع ، كما يبدو فى شعر نفر منهم إيمان بالله ، كقول عَبيد بن الأبرص فى معلقته — إن صح أنه له — :

من يسألِ الناسَ يَحْرِمـوهُ وسائلُ اللهِ لا يَخيبُ

ويزعم بعض المستشرقين أن الرواة الإسلاميين هم الذين وضعوا لفظة الجلالة فى شعر الجاهليين بدلا من كلمة اللات التى تتفق معها فى الوزن[٤] . وفى معلقة زهير :

فلا تكتمُنَّ اللهَ ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يُكْتَمِ اللهُ يعلم

يؤَخَّر فيوضعْ فى كتاب فيُدَّخَرْ ليوم الحساب أو يعجَّل فيُنْقَمِ

(١) ديوان أوس ص ٨٤ .

(٢) الأصمعيات (طبعة دار المعارف) ص ١٥٠ .

(٣) مداخلة: محكمة النسج ، شكها: أحكمها ، الأبلم : بقلة لها قرون بها حب يابس .

(٤) جواد على ٦/٣٠٥ .

فالله يعلم خائنة الصدور وما تخفى ، ويعاقب كل إنسان على ما قدمت يداه عاجلا أو آجلا فى يوم الحساب ، وإذا صح البيتان لزهير كان ذلك دليلا على أنه ممن تحنفوا قبل الإسلام .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على أن وجود النصرانية فى الجزيرة قد أثر فى الشعراء آثاراً مختلفة لا فى شعرائها الخاصين بل أيضًا فى بعض الشعراء الوثنيين ، وكان من آثار ذلك ظهور جماعات المتحنفين ، وتسربُ فكرة البعث والحساب إلى نفر من الجاهليين . .

الفصل الرابع
اللغة العربية

١

عناصر سامية مغرقة فى القدم[1]

أشرنا فى غير هذا الموضع إلى أن اللغات السامية تتشابه فى كثير من الكلمات والضمائر والأعداد تشابهاً يثبت القرابة بينها . وهو تشابه يفيدنا فى معرفة نمو كل لغة من هذه اللغات وتطورها على مر التاريخ حتى تشكلت فى صورتها الأخيرة . وقد أبلى علماء الساميات بلاء مشكوراً فى الدراسة المقارنة لهذه اللغات من حيث الصيغ والألفاظ والتصريف والإعراب والأصوات . وهى دراسة تفيدنا فائدة جلّى فى التأريخ لكثير من الظواهر اللغوية ومعرفة قديمها من حديثها . فإن لاحظنا تشابهاً بين لغتين من هذه اللغات فى ظاهرة بعينها ورجعنا إلى اللغات الأخرى ووجدنا نفس التشابه كان معنى ذلك أن الظاهرة قديمة وأنها ترتقى إلى العصر الذى كانت هذه اللغات متحدة فيه . وقد يقع التشابه فى الظاهرة فى لغتين غير متجاورتين . فإما أن يرجع إلى أصل قديم . وإما أن يكون ثمرة تطور تاريخى فى كل منهما أدّى إلى نفس النتيجة . أما إذا كانتا متجاورتين كالعربية والآرامية فإما أن تكون الظاهرة قديمة ترجع إلى أزمان اتحادهما . وإما أن تكون إحداهما تأثرت الأخرى . ولعل فى هذا ما يدل على أن أسلافنا توسعوا أكثر مما ينبغى حين درسوا الدخيل فى عربيتنا ، فوقفوا عند ألفاظ كثيرة وقالوا إنها سريانية آرامية . غير ملتفتين إلى أن طائفة من هذه الألفاظ ترجع إلى الأصل السامى القديم . فلا يقال إن العرب أخذوها من السريان ولا إن السريان أخذوها من العرب . بل يقال إنها من الكلمات السامية

---

(١) راجع فى هذه العناصر كتاب «التطور النحوى للغة العربية» لبرجشتراسر (طبع القاهرة ١٩٢٩) والجزء السابع من تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ومحاضرات خليل يحيى نامى بكلية الآداب فى جامعة القاهرة .

القديمة التى تداولها الساميون فى زمان اتحادهم قبل تفرق لهجاتهم وتطورها إلى لغات مستقلة لها مشخصاتها وسماتها الصرفية وغير الصرفية .

ونضرب مثالا آخر أثار ضجة واسعة بين المستشرقين ، وهو ما زعمه ڤولرز من أن القرآن الكريم كان فى بادئ الأمر غير مُعْرب ، إذ كان بلهجة قريش الدارجة ، وهى لهجة — فيما يزعم — كانت غير معربة ، وكانت تختلف عن لهجة الشعر الجاهلى الخاضعة لقواعد النحو والعربية . ومضى يقول إن النحاة المتأخرين هم الذين صاغوه فى لغة البدو المعربة . وقد رفض كثير من المستشرقين وعلى رأسهم بوهل ونولدكه وجاير هذا الرأى رفضا باتًّا[١] ، ويقول يوهان فك : « أما أن أقدم أثر من آثار النثر العربى وهو القرآن قد حافظ أيضًا على غاية التصرف الإعرابى فهذا أمر وإن لم يكن من الوضوح والجلاء بدرجة الشعر الذى لا تترك أساليب العروض والقافية مجالا للشك فى إعراب كلماته ، إلا أن مواقع كلام القرآن الاختيارية لا تترك أثراً للشك فيه كذلك . انظر مثلا آية ٢٨ من سورة فاطر : (إنما يخشى الله من عباده العلماءُ) وآية ٣ من سورة التوبة : (أن الله برىء من المشركين ورسولُه) وآية ١٢٤ من سورة البقرة : (وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه) وآية ٨ من سورة النساء : (وإذا حضر القسمةَ أولو القربى) فمثل مواقع الكلمات فى هذه الآيات . . . لا يمكن أن يكون إلا فى لغة لا يزال الإعراب فيها حيًّا صحيحاً . يُضاف إلى ذلك شهادة القرآن نفسه فى مثل آية ١٣٠ من سورة النحل : (وهذا لسان عربى مبين) وصريح من هذا أنه لم يقم عند محمد ومعشره فرق هام بين لغة القرآن وبين لغة العرب أى قبائل البدو »[٢] .

ومما يثبت بطلان رأى ڤولرز أيضا أنه لم يُعْرف عن قبيلة عربية من القبائل الشمالية أنها اتخذت لهجة دارجة خالية من قواعد النحو والعربية . وقد نسى أو تناسى أن قراءات القرآن الشريف توقيفية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولو أنه قرأه على الصحابة فى لهجة غير معربة لتقضى على اللهجات المعربة من حوله . وعلى الرغم من وضوح فساد هذا الرأى وبطلانه نجد كاله (Kahle) يحاول أن يدلل

---

(١) انظر مادة قرآن فى دائرة المعارف الإسلامية وتاريخ القرآن لنولدكه وكتاب العربية ليوهان فك ص ٣ وما بعدها .

(٢) العربية ليوهان فك ص ٣ .

على صحته ، تارة بما وجده من نصوص متأخرة تحثّ على مراعاة الإعراب فى ترتيل القرآن . وتارة بما يزعمه من أن قرّاء القرآن الأولين رحلوا لمخالطة عرب البادية ، حتى يفقهوا قواعد شعرهم النحوية والصرفية ويطبّقوها على الذكر الحكيم[١] ، وهو يستمد فى الشطر الثانى لقوله وزعمه من ڤولرز . أما الشطر الأول فواضح البطلان . لأن هذه النصوص إنما تشير إلى مخافة العلماء فى عصور اللهجات العامية المولدة من أن يهجم بعض العامة على قراءة القرآن قراءة غير معربة .

وإذا رجعنا إلى تاريخ اللغات السامية وعرضنا هذه المسألة تبين لنا أنها تفقد السند التاريخى : فإن الإعراب فى الفصحى ليس خاصة مستحدثة نشأت بين بعض قبائل العرب وفى بعض لهجاتهم البدوية بعد أن لم تكن موجودة ، وإنما هو خاصة سامية قديمة تشترك فيه مع العربية الأكدية ، كما تشترك فى بعضه الحبشية وغيرها من اللغات السامية . وحدث فى سنة ألف وتسعمائة وتسع وعشرين أن اكتشف العلماء فى رأس شمرا بالقرب من اللاذقية نقوشاً كثيرة ترجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد فى موضع كان يعرف قديماً باسم أوجريت (Ugarit) وبدءوا فى حل رموزها ، وسرعان ما وجدوها تقرب من اللغات السامية ومن العربية القديمة ، فسموها باسم موضعها تمييزاً لها ، ولاحظوا أن هذه اللغة الأوجريتية يشيع فيها الإعراب مثل العربية ، وأيضاً فإنهم وجدوا فيها ظواهر المنع من الصرف ، وكان المظنون أنه خاصة عربية .

ومعنى ذلك أنه ثبت بين علماء الساميات أن ظاهرتى الإعراب والمنع من الصرف قديمتان فى اللغات السامية وأن العربية احتفظت بهما ، بينما فقدتهما مع الزمن أكثر هذه اللغات ، فهما ليستا من الظواهر المستجدة ، بحيث يمكن أن ينسبا إلى بعض قبائل البدو كما وهم ڤولرز وكاله . وإنما هما من الظواهر السامية القديمة . وليس بين أيدينا نص واحد يشهد بأن قريشاً أو بعض قبائل العرب الشماليين ضعف عندهم الإعراب فأهملوه فى لهجتهم الخاصة . بل كان الإعراب عامّاً بينهم جميعاً فى الشرق والغرب . وفى الحجاز ونجد وغير الحجاز ونجد ، فمن الخطأ البين أن يزعم زاعم أن الإعراب كان مهملا فى لغة قريش . فإن ذلك مجرد حدْس لا قيمة له .

---

(١) راجع ما ساقه عبد الحليم النجار من تعليقات فى كتاب العربية المذكور .

ومن ظواهر العربية التى أكدت اللغةُ الأوجريتية أنه قديم ظاهرة التعريف بأل ، وهى تقابل حرف الهاء الذى كان يستخدمه العبريون والآراميون فى التعريف ، وكان الأولون يلحقونه ببدء الكلمة والأخيرون يلحقونه بآخرها . وكان أصحاب النقوش الصفوية من قدماء العرب يجارون العبريين فى استخدام هذا الحرف فى التعريف ومثلهم الثموديون واللحيانيون . واستخدم النبط فى نقوشهم أل استخداماً واسعاً ، إذ نراهم يضعونها مع أسماء آلهتهم مثل الله واللات والعُزَّى ، وقد تحذف الألف منها فى الكتابة فيكتبون وهب الله وعبد الله هكذا وهب لهى وعبد لهى بإشباع الكسرة ومدها بحيث تتولد منها ، ويقول اللغويون إن الأزد يشبعون حركات الإعراب ومعنى ذلك أن الإشباع قديم فى العربية . ويدل حذف الألف فى مثل وهب لهى أن النبط كانوا يسهلون الهمزة ولا يحققونها على نحو ما أثر عن قريش وأهل الحجاز فى عدم تحقيق الهمزة لا فى أل وحدها بل فى كلمات كثيرة ، فيقولون فى اسأل : سَلْ . وكل ذلك معناه أن أداة التعريف فى العربية قديمة وأن تسهيل الهمزة حدث قبل العصر الجاهلى ، إذ كانت تميل إليه بعض القبائل العربية ممن كانوا يسكنون فى غربى الجزيرة مثل النبط والحجازيين .

وإذا أخذنا نقارن بين صيغ الفعل فى العربية وصيغه فى اللغات السامية وجدنا همزة التعدية فى صيغة أفعل العربية تشيع فى اللغتين الحبشية والسريانية ، بينما تعبِّر العبرية والسبئية وبعض اللهجات الآرامية عنه بالهاء ، فهفعل عندهم تقابل أفعل فى العربية ، وكان اللحيانيون والثموديون يستخدمون الصيغتين جميعا . وفى الوقت نفسه نجد النقوش اليمنية ما عدا السبئية ، ونقصد المعينية والقتبانية والأوْسانية والحضرمية تعبِّر عنه بسفعل ، وتعبر عنه الأكدية بشفعل واحتفظت العربية على نحو ما نعرف بالسين فى وزن استفعل ، ومن ثم ذهب ليتّمان إلى أن أداة التعدية كانت فى الأول سيناً ، ثم صارت شيناً فى الأكدية ، وصارت السين هاء عند بعض الساميين ، ثم صارت الهاء همزة فى العربية والسريانية والحبشية[١] . ولعل من الطريف أن من يرجع إلى العربية يجد فيها بقايا من هذه الصيغ جميعا كصيغة هراق

---

(١) انظر مقالة ليتّمان عن « بقايا اللهجات العربية فى الأدب العربى » بالجزء الأول من المجلد العاشر فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ص ٢٥ وما بعدها .

الماء بمعنى أراقه . يقول ابن يعيش : « اعلم أنهم قالوا أهراق فمن قال هراق فالهاء عنده بدل من همزة أراق على حد هردت أن أفعل فى أردت ونظائره »[١] وكأنه كان بينهم من يجمع فى التعدية بين الهمزة والهاء . ومن يكتفى بإحداهما فى مثل هذه الكلمة . ويظهر أن هذا كان كثيراً إذ ينص ابن يعيش على أن له نظائر متعددة ، فيقولون هراح فى أراح وهنار فى أنار وهكذا . وفى القاموس المحيط الهذروف كعصفور : السريع ، وهذرف : أسرع . ومعنى ذلك أن بين الأسماء صيغا احتفظت بتلك الهاء لأنها اشتقت من أفعالها . يقول صاحب القاموس : « الهجْزَع كدرهم : الجبان لأنه من الجزع » .

أما وزن سفعل الذى استخدمته بعض اللهجات العربية الجنوبية القديمة كالمعينية فإن العربية احتفظت به فى صيغة استفعل . وفى المزهر من مزيد الثلاثى هفعل فى مثل هلقم إذا أكبر اللقم وسفعل فى مثل سنبس بمعنى نبس[٢] . ويمكن أن يُرَدّ إلى هذه الصيغة كثير من الأفعال التى تبتدئ بالسين ، كما يرد إلى صيغة هفعل كثير من الأفعال التى تبتدئ بالهاء ، فهدر مثلا يمكن أن يكون أصلها در وأضيفت إليها الهاء وخففت الراء . وسكن أصلها كان من كان التامة . ثم حذفت الألف . وبهذا القياس يمكن أن نمعن النظر فى بعض الكلمات المبدوءة بالشين فنردها إلى صيغة شفعل الأكدية ، فشسع يمكن أن يكون أصلها شوسع من وسع وشوّش من وشّ وهكذا . وكأن العربية كانت تستخدم فى بعض أزمنتها القديمة كل هذه الصيغ . ثم تطورت بصيغة هفعل إلى أفعل وآثرتها معرضة عن الصيغ الأخرى لأنها أخف فى النطق وأيسر .

ومن الظواهر التى تتقارب فيها العربية من أخواتها السامية الضمائر ، إذ نرى مثلا : أنا تختص بالمتكلم مع زيادة مميزات عددية أو جنسية فى بعض اللغات ، بينما تختص التاء بضمير الرفع المتصل . وقد تخلفها الكاف كما فى الأكدية . على نحو ما جاء على لسان بعض الرجاز يهجو ابن الزبير[٣] :

يا بن الزبير طالما عصيكا وطالما عَنَّيْتنا إليكا

فقال عصيك بدلا من عصيت . وكما تتشابه اللغات السامية فى الضمائر تتشابه فى

---

(١) شرح المفصل للزمخشرى ١٠/٥

(٢) المزهر للسيوطى ٢/٤٠ .

(٣) النوادر فى اللغة لأبى زيد (طبعة بيروت) ص١٠٥ وأنساب الأشراف للبلاذرى ١١/٤٨ .

أسماء الصلة والإشارة . ويدل الاسم الموصول « ذو » عند الطائيين على أن الأسماء الموصولة كانت فى الأصل أسماء إشارة ، وهو فى الحبشية « ذ » وفى السريانية « د » . و « دى » فى النقوش النبطية . وأيضاً فإن هذه اللغات تتشابه فى كثير من حروف العطف وحروف الجر وأدوات الاستفهام وفى الميل إلى المخالفة بين الذكر والأنثى رغبة فى الازدواج كما يتضح فى العدد ومخالفته للمعدود فى الجنس وفى تأنيث الفعل مع جمع التكسير المذكر .

وتشترك العربية مع أخواتها السامية فى أن الأسماء الثنائية أقدم أسمائها . وفى العربية أمثلة كثيرة منها احتفظت بها . وقد أخذت — كأخواتها — تشتق منها الثلاثى وغيره أو تولدهما ، ومن أقدم ما اتبعته فى ذلك تضعيف الحرف الثانى أو زيادة واو أو ياء فى أوله أو زيادة حرف لين فى وسطه أو نهايته . وقد تتكرر المادة الثنائية مثل حصحص وصرصر وسلسل . ولعلماء الساميات أبحاث فى الكلمات التى تشترك فيها العربية مع غيرها من اللغات السامية والتى يمكن أن تعد من أقدم عناصرها . وهم يردون بعضها إلى أسماء الإنسان وأحواله مثل ذكر وأنثى وأب وأم وابن وبنت وأخ وبعل وبكر وأمة وضرة ، ومن الأفعال القديمة المتعلقة بهذه الأسماء : ولد وملك . ومن هذه الأسماء المشتركة أسماء الحيوانات مثل نمر وذئب وكلب وخنزير وإبل وثور وحمار ونسر وعقرب وذباب ومعها فعل نبح . ومن أسماء النباتات عنب وثوم وقثاء وكمون وزرع وسنبلة . ومن أعضاء البدن رأس وعين وأذن وأنف وفم ولسان ومن وشعر ويد وظفر وركبة وكتف وذنب وقرن وعظم وكرش وكبد وكلية ونفس ودم . ومعها سمع وطعم . وصفات مثل شيب ويمين وموت وقبر . ومن أجزاء العالم سماء وشمس وكوكب وأرض وحقل وماء ومنبع وبئر ، ومما يتبعها ظل ويوم وليلة وبرق وهب . ثم بعض أسماء البيت وأقسامه وما يتبعه مثل بيت وعمود وعرش وقوس وحظ أصل معناه السهم وحبل وإناء ومما يتبعها من الأفعال رمى . ومن المأكولات والمشروبات قمح ودبس وسكر ويتبعها طحن وطبخ وقلى . وإلى جانب ذلك عدد كبير من الأفعال والأسماء مثل كان ونشأ وعلا وقدم وقرب وبكى وصرخ وأخذ وذكر وسأل وبشر ورحم وبل ونقل ونتب وصغر ورعى وسقى وركب ونظر وفقد وسلم وذبح وبارك ووقر ، ومثل اسم وكل وأسماء العدد إلى العشرة والمائة[١] .

---

(١) راجع فى ذلك كله برجشتراسر ص ١٤٠ وما بعدها .

وهناك أسماء وأفعال تشترك فيها العربية مع اثنتين أو ثلاث أو أربع من اللغات السامية، والحكم فى مثل هذه الكلمات مشكل، فإما أن تكون من الكلمات السامية الأصلية، أو تكون بعض الفروع اختصت بها بعد تفرقها، بمعنى أنها نشأت بينها، وتكونت فى زمن متأخر. ومن علماء الساميات من يظن أن ماتنفرد به العربية من كلمات لا توجد فى أخواتها السامية هو من السامى الأصيل احتفظت به بينما سقط من أخواتها، ويذهب برجشتراسر إلى أن « هذا بعيد عن الاحتمال للغاية ولا يجوز افتراضه إلا على فرض كون اللغة العربية أقرب إلى اللغة السامية الأم من أخواتها . . وهذا من الأوهام التى لاسبب لها، فإن اللغة العربية ترقت رقيًّا بعيداً بالقياس إلى أخواتها الساميات . . ولا بد من أن نفترض أن اللغة العربية اخترعت ألوفا من الكلمات الجديدة ولا عجب فى ذلك بعد ما شاهدناه مراراً من ميلها إلى التخصص وإلى اختراع العبارات الجديدة المحدودة »[١] ويضرب مثلين لذلك : كثرة ما اخترعته فى باب الإبل وأوصافها وشياتها وأمراضها وأدوائها من أسماء، ومثل ثان هو ما اخترعته من أدوات النفى، إذ تشترك مع اللغات السامية فى أداته الأساسية « لا » ثم تنفرد بما اشتقته من أدوات كثيرة لا يوجد منها فى أخواتها سوى ليس، إذ نجد فيها لم بزيادة الميم وحذف الألف، ولما بزيادة ما على لم، ولن بزيادة النون، وأضافت إلى ذلك أدوات جديدة هى ما وإن وغير، وبذلك عددت وظائف النفى ونوعتها .

ومعنى كل ماقدمنا أن هناك عناصر فى العربية ترجع إلى أقدم أزمنتها، وأخرى جديدة، وقد عقد ليتمان مقالين طويلين[٢] بحث فيهما أسماء الأعلام فى اللغات السامية متخذاً منها ما يدل على تاريخها وصيغها وأديانها وعاداتها . ولاحظ أن منها أسماء مركبة وأسماء مفردة وأسماء اسمية وأسماء فعلية وأسماء دينية وأسماء دنيوية وأسماء مكانية وأسماء زمانية وأسماء تخص أمنية أو فرحاً أو صفة أو دعاء وأسماء لرجال مشهورين أو نساء مشهورات، بالإضافة إلى أسماء أجنبية . ومن طريف ما لاحظه أن النبط كانوا يلحقون فى كتابتهم ونقوشهم الواو بآخر الأعلام أحيانا، يقول : والواو هذه تشير إلى أن الاسم معرب، وأما الأسماء المبنية فكتبوها بلا واو فى آخرها . وأخذ

---

(١) برجشتراسر ص ١٤٢ .

(٢) انظر مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة المجلد العاشر، العدد الثانى، والمجلد الحادى عشر، العدد الأول .

العرب بعد ذلك هذه الواو من الخط النبطى فألحقوها بعمرو فرقاً بينه وبين عمر[١] وقارن مقارنات واسعة بين الأعلام فى العربية منذ الجاهلية وبين لهجاتها القديمة من صفوية ونبطية ، وأدلى فى هذا الصدد بملاحظات جيدة .

وعلى هذا النحو لا يزال علماء الساميات يقارنون مقارنات طريفة بين العربية الجاهلية وما سبقها من لهجات كتبت فى نقوش قديمة ، كما يقارنون بينها وبين العربية الجنوبية اليمنية وغيرها من أخواتها السامية محاولين استخلاص عناصرها وظواهرها المغرقة فى القدم ، والتى جدّت على مر التاريخ . وقد لاحظوا أنها هى والحبشية واللهجات اليمنية القديمة تُكثر من جموع التكسير كثرة مفرطة ، كما لاحظوا أنها هى والعربية الجنوبية أو اليمنية تتميزان بوجود حرف الظاء فيهما ، ومما يميزها أيضاً حرف الضاد ، ولهم كلام كثير فيه وفى مخرجه ، وتبادله مع الظاء واللام فى بعض الكلمات .

٢

لهجات عربية قديمة[٢]

عثر علماء الساميات على نقوش أربع لهجات عربية قديمة ، منها ثلاث كُتبت بالخط المسند الجنوبى ، وهى اللهجة الثمودية واللحْيانية والصَّفوية ، وواحدة كتبت بالخط الآرامى ، وهى اللهجة النبطية . وقد جاء ذكر ثمود فى القرآن الكريم مراراً ، وكانوا ينزلون فى مدائن صالح وما حولها ، وتمتد عشائرهم غرباً إلى البحر الأحمر وشرقاً إلى جبلى أجأ وسلمى ، وقد تردد ذكرهم عند الإغريق والرومان وفى كتابات أشورية ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد . وترجع نقوشهم التى عُثر عليها إلى القرون الأخيرة قبل الميلاد والقرون الأولى بعده ، وهى تنتشر فى كثير من البلاد ، فهى فضلا عن وجودها فى أماكن إقامتهم وسكناهم نجدها مبثوثة فى الطائف وطورسيناء ومصر بوادى الحمامات ، وربما كان فى ذلك ما يدل على أن أهلها

---

(١) مجلة كلية الآداب ، المجلد العاشر ، العدد الثانى ص ٤٣ .

(٢) انظر فى هذه اللهجات الجزء السابع من تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ومقالة ليتمان فى العدد الثانى من الجزء العاشر بمجلة كلية الآداب ، وكذلك مقالته : « لهجات عربية شمالية قبل الإسلام » فى الجزء الثالث من مجلة مجمع اللغة العربية .

كانوا أصحاب تجارة واسعة . ونقوشهم قصيرة وجمهورها مما كتبوه أو نقشوه ليسجلوا أسماءهم للذكرى ، وقليل منها أدعية لآلهتهم . وهى صعبة القراءة لأن خطهم مشتق من الخط المسند الجنوبى . مثلهم مثل اللحيانيين والصفويين . وهو خال من الشكل ومن علامات الإشباع والحركات والتشديد . ومما يزيد فى صعوبته أيضاً . أو بعبارة أدق مما يزيد فى صعوبة الأحكام اللغوية عليه أن جميع نقوشه بضمير الغائب وأنهم كثيراً ما يحذفون منه بعض الحروف كالنون من ابن والضمير من « لى » وأيضاً فإنه تختلط به آثار عبرية وآرامية .

وهذه النقوش مع أنها كُتبت بالخط المسند الجنوبى نقوشٌ للعرب الشماليين ، فاللغة التى تعبِّر عنها عربية شمالية . ويتضح ذلك فى تراكيبها الصرفية والنحوية وفى اشتقاقات أفعالها وأزمنتها . ونجد عندهم صيغة المثنى بجانب صيغة الجمع كما نجد نفس أسماء الإشارة والأسماء الموصولة والضمائر وحروف الجر من مثل اللام والباء وإلى وعلى وحرف العطف واو . غير أن أداة التعريف الشائعة عندهم هى الهاء لا أل . وكذلك الشأن عند اللحيانيين والصفويين . أما عند النبط فهى أل . ومن هنا يصح أن نطلق على الأولين اسم أصحاب لهجات الهاء . وهم فى ذلك يتطابقون مع العبريين . وأيضاً فإنه يشيع عند الثموديين واللحيانيين تعدية الفعل الثلاثى بالهاء بدلا من الهمزة . مثلهم فى ذلك مثل العبريين والسبئيين . على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع .

واللهجة القديمة الثانية هى اللهجة اللِّحْيانية نسبة إلى منازل أهلها من بنى لحيان الذين ذُكروا فى نقوشها . وقد عثر عليها علماء الساميات منثورة فى شمالى الحجاز بمنطقة العُلا الحالية ، وكانت حاضرتهم تسمى دادان بالقرب من مدائن صالح . ويختلف الباحثون فى تاريخهم وهل كانوا قبل الميلاد أو بعده ، بل منهم من يتأخر بهم حتى القرن الخامس للميلاد . وتلقانا فى نقوشهم نفس الصعوبات التى تلقانا فى نقوش الثموديين من نقص الشكل وحروف العلة والمد والتشديد . وهم يعرِّفون بالهاء على شاكلة الثموديين . وقد يعرفون بأل أو باللام على شاكلة العربية الجاهلية ، وقد يجمعون بينهما مثل هلِحسَى بمعنى الحمى . وهم يستبقون بين صيغ الفعل على صيغتَى هفعل وسفعل ونراهم يلحقون بالماضى تاء التأنيث كما نراهم يشيرون بالذال

وذه وذات . ومن أسمائهم الموصولة من وما وذو المعروفة فى لهجة طيء . ومن آلهتهم التى يرددون ذكرها بعل والعُزّى ومناة وودّ وإلة. ومن أسمائهم عبد ودّ وعبد شمس وعبد منَاة وبعيث وعمر وطود . ومن ألفاظهم رب ويوم وبيت وحية وشيعة وحرة ورتاج وإيلاف وكبير وقديس وصانع ونحاس ووارث وعابد ومقدر ومنعم . وهم يكنون وينسبون على نحو ما نعرف فى الفصحى ، وأيضاً نجد عندهم التذكير والتأنيث والإفراد والتثنية والجمع السالم والمكسر وهم يجمعون الذكور بالواو والنون والياء والنون كما يجمعون الإناث بالألف والتاء . ومن أدوات الجر والإضافة عندهم الباء واللام وفى ومن ومع وقبل وبعد وتحت ولدى وخلف . ونراهم ينفون بلا .

أما اللهجة الصفوية فقد نسبت إلى جبل الصَّفاة القائم فى شرقى حوران ببادية الشام . ولم توجد النقوش به ، وإنما وجدت فى الحرَّة الواقعة بينه وبين حوران ، ولم ينسبها علماء الساميات إليها بحيث يقولون النقوش الحرية مخافة اللبس لأن الجزيرة العربية تمتلئ بحرات كثيرة ، لذلك رأوا نسبتها إلى الجبل المذكور ، واتخذوه علماً عليها . وقد عثروا على نقوش منها فى مواضع أخرى كالحرة الواقعة فى جنوبى دمشق والصالحية على الفرات . وواضح أنها لا تنسب إلى قوم بأعيانهم أو إلى أمكنة بعينها ، إنما هى تسمية اصطلاحية . وخطّها مشتق من الخط المسند الجنوبى كاللهجتين السابقتين ولذلك يصادف العلماء فيه نفس الصعوبات التى أشرنا إليها ، ومما يزيدها صعوبة أن رسوم حروفها تتشابه فالباء تشبه الظاء والخاء تشبه التاء وكذلك تشبه اللام النون والهاء الصاد ، وقد يبدأ الكاتب من اليمين إلى اليسار وقد يعكس الاتجاه فيبدأ من اليسار إلى اليمين .

ونقوشهم قصيرة وشخصية ، وقد يضمنونها وثائق تمليك أو أدعية للآلهة ، وقد يذكرون تاريخ نقشها فيؤرخونه بتاريخ بُصْرى أو ببعض حروب النبط والروم . وهى تسبق الميلاد وتمتد بعده قرونا . ونرى أداة التعريف الشائعة عندهم الهاء ، وقد وردت عندهم أسماء قليلة معرفة بالألف واللام مثل الأوس والعبد . وتشيع عندهم إضافة المنعوت إلى النعت على شاكلة الحبشية والعبرية المتأخرة وبعض اللهجات الجاهلية . فيقولون مثلا « جبل الأحمر » بدلا من الجبل الأحمر ، ويتبع اسم الإشارة المشار إليه ولا يتقدمه فيقولون أو يكتبون « جو ، ذ » أى هذا الوادى ، بالضبط

كما نصنع فى عاميتنا المصرية فنقول « النهاردا » بدلا من هذا النهار . وتلقانا عندهم ذو الطائية التى تُستخدم اسماً موصولاً فى مثالها المشهور « بئرى ذو حفرت وذو طويت» أى الذى حفرت والذى طويت .

وهذه اللهجة بصفة عامة أقرب إلى عربية الجاهليين من اللهجتين اللحيانية والثمودية سواء فى الضمائر واستخدام العدد أو فى أسماء الأعلام وصيغ الفعل ، فنحن لا نجد عندهم هفعل ، بينما نجد الفعل المبنى للمعلوم والمبنى للمجهول . وهى تتشابه مع العربية الفصحى فى تصريف الأفعال ومصادرها ففعّل مصدره تفعيل أو تفعلة وفاعل مصدره فِعال أو مفاعلة وأفعل مصدره إفعال وانفعل مصدره انفعال وهلم جراً . ونراها تدخل تاء التأنيث على الكلمة للفرق بين المذكر والمؤنث . وتشيع فيها أدوات الجر المعروفة فى العربية الفصيحة ، وتعطف بالواو والفاء . وتنادى بها وبيا . والحروف جميعها هى نفس حروف عربيتنا عدداً . ويشيع تسهيل الهمزة فيها ، وخاصة فى أول الكلمة فعندهم ونس بدلا من أنس وودم بدلا من أدم . وكانت قبيلة هذيل تصنع نفس الصنيع فتقول وشاح بدلا من إشاح . ومن ذلك أنهم يقولون واكل بدلا من آكل على نحو ما نصنع فى لهجاتنا العربية المعاصرة ، وهم لا يدغمون الحرف الثانى مع الثالث فى الأسماء المشتقة من الفعل المضاعف مثل ظن فيقولون أو يكتبون ظانن ، بالضبط كما ننطق فى عاميتنا مادد بدلا من مادٍّ . ومن أفعالهم المنقوصة التى احتفظت بها العربية : شتى وبنى وأتى ونجا ورعى ودعى ، ودائماً لام الفعل الناقص عندهم ياء . ومن العبارات التى وردت فيها هذه الأفعال : « نجى من هسلطان » أى نجى من السلطان و « رعى هضأن » أى رعى الضأن و « هأبل » أى الإبل و « همعز » أى المعز و « هبقر » أى البقر . وفى نقش من نقوشهم « ورعى هأبل سنة مرق نبط جوذ » أى رعى الإبل سنة مرق النبط بهذا الوادى . ومعنى كلمة مرق فى النقش مر . وهى تستخدم بنفس هذا المعنى فى لهجاتنا المصرية . ومن آلهتهم رضا واللات ومناة وبعل وشيع هقوم أى شيع القوم وهو إله مشهور عند النبط . قيل إنه لا يشرب الخمر وكذلك عابدوه .

ولو أنه جاءتنا نماذج طويلة من نقوش الصفويين وأبناء عمومتهم الثموديين

واللحيانيين لأمكن الحكم بدقة على لهجاتهم جميعاً ، فى صورة واضحة ، ومن المؤكد أنها تصور ضروباً من نمو العربية وتطورها فى طريق اكتمالها . ومن المهم أن نعرف أن هذه النقوش جميعاً تنتهى بالقرن الثالث الميلادى . وأقرب منها إلى فصحانا نقوش النبط الذين عاشوا فى شمالى الحجاز وكونوا لهم إمارة اتخذوا مدينة سَلْع (بطرا — Petra) حاضرتها الكبرى ، وموقعها الآن وادى موسى فى جنوبى فلسطين . وكان لهم فى الجنوب حاضرة صغرى هى الحِجْر وموضعها الآن يسمى مدائن صالح . وكان لهم فى الشمال حاضرة صغرى ثانية هى بُصْرى بحوران فى الشام . وظلت هذه الإمارة مزدهرة من القرون الأخيرة قبل الميلاد إلى سنة ١٠٦ م ، كما قدمنا ، إذ قوّضها الرومان ، غير أن النبط عادوا إلى الظهور ثانية فى تدمر وكونوا بها إمارة ظلت إلى سنة ٢٧٣ إذ خشى الرومان من اتساع سلطان أمرائها ، فحاربوا ملكتها زنوبيا ، وما زالوا بها حتى أسروها ودمروا حاضرتها تدميرا . وبذلك ينتهى تاريخ النبط . ويظهر أنهم لعبوا دوراً واسعاً فى التجارة ، فقد كانت قوافلهم تتسلم العُروض من عرب الجنوب ومن الثموديين واللحيانيين وتحملها إلى العراق وحوض البحر المتوسط .

والنبط عرب شماليون كانوا يتكلمون العربية الشمالية فى أحاديثهم اليومية ، غير أنهم اختلطوا بالآراميين ، وكتبوا بأبجديتهم فظهرت فى نقوشهم آثار آرامية كثيرة ، إذ نراهم يستعيرون منهم بعض كلماتهم وقد يبقون فى خطهم على بعض خصائص لغتهم . وهم كذلك خالطوا الروم والمصريين والعبريين ، فظهرت فى نقوشهم أسماء قليلة أخذوها منهم . يمكن أن تكون هذه الأسماء لأشخاص روميين ومصريين وعبريين عاشوا فى إمارتهم .

وتمتد نقوش النبط فى الأنحاء التى سيطروا عليها . وقد كتبوها بالخط الآرامى المشتق من الخط الفينيقى . وهى منثورة فى الحِجْر ووادى موسى وتيماء وشرقى الأردن وسيناء وحوران بُصْرى ودمشق وصيدا وجبل الدروز ، وتنتهى بالقرن الثالث الميلادى مثلها مثل النقوش السابقة . وكثير منها عثر عليه علماء الساميات فى القبور وعلى أبوابها وفوق الصخور . وهى تكتظ بذكر قرابينهم وما نذروه لآلهتهم . وقد يؤرخون لها بأسماء ملوكهم ، وكثيراً مايؤرخونها بالسنة التى انتهت فيها دولتهم الأولى وهى سنة ١٠٦ .

وأصحاب هذه النقوش من النبط يختلفون اختلافاً واضحاً عن أصحاب المجموعة السابقة من اللحيانيين والثموديين والصفويين فى استخدامهم لأداة التعريف العربية ، فبينما كان يشيع عند الأولين استخدام الهاء فى التعريف كما قدمنا كان يشيع عندهم استخدام أل المعروفة فى فصحانا ؛ على أنهم قد يجارون الآراميين فى تعريفهم الكلمات بإلحاق ألف فى نهايتها فقد نجدهم يكتبون القبر « قبرا » والمسجد « مسجدا » ولكن الغالب عليهم استخدام أداة التعريف العربية « أل » . وربما صنعوا ذلك فى كتابتهم فحسب ، مجاراة للآراميين الذين أخذوا منهم خطّهم وأبجديتهم ، أما فى حياتهم اليومية ولغتهم الدارجة فكانوا يستخدمون أل كما يدل على ذلك شيوعها فى كتابتهم . وقد ميزوا فى نقوشهم كما قدمنا بين الأعلام الممنوعة من الصرف والمصروفة فكانوا يضيفون للأخيرة واواً دلالة على تنوينها ، مما بقيت آثاره فى الخط العربى فى مثل عمرو وعمر .

وهاتان الظاهرتان : أى استخدام أل فى التعريف والواو فى آخر الأعلام المصروفة يقرِّب بين هذه اللهجة والفصحى الجاهلية . ومما يلاحظ أنهم يكتفون أحيانا فى كتابة أل باللام وحدها فيقولون أو يكتبون عبد البعل هكذا عبد لبعلى بحذف الألف ، وكأنهم سهلوها وجعلوها همزة وصل لا قطع . وإذا رجعنا إلى خصائص هذه اللهجة وجدناها حقًّا شديدة الصلة باللغة الجاهلية ، فهى لا تكاد تفترق عنها فى أبواب الضمير والفعل وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة والنسبة والتصغير وحروف الجر والعطف وكذلك الشأن فى التذكير والتأنيث للاسم والفعل . ونجدهم يذكرون بين آلهتهم الله جلّ وعز . وتدور فى نقوشهم كلمات عربية كثيرة مثل سلام ونذر ونذور وحب وخلد وحسن ولطف ورءوف وسعود ومرأة وأمة وعبد ورب وسعد ، ويتقدم اسم القبيلة لفظ أل أو بنى مثل آل قصى وبنى سهم .

واستخرج ليتمان من نقوشهم ثلاثمائة اسم تتفق مع الأسماء العربية وهى مدونة فى كتابه : (Nabataean Inscriptions) من مثل أمين ، أمة ، أمة الله ، أوس ، إياس ، أوس الله ، أوس البعل ، بدر ، بكر ، تيم ، تيم الله ، تيم ذوشرا (يعنى عبد ذى الشرا) جذيمة ، جرم ، جمل ، حجر ، حارث ، حارثة ، حنظل ، حيان ، رجب ، زيد ، سبع ، سعد ، سلم ، مسلم ، سكينة ، سمية ، أسود ، صعب ،

عدى ، عقرب ، على ، عمر ، عمير ، عميرة ، عياض ، غالب ، غانم ، غوث ، مغير ، فهر ، قصى ، كعب ، لخم ، مجد ، امرؤ الله ، امرؤ القيس ، معن ، مالك ، نصر ، نزار ، نعيمة ، نقيب ، تنوخ ، هانئ ، وائل ، وحش ، ورد ، وهب ، وهبان ، وهب الله .

والنبطية بذلك كله تعد وثيقة الصلة بعربية الجاهلية ، وهو طور قريب منها قرباً شديداً . ومن المؤكد أن العرب أخذوا يتطورون بلغتهم تطوراً سريعاً فى القرون الأولى للميلاد بالضبط كما أخذوا يتطورون بالخط النبطى مشتقين منه خطهم العربى على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع .

٣

نشوء الفصحى

ليس من السهل تحديد الزمن الذى اتخذتْ فيه لغتنا العربية شكلها النهائى الذى تصوره الفصحى الجاهلية ، وهو شكل كامل النضج سواء من حيث الإعراب والتصريف والاشتقاق أو من حيث التنويع الواسع فى الجموع والمصادر وحروف العطف وأدوات الاستثناء والنفى والتعريف والتنكير والانتهاء بالممنوع من الصرف إلى نظام تام منضبط مضافاً إلى ذلك احتفاظها بحروف ومخارج لم تحتفظ بها لغة سامية احتفاظاً كاملا ، وهى الثاء والخاء والذال والظاء والضاد والغين .

وهذه الصورة التامة لفصحانا لم تصل إليها إلا بعد مراحل طويلة من النمو والتطور ، وقد رأينا نماذج منها فى نقوش كتبت بأبجدية مشتقة من أبجدية المسند الجنوبى ، وهى نقوش الثموديين واللحيانيين والصفويين ، ونقوش أخرى كتبت بأبجدية الآراميين ، وهى نقوش النبطيين . غير أنها جميعاً لا تصور هذا التكامل الذى انتهت إليه الفصحى . والذى تمثله نصوص العصر الجاهلى منذ أواخر القرن الخامس الميلادى . وأوائل السادس ، فهل تم لها ذلك التشكل النهائى مع ظهور الشعر الجاهلى أو أن ذلك تمّ فى حقب أبعد منه ؟ .

ليست الإجابة على هذا السؤال سهلة يسيرة ، لسبب بسيط أو طبيعى ، وهو

أنه ليس بين أيدينا نقوش كثيرة ، نستطيع أن نعرف منها بالضبط الزمن الذى يعد بدءاً حقيقياً للفصحى . وحقاً عثر علماء الساميات كما قدمنا فى غير هذا الموضع على نقوش تمتد من أواخر القرن الثالث الميلادى إلى القرن السادس ، غير أنها قليلة ، ثم هى قصيرة ، وأكثرها فى أمور شخصية ، وليس بينها نص أدبى أو نص طويل يمكن أن نتبين فى تضاعيفه جملة الخصائص اللغوية لتلك اللغة التى كان يتحدث بها كتبة هذه النقوش ، وجميعها على لسان الشخص الثالث الغائب ، وليس بينها نص على لسان مخاطب أو متكلم ، وهى تخلو خلواً تاماً من الشكل والحركات وحروف العلة وعلامات الإعراب .

على أن من يرجع إلى هذه النقوش يجدها تقترب اقتراباً شديداً من فصحانا . وقد وقفنا فى الفصل الأول عند أقدمها وهو نقش النمارة المؤرخ بسنة ثمان وعشرين وثلاثمائة ، وهو لامرئ القيس ثانى ملوك الحيرة ، وُضع على قبره فى النمارة شرقىّ جبل الدروز . وقد لاحظنا أن كاتبه استخدم كلمة بر الآرامية بدلا من ابن العربية ، غير أن النقش بعد ذلك تام فى عروبته سواء من حيث الأسماء والأفعال ، أو من حيث استخدام أداة التعريف العربية أل . وأيضاً فإن خطه المكتوب به مع اشتقاقه من الخط النبطى يعد مقدمة للخط العربى . إذ توجد فيه الروابط بين الحروف كما تتخذ الحروف فيه شكلا أكثر استدارة .

ولعلنا لا نبعد إذ اتخذنا هذا النقش بَدْءاً لتكون الفصحى . وقد لُقِّب امرؤ القيس فيه بلقب ملك العرب . وهى أول مرة نعثر فيها على هذا اللقب . وقد يكون فى ذلك ما يدل دلالة واضحة على أن العرب أخذوا يفكرون فى إنشاء وحدة سياسية لهم منذ هذا التاريخ ، وكانوا قبله لا يفكرون فى هذه الوحدة ولا فى أن يستقلوا بخط خاص بهم يميزهم أو يميز كتابتهم من كتابة المسند الجنوبية وكتابة الآراميين الشمالية .

ومعنى ذلك أننا نتخذ من هذا النقش رمزاً لإحساسهم إحساساً عميقا بوجوب اتحادهم إزاء الدول التى كانت تناهضهم فى الشمالين الغربى والشرقى . ونقصد دولتى الروم والفرس . فقد قضى الروم على دولة أسلافهم من النبط فى سَلْع وتدمر وفرضوا سيادتهم على القبائل العربية المجاورة لهم . وبالمثل فرض الفرس سيادتهم

على الحيرة وقبائل العراق . وهذا فى الشمال ، أما فى الجنوب فقد هاجم الحبش اليمن واستولوا عليها فى أواسط القرن الرابع لمدة عشرين عاماً ، وعادوا فى سنة ٥٢٥ فاستولوا عليها .

والذى لا ريب فيه أن هذه الأحداث جعلت العرب يشعرون أنهم مهددون فى الشمال والجنوب ، وليس ذلك فحسب ، فإنهم رأوا الديانتين اليهودية والنصرانية وكذلك الديانة الفارسية المجوسية ، رأوا كل هذه الديانات تغزو دينهم . وكان هذا كله حافزاً لهم أن يقاوموا من يريدون أن يتخطفوهم ، فنمت شخصيتهم السياسية ، وأخذوا يكونون لهم إمارات مختلفة فى الشمال ، يتجمعون حولها ، والتفت قلوبهم وأهواؤهم حول مكة بيت أصنامهم وكعبتهم الكبرى . وفى هذه الأثناء أخذوا يسقطون إلى الجنوب منذ القرن الرابع ليؤازروا إخوانهم اليمنيين فى مقاومة عدوهم المشترك من الأحباش ، وكان اليمنيون يرحبون بهم ، لما يقدمونه لهم من عون ومساعدة .

وليس هذا كل ما نلاحظه ، فنحن نلاحظ أيضاً أن زمام القوافل التجارية يتحول إلى مكة . فلم يعد بيد اليمنيين المهددين بالأحباش ولم يعد بيد النبط المهددين بالروم ، وإنما أصبح بيد المكيين البعيدين عن الدولتين ، وربما كانوا يرجعون فى أصولهم إلى النبط ، وكأنما هبطوا إليها بعيداً عن الروم وجيوشهم وما يبغون من فرض سيادتهم عليهم . والمظنون أن الثموديين هبطوا بدورهم إلى الطائف . أما اللحيانيون فسقطوا إلى منازل هذيل .

وفى هذه الأثناء أخذت شخصية هؤلاء العرب الشماليين اللغوية تنمو نمواً سريعاً ، كما أخذ خطهم هو الآخر ينمو فى سرعة ، على نحو ما يصور لنا ذلك نقش زبد المؤرخ بسنة ٥١٢ للميلاد . وزبد خربة بين قنسرين ونهر الفرات ، ونقشها مكتوب بثلاث لغات : العربية واليونانية والسريانية ، وهو يتضمن أسماء أشخاص بنوا كنيسة بموضعه ، وأهميته ترجع إلى أن خصائص الخط العربى الجاهلى تتكامل فيه . ومن المؤكد أنه حدثت تطورات مختلفة فى الحقبة الممتدة بينه وبين نقش النمارة هيأت له هذه الصيغة الخطية النهائية . وعلى مثاله نقش حران اللجا المؤرخ بسنة ٥٦٨ للميلاد ، وقد وُجد على باب معبد بنوه فى الشمال الغربى لجبل الدروز جنوبى دمشق ، وجميع كلماته وعباراته عربية ، وهو يمضى على هذا النحو :

« أنا شرحيل (شرحبيل) بر (بن) ظلمو (ظالم) بنيت ذا المرطول (المعبد) سنة ٤٦٣ بعد مفسد (خراب) خيبر بعم (بعام) »". وهو يشير إلى غزو أحد أمراء غسان لخيبر ، وقد ألحقت بكلمة ظالم واو وفقاً لقواعد النبط فى كتابة أعلامهم المنصرفة ، وحذف حرف العلة من كلمة « عام » وهى نفس الصورة المألوفة فى الأقلام الإسلامية الأولى .

ونرى من ذلك أن الخط العربى تكامل مع أوائل القرن السادس كما تكاملت الفصحى نفسها وأخذت شكلها النهائى بشهادة نصوص الشعر الجاهلى التى يرجع أقدمها إلى أواخر القرن الخامس ، فمنذ هذا التاريخ تقاربت لهجات القبائل ، وأصبحت هناك لغة أدبية عامة ، هى الفصحى ، ينظم بها شعراء العرب جميعاً شعرهم. وتدل دلالات كثيرة على أن هذه اللغة أخذت تنتشر لا بين القبائل الشمالية وحدها ، تلك التى عاشت فى الشمال . فقد حملتها إلى الجنوب القبائل التى تسقط فيه ، وانجذب كثير من الجنوبيين إلى المحيط اللغوى الشمالى ، وخاصة من كانوا يجاورون الشماليين مثل سكان نجران وقبائل الأزد فى جنوبى الحجاز .

ومعنى ذلك أنه كان يعاصر اكتمال الفصحى حركة تعريب قوية فى الجنوب ، ولسنا نريد أن نبالغ فى هذه الحركة فإنها إنما كانت تتناول القبائل الشمالية من هذا الجنوب . أما فى داخل اليمن وفى ظَفار فقد كانت اللغة الجنوبية لا تزال سائدة كما تدل على ذلك نقوشهم . ونستطيع الآن أن نفهم قول أبى عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا »[1] فإنه ينص على أن لسان اليمنيين الداخليين ومن يجرى مجراهم هو الذى يخالف لسان العرب الشماليين . بل لعلنا لا نبعد إذا قلنا إن اليمنيين الداخليين أنفسهم أخذوا فى التعرب ، فإن من يرجع إلى وثيقة أبرهة التى دونها سنة ٥٤٣ للميلاد عند ترميمه لسد مأرب[2] يلاحظ تواً تقارباً فى الكلمات أسماء وأفعالا من اللغة الشمالية ، وحقاً تحتفظ الوثيقة بجملة الخصائص اللغوية للغة الجنوبية . لكننا نجد فى تضاعيفها صيغاً تشبه الصيغ

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبعة دار المعارف) ص ١١ .

(٢) انظر هذه الوثيقة فى الجزء الأول من المجلد الرابع من مجلة المجمع العلمى العراقى وتعليق جواد على عليها .

العربية شبهاً تامـاً ، من مثل : « كن لهو خلفتّن وقسد » أى كان له خليفة وقاسد ، وكلمة قاسد معناها قائد فى اللغة الجنوبية .

فنحن لا نصل إلى العصر الجاهلى الذى نتحدث عنه حتّى نجد الفصحى قد تكاملت وتكامل معها خطها ، وأخذت تغزو العربية الجنوبية ، وتنتصر عليها انتصارات تختلف قرباً وبعداً ، فهى فى الجهات القريبة منها تكتسحها اكتساحاً ، وهى فى الجهات البعيدة تؤثر تأثيراً يختلف قوة وضعفاً . على أنه ينبغى أن نعترف بأن اليمنيين كانوا فى نقوشهم يحافظون على لغتهم القديمة المرتبطة بدينهم وآلهتهم ، اما فى حياتهم اليومية وخاصة فى أطرافهم الشمالية فإنهم كانوا يتحدثون بعربيتنا الفصحى .

٤

لهجات جاهلية (١)

على الرغم من شيوع لغة أدبية عامة فى العصر الجاهلى كانت هناك لهجات كثيرة تميزت بها بعض القبائل ، وظلت آثارها واضحة على ألسنتها إلى القرن الثانى للهجرة ، فسجّلها اللغويون ، غير أنهم لم يعنوا غالباً بنسبة هذه اللهجات إلى أصحابها فقد كانت تهمهم الصحة اللغوية من حيث هى ، وكأنهم يريدون التنبيه على ما يخالف اللغة الأدبية العامة التى نزل بلسانها القرآن الكريم . ونحن لا ننكر أنهم نصوا أحياناً على القبيلة التى تنطق اللهجة الشاذة . ولكنهم لم يعمّموا ذلك فيما حملوه إلينا بحيث أصبحنا أمام ركام واسع من لهجات لا نستطيع تعيين القبيلة أو القبائل التى كانت تنطق بها إلا فى الندرة والحين بعد الحين ، فمن ذلك الكشكشة والكسكسة ، وهما تخصان ضمير المخاطبة . إذ كان بعض تميم وأسد . وقيل أيضاً بعض بنى ربيعة يلحقون بكاف المخاطبة شيناً فى الوقف ، وفى الوصل أحياناً . فيقولون : رأيتكش وعليكش وبكش وكانت بعض قبائل ربيعة تلحق السين بدل

---

(١) انظر فى هذه اللهجات كتاب المزهر للسيوطى فى مواضع متفرقة وكتاب الصاحبى فى فقه اللغة لأحمد بن فارس ومقالة ليتمان بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد العاشر ، العدد الأول وكتاب Ancient West-Arabian لرابين .

الشين فتقول رأيتكس وعليكس وبكس ، وكان منهم من يحذف الكاف ويضع مكانها الشين أو السين .

ومن ذلك العنعنة ، وهى فى تميم وبعض قيس وأسد ، إذ يجعلون الهمزة عيناً فى بعض الكلمات ، فيلفظون استعدى بدلا من استأدى ، ويلفظون أعدى بدلاً من آدى ، ويقال إن بعض بنى طيئ كان يقول دَأنى عوضًا عن دعنى . وكان هناك من يلفظ لعل لأن ، بإبدال اللام أيضا نوناً ، وقالوا بدلا من أنْ وأنَّ عنْ وعنَّ .

وتقرب من العنعنة الفحفحة ، وكانت فى هُذَيْل إذ تبدل الحاء عيناً ، ويقال إن بنى ثَقيف كانوا يصنعون صنيع الهذليين فى ذلك فيقولون فى حتى عتى . وهذه اللهجات جميعاً كانت تشيع فى بعض القبائل الشمالية المضرية ، ومثلها التضجع وهو الإمالة ، إذ كانت تميم وقيس وأسد تميل إلى إمالة الألف ، وكان الحجازيون ينطقونها بتفخيم فلا يُميلون . ويظهر أن ذلك لم يكن عامًّا فى القبيلة الواحدة ، فقد كان بعض الأفراد يميل وبعضهم لا يميل ، يقول سيبويه : « اعلم أنه ليس كل من أمال الألفات وافق غيره من العرب ممن يميل ، ولكنه قد يخالف كل واحد من الفريقين صاحبه فينصِبُ بعضٌ ما يُميل صاحبه ، ويُميل بعضٌ ما ينصب صاحبه . وكذلك من كان النصب فى لغته لا يوافق غيره ممن ينصب ، ولكن أمره وأمر صاحبه كأمر الأولين فى الكسر (الإمالة) فإذا رأيت عربيًّا كذلك فلا ترينه خلَّط فى لغته ولكن هذا من أمرهم » . ونستطيع أن نمد ملاحظة سيبويه إلى اللهجات الشاذة التى حكيناها . فمن الممكن أن يكون بعض أفراد القبيلة قد تبع اللغة الأدبية العامة ، بل من الممكن أن تكون بعض العشائر فى قبيلة بعينها قد هجرت لهجة قبيلتها ، ولعل هذا هو سبب اختلاط نسبة هذه اللهجات عند اللغويين إذ نرى بينهم اختلافاً فى الكشكشة مثلا هل كانت فى تميم أو كانت فى بكر أو كانت فى قيس أو كانت فيهم جميعاً ، وأغلب الظن أن مرجع هذا الاختلاف إلى ما لاحظه سيبويه فى الإمالة من أن عشيرة أو أفراداً فى قبيلة تميل قد لا تميل ، وبالمثل يمكن أن يكون ذلك نفسه حدث فى اللهجات الشاذة التى رويت عن بعض القبائل المضرية .

وقد نسب اللغويون إلى قبائل مضرية وأخرى قحطانية ما سموه الاستنطاء إذ

كانت قبائل هذيل وقيس والأزد والأنصار فى يثرب تبدل العين نوناً فى مثل أعطى فتقول أنطى ، وأغلب الظن أن هذا ليس إبدالا كما لاحظ ليتمان . وإنما هما فعلان مختلفان .

وهناك لهجات نسبها اللغويون إلى القحطانيين . من ذلك التلتلة فى قُضاعة وبَهْراء إذ يكسرون الفعل المضارع فيقولون : تِعلمون وتِكتبون وتِنجحون كما نصنع فى عاميتنا المصرية . ومن ذلك العجعجة فى قضاعة إذ يجعلون الياء المشددة جيما ، فيقولون تميمج فى تميمى . وقال ابن فارس إن إبدال ياء المتكلم جيما وُجد عند بنى تميم . وقال الزمخشرى إن بنى حنظلة التميميين كانوا يبدلون الياء المشددة لصيغة النسبة جيما مشددة .

ونسب الرواة إلى قبيلة كلب اليمنية ما سموه الوهم ، وهو كسر الهاء فى ضمير الغائبين وإن لم يكن قبلها ياء ولا كسرة فيقولون : منهِم وعنهِم وبينهِم . وسُمع عن قوم منهم ما سمى بالوكم إذ يكسرون الكاف فى ضمير المخاطبين إذا سبقها ياء أو كسرة ، فيقولون : عليكِم وبكِم بكسر الكاف فيهما . واشتهرت حمير وأهل اليمن وبعض عشائر طيء بالطمطمانية ، وهى إبدال لام التعريف ميما . فيقولون فى السهم والبر والصيام : امسهم ، وامبر ، وامصيام ، وهذا ليس إبدالا . وإنما هى لهجة يمنية ، إذ كانوا يعرِّفون بالألف والميم . ولعل فى ذلك ما يدل على صحة ما ذهب إليه النسابون من أن طيء قبيلة يمنية ، ولا تزال لذلك بقية فى عاميتنا المصرية إذ نقول بدلا من البارحة إمبارح وأول امبارح . ومما ينسب إلى بعض القبائل اليمنية الشِّنْشنة إذ يجعلون كاف الخطاب شينا مطلقاً ، فيقولون بدلا من لبيك اللهم لبيك لبيش اللهم لبيش ، وهم فى ذلك يلتقون بأصحاب الكشكشة فى بعض وجوهها من المضريين . وينسب إلى بعض الحميريين أنهم كانوا يجعلون السين تاء فى بعض الكلمات فيقولون : النات بدل الناس . ويستشهد اللغويون على ذلك بقول علباء بن أرقم :

يا قبَّح اللهُ بنى السِّعلاتِ　　　عمرو بن يربوعٍ شرار الناتِ

ليسوا أَعِفَّاء ولا أكياتِ

وواضح أنه استعمل النات بدل الناس والأكيات بدل الأكياس . على أن هذا الشاعر ليس حميريًّا وإنما هو من بكر ، وأكبر الظن أنه اضطر لذلك من أجل القافية ورويِّها .

وفى كتب اللغة كثير من هذه اللهجات الشاذة التى كانت تنفرد بها بعض القبائل ، وقد عقد السيوطى فى المزهر فصلا لألفاظ اختلفت فيها لغة تميم والحجازيين ، ويمكن أن نمد هذا الفصل للبحث فيما كان بين القبائل الشرقية والغربية من خلافات لغوية .

ولعل أهم ما سجله اللغويون من فروق بين التميميين والحجازيين أن الأولين كانوا يحققون الهمزة وكان الثانون يسهلونها فمثل سأل يسأل سؤالا عند الأولين يقابل سال يسلُ سوالا عند الثانين . ومثل رثأت وعباءة ونبيء عند الأولين يقابل رثيت وعباية ونبى عند الثانين . ويظهر أن ذلك لم يكن يطرد فى كل الكلمات ولا على جميع الألسنة فى الجانبين المتقابلين من الجزيرة . وكان التميميون يدغمون الحرف الثانى فى الثالث فى أمرٍ مثل ردّ ، بينما كان يفك الحجازيون الإدغام فيقولون : ارْدُدْ . وهذه أيضًا فيما نظن كانت مسألة حِسّ . فكان بين الفريقين من يجارى الفريق الآخر . ومما اشتهر بينهما من فروق إهمالُ ما عند التميميين فى نحو ما زيد قائم وإعمالها عند الحجازيين فيقولون ما زيد قائما . ومن ذلك أيضاً أن الحجازيين كانوا يُجْرون « هلمّ » مجرى أسماء الأفعال مثل صه. فيلزمونها طريقاً واحداً فى مخاطبة المفرد والمفردة والاثنين والاثنتين والجماعتين . فيقولون : هلم يا رجل وهلم يا امرأة وهلم يا رجلان وهلم يا امرأتان وهلم يا رجال وهلم يا نساء ، أما التميميون فكانوا يجرونها مجرى الأفعال . فيقولون : هلم وهلمى وهلما وهلموا وهلممن يا نسوة ، وبلغة الحجازيين نزل القرآن الكريم فى قوله تعالى : « والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا » . ومن ذلك أمس عند الحجازيين فإنها تلزم البناء على الكسر . أما التميميون فكانوا يقولون أمسُ فى الرفع وأمسَ بفتح السين فى الجر والنصب . ومن ذلك هيهات فإنها تلزم فتح التاء عند الحجازيين بينما تلزم الكسر عند التميميين فيقولون هيهات ، ورُوى فيها الإعراب بالحركات . ومن ذلك تنوين الترنم فى قوافى الشعر . فقد كان الحجازيون يطلقون القافية ، ليفرقوا بين الشعر الذى يغنّى والكلام المنثور ، وكان التميميون يبدلون المدّ فى القافية نونا ، على نحو ما عُرف عن جرير فى قصيدته :

أَقِلِّى اللوم عـــاذل والعِتابَنْ وقولى إن أصبتُ لقد أصابَنْ

فقد أبدل المدّ نوناً فى « العتابن » و « أصابن » وهو يحذف فى لغة الحجازيين ، فيصبح البيت على هذا النمط :

أقلى اللوم عـاذل والعتابا وقولى إن أصبتُ لقد أصابا

وروى اللغويون كثيرًا من اختلاف الفريقين فى همس الحركات والجهر بها ومدّها . فبينما يمد الحجازيون الألف فى مثل كلاب يقصرها التميميون فيقولون كلب . وبينما يقول الأولون ناداه يقول الثانون : ندَهُ . وبذلك ننطق فى عاميتنا المصرية . ويقول الحجازيون خمس عشرةَ بتسكين الشين وتميم تفتحها ، ومنهم من يكسرها ومن يثقلها ، ويقول الحجازيون يبطش بكسر الطاء ويقول التميميون يبطش بضمها ، ويقول الحجازيون مرية بكسر الميم ويقول التميميون مرية بضمها ، ويقول الحجازيون الحج بكسر الحاء ويقول التميميون الحج بفتحها ، ويقول الحجازيون تخذت ووخذت ويقول التميميون اتخذت . ويقول الحجازيون قلنسية بالياء ويقول التميميون قلنسوة بالواو . ويقول الحجازيون ينقدالدراهم ويقول التميميون ينتقد ، ويقول الحجازيون القير ويقول التميميون القار ، ويقول الحجازيون الكراهة ، ويقول التميميون الكراهية ، ويقول الحجازيون ليلة ضحيانة (مصحية) ويقول التميميون إضحيانة . ويقول الحجازيون منذ ويسقط التميميون النون فيقولون مذ ، ويقول الحجازيون برأت من المرض بفتح الراء فى الفعل ويقول التميميون برئت بكسرها ، ويقول الحجازيون أنا منك بَراء ، ويقول التميميون برىء . ويقول الحجازيون قلوت القمح وأقلوه قلواً ويقول التميميون قليته وأقليه قِلًى ، ويقول الحجازيون لى بك إسوة وقدوة بكسر أولهما ويضمه التميميون فيقولون أسوة وقدوة بالضم ، ويقول الحجازيون : الشفع والوتر بفتح الواو فى الوتر . ويكسرها التميميون فيقولون الوتر ، ويقول الحجازيون وكدت والتميميون أكدت .

ولعل خير مرجع يصور الاختلافات بين الفريقين هو قراءات القرآن الكريم ، فمثلا فى قوله تعالى : (فنظرة إلى ميسرة) قرأ الجمهور نظرة بكسر الظاء وهى لغة قريش ، وقرأ مجاهد والضحاك نظرة بسكون الظاء وهى لغة تميم . وقال جلّ ذكره : (ورضوان من الله أكبر) وقرئت رضوان بكسر الراء وهى لغة الحجازيين وقرئت بضمها وهى لغة تميم وبكر ، وقال تبارك وتعالى : (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) وقرأ الجمهور كسالى بضم الكاف وهى لغة الحجازيين ، وقرأها الأعرج بالكسر وهى لغة تميم وأسد ، وقال : (وليجدوا فيكم غلظة) وقرأ الجمهور غلظة

بكسر الغين وهى لغة الحجازيين . وقرأها السلمى وأبو حَيْوة بالضمة ، وهى لغة تميم ، وقال : (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما) وقرأ الجمهور يستحيي بياءين ، وهى لغة أهل الحجاز وقرأ ابن كثير يستحى بياء واحدة ، وهى لغة تميم ، وقال : (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل) وقرئت الرسل بتسكين السين وهى لغة الحجازيين ، وقرئت بضمها وهى لغة التميميين . وقال : (وإن أحْصرتم فما استيسَر من الهدى) وقرئت الهدى بتسكين الدال وتخفيف الهاء ، وهى لغة أهل الحجاز وقرئت بكسر الدال وتشديد الياء ، وهى لغة تميم . وقال : (وآتوا حقه يوم حَصاده) وقرئت الحصاد بكسر الحاء وهى لغة الحجازيين وبفتحها وهى لغة تميم وقيس . وقال تبارك وتعالى : (وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً) وقرئت عشرة بتسكين الشين وهى لغة الحجازيين وقرئت بكسرها وهى إحدى لغات تميم فيها كما قدمنا .

وهناك لهجات كثيرة نسبت إلى بعض القبائل ، فقد قالوا إن بنى مازن كانوا يبدلون من الباء ميماً ، فيقولون : باسمك بدلا من ما اسمك ، ويقولون بكة بدلا من مكة والبوباة بدلا من الموماة وهى الفلاة . ويقال إن اطبأن بدلا من اطمأن لغة فى بنى أسد . ولا نعرف بالضبط أكان ذلك يشيع فى كل الكلمات الميمية أو أن ذلك كان خاصًّا ببعض الكلمات . ويقال إن بعض بنى تميم كان ينطق أثاثى بدلا من أثافى جمع أثفية ، ولعل كلمة تم بمعنى فم عند إخواننا الشاميين قد تطورت عن ثم ، فقلبت الفاء فيها أولا ثاء ثم أصبحت مع الزمن تاء تخفيفا . ويقال إن بنى عبد القيس فى البحرين كانوا يقولون رنز بدلا من رز وأرز ، كما كانوا يقولون إنجاص فى إجاص ، ويقال إن بعض بنى تميم كانوا يقولون فى أفلت أفلط بالطاء ، ويقال إن قريشاً كانت تقول التابوت بينما كان الأنصار فى يثرب يقولون التابوه ، ويروى عن بعض الطائيين أنهم كانوا يقلبون تاء الجمع المؤنث هاء فى الوقف فيقولون البناه والأخواه فى البنات والأخوات . ويقال إن بعض ربيعة كانوا يقولون دكر فى ذكر ، على نحو ما نعرف فى عاميتنا ، ويقال أيضًا إن بعض التميميين كانوا يبدلون السين صاداً فى مثل سوق وساق ، وفى عاميتنا راص بمعنى رأس . وتتبادل الضاد والظاء فى كثير من الكلمات ، ففى لغة تميم فاضت نفسه ، وفى لغة الحجازيين

والقيسيين والطائيين فاظت نفسه بالظاء . ومن هذه اللهجات أن طيئاً كانت تفتح الفعل اليائى فى مثل بقى ورضى فتقول بَقَى ورضى . وكانوا يقولون فى مثل توصية وجارية وناصية مما ياؤه مفتوحة توصاة وجاراة وناصاة . وأثر عن هذيل أنها كانت تستخدم متى حرف جر بمعنى من ، وأنها كانت مثل كنانة والحجازيين تقول نعم بكسر العين بدلا من نَعم وأنها كانت تكسر الباء فى ابن فتقول ابِن . وأنها كانت تقول إشاح فى مثل وشاح . ومر بنا أنها كانت تقلب الحاء عيناً فى مثل حتى ، فتقول عتى . وأنها كانت تقول فى مثل أعطى أنطى . وكانت تقلب الألف ياء فى مثل عصاى وهواى وفتاى فتقول عصىّ وهوى وفتىّ وكانت تنطق مثل قال وباع إذا بنيا للمجهول قول وبوع بقلب الألف واواً . وكانت لا تشبع كسرة المنقوص بل تهمسها وتخطفها كما جاء فى بعض القراءات : (والليل إذا يَسْر) بدون ياء .

وقد عقد أحمد بن فارس فى كتابه « الصاحبى » فصلا حاول فيه أن يضبط اختلاف لهجات العرب ، فقال : « اختلاف لغات العرب من وجوه : أحدها الاختلاف فى الحركات كقولنا نستعين بفتح النون وكسرها ، قال الفراء هى مفتوحة فى لغة قريش وأسد ، وغيرهم يقولونها بكسر النون . ووجه آخر : الاختلاف فى الحركة والسكون مثل قولهم معكم بفتح العين وتسكينها . ووجه آخر : هو الاختلاف فى إبدال الحروف نحو أولئك وأولالك . . ومنها قولهم أن زيداً وعنّ زيداً . ومن ذلك الاختلاف فى الهمز والتليين نحو مستهزئون ومستهزون . ومنها الاختلاف فى التقديم والتأخير نحو صاعقة (فى لغة الحجازيين) وصاقعة (فى لغة التميميين) . ومنها الاختلاف فى الحذف والإثبات نحو استحييت واستحيت وصددت وأصددت . ومنها الاختلاف فى الحرف الصحيح يُبْدَلُ حرفاً معتلا نحو أما زيد وأيما زيد . ومنها الاختلاف فى الإمالة والتفخيم فى مثل قضى ورمى ، فبعضهم يفخم وبعضهم يميل . ومنها الاختلاف فى الحرف الساكن يستقبله مثله . فنهم من يكسر الأول ومنهم من يضم فيقول : (اشتروُا الضلالة) و (اشترِو الضلالة) . ومنها الاختلاف فى التذكير والتأنيث فإن من العرب من يقول هذه البقر وهذه النخيل . ومنهم من يقول هذا البقر وهذا النخيل . ومنها الاختلاف فى الإدغام نحو مهتدون ومهدّون . ومنها الاختلاف فى الإعراب نحو ما زيد قائماً وما زيدٌ قائم ، وإن هذين وإن هذان ،

وهذان بالألف دائماً لغة لبنى الحارث بن كعب . . ومنها الاختلاف فى صورة الجمع نحو أسرى وأسارى . ومنها الاختلاف فى التحقيق والاختلاس نحو يأمركم بضم الراء وتسكينها ونحو عُنى له بتسكين الهاء وكسرها . ومنها الاختلاف فى الوقف على هاء التأنيث مثل هذه أمة وهذه أمتْ . ومنها الاختلاف فى الزيادة نحو أنظرُ وأنظورُ » وقال ابن فارس إنه « يقع فى الكلمة الواحدة لغتان كقولهم الحصاد والحَصاد بكسر الحاء وفتحها ، ويقع فى الكلمة ثلاث لغات نحو الزُّجاج والزَّجاج والزِّجاج بضم الزاى وفتحها وكسرها ، ويقع فى الكلمة أربع لغات... ويكون فيها خمْس لغات نحو الشَّمال والشَّمَل والشَّمْل والشَّمْأل والشَّيْمل . ويكون فيها ست لغات نحو قسطاس بضم القاف وكسرها وبإبدال السين صادا مع ضم القاف وقُسْتاط وقِسَّاط وقُسَّاط .

ووراء هذه الاختلافات فى نطق الكلمات كان بينهم اختلاف كثير فى التعبير عن بعض المسميات مما نشأ عنه كثرة المترادفات فى العربية مثل الذهب والعسجد والغيث والمطر والقمح والبُرّ ، قال الجاحظ فى البيان والتبيين : « القمح لغة شامية والحنطة لغة كوفية والبر لغة حجازية » ويقول المفسرون فى تفسير قوله تبارك وتعالى : (وفومها) الفوم هو الحنطة . وكما يكون الترادف فى الأسماء يكون فى الأفعال مثل تقاتلوا وتعاركوا وتحاربوا وتواقعوا وتخاصموا . وكثيراً ما ينشأ الترادف من اختلافات لهجاتهم فى حذف بعض الحروف أو إبدال بعضها ببعض مثل جدث وجدف بمعنى القبر ومثل تابوت وتابوه وثابوت ومثل ادكر واذكر وساط وشاط بمعنى اختلط ، ومثل لثام ولفام فى لغة ومثل سجعت الحمامة وسجحت بالحاء ومثل حظوة وحظة فى لغة .

والترادف فى العربية كثير كثرة مفرطة ، وهو يُرَدُّ فى جمهوره إلى اختلاف اللهجات واختلاف القبائل فيما وضعته للمعانى الحسية والذهنية من أسماء وأفعال ، فإن اللغويين جمعوا كل ما دار على ألسنة القوم ، وبذلك اتسعت مادة المعجم العربى اتساعاً شديداً . وهو فى حقيقته معجم عدة لهجات ، نُظمت فى سلك واحد هو العربية ، وحقًّا ميَّز اللغويون فى مباحثهم الشواذ والشوارد والنوادر والمنكر والمتروك وغير الفصيح وساقوا فى ذلك شواهد احتفظ السيوطى فى المزهر بكثير منها ،

ولكنهم حين ألفوا المعاجم حشدوها فيها جميعاً . وقد ذهبوا يحصون أسماء السيف مثلا ويقولون إنها خمسون ، وبالمثل أحصوا أسماء الأسد والفرس والبعير ، وأمدّتهم الاختلافات اللغوية بين القبائل بمدد لا ينفد أو بعبارة أدق لا يكاد ينفد فى ذلك كله . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن لغة من اللغات لا يمكن أن تجارى العربية فى هذا الباب : باب الترادف ، فهو باب واسع فيها ، وقد أعدها ليشيع فيها أسلوب من التكرار الصوتى والترادف الموسيقى عند الجاحظ وأضرابه .

ومما يرجع أيضاً إلى اللهجات الجاهلية وتباين التعبير فيها عن المسميات وتعدده بابُ الأضداد ، إذ نجد كلمة واحدة تستعملها قبيلة بمعنى ، ثم تشيع عند قبيلة ثانية لا بمعنى مغاير له فحسب ، بل بمعنى مضاد يناقضه ، مثل جلل بمعنى عظيم فإننا نجد المعاجم تنصّ على أنها تأتى بمعنى حقير ، ومن ذلك الجَوْن يوصف به الأسود والأبيض ويدلّ عليهما ، ومثله البَسْل بمعنى الحلال والحرام . وعلى شاكلة التضاد فى الأسماء قد يكون التضاد فى الأفعال فتعبر عن معنيين متناقضين مثل رجا بمعنى رغب وخاف ومثل شرى بمعناها الذى نعرفه وهو اشترى وبمعنى باع الذى يضاده . وتكثر الأضداد لنفس السبب الذى كثرت من أجله المترادفات ، وهو أنها ليست من استعمال قبيلة واحدة ، وقد أفرد اللغويون لها بسبب كثرتها أبحاثاً وكتباً مثل كتاب الأضداد لابن الأنبارى . ونحن إنما نقصد ما يتضح فيه التضاد مما مثلنا به ، فإن اللغويين وسّعوا مفهوم الضد ، حتى شمل ما يكون بين استعمالين من فروق ضئيلة فى المعنى مثل ناء بمعنى حمل ، وبمعنى حمل بمشقة ، وأيضا فإنهم أدخلوا فى الأضداد ما نشأ عن المجاز والاستعارة ، كاستخدام العرب كلمة السليم للملدوغ بأفعى تفاؤلا . فهذا ونحوه لا يُعَدّ من الأضداد بمفهومها العلمى الدقيق ، إنما الذى يعد من الأضداد مثل ما ذكرناه ومثل الرهوة بمعنى الارتفاع والانحدار ومثل الصّريم بمعنى الليل والصبح والصارخ بمعنى المغيث والمستغيث والزبية للمكان المرتفع ولحفرة الأسد . ومرجع ذلك كما قلنا أنهم كانوا فى الجزيرة متباعدين ، فقد تطلق قبيلة كلمة على مسمى ، ولا تسمع بها القبيلة البعيدة ، فتضعها لمسمى يضاده ويكون ذلك اتفاقاً ومحض مصادفة . قال أبو عبيد فى باب الأضداد من كتابه الغريب المصنف : سمعت أبا زيد بن أوس الأنصارى

يقول : « السُّدْفة فى لغة تميم الظلمة والسدفة فى لغة قيس الضوء .. ولمقت الشىء ألمقه لمقاً إذا كتبته فى لغة بنى عقيل وسائر قيس يقولون لمقته بمعنى محوته »[1]. وعن ابن دريد : « خرج رجل من بنى كلاب أو من سائر بنى عامر بن صعصعة إلى ذى جَدَن (من أقيال حمير) فأطْلع إلى سطح ، والملك عليه ، فلما رآه الملك اختبره ، فقال له : ثبْ أى اقعد ، فقال : ليعلم الملك أنى سامع مطيع ، ثم وثب من السطح . قال الملك : ما شأنه ؟ فقالوا له : أبيت اللَّعْن ! إن الوثب فى كلام نزار الطفر (القفز) فقال الملك : ليست عربيتنا كعربيتهم »[2]. ولم يكن هذا التضاد بين لغة نزار الفصحى ولغة الجنوبيين الحميرية فحسب ، بل كان أيضًا فى كثير من الكلمات التى كانت تدور على ألسنة القبائل الشمالية لتباعد أوطانها .

ولا نريد أن نمضى فى تصوير الاختلافات بين لهجات القبائل فى الجاهلية أكثر من ذلك ، لسبب طبيعى وهو أننا لا نستطيع أن نستوعبها فى صحف معدودة ، إنما أردنا أن نكشف عن بعض جوانبها ليتضح أنه كانت فى الجاهلية لهجات كثيرة ، سجل منها اللغويون أطرافاً ، ومن غير شك لم يسجلوها جميعاً لأنها لم تكن تعنيهم فى حد ذاتها ، إنما كان يعنيهم التنبيه على ما يخالف الفصحى التى نُظم بها الشعر الجاهلى ونزل بها القرآن الكريم ، ومن أجل ذلك لم ينصُّوا فى أكثر الأحوال على القبيلة التى كانت تنطق باللهجة الشاذة ، وأيضًا فإنهم مع نَصِّهم أحياناً على القبيلة لا نستطيع أن نتبين كما قدمنا هل كل أفرادها كانوا يصطنعون تلك اللهجة أو أن ذلك كان خاصًّا ببعض عشائرها أو ببعض أفرادها . ولعل فى هذا كله ما يوضح صعوبة دراسة اللهجات الجاهلية ، فعلى الرغم من مادتها الوفيرة التى جمعها اللغويون تظل غير واضحة ويظل المجال واسعاً فيها للظن والتخمين ، وخاصة حين نحاول أن نضع حدوداً للهجة قبيلة بعينها كلهجة تميم أو لهجة هذيل . ونفس القدماء اضطربوا فى نسبة كثير مما نسبوه إلى القبائل ، فتارة يجعلونه لتميم أو لعشيرة تميمية وتارة يجعلونه لقيس أو لعشيرة قيسية ، وأخرى يجعلونه لقضاعة أو عشيرة يمنية ، وقد يُشْركون بين قبائل متباعدة فى الظاهرة اللغوية الواحدة .

---

(١) المزهر ١/٣٨٩ .

(٢) المزهر ١/٣٩٦ .

٥

سيادة اللهجة القرشية

يدل ما بين أيدينا من شعر جاهلى دلالة قاطعة على أن القبائل العربية الشمالية اصطلحت فيما بينها على لهجة أدبية فصحى كان الشعراء على اختلاف قبائلهم وتباعدها وتقاربها ينظمون فيها شعرهم ، فالشاعر حين ينظم شعره يرتفع عن لهجة قبيلته المحلية إلى هذه اللهجة الأدبية العامة ، ومن ثم اختفت جملة الخصائص التى تميزت بها كل قبيلة فى لهجتها فلم تتضح فى شعر شعرائهم إلا قليلا جداً .

وقد اختلفت آراء[1] المستشرقين فى هذه اللهجة التى كان الشعراء يتخذونها لغة لشعرهم ، فقال نولدكه إن الاختلافات بين اللهجات فى الأجزاء الأساسية من جزيرة العرب ، مثل الحجاز ونجد وإقليم الفرات ، كانت قليلة ، وقد تركبت منها جميعاً هذه اللهجة الفصحى . وتبعه جويدى يقول إنها ليست لهجة معينة لقبيلة بعينها ، إنما هى مزيج من لهجات أهل نجد ومن جاورهم . وذهب فيشر إلى أنها لهجة معينة ، ولكنه لم ينسبها إلى قبيلة من القبائل . وذهب نالينو إلى أنها لغة القبائل التى اشتهرت بنظم الشعر والتى جمع اللغويون والنحاة من أهلها مادتهم اللغوية وشواهدهم ، وهى قبائل معدّ التى جمع ملوك كندة كلمتها تحت لواء حكم واحد قبل منتصف القرن الخامس الميلادى . وفى رأيه أنها تولدت من إحدى اللهجات النجدية ، وتهذبت فى زمن مملكة كندة ، وصارت اللغة الأدبية السائدة بين العرب . ويرى هارتمان وفولرز أنها لهجة أعراب نجد واليمامة وقد أدخل فيها الشعراء تغيرات كثيرة ، ومضى فولرز يزعم أن بقية بلاد العرب كانت تتكلم لغة مخالفة ، ليصل إلى رأيه الذى سبق أن دحضناه ، وهو أن القرآن الكريم نزل بلغة شعبية مكية ، ثم كُتب بعد ذلك بالأسلوب الفصيح . وزعم بروكلمان أن الفصحى كانت لغة فنية قائمة فوق اللهجات وإن غذتها جميعا[2] .

---

(١) راجع فى هذه الآراء مقالة جواد على عن لهجات العرب قبل الإسلام فى كتاب الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة (نشر مكتبة النهضة فى القاهرة) .

(٢) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ١/٤٢ .

وعلى ضوء من رأى نالينو حاول بلاشير أن يقيم حدوداً لهذه اللهجة الأدبية معتمداً على القبائل التى كان يأخذ عنها اللغويون والنحاة مادتهم ، وهى تميم وقيس وأسد وهذيل وعُلْيا هوازن وبعض العشائر الكنانية والطائية ، وجعل هذه الحدود محصورة بين خطّين يمتد أحدهما على مسافة بضعة أميال من جنوبى مكة متجها شرقا إلى الخليج العربى فى البحرين ويمتد ثانيهما فى الشمال من ضواحى يثْرب إلى شمالى الحيرة . وذهب يزعم أن الفصحى مشتقة من الشعر الجاهلى والقرآن معاً وأن القرآن لا يستند على اللهجة المكية وإنما على لغة هذا الشعر ، وهى لغة تولدت من لهجة محلية ارتفعت إلى مرتبة لغة أدبية ، ولم يبين لنا هذه اللهجة التى تسامت على أخواتها ولا أسباب تساميها ، ومضى يشكك فى أن تكون لهجة قريش هى التى حققت لنفسها هذا التسامى[١] .

وواضح أن كل هذه الآراء تعتمد على الفرض والحَدْس ، وقد أراد بها أصحابها أن يناقضوا أشد المناقضة ما استقر فى نفوس أسلافنا من أن هذه اللهجة الفصحى إنما هى لهجة قريش التى نزل بها الذكر الحكيم ، يقول أبو نصر الفارابى : « كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عما فى النفس »[٢] ويقول أحمد بن فارس نقلا عن إسماعيل بن أبى عبيد الله : « أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالّهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله جلّ ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبىّ الرحمة محمداً صلّى الله عليه وسلم فجعل قريشا قُطّان حرمه وجيران بيته الحرام ، وولاته ، فكانت وفود العرب من حُجّاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ، ويتحاكمون إلى قريش فى أمورهم . . وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التى طُبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب ، ألا ترى أنك لا تجد فى كلامهم عنعنة تميم ولا عجرفية[٣] قيس

(١) انظر تاريخ الأدب العربى لبلاشير ١/٧٧ وما بعدها .

(٢) المزهر للسيوطى ١/٢١١ .

(٣) العجرفية : التقعر وطلب الغريب الوحشى من الكلام .

ولا كَشْكشة أسد ولا كسكسة ربيعة »[١] . ويقول ابن خلدون « كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم » فصانها بعدها عن الأعاجم من الفساد والتأثر بأساليب العجم « حتى إن سائر العرب على نسبة بُعْدهم من قريش كان الاحتجاج بلغتهم فى الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية »[٢] .

وفى رأينا أن المستشرقين جانبهم التوفيق فى الحدس والفرض حين رفضوا نظرية العرب فى أن الفصحى هى عين اللهجة القرشية ، فقد ذهبوا يطلبونها فى لهجات القبائل النجدية ، متناسين أن شيوع لهجة بعينها لا بد أن تقترن به حالة سياسية أو روحية أو حضارية ، تهيئ لها هذا الشيوع والانتشار ، بحيث تصبح لغة الفكر والشعور للجماعة الكبيرة ، فتتخذها أداة لأدبها بينما تظل وحداتها الصغيرة تتحدث فى حياتها بلغاتها المحلية . وما تزال اللغة الأدبية فى الذيوع ، حتى تظفر بتلك اللغات المحلية التى تستخدم فى الحياة اليومية العملية .

ونحن إذا طلبنا سببًا لتفوق لغة قبيلة فى نجد على جميع اللغات واللهجات المجاورة لها أعوزنا ذلك كما أعوز المستشرقين ، بينما إذا طلبنا ذلك فى قريش وجدنا أسبابًا كثيرة تعين عليه ، فقد كانت مهوى أفئدة العرب فى الجاهلية ، وكان لها عليهم نفوذ واسع بسبب مركزها الدينى الروحى والاقتصادى المادى ، إذ كانت حارسة الكعبة بيت عبادتهم ، وكانت قوافلها تجوب أنحاء الجزيرة العربية ، وكان العرب يجتمعون إليها فى أعيادها الدينية وفى أسواقها القريبة والبعيدة .

ومعنى ذلك أن هناك أسباباً دينية واقتصادية أعدت لهجةَ مكة لتسود اللهجات القبلية فى الجاهلية ، وقد تداخلت فيها أسباب سياسية ، فإن القبائل العربية كانت ترى تحت أعينها هجوم الدول المجاورة من الفرس والروم والحبش على أطرافها ، كما كانت ترى هجوم الديانتين المسيحية واليهودية على دينها الوثنى ، فتجمعت قلوبها حول مكة ، وهوت أفئدتها إليها . وبذلك كله تهيأ للهجة القرشية أن يعلو سلطانها فى الجاهلية اللهجات القبلية المختلفة ، وأن تصبح هى اللغة الأدبية التى يصوغون فيها أدعيتهم الدينية وأفكارهم وأحاسيسهم . وقد تدل على ذلك بعض

---

(١) انظر الصاحبى فى فقه اللغة (طبعة المؤيد) ص ٢٣ .

(٢) راجع الفصل الثانى والثلاثين من القسم السادس فى مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٩ .

الدلالة سوقُها عكاظ ، فقد كانت سوقاً أدبية كما كانت سوقاً تجارية ، وكان الخطباء يرتجلون فيها خطبهم وينشد الشعراء قصائدهم ، ولم يُرْوَ ذلك عن سوق سواها ، ومما يدعم هذا الدليل ما قاله الرواة من أن العرب « كانت تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولا ، وما ردوه منها كان مردوداً ، فقدم عليهم علقمة بن عَبَدَة التميمى ، فأنشدهم قصيدته : " هل ما علمت وما استودعت مكتوم " فقالوا : هذا سمط الدهر ، ثم عاد إليهم العام المقبل فأنشدهم قصيدته : " طحابك قلبٌ فى الحسان طروب " فقالوا : هاتان سمطا الدهر »[1] .

وإذن فنحن لا نعدو الواقع إذا قلنا إن لهجة قريش هى الفصحى التى عمت وسادت فى الجاهلية لا فى الحجاز ونجد فحسب ، بل فى كل القبائل العربية شمالا وغرباً وشرقاً ، وفى اليمامة والبحرين ، وسقطت إلى الجنوب وأخذت تقتحم الأبواب على لغة حمير واليمن وخاصة فى أطرافها الشمالية حيث منازل الأزد وخثعم وهمدان وبنى الحارث بن كعب فى نجران . ومما يؤكد ذلك أن الوفود اليمنية التى وفدت على الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحدّثنا رواة الأخبار والسيرة النبوية أنها كانت تجد صعوبة فى التفاهم معه ، وأيضاً فإنه كان يرسل إليهم دعاة يعظونهم ويعلمونهم الشريعة الإسلامية من مثل معاذ بن جبل ، ولو أنهم لم يكونوا يعرفون العربية الفصحى لكان إرسال هؤلاء الدعاة عبثاً . وكل هذه دلائل تدل على أن حركة تعريب واسعة فى الجنوب حدثت قبيل الإسلام .

أما فى الشمال فقد كانت الفصحى معروفة فى كل مكان ، وكان الشعراء يتخذونها لغة لشعرهم ، ومما يدل على ذلك دلالة قاطعة سرعة استجابتهم للقرآن الكريم ودعوته ، فإنهم كانوا يفهمونه بمجرد سماعه ، فإذا عرفنا أنه نزل بلغة قريش تحتّم أن تكون هى اللغة الأدبية التى كانت سائدة . أما ما يردده اللغويون من أن القرآن الكريم نزل على سبع لغات منها خمس بلغة العَجُز من هوازن ، وهم الذين يقال لهم عُليا هوازن مثل سعد بن بكر بن معاوية وثقيف فذلك فى رأيى إنما هو تفسير منهم للحديث النبوى : « أُنْزل القرآن على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسّر منه » فقد فسروا الحروف باللغة أو اللهجة ونظروا فوجدوا لهجات العرب ولغاتها

---

(١) أغانى (ساسى) ٢١/١١٢ .

كثيرة ، فاختاروا منها سبعاً هى أفصحها ، وهى التى كان يرحل إليها اللغويون لجمع مادتهم اللغوية الصحيحة ، وقد اختلفوا فى بعضها . وفى رأينا أن الحديث لا يراد به تخصيص ، وإنما يراد به الترخيص لقبائل العرب أن تقرأه بلهجاتها المختلفة متى جاءت بها الرواية الصحيحة من مَدٍّ وإمالة وتحريك للحروف وتسكين وتشديد تسهيلا عليهم وتيسيراً حتى لا يجدوا مشقة وثقلا فى نطق بعض ألفاظه . روى الرواة عن أبى حاتم السجستانى أنه قال فى كتابه الكبير فى القراءات : « قرأ علىّ أعرابىّ بالحرم (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طِيبى لهم وحسن مآب) فقلت : طوبى ، فقال : طيبى ، فلما طال علىّ قلت : طوطو قال : طى طى »[1]. فلم يستطع أن يثنى طبعه لأن لهجته القبلية فى مثل طوبى مما وزنه فعلى تنطقه طيبى على وزن فعلى بكسر الفاء ، فتقلب الواو ياء والضمة فى أول الكلمة كسرة . ولم ينفع فى الأعرابى لَفْتُ أبى حاتم ولا تمرينه له على نطق طوبى . ولمثل ذلك تعددت قراءات القرآن الكريم ، تخفيفاً للمشقة عليهم فى تلاوته . وفعلا قرأوه بلهجاتهم ، المرخَّص بها ، وكان ذلك سبب اختلاف قراءاته التى دونها العلماء .

ونعتقد أن تفسير الحديث بأن القرآن نزل بسبع لغات معينة هى أفصح لغات العرب هو الذى ضلل المستشرقين ، فإنهم ظنوا أنه نزل بلغات قبائل نجدية ولم ينزل بلغة قريش ، وكأنهم لم يلاحظوا أن نفس هذه القبائل التى عينها اللغويون هى أقرب القبائل إلى قريش ، ومن هنا جاءت فصاحتها ، ولعل ذلك هو الذى جعل الطبرى يذهب إلى أن لغة قريش نفسها كانت تستوعب الأحرف السبعة التى أشار إليها الحديث النبوى. وليس بمعقول أن يترك الرسول لغة قومه الذين بُعث فيهم إلى لغات أقوام آخرين ، وفى القرآن الكريم نفسه : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) فالقرآن بشهادته إنما نزل بلغة قريش ، وما دام المستشرقون يسلمون بأنه نزل بالفصحى ، مع استثنائنا لڤولرز وأضرابه ، فإن هذه الفصحى إذن هى نفس لغة قريش التى لم يكن بها عِوَج من لغات أو لهجات شاذة كالعنعنة والكشكشة وكسر أول المضارع .

---

(١) الخصائص لابن جنى بتحقيق محمد على النجار (طبع دار الكتب المصرية) ١/٧٥ – ٧٦ .

وربما كان من الأسباب التى ضللت المستشرقين أيضًا ودفعتهم عن محجّة الصواب أنهم وجدوا اللغويين حين أخذوا يجمعون مادتهم اللغوية يرحلون إلى قبائل نجدية منحازين عن قريش ، وكأنهم نسوا أن الزمن قد تغير وأن مكة دخلها أعاجم كثيرون فى الإسلام وأن الفصحى فيها فى أثناء القرن الثانى قرن جمع اللغة وتدوينها دخلتها شوائب من الأعاجم والموالى الذين كثروا فيها كثرة مفرطة . ومن أجل ذلك رحل اللغويون إلى قبائل نجد التى كانت لا تزال تحتفظ بصفاء لغتها . وقد شاع أن أفصح العرب لعصرهم عُلْيا هوازن وسفلى تميم وأسد وكنانة وهذيل . ويوضح أبو نصر الفارابى السبب فى أنهم اقتصروا على تلك القبائل فى جمع اللغة فيقول : « والذين عنهم نُقلت العربية وبهم اقتُدى وعنهم أُخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل فى الغريب وفى الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حَضرى قط ولا عن سُكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جُذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة وغسّان وإياد لمجاورتهم أهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد وعُمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم[1] » .

فاللغويون فى القرن الثانى حين أقبلوا على القبائل النجدية يجمعون منها مادتهم إنما كانوا يتحرّون الينابيع التى لا تزال نقية صافية ، وليس فى عملهم ما يشكك أى تشكيك فى لغة مكة فى أثناء العصر الجاهلى وفترة نزول القرآن الكريم ، فقد التمسوا بغيتهم فى القبائل المجاورة لقريش مثل كنانة وهذيل وبعض عشائر قيس .

---

(١) المزهر ١/٢١١

ومن المؤكد أن الفوارق فى الجاهلية بين لهجة مكة ولهجات هذه القبائل كانت ضئيلة وأن هذه الفوارق كانت تتسع كلما ابتعدنا جنوباً أو شرقاً أو شمالا . على أنه ينبغى أن لا نبالغ فى تصورها ، فإن الشعراء تضافروا منذ أوائل العصر الجاهلى على إذاعة اللهجة المكية فى قبائلهم بما كانوا ينظمون فيها من أشعارهم .

ومعنى ذلك أن لهجة قريش لم يبدأ ذيوعها وانتشارها بين العرب فى الإسلام عن طريق القرآن الكريم كما ظن ذلك بعض الباحثين ، فقد كانت ذائعة منتشرة بينهم منذ العصر الجاهلى ، بل منذ أوائله ، فأقدم نصوصه كأحدثها نُظم بهذه اللهجة القرشية التى اتخذوها لغة أدبية عامة لهم ، والتى سُمِّيت بعد بالفصحى ، فقد كانوا يشعرون بروعتها ، فاندفعوا يحاكونها ، وقد امتلأت نفوسهم بأهلها ومكانتهم الروحية والاقتصادية والسياسية . ومن غير شك بلغ انتشار هذه اللهجة الذروة فى الإسلام ، فقد أقبل العرب فى كل مكان شمالا وجنوباً على الارتشاف من أفاويق لغته ، وقد أخذ يعمِّمها لا فى أنحاء الجزيرة القاصية وحدها ، بل فى كل بلد إسلامى شرقاً وغرباً ، فإذا أعلامها تخفق على الدروب من أواسط آسيا إلى مشارف المحيط الأطلسى .

الفصل الخامس

رواية الشعر الجاهلى وتدوينه

١

رواية العرب للشعر الجاهلى

مرّ بنا فى غير هذا الموضع أن العرب الشماليين نمو الخط النبطى وتطوروا به إلى خطهم العربى منذ أوائل الجاهلية أو لعلهم وصلوا إلى ذلك قبل فجرها ، فقد وُجدت نقوش مختلفة تشهد بذلك، ونرى شعراءهم يشيع عندهم تشبيه الأطلال ورسوم الديار بالكتابة ونقوشها من مثل قول المرقّش الأكبر [١] :

الدَّارُ قَفْرٌ والرسومُ كما رقَّشَ فى ظهر الأَديم قَلم

ويقال إنه كان يحسن الكتابة وإنه كتب على بعض الرّحال قصيدة له حين وقع أسيراً فى يد بعض العرب [٢] ، ويقول سلامة بن جندل [٣] :

لمن طلَلٌ مثل الكتاب المنمَّقِ خلا عَهْدُهُ بين الصُّلَيْب فمُطْرِقِ

ولعله يقصد بالكتاب الصحيفة ، ويقول لبيد فى مطلع معلقته :

عَفَتِ الديارُ محلُّها فمُقَامُها بِمِنًى تأَبَّدَ غَوْلُها فرِجامُها [٤]

فمدافعُ الرَّيَّان عُرِّىَ رَسْمُها خَلَقًا كما ضمِنَ الوُحِىَّ سِلامُها [٥]

وجلا السيولُ عن الطلول كأَنها زُبُرٌ تُجِدُّ متونَها أَقلامُها [٦]

---

(١) المفضليات (طبع دار المعارف) ص ٢٣٧ ، رقش : زين ونمق .

(٢) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٦/١٣٠.

(٣) الأصمعيات (طبعة دار المعارف) ص ١٤٦ والصليب ومطرق : موضعان .

(٤) عفت : درست وامحت ، تأبد : توحش ، والمحل: حيث يحل القوم . والمقام : المجلس ، ومنى : موضع بحمى ضرية ، والغول والرجام : جبلان أو موضعان .

(٥) مدافع الريان : موضع ، والرسم : آثار الديار ، وخلقا : دروسا، والوحى : جمع وحى وهو الكتابة ، والسلام : الحجارة الرقيقة.

(٦) الزبر : جمع زبور وهو الكتاب ، وتجد : تجدد .

فهو يشبه رسوم الديار بالوحى أو الكتابة فى الحجارة الرقيقة ، ويقول إن السيول جلت التراب عن الطلول ، حتى لكأنما آثار الديار كتبٌ طمست فأعيد بعضها على بعض وتُرِك ما تبيَّن منها ، فهى مختلفة . ويقول الأخنس بن شهاب التغلبى[١] :

لابنة حِطَّان بن عَوْفٍ منازلٌ كما رقَّش العنوانَ فى الرَّقِّ كاتبُ

ويقول الحارث بن حِلِّزة اليشكرى البكرى[٢] :

لمن الديار عَفَوْن بالحُبْس آياتُهـا كمهارق الفُرْسِ

ويدور هذا التشبيه كثيراً فى أشعارهم ، مما قد يدل على أن كثيرين منهم كانوا يعرفون الكتابة ، بل إن فريقاً منهم ، كما يقول الرواة ، كان يعرف الكتابة الفارسية على نحو ما حدثونا عن لقيط بن يعمر الإيادى وعدى بن زيد العبادى[٣] . ومما لا شك فيه أن الكتابة كانت شائعة فى الحواضر وخاصة فى مكة التاجرة . وفى السيرة النبوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل فداء الأسرى القرشيين الكاتبين فى بدر أن يعلِّم الأسير منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة[٤] ، وكان مَنْ يكتبون بين يديه الوحى وفيما يعرض من أموره وأمور المسلمين فى عقودهم ومعاملاتهم كثيرين[٥] . فالكتابة كانت معروفة بل كانت شائعة فى الجاهلية ، ورُويت أخبار متفرقة تدل على أن بعض الشعراء استخدمها بلاغاً شعريًّا لقومه فى بعض ما حَزَبه من الأمر[٦] . وغلاكرنكو فزعم أن نظم الشعر فى الجاهلية كان مرتبطاً بها وبمعرفتها بدليل اختلاف القراءات للفظة الواحدة ، وأيضا فإن استخدام الشاعر لبعض القوافى النادرة يدل على أنه كان يلاحظ العين أكثر مما يلاحظ الأذن[٧] .

---

(١) المفضليات ص ٢٠٤ والرق : الجلد الرقيق .

(٢) المفضليات ص ١٣٢ والحبس بتثليث الحاء : موضع ، وآياتها : علاماتها ، والمهارق : الصحف .

(٣) أغانى ٢/١٠١ وطبعة الساسى ٢٠/٢٤ والشعر والشعراء (طبعة دار المعارف) ١/١٨٠ .

(٤) طبقات ابن سعد ٢/١ : ١٤ .

(٥) الوزراء والكتاب للجهشيارى (طبعة الحلبى) ص ١٢ .

(٦) انظر الباب الثانى . فى كتاب مصادر الشعر الجاهلى لناصر الدين الأسد (طبع دار المعارف) .

(٧) انظر مقالة له بعنوان The Use of Writing for the Preservation of Ancient Arabic Poetry نشرت مع مقالات أخرى فى كتاب : A Volume of Oriental Studies to E.G. Browne, Edited by J.W. Arnold.

وأكبر الظن أن اختلاف القراءة إنما نشأ فى عصر التدوين أو بعبارة أخرى فى القرن الثانى للهجرة ، وأيضاً فإن الشعر فن سمعى ، وليس فناً بصرياً .

والحق أنه ليس بين أيدينا أى دليل مادى على أن الجاهليين اتخذوا الكتابة وسيلة لحفظ أشعارهم ربما كتبوا بها بعض قطع أو بعض قصائد ، ولكنهم لم يتحولوا من ذلك إلى استخدامها أداة فى نقل دواوينهم إلى الأجيال التالية ، فقد كانت وسائلها الصعبة من الحجارة والجلود والعظام وسَعف النخل تجعل من العسير أن يتداولها الشعراء فى حفظ دواوينهم ، إنما حدث ذلك فى الإسلام ، بفضل القرآن الكريم وما أشاعه من كتابة آيه وتحوُّل جمهور العرب معه من أميتهم الكبيرة إلى قارئين يتلون . ولا نكاد نمضى طويلا فى العصر الإسلامى حتى تتحول العربية من لغة مسموعة فحسب إلى لغة مسموعة مكتوبة . وهو تحول شارك فيه العرب والمستعربون . وكل ما بين أيدينا من روايات عن كتابة بعض الأشعار فى الجاهلية إنما يدل على أن الكتابة كانت معروفة ، وخاصة فى البيئات الآخذة بشىء من الحضارة ، ونقصد المدن مثل مكة والمدينة والحيرة ، ولكنه لا يدل بحال على أنها اتُّخذتْ أداة لحفظ الشعر الجاهلى ودواوينه ، ولو أنهم كان لهم كِتاب جمعوا فيه أطرافاً من أشعارهم لما أطلق الله جل وعز على القرآن اسم الكتاب ، فلا كتاب لهم من قبله لا فى الدين ولا فى غير الدين .

أما ما يقال من أن المعلقات كانت مكتوبة ومعلقة فى الكعبة فمن باب الأساطير ، وهو فى حقيقته ليس أكثر من تفسير فسر به المتأخرون معنى كلمة المعلقات ، فقد جاء فى العقد الفريد أنه بلغ من شغف العرب بالشعر أن « عمدتْ إلى سبع قصائد تخيرتْها من الشعر القديم ، فكتبتْها بماء الذهب فى القباطى المدرجة وعلقتْها فى أستار الكعبة ، فمنه يقال : مذهَّبة امرئ القيس ومذهبة زهير . . والمذهبات السبع ، وقد يقال لها المعلقات »[1] ولو أنهم تنبهوا إلى المعنى المراد بكلمة المعلقات ما لجأوا إلى هذا الخيال البعيد ، ومعناها : المقلَّدات والمسمَّطات ، وكانوا يسمون فعلا قصائدهم الطويلة الجيدة بهذين الاسمين وما يشبههما[2] ، وقد

---

(١) العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٦/١١٩ .

(٢) البيان والتبيين ٢/٩ .

نفى ابن النحاس الأسطورة فقال : « لم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة[١] » .

ونستطيع أن ندخل فى هذا الباب باب الأساطير ما يُرْوَى عن حماد الراوية من أن النعمان بن المنذر المتوفى سنة ٦٠٢ للميلاد « أمر فنُسخت له أشعار العرب فى الطنوج — الكراريس — ثم دفنها فى قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن أبى عُبَيْد (حوالى سنة ٦٧ هـ) قيل له : إن تحت القصر كنزاً ، فاحتفره ، فأخرج تلك الأشعار ، فمن ثَمَّ أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة[٢] » ويقول ابن سلام : « وقد كان عند النعمان بن المنذر منه (من شعر العرب فى الجاهلية) ديوان فيه أشعار الفحول وما مُدح هو وأهل بيته به ، فصار ذلك إلى بنى مروان ، أو صار منه[٣] » . ويكفى أن يكون أصل الخبر حماداً المتهم فى روايته لنشك فيه ، بل إنه يحمل فى أطوائه ما يجعلنا نتهمه ، فهو ينتهى عنده إلى تعليله به كيف أن أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة ، وكأنما ساقه حماد الكوفى لبيان سابقة الكوفة على البصرة فى الشعر القديم والعلم به ، والمنافسةُ بين البلدتين فى هذا الباب معروفة .

وإذا كان القرآن الكريم على قداسته لم يُجْمَعْ فى مصحف واحد إلا بعد وفاة الرسول ، وبعد مشاورة بين أبى بكر رضوان الله عليه والصحابة ، فذلك وحده كاف لبيان أن العرب لم تنشأ عندهم فى الجاهلية فكرة جمع شعرهم أو أطراف منه فى كتاب ، إنما نشأ ذلك فى الإسلام وبمرور الزمن . أما فى الجاهلية فكانوا يعتمدون فيه على الرواية وكان الشاعر يقف فينشد قصيدته ، ويتلقاها عنه الناس ويروونها .

ومعنى ذلك أن النهر الكبير الذى فاض بالشعر الجاهلى إنما هو الرواية الشفوية ، وقد ظلت أزماناً متتالية فى الإسلام ، ويدل على ذلك أقوى الدلالة أن الحديث النبوى ظل فى أغلب أحواله يعتمد على الرواية والمشافهة إلى نهاية القرن الأول للهجرة . وإذا كان الحديث بما له من قدسية لم يعمدوا إلى تدوينه تدويناً عامًّا إلا بعد مرور

---

(١) انظر معجم الأدباء لياقوت فى ترجمة حماد ١٠/٢٦٦ .

(٢) راجع الخصائص لابن جنى (طبعة دار الكتب) ١/٣٩٢ ومعجم البلدان لياقوت فى القصر الأبيض .

(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبعة دار المعارف) ص ٢٣ .

نحو قرن على الهجرة الشريفة فأولى أن يكونوا قد تبعوا ذلك فى الشعر الجاهلى ، ولم يكن ركناً فى الشريعة الإسلامية ولا كانت تقوم عليه حاجاتهم الدينية الملحة . ومَنْ يرجع إلى شعرهم يجد شعراءهم يذكرون دائماً الرواية وأنها وسيلة انتشاره فى القبائل ، فهى الوسيلة التى كانوا يعرفونها وقد نفذ شعرهم من خلالها إلى آفاق الجزيرة ، يقول المسيَّب بن علَس[1] :

فلأَهدينَّ مع الرياح قصيدةً ... منى مُغَلْغَلَةً إلى القَعْقاعِ[2]

تَرِدُ المياه فما تزال غريبةً ... فى القوم بين تمثُّل وسماعِ

فقصيدته تنتشر فى القبائل ، ويرددها الناس مستمعين إليها ومتمثلين بأبياتها ، ويقول عَميرة بن جُعَل نادماً على هجائه لقومه وشيوعه فى العرب وأنه لم تعد له حيلة فى رده[3] :

نَدِمْتُ على شَتْم العشيرة بعدما ... مضتْ واستتبَّتْ للرواة مذاهِبُهْ

فأَصبحتُ لا أَسْطيع دَفْعًا لما مضى ... كما لا يردُّ الدَّرَّ فى الضَّرْع حالبُهْ

فرواية الشعر فى العصر الجاهلى كانت هى الأداة الطيعة لنشره وذيوعه ، وكانت هناك طبقة تحترفها احترافاً هى طبقة الشعراء أنفسهم ، فقد كان مَنْ يريد نظم الشعر وصوغه يلزم شاعراً يروى عنه شعره ، وما يزال يروى له ولغيره حتى ينفتق لسانه ، ويسيل عليه ينبوع الشعر والفن . ونصّ صاحب الأغانى على سلسلة من هؤلاء الشعراء الرواة الذين يأخذ بعضهم عن بعض ، وقد بدأها بأوس بن حجر التميمى ، فعنه أخذ الشعر ورواه حتى أجاد نظمه زهيرُ بن أبى سلمى المزنى ، وكان له راويتان كعب ابنه والحطيئة ، وعن الحطيئة تلقن الشعر ورواه هُدْبة بن خَشْرم العُذْرى ، وعن هدبة أخذ جميل صاحب بثينة ، وعن جميل أخذ كثيِّر صاحب عزّة[4] .

---

(١) المفضليات ص ٦٢ .

(٢) مع الرياح : يريد أنها تذهب كل مذهب ، مغلغلة : نافذة تنفذ فى الناس وتسلك إليهم السبل البعيدة .

(٣) الشعر والشعراء ٢/٦٣٢ وقارن مع المفضليات ص ١٠٠ .

(٤) أغانى (طبعة دار الكتب) ٨/٩١ .

نحن إذن بإزاء مدرسة تامة من الشعراء الرواة تتسلسل فى طبقات أو حلقات ، وكل حلقة تأخذ عن سابقتها وتسلم إلى لاحقتها ، ومن أهم ما يلاحظ فى هذه المدرسة أن شعراءها أو رواتها كانوا من قبائل مختلفة فى شرقى الجزيرة وغربيها . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن شعراء القبيلة الواحدة كان يروى خلفهُم شعر سَلَفهم ، ونصّ القدماء على ذلك فى غير شاعر ، فقالوا إن الأعشى كان راوية لخاله المسيَّب بن علس وكان يأخذ منه[١] وقالوا إن أبا ذؤيب الهذلى كان راوية لساعدة ابن جُؤَيْة الهذلى[٢] ، ومَنْ يقرأ ديوان الهذليين يجد أواصر فنية قوية تجمعهم وتربط بينهم . وعلى هذا القياس توجد وشائج واضحة بين شعراء قيس بن ثعلبة ، فطرفة يروى للمرقش الأصغر عمه ويأخذ عنه ، ويروى هذا عن عمه المرقش الأكبر ويحتذى على شعره ، وأيضاً فإن طرفة كان يروى عن خاله المتلمِّس الذى رُبِّى فى أخواله من بنى يشكر . وقد لا تكون القبيلة الجامعةَ الواصلة ، فقد يجمع بين الشعراء سلوك فى الحياة كالصعاليك أو الفرسان فيروى بعضهم لبعض ، ويأخذ بعضهم عن بعض ، على نحو ما نلاحظ عند تأبط شرًّا والشنفرى أو عند أبى دؤاد الإيادى وزيد الخيل .

ولو أن الرواة لم يرووا لنا هذه الصلات الجامعة أو الرابطة بين الشعراء الجاهليين لحدسناها حدساً من اتفاقهم على تقاليد فنية واحدة مهما شرَّقنا وغربنا فى الجزيرة ، وهى تقاليد جاءت من تمسكهم بنماذج أسلافهم لا يحيدون عنها ولا ينحرفون ، فهى دائماً الإمام المتبع ، وهمّ كل شاعر أن يتقن معرفتها عن طريق ما يحفظ من شعر أستاذه وشعراء قبيلته ، بل أيضاً شعراء القبائل الأخرى . ولم يكن الشعراء وحدهم الذين يهتمون برواية هذا الشعر ، فقد كان يشركهم فى ذلك الاهتمام أفراد القبيلة جميعهم ، لأنه يسجل مناقب قومهم وانتصاراتهم فى حروبهم كما يسجل مثالب أعدائهم ، وإلى ذلك أشار بعض بنى بكر معيِّراً تغلب لكثرة تردادها لقصيدة واحدة هى معلقة عمرو بن كلثوم ، وكأن ليس لها شعر سواها ، يقول[٣] :

أَلْهَى بنى تَغْلِبٍ عن كل مكرمةٍ   قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثومِ

---

(١) الشعر والشعراء ١/١٢٧ والموشح للمرزبانى ص ٥١ .

(٢) الشعر والشعراء ٢/٦٣٥

(٣) أغانى ١١/٥٤ .

يروونها أبدًا مذ كان أولهم يا للرِّجال لشعرٍ غير مشئوم

ولم يكن أبناء القبيلة وحدهم الذين يُشيعون شعر شعرائها ، فقد كان كثير من أفراد القبائل الأخرى يشتركون معهم فى إشاعته ، إذ كان بينهم جم غفير من الحفظة ، كانوا يتناقلون الشعر وينشدونه فى محافلهم ومجالسهم وأسواقهم ، إذ لم يكن لهم شاغل سواه ، وكان يسجل مآثرهم ومثالبهم وأنسابهم وأيامهم وأخبارهم ، ومن ثَمَّ قال عمر بن الخطاب : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه »[١] فهو كل علمهم وكل حياتهم .

وجاء الإسلام فانكبّوا على تلاوة القرآن الكريم ، ولكن لم ينسوا شعرهم أبداً ، حتى منذ بدء الدعوة الإسلامية ، فقد كان الرسول عليه السلام يستحث حسان ابن ثابت وغيره من شعراء الأنصار على هجاء قريش والرد على شعرائها ، وكان كثيراً ما يستنشد الصحابة الشعر ، حتى شعر أعدائه من مثل أمية بن أبى الصَّلْت ، قال الشريد بن سُوَيد الثقفى : « استنشدنى النبى صلى الله عليه وسلم شعر أمية بن أبى الصلت فأنشدته ، فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم يقول : هيه ، هيه ، حتى أنشدته مائة قافية »[٢] . وكان أبو بكر نسابة راوية للشعر الجاهلى ، وكان يتمثل به أحياناً فى خطابته كخطبته المشهورة فى يوم السَّقيفة ، وكذلك كان عمر ، وقلما كان يترك وافداً عليه من قبيلة دون أن يسأله عن بعض شعرائها ، وفيه يقول ابن سلام : « كان لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر »[٣] .

وهذا نفسه شأن الصحابة جميعاً ، فقد كانوا كثيراً ما يتناشدون الأشعار ويقصون بعض الأخبار عن جاهليتهم ، قال جابر بن سمرة : « جالست رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أكثر من مائة مرة ، فكان أصحابه يتناشدون الأشعار فى المسجد وأشياء من أمر الجاهلية ، فربما تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم »[٤] .

ومعنى ذلك أن رواية الشعر الجاهلى كانت مستمرة فى صدر الإسلام ، وقد أخذت تظهر عوامل تشدّ من أزرها وتقوى من شأنها ، فقد أخذت تنشأ منذ

---

(١) طبقات فحول الشعراء ص ٢٢ .

(٢) ابن سعد ٥/٣٧٦ وخزانة الأدب ١/٢٢٧ والمزهر ٢/٣٠٩ .

(٣) البيان والتبيين ١/٢٤١ .

(٤) طبقات ابن سعد ١/٢ : ٩٥ وما بعدها .

تدوين عمر للدواوين حاجة شديدة لمعرفة الأنساب ، إذ كانت تلعب دوراً مهمّاً في رواتب الجند الفاتحين وفي مراكز القبائل بالمدن الجديدة التي خطّطوها مثل البصرة والكوفة . وكان بين العرب قديماً من يشتهرون بمعرفة الأنساب ، ولكن في هذا العصر الإسلامي إلى تمامه يصبح لهؤلاء النسابين شأن خطير ، إذ كان العرب يرجعون إليهم في معرفة أصولهم . وكثيراً ما كانوا يسوقون لهم قطعاً من الشعر تحدد نسبهم . ومن أشهرهم عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل ودغفل والنَّخار بن أوس العذرى[١] .

ونحن لا نصل إلى الحرب التي نشبت بين على ومعاوية حتّى تشتعل العصبيات القبلية اشتعالا لم تَخْبُ نيرانه حتّى نهاية العصر الأموى ، وكان الشعر الوقودَ الجزل لهذه العصبيات ، فأخذت كل قبيلة تُعْنَى برواية شعرها الجاهلي الذى يصور مناقبها ومثالب خصومها ، ويتناقله أبناؤها . فهو جعبة سهامهم التي يوجهونها إلى خصومهم . ومن غير شك كان ذلك أكبر عون على حفظ الشعر الجاهلي ، فقد حملته القبائل طوال القرنين الأول والثاني حتّى أدوه إلى العلماء الذين عنوا بتدوينه[٢] .

وكانت الدولة الأموية عربية النزعة ، فعملت على حفظ هذا التراث ، بما كانت تروى منه ، نجد ذلك عند معاوية وعبد الملك بن مروان وغيرهما من الخلفاء ، وكانوا كثيراً ما يسألون وفود القبائل التي تفد عليهم عن بعض شعرائها . وقد ينشدون بيتاً ويسألون عن صاحبه وقصيدته ، ومن تحسن إجابته تحسن له جائزتهم[٣] ، وكان أبناؤهم على غرارهم « وكانوا ربما اختلفوا في بيت من الشعر أو خبر أو يوم من أيام العرب فيبردون فيه بريداً إلى العراق »[٤] يسألون علماءها عن صحة الأمر فيه وصوابه . وأقام لهم آباؤهم غير مؤدب يروّيهم أشعار الجاهلية وأيامها وأخبارها ، ويلقانا هؤلاء المؤدبون في كل مكان يؤدبون الناشئة ، وفي البيان والتبيين فصل طويل يحصى فيه أسماءهم .

ومما يدخل في عناية الأمويين بالشعر الجاهلي ما يُرْوَى عن معاوية من شغفه بالمسامرة ومعرفة أخبار الماضين ، مما جعله يستدعى عُبيد بن شَرِيَّة الجرهمى من

---

(١) انظر في هؤلاء النسابين وفيما نسوقه هنا من اتصال رواية الشعر الجاهلي حتّى القرن الثاني الباب الثالث من كتاب مصادر الشعر الجاهلي .

(٢) راجع مصادر الشعر الجاهلي ص ٢٣١ وما بعدها .

(٣) انظر الأغاني ٣/٩١ .

(٤) التصحيف والتحريف للعسكرى ص ٤

صنعاء اليمن ، ويتخذه سميراً له يسأله عن الأخبار المتقدمة والملوك السالفة ، وهاله ما عنده من العلم بذلك ، فاتخذ غلماناً يقيدون فى دفاتر ما يذكره من سير الملوك وأخبارها ووقائع العرب وأيامها فى الجاهلية وأشعارها[١] .

ومنذ وقت مبكر فى صدر الإسلام نرى القصاص يجلسون للعظة فى المسجد الجامع ، وكانوا كثيراً ما ينثرون الأشعار الجاهلية التى تتصل بوعظهم فى تضاعيف قصصهم ، وقد أخذت تنشأ جماعة مثل أبان بن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير تُعْنى بغزوات الرسول وما قيل فيها من الشعر . وأخذ يظهر بجانبهم جماعة تعنى بأخبار العرب الماضين وما كان يجرى على ألسنة شعرائهم . وفى أثناء ذلك كان الشعراء الإسلاميون أنفسهم يعنون عناية شديدة برواية الشعر القديم ، وبلغ من اهتمام بعضهم بذلك أن أصبح مؤدبا للناشئة يرويها الشعر القديم على نحو ما نعرف عن الكميت والطرماح[٢] . ولم يكن هناك شاعر مبرز إلا وهو يروى للجاهليين وينشد من شعرهم ، وفى كتب الأدب إشارات مختلفة إلى ما أخذه العلماء عن أمثال ذى الرمة والفرزدق وجرير ورؤبة من هذا الشعر[٣] ، وصوّر الفرزدق مدى روايته ومعرفته للشعر الجاهلى ، فقال فى بعض قصيده[٤] :

وهب القصائدَ لى النوابغُ إذ مضوا	وأبويزيد وذو القروح وجَرْوَلُ[٥]
والفحلُ علقمةُ الذى كانتْ له	حُلَلُ الملوك كلامُه لا يُنْتَحَلُ
وأخو بنى قيسٍ وهُنَّ قَتَلْنَه	ومُهَلْهِلُ الشعراء ذاك الأَوَّلُ[٦]
والأعشيان كلاهما ومُرَقِّشٌ	وأخو قُضاعةَ قولهُ يُتَمَثَّلُ[٧]
وأخو بنى أَسَدٍ عَبِيدٌ إذ مضى	وأبو دُوَادٍ قوله يتنخَّلُ

(١) انظر مصادر الشعر الجاهلى ص ١٥٩ والفهرست ص ١٣٢ .

(٢) البيان والتبيين ١/٢٥١ ، ٢/٣٢٣ .

(٣) مصادر الشعر الجاهلى ص ٢٢٥ وما بعدها .

(٤) نقائض جرير والفرزدق ص ٢٠٠ والديوان (طبع القاهرة) ص ٧٢٠ .

(٥) النوابغ : النابغة الذبيانى والجعدى والشيبانى . وأبو يزيد : المخبل ، وذو القروح : امرؤ القيس ، وجرول : الحطيئة .

(٦) أخو بنى قيس : طرفة ، وهن قتلنه : يريد القوافى ، لأنه قتل بسبب بعض أهاجيه .

(٧) الأعشيان : أعشى بنى قيس وأعشى باهلة . وأخو قضاعة : أبو الطمحان القينى .

وابنا أَبِى سُلْمَى زهيرٌ وابنُــه ... وابن الفُرَيْعَة حين جَدَّ المِقْوَلُ(١)
والجعفرىُّ وكان بِشْرٌ قبــله ... لى من قصائده الكتابُ المُجْمَلُ(٢)
ولقد ورثتُ لآل أَوسٍ منطقًا ... كالسَّمِّ خالط جانبيه الحَنْظَلُ(٣)
والحارثىُّ أخو الحِماس ورِثْتُهُ ... صَدْعًا كما صَدَعَ الصَّفَاةَ المِعْوَلُ(٤)

ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق عربى فى العصر الإسلامى وما وليه من أوائل العصر العباسى إلا وهو يروى الشعر الجاهلى ، إن هو تحدث أو وقف خطيباً ، وتمثُّل الحجاج بالشعر فى خطابته ذائع مشهور . وإذا كنا لاحظنا فى الجاهلية أن الرواة الموصوفين بهذا الاسم كانوا عادة من الشعراء ، فإننا نلاحظ فى العصر الإسلامى نشوء طائفة من الرواة ، لم يكونوا ممن يحسنون نظم الشعر ، فهم لا يروونه لغرض تعلمه ، وإنما يروونه لغرض نشره فى الناس وإذاعته ، وإليهم يشير جرير بقوله فى وصف بعض قصائده(٥) :

خروجٍ بأفواه الرواة كأنها ... قَرَا هُنْدُوانىٍّ إذا هُزَّ صَمَّما(٦)

وفى أخباره أنه كان له رواة يلزمونه ويأخذون عنه شعره ، وكذلك كان الفرزدق . ولم يكونوا يروون شعرهما فحسب بل كانوا ينقحونه ويهذبونه ، فعن شيخ من هذيل قال : « جئت الفرزدق . . ودخلت على رواته فوجدتهم يعدلون ما انحرف من شعره . . ثم أتيت جريراً . . وجئت رواته وهم يقوِّمون ما انحرف من شعره وما فيه من السناد »(٧) . وفى رأينا أن ظهور هذه الطبقة من الرواة إنما نشأ من العناية الشديدة برواية الشعر القديم والحديث ، وكأنما لم يعد للناس من شغل وراء هذه العناية ؛ فمنهم من يتخصص برواية شعر المعاصرين ومنهم من يتخصص برواية الشعر الجاهلى كيونس بن متى راوية الأعشى(٨)

---

(١) ابن الفريعة : حسان بن ثابت .

(٢) الجعفرى : لبيد ، وبشر هو بشر بن أبى خازم .

(٣) أوس : أوس بن حجر .

(٤) الحارثى : النجاشى .

(٥) النقائض ص ٤٣٠ .

(٦) قرا : متن ، والهندوانى : السيف .

(٧) أغانى (طبعة دار الكتب) ٤/٢٥٦ وما بعدها .

(٨) راجع فى تحقيق اسم هذا الراوى مصادر الشعر الجاهلى ص ٢٣٨ وما بعدها .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل أوضح الدلالة على أن رواة لا يحصيهم العدّ حملوا الشعر الجاهلى إلى عصور التدوين ، فقد حافظت القبائل عليه كما حافظ كثير من الأفراد وخاصة الشعراء والرواة ، وبذلك أسلموه للأجيال التالية ، وإن كان قد شابه شيء من الانتحال والوضع على نحو ما سنعرض لذلك فى غير هذا الموضع ، ومن غير شك سقط منه كثير فى أثناء اجتيازه هذا الطريق الزمنى الطويل ، يقول ابن سلام : « لما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، وألْفَوْا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير »[١] .

٢

رواة محترفون

ونحن لا نصل إلى نهاية العصر الإسلامى ومطلع العصر العباسي حتى تنشأ طبقة من الرواة المحترفين الذين يتخذون رواية الشعر الجاهلى عملا أساسيًّا لهم ، وتختلط فى هذه الطبقة أسماء عرب وموال ، وأسماء قرَّاء للقرآن الكريم وغير قراء ، وهم جميعاً حضريون ، عاشوا غالباً فى البصرة والكوفة . ولم يكونوا يقفون عند رواية الشعر القديم مجردة ، بل كانوا يضيفون إليها كثيراً من الأخبار عن الجاهلية وأيامها ، وكانوا يتخذون لأنفسهم حلقات فى المسجد الجامع يحاضرون فيها الطلاب وفى أثناء ذلك يشرحون لهم بعض الألفاظ الغريبة ، أو يفسرون لهم ظروف النص التاريخية .

وأهمُّ هؤلاء الرواة أبو عمرو بن العلاء وحماد الراوية وخلف الأحمر ومحمد ابن السائب الكلبي والمفضل الضبي ، وقد استقوا روايتهم من القبائل والأعراب البدو ، وكان بعضهم يرحل إلى نجد أحياناً ليستقى الأشعار والأخبار الجاهلية من ينابيعها الصحيحة ، وكان بين البدو أنفسهم مَنْ هاجر إلى الكوفة والبصرة حيث هؤلاء الرواة العلماء ليمدهم بما يريدون . وقد أظهروا فى عملهم مهارة منقطعة النظير ، إذ تحولوا يجمعون المادة الجاهلية بجميعها ، وكان من أهم الأسباب فى ذلك تفسير

---

(١) ابن سلام ص ٢٢ .

ألفاظ القرآن الكريم ، فقد جرت عادة المفسرين منذ ابن عباس على الاستشهاد بالشعر الجاهلى فى شرح ألفاظ الذكر الحكيم ، وأيضاً فقد انبرت جماعات تحاول وضع قواعد العربية وجمع ألفاظها ، واعتمدت فى ذلك اعتماداً شديداً على الشعر الجاهلى فهو مادة اللغة ومادة قواعدها وقوانينها التى ينبغى أن تتَّبع . على أن هاتين الغايتين سرعان ما انفصلتا عن عمل الرواة ، وأصبحوا يقصدون لجمع هذا الشعر فى ذاته ومن أجل نفسه، وقد حملته إليهم الموجة الحادة من روايته فى أثناء العصر الإسلامى ، ومن المهم أن نعرف أنهم قلما يذكرون مَنْ حملوا عنهم هذا الشعر ، فهم يغفلون أسانيدهم إلا قليلا[١] .

ولا نكاد نمضى فى العصر العباسى حتى يكوّن هؤلاء الرواة مدرستين متقابلتين : مدرسة فى الكوفة ومدرسة فى البصرة ، وعُرف الأولون بأنهم لا يتشددون فى روايتهم تشدد الأخيرين ، ومن ثم تضخمت رواياتهم ودخلها موضوع ومنتحل كثير . ولعل من الطريف أن نعرف أن الكوفة عُرفت فى الحديث النبوى بالوضع والانتحال أيضاً حتى كان مالك بن أنس يسميها دار الضَّرْب يريد أنها تضرب الأحاديث وتصنعها كما تُضْرَبُ الدراهم والدنانير وتصنع . يقول أبو الطيب اللغوى : « والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله وذلك بيِّن فى دواوينهم »[٢] . وندَّد بهم البصريون كثيراً ، وبادلهم الكوفيون نفس التنديد ، فكان كل منهما يشكِّكُ فى الآخر[٣]، ولكن إذا صفينا هذه التشكيكات والتنديدات اتضح لنا أن رواية البصرة فى جملتها أوثقُ من رواية الكوفة . وليس معنى ذلك أن رواة الكوفة فى الجملة كانوا متهمين بخلاف رواة البصرة ، فبين الطرفين جميعاً متهمون ، وموثَّقون أحاطوا روايتهم بسياج من الأمانة والدقة والتحرى .

وربما كان السبب الحقيقى فى تقدم البصرة على الكوفة فى الرواية أن رأس رواتها وهو أبو عمرو بن العلاء كان أميناً ، بينما كان رأس رواة الكوفة حماداً ، وكان متهماً كثير الوضع ، لا يوثَق بما يرويه . وكان أبو عمرو من مؤسسى المدرسة النحوية فى البصرة ، وأحد القراء السبعة الذين أُخذتْ عنهم تلاوة الذكر الحكيم ، وُلد سنة ٧٠ للهجرة ، وتوفى سنة ١٥٤ وقيل سنة ١٥٩ : « وكان أعلم الناس بالغريب

---

(١) انظر مصادر الشعر الجاهلى ص ٢٥٥ وما بعدها .

(٢) مراتب النحويين ص ٧٤ .

(٣) مصادر الشعر الجاهلى ٤٣٤ وما بعدها .

والعربية وبالقرآن والشعر وبأيام العرب وأيام الناس وكانت كتبه التى كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف . . ثم إنه تقرأ أى تنسك فأحرقها»[١] وهو إحراق لايغير من الأمر شيئاً فإن ما رواه حمله عنه تلاميذه البصريون، وكان إمامهم وقدوتهم . ويحكى عنه أنه قال : « ما زدتُ فى شعر العرب إلا بيتاً واحداً ، يعنى ما يُرْوَى للأعشى من قوله :

وأنكرتْنى وما كان الذى نكرتْ من الحوادث إلا الشَّيْبَ والصلَعا »[٢]

وحاول بعض الباحثين التشكيك فى روايته لهذا الاعتراف[٣] ، وهو اعتراف يوثق روايته ويزيدها قوة، وفى سيرته ما يدل دلالة قاطعة بأنه كان ثقة ؛ فقد كان تقيًّا صالحاً ، وكان أحد الأعلام الذين أُخذت عنهم تلاوة القرآن الكريم . أما حماد رأس رواة الكوفة فكان من الموالى ، وُلد سنة ٩٥ للهجرة ، وتوفى سنة ١٥٦ وقيل بل سنة ١٦٤ ويقال إنه : « كان فى أول أمره يتشطر ويصحب الصعاليكَ واللصوص ، فنقبَ ليلة على رجل ، فأخذ ماله ، وكان فيه جزء من شعر الأنصار ، فقرأه حماد ، فاستحلاه وتحفظه ، ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك وترك ما كان عليه ، فبلغ فى العلم ما بلغ »[٤] وربما كان مما يصور هذا العلم ومداه ما يُرْوَى عن مروان بن أبى حفصة من قوله: « دخلت أنا وطُرَيْح ابن إسماعيل الثقفى والحسين بن مُطَير الأسدى فى جماعة من الشعراء على الوليد ابن يزيد (١٢٥ — ١٢٦) ه وهو فى فُرش قد غاب فيها ، وإذا رجل عنده كلما أنشد شاعر شعراً وقف الوليدَ بن يزيد على بيت بيت من شعره وقال : هذا أخذه من موضع كذا وكذا ، وهذا المعنى نقله من موضع كذا وكذا من شعر فلان ، حتى أتى على أكثر الشعراء ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا حماد الراوية[٥] » ويُرْوَى عن الهيثم بن عدى أنه كان يقول : « ما رأيت رجلا أعلم بكلام العرب من حماد »[٦]. وهذه المعرفة الواسعة بكلام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها وأيامها جعلتهم يطلقون

---

(١) انظر البيان والتبيين ١ /٣٢١ .

(٢) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٣/١٤٣.

(٣) انظر مقالة مرجليوث The Origins of Arabic Poetry فى صحيفة الجمعية الآسيوية الملكية عدد يولية سنة ١٩٢٥ ص ٤٢٩ وتاريخ الأدب العربى لبلاشير ١ /١١١ .

(٤) الأغانى ٦ /٨٧ .

(٥) الأغانى ٦ /٧١ .

(٦) انظر ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت ١٠ /٢٦٥ .

اسم الراوية علماً عليه ، ويروى أن الوليد بن يزيد سأله بم استحققت هذا اللقب فقيل لك الراوية ؟ فقال : « بأنى أروى لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ، ثم أروى لأكثر منهم ممن تعرف أنك لم تعرفه ولم تسمع به ، ثم لا أُنْشَدُ شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميزت القديم منه من المحدث ، فقال الوليد : إن هذا العلم وأبيك كثير ، فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال كثيراً ، ولكنى أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام ، قال : سأمتحنك فى هذا ، وأمره بالإنشاد ، فأنشد الوليد حتى ضجر ، ثم وكّل به مَن استحلفه أن يصدقه عنه ، ويستوفى عليه ، فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهليين ، وأخبر الوليد بذلك ، فأمر له بمئة ألف درهم »[1] . وقد يكون فى هذا الخبر ضرب من المبالغة ، غير أنه يصوِّر مدى ما استقر فى أذهان معاصريه عن معرفته وروايته للشعر الجاهلى .

ومن سوء حظ الكوفة أن كان هذا الراوية البارع فاسد المروءة فاسقاً ماجناً زنديقاً[2] ، وكان شاعراً يحسن صوغ الشعر وحوكه[3] فكان ينظم على لسان الجاهليين ما لم ينطقوا به ، وكثُر منه ذلك حتى عُرف به واشتهر ، يقول الأصمعى : جالسته فلم أجد عنده ثلاثمائة حرف ولم أرْضَ روايته ؛ ويقال إنه مدح بلال بن أبى بردة المتوفى بعد سنة ١٢٦ بقصيدة ، وكان ذو الرمة حاضراً ، فقال له : إنها ليست لك ، وسرعان ما اعترف بأنها جاهلية[4] ويقال إنه قدم عليه مرة ، فقال له : ما أطرفتنى شيئاً ؟ فعاد إليه فأنشده القصيدة التى فى شعر الحطيئة بمديح أبى موسى الأشعرى (جد بلال) فقال بلال : ويحك يمدح الحطيئة أبا موسى ولا أعلم به وأنا أروى شعرَ الحطيئة ! ولكن دعها تذهب فى الناس[5] وقصته فى مجلس أمير المؤمنين المهدى مع المفضل الضبى مشهورة ؛ فقد زاد ثلاثة أبيات فى مطلع قصيدة زهير : (دع

---

(١) الأغانى ٦ / ٧١ ومعجم الأدباء ١٠ / ٢٥٩ .

(٢) الحيوان ٤ / ٤٤٧ والأغانى ٦ / ٧٤ وأمالى المرتضى ١ / ١٣١ ولسان الميزان ٢ / ٣٥٣ ، ٣ / ١٧٣ .

(٣) المزهر ٢ / ٤٠٦ حيث يذكر أن الأصمعى روى شيئاً من شعره ، وانظر الأغانى ٥ / ٢٠٩ حيث يروى له أبياتاً محكمة الصنعة .

(٤) الأغانى ٦ / ٨٨ .

(٥) طبقات فحول الشعراء ص ٤٠ – ٤١ وحاول ناصر الدين الأسد أن يصحح نسبة القصيدة للحطيئة لرواية المدائنى ورواة ديوان الحطيئة لها ؛ ولكن ذلك لا يكفى لصحة نسبها .

ذا وعد القول فى هرم) فأنكرها المفضل ولما سأله عنها المهدى بكل يمين محرجة اعترف بأنه أضافها من عنده ، فأمر المهدى أن ينادَى فى الناس بإبطال روايته لكذبه وبصحة رواية المفضل مواطنه[١]. وحاول بعض الباحثين التشكيك فى القصة[٢]، لأن المهدى ولى سنة ١٥٨ بعد وفاة حماد ، ولكن هناك من تأخروا بوفاته إلى سنة ١٦٤ كما قدمنا ، وربما أخطأ الرواة فى تعيين الزمان والمكان ، إذ ذكروا أن القصة حدثت فى قصر عيساباذ الذى بناه المهدى فى سنة ١٦٤ بينما أرخوا لها بسنة ١٥٨ . وحتى على فرض بطلان هذه القصة فإن هذا البطلان لايدفع التهمة عن حماد ، كما لا يدفعها ما يذكره بعض هؤلاء الباحثين من أن اتهامه الواسع قد يرجع إلى المنافسة بين البصرة والكوفة ، فسيرته كانت سيرة شخص سيئ السيرة خلقيًّا ودينيًّا ، وما كان ابن سلام البصرى ليقول فيه : «كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثوق به : كان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره ويزيد فى الأشعار»[٣] بعامل المنافسة والعصبية ، ونفسُ البصريين الذين اتهموه وثقوا رواية مواطنه ومعاصره المفضَّل الضبى . فليست المسألة مسألة منافسة بين بلدين ، وإنما هى حقيقة واقعة ، ونفسُ الرواة الأثبات من بلدته كانوا يشْركون البصريين فى نفس التهمة ، فابن الأعرابى الكوفى يروى عن المفضل أنه قال : « قد سُلِّط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده ، فلا يصلح أبداً ، فقيل له وكيف ذلك ؟ أيخطئ فى روايته أم يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، لا ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله فى شعره ويُحمل ذلك عنه فى الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك ؟ »[٤] .

فالتهمة لم تكن بصرية خالصة ، بل كانت بصرية كوفية ، وربما بالغ بعض البصريين فقال عنه إنه كان يلحن ويكسر الشعر ويصحِّف ويكذب[٥] ، ولكن

---

(١) الأغانى ٦/٨٩ وما بعدها .

(٢) انظر مقدمة لايل للمفضليات ص ١٨ ومابعدها ومقالة برينلش فى مجلة O.L.Z. عدد ١٩٢٦ ص ٨٢٩ وما بعدها ومصادر الشعر الجاهلى ص ٤٤٢ .

(٣) ابن سلام ص ٤٠ .

(٤) الأغانى ٦/٨٩ ومعجم الأدباء ١٠/٢٦٥ .

(٥) الأغانى ٦/٨٩ وانظر ٨/٢٨٣ .

بعد تجريد التّهمة من مبالغاتها تظل عالقة به . ولذلك ينبغى أن لا نقبل شيئاً مما يروى دون أن يأتينا عن الرواة الثقات ، وكذلك ينبغى أن نتشكك فيما يرويه تلاميذه مثل ابن كناسة المتوفى سنة ٢٠٧ وخلف الأحمر راوية البصرة المشهور إذ كان قد أكثر الأخذ عنه[١] ، ويُرْوَى أنه كان يعطى حماداً المنحول فيقبله منه ويرويه[٢] .

ومن رواة الكوفة الذين عاصروا حماداً واشتهروا بالوضع برزخ العروضى وكان من أكذب الناس فى الرواية[٣] ومثله جنّاد وكان يخلط فى الأشعار ويصحف ويلحن[٤] . وإذا كانت الكوفة أصيبت بمثل هؤلاء الرواة الوضاعين الذين ينحدرون من أصول غير عربية فقد كان من ورائهم رواة ثقات على رأسهم المفضل بن محمد ابن يَعْلى الضبى المتوفى حوالى سنة ١٧٠ للهجرة وكان عالماً علماً دقيقاً بأشعار الجاهلية وأخبارها وأيامها وأنساب العرب وأصولها ، ويُجمع الرواة كوفيين وبصريين على توثيقه ، وقد خلف مجموعة كبيرة من أشعار الجاهليين هى الملقبة بلقب المفضليات ، وهى أروع ما بأيدينا من نصوص الشعر الجاهلى ووثائقه التى لا يرْقى إليها الشك .

وإذا ولينا وجوهنا نحو البصرة فى الحقبة التى تلت أبا عمرو بن العلاء وجدنا بها خلفاً الأحمر الذى تُسَدَّد إليه سهام الاتهام . ولم يكن يقل عن حماد فى معرفته بأشعار العرب وأخبارها ، بل لعله يتقدمه . إذ كان شاعراً مبرِّزاً ، وكان بصيراً بالشعر ، وأصل أبويه من فرغانة فهو من الموالى ، وُلد سنة ١١٥ للهجرة وتوفى حوالى سنة ١٨٠ وفيه يقول ابن سلام : « اجتمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر وأصدقهم لساناً ، وكنا لا نبالى إذا أخذنا عنه خبراً أو أنشدنا شعراً ألاّ نسمعه من صاحبه »[٥] غير أن شهادة ابن سلام له لا تعفيه من التهمة الشديدة التى سُلّطت على روايته . وقد شهد هو نفسه بها إذ زعم كما قدمنا أنه كان يعطى حماداً المنحول من الشعر ويزيفه عليه فيرويه . ويقال إنه هو الذى وضع اللامية المنسوبة إلى الشنّفرى[٦] :

---

(١) مراتب النحويين ٤٧ ، ٧٢ .

(٢) الأغانى ٦/٩٢ .

(٣) إنباه الرواة ١/٢٤٢ والفهرست (طبعة مصر) ص ١٠٧ .

(٤) انظر ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت وراجع الفهرست ص ١٣٥ .

(٥) ابن سلام ص ٢١ .

(٦) الأمالى ١/١٥٦ .

أَقيموا بنى أُمّى صُدورَ مَطِيِّكمْ فإنى إلى قومٍ سواكم لأَمْيَلُ

كما وضع اللامية الأخرى المنسوبة إلى تأبط شرًّا أو إلى ابن أخته[1] :

إنَّ بِالشِّعْب الذى دون سَلْعٍ لقتيلا دَمُهُ ما يُطَلُّ

وتصدَّى له الأصمعى مرارًا يتهمه بالوضع والنحل ، فقال إنه « وضع على شعراء عبد القيس شعرًا موضوعًا كثيرًا ، وعلى غيرهم ، عبثًا بهم ، فأخذ ذلك عنه أهلُ البصرة وأهل الكوفة »[2] وعرض مرة لرواة الكوفة يصفهم بأنهم يتقبلون كل ما يرد عليهم ، فقال : « رواة غير منقّحين ، أنشدونى أربعين قصيدة لأبى دُؤاد الإيادى قالها خلف الأحمر ، وهم قوم تعجبهم كثرة الرواية ، إليها يرجعون وبها يفتخرون »[3] . ويظهر أن البصريين كانوا يتحامون روايته ، بينما كان يحملها الكوفيون رواة حماد وأضرابه ، ويقول المبرد فيه موضحاً ذلك : « لم يُرَ أحد قط أعلم بالشعر والشعراء منه ، وكان به يُضْرَب المثل فى عمل الشعر ، وكان يعمل على ألسنة الناس ، فيشبِّه كل شعر يقوله بشعر الذى يضعه عليه ، ثم نسك فكان يختم القرآن فى كل يوم وليلة ، وبذل له بعض الملوك ما لا عظيما خطيرًا على أن يتكلم فى بيت شعر شكوا فيه ، فأبى ذلك وقال : قد مضى لى فى هذا ما لا أحتاج إلى أن أزيد فيه . وعليه قرأ أهل الكوفة أشعارهم ، وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية لأنه كان قد أكثر الأخذ عنه ، وبلغ مبلغاً لم يقاربه حماد . فلما تقرَّأ ونسك خرج إلى أهل الكوفة فعرّفهم الأشعار التى قد أدخلها فى أشعار الناس ، فقالوا له : أنت كنت عندنا فى ذلك الوقت أوثق منك الساعة ، فبقى ذلك فى دواوينهم إلى اليوم »[4] .

وواضح من ذلك أن الكوفة هى التى حملت رواية خلف بالإضافة إلى رواية حماد ، أما البصرة فقد حمل فيها بعض الرواة روايته ، ولكن الكثرة وعلى رأسها الأصمعى رفضتها . والأصمعى يقوم فى البصرة مقام المفضل الضبى فى الكوفة ، وقد أشاد معاصروه ومن تلاهم بسعة علمه بالجاهلية

---

(١) انظر العقد الفريد ٦/١٥٧ والحيوان ١/١٨٢ وانظر مصادر الشعر الجاهلى ص ٤٥٨ وما بعدها .

(٢) مراتب النحويين ص ٤٧ .

(٣) الموشح للمرزبانى ص ٢٥١ وما بعدها

(٤) مراتب النحويين ص ٤٧ .

وأشعارها وأخبارها ، ووثقوه وعدّلوه ، وإن كان ذلك لم يمنع بعض منافسيه من النّيْل منه ، ولكنه نيل مردود، فقد كان فى الذروة من الثقة والأمانة ، وهو عربى صليبة، ولد حوالى سنة ١٢٢ للهجرة وتوفى سنة ٢١٥ وقيل سنة ٢١٦، أو ٢١٧ ، وفيه يقول ابن جِنِّى : « وهذا الأصمعى هو صَنَّاجة الرواة والنقلة، وإليه محط الأعباء والثقلة . . . كانت مشيخة القراء وأماثلهم تحضره وهو حَدث لأخذ قراءة نافع عنه ، ومعلوم قدر ما حذف من اللغة فلم يثبته ، لأنه لم يقو عنده إذ لم يسمعه، وإما إسفافُ مَنْ لاعلم له وقول من لامُسْكة به إن الأصمعى كان يزيد فى كلام العرب ويفعل كذا ويقول كذا فكلام معفوٌ عليه غير معبوء به »[1] ويقول أبو الطيب اللغوى : « فأما ما يحكيه العوام وسُقَّاط الناس من نوادر الأعراب ويقولون: هذا مما افتعله الأصمعى . . وأنى يكون الأصمعى كما زعموا وهو لا يفتى إلا فيما أجمع عليه العلماء ويقف عما ينفردون به عنه ، ولا يجوِّز إلا أفصح اللغات ويلجُّ فى دفع ما سواه[2]». وله مجموعة مشهورة من الشعر القديم هى الأصمعيات وهى كالمفضليات ثقة ودقة ، ورُويت عنه دواوين كثيرة أشهرها الدواوين الستة : دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عَبَدة الفحل .

وكان يعاصره عالمان كبيران هما أبو زيد وأبو عبيدة ، وكان أبو زيد يُعْنَى بجمع اللهجات واللغات الشاذة وتوفى وقد قارب المائة ، سنة ٢١٤ أو ٢١٥ ، وهو عربى أنصارى خزرجى ، أما أبو عبيدة معمر بن المثنى فولد حوالى سنة ١١٠ وتوفى حوالى سنة ٢١١ وهو من الموالى وكانت فيه نزعة شعوبية صارخة ، ولكن الرواة وثقوه[3] وينبغى أن لا نتبعهم فى توثيقه وأن نقدم عليه الأصمعى وأبا زيد ، وكان يهتم بالأنساب والأيام ، وشرح نقائض جرير والفرزدق شرحه المشهور .

وكان بجانب هؤلاء الذين تحدثنا عنهم رواة يختلفون ثقة وتجريحاً مثل الهيثم ابن عدى المتوفى سنة ٢٠٦ وكان يهتم بالأخبار التاريخية وتشوب التهمة روايته، وأكثر منه تهمة فى هذا الباب محمد بن السائب الكلبى المتوفى سنة ١٤٦ للهجرة وابنه هشام المتوفى سنة ٢٠٤ وهما من كبار الوضاعين ويروى عن هشام أنه كان يقول : « كنت

---

(١) الخصائص ٣/٣١١ .

(٢) مراتب النحويين ص ٤٩ .

(٣) إنباه الرواة ٣/٢٨٠ .

أستخرج أخبار العرب وأنسابهم وأنساب آل نصر بن ربيعة (المناذرة) ومبالغ أعمار مَنْ ولى منهم لآل كسرى وتاريخ نسبهم من كتبهم بالحيرة »[١] . وينتظم فى سلك هؤلاء المؤرخين الواقدى والمدائنى .

وخلف بعد مَنْ قدَّمنا تلاميذهم من رواة القرن الثالث . وعلى رأسهم أبوعمرو الشيبانى المتوفى سنة ٢١٣ وابن الأعرابى المتوفى سنة ٢٣١ هـ الكوفيان وكان وراءهما كثير من الرواة فى بلدتهم مثل محمد بن حبيب وابن السكيت المتوفى حوالى سنة ٢٤٤ وثعلب المتوفى سنة ٢٩١ . وانتهت الرواية فى البصرة إلى أبى سعيد الحسن ابن الحسين السكرى المتوفى سنة ٢٧٥ وإليه يرجع الفضل فى جمع كثير من الدواوين الجاهلية ، وهو يجمع بين الروايتين البصرية والكوفية .

ويتضح من كل ما أسلفنا أن رواية الشعر الجاهلى أُحيطت بكثير من التحقيق والتمحيص ، وأنه إن كان هناك رواة متهمون ، فقد كان لهم العلماء الأثبات بالمرصاد أمثال المفضل الكوفى والأصمعى البصرى ، وما مَثَلُ الشعر الجاهلى فى ذلك إلا مثل الحديث النبوى ، فقد دخله هو الآخر وضع كثير ، ولكن العلماء استطاعوا تمييز صحيحه من زائفه ، وقدَّموا لنا كتب الصحيح الستة المشهورة ، وكذلك الشأن فى الشعر فقد دخله فساد كثير ، ولكن أصحابه الأثبات استطاعوا — فى مهارة بالغة — أن يميزوا صحيحه من زائفه ، غير تاركين منفذاً إلى ذلك سواء فى سَنَد الرواة أو فى المتن نفسه ، بل إن ابن سلام ليقدّمهم على علماء الحديث فى هذا الباب ، يقول : « حدثنى يحيى بن سعيد القطّان قال : رواة الشعر أعقل من رواة الحديث ، لأن رواة الحديث يروون مصنوعاً كثيراً ، ورواة الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه ويقولون هذا مصنوع »[٢] .

فينبغى أن لا نتخذ من كثرة الاتهامات فى بيئة الرواية اللغوية مزلقاً إلى الطعن فى الشعر الجاهلى عامة ، إنما نطعن على ما طعن الرواة الثقات فيه حقًّا ، ونضيف إليه ما يهدينا بحثنا الحديث إلى تزييفه . أما بعد ذلك فتبقى عامة ما رواه أثباتهم كالمفضل والأصمعى صحيحة . وكانا يتحريان تحرياً شديداً .

---

(١) تاريخ الطبرى (طبعة ليدن) القسم الأول ص ٧٧٠ .

(٢) ذيل الأمالى ص ١٠٥ .

فلنهمل إذن من الشعر الجاهلي ما جاءنا منه عن أمثال حماد وخلف الأحمر وكذلك ما جاءنا منه عن طريق أصحاب الأخبار المتزيدين أمثال عُبيد بن شَرية ومحمد بن السائب الكلبي وابنه هشام وما وضعه القصاص عن العرب البائدة . وأيضاً ينبغي أن نهمل ما اختلف فيه الرواة . أما ما اتفقوا عليه أو جاءنا عن أثباتهم فينبغي أن نقبله . وكانوا يأخذون بهذا القياس ، يقول ابن سلام : « وليس لأحد — إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه (من الشعر) — أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى »[1] ويقول : « قد اختلفت العلماء فى بعض الشعر كما اختلفت فى بعض الأشياء ، أما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه »[2] . واحتفظ ابن سلام فى طبقاته بمادة وفيرة من نقد البصرة للرواية والرواة ، فهو تارة يعدّ للشاعر القصائد الصحيحةَ النسبةِ إليه ، وتارة يقف عند بيت أو أبيات بعينها تنسب لشاعر من الشعراء الجاهليين وينص على أنها منتحلة ، فمن الضرب الأول قوله عن طرفة وعَبيد بن الأبرص : « ومما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه قلةُ ما بقى بأيدى الرواة المصححين لطرفة وعبيد بن الأبرص اللذين صحّ لهما قصائد بقدر عشر . ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير ، غير أن الذى نالهما من ذلك أكثر ، وكانا من أقدم الفحول فلعل ذلك لذاك ، فلما قلّ كلامهما حُمل عليهما حَمْل كثير »[3] ثم عاد فوسّع الشك فى شعر عبيد فقال فيه : « قديم الذكر عظيم الشهرة ، وشعره مضطرب ذاهب ، لا أعرف له إلا قوله :

أَقْفَــرَ من أهله ملحوبُ فالقُطَبِيَّــاتُ فالذَّنوبُ

ولا أدرى ما بعد ذلك »[4] . ومن الضرب الثانى إنكاره أن يكون النابغة هو الذى قال :

فألفيتُ الأمانةَ لم تَخُنْها كذلك كان نوحٌ لا يخونُ

وقد عقب على إنكاره بأن أهل العلم أجمعوا على أن النابغة لم يقل هذا[5] ،

---

(١) طبقات فحول الشعراء ص ٦ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن سلام ص ٢٣ .

(٤) ابن سلام ص ١١٦ .

(٥) ابن سلام ص ٤٩ وما بعدها .

وعلى هذا النحو صفّى علماءُ الرواية واللغة الشعرَ الجاهلىّ من شوائب كثيرة علقت به ، وإن كنا لا ننكر فى الوقت نفسه أنهم تناولوا أشياء منه بالتنقيح ، غير أن ذلك كان فى حدود ضيقة ، كأن يبدلوا كلمة مكان كلمة ، أو يقيموا بعض الألفاظ على سنن لهجة قريش ، فقد كانت تسقط على لسان الشعراء أحيانا أشياء من لهجاتهم القبلية ، فكانوا يصلحونها ، وقد يصلحون عروض بعض القصائد ، ولكنهم بصفة عامة حافظوا على جوهر هذا الشعر محافظة تشهد لهم بالدقة وأنهم استطاعوا أن ينقلوا غير قليل منه إلى أجيالهم والأجيال التالية فى صورة تكاد تكون مطابقة تمام المطابقة لأصوله .

٣

التدوين

مرَّ بنا أن العرب لم يدوِّنوا شعرهم فى الجاهلية ، وأن ما يذكر من أخبار عن كتابة بعض شعرائهم لمقطوعات لهم ، إن صحَّ ، فإنه لا يدل على أنهم فكروا فعلا فى تدوين أشعارهم ، إنما هى قطع تكتب على رَحْل أو على حجر أو جلد لإنباء القبيلة أو بعض أفرادها بحادث . وقد نفينا أن يكونوا علقوا المعلقات فى الكعبة وكذلك رفضنا رواية حماد عن تدوين النعمان بن المنذر لأشعار العرب وما مُدح به هو وأهل بيته. ومن الأدلة على ذلك أننا لا نجد راويًا ثقة يزعم أنه نقل عن قراطيس كانت مكتوبة فى الجاهلية ، كما أننا لا نجد راويًا ثقة يزعم أن شاعرًا فى الجاهلية ألقى قصيدته من صحيفة مدونة ، إنما كانوا ينشدون شعرهم إنشادًا ، ومَنْ كان منهم يُعِدّ قصيدته فى حَوْل أو أقل من حول كان يعدها فى نفسه ، ويرددها فى ذاكرته ، ثم ينشدها ، ويَحْملها الناس عنه ، ومن ثم قال الجاحظ : « وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام . . فما هو إلا أن يصرف (العربى) وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا (أفواجا) وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ، ثم لا يقيِّده على نفسه »[1] .

---

(١) البيان والتبيين ٣ / ٢٨ .

وظل هذا شأن العرب فى صدر الإسلام ، فهم يتناشدون الشعر ولا يقيِّدونه إلا قليلا وفى ظروف خاصة ، حتى مُصِّرت الأمصار . وراجعت العرب الأشعار ، وأخذت فكرة التدوين تسلك طريقها فى تسجيل غزوات الرسول وأحاديثه وفى تقييد بعض الأخبار التاريخية ، فدوّن زياد بن أبيه كتابًا فى المثالب . ودوّن عروة ابن الزبير غزوات النبي عليه السلام وحروبه . ودوّن معاوية أخبار عبيد بن شرية أو بعبارة أدق أمر غلمانه بتدوينها . وأخذ بعض الصحابة والتابعين يدوّن أحاديث الرسول عليه السلام . وقد يكون فى تدوين الأحاديث ما ينير لنا الطريق فى تدوين الشعر . فإن كثيرًا من الصحابة والتابعين كان ينكر تدوينها ، ولم تدوّن تدوينًا عاما إلا على رأس المائة ، وكذلك نستطيع أن نقول إنه على الرغم من اهتمام القبائل بشعرها الجاهلى وشعرائها الذين يعدون مناط شرفها وفخارها لما يسجلون من مناقبها وأمجادها ومثالب خصومها فإنها لم تعمد إلى تدوين هذا الشعر إلا فى حقبة متأخرة من عصر بنى أمية .

ويظهر أنهم لم يكونوا يدوّنون أشعار شعرائهم وحدها ، بل كانوا يدونون معها أخبارهم ، ولعل أقدم إشارة إلى هذه المدوّنات ما أسلفنا من رواية أصحاب الأخبار عن حماد فى أول تعلقه بالشعر من أنه نقبَ ليلة على رجل . فأخذ ما عنده وكان فيما أخذه جزء من شعر الأنصار ! ويزعم حماد أن الوليد بن يزيد أرسل فى طلبه ، فقال فى نفسه : « لا يسألنى إلا عن طرفيه : قريش وثقيف ، فنظرت فى كتابى قريش وثقيف »[1] ويُروْى عن ثعلب أن الوليد بن يزيد جمع ديوان العرب وأشعارها وأنسابها ولغاتها . وأنه طلب لذلك من حماد وجنَّاد الكوفيين ما عندهما من هذا الديوان ، ثم رد إليهما ما أخذه منهما »[2] .

وإن صحت هذه الأخبار كانت دليلا على أنه أخذت تظهر مع أوائل القرن الثانى مدونات تاريخية للقبائل لعلها هى التى أعدّت فيما بعد لتدوين الرواة أشعار كل منها على حدة بنفس الصورة التى نعرفها لديوان هذيل .

ونمضى بعد عصر الوليد بن يزيد فيلقانا أبو عمرو بن العلاء ، وكان يعتمد على الرواية ، ولكنه كان يقيِّد إلى جانبها كثيرًا من الأشعار والأخبار حتى قالوا إن

---

(١) الأغانى ٦/٩٤ . (٢) الفهرست ص ١٣٤ .

كتبه ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف ، ثم تقرَّأ (تنسك) فأحرقها كلها ، يقول الجاحظ : « فلما رجع بعدُ إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية[١] » . وكان حماد على ما يظهر يُعْنَى بالرواية أكثر من عنايته بالكتابة ، بل لعله لم يكن يعنى بالكتابة ، إنما كتب عنه تلاميذه ، يقول صاحب الفهرست : « لم يُرَ لحماد كتاب : وإنما روى عنه الناس وصُنِّفت الكتب بعده »[٢] . وتُرْوَى للمفضل الضبي كتب صنَّفها ، فيها أشعار وأخبار[٣] ومن المؤكد أنه لم يكتب مفضلياته ، وإنما أنشدها تلاميذه فحملوها عنه .

ولعلنا لا نخطئُ إذا قلنا إن الرواة الأولين لم يدوِّنوا ما رووه لطُلاَّبهم ؛ ولم يكن هذا شأن رواة الشعر وحدهم ، بل كان شأن رواة التاريخ الجاهلى جميعهم مثل محمد بن السائب الكلبي فإن ابنه هشاماً هو الذى حمل مادة أخباره ودوَّنها فى كتبه ، ونفس الخليل بن أحمد لم يخلف كتاباً فى النحو ، بل أملى إملاءات جمع منها سيبويه كتابه المشهور . وكانوا يتأثرون فى ذلك برواة الحديث ، وربما كانت الحاجة عندهم أمسّ ، لأن الشعر يحتاج إلى تلقين حتى لا يلحن فيه مَنْ ينشده ، ولذلك كانوا ينبذون فى أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث من يلحن فيه بأنه صحفيٌّ يأخذ عن الصحف ، ولا يأخذ شفاها عن مشيخة العلماء باللغة والشعر . ومن ثم ضعّفوا مَنْ يروى عن المدونات ولم يقبلوا روايته إلا أن يكون قد أخذها عن شيخ ، ولذلك ضعّف ابن سلام رواية من يتداولون الشعر القديم من كتاب إلى كتاب ، يقول : « ليس لأحد أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى » .

والرواة التالون لهؤلاء الرواة المتقدمين هم الذين يرجع الفضل إليهم فى تدوين الشعر الجاهلى تدويناً منهجياً قائماً على التوثيق والتجريح ، وعلى رأسهم الأصمعى ، وقد حصر اهتمامه فى جمع الشعر الجاهلى فى دواوين ومجموعات صحيحة . وكان هؤلاء الرواة المدوِّنون لا يكتفون بالسماع من جِلَّة الرواة السابقين ، فكانوا يرحلون إلى الصحراء العربية ليتوثقوا مما يروونه على نحو ما هو معروف عن الأصمعى

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٢١ .

(٢) الفهرست (طبعة المطبعة الرحمانية) ص ١٣٥ .

(٣) إنباه الرواة (طبعة دار الكتب المصرية) ٣/٣٠٢ .

نفسه وعن أبى عمرو الشيبانى الذى يقال إنه دخل البادية ومعه دستيجتان من حبر ، فما خرج حتى أفناهما بكتب سماعه عن العرب[١] .

وكان بعض الأعراب يفد على الحواضر وقد يقيم فيها ليسد هذه الحاجة عند الرواة. والمهم أنهم لم يكتفوا بالاعتماد على ذاكرتهم صنيعَ الرواة من قبلهم ، بل كانوا يدونون ما يسمعونه ويحتفظون به ويقرءون منه فى مجالسهم وينقله عنهم طلابهم . وأخذت موجة هذا التدوين تتسع اتساعاً شديداً ، ويستطيع من يرجع إلى الفهرست وكتب التراجم أن يطلع على هذا النشاط التأليفى الذى لا يكاد يبلغه الحصر والعد ، فقد ترك هشام بن محمد الكلبي نحو مائة وأربعين كتاباً ، وكانت كتب المدائنى لا تقل عنها عددًا ، بينما خلف الهيثم بن عدى خمسين مصنفًا ، وأكثر كتبهم يعد مفقوداً ومن بينها ما يشير إلى عناية بالشعر ككتاب أخبار خزاعة للمدائنى وأخبار طيئ للهيثم ، وقد نُشر الأصنام لابن الكلبي وهو يمتلىء بالشعر الجاهلى مما يدل على أنه كان يملأ كتبه به .

على أنه يلاحَظُ إزاء هؤلاء المؤرخين أن كثيرًا منهم لم يكن دقيقًا فيما يجمع من شعر ، ولعل ابن إسحق صاحب السيرة النبوية أشهرهم فى هذا الباب ، وقد تصدَّى له ابن سلام فى طبقاته ، فقال : « وكان ممن أفسد الشعر وهجَّنه وحمل كل غُثاء منه محمد بن إسحق بن يسار ، مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف ، وكان من علماء الناس بالسِّيَر . . فقبل الناسُ عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لى بالشعر أوتىَ به فأحمله . ولم يكن ذلك له عذرًا . فكتب فى السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرًا قط وأشعار النساء فضلا عن الرجال ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعارًا كثيرة ، وليس بشعر إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف ، أفلا يرجع إلى نفسه ، فيقول : من حمل هذا الشعر ومن أداه منذ آلاف السنين والله تبارك وتعالى يقول : (فقُطع دابرُ القوم الذين ظلموا) أى لا بقية لهم ، وقال أيضًا : (وأنه أهلك عاداً الأولى وثمودَ فما أبقى) وقال فى عاد : (فهل ترى لهم من باقية) وقال : (وقرونًا بين ذلك كثيرًا) وقال : (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله) »[٢] .

---

(١) نزهة الألباء للأنبارى ص ٦٣ .

(٢) ابن سلام ص ٨ وما بعدها .

وقال ابن سلام أيضًا فى ابن إسحق : « فلو كان الشعر مثل ما وُضع لابن إسحق ومثل ما رواه الصحفيون ما كانت إليه حاجة ولا فيه دليل على علم »[1] وتعقب ابنُ هشام فى سيرته ابنَ إسحق وردَّ كثيراً مما رَوى ، أو صحح نسبته .

وواضح أن هذه المنتحلات من الشعر المنسوب إلى عرب الجاهلية الأولى ليس لها أدنى قيمة ، فقد ردها الرواة المحققون ، ومع ذلك يتعلق بها بعض الباحثين المحدثين ليشككوا فى الشعر الجاهلى عامة ، مع أن القدماء رفضوها وردوها ، كما رفضوا وردوا رواية المتهمين من الرواة أمثال حماد وخلف . وليس معنى ذلك أننا نريد أن نوسع الأبواب فنقبل كثرة ما يُروْى عن الجاهليين ، بل نحن نضيقها تضييقًا شديداً ، فلا نقبل إلا ما أورده الثقاة مثل أبى عمرو بن العلاء والمفضل الضبى والأصمعى ، فجملة ما رووه وثيقٌ .

ولا نبالغ إذا قلنا إن ما رواه هؤلاء الثقات لا يزال مادة غُفْلا لم يدرس ولم يفحص ، وقد خلّف من بعدهم خَلفٌ أتموا تدوين الشعر الجاهلى وأشهرهم فى الكوفة أبو عمرو الشيبانى وابن الأعرابى وقد اشتهر الأول بأنه جمع أشعار نيف وثمانين قبيلة ، وكان كلما عمل شعر قبيلة منها وأخرجه للناس كتبَ مصحفًا وجعله فى مسجد الكوفة ، وطبيعى أن يُخرج دواوين القبائل راوٍ كوفى لأن بيوتات العرب وأشرافها كانوا فى الكوفة ولم يكونوا فى البصرة ، ومن غير شكٍّ كانوا من أهم الأسباب التى أعانت على حفظ الشعر الجاهلى وروايته إلى أن دُوِّن فى القرن الثانى . ويظهر أن الكتب الخاصة بالقبائل لم تكن تكتفى برواية الأشعار بل كانت تضم إليها غير قليل من أخبارهم وأيامهم ، وربما كان هذا هو السبب فى أننا نرى مؤرخيهم ينثرون فى تاريخهم أشعاراً كثيرة كأنهم يرون أنها سنده وعماده ، على نحو ما تصور ذلك كتب المدائنى والواقدى وابن الكلبى . وكان رواة الشعر يمزجون برواياتهم كثيرًا من الأخبار التاريخية على نحو ما نرى فى شرح النقائض لأبى عبيدة . وقد بقى من دواوين القبائل ديوان هذيل برواية السكرى المتوفى سنة ٢٧٥ وفيه تختلط الأشعار بالأخبار ، ومن خير ما يصور ذلك فيه ديوان أبى ذؤيب .

ويدل كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى أنهم دونوا من هذه الأشعار

---

(١) ابن سلام ص ١١ .

والأخبار تراثًا كبيرًا ، ومعروف أنه يقع فى واحد وعشرين مجلدًا ضخمًا وأن للجاهليين فيه حظًّا موفورًا . وهو يسوق هذه المادة الجاهلية الشعرية التاريخية مقترنة بأسناد ، تصور مصدرها ، محتاطًا إزاء رُواته أشد الحيطة ، فمن عُرف بكذبه نبّه عليه ، وحتّى من عُرف بصدقه كان يراجع روايته على روايات معاصريه ودواوين الشعراء ، مبالغة فى الدقة والتحرى . والكتاب مؤلف حقًّا فى القرن الرابع الهجرى ، ولكنه يستمد من رواة القرنين الثانى والثالث الهجريين كما يتضح من أسانيده ، فهم الذين جمعوا هذا التراث الجاهلى الضخم ، وأتاحوا لمن جاءوا بعدهم أن يؤلفوا مؤلفاتهم الكبرى ، سواء أكانت مجموعات شعرية أو أمالى أو أخبارا وتراجم . بل لقد بدأ منذ القرن الثالث تأليف هذه الكتب الجامعة مثل حماسة أبى تمام والبيان والتبيين للجاحظ والكامل للمبرد وعيون الأخبار لابن قتيبة وكتابه الشعر والشعراء .

وربما كان السكرى أهم راوٍ ظهر فى النصف الثانى من القرن الثالث ، فقد رُويت عنه دواوين كثيرة ، وهو يجمع فى روايته بين الروايتين الكوفية والبصرية إذ أخذ عن ابن حبيب وابن السكيت الكوفيين كما أخذ عن الرياشى وأبى حاتم السجستانى البصريين . ونمضى فى القرن الرابع الهجرى ، فيتكاثر التأليف والتدوين على نحو ما هو معروف عن ابن دريد وابن الأنبارى والقالى والمرزبانى ، وعملهم كما ذكرنا مشتق من عمل رواة القرن الثالث ، ونراهم يهتمون — مثل أبى الفرج الأصبهانى فى أغانيه — بالسند ، فهم لا يكتفون غالبًا بالراوى القريب الذى سمعوا منه ، بل يسلسلون الرواة حتّى نصل إلى أبى عمرو بن العلاء أو إلى المفضل الضبى مثلا . وبذلك قدموا لنا — صنيعَ سابقيهم — مادة الشعر الجاهلى بكل ما تحمل من أسباب ضعف أوثقة ، وكان كثير منهم لا يزال يرحل إلى البادية صنيع الرواة المتقدمين.

٤

قضية الانتحال

واضح مما قدمنا أن الشعر الجاهلى دخل فيه انتحال كثير ، وقد أشار إلى ذلك القدماء مرارًا وتكرارًا ، وحاولوا جاهدين أن ينفوا عنه الزيف وما وضعه الوُضّاع متخذين إلى ذلك مقاييس كثيرة ، وبلغ من حرصهم فى هذا الباب أن أهمل ثقاتهم كل ما رُوِى عن المتهمين أمثال حماد وخلف ، وكان الأصمعى خاصة لهم بالمرصاد ، كما كان المفضل الضبى من قبله ، وتتابع الرواة الأثبات بعدهما يحققون ويمحصون فى التراث . ومن أهمهم فى هذا الجانب ابن سلام ، فقد دوّن فى كتابه « طبقات فحول الشعراء » كثيرًا من ملاحظات أهل العلم والدراية فى رواية الشعر القديم من أساتذة المدرسة البصرية التى ينتسب إليها ، وأضاف إلى ذلك كثيرًا من ملاحظاته الشخصية .

وهذا الكتاب فى الحقيقة هو أول كتاب أثار فى إسهاب مشكلة الانتحال فى الشعر الجاهلى ، وقد ردها إلى عاملين : عامل القبائل التى كانت تتزيد فى شعرها لتتزيد فى مناقبها ، وعامل الرواة الوضاعين ، يقول : « لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقلّ بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعدُ فزادوا فى الأشعار »[١] .

فالقبائل كانت تتزيد فى أشعارها وتروى على ألسنة الشعراء ما لم يقولوه ، وقد أشار ابن سلام مراراً إلى ما زادته قريش فى أشعار الشعراء ، فهى تضيف إلى شعرائها منحولات عليهم ، وقد أضافت كثيراً إلى شعر حسان[٢] « ويذكر أن من أبناء الشعراء وأحفادهم من كان يقوم بذلك ، مثل داود بن متمم بن نُوَيْرة ، فقد استنشده أبوعبيدة شعر أبيه متمم ، ولاحظ أنه لما نفد شعر أبيه جعل يزيد فى الأشعار ويضعها ، وإذا كلامٌ دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه ، فيذكر المواضع التى ذكرها متمم والوقائع التى شهدها ، فلما توالى ذلك علم أبو عبيدة ومن كانوا معه أنه يفتعله »[٣] .

ولعل فى هذا ما يدل على أن الرواة من مثل أبى عبيدة كانوا يراجعون ما ترويه

---

(١) ابن سلام ص ٣٩ وما بعدها .

(٢) ابن سلام ص ١٧٩ ، ٢٠٤ ومابعدها .

(٣) نفس المصدر ص ٤٠ .

القبائل ، وكانوا يرفضون منه ما يتبين لهم زيفه ، إما بالرجوع إلى أصول صحيحة أو إلى أذواقهم وما يحسنون من نقد الشعر ومعرفتهم بالشاعر ونظمه ، ويسوق لنا ابن سلام شكا فى قصيدة أبى طالب التى روتها قريش فى أشعارها والتى يمدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم[١] ، ومعنى ذلك أنهم نظروا فى شعر قريش فقبلوا منه ورفضوا[٢] . وهم يفحصون ويحققون فى شعر المدينة كما فحصوا وحققوا فى شعر قريش وغيرها من القبائل .

ويقدم لنا ابن سلام طائفتين من الرواة كانتا ترويان منتحلا كثيراً وتنسبانه إلى الجاهليين ، طائفة كانت تحسن نظم الشعر وصوغه وتضيف ما تنظمه وتصوغه إلى الجاهليين ، ومثّل لها بحماد ، ورأينا فيما مر بنا أشباهاً له فى جَنَّاد وخلف الأحمر . وطائفة لم تكن تحسن النظم ولا الاحتذاء على أمثلة الشعر الجاهلى ، ولكنها كانت تحمل كل غثاء منه وكل زَيْف ، وهم رواة الأخبار والسير والقصص ، من مثل ابن إسحق راوى السيرة النبوية إذ كانت تُصْنَع له الأشعار ويُدخلها فى سيرته دون تحرز أو تحفظ ، منطقا بالشعر العربى من لم ينطقوه من قوم عاد وثمود والعماليق وطسم وجديس .

ورفض ابن سلام والأصمعى وأضرابهما رواية الطائفتين جميعاً ، فلم يقبلوا شيئا مما يرويه أشباه حماد إلا أن يأتيهم من مصادر وثيقة ، وكذلك لم يقبلوا شيئا مما يرويه ابن إسحق لا عن الأمم البائدة فحسب ، بل عن عرب الجاهلية أنفسهم ، إلا أن يجدوه عند رواة أثبات . يقول ابن سلام وقد ذكر أبا سفيان بن الحارث أحد شعراء قريش الذين كانوا يناقضون حسان بن ثابت وشعراءَ المدينة : إن شعره فى الجاهلية « سقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل » ثم علق على ذلك بقوله : « ولسنا نعدّ ما يروى ابن إسحق له ولا لغيره شعراً ، ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم[٣] ». فهم كانوا يرفضون جملة ما يرويه ابن إسحق وأشباهه من مثل عبُيد بن شَرِيَّةَ وينحونه عن طريقهم ، يقول ابن سلام : « وليس يُشْكل على أهل العلم زيادةُ الرواة ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولدون[٤] » مما حمله رواة القصص والأخبار من شعر غَثٍّ « لا خير فيه ولا حجة فى عربيته ولا أدبٌ يستفاد ولا معنى

---

(١) ابن سلام ص ٢٠٤ .
(٢) ابن سلام ص ٢٠٥ .
(٣) ابن سلام ص ٢٠٦ .
(٤) ابن سلام ص ٤٠ .

يستخرج ولا مثل يضرب ولا مديح رائع ولا هجاء مقذع ولا فخر معجب ولا نسيب مستطرف[١] » .

فني الشعر الجاهلي منتحل لا سبيل إلى قبوله ، وفيه موثوق به وهو على درجات منه ما أجمع عليه الرواة[٢] ومنه ما رواه ثقات لا شك في ثقتهم وأمانتهم ، من مثل المفضل والأصمعي وأبي عمرو بن العلاء . وقد يغلب المنتحل الموثوق به ، ولكن ذلك لا يخرج بنا إلى إبطال الشعر الجاهلي عامة ، وإنما يدفعنا إلى بحثه وتمحيصه مهتدين بما يقدم لنا الرواة الأثبات من أضواء تكشف الطريق .

وقد لفتت هذه القضية ، قضية انتحال الشعر الجاهلي أنظار الباحثين المحدثين من المستشرقين والعرب ، وبدأ النظر فيها نولدكه[٣] سنة ١٨٦٤ وتلاه آلوَرْدْ حين نشر دواوين الشعراء الستة الجاهليين : امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعلقمة وعنترة فتشكك في صحة الشعر الجاهلي عامة ، منتهيا إلى أن عددا قليلا من قصائد هؤلاء الشعراء يمكن التسليم بصحته ، مع ملاحظة أن شكا لا يزال يلازم هذه القصائد الصحيحة في ترتيب أبياتها وألفاظ كل منها . وتابع كثير من المستشرقين آلوارد في موقفه الحذر من قبول كل ما يُرْوَى للجاهليين ، أمثال موير وباسيه وبروكلمان . وكان مرجليوث أكبر من أثاروا هذه القضية في كتاباته إذ كتبَ فيها مقالا مفصلاً نشره في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية بعدد يولية سنة ١٩٢٥ جعل عنوانه كما مرّ بنا (أصول الشعر العربي : The origins of Arabic Poetry) ونراه[٤] يستهله بموقف القرآن الكريم من الشعر متحدثاً عن بدء ظهوره ونشأته وآراء القدماء في ذلك ، ثم ينتقل إلى الحديث عن حفظه ، وينفي أن تكون الرواية الشفوية هي التي حفظته ، وقد بينا آنفاً بأدلة لا تُدْفَعُ كيف أن سلسلة روايته لم تنقطع حتى عصر التدوين ولكن مرجليوث يذهب هذا المذهب ، ليقول إنه لم تكن هناك وسيلة لحفظه سوى الكتابة ، ثم يعود فينفي كتابته في الجاهلية ليؤكد أنه نُظم في مرحلة زمنية تالية للقرآن الكريم !. ويقف بإزاء الرواة المتهمين أمثال حماد وجنّاد وخلف الأحمر وما كان يطعن به بعض الرواة في بعض ، ليزعم أن الوضع في هذا الشعر كان

---

(١) ابن سلام ص ٥ .

(٢) ابن سلام ص ٦ .

(٣) انظر في مناقشة المستشرقين لقضية الانتحال ، تاريخ الأدب العربي لبلاشير ١ / ١٧٦ وما بعدها .

(٤) لخص ناصر الدين الأسد هذه المقالة في كتابه مصادر الشعر الجاهلي تلخيصاً دقيقاً ص ٣٥٣ وما بعدها .

مستمراً . ويقول إنه لا يمثل الجاهليين الوثنيين ولا من تنصروا منهم ، فأصحابه مسلمون لا يعرفون التثليث المسيحى ولا الآلهة المتعددة ، إنما يعرفون التوحيد والقصص القرآنى وما فى الإسلام من مثل الحساب ويوم القيامة وبعض صفات الله . وفى كتاب الأصنام لابن الكلبى من الشعر الجاهلى ما ينقض زعمه نقضاً ، أما الشعر المصبوغ بصبغة إسلامية بحتة فنسلم بأنه موضوع ، ووضعه ينحصر فيه ، ولا يبطل ما وراءه من أشعار جاهلية . وينتقل مرجليوث من ذلك إلى اللغة فيلاحظ أنها لغة ذات وحدة ظاهرة ، وهى نفس لغة القرآن الكريم التى أشاعها فى العرب ، ويقول ولو أن هذا الشعر صحيح لمثّل لنا لهجات القبائل المتعددة فى الجاهلية كما مثل لنا الاختلافات بين لغة القبائل الشمالية العدنانية واللغة الحميرية فى الجنوب . وأسلفنا فى غير هذا الموضع أن لغة القرآن الفصحى كانت سائدة فى الجاهلية وأن الشعراء منذ فاتحة هذا العصر كانوا ينظمون بها وأنها كانت لهجة قريش ، وسادت بأسباب دينية واقتصادية وسياسية . فكان الشعراء ينظمون فيها متخلين عن لهجاتهم المحلية على نحو ما يصنع شعراء العرب فى عصرنا على اختلاف لهجات بلدانهم وأقاليمهم . أما أن الشعر الجاهلى لا يمثل اللغة الحميرية فهذا طبيعى لأنها ليست لغته ، وقديماً قال أبو عمرو بن العلاء : ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا[1] وقد أخذت الفصحى كما قدمنا تقتحم الأبواب على هذه اللغة فى الجاهلية نفسها ، بحيث نستطيع أن نقول إن تعريب الجنوبيين بدأ منذ عهود مبكرة . وآخر أدلة مرجليوث على مزاعمه أن النقوش المكتشفة للممالك الجاهلية المتحضرة وخاصة اليمنية لا تدل على وجود أى نشاط شعرى فيها ، فكيف أتيح لبدو غير متحضرين أن ينظموا هذا الشعر بينما لم ينظمه من تحضروا من أهل هذه الممالك . ودحض بروينلش هذا الدليل لأن نظم الشعر لا يرتبط بالحضارة ولا بالثقافة والظروف الاجتماعية ، وهناك فطريون أو بدائيون لهم شعر كثير مثل الإسكيمو[2] .

والحق أن مرجليوث جانبه الصواب فى دعواه ، ولذلك هبَّ كثير من المستشرقين يردون عليه ، مثل بروينلش ولايل ، واحتج عليه الأخير فى مقدمته للمفضليات بأن من وضعوا هذا الشعر — على فرض التسليم بذلك — كانوا يحاكون نماذج سابقة

(١) ابن سلام ص ١١ . (٢) بلاشير ص ١٨٠ .

وتقاليد أدبية موروثة قلدوها وحاكوها . ونفس هذه المحاكاة تدل على وجود أصل كانوا يحاكونه ، إذ لا يمكن أن يحاكوا شيئاً لم يبق منه ما يتيح لهم هذه المحاكاة ، وإذن فلا بد أن يكون هناك شعر جاهلى عرفه الإسلاميون وحاكوه ، وحقًّا دخله انتحالُ أمثالِ حماد وخلف ، ولكن وراء انتحالهم شعر صحيح ، ينبغى أن نهتدى فى معرفته بالرواية الوثيقة وصفاته الشخصية والأسلوبية المميزة . ونراه يعود إلى هذا الموضوع فى مقدمته لديوان عبيد بن الأبرص ، فيؤكد أن رواية هذا الشعر استمرت حية نشطة من الجاهلية إلى أن دُوِّن نهائيًّا فى العصر العباسى ، وقد يكون أصاب قصائده بعض التغيير ولكن من يرجع إلى المعلقات مثلا يجد لكل منها شخصيتها الواضحة التى تنفرد بها والتى تثبت أنها لصاحبها ، وأعاد ما قاله فى المقدمة الأولى من أن تقاليد شعر القرن الأول الهجرى تُلزم بوجود الشعر الجاهلى الذى يشترك معها فى نفس التقاليد ، وأيضا فإن فيه من الألفاظ الغريبة ما لم يكن يستخدَم فى عصر هؤلاء الرواة ممن دونوه مما يدل دلالة قاطعة على أنه صحيح فى جوهره .

ونضيف إلى ذلك أن فى الشعر الجاهلى صوراً من الأساليب والتراكيب الملتوية التى تخرج على الصورة النحوية الطبيعية ، مما يدل على قدمها وأنها ليست من صنع العباسيين وأيضاً فإن فيه صورة لتهتك خلقى لا يمكن أن تقوم إلا فى نفس وثنى ، على نحو ما يلقانا فى معلقة امرئ القيس وحديثه عن المرضع وبسطه لجوانب متعته بالمرأة .

ولا يزال المستشرقون إلى اليوم يختلفون فى قبول هذا الشعر بحذر والشك فيه شكًّا معتدلا أو متطرفاً . وممن أدلى بدلوه منهم فى هذا الموضوع بلاشير فى الجزء الأول من كتابه : تاريخ الأدب العربى . إذ تحدث طويلا مبينا بل مجسما الشبهات . وبينما يحاول الاعتدال أحيانا إذا به يهجم هجوماً عنيفاً[1] . ومن ألوان هجومه قوله : « نحن نجد فى النصوص المذكورة أن الشعراء أيا كان عصرهم أو قبائلهم يستعملون لغة موحدة منزهة بصورة عامة عن كل أثر لهجى ، خاضعة لقواعد تركيبية ، هى بصورة مجملة قواعد نحاة البصرة . ولا شك فى أن القصائد الجاهلية جُرِّدت بتأثير الرواة الكبار عن كثير من الظواهر اللهجية ، كما أن التثبيت الكتابى بدوره أتم توحيد اللغة وحتى الأساليب[2] » ويقول : « كل شيء يدعونا إلى الاعتقاد بأن كبار الرواة ومعهم علماء العراق قد أجروا فى الشعر القديم إصلاحات ذات صبغة

---

(١) بلاشير ص ١٨٣ وما بعدها . (٢) بلاشير ص ١٨٨ .

جمالية[١] » ثم يقول : « والمدهش هو تعدد الروايات واتساعها داخل كل بيت ، ولا ريب فى أنها ناشئة عن ضعف الذاكرة فى أثناء الرواية الشفوية وأن عدداً قليلا منها ناشئ عن عدم اكتمال طريقة الكتابة أو عن استبدالات فى المترادفات . وما من شيء يجيز لنا التأكيد بأن هذه الفروق الجزئية ليست قديمة ولا تصعد إلى ظهور الأثر نفسه[٢] » وينتهى من ذلك إلى أن « دراسة النصوص الشعرية (يقصد الصحيحة) تقودنا إلى وضع مبدأ يقضى بعدم امتلاكنا أى أثر شفوى فى شكله الأصيل . . ونحن نعلم لكى تتم المأساة أن المقلدات قد امتزجت بالأصول القديمة التى يختلف تحريفها قلة أو كثرة دون أن نتمكن فى كثير من الأحيان من كشف هذه الانتحالات[٣] » .

وواضح أن بلاشير يزعم أن الأصول الصحيحة للشعر الجاهلى اختلطت بالنماذج والقصائد الموضوعة اختلاطاً يتعذر معه أن تميز . وهو زعم مبالغ فيه ، لأن هذه الأصول كما قدمنا وصلتنا عن رواة ثقات ، وأجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على توثيقها ، بحيث لا يرقى إليها الشك . وهو يزعم أيضا أن الرواة ونحاة البصرة عدّلوا فى هذه الأصول بما يتمشى مع القواعد النحوية البصرية من جهة والقواعد الجمالية الأسلوبية من جهة ثانية ، ويتخذ دليله على ذلك خلو القصائد الجاهلية من ظواهر اللهجات القبلية ، وقدّمنا أن هذه الظواهر كانت فعلا تكاد تكون منعدمة فى الجاهلية نفسها لأن الشعراء فى القبائل المختلفة اصطلحوا على أن ينظموا شعرهم بلهجة قريش ، واتخذوها لغة لشعرهم ، ومن أجل ذلك لم يسقط من لهجاتهم فى أشعارهم إلا أشياء قليلة جدًّا ، سجلها هؤلاء النحاة البصريون ، وإلا فهم هذه الشواذ النحوية التى تمتلئ بها كتبهم . ولم يكن رواة البصرة ونحاتها وحدهم الذين يروون هذا الشعر ، بل كان يرويه معهم رُواة الكوفة ونُحاتها ، وكانوا مولعين بإثبات الشواذ واعتبارها أصولا يقاس عليها . أما أن هؤلاء الرواة جميعاً أدخلوا فى الشعر الجاهلى إصلاحات ذات صبغة جمالية ، تقوم على متانة اللفظ وجزالته ، فهى دعوى تستلزم ضرباً من الدور ، إذ كانوا يرجعون فى هذه الإصلاحات إلى المقاييس الجمالية المبثوثة فى هذا الشعر الجاهلى والتى تقوم على الرصانة والجزالة ،

---

(١) بلاشير ص ١٨٩ .
(٢) بلاشير ص ١٨٩ .
(٣) بلاشير ص ١٩٢ .

ثم يصلحونه على أساسها ، وبذلك يجعلهم بلاشير يدورون ، وهو دورٌ باطل ، تنقضه طبيعة الأشياء . والحق أن ثقاتهم نقلوا إلينا هذا الشعر بكل صفاته الجمالية وما داخله من عيوب تركيبية أو شواذ نحوية أو لغوية. على أننا نسلِّم بمايقوله بلاشير من أن القصائد أصابها بعض التغيير فى أثناء سفرها الطويل من الجاهلية إلى عصر التدوين ، فقد يستبدل الراوى بكلمة أخرى ترادفها ، وقد يغيب عن ذاكرته بعض الأبيات ، وقد يخالف فى ترتيب أبيات القصيدة فيقدم فيها أو يؤخر . غير أن ذلك لا يخلّ بصحة ما حمله ورواه العلماء الثقات الذين نصُّوا على المنتحل المصنوع على نحو ما يصور لنا ذلك كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام .

وإذا تركنا المستشرقين إلى العرب المحدثين والمعاصرين وجدنا مصطفى صادق الرافعى يعرض هذه القضية قضية الانتحال فى الشعر الجاهلى عرضًا مفصلا فى كتابه « تاريخ آداب العرب » الذى نشره فى سنة ١٩١١ ولكنه لا يتجاوز فى عرضه — غالبا — سَرْدَ ما لاحظه القدماء[١] ، ونحن نحمد له استقصاءه لملاحظاتهم كما نحمد له ما وقف عنده من شعر الشواهد للمذاهب النحوية والكلامية ، فقد لاحظ ما دخل هذا الشعرَ من بعض الوضع ، وهو وضع سجله القدماء أنفسهم ولم يفتهم التنبيه عليه .

وخلفَ مصطفى الرافعى طه حسين فدرس القضية دراسة مستفيضة فى كتابه « الشعر الجاهلى » الذى أحدث به رجة عنيفة أثارت كثيرين من المحافظين والباحثين فتصدوا للرد عليه . ولم يلبث أن ألف مصنفه « فى الأدب الجاهلى » الذى نشره فى سنة ١٩٢٧ وفيه بسط القول فى القضية بسطاً أكثر سعة وتفصيلا ، إذ زودها ببراهين جديدة . وقد خصص لها فى مصنفه أربعة كتب ، هى الكتاب الثانى والثالث والرابع والخامس . ونراه يعنى فى الكتاب الثانى ببيان الأسباب التى تحمل على الشك فى الشعر الجاهلى ، ويقدم بين يديها نتيجة بحثه فيقول : « إن الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهليًّا ليست من الجاهلية فى شىء . وإنما هى منتحلة بعد ظهور الإسلام . فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين . وأكاد لا أشك فى أن ما بقى من الأدب الجاهلى الصحيح

---

(١) انظر الطبعة الثانية من هذا الكتاب ص ٢٧٧ وما بعدها .

قليل جدًّا ، لا يمثل شيئاً ولا يدل على شيء ، ولا ينبغي الاعتماد عليه فى استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلى[١] » .

وواضح أنه يُبقى فى الشعر الجاهلى على بقية صحيحة ، وإن كانت فى رأيه قليلة ، ولا تعطينا الصورة الأدبية الوثيقة لهذا الشعر . وقد مضى يبسط الأسباب التى تدفع الباحث إلى الشك فيه واتهامه ، وردَّها إلى أنه لا يصور حياة الجاهليين الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية ، كما أنه لا يصور لغتهم وما كان فيها من اختلاف اللهجات ، وتباينها بلهجاتها من اللغة الحميرية . أما من حيث حياتهم فيقول إنه عرضها على القرآن الكريم ، فوجده يمثلها من جميع جوانبها المذكورة تمثيلا قويًّا ، فهو يجادل اليهود والنصارى والصابئة والمجوس ويهاجمهم كما يهاجم الوثنيين والوثنية ، ويُطْلعنا فى تضاعيف ذلك على جملة معتقداتهم ، بينما نجد الشعر — كما يقول — بريئا أو كالبرىء من الشعور الدينى القوى والعاطفة المتسلطة على النفس . وقياس الشعر الجاهلى فى هذا الجانب على القرآن الكريم مردود أو منقوض ، لأن القرآن كتاب دينى يريد أن يجمع العرب على الإسلام ، فطبيعى أن يعرض لدياناتهم ويناقشها ، ويبين ما فيها من ضلال ، بخلاف الشعر ، فإن شاعراً لم يَدْعُ لدين جديد . ومع ذلك فإن فى كتاب الأصنام لابن الكلبى ذخيرة كبيرة من الشعر تصور حياتهم الوثنية تصويراً دقيقاً .

وينتقل إلى حياتهم العقلية فيلاحظ أنها غير واضحة فى الشعر المنسوب إليهم ، وكأنه يطلب إليهم حياة عقلية راقية أو معقدة ، وكانوا فى جمهورهم بدْوًا لم يتحولوا إلى طور فكرى منظم ، وقد عرضنا فى غير هذا الموضع لذلك الطور وما يمثله من أشعارهم . ومعنى ذلك أن حياتهم العقلية الفطرية ماثلة فى شعرهم . ويخرج من ذلك إلى أن حياتهم السياسية لا تتضح فى أشعارهم ، مع أنهم كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم ، مما يوضحه القرآن الكريم فى سورة الروم ، إذ يعرض علينا العرب شيعتين : شيعة تنتصر للروم وشيعة تنتصر للفرس . وهذا فى الواقع لا يصدق على العرب جميعاً ، إنما يصدق على قريش وقوافلها التجارية التى كانت تنزل فى بلاد الدولتين . ومع ذلك فقد كان شعراء نجد والحجاز يتصلون بالغساسنة من أتباع

---

(١) فى الأدب الجاهلى (الطبعة الأولى) ص ٦٤ .

الروم والمناذرة من أتباع الفرس ويمدحونهم ويهجونهم . ولما نشبت الحروب بين قبيلة بكر والفرس قبيل الإسلام هدّدهم شعراء هذه القبيلة وتوعدوهم طويلا على نحو ما هو معروف عن الأعشى مثلا .

ويتحدث عن حياتهم الاقتصادية وأننا لا نظفر بشيء ذى غناء فى شعرهم يمثل لنا هذه الحياة ، بينما يمثل لنا الذكر الحكيم العرب طائفتين : طائفة الأغنياء المستأثرين بالثروة وطائفة الفقراء المعدمين ، وليس فى الشعر ما يصور ذلك كما يقول ، إنما فيه أن العرب جميعاً أجواد كرام ، على حين يُلح القرآن الكريم فى ذم البخل والبخلاء . وهذا القياس أيضًا لا يستقيم ، لسبب بسيط ، وهو أن شعر الصعاليك طافح بما يصور النضال بين الأغنياء والفقراء[1] ، وأيضا فإن شعراءهم إذا كانوا قد أكثروا فى مدحهم وفخرهم من ذكر الكرم فإنهم أكثروا فى هجائهم من ذكر البخل وشح النفس . ولا بد أن نلاحظ أن كثيراً من القرآن نزل فى قريش التاجرة التى بلغ كثير منها مبلغاً عظيما فى الثراء والتى كان يشيع فيها الربا أضعافاً مضاعفة .

ووقف طه حسين طويلا إزاء لغة الشعر الجاهلى ولاحظ أنه لا يصور اللغتين الشائعتين فى الجزيرة : لغة الحميريين الجنوبية ولغة العدنانيين الشمالية ، بل هو يضيف إلى الجنوبيين أشعاراً بلغة الشماليين . وحقًّا أن ما يضاف إلى من كانوا فى أقصى الجنوب وداخل اليمن منتحل ، أما من كانوا منهم يجاورون الشماليين فقد تعربوا فى الجاهلية مثل مذحج وبلحارث بن كعب . على أنه يطرد القياس فيتشكك فى شعراء القبائل اليمنية التى هاجرت من مواطنها الأصلية فى الجنوب إلى الشمال مثل كندة وشاعرها امرئ القيس . ومما لا شك فيه أن هذه القبائل هاجرت إلى الشمال قبل العصر الجاهلى وتعرَّبت ، فهى ليست يمنية ولا جنوبية من الوجهة اللغوية ، وإنما هى شمالية . وقد وقف عند لهجات الشماليين فى الجاهلية ، تلك التى تمثّلها قراءات القرآن الكريم ، ولاحظ أن الشعر الجاهلى لا يمثلها . واتخذ من ذلك مطعناً فى صحته ، ومر بنا فى غير هذا الموضع أن لهجة قريش عمَّت فى الجزيرة منذ أوائل القرن السادس الميلادى واتخذها الشعراء لغة أدبية لهم ، ينظمون

(١) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ليوسف خليف (طبع دارالمعارف) ص١٣٢ وما بعدها و ص ٢٢٧ وما بعدها .

فيها أشعارهم مرتفعين غالبا عن لهجات قبائلهم المحلية ، فلا محل للتساؤل عن هذه اللهجات فى شعر الجاهليين ، ولا موضع لاتخاذ ذلك دليلا على أنه منتحل موضوع . ونراه يتشكك فى شعر الشواهد التعليمية على ألفاظ القرآن والحديث والمذاهب الكلامية ، غير أن هذه الشواهد أبيات فردية ، واتهامها ينبغى أن ينحصر فيها وأن لا يتعداها إلى الشعر الجاهلى عامة .

ويخرج طه حسين فى مصنفه من هذا الكتاب الثانى إلى الكتاب الثالث ، فيتحدث عن أسباب نَحْل الشعر ويبسطها بسطاً معتمداً على ملاحظات القدماء ، ونراه يردها إلى السياسة والدين والقصص والشعوبية والرواة ، أما السياسة وأراد بها العصبية القبلية فرآها تلعب دوراً واضحاً فى شعر قريش والأنصار ، إذ أضافت قريش إلى نفسها أشعاراً كثيرة ، وقد استكثرت بنوع خاص من الشعر الذى يهْجَى به الأنصار . وواضح أن هذا لم يكن غائباً عن ابن سلام ، فقد نص عليه وحذَّر منه كما أسلفنا ، كما حذر من أشعار وضعتها قريش على لسان حسان . على أن الأشعار جميعها التى وقف طه حسين عندها ليست جاهلية ، وإنما هى إسلامية .

وينتقل إلى الدين فيبين دوره فى هذا النحل متشككاً فى الأشعار التى يقال إنها نُظمت فى الجاهلية إرهاصًا ببعثة الرسول ، مما رواه ابن إسحق واحتفظ به ابن هشام فى سيرته ، ومثله ما يضاف إلى الجن والأمم القديمة البائدة . ومرّ بنا رَفْضُ ابن سلام لهذه الأشعار وما يماثلها . وتشكك فيما أضيف إلى شعراء اليهود والنصارى من أشعار ، وكذلك ما أضيف إلى عدى بن زيد العبادى ، ولم يكن القدماء فى غفلة عن ذلك[1] . ونراه يتحدث عن القصص والقصاص وأثرهم فى وضع الشعر ، ومرّ بنا تنبيه ابن سلام على ذلك عند ابن إسحق وأضرابه . ويعرض للشعوبية وما يمكن أن تكون قد نحلت الجاهليين من أشعار ، لتثبت على لسانهم مثالبهم التى تدعيها ، كما تثبت ثناءهم على الأعاجم . وقد تشكك فى هذا الشعر الكثير الذى يضيفه الجاحظ إلى الجاهليين فى مصنفه الحيوان ، ليدل على اتساع معرفتهم فى هذا العلم : علم الحيوان ، عصبية لهم ، والحق أن هذا لم يكن من أهداف الجاحظ ، فهو نفسه ينفى عنهم العلم الدقيق بالحيوان ، إذ يقول إن معارفهم فيه معارف أولية ، وإنه إنما دار فى أشعارهم لأنه كان مبثوثاً تحت أعينهم وأبصارهم

---

(١) انظر ابن سلام ص ١١٧ .

فى ديارهم[١] . ويختم هذا الكتاب بالوقوف عند الوضاعين من الرواة أمثال حماد وخلف ، ومرَّ بنا كيف أن القدماء كانوا لهم بالمرصاد . ومعنى ذلك كله أنه فى هذا الكتاب إنما يردِّد ما نص عليه العلماء السابقون من قضايا ، يريد أن يتسع بها لنقض الشعر الجاهلى جميعه ، وهى إنما تنقض جوانب منه ، وينبغى أن نقف عندها ، وأن لا نذهب مذهب التعميم ، فإن القدماء إنما ذكروا هذا كله ليدلوا على ما أحاطوا به رواية الشعر الجاهلى من سياج قوى ، حتى نميز الصحيح من الزائف والوثيق من المنحول .

ويمضى طه حسين فى مصنفه إلى الكتاب الرابع ، وهو دراسة تطبيقية لبيان الانتحال فى شعر طائفة من شعراء اليمن وربيعة ويبدأ فى دراسته بامرئ القيس ويتشكك فى شعره ، لأنه يمنى وشعره قرشى اللغة ، ثم هو شعر مضطرب ركيك . ومرَّ بنا أنه كان يمنى الجنس ، ولكنه كان قرشى اللغة . أما أن شعره ركيك والوضع فيه كثير فقد كان يغنيه عن هذا الظن ما يُرْوى عن الأصمعى من أنه قال : « كل شىء فى أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا نُتَفاً سمعتها من الأعراب وأبى عمرو بن العلاء »[٢] . ونراه ينتقل إلى علقمة الفحل فيشك فى شعره ، وقد كان ابن سلام لا يثبت له سوى ثلاث قصائد[٣] . وشك فى شعر عبيد بن الأبرص ، وأسلفنا أن ابن سلام لم يكن يعرف له سوى معلقته (أقفر من أهله مَلْحوب) وكان يقول إن شعره مضطرب ذاهب . ومضى طه حسين على هذا النحو يشك فى شعر عمرو ابن قميئة ومهلهل وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وطرفة والمتلمس والأعشى معتمداً على الأحكام الذاتية ، ولو أنه استقصى آراء الرواة الثقات لأعانه ذلك كثيراً فى تحقيق أشعارهم جميعاً .

وننتقل مع طه حسين فى مصنفه إلى الكتاب الخامس ، وهو خاص بشعراء مضر ، فنراه لا يستبعد أن يكون هناك شعراء مضريون وشعر مضرى ، غير أنه لا يلبث أن يستدرك قائلا : « لكننا لا نشك أيضًا فى أن هذا الشعر قد ذهب وضاعت كثرته ، ولم يبق لنا منه إلا شىء قليل جدًّا لا يكاد يمثل شيئاً ، وهذا المقدار القليل الذى بقى لنا من شعر مضر قد اضطرب وكثر فيه الخلط والتكلف

---

(١) الحيوان ٦/٢٩ وما بعدها .

(٢) مراتب النحويين ص ٧٢ .

(٣) ابن سلام ١١٦

والنحل ، حتى أصبح من العسير جداً إن لم يكن من المستحيل تخليصه وتصفيته[١]» . ويضيف إلى ذلك أن من الخطأ أن نكتفى فى الحكم على الشعر المضرى بالسند ومن يحمله من الرواة ، أو بالغرابة والسهولة ، ذاهباً إلى أن الباحث فى هذا الشعر ينبغى أن يحكِّم فيه مقياساً مركباً من خصائص فنية يشترك فيها طائفة من الشعراء بحيث يكوِّنون مدرسة كمدرسة أوس بن حجر التى تتألف منه ومن زهير وابنه كعب والُحطيئة ، فإن لهذه المدرسة من الخصائص الفنية المشتركة ما يؤكد صحة شعرها وسلامته من الوضع والانتحال . وكأنه بذلك يهدم شكوكه الواسعة فى الشعر الجاهلى ، فقد رجع أخيراً يسلم بصحة بعض جوانبه ودواوينه . على أننا لا نسلم له بطرد هذا المقياس فى تلك المدرسة نفسها ، فقد لاحظ القدماء أن شعر أوس بن حجر اختلط بشعر ابنه شُرَيْح[٢] ، واختلف الرواة فى بعض ما نُسب إليه من شعر هل هو له أو لعَبيد ابن الأبرص الأسدى[٣] ، وسنرى فى درسنا لزهير أن من الخطأ أن نقبل رواية الكوفيين لديوانه ، فقد حَملت زيادات كثيرة ، شك القدماء فى أطراف منها ، ونفس الرواية البصرية سنرفض قطعا وأشعارا منها ، على الرغم من أنها جاءتنا عن الأصمعى بل سنرى الأصمعى نفسه يشك فى ثلاث قصائد مثبتة فى روايته .

والحق أن الشعر الجاهلى فيه موضوع كثير ، غير أن ذلك لم يكن غائباً عن القدماء ، فقد عرضوه على نقد شديد ، تناولوا به رواته من جهة وصيغه وألفاظه من جهة ثانية ، أو بعبارة أخرى عرضوه على نقد داخلى وخارجى دقيق . ومعنى ذلك أنهم أحاطوه بسياج محكم من التحرى والتثبت ، فكان ينبغى أن لا يبالغ المحدثون من أمثال مرجليوث وطه حسين فى الشك فيه مبالغة تنتهى إلى رفضه ، إنما نشك حقًّا فيما يشك فيه القدماء ونرفضه ، أما ما وثقوه ورواه أثباتهم من مثل أبى عمرو بن العلاء والمفضل الضبى والأصمعى وأبى زيد فحرى أن نقبله ما داموا قد أجمعوا على صحته . ومع ذلك ينبغى أن نخضعه للامتحان وأن نرفض بعض ما رووه على أسس علمية منهجية لا لمجرد الظن ، كأن يُرْوَى لشاعر شعرٌ لا يتصل بظروفه التاريخية ، أو تجرى فيه أسماء مواضع بعيدة عن موطن قبيلته ، أو يضاف إليه شعر إسلامى النزعة ، ونحو ذلك مما يجعلنا نلمس الوضع لمسا .

---

(١) فى الأدب الجاهلى ص ٢٧٠ .
(٢) الحيوان ٢٧٩/٦ .
(٣) ابن سلام ص ٧٦ - ٧٧ .

٥

أهم مصادر الشعر الجاهلى

رأينا علماء البصرة والكوفة ورواتهما يجمعون مادة الشعر الجاهلى ، وقد توزعتها منتخبات عامة ودواوين مفردة للشعراء وأخرى للقبائل غير كتب الطبقات والتراجم وكتب التاريخ واللغة . وسنحاول وصف طائفة منها وبيان مقدار الثقة بها . ونبدأ من المنتخبات العامة بالمعلقات ، وقد مر بنا أنها لم تعلق بالكعبة كما زعم بعض المتأخرين ، وإنما سميت بذلك لنفاستها أخذًا من كلمة العلق بمعنى النفيس ، ويقال إن أول من رواها مجموعة فى ديوان خاص بها حماد الراوية[1] ، وهى عنده سبع : لامرئ القيس وزهير وطرفة ولبيد وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنترة . ونراها عند صاحب الجمهرة سبعًا أيضًا ، غير أنه أسقط اثنين من رواية حماد هما الحارث ابن حلزة وعنترة وأثبت مكانهما الأعشى والنابغة ، وربما أضاف حماد الحارث فى مقابلة عمرو بن كلثوم التغلبى لأن ولاءه كان فى بكر . على أننا لا نمضى فى عصر التبريزى حتى نجده يجعلها فى شرحه لها عشرًا جامعًا بين الروايتين ومضيفاً قصيدة عَبِيد بن الأبرص : (أقفر من أهله ملحوب) .

وقد عُنى الشراح بهذه المجموعة ، فشرحوها مراراً ، وطُبع من شروحهم شرح الزوزنى المتوفى سنة ٤٨٦ﻫ . وقد كتبه على رواية حماد ، ثم شرح التبريزى المتوفى سنة ٥٠٢ . وأكبر الظن أن حمادًا لم يأخذ حريته كاملة فى قصائد مجموعته ، فقد كانت على ما يظهر معروفة بين العرب ، على أنه ينبغى مقابلتها على دواوين أصحابها ورواياتها الوثيقة .

والمجموعة الثانية فى المنتخبات هى المفضليات ، نسبة إلى جامعها المفضّل الضبى راوى الكوفة الثقة ، وقد نشرها ليال بشرح ابن الأنبارى ، وهى مائة وست وعشرون قصيدة أضيف إليها أربع قصائد وُجدت فى بعض النسخ ، وفى مقدمة الشرح

---

(١) انظر ترجمة حماد فى معجم الأدباء ٢٦٦/١٠ .

سند كامل لها يرفعه ابن الأنبارى إلى ابن الأعرابى تلميذ المفضل وربيبه ، ويقول ابن النديم « هى مائة وثمانية وعشرون قصيدة ، وقد تزيد وتنقص وتتقدم القصائد وتتأخر ، بحسب الرواية عن المفضل ، والصحيحة التى رواها عنه ابن الأعرابى [١] » ومعنى ذلك أن فى أيدينا أوثق نسخة للمفضليات . وتعلّق عبد السلام هرون وأحمد شاكر ناشراها فى دار المعارف بنص عن الأخفش يزعم أنها كانت ثمانين ألقاها المفضل على المهدى ، وزاد فيها الأصمعى أربعين ، ثم زاد البقية بعض تلاميذه [٢] ، وربما جاء الأخفش اللبس [٣] من أن الأصمعيات تلتقى معها فى تسع عشرة قصيدة ، وأيضًا فقد وجد الرواة يقولون إن أبا جعفر المنصور حين عهد إلى المفضل بتثقيف ابنه المهدى بالشعر القديم اختار له ثمانين قصيدة ، فلما وجدها قد زادت عن الثمانين ووجدها تلتقى مع الأصمعيات فى بعض القصائد ظن أن الأصمعى وتلاميذه هم الذين أضافوا فيها هذه الزيادات ، ولو أنه اطلع على رواية ابن الأعرابى خصم الأصمعى لزايله هذا الوهم ، وكأن المفضل اختار أولا ثمانين ألقاها على المهدى ، ثم زادها إلى مائة وثمانٍ وعشرين كما جاءت فى رواية تلميذه ابن الأعرابى .

وهى موزعة على سبعة وستين شاعراً منهم سبعة وأربعون جاهليًّا وعلى رأسهم المرقشان الأكبر والأصغر والحارث بن حلِّزة وعلقمة بن عبَدة والشَّنْفرى وبشر بن أبى خازم وتأبط شرًّا وعوف بن عطية وأبو قيس بن الأسلت الأنصارى والمسيَّب وبينهم امرأة من بنى حنيفة ومجهول من اليهود ومسيحيان هما عبد المسيح بن عَسلة الشيبانى وتتضح مسيحيته فى اسمه ، ثم جابر بن حُنَى التغلبى ، ونراه يقول فى مفضليته :

وقد زعمتْ بَهْرَاءُ أَن رماحنا ... رماحُ نصارى لا تخوض إلى الدَّمِ

ولو لم يصلنا من الشعر الجاهلى سوى هذه المجموعة الموثقة لأمكن وصف تقاليده وصفًا دقيقاً ، فقد مثَّلت جوانب الحياة الجاهلية ودارت مع الأيام والأحداث

---

(١) الفهرست ص١٠٢ .

(٢) ذيل الأمالى ص١٣١ .

(٣) ذهبنا إلى أنه لبس ، وربما كان بعامل التنافس بين البصريين والكوفيين ، فالأخفش البصرى يريد أن يقول إن المفضليات من صنع البصريين والكوفيين جميعاً لما كان لها من شهرة فى عصره فاقت شهرة الأصمعيات .

وعلاقات القبائل بعضها ببعض و بملوك الحيرة والغساسنة ، وانطبعت فى كثير منها البيئة الجغرافية . وقد جاء فيها غير قليل من الكلمات المندثرة التى لم ترد فى المعاجم اللغوية[١] على كثرة ما أثبتت من الألفاظ المهجورة ، مما يرفع الثقة بها ويؤكدها .

والمجموعة الثالثة من كتب المنتخبات العامة الأصمعيات نسبة إلى الأصمعى راويها ، وقد نشرها آلورد (Ahlwardt) عن نسخة سقيمة فى برلين سنة ١٩٠٢ وأعاد نشرها عبد السلام هرون وأحمد شاكر عن نسخة للشنقيطى نقلها عن أصل قديم وهى نشرة علمية جيدة ، وقد بلغ عدد قصائدها ومقطوعاتها اثنتين وتسعين ، وهى موزعة على ٧١ شاعراً منهم نحو ٤٠ جاهليًّا على رأسهم امرؤ القيس والحارث ابن عباد ودريد بن الصِّمَّة وأبو دؤاد الإيادى وذو الإصبع العُدْوانى وسلامة بن جَنْدل وطرفة وعروة بن الورد وقيس بن الخطيم ، وبينهم يهوديان هما شعية بن الغريض والسموأل . وهذه المجموعة كسابقتها فى الثقة بها وعلو درجتها ، وقد جاء فيها أيضًا كثير من الكلمات المهجورة التى لم تثبتها المعاجم[٢] ، غير أنها لم تلعب الدور الذى لعبته المفضليات فلم يتعلق بها الشرّاح ، ولعل ذلك يرجع إلى قلة غريبها بالقياس إلى المفضليات ، وأيضًا فإن الأصمعى لم يَرْوِ كثيراً من القصائد كاملة ، بل اكتفى بمختارات منها .

والمجموعة الرابعة جمهرة أشعار العرب لأبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى ، ولا نجد اسمه بين الرواة المشهورين ، غير أنه يتضح من مقدمته لكتابه وما نقله عن الرواة أن بينه وبين رواة القرن الثانى جيلين أو ثلاثة ، فالوسائط بينه وبينهم فى السند غير بعيدة ، ولذلك نظن أنه كان يعيش فى أواخر القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع ، وقد ذكره ابن رشيق المتوفى سنة ٤٦٣ للهجرة فى كتابه العمدة[٣] كما ذكره السيوطى فى المزهر[٤] والبغدادى فى الخزانة[٥] . والجمهرة تضم تسعاً وأربعين قصيدة طويلة موزعة على سبعة أقسام ، فى كل قسم سبع قصائد ، والقسم الأول خاص بالمعلقات ، وقد أخذ فيها برواية أنها سبع ، وأسقط منها معلقتى الحارث وعنترة ووضع مكانهما معلقتى الأعشى والنابغة ، ويلى هذا القسم المجمهرات وهى

---

(١) انظر الفهرس الثالث الملحق بالمفضليات (طبع دار المعارف) .

(٢) انظر الفهرس الثالث الملحق بالأصمعيات .

(٣) العمدة ١/٦٠ .

(٤) المزهر ٢/٤٨٠ .

(٥) الخزانة ١/١٠ ، ٦١ ، ٢/٥٥ .

لعبيد بن الأبرص وعدى بن زيد وبشر بن أبى خازم وأمية بن أبى الصلت وخِداش ابن زهير والنمر بن تولب وعنترة وألحقت قصيدته فى النسخة المطبوعة بالمعلقات خطأ. ويلى ذلك المنتقيات أى المختارات ، ثم المذهبات وجميعها لشعراء من الأنصار جاهليين أو مخضرمين ، وربما قُصد باسمها أنها تستحق أن تكتب بالذهب ، ثم عيون المراثى ، ثم المشوبات ، وهى لمخضرمين ، شابهم الكفر والإسلام ، ثم الملحمات وجميعها لإسلاميين . وهى مجموعة غنية بالقصائد الطويلة ولكنها غير موثقة الرواية ، فلا بد فى الاعتماد عليها من مقابلتها على روايات صحيحة . وطُبعت الجمهرة مرارًا فى بيروت والقاهرة .

ومثل هذه المجموعة فى ضعف سندها مختارات ابن الشجرى المتوفى سنة ٥٤٢ للهجرة ، وهى مختارات من شعر جاهلى وإسلامى ، موزعة على ثلاثة أقسام وأهم مَنْ فى القسم الأول الشنفرى وطرفة ولقيط الإيادى والمتلمِّس ، أما القسم الثانى فمختارات من دواوين زهير وبشر بن أبى خازم وعَبيد بن الأبرص ، وأما القسم الثالث فمختارات من ديوان الحطيئة . وطُبعت هذه المجموعة بالقاهرة .

وتدخل فى هذه المختارات دواوين الحماسة ، وقيمتها أدبية أكثر منها تاريخية ، إذ لا يعرِّفنا أصحابها بمصادرهم وأشهرها ديوان الحماسة لأبى تمام المتوفى حوالى سنة ٢٣١ للهجرة وقد شُرح مرارًا ، ومن شروحه المطبوعة شرح المرزوقى وشرح التبريزى وهو يفيض بالإشارات التاريخية . ونصَّ المرزوقى على أن أبا تمام أصلحَ فى الشعر الذى رواه ، يقول : « إنك تراه ينتهى إلى البيت الجيد فيه لفظة تشينه ، فيَجْبر نقيصته من عنده ، ويبدل الكلمة بأختها فى نقده ، وهذا يبين لمن رجع إلى دواوينهم ، فقابل ما فى اختياره بها[1] » . وحماسته موزعة على عشرة أبواب أكبرها باب الحماسة وبه سماها ، وهى مقطوعات لجاهليين وإسلاميين وعباسيين ، وقلما رَوَى فيها قصائد كاملة . وتلى هذه الحماسة فى الأهمية حماسة البحترى المتوفى سنة ٢٨٤ هـ وهى مقطوعات قصيرة موزعة على مائة وأربعة وسبعين بابا ، وأكثر أبوابها فى نزعات خلقية ، ولم يُعْنَ القدماء بشرحها . ولابن الشجرى صاحب

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/ ١٤ .

المختارات حماسة طُبعت فى حيدر آباد ، وأغلب منتخباتها من الشعر الجاهلى . وطبعت أخيرًا حماسة الخالديين أو الأشباه والنظائر للأخوين سعيد الخالدى المتوفى سنة ٣٥٠ ومحمد المتوفى سنة ٣٨٠ ولا تزال الحماسة البصرية لعلى بن أبى الفرج البصرى المتوفى فى القرن السابع غير مطبوعة ، وفى دار الكتب المصرية مخطوطتان منها.

وإذا تركنا هذه المختارات إلى الدواوين المفردة لقينا منها دواوين الشعراء الستة الجاهليين : امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة وقد نشرها ألوارد ، إلا أنه لم يكتف برواية الأصمعى التى احتفظ بها شرح الشنتمرى ، بل أضاف إليها زيادات هى فى الأكثر منحولات ، ولا نزال فى حاجة إلى نشر شرح الشنتمرى المتوفى سنة ٤٧٦ وقد استخرج منه مصطفى السقا شرحه على تلك الدواوين والتزم روايته فى المجموعة التى سماها باسم مختار الشعر الجاهلى . وطُبع ديوان امرئ القيس طبعات مختلفة لعل أهمها الطبعة الأخيرة بدار المعارف ، وقد جمع فيها أبو الفضل إبراهيم رواياته جميعها وقارن بينها مقارنات دقيقة . ونشرت دار الكتب المصرية ديوان زهير بشرح ثعلب ، غير أن من حققوه لم يقابلوا بين هذه الرواية الكوفية ورواية الأصمعى البصرية التى يحتفظ بها الشنتمرى فى شرحه . وطُبعت دواوين أخرى مثل ديوان النابغة وطرفة ولبيد وعروة بن الورد وحاتم وعلقمة والشنفرى وأوس بن حجر ، إلا أن أكثر هذه الدواوين لا يزال فى حاجة إلى نشرة علمية جيدة . وقد نشر لايل ديوانى عبيد بن الأبرص وعامر بن الطفيل ، وهناك دواوين مخطوطة لما تنشر .

أما دواوين القبائل التى جمع منها الشيبانى نيفاً وثمانين ، وعُنى السكرى بكثير منها ، ففقدت فى الطريق[1] ، ولم يبق منها إلا قطع من ديوان هذيل نشرت فى خمس مجموعات ، أربع منها فى أوربا وهى من صنعة أبى سعيد الحسن بن الحسين السكرى ، طُبعت أولاها فى لندن سنة ١٨٥٤ بتحقيق كوزجارتن وطبعت الثانية فى برلين سنة ١٨٨٧ بتحقيق ڤلهاوزن ، وطُبعت الثالثة وهى خاصة بديوان أبى ذؤيب فى هانوفر سنة ١٩٢٦ بتحقيق يوسف هل ، وفى سنة ١٩٣٣ نَشر القطعة

---

(١) انظر فى تحقيق هذه الدواوين مصادر الشعر الجاهلى ص٥٤٣ وما بعدها .

الرابعة فى ليبزج ، وهى تتداخل مع القطعة الخامسة التى نشرتها دار الكتب المصرية ، ويظهر أن هذه القطعة الأخيرة اختلطت فيها نسخة السكرى بنسخة أخرى مختصرة ولذلك كان يقل فيها الشرح وإسناد الرواية . ويعنى عبد الستار فراج – بمراجعة محمود شاكر – بتحقيق أشعار الهذليين من صنعة السكرى وقد نشرت منه مكتبة دار العروبة جزءين . ومن الحق أن القطع التى وصلتنا من شرح السكرى غاية فى النفاسة لا لأنه يضمنها أخباراً وشروحاً فحسب ، بل أيضاً لأنه يقفنا وقوفا دقيقا على مصادره ، إذ يذكر دائما الإسناد فى القصيدة وألفاظها وأبياتها مثبتاً ما اختلف فيه الرواة البصريون وعلى رأسهم الأصمعى والكوفيون وعلى رأسهم ابن الأعرابى وأبو عمرو الشيبانى ومن جاء بعدهم من البغداديين مثل عبد الله بن إبراهيم الجمحى ، ومن بين من ينقل عنهم أبو عبيدة . ومنه نعرف أن الأصمعى كان ينقل عن مصدر من نفس القبيلة هو عمارة بن أبى طرفة الهذلى . وبذلك كانت هذه القطع التى رواها السكرى من ديوان هذيل لا تقل ثقة ولا قيمة تاريخية عن المفضليات والأصمعيات .

ومن الكتب الجيدة التى تشتمل على شعر جاهلى كثير شرح النقائض لأبى عبيدة ، فقد أنشد فيه كثيرًا من الشعر الذى قيل فى أيام العرب ، وحذا حذوه مَنْ كتبوا فى أيام العرب مثل ابن الأثير فى كامله وابن عبد ربه فى عقده . ومن الكتب الجيدة أيضًا طبقات الشعراء لابن سلام ، ومر بنا أنه أودع فيه دراسة دقيقة للشعر الجاهلى صحيحه ومصنوعه . أما كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة فربما كان خير ما فيه مقدمته التى يحاول أن يربط فيها شعراء عصره بالمثل الجاهلية القديمة ، أما بعد ذلك فالكتاب فقير فى تراجمه وما يُطوى فيها من أخبار وأشعار غير مسندة إلى رواتها . وهناك كتبُ أدبٍ ألفت فى البصرة مثل البيان والتبيين والحيوان للجاحظ والكامل للمبرد ، ومن الخير أن نردّ ما بها من شعر إلى روايات بصرية صحيحة ، حتى نكون أكثر طمأنينة ، ويجرى مجراها ما فى أمالى اليزيدى ومجالس ثعلب من أشعار . وينبغى أن نتلقى كتب الأدب البغدادية مثل عيون الأخبار لابن قتيبة بحذر ، ومثلها أمالى أبى على القالى ففيها انتحال كثير . ومن المختصرات التى تفيد فى المراجعة كتاب المؤتلف والمختلف للآمدى ومعجم الشعراء للمرزبانى وكتابه الموشّح نفيس فى التعرف على كثير مما

وُضع على الشعراء الجاهليين . وهناك أشعار جاهلية كثيرة فى كتب النقد مثل نقد الشعر لقدامة والصناعتين لأبى هلال العسكرى والوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجانى والعمدة لابن رشيق ، ومثلها مثل الشواهد المبثوثة فى كتب اللغة والنحو ينبغى التوثق منها بالرجوع إلى المصادر الأصلية الوثيقة . أما ما جاء فى كتب السير والأخبار والتاريخ كسيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى ومغازى الواقدى فينبغى أن نرفضه إلا أن تدعمه روايات صحيحة .

وإذا كنا فقدنا كثيراً من الدواوين المفردة ودواوين القبائل وما كان بها من أخبار وأشعار فإن كثيراً من ذلك احتفظ به أبو الفرج الأصبهانى فى كتابه الأغانى الذى ترجم فيه للشعراء من القرن السادس إلى القرن التاسع للميلاد ترجمات غنية ، سجل فيها كثيراً من المادة التى فُقدت ، وكان له ذوق عالمٍ ناقد بصير ، فساق من الكتب التى سبقته أطرفَ ما فيها من أخبار وأشعار ، ولم يسقها مفردة ، بل ساقها بأسانيدها التى ترجع بها إلى مصادرها ورواتها الأوائل مثل الأصمعى وأبى عبيدة وابن الأعرابى وأبى عمرو والشيبانى والهيثم بن عدى وخالد بن كلثوم وابن الكلبى وأضرابهم ، ومَنْ خلفوهم من جِلة الرواة والمصنفين ، وإذا تعددت الروايات فى الخبر ذكرها جميعاً ، وكثيراً ما يقف ليفحص ما ينقله ، فيرفض رواية لأن راويها ابن الكلبى أو ابن خرداذبة أو غيرهما من المتهمين . وقد يشك فى مقطوعة أو قصيدة تنسب لشاعر من الشعراء ، فيرجع إلى ديوانه فى رواياته المختلفة ، وينص على أنه وجدها أو لم يجدها . وقد يعرض الخبر على التاريخ ليتوثق منه . وفى تضاعيف ذلك يسوق آراء الرواة والنقاد فى الشعراء وشعرهم . والحق أنه أكبر مصدر لتاريخ الشعر الجاهلى وأصحابه ، فإذا أضفنا له الأصمعيات والمفضليات وديوان هذيل وما صح من الدواوين المفردة كنا أمام مادة خصبة للبحث والدراسة فى الجاهليين وأشعارهم وأخبارهم .

ومن الكتب المتأخرة التى احتفظت ببعض ما فُقد من الروايات والمصنفات القديمة خزانة الأدب للبغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ للهجرة ، وهو شرح على شواهد الرضى شارح كتاب الكافية لابن الحاجب ، وفيه تراجم دقيقة لبعض الجاهليين وملاحظات على بعض أشعارهم من حيث الانتحال والصحة . ومثله فى هذا الاتجاه شرح السيوطى على شواهد المغنى لابن هشام .

الفصل السادس

خصائص الشعر الجاهلى

١

نشأة الشعر الجاهلى وتفاوته فى القبائل

لا ريب فى أن المراحل التى قطعها الشعر العربى حتى استوى فى صورته الجاهلية غامضة ، فليس بين أيدينا أشعار تصور أطواره الأولى ، إنما بين أيدينا هذه الصورة التامة لقصائده بتقاليدها الفنية المعقدة فى الوزن والقافية وفى المعانى والموضوعات وفى الأساليب والصياغات المحكمة ، وهى تقاليد تلقى ستاراً صفيقاً بيننا وبين طفولة هذا الشعر ونشأته الأولى فلا نكاد نعرف من ذلك شيئاً . وحاول ابن سلام أن يرفع جانباً من هذا الستار فعقد فصلا [١] تحدث فيه عن أوائل الشعراء الجاهليين ، وتأثر به ابن قتيبة فى مقدمة كتابه الشعر والشعراء ، فعرض هو الآخر لهؤلاء الأوائل ، وهم عندهما جميعاً أوائل الحقبة الجاهلية المكتملة الخلق والبناء فى صياغة القصيدة العربية ، وكأن الأوائل الذين أنشأوا هذه القصيدة فى الزمن الأقدم ونهجوا لها سُننها طواهم الزمان . وفى ديوان امرئ القيس [٢] .

عُوجا على الطَّلل المُحيل لأَننـــا نبكى الديار كما بكى ابنُ خِذام ِ

ولا نعرف من أمر ابن خذام هذا شيئاً سوى تلك الإشارة التى قد تدل على أنه أول من بكى الديار ووقف فى الأطلال .

وتتراءى لنا مطولات الشعر الجاهلى فى نظام معين من المعانى والموضوعات ، إذ نرى أصحابها يفتتحونها غالباً بوصف الأطلال وبكاء آثار الديار ، ثم يصفون رحلاتهم فى الصحراء وما يركبونه من إبل وخيل ، وكثيراً ما يشبهون الناقة فى

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبع دار المعارف) ص ٢٣ وما بعدها .

(٢) ديوان امرئ القيس (طبع دار المعارف) ص ١١٤ وعوجاً : اعطفا . المحيل : الذى أتى عليه أحوال . لأننا هنا : لعلنا .

سرعتها ببعض الحيوانات الوحشية ، ويمضون فى تصويرها ، ثم يخرجون إلى الغرض من قصيدتهم مديحاً أو هجاء وفخراً أو عتاباً أو اعتذاراً أو رثاء . وللقصيدة مهما طالت تقليد ثابت فى أوزانها وقوافيها ، فهى تتألف من وحدات موسيقية يسمونها الأبيات وتتحد جميع الأبيات فى وزنها وقافيتها وما تنتهى به من روىّ .

وتلقانا هذه الصورة التامة الناضجة للقصيدة الجاهلية منذ أقدم نصوصها ، وحقًّا توجد قصائد يضطرب فيها العروض ولكنها قليلة ، من ذلك قصيدة عَبيد بن الأبرص الأسدى[١] :

أَقْفَــر من أَهله ملحوبُ　　　فالقُطَبِيَّـاتُ فالذَّنوبُ

فهى من مخلَّع البسيط ، وقلما يخلو بيت منها من حذف فى بعض تفاعيله أو زيادة على نحو ما نرى فى الشطر الأول من هذا المطلع ، وعلى غرارها قصيدة تنسب لامرئ القيس مطلعها[٢] :

عينـاك دمعهما سِجَالُ　　　كأَن شـأْنيهما أَوْشـالُ

ومثلهما فى هذا الاضطراب قصيدة المُرَقِّش الأكبر[٣] :

هل بالديار أن تُجيب صَمَمْ　　　لو كان رَسْمٌ ناطقًا كلَّمْ

فهى من وزن السريع ، وخرجت شطور بعض أبياتها على هذا الوزن كالشطر الثانى من هذا البيت :

ما ذَنْبُنا فى أَن غَزَا مَلِكٌ　　　من آل جفنة حازمٌ مُرْغم

فإنه من وزن الكامل . وعلى هذه الشاكلة قصيدة عدى بن زيد العبادى[٤] :

تعرف أمسِ من لَميسَ الطَّلَلْ　　　مثل الكتاب الدارس الأَحْوَلْ

---

(١) انظر القصيدة فى المعلقات العشر وفى ديوان عبيد . وملحوب والقطبيات والذنوب : أسماء مواضع .

(٢) الديوان ص ١٨٩ سجال : جمع سجل أى صب بعد صب . شأنيهما : مثنى شأن وهو مجرى الدمع . أو شال : جمع وشل وهو الماء القليل .

(٣) المفضليات (طبع دار المعارف) ص ٢٣٧ .

(٤) أغانى (طبعة دار الكتب) ٢ / ١٥٣ . الأحول : الذى أتى عليه أحوال وسنوات كثيرة .

فهي من وزن السريع وخرجت بعض شطورها على هذا الوزن كالشطر الثانى من هذا البيت :

أَنعِمْ صباحًا عَلْقَمَ بنَ عَدِيْ أَثويتَ اليومَ أَمْ تَرْحَلْ

فإنه من وزن المديد . ويماثل هذه القصيدة فى اختلال الوزن قصيدته[١] :

قد حان أَن تَصْحُوَ أَو تُقْصِرْ وقد أَتى لما عهدتَ عُصُرْ

ومن هذا الباب نونية سُلَيمىّ بن ربيعة التى أنشدها أبو تمام فى الحماسة[٢] :

إن شِــوَاءً ونَشْــوَةً وخَبَبَ البــازلِ الأَمونِ

فقد لاحظ التبريزى والمرزوقى أنها خارجة عن العروض التى وضعها الخليل . واضطرابُ هذه القصائد فى أوزانها مما يدل على صحتها وأن أيدى الرواة لم تعبث بها . ومعروف أن الزحافات تكثر فى الشعر الجاهلى ، بل فى الشعر العربى بعامة ، ومما كان يشيع بينهم الإقواء ، وهو اختلاف حركة الروى فى القصيدة كقول امرئ القيس فى معلقته يصف جبل أبان :

كأَن أَباناً فى أَفانين وَدْقِهِ كبيرُ أُناسٍ فى بِجادٍ مزمَّلُ[٣]

فقد ضم اللام فى نهاية البيت ، وهى مكسورة فى المعلقة جميعها . وفى رأينا أن احتفاظ الشعر الجاهلى بهذه العيوب العروضية مما يؤكد صحته فى الجملة وأن الرواة لم يصلحوه إصلاحاً واسعاً ، كما يزعم بعض المحدثين .

ومهما يكن فليس بين أيدينا أشعار تصور مرحلة غير ناضجة من نظام الوزن والقافية فى الجاهلية ، فإن نفس هؤلاء الشعراء الذين رُويت عنهم تلك القصائد المضطربة فى وزنها رُوِى عنهم قصائد كثيرة مستقيمة فى وزنها وقوافيها ، مما يدل على أن ذلك كان يأتى شذوذاً وفى الندرة . وزعم بعض القدماء والمحدثين أن الرجز أقدم أوزان الشعر العربى ، وأنه تولد من السجع ، مرتبطاً بالحُداء ووقع أخفاف الإبل

---

(١) الفصول والغايات لأبى العلاء ص ١٣١ .

(٢) انظر التبريزى على الحماسة ٣/٨٣ والمرزوقى رقم ٤٠٨ . والخبب : ضرب من السير . البازل : الناقة المسنة . الأمون : الموثقة الخلق .

(٣) أفانين : ضروب وأنواع . الودق : المطر . البجاد : كساء مخطط . مزمل : متدثر .

فى أثناء سيرها وسُراها فى الصحراء ، ومنه تولدت الأوزان الأخرى[١] ، غير أن هذا مجرد فرض . وكل ما يمكن أن يقال هو أن الرجز كان أكثر أوزان الشعر شيوعاً فى الجاهلية ، إذ كانوا يرتجلونه فى كل حركة من حركاتهم وكل عمل من أعمالهم فى السلم والحرب ، ولكن شيوعه لا يعنى قدمه ولا سبقه للأوزان الأخرى ، إنما يعنى أنه كان وزناً شعبيًّا لا أقل ولا أكثر . وكان الشعراء الممتازون فى الجاهلية لا ينظمون منه ، إنما ينظمون فى الطويل والبسيط والكامل والوافر والسريع والمديد والمنسرح والخفيف والوافر والمتقارب والهزج ، وإن كان نظمهم فى الثلاثة الأولى أكثر وأوسع .

والحق أنه ليس بين أيدينا شىء من وزن أو غير وزن يدل على طفولة الشعر الجاهلى وحِقبه الأولى ، وكيف تمّ له تطوره حتى انتهى إلى هذه الصورة النموذجية التى تلقانا منذ أوائل العصر الجاهلى أو بعبارة أخرى منذ أوائل القرن السادس الميلادى . ولم تكن تختص بهذا الشعر فى الجاهلية قبيلة دون غيرها من القبائل الشمالية عدنانية أو قحطانية ، وآية ذلك أننا نجد الشعراء موزعين عليها ، فمنهم من ينتسب إلى القبائل القحطانية مثل امرئ القيس الكندى وعدىّ بن رَعْلاء الغسانى[٢] والحارث بن وَعْلة الجرمىّ القضاعى[٣] ومالك بن حَرِيم الهَمْدانىّ[٤] وعبد يغوث الحارثى النَّجْرانى[٥] والشَّنْفرى الأزدى[٦] وعمرو بن معد يكرب المَذْحجى[٧] ، أما من ينتسبون إلى مضر وربيعة فأكثر من أن نسميهم ، وعلى شاكلتهم من ينتسبون إلى الأوس والخزرج القحطانيين فى المدينة . ونحن لا نستطيع أن نحصى من جرى لسانهم بالشعر حينئذ ، فقد كانوا كثيرين ، وكانت تشركهم فيه النساء مثل الخنساء ، وكان ينظمه سادتهم وصعاليكهم . ويخيل إلى الإنسان أن الشعر لم يكن يستعصى على أحد منهم ، وعدّ ابن سلام فى طبقاته أربعين من فحولهم وفحول المخضرمين وقد جعلهم فى عشر طبقات وجعل فى كل طبقة أربعة ، وأضاف إليهم

---

(١) انظر الجزء الأول من تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ص٥١ .

(٢) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ١٧٠ .

(٣) المفضليات (طبع دار المعارف) ص ١٦٤ .

(٤) الأصمعيات ص ٥٦ .

(٥) المفضليات ص ١٥٥ .

(٦) المفضليات ص ١٠٨ .

(٧) الأصمعيات فى مواضع متفرقة .

أربعة من أصحاب المراثي كما أضاف تسعة فى مكة وخمسة فى المدينة وخمسة فى الطائف وثلاثة فى البحرين ، وعدّ لليهود ثمانية. ومن يرجع إلى هؤلاء الشعراء يجد بينهم البدوى والحضرى كما يجد بين البدْو اليمنى والرّبعى والمضرى .

وترجم أبو الفرج فى الأغانى لكثيرين منهم، وتراجمه هو الآخر إنما تقف عند مقدّميهم الذين دوّنتْ شهرتهم ، ووراءهم كثيرون لم يترجم لهم ، يعدون بالمئات على نحو ما يصور لنا ذلك المؤتلف والمختلف للآمدى ومعجم الشعراء للمرزبانى . ومن غير شك سقط من ذاكرة الرواة أسماء كثيرين لم يسجلوهم ، ويشهد لذلك قول ابن قتيبة : « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم فى الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو أنفد عمره فى التنقير عنهم واستفرغ مجهوده فى البحث والسؤال ، ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ولا قصيدة إلا رواها » [١] . ومن يقرأ فى كتاب المؤتلف والمختلف للآمدى يجده يقول كثيراً إن شاعراً بعينه لم يجد له شعراً ولا ذكراً فى ديوان قبيلته [٢] . فدواوين القبائل لم تستقص هؤلاء الشعراء استقصاء دقيقاً .

والذى لا ريب فيه أن حظ القبائل المضرية من هذا الشعر الجاهلى كان أوفر من حظ القبائل الرّبعية والقحطانية ، واقرأ فى الأغانى والمفضليات والأصمعيات فستجد لمضر الكثْرة الكثيرة من الشعر والشعراء ، وهى كثْرة يؤيدها تاريخها فى الإسلام ، فقد تفوقت القبائل التى نزلت فى العراق على قبائل الشام والأخرى التى نزلت فى مصر وبلاد المغرب والأندلس ، لأنها كانت فى جمهورها مضرية بينما كانت تلك فى معظمها قحطانية .

وكان حظ القبائل المضرية من الشعر متفاوتاً ، وكذلك كانت القبائل الربعية والقحطانية ، فقبائل كل مجموعة ليست سواء فيه ، ومثلها المدن فمكة كانت قليلة الشعر [٣]، وأقل منها نصيباً فيه اليمامة[٤] . ووقف الجاحظ فى حيوانه عند جانب

---

(١) انظر مقدمته لكتابه الشعر والشعراء (طبع دار المعارف) ص ٤ .

(٢) راجع المؤتلف والمختلف ص ٢٣ ، ٣٨ ، ٦٨ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٧١ ، ١٨٧ ، ١٩٢ — ١٩٣ .

(٣) ابن سلام ص ٢١٧ .

(٤) ابن سلام ص ٢٣٤ .

من حظوظ القبائل وتفاوتها فى ذلك فقال : « وبنو حنيفة "سكان اليمامة" مع كثرة عددهم وشدة بأسهم وكثرة وقائعهم وحسد العرب لهم على دارهم . وتخومهم وسط أعدائهم . حتى كأنهم وحدهم يعدلون بكراً كلها ، ومع ذلك لم نر قبيلة قط أقل شعراً منهم . وفى إخوتهم عجل قصيد ورجز وشعراء ورجازون . وليس ذلك لمكان الخصب وأنهم أهل مدر وأكالو تمر ، لأن الأوس والخزرج كذلك ، وهم فى الشعر كما قد علمت . وكذلك عبد القيس النازلة قرى البحرين ، فقد نعرف أن طعامهم أطيب من طعام أهل اليمامة . وثقيف " سكان الطائف " أهل دار ناهيك بها خصباً وطيباً ، وهم وإن كان شعرهم أقل فإن ذلك التقليل يدل على طبع فى الشعر عجيب . وليس ذلك من قبل رداءة الغذاء ، ولا من قلة الخصب الشاغل والغنى عن الناس ، وإنما ذلك على قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز . . وبنو الحارث ابن كعب (سكان نجران) قبيل شريف يجرون مجارى ملوك اليمن ومجارى سادات الأعراب أهل نجد ، ولم يكن لهم فى الجاهلية كبير حظ فى الشعر ، ولهم فى الإسلام شعراء مفلقون . . وقد يحظى بالشعر ناس ويخرج آخرون ، وإن كانوا مثلهم أو فوقهم . . وقد كان فى ولد زرارة (جد بطن من تميم) لصلبه شعر كثير كشعر لقيط وحاجب وغيرهما من ولده . ولم يكن لحذيفة ولا حصن ولا عيينة بن حصن ولا لحمل بن بدر شعر مذكور »[1].

ومن المحقق أنه فقد كثير من الشعر الجاهلى ، إذ عدت عليه عوادى الرواية وتلك الرحلة الطويلة التى قطعها من الجاهلية إلى عصور التدوين ، ويروى عن أبى عمرو بن العلاء أنه كان يقول : « ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير[2] » . ونحن لا نبالغ مبالغة أبى عمرو ، فقد بقى منه كثير ألفت فيه مجلدات ضخام ، إذ حافظت القبائل بكل ما استطاعت على قصائده الطوال ومتقطعاته القصار وكثير من أبياته المفردة ، وما زالت تحافظ عليه ، حتى أسلمته إلى أيدى رواة أمناء سجلوه ودونوه .

---

(١) الحيوان ٤ / ٣٨٠ وما بعدها .

(٢) ابن سلام ص ٢٣ .

٢

الشعر الجاهلى شعر غنائى

من المعروف أنه يوجد عند الغربيين منذ اليونان أنواع مختلفة من الشعر ، يردها نقادهم إلى أربعة أضرب ، شعر قصصى وتعليمى وغنائى وتمثيلى ، ويمتاز الضرب الأول بأن قصائده طويلة ، فالقصيدة منه تمتد إلى آلاف الأبيات ، وتتوالى فيها حلقات من الأحداث تنعقد حول بطل كبير ، وقد يوجد بجانبه أبطال ، ولكن أدوارهم ثانوية . وهى فى حقيقتها قصة إلا أنها كتبت شعراً ، فالتسلسل القصصى فيها دقيق والانتقال بين أجزائها منطقى محكم ، وهى قصة تفسح للخيال مجالا واسعاً ، ولذلك كانت تكثر فيها الأساطير والأمور الخارقة ، وكانت الآلهة تظهر فيها عند اليونان بدون انقطاع . وخير ما يمثلها عندهم الإلياذة لهوميروس وقد نقلها إلى العربية منذ فاتحة هذا القرن سليمان البستانى ، ولكثير من الأمم القديمة والحديثة قصائد قصصية تشبهها ، فللرومان الإنيادة لفرجيل ، وللهنود الرامايانا والمهابهاراتا وللفرس الشهنامة للفردوسى وللألمان أنشودة الظلام وللفرنسيين أنشودة رولان .

والشاعر فى هذا الضرب القصصى لا يتحدث عن عواطفه وأهوائه ، فهو شاعر موضوعى ينكر نفسه ، ويتحدث فى قصته عن بطل معتمداً على خياله ، ومستمداً فى أثناء ذلك من تاريخ قومه ، وكل ما له أنه يخلق القصة ويرتب لها الأشخاص والأشياء ، ويجمع لها المعلومات ، ويكوّن من ذلك قصيدته ، وعادة ينظمها من وزن واحد لا يخرج عنه . ولم تعرف الجاهلية هذا الضرب من الشعر القصصى ، وهى كذلك لم تعرف الضرب الثانى من الشعر التعليمى الذى ينظم فيه الشاعر طائفة من المعارف على نحو ما نعرف عند هزيود الشاعر اليونانى وقصيدته « الأعمال والأيام » التى يصور فيها فصول السنة والحياة الريفية ، وعند هوراس الشاعر الرومانى فى قصيدته « فن الشعر » التى نظمها فى قواعد الشعر ونقده ، وكما هو معروف عن أبان بن عبد الحميد شاعر البرامكة فى قصيدته التى نظم فيها أحكام الصوم والزكاة . وكذلك لم يعرف الجاهليون الشعر التمثيلى الذى يعتمد على مسرح وعلى حركة وعمل معقد وحوار طويل بين الأشخاص ، تتخلله مشاهد ومناظر مختلفة .

فهذه الضروب الثلاثة من الشعر لم يعرفها الجاهليون ، فشعرهم منظومات قصيرة قلما تجاوزت مائة بيت ، وهو شعر ذاتى يمثل صاحبه وأهواءه ، على حين الضروب السابقة جميعاً موضوعية ، فالشاعر فيها لا يتحدث عن مشاعره وأحاسيسه إنما يتحدث عن أشياء خارجة عنه ، سواء حين يقص أوحين يعلِّم أوحين يمثِّل ، فهو فى كل ذلك يُغفل نفسه ولا يقف عندها ، إنما يقف عند جانب قصصى تاريخى يحكيه أو علمى تهذيبى يرويه أو تمثيلى مسرحى يؤدِّيه ، متجرداً عن شخصه وما يتصل بذاته وأهوائه وعواطفه .

ولكن إذا كان الشعر الجاهلى يختلف عن ضروب الشعر الغربية القصصية والتعليمية والتمثيلية، فإنه يقترب من الضرب الرابع الغنائى ، لأنه يجول مثله فى مشاعر الشاعر وعواطفه ، ويصوِّره فرحاً أو حزيناً ، وقد وُجد من قديم عند اليونان ، إذ عرفوا المدح والهجاء والغزل ووصف الطبيعة والرثاء، وكان يُصْحَبُ عندهم بآلة موسيقية يُعْزَفُ عليها تسمى (لير Lyre) ومن ثَمَّ سموه (Lyric) أى غنائى .

وإذن فنحن لا نبعد حين نزعم أن الشعر الجاهلى جميعه غنائى ، إذ يماثل الشعر الغنائى الغربى من حيث إنه ذاتى يصور نفسية الفرد وما يختلجه من عواطف وأحاسيس، سواء حين يتحمس الشاعر ويفخر أو حين يمدح ويهجو أو حين يتغزل أو يرثى أوحين يعتذر ويعاتب، أوحين يصف أى شىء مما ينبثُّ حوله فى جزيرته . وليس هذا فحسب ، فهو يماثل الأصول اليونانية للشعر الغنائى الغربى من حيث إنه كان يغنَّى غناء، ويظهر أن الشعراء أنفسهم كانوا يغنون فيه، فهم يروون أن المهلهل غنَّى فى قصيدته :

طفلةٌ مـا ابنةُ المحلَّلِ بيضا ءُ لعوبٌ لذيذةٌ فى العناقِ[1]

ومعنى ذلك أن الشعر الجاهلى ارتبط بالغناء عند أقدم شعرائه . ومن حين إلى حين نجد أبا الفرج الأصبهانى يشير إلى أن شاعراً جاهليًّا تغنَّى ببعض شعره من مثل السُّلَيْك بن السُّلَكَة [2] وعلقمة بن عَبَدة الفحل والأعشى ، وكان يوقِّع

---

(١) انظر الأغانى (طبعة دار الكتب) ٥١/٥ وما فى البيت زائدة ، وطفلة : رخصة ناعمة .

(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٨/ ١٣٤ .

شعره على الآلة الموسيقية المعروفة باسم الصَّنج ، ولعله من أجل ذلك سمى صنَّاجة العرب [١] . ويقول أبو النجم فى وصف قينة [٢] :

تَغَنَّىْ فإن اليوم يومٌ من الصِّبا ببعض الذى غَنَّى امرؤُ القيس أو عمرو

وهو يقصد بعمرو ، عمرو بن قَميئة . ويقول حسان بن ثابت [٣] :

تَغَنَّ بالشعر إمَّا كنتَ قائله إن الغنــاء لهذا الشعر مضمارُ

فالغناء كان أساس تعلم الشعر عندهم ، ولعلهم من أجل ذلك عبروا عن إلقائه بالإنشاد ، ومنه الحُداء الذى كانوا يحدون به فى أسفارهم وراء إبلهم ، وكان غناء شعبيًّا عامًّا .

ويقترن هذا الغناء عندهم بذكر أدوات موسيقية مختلفة كالمِزْهر والدفّ وكانا من جلد وكالصَّنْج ولعله هو نفسه الآلة الفارسية المعروفة باسم الجنك ، وكالبَرْبط وهو آلة موسيقية وترية شاعت فى بلاد الإغريق ، ويقص علينا علقمة بن عَبَدة أنه وفد على بلاط الغساسنة فاستمع عندهم إلى قيان بيزنطيات يضربن على البرابط [٤] وكانوا كذلك فى الحيرة يستمعون إلى القيان وهن يضربن على الآلات الموسيقية الفارسية . وأدخلوا كثيراً من هؤلاء القيان إلى جزيرتهم من مثل خُلَيْدة وهُرَيْرة فى اليمامة [٥] والأخيرة هى صاحبة الأعشى التى ذكرها فى معلقته ، ويروى الرواة أنه كان بمكة قينتان لعبد الله بن جُدْعان جلبهما من بلاد الفرس وكانتا تغنيان الناس [٦] وفى أخبار غزوة بدر أنه لما نصح أبو سفيان قريشاً أن تعود قبل أن يوقع الرسول عليه السلام بها قال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نردَ بدراً فنقيم عليه ثلاثا ونَنْحر الجزُر ونطعم الطعام ونُسْقَى الخمور وتعزف علينا القيانُ وتسمع بنا العرب [٧] . وفى السيرة النبوية أن الرسول أمر يوم فتح مكة بقتل رجل يسمى ابن خَطل كان مسلماً ثم ارتد وهرب إلى مكة ، وكان له قينتان تغنيان بهجاء الرسول ، فأمر بقتلهما ، فقُتلت

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٠٩/٩ وانظر ترجمته فى الشعر والشعراء ٢١٤/١ .

(٢) الشعر والشعراء ٦٠/١ .

(٣) العمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ٢٤١/٢ .

(٤) أغانى (ساسى) ١٤/١٦ .

(٥) أغانى (طبعة دار الكتب) ١١٣/٩ .

(٦) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣٢٧/٨ .

(٧) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٨٢/٤ .

إحداهما ، وفرّت الأخرى[1] . ومر بنا أن أهل يثرب حين وفد عليهما النابغة أمروا إحدى القيان أن تغني بشعر له فيه إقواء ، حتى يقف على ما فيه من عيب[2] . ويكثر ذكر هؤلاء القيان في شعر الشعراء كما يكثر ذكر ما كن يضربن عليه من آلات الطرب ، كقول علقمة في ميميته[3] :

قد أشهد الشَّرْب فيهم مِزْهَرٌ رَنِمٌ ... والقوم تصرعهم صهباء خُرْطومُ

ويقول الأعشى في معلقته :

ومستجيبٍ تخال الصَّنج يسمعه ... إذا تُرَجِّع فيه القَيْنَةُ الفُضُلُ[4]

ولطرفة في معلقته وصف طويل لإحدى هؤلاء القيان . ولعل في ذلك كله ما يدل على أن الغناء في الجاهلية تأثر بعناصر أجنبية كثيرة .

وكان نساؤهم يؤلفن ما يشبه الجوقات ويتغنين في حفلاتهم لاعبات على المزاهر[5] ، وفي الطبري أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع ذات يوم عزفاً بالدفوف والمزامير ، فسأل عنه ، فعرف أنه عُرْس[6] ، وأكبر الظن أنهن كن يقرن هذا العزف بأناشيد كأناشيد الزفاف المعروفة عند اليونان والرومان . وكن يؤلفن في الحروب جوقة كبيرة تحمِّس وتثير ، ففي الطبري والأغاني أن هنداً بنت عتبة ونسوة من قريش كن يضربن على الدفوف في غزوة أحد وكانت هند تغني في تضاعيف هذا العزف بمقطوعات على شاكلة قولها[7] :

إن تُقبلوا نعانقْ ... ونفرشِ النَّمارِقْ[8]

أو تدبروا نفارق ... فراقَ غيرِ وامق[9]

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبي) ٤/٥٣ .

(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ١١/١٠ .

(٣) المفضليات ص ٤٠٢ والشرب : جمع شارب ، رنم : مترنم ، والصهباء: الخمر ، والخرطوم أول ما ينزل منها صافياً .

(٤) المستجيب : العود ، واستماع الصنج له كناية عن اتساق أنغامهما . الفضل : اللابسة ثوباً واحداً .

(٥) العمدة ١/٣٧ .

(٦) الطبري (طبعة أوربا) ١/١١٢٦ .

(٧) أغاني (طبعة الساسي) ١٤/١٦ وتاريخ الطبري ١/١٤٠٠ .

(٨) النمارق : جمع نمرقة وهي الطنفسة والوسادة الصغيرة .

(٩) وامق : محب .

وبجانب هذا الغناء العام كان عندهم غناء دينى يرتلونه فى أعيادهم الدينية ، على نحو ما مر بنا من تلبياتهم ، فكانوا يرددون مثل « أشرق ثَبير كيما نُغير » . وكانوا فى أثناء تقديم ذبائحهم وصبّ دمائها على الأنصاب المقدسة عندهم يتغنون غناء لعله هو أصل غناء النَّصْب الذى شاع بينهم فى الجاهلية . وربما كان فى اسم الداجنة والمدجنة ، وهى القينة تغنى فى الدَّجْن وحين ظهور الغيم فى صفحة السماء[1] ما يدل على أنهم كانوا إذا عزّهم المطر وغلبهم الجدْب توجهوا بالغناء إلى آلهة الغيث والخصب .

ومعنى كل ما قدمنا أن الشعر فى الجاهلية كان يُصْحَب بالغناء والموسيقى ، فهو شعر غنائى تام ، ويظهر أن الغناء لم يكن ساذجاً حينذاك ، فقد عرفوا منه ضروباً مختلفة ، يقول إسحق الموصلى : « غناء العرب قديماً على ثلاثة أوجه : النَّصْب والسِّناد والهزَج ، فأما النصْبُ فغناء الركبان والقينات وهو الذى يستعمل فى المراثى ، وكله يخرج من أصل الطويل فى العروض ، وأما السناد فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات ، وأما الهزَجُ فالخفيف الذى يُرْقَصُ عليه ويُمْشَى بالدفّ والمزمار فيطرب ويستخف الحليم . هذا كان غناء العرب قديماً ، حتى جاء الله بالإسلام وفُتحت العراق وجُلب الغناء الرقيق من فارس والروم وتغنوا الغناء المجزّأ المؤلف بالفارسية والرومية وغنَّوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير »[2] .

ولعل فى اقتران النصب بالمراثى ما يدل على ما قلناه من أنه كان غناء دينيًّا ، فهم يتغنون به فى الموت ، أما السناد فلعله الغناء الذى كان يقترن ببعض الآلات الموسيقية ، وأما الهزج فغناء خفيف كان يقترن بالرقص والدف والمزامير ، وهو غناء حفلاتهم ، ولعلهم كانوا يؤثرون فيه الوزن الذى يساعد على الحركة المعروف باسمه بين أوزان الشعر وهو وزن الهزج ، كما كانوا يستخدمون فيه الرَّمل والرجز ليطابق الشعر ما يريدون من رقص وسرعة فى الحركة .

وعلى هذا النحو نظم شعراء الجاهلية شعرهم فى جو غنائى مشبه لنفس الجو الذى نظم فيه اليونان شعرهم الغنائى فقد كان الشاعر يغنى شعره ، وقد يوقّع هذا الغناء على

---

(١) انظر مادة دجن فى لسان العرب وغيره من معاجم اللغة . وراجع المفضليات ص١٣٠ .

(٢) العمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ٢٤١/٢ .

بعض الآلات الموسيقية . وقد يقوم له بالغناء فى شعره قيان وجوقات مختلفة ترقص وتعزف فى أثنائه . ويظهر أن الشعر أخذ فى أواخر هذا العصر يستقل عن الغناء والموسيقى ، فكان بعض الشعراء لا يغنيه ، وإنما ينشده إنشاداً ، والإنشاد مرتبة وسطى بين الغناء والقراءة .

ونحن إذا رجعنا إلى هذا الشعر وجدنا بقايا الغناء والموسيقى ظاهرة فيه ظهوراً بيناً، ولعل القافية هى أهم هذه البقايا التى احتفظ بها ، فهى بقية العزف فيه ورمز ما كان يصحبه من قَرْع الطبول ونقر الدفوف . ومثلها التصريع فى مطالع القصائد وما كان يعمد إليه الشعراء أحياناً من تقطيع صوتى لأبياتهم كقول امرئ القيس فى معلقته يصف الفرس :

مِكَرٍّ ، مِفَرٍّ ، مُقْبلٍ ، مُدْبرٍ ، معًا ... كجُلْمُودِ صَخْرٍ حطَّه السَّيْلُ مِنْ عَلِ

ويكثر هذا التقطيع فى أشعارهم ، ومن يرجع إلى معلقة لبيد التى يستهلها بقوله :

عفتِ الديارُ محلُّهــا فمُقامها ... بِمِنًى تـأبَّدَ غَوْلُها فرِجامُها

يجده على شاكلة هذا المطلع يلائم كثيراً بين الكلمتين الأخيرتين ، وكأن للبيت قافيتين : داخلية ، وخارجية ، وكأنه يريد أن يهيئ لنفسه أو لمن يتغنى بقصيدته أن يرتفع بصوته فى كلمتين متتاليتين . ولا نشك فى أن صور الأوزان المتنوعة التى يمتاز بها الشعر الجاهلى إنما حدثت بتأثير هذا الغناء ، وقد نفذوا منه إلى ضروب من التجزئة فى بعض الأوزان ، كمجزوء الكامل والمديد ، بل نفذوا إلى أوزان خفيفة كثيرة كالمتقارب والرمل والهزج . وبدون ريب إنما كثرت التجزئة والتعديل فى الرجز لأنه كان وزناً شعبيًّا وكان كثير الدوران فى حُدائهم وفى كل ما يتصل بهم من حركة وعمل كحفر الآبار والمتْح منها ومبارزة الأقران واستصراخ العشائر ، فكثر فيه الحذف وكثر التحريف والتعديل كثرة مفرطة ، حتى زعم الخليل أنه ليس من أوزان الشعر [1] ، وهو شعر غير أن التغنى به تغنياً كثيراً حُدَاءً وغير حداء أحدث فيه تغيرات شتى .

---

(١) انظر باب الرجز فى العمدة لابن رشيق .

٣

الموضوعات

لعل أقدم من حاولوا تقسيم الشعر العربى جاهليًّا وغير جاهلى إلى موضوعات ألّف فيها ديواناً هو أبو تمام المتوفى حوالى سنة ٢٣٢ للهجرة ، فقد نظمه فى عشرة موضوعات ، هى الحماسة ، والمراثى ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والأضياف ومعهم المديح ، والصفات ، والسير، والنعاس ، والملح ، ومذمة النساء . وهى موضوعات يتداخل بعضها فى بعض فالحديث عن الأضياف إما أن يدخل فى المديح أو فى الحماسة والفخر ، والسير والنعاس يدخلان فى الصفات ، كما تدخل مذمة النساء فى الهجاء، أما الملح فغير واضحة الدلالة . وجاء فى باب الأدب بما يدل على أنه يقصد به المعنى التهذيبى ، غير أنه أنشد فيه أبياتاً فى وصف الخمر ، وأغفل إغفالا تامًّا باب العتاب والاعتذار .

ووزّع قدامة فى كتابه نقد الشعر هذا الفن على ستة موضوعات ، هى المديح والهجاء والنسيب والمراثى والوصف والتشبيه وحاول بعقله المنطقى أن يرد الشعر إلى بابين أو موضوعين هما المدح والهجاء : فالنسيب مديح وكذلك المراثى ، ومضى يعين المعانى التى يدور حولها المديح ، وهى فى رأيه الفضائل النفسية . ونجد نفس المحاولة فى تضييق موضوعات الشعر واضحة فى كتاب نقد النثر ، فهو مديح وهجاء وحكمة ولهو ، ويدخل فى المديح المراثى والافتخار والشكر واللطف فى المسألة ويدخل فى الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء والتأنيب ، كما يدخل فى الحكمة الأمثال والزهد والمواعظ ، أما اللهو فيدخل فيه الغزل والطَّرْد وصنعة الخمر والمجون .

وجعل ابن رشيق موضوعات الشعر فى كتابه العمدة تسعة ، وهى النسيب ، والمديح ، والافتخار ، والرثاء ، والاقتضاء والاستنجاز ، والعتاب ، والوعيد والإنذار ، والهجاء، والاعتذار . ومن السهل أن يُرَدّ موضوع الاقتضاء والاستنجاز إلى المديح ، والوعيد والإنذار إلى الهجاء ، وأن يضم العتاب إلى الاعتذار ، وأيضاً فإنه نسى موضوع الوصف . ويقول أبو هلال العسكرى : « وإنما كانت أقسام الشعر فى الجاهلية خمسة : المديح والهجاء والوصف والتشبيه والمراثى ، حتى زاد النابغة فيها قسماً

سادساً وهو الاعتذار فأحسن فيه [١] » وهو تقسيم جيد غير أنه نسى باب الحماسة، وهو أكثر موضوعات الشعر دوراناً على لسانهم .

ولا نستطيع أن نرتب هذه الموضوعات فى الشعر الجاهلى ترتيباً تاريخياً ، ولا أن نعرف كيف نشأت وتطورت ، فإن الأصول الأولى لهذا الشعر انطمرت كما قدمنا فى ثنايا الزمن ، وإن كنا نستطيع أن نظن ظنًّا أنها تطورت من أناشيد دينية كانوا يتجهون بها إلى آلهتهم ؛ يستعينون بها على حياتهم فتارة يطلبون منها القضاء على خصومهم ، وتارة يطلبون منها نصرتهم ونصرة أبطالهم ، ومن ثم نشأ هجاء أعدائهم ومدح فرسانهم وسادتهم ، كما نشأ شعر الرثاء وهو فى أصله تعويذات للميت حتى يطمئن فى قبره ، وفى أثناء ذلك كانوا يمجدون قوى الطبيعة المقدسة التى تكمن فيها آلهتهم والتى تبعث فيهم الخوف ، ومعنى هذا كله أن موضوعات الشعر الجاهلى تطورت من أدعية وتعويذات وابتهالات للآلهة إلى موضوعات مستقلة [٢] .

ويظهر أنه كانت لا تزال فى نفوسهم بقية من هذه الصلة القديمة بين الشعر ودعاء الآلهة ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ما جاء فى القرآن الكريم من كثرة الربط بين الشعر والسحر وتعاويذ الكهنة فقد كانوا يرمون الرسول فى بدء دعوته تارة بأنه شاعر وتارة ثانية بأنه كاهن وتارة ثالثة بأنه ساحر (وقالوا إن هذا إلا سحر مبين) وردّ عليهم القرآن دعواهم الكاذبة مراراً فى مثل : (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) ومثل : (إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيلٌ من رب العالمين) . ويقول جلّ وعز فى سورة الشعراء : (وما تنزلتْ به الشياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون) وبعد ذلك : (هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أثيم ، يُلقون السمع وأكثرهم كاذبون ، والشعراء يتبعهم الغاوُون ألم تر أنهم فى كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلموا وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون) .

وواضح أن القرآن الكريم يحكى على ألسنتهم ما كانوا يؤمنون به من العلاقة بين

---

(١) ديوان المعانى ١ / ٩١ . (طبع دار المعارف) ١ / ٤٤ وما بعدها .

(٢) انظر تاريخ الأدب العربى لبروكلمان

الشعر والكهانة والسحر ، وكانوا يزعمون أن الشياطين تنزلُ على الشعراء كما تنزل على الكهان . وزعموا أن الأعشى كان له شيطان ينفث فى وعيه الشعر يسمّى مِسْحلا وأن شاعراً كان يهاجيه يسمى عمرو بن قَطَن، كانت له تابعة من الجن اسمها جُهُنّام[١] .

وظل بعض الشعراء فى الإسلام يزعم أن له تابعاً من الجن ، ويؤكد الأسطورة أبو النجم فيزعم أن لكل شاعر شيطاناً إما أنثى وإما ذكراً ، يقول[٢] :

إنى وكلُّ شاعرٍ من البشَرْ شيطانُه أنثى وشيطانى ذكَرْ

وفى أخبارهم أن الشاعر كان إذا أراد الهجاء لبس حُلّة خاصة، ولعلها كحلل الكهان ، وحلق رأسه وترك له ذؤابتين ودهن أحد شِقّى رأسه وانتعل نعلا واحدة[٣] ونحن نعرف أن حلق الرأس كان من سننهم فى الحج ، وكأن شاعر الهجاء كان يتخذ نفس الشعائر التى يصنعها فى حجه وأثناء دعائه لربه أو لأربابه ، حتى تصيب لعناتُ هجائه خصومه بكل ما يمكن من ألوان الأذى وضروب النحس المستمر .

فالهجاء فى الجاهلية كان لا يزال يُقْرَن بما كانت تقرن به لعناتهم الدينية الأولى من شعائر ، ولعلهم من أجل ذلك كانوا يتطيرون منه ويتشاءمون ويحاولون التخلص من أذاه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . ونحن نعرف أن الغزو والنهب كان دائراً بينهم ، غير أن المغيرين إن أغاروا ونهبوا إبلا بينها إبل لشاعر ، وتعرض لهم يتوعدهم بالهجاء اضطُرّوا اضطراراً إلى ردها أو على الأقل يردون ماله هو وإبله . يروى الرواة أن الحارث بن ورقاء الأسدى أغار على عشيرة زهير ، واستاق فيما استاق إبلاً له وغلاماً ، فنظم زهير أبياتاً يتوعده بالهجاء المقذع ، يقول فيها[٤] :

ليأتينَّك منى منطقٌ قَذعٌ باقٍ كما دنَّس القُبْطِيَّةَ الوَدَكُ

(١) انظر المؤتلف والمختلف ص ٢٠٣ ومادة جهم فى لسان العرب ، والحيوان ٦/ ٢٢٦ والقصيدتين رقم ١٥ ، ٣٣ فى ديوان الأعشى

(٢) الحيوان ٦/ ٢٢٩ .

(٣) امالى المرتضى (طبعة عيسى الحلبى) ١/ ١٩١ .

(٤) مختار الشعر الجاهلى للسقا ص ٢٥٥ وديوان زهير (طبعة دار الكتب المصرية) ص ١٨٣ . القذع : القبيح . القبطية : كل ثوب أبيض . الودك : الدسم .

ففزع الحارث ورد عليه ما سلبه منه [١] . وواضح أن زهيراً يستخدم فى وصف هجائه المنتظر كلمة الدنس، فهو سيلحق به عن طريق هجائه الرِّجْس والإثم .

ويروى أن رجلا يسمى زُرْعة بن ثوب من بنى عبد الله بن غطفان خدع غلاماً من عشيرة مزرّد بن ضِرار الشاعر يسمى خالداً كان يرعى إبلا لأبويه فاشتراها منه بغنم واستاقها ، ورجع الغلام إلى أبويه فأخبرهما بما فعل ، فقال أبوه : هلكت والله وأهلكتنا، وركب إلى مزرّد وقصّ عليه القصة ، فقال مزرّد : أنا ضامن لك أن تُرَدَّ عليك بأعيانها ، وأنشأ قصيدة طويلة يتوعد فيها زرعة، ويطلب إليه أن يرد الإبل، ونراه يعوّذها بهجائه ، فهى إن لم ترد ستكون ناراً تأتى على الأخضر واليابس عند زرعة وقومه وسيصيبها الجرب والأمراض المستعصية ، يقول [٢] :

فيا آلَ ثَوْبٍ إنما ذَوْدُ خالد كنار اللَّظَى، لا خير فى ذَوْدِ خالدِ [٣]

بهن دُروءٌ من نُحازٍ وغُدَّةٌ لها ذَرِباتٌ كالثُّدِيِّ النواهدِ [٤]

جَرِبْنَ فما يُهْنَأْنَ إلا بغَلْقةٍ عَطينٍ وأَبوالِ النساء القواعدِ [٥]

وقد تحولوا يصبّون أهاجيهم ولعناتهم على خصومهم هم وعشائرهم ، فلم يسلم منها أحد من أشرافهم ، يقول الجاحظ : « وإذا بلغ السيد فى السؤدد الكمال حسده من الأشراف من يظن أنه الأحق به ، وفخرتْ به عشيرته فلا يزال سفيه من شعراء تلك القبائل قد غاظه ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته فهجاه ، ومن طلب عيباً وجده فإن لم يجد عيباً وجد بعض ما إذا ذكره وجد من يغلط فيه ويحمله عنه . ولذلك هُجى حصن بن حذيفة ، وهجى زُرَارَةُ بن عُدَس وهجى عبد الله بن جُدْعان وهجى حاجب بن زُرارة . وإنما ذكرت لك هؤلاء لأنهم من سؤددهم وطاعة القبيلة لهم لم يذهبوا فيمن تحت أيديهم من قومهم ومن حلفائهم وجيرانهم مذهب كليب بن ربيعة ولا مذهب حذيفة بن بدر ولا مذهب عُيَيْنة بن حصن ولا مذهب لقيط بن زرارة . . فإن هؤلاء وإن كانوا سادة فقد كانوا يظلمون [٦] » وبمقدار ما

---

(١) أغانى ١٠/٣٠٧ وما بعدها .

(٢) المفضليات ص ٧٩ .

(٣) الذود : الجماعة القليلة من الإبل .

(٤) دروء : جمع دره وهو النتوء . والنحاز : داء يصيب الإبل بالسعال . الغدة : طاعون الإبل . الذربات : جمع ذربة وهى رأس الخراج ، النواهد : النواهض .

(٥) يهنأن : يطلين . الغلقة : شجر يدبغ به الجرب . عطين يريد أنه لا يدبغ بها إلا بعد العطن ، القواعد : العجائز .

(٦) الحيوان ٢/٩٣ .

كان فى القبيلة من شرف وأشراف كان هجاؤها عندهم ، إذ كانوا لا يزالون يتعرضون لها ولأشرافها بأقبح الهجاء وأقذعه ، يقول الجاحظ أيضاً :

« إذا استوى القبيلان فى تقادم الميلاد ، ثم كان أحد الأبوين كثير الذَّرْء (النسل) والفرسان والحكماء والأجواد والشعراء، وكثير السادات فى العشائر وكثير الرؤساء فى الأرحاء (القبائل الكبيرة) وكان الآخر قليل الذَّرْء والعدد ولم يكن فيهم خير كثير ولا شر كثير خَملوا أو دخلوا فى غمار العرب وغرقوا فى معظم الناس وكانوا من المغمورين ومن المنسيين فسلموا من ضروب الهجاء . . وسلموا من أن يُضْرَب بهم المثل فى قلة ونذالة، إذ لم يكن (منهم) شر وكان محلهم من القلوب محل من لا يغيظ الشعراء ولا يحسدهم الأكفاء . . وإذا تقادم الميلاد . . . وكان فيهم خير كثير وشر كثير ومثالب ومناقب لم يسلموا من أن يُهْجَوْا ويضرب بهم المثل . ولعل أيضاً أن تنفق لهم أشعار تتصل بمحبة الرواة وأمثال تسير على ألسنة العلماء . فيصير حينئذ من لا خير فيه ولا شر أمثل حالا فى العامة ممن فيه الفضل الكثير وبعض النقص ولاسيما إذا جاوروا من يأكلهم وحالفوا من لا ينصفهم كما لقيت غَنِيّ أو باهلة . . فمن القبائل المتقادمة الميلاد التى فى شطرها خير كثير وفى الشطر الآخر شرف وضعة مثل قبائل غطفان وقيس عَيْلان ومثل فزارة ومرّة وثعلبة ومثل عَبْس وعبد الله بن غطفان ثم غنيّ وباهلة واليَعْسوب والطفاوة، فالشرف والخطر فى عبس وذبيان، والمبتلى والملقى والمحروم والمظلوم مثل باهلة وغنيّ مما لقيتْ من صوائب سهام الشعراء وحتى كأنهم آلة لمدارج الأقوام ينكبُّ فيها كل ساع ويعثر بها كل ماش . وربما ذكروا اليعسوب والطفاوة وهاربة البَقْعاء (من ذبيان) وأشجع الخنثى ببعض الذكر .. وجلُّ معظم البلاء لم يقع إلا بغنى وباهلة وهم أرفع من هؤلاء وأكثر فضولا ومناقب . حتى صار من لاخير فيه ولا شر عنده أحسن حالا ممن فيه الخير الكثير وبعض الشر . . ومن هذا الضرب تميم بن مرّ وثَوْر وعُكْل وتَيْم ومزينة، ففى عكل وتيم ومُزَيْنة من الشرف والفضل ما ليس فى ثور ، وقد سلمت ثور إلا من الشىء اليسير ، مما لا يرويه إلا العلماء ، والتحف الهجاء على عكل وتيم . وقد شعَّثوا بين مزينة شيئاً . . وقد نالوا من ضبّة مع ما فى ضبة من الخصال الشريفة . . ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء . كما بكى مخارق بن شهاب وكما بكى

علقمة بن عُلاثة وكما بكى عبد الله بن جُدْعان من بيت لخداش بن زهير»[١] .
وفى السيرة النبوية أن الرسول صلى الله عليه وسلم طلب إلى شعراء المدينة أن يعينوه بأهاجيهم فى قريش ، ويروى أنه قال لحسان بن ثابت ، وقد أخذ فى هجاء القرشيين : «لشعرك أشد عليهم من وقع النَّبْل» وفى ذلك ما يصور مدى أثر الهجاء فى نفوس العرب ، فقد كان سلاحاً لا يقل عن أسلحتهم فى القتال ، ولذلك قرنه عبد قَيْس ابن خفاف البرجمى إلى ما يَلْقى به أعداءه من سيف ورمح ودرع ، يقول[٢] :

فأَصبحتُ أعددتُ للنائبا ... ت عِرْضًا بريئًا وعَضْبا صَقيلا[٣]
ووَقْعَ لسانٍ كحد السِّنانِ ... ورُمحًا طويل القناة عَسُولا[٤]
وسابغةً من جيادِ الدُّرو ... عِ تسمع للسيف فيها صَليلا
كماء الغَديِر زَفَتْه الدَّبُورُ ... يَجُرُّ المدجَّجُ منها فُضولا[٥]

فاللسان كان يَنْكأ بهجائه فى الأعداء نكأ السيوف والرماح. ويخيل إلى الإنسان كأنما تراصّ شعراء القبائل بجانب فرسانها وشجعانها فى صفوف ، وقد أخذ كل منهم يَريش سهام هجائه ويرمى بها أعداءه من الأشراف والقبائل ، وكل يحاول أن يكون سهمه أنفذَ السهام وأصماها . حتى لا تقوم للشريف وقبيلته قائمة . وكانوا ينتهزون فرصة تلاقيهم فى الأسواق وخاصة سوق عُكاظ ، فينشدون أهاجيهم لتذيع ، وليلحقوا بخصومهم كل ما يريدون من خزى وعار ، وفى ذلك يقول راشد بن شهاب اليشكرى لقيس بن مسعود الشيبانى[٦] :

ولا تُوعِدنِّى إننى إن تُلاقنى ... معى مَشْرِفىٌّ فى مضاربه قَضَمْ[٧]
وذمٌّ يُغَشِّى المرءَ خِزْيًا ورهطه ... لدى السَّرْحة العَشَّاء فى ظلها الأَدَمْ[٨]

وهو يشير إلى سرحة أو شجرة عظيمة كانت بعكاظ ، حيث تقام السوق

---

(١) الحيوان ١/٣٥٧ - ٣٦٣ .
(٢) المفضليات ص ٣٨٦.
(٣) العضب : السيف القاطع ، والصقيل : المصقول الحاد .
(٤) العسول : اللين المصمى .
(٥) زفته : حركته ، الدبور : ريح غربية تقابل الصبا ، المدجج : تام السلاح ، ويجر منها فضولا كناية عن أنها سابغة تفضل عن أطرافه.
(٦) المفضليات ص ٣٠٨ .
(٧) المشرفى : السيف ، وقضم : فلول من كثرة الطعن .
(٨) السرحة : الشجرة ، العشاء ، الخفيفة .

الكبيرة هناك ويضرب العرب قباب الأدم ، وتجتمع العشائر من أنحاء الجزيرة ومعها شعراؤها وما يحملون فى حجورهم من حجارة الهجاء .

ودار هجاؤهم على كل ما يناقض مُثلهم التى صورناها فى غير هذا الموضع ، وقد قلنا إنه كانت تجمعها كلمة المروءة ، وهى تعنى عندهم فضائلهم من الشجاعة والكرم وحماية الجار والوفاء والنجدة وطلب الثأر ، وما هى إلا أن يدخل الشاعر فى الهجاء فإذا هو يخلِّص القبيلة وأشرافها من كل هذه الفضائل وما يتصل بها فهى لا تكرم الجار ولا تحميه ، وهى تفرّ فى الحروب وتقعد عن الأخذ بثأرها . ولا يكتفى الشعراء الهجاءون بذلك بل يتعرضون لمخازى القبيلة فى حروبها وأيامها التى ولت على أدبارها فيها منهزمة منكسة الأعلام ، واقرأْ فى المفضليات قصيدة ربيعة بن مقروم رقم ٣٨ فستراه يذكر أمجاد قبيلته فى أيام بزاخة والنِّسار وطَخْفَة والكُلاب وذات السُّلَيْم ، واقرأ قصائد بشر بن أبى خازم الأسدى فى المفضليات أيضاً فستجده يفصل الحديث عن حروب قومه مع بنى عامر فى يوم النسار ومعهم ومع أحلافهم من تميم فى يوم الجفار وما أنزلوا بهم من خسائر فى الرجال ، وتعرض لانتصاراتهم على كثير من القبائل مثل جَرْم والرباب وجُذام و بنى سليم و بنى كلاب و بنى أشجع ومرة بن ذبيان . ولم يكونوا يقفون عند ذلك ، بل كانوا يقذفون فى الأعراض ويطعنون فى الأنساب ، متعرضين للأمهات على نحو ما نرى عند الجُمَيْح الأسدى فى هجاء بنى عامر وقد غدروا بأسدى منهم وقتلوه فقال يعيرهم بما غدروا ، مفدِّياً أمهم سلمى استهزاء بهم لما ألحقوا بها من العار ، ثم عاد فادّعى عليها البغاء [1] :

سائلْ معدًّا مَنِ الفوارسُ لا أَوْفَوْا بجيرانهم ولا غنِموا

فِدًى لسَلْمى ثوبایَ إذ دَنس الـ قومُ وإذ يَدْسَمون ما دَسِمُوا [2]

أنتم بنو المرأة التى زعم الـ نَّاسُ عليها فى الغَىِّ ما زعموا

واسترسل يَصِمها أبشع الوصم بأبيات ثلاث لا نستطيع التمثل بها لإمعانه فى الفحش . وكثيراً ما يتعرضون لشخص فيزعمون أنه دعىٌّ فى قومه زَنيم . وشاع بينهم هذا الضرب من الوقوع فى الأعراض ، مما نجد آثاره فيما بعد عند جرير والفرزدق

---

(١) المفضليات ص ٤١ .
(٢) ثوباى : أراد نفسه . يدسمون : من الدسم وهو الدنس . يقول ذلك تهكماً واستهزاء بهم و بأمهم.

فى العصر الإسلامى ، وكأنما أصبح همّ الهاجى أن يضرب عدوه الضربة القاضية ، حتى لو كان شريفاً معروفاً بكثرة المناقب كما يلاحظ الجاحظ ، بل لكأن مناقبه كانت تؤذيهم ، فكانوا يلطخونه بالعار ما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، ومن ثَمّ لا نعجب حين نجد شاعراً يزعم أن النعمان بن المنذر لم يولد لرشدة ، فهو ليس سليل المناذرة إنما هو سليل صائغ بالحيرة ، يقول فيه عبد قَيْس بن خُفاف البُرْجمى [1] :

لعنَ الله ثم ثَنَّى بلَعْنٍ ابنَ ذا الصائغ الظلومَ الجهولا
يجمع الجيشَ ذا الأُلوف ويغزو ثم لا يرزأُ العدوَّ فَتيلا [2]

وكان النعمان كثير الوقائع فى قبائل العرب وخاصة عبد القيس فتعرض له شاعرها يزيد بن الخذّاق بهجاء كثير يتوعده وينذره ويخيفه ، يقول فى بعضه [3] :

نعمانُ إنك خائنٌ خَدِعٌ يُخْفِى ضميرُك غير ما تُبْدِى

وقصة هجاء المتلمس وطرفة لعمرو بن هند مشهورة .

ولم يكن جمهور هجائهم يُفْرَدُ بالقصائد، بل كانوا يسوقونه غالباً فى تضاعيف حماستهم وإشادتهم بأمجادهم وانتصاراتهم الحربية، ولا نُبعد إذا قلنا إن الحماسة أهم موضوع استنفد قصائدهم ، فقد سَعرتهم الحروب ،وأمدّها شعراؤهم بوقود جَزْل من التغنى ببطولتهم وأنهم لا يرهبون الموت ، فهم يترامون عليه تحت ظلال السيوف والرماح مدافعين عن شرف قبائلهم وحماها . ويرتفع هذا الغناء بل قل هذا الصياح فى كل مكان ، بحيث يخيل إلينا أنه لم يكن هناك صوت سواه ، ولعل ذلك ما دفع أبا تمام إلى أن يسمى مجموعته من أشعارهم وأشعار مَنْ خلفوهم باسم الحماسة ، فهى التى تستنفد أشعارهم وقصيدهم ، وهى ديوانهم الذى يسطّر تاريخهم ومناقبهم ومفاخرهم ، وهل هناك فخر أعلى من فخر الشجاعة والتنكيل بالأعداء . واقرأْ فى المفضليات والأصمعيات فستجد هذا الفخر وما يطوى فيه من حماسة يدور على كل لسان ، وستجد الشاعر فيه يتحدث دائماً عما تعتز به قبيلته من الأخذ بأوتارها ومن تضييق الخناق على أعدائها، وهو يعدد أيامها مشيداً بحسبها ونسبها وصَبْرها فى

---

(١) الحيوان ٤/٣٧٩ .
(٢) يرزأ : ينقص ، والفتيل : الهنة فى شق النواة .
(٣) المفضليات ص ٢٩٦ .

الملمَّات وكرمها فى الجدب وحمايتها للجار وإغاثتها للملهوف ، وفى أثناء ذلك يصوِّب سهام الهجاء إلى نحور أعدائهم ، وكأنه يريد أن يقضى عليهم قضاء مبرماً .

ونحس فى هذه الحماسة أثر الموجدة الشديدة والحقد البالغ على خصومهم ، فهم دائماً يتعرضون لهم يهددونهم ويتوعدونهم انتقاماً مروِّعاً ، وكان أشد ما يهيجهم أن يقتل منهم قتيل ، فحينئذ تهيج القبيلة ويهيج شعراؤها هياجاً لا حدَّ له ، فإذا ثأرت لنفسها وشفتْ غلَّها وحقدها أخذ شعراؤها ينشدون أناشيد النصر من مثل قصيدة دُرَيْد بن الصِّمَّة التى يتغنى فيها بأنه ثأر من قتلة أخيه عبد الله ، ومع ذلك لا يزال يتوعدهم ، يقول [1] :

ويا راكباً إما عرَضْتَ فبلِّغَنْ ... أَبا غالبٍ أَن قد ثأَرْنا بغالبِ [2]

قتلتُ بعبد الله خير لِدَاتِه ... ذُؤابَ بن أَسماء بن زيد بن قاربِ [3]

فلليوم سُمِّيتُم فَزارةُ فاصبروا ... لوَقْع القَنَا تَنْزون نَزْوَ الجَنادبِ [4]

تكُرُّ عليهم رَجْلَتِي وفوارسى ... وأُكْرِهُ فيهم صَعْدَتى غير ناكبِ [5]

فإن تُدْبرُوا يأْخذْنكم فى ظهوركم ... وإن تُقْبلوا يأْخذْنكم فى التَّرائبِ [6]

وإن تُسْهِلوا للخيل تُسْهِلْ عليكمُ ... بطعنٍ كإيزاغ المَخاض الضواربِ [7]

ومُرَّةَ قد أَخرجْنَهم فتركْنَهم ... يروغون بالصَّلعاءِ روغَ الثعالبِ [8]

وأَشجعَ قد أَدركْنهم فتركْنهم ... يخافون خَطْفَ الطير من كل جانبِ

وثعلبةَ الخُنْثَى تركنا شريدهم ... تَعِلَّةَ لاهٍ فى البلاد ولاعبِ

فليت قبورًا بالمخاضة أخبرَتْ ... فتُخبرَعنا الخُضْرَ خُضْرَ مُحاربِ [9]

---

(١) الأصمعيات ص ١١٧ .

(٢) عرضت : أتيت العروض ، يريد مكة والمدينة وما حولهما .

(٣) لدات : جمع لدة وهو الترب والكفء .

(٤) النزو : الوثب ، الجنادب : ضرب صغير من الجراد .

(٥) رجلتى : جمع راجل ضد الفارس الراكب ، وهم المشاة . والصعدة : القناة . غير ناكب : غير عادل عنهم .

(٦) الترائب : عظام الصدر .

(٧) تسهلوا : تنزلوا السهل من الأرض . المخاض : الحوامل من النوق ، الضوارب : اللواقح ، وإيزاغها أن ترمى ببولها شبه رشاش الطعنة من الدم ببولها ورشاشه .

(٨) يروغون : يذهبون هنا وهناك . الصلعاء موضع هو مكان معركته مع مرة .

(٩) المخاضة : موضع من ديار ذبيان ، وخضر محارب : قبيلة .

رَدَسْناهمُ بالخيل حتى تملَّأَتْ عَوافى الضباع والذئاب السَّواغبِ(١)
ذرينى أَطوِّفْ فى البلاد لعلنى أُلاقى بإثْرِ ثُلَّةً من محاربِ(٢)

وواضح أنه يتشفى من قتلة أخيه، فقد ظفر مع جمع من قبيلته بأعدائه من فزارة ، فأخذتهم سيوفهم من أمام ومن وراء ، ومسهلين فى الأرض . ويصور ما لقيته مُرَّة فى الحرب من بلاء شديد وكيف هربت أشجع وكيف نكلوا ببنى ثعلبة وبنى محارب ، حتى شبعت منهم الضباع . ويتهددهم بأنه سيعيد الكرَّة عليهم . وفى كل مكان يدوِّى مثل هذا النشيد ، ومن روائعهم فى هذا الباب معلقة عمرو بن كلثوم ، وفيها يصيح بانتصارات قومه وأيامهم المُعْلمة المشهورة من مثل قوله :

متى ننقل إلى قومٍ رَحانا يكونوا فى اللِّقاء لها طَحِينا
يكون ثِفالُها شرقىَّ نجدٍ ولُهْوَتُها قضاعةَ أجمعينا(٣)
نُطاعن ما تراخى الناسُ عنا ونضرِبُ بالسيوف إذا غُشِينا
بِسُمْرٍ من قَنَا الخَطِّىِّ لُدْنٍ ذوابلَ أو ببيضٍ يَعْتَلِينا(٤)
نشقُّ بها رءُوسَ القوم شَقًّا ونُخْليها الرِّقاب فَتختلينا
كأن جماجم الأبطالِ فيها وُسوقٌ بالأماعز يرتمينا(٥)
وَرِثْنا المجد قد علمتْ مَعَدٌّ نطاعن دونه حتى يبينا(٦)
ونحن إذا عمادُ الحىّ خَرَّت على الأحْفاض نمنع من يلينا(٧)
نجذُّ رءُوسهم فى غير وِتْرٍ فما يدرون ماذا يتَّقونَا(٨)

---

(١) ردسناهم : رميناهم ، العوافى : الجائعة ، وكذلك السواغب .
(٢) الثلة : الجماعة من الناس .
(٣) الثفال : خرقة توضع تحت الرحى لاستقبال ما يطحن ، اللهوة: القبضة من الحب.
(٤) توصف الرماح بالسمرة لذبولها ، وقنا الخطى : نسبة إلى الخط وهى بلدة كانت على ساحل البحرين تشتهر بصناعة القنا ، اللدن : المرنة . البيض : السيوف .
(٥) الأماعز : الأراضى الصلبة ، الوسوق : جمع وسق وهو الحمل .
(٦) يبين : يتضح .
(٧) العماد : جمع عمود، خرت: سقطت، الأحفاض : متاع البيت ، يقصد بذلك رحلة الحى للحرب .
(٧) الوتر : الثأر ، ونجذ : نقطع .

كأَن سيوفنــا فينــا وفيهم مخاريقٌ بأَيدى لاعبينا(١)
كأَن ثيابنــا منــا ومنهم خُضِبْن بأُرْجوانٍ أَو طُلينا(٢)

والمعلقة جميعها صياح شديد على هذا النحو الذى يرفع فيه قبيلته تغلب على كل من حولها فى نجد شرقيها وغربيها ، فكل من حدثته نفسه منهم بقتالها كان مصيره الهلاك والدمار ، ويقول إن حياتهم سلسلة من الحروب ، ويصف أسلحتهم التى يذيقون بها أعداءهم كئوس الموت المرة ، ومدّ فخره إلى قبائل معد كلها بما يجذون من رءوس شجعانها ، واعترف لأعدائه بشجاعتهم ، فالسيوف فى أيديهم وأيدى أعدائهم كأنها مخاريق بأيدى لاعبين ،وهم يقتلون فيهم ، كما يُقْتَل من قومه ، فثيابهم جميعاً ملطخة بالدماء . وليس عمرو وحده الذى يصف خصومه بالشجاعة ، فهناك كثيرون اشتهروا بهذا الإنصاف ، وتسمى قصائدهم المنصفة وفى الأصمعيات أمثلة منها طريفة ،من مثل قول المفضَّل النُّكْرى يصف موقعة بين عشيرته من بنى نكرة بن عبد القيس وعشيرة عمرو بن عوف ، يقول (٣) :

كأَن هَزيزنا يوم التقينا هَزيزُ أَباءَةٍ فيها حريقُ(٤)
وكم من سيدٍ منــا ومنهم بذى الطَّرْفاء منطقهُ شَهيقُ(٥)
فـأَشبعْنا السباع وأَشبعــوها فراحتْ كلهــا تَئِقٌ يَفُوقُ(٦)
فأَبكيْنــا نسـاءَهمُ وأَبكوا نساءً ما يسوغُ لهن رِيق
يُجاوبْنَ النِّياحَ بكل فَجْرٍ فقد صَحِلَتْ من النَّوْح الحُلوقُ(٧)

وطبيعى وهم يصورون هذه الملاحم أن يصفوا أسلحتهم على نحو ما تقدم عند عمرو بن كلثوم ، وهناك كثيرون يطيلون فى وصفها ووصف الخيل التى يركبونها فى اللقاء . وممن اشتهر بينهم بوصف الأسلحة أوس بن حَجر فى لامية له مشهورة أطال فيها فى تصوير سيفه ورمحه ودرعه وقوسه ، ويلقانا هذا الوصف كثيراً فى المفضليات

---

(١) المخاريق : المناديل تلف ويلعب بها ، لعبة كانت عندهم .
(٢) الأرجوان : صبغ أحمر .
(٣) الأصمعيات ص ٢٢٣ وما بعدها .
(٤) الهزيز : الصوت ، الأباءة : أجمة الغاب .
(٥) ذو الطرفاء : موضع المعركة .
(٦) تئق : ممتلئ ، يفوق : يأخذه البهر .
(٧) صحلت : بحت .

والأصمعيات[١] ، كما يلقانا معه وصفهم للخيل وكانوا يلقبونها بالأسماء ، وممن اشتهر فى هذا الوصف أبو دُؤاد الإيادى وزيد الخيل وعمرو بن معد يكرب وغيرهم من فرسانهم المعدودين ، وتزخر المفضليات والأصمعيات بهذا الوصف عند من سميناهم وغيرهم .

وفى الحق أن هذا اللون من شعرهم ليس شعر قوة وبطولة فحسب ، فقد تغنوا فيه بكريم الشيم وكل ما اتخذوه مثلا رفيعاً لهم فى حياتهم وسلوكهم ، من كرم ووفاء وغير كرم ووفاء ، فعلى نحو ما صوروا فيه بطولة وشجاعة نادرة صوروا كثيراً من الفضائل الحميدة على شاكلة ما نقرأ فى ميمية ربيعة بن مقروم إذ يقول [٢] :

وإن تسأَلينى فإنى امـرؤٌ   أُهين اللئيمَ وأَحْبُو الكريما

وأَبنى المعالىَ بالمكرُماتِ   وأُرْضى الخليل وأَرْوِى النديما

ويحمد بَذْلى له مُعْتفٍ   إذا ذمَّ من يَعْتَفِيه اللئيما[٣]

وأَجْزى القُروضَ وفاءً بهـا   ببُؤْسَى بَئِيسى ونُعْمى نَعيما[٤]

وقومى فإنْ أَنت كذَّبْتنى   بقولىَ فاسئلْ بقومى عليما

يُهينون فى الحق أَموالهم   إذا اللَّزَباتُ انْتحَيْنَ المُسِيما[٥]

طوالُ الرماحِ غداة الصباحِ   ذَوُو نَجْدَةٍ يمنعون الحريما

وهو يذكر فى البيت الثانى أن من شيمه أن يروى نديمه بالخمر ، ويكثر فى حماستهم تمدحهم بأنهم يسقون ندماءهم الخمر وأنهم يأخذون حظهم من الغناء وسماع القيان ولعب الميسر [٦] ، وكأن فى ذلك إعلاناً عن كرمهم وبذلهم على نحو ما تقدم فى غير هذا الموضع عن طرفة وفترته . وربما كان ذلك هو أصل ذكر الخمر ووصفها فى الشعر الجاهلى على نحو ما هو معروف عن الأعشى وعدى بن زيد

---

(١) انظر المفضليات ص ٩٥ وما بعدها ورقم ٦٤ و ٧٥ والأصمعيات رقم ٦٢ و ٦٥ .

(٢) المفضليات ص ١٨٣ .

(٣) المعتفى : السائل فى غير طلب .

(٤) البؤس والبئيسى بمعنى ، يقول يجزى بالسيئة مثلها وكذلك الحسنة .

(٥) اللزبات : الشدائد ، انتحى : قصد ، المسيم : الكثير الإبل والغنم ، اشتقه من السائمة .

(٦) المفضليات رقم ١١٣ ، ١٢٠ .

العِبادى ، فقد تحولا بها من هذا الباب إلى وصفها فى ذاتها وصفاً طريفاً .

ومن الموضوعات التى تتصل اتصالا واضحاً بالحماسة الرثاء ، فقد كانوا يرثون أبطالهم فى قصائد حماسية يريدون بها أن يثيروا قبائلهم لتأخذ بثأرهم [١] ، فكانوا يمجدون خلالهم ويصفون مناقبهم التى فقدتها القبيلة فيهم ، حتى تنفر إلى حرب من قتلوهم . وكان يشرك الرجال فى ذلك النساء ، فقد كن ما يزلن يَنُحْنَ على القتيل حتى تثأر القبيلة له . ويظهر أنه كان يشيع عندهم ضرب من (التعديد) الذى نعرفه فى مصر ، فما تزال امرأة تنوح ويرد عليها صواحبها ، وقد حدثنا الرواة أن الخنساء كانت تخرج إلى عكاظ فتندب أخويها صخراً ومعاوية ، وكانت هند بنت عتبة أم معاوية تحكيها نائحةً أباها [٢] . وفى هذا الخبر ما يدل على أن النساء لم يكن يندبن موتاهن يوماً أو أياماً ، بل كن يُطلن ذلك إلى سنين معدودات ، ويقال إنهن كن يحلقن شعورهن ويلطمن خدودهن بأيديهن وبالنعال والجلود ، وكن يصنعن ذلك على القبر وفى مجالس القبيلة والمواسم العظام . ولعل فى حلق رءوسهن ما يجمع بينهن وبين الهجائين كما قدمنا وما يشهد بأن هذا الرثاء إنما هو تطور عن تعويذات كانت تقال للميت وعلى قبره حتى يطمئن فى لحده . وبمر الزمن تطور الرثاء عندهم إلى تصوير حزنهم العميق إزاء ما أصابهم به الزمن فى فقيدهم ، فتلك التعويذات أصبحت وخاصة عند نسائهم بكاء ونواحاً وندباً حارًّا . ونجد بجانب هذا الندب ضرباً من الرثاء يقوم على تأبين الميت والإشادة بخصاله وصفاته ، وما نشك فى أن الصورة القديمة لهذا التأبين هى تلك النقوش التى عثروا عليها فى أنحاء مختلفة من الجزيرة ، وقد تحدثنا عنها فيما أسلفنا ، وكانوا يكتبون فيها أسماءهم وألقابهم وبعض أعمالهم تمجيداً لذكراهم وتخليداً لها ، وتحولت هذه الصورة الساذجة إلى هذا التأبين الواسع الذى نجده عند الجاهليين . وقد ذهبوا يضمون إليه صورة من العزاء والدعوة إلى الصبر على الشدائد ، فالموت كأس دائرة على الجميع ، ولا مردّ لحكم القضاء .

وقام بالقسط الأكبر من ندب الميت وبكائه النساء ، فكن يشققن جيوبهن عليه ويلطمن وجوههن ويقرعن صدورهن ويعقدن عليه مأتماً من العويل والبكاء ، ومن خير ما يصور ذلك كتاب « مراثى شواعر العرب » للويس شيخو ، وسابقتهن

---

(١) المفضليات رقم ١٠٩ .

(٢) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٤/٢١٠ .

التى لا تنازَعُ هى الخنساء ، فقد قُتل أخوها معاوية فى بعض المعارك ، فارتفع نشيجها وبكاؤها عليه ، وقُتل أيضًا أخوها صخر فاتسع الجرح والتاعت لوعة شديدة ، ومن رائع ما ندبت به صخراً :

قَذًى بعينكَ أم بالعين عُوَّارُ ... أم ذرَّفَتْ أن خلتْ من أهلها الدارُ[١]

كأَن عينى لذكراهُ إذا خَطرتْ ... فَيْضٌ يسيل على الخدَّين مِدْرارُ[٢]

فالعين تبكى على صَخْرٍ وحقَّ لها ... ودونه من جديد الأَرض أَسْتارُ[٣]

تبكى خُناسُ وماتنفكُّ ماعَمَرَتْ ... لها عليه رنينٌ وهْى مِقْتَارُ[٤]

بكاء والهةٍ ضَلَّتْ أَليفتَها ... لها حَنينان: إصْغارٌ وإكبارُ[٥]

ترْعَى إذا نَسِيَتْ حتى إذا ذكرتْ ... فإنما هى إقبالٌ وإدبارُ

وإن صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بهِ ... كأَنه عَلَمٌ فى رأْسه نارُ[٦]

ولعل من الطريف أن بعض شعرائهم كان إذا أحسّ داعى الموت ندب نفسه ووصف ما يصنعه به أهله بعد الموت من تَرْجيل شعره ووضعه فى مدارج الكفن، ثم لَحْده ودفنه، وتنسَبُ للممزّق العبدى أو ليزيد بن الخذّاق قطعة يصور فيها هذا المصير الذى ينتظره ، يقول فيها [٧] :

هل للفتى من بنات الدهر من واقِ ... أم هل له من حِمام الموت من راقِ[٨]

قد رجّلونى وما رُجِّلْتُ من شَعَث ... وألبسونى ثيابًا غير أَخْلاقِ[٩]

وأَرسلوا فتيةً مِن خيرهم حسبًا ... ليُسْندوا فى ضريح التُّرْب أَطْباقِ[١٠]

---

(١) العوار : الرمد ، ذرفت : قطرت قطراً متتابعا .

(٢) مدرار : كثير .

(٣) الأستار : الأحجار ، وكنت بجديد الأرض عن أنه مات حديثاً .

(٤) خناس : الخنساء ، مقتار : ضعيفة .

(٥) الإصغار : خفض الصوت بالحنين ، والإكبار : رفعه .

(٦) العلم : الجبل .

(٧) المفضليات : ص ٣٠٠ .

(٨) بنات الدهر : أحداثه ، حمام الموت : دنوه.

(٩) الترجيل : تسريح الشعر ، الأخلاق : الممزقة .

(١٠) الأطباق : المفاصل .

وكانوا يكثرون من تأبين من يموتون منهم فى ميادين الحرب ، وقد يضمنون هذا التأبين هجاء لاذعاً لخصومهم وفخراً بعشيرتهم ومآثرها وأيامها ، على نحو ما نجد فى قصيدة المرقش (١) :

هل بالديار أن تجيب صَمَمْ   لو كان رسْمٌ ناطقًا كلَّمْ

فقد بدأها بالغزل وخرج منه إلى الرثاء ، فمديح بعض ملوك الغساسنة ، ثم فخر بقومه ، وهجا أعداءهم . وقد يجعلون القصيدة خالصة للتأبين ، على نحو ما صنع دُرَيْد بن الصِّمة فى مرثية أخيه عبد الله (٢) .

أَرثَّ جَديدُ الحَبْلِ من أُمِّ مَعْبَدِ   بعاقبةٍ وأَخلفتْ كلَّ موعِدِ

وقد استهلها على هذه الشاكلة بالغزل ، ثم مضى يرثى أخاه مصوراً مصرعه ووله به وجزعه ومتحدثاً عن خلاله الحميدة من الشجاعة والجود والمضاء والصبر والحزم .

ولم يؤبنوا أبطالهم من القتلى فحسب ، بل فسحوا فى مراثيهم لتأبين أشرافهم وإن ماتوا حتف أنوفهم ، فخراً بهم واعتزازاً بمناقبهم وأعمالهم ومآثرهم . وقد نجدهم يستنزلون لهم الغيث من السماء حتى تصبح قبورهم رياضاً عطرة . ومن رائع تأبينهم مرثية أوس بن حَجر لفَضالة بن كَلَدَة الأسدى ، وفيها يقول (٣) :

أيَّتُها النفسُ أَجْمِلِى جَزَعَا   إن الذى تحذرينِ قد وقعا
إن الذى جمَّع السماحة والنَّ   جْدَةَ والحزمَ والقُوَى جُمَعا
الألمعىّ الذى يظنُّ لك ال   ظنَّ كأنْ قد رأى وقد سمعا (٤)
المخلفَ المتلفَ المرزَّأَ لم   يُمْتَعْ بضعفٍ ولم يَمُتْ طَبِعَا (٥)
أوْدى وهل تنفع الإشاحةُ من   شىء لمن قد يحاول البِدَعَا (٦)

(١) المفضليات ص ٢٣٧ .
(٢) الأصمعيات ص ١١١ ، أرث : أخلق . بعاقبة : بآخرة .
(٣) ديوان أوس بن حجر ص ٥٣ والأغانى ١١/٧٤ .
(٤) الألمعى : حاد الذكاء ، يريد أنه يحدس الأمور فلا يخطىء وأنه فطن صادق الظن جيد الفراسة .
(٥) المرزأ : الذى تصيبه الرزايا فى ماله لكرمه ، يمتع : يصاب ، الطبع : اللئيم .
(٦) أودى : مات ، الإشاحة : الجد فى طلب الشىء ، البدع : الأمور الغريبة .

وكانوا أحياناً حين يذكرون الموت يتأسون ويتعزون عنه بأنه حوض لا بد من وروده وقد سبقتهم إليه الأجيال الماضية من ملوك وغير ملوك [١] :

وعلى هذا النحو ألمَّ الشاعر الجاهلى بجوانب الرثاء الثلاثة من الندب والتأبين والعزاء ، وكان رثاؤه غالباً يتعلق بأفراد وقلما تعلق بمجموعة من الفرسان ، ومن هذا القليل قصيدة أصمعية لأبى دؤاد الإيادى يرثى فيها من أوْدَى من شباب قبيلته وكهولهم ، ونراه يقول فى مطلع رثائهم [٢] :

لا أَعدُّ الإِقتارَ عُدْمًا ولكنْ ... فَقْدُ مَنْ قد رُزِئْتُهُ الإِعْدامُ

ويستمر يبكى فيهم الرءوس العظام وخلالهم من التأنى والرفق والكرم وطيب الأرومة وشجاعة الأسْد وما يخلط فرط حِدَّتهم من أحلام وعقول راجحة ، ويقول إنهم أصبحوا هاماً وصَدى ، إذ كانوا يعتقدون أن عظام الميت تتحول هامة تطير وصَدى ما يزال يهتف اسقونى :

سُلِّطَ الدهرُ والمَنُونُ عليهم ... فلهم فى صَدَى المقابر هامُ

فعلى إثرهم تَسَاقَطُ نفسى ... حسراتٍ وذكرهم لى سَقام

وبجانب هذا الرثاء كان عندهم مديح واسع يتمدحون فيه بمناقب قبائلهم وسادتها . وكانوا كثيراً ما يمدحون القبيلة التى يجدون فيها كرم الجوار متحدثين عن عزتها وإبائها وشجاعة أبنائها وما فيهم من فتك بأعدائهم وإكرام لضيوفهم ورعاية لحقوق جيرانهم [٣] .

وكان بعض السادة تمتد مآثرهم إلى من حولهم من القبائل فكان يتصدَّى لهم شعراؤها يمدحونهم لمكرماتهم التى أدَّوها ، كأن يفتكّوا أسيراً، على نحو ما صنع خالد بن أنمار بابن أخت المثقب العبدى ، فكان جزاؤه منه مدحة جيدة ، يقول فيها [٤] » :

---

(١) المفضليات ص ٢١٧ .

(٢) الأصمعيات ص ٢١٥ .

(٣) المفضليات ص ٣٠٥ ، ٣٧١ .

(٤) المفضليات ص ٢٩٤ ، مترع : ملآن . ربعى الندى : نسب نداه إلى الربيع كناية عن كثرته وإمراعه ، والندى : الكرم . ويقول إن مجلسه غير لطم فهو لا يتلاطم فيه ، إنما هو مجلس سكون وحلم .

مُتْرَعُ الجَفْنَةِ رِبْعِيُّ النَّدَى حَسَنٌ مجلسُه غيرُ لُطَمْ

ولا نصل إلى أواخر العصر الجاهلي حتى يتخذ الشعراء المديح وسيلة إلى الكسب ، فهم يتقدمون به على السادة المبرزين وملوك المناذرة والغساسنة يمدحونهم وينالون جوائزهم وعطاياهم الجزيلة . وأخذوا فى أثناء ذلك يعنون بهذه القصائد عناية بالغة حتى تحقق لهم ما يريدون من التأثير فى ممدوحيهم . واشتهر بذلك زهير والنابغة وحسان ابن ثابت ، أما زهير فاختص بأشراف قومه ، وأما حسان فاختص بالغساسنة ، ولعلقمة بن عَبَدة فيهم مفضلية بديعة نظَمها فى الحارث الأصغر يتشفع لأخيه وقد وقع فى يديه أسيراً [١] . أما النابغة فخص النعمان بن المنذر بمدائحه ، وتصادف أن وقع بعض قومه أسرى فى أيدى الغساسنة ، فأقبل عليهم يمدحهم ويتشفع فيهم ، مما كان سبباً فى غضب النعمان بن المنذر عليه ، وسرعان ما أخذ يقدم له اعتذارات هى من أروع ما دبَّجه الجاهليون

ومعنى ذلك أن الاعتذار نشأ نشوءاً من المديح وفى ظلاله ، وإن كانت تتداخل فيه عاطفة الخوف مع عاطفة الشكر والرجاء . ومما ينحو نحو الاعتذار ما ظهر عندهم من فنون عتاب كان ينشئه بعض الشعراء ملامة لما قد يصيبه من أذى الأقارب على نحو ما نجد عند ذى الإصبع العَدْوانى [٢] والمتلمِّس [٣] .

ولكن عتابهم واعتذارهم قليل ، أما المديح فكثير كثرة مفرطة ، إذ رحل به الشعراء إلى الملوك والأشراف يمتارون به ، ويرجعون إلى أهليهم بِجُجْر الحقائب . ويظهر أن المناذرة خاصة كانوا يتخذونه وسيلة للدعاية لهم فى القبائل ، فكثر الشعراء حولهم وأخذ يموج بهم بلاطهم منذ عمرو بن هند ، فقد قصده كثيرون من أمثال المثقب العبدى ، الذى لجأ إليه يمدحه بعد إيقاعه بقبيلته ، وممن رحل إليه المتلمس والممزق العبدى وطرفة والمسيب بن علس . وكان النعمان بن المنذر ممدحاً للشعراء ومن بديع ما نُظم فيه قول حُجْر بن خالد [٤] :

سمعتُ بفعل الفاعلين فلم أَجِدْ كفعل أَبى قابوسَ حزمًا ونائلا

---

(١) المفضليات ص ٣٩٠ وما بعدها .

(٢) انظر قصيدته فى المفضليات برقمى ٢٩ ، ٣١ .

(٣) الأصمعيات رقم ٩٢ .

(٤) الحيوان ٣ / ٥٨ .

يُساقُ الغَمامُ الغُرُّ من كل بلدةٍ إليك فأضحى حول بيتك نازلا

فإن أنت تهلك يهلك الباعُ والنَّدَى وتُضْحى قلوصُ الحمدجَرْباءحائلا [1]

فلا ملكٌ ما يبلغنَّك سَعْيُه ولا سوقةٌ ما يمدحنَّك باطلا

وانتهى هذا الفن من فنون شعرهم إلى الأعشى فأصبح حرفة خالصة للمنالة والتكسب ، إذ لم يترك ملكاً ولا سيداً مشهوراً فى أنحاء الجزيرة إلا قصده ومدحه وفخّم شأنه معرضاً بالسؤال .

وإذا تركنا المديح إلى الغزل وجدناه موزعاً بين ذكريات الشاعر لشبابه ووصفه للمرأة ومعروف أن أول صورة تلقانا فى قصائدهم هى بكاء الديار القديمة التى رحلوا عنها وتركوا فيها ذكريات شبابهم الأولى ، وهو بكاء يفيض بالحنين الرائع ، وموبّنا أنهم يردونه إلى شاعر قديم سبق امرأ القيس هو ابن خِذام ، وربما كان فى ذلك ما يدل على أن هذا الجزء من غزلهم يسبق فى قدمه الأجزاء الأخرى فيه .

ونراهم يقفون عند المرأة فيصفون جسدها ، ولا يكادون يتركون شيئاً فيها دون وصف له ، إذ يتعرضون لجبينها وخدها وعنقها وصدرها وعينها وفمها وريقها ومعصمها وساقها وثديها وشعرها ، كما يتعرضون لثيابها وزينتها وحليها وطيبها وحيائها وعفتها [2] ، وقد يتعرضون لبعض مغامراتهم معها ، وهى مغامرات تحوَّل بها بعض الرواة إلى قصص غرامية على نحو ما قصّوا عن حب المرقش الأكبر لأسماء والأصغر لفاطمة بنت المنذر وعن حب المنخَّل اليشكرى للمتجردة زوج النعمان ، وله قصيدة رائعة رواها الأصمعى وهى تجرى على هذا النمط [3] :

ولقد دخلتُ على الفتا ةِ الخِدْرَ فى اليوم المَطيرِ

الكاعبِ الحسناءِ تَرْ فل فى الدِّمَقْسِ وفى الحريرِ

فدفعتُهـــا فتدافعتْ مَشْىَ القطاةِ إلى الغَديرِ

---

(١) الباع : الشرف ، الندى : الكرم . القلوص : الناقة الشابة . الحائل : التى حمل عليها فلم تلقح .

(٢) المفضليات رقم ٢٠ .

(٣) الأصمعيات رقم ١٤ .

ولَثَمْتُهــا فتنفَّسَتْ كتنفُّس الظَّبْى البَهِيرِ (١)

فدنتْ وقالت يا مُنَى خَلِّ ما بجسمك من حَرورِ

ما شفَّ جسمى غير حُبِّ لكِ فاهدئى عنى وسيرى

و وقف الشعراء طويلا يصورون حبهم للمرأة وما يذرفون من دموعهم على شاكلة قول بشر بن أبى خازم (٢) :

فظللتَ من فَرْط الصَّبابة والهوى طَرِفًا فؤادُك مثلَ فعل الأَيْهَمِ (٣)

وكانت ذكراها لاتزال تلم بهم ، ومن ثَمَّ أكثروا الحديث عن طيفها وما يثيره فى أنفسهم من تباريح الحب (٤) ولهم فى وصف هذه الذكرى وماتصنع بهم شعر كثير يصفون فيه صبابتهم على شاكلة قول المرقِّش الأصغر (٥) :

صحا قلبُه عنها ، على أن ذِكْرَةً إذا خطرتْ دارتْ به الأَرضُ قائما

وكانوا كثيراً ما يصفون ظُعنها ، وهى ترحل فى الجزيرة من موضع إلى موضع ، وكانت الرحلة أساساً فى حياتهم ، فهم يرحلون وراء منابت الغيث ، وينتقلون معها حيث حلت ، وفى معلقة زهير وصف طويل لهذه الظعن ، وربما فاقه فى هذا الوصف المثقِّب العبدى فى قصيدته (٦) :

أَفاطمُ قبل بَيْنِكِ مَتِّعينى ومَنْعُكِ ما سأَلتُ كأَن تَبينى

فإنى لو تخالفنى شِــمالى خلافَك ما وصلتُ بها يَمينى

وقد مضى يصف ظعنها ويتتبع سيرها وما تصنع هى وصواحبها فى قلوب الرجال وهن يظهرن بكلَّة ويسدلن أخرى ويرسلن براقعهن على وجوههن وذوائبهَن على ظهورهن :

---

(١) البهير : من البهر وهو ما يعترى الإنسان والحيوان عند السعى الشديد من النهج وتتابع الأنفاس .

(٢) المفضليات ص ٣٤٦ .

(٣) طرفاً : يطرف هنا وهناك ، الأيهم : المجنون .

(٤) المفضليات ص ٣٩ ، ١١٣ والأصمعيات ص ٥٧ ، ٢٤٦ .

(٥) المفضليات ص ٢٤٥ .

(٦) المفضليات ص ٢٨٨ .

أَرَيْنَ محاسنًا وكَنَنَّ أُخرى ‍ ‍ ‍ ‍ من الأَجْياد والبشَرِ المصونِ

ويقول إنهن كن يمددن أعناقهن مستشرفات للنظر وصاحبته بينهن تفوقهن حسناً وجمالا. وكن كطبيعة النساء فى كل عصر ينصرفن عن الشَّيب ومن قلّ ماله[1] . ولذلك كثر عتابهم معهن، وخاصة من حيث ما يأخذنه عليهم من البذل الذى يذهب بأموالهم ، ودائماً نراهم يحتجون عليهن بأن خلود المرء فى بذله لا فى ثرائه[2] . وقد يصورون فى تعلقهم بالمرأة ضربًا من المتاع الحسى ، على نحو ما يصور ذلك طرفة فى معلقته وكذلك امرؤ القيس، ومرد ذلك إلى ضرب شاع عندهم من الفتوة، فهم يتمدحون بأنهم يغالون من المرأة ما يريدون ، وكانوا وثنيين ولم يكن هناك دين يردعهم . على أن منهم من كان يتسامى فى غزله حتى يمكن القول بأن الغزل العذرى له أصول فى الجاهلية عند عنترة وأضرابه .

ومن المؤكد أن المرأة الحرة لم تكن ممتهنة عندهم، بل كانت فى المكان المصون ، وكان الشاعر يستلهمها شعره ، ولذلك كان يضعها فى صدر قصيده ، ونحس عند كثيرين منهم، وخاصة فرسانهم من مثل عنترة، أنهم يقدمون مغامراتهم فى الكرم وفى الحرب لها لينالوا حبها ، وكان أكثر ما يشجيهم ويبعث الموجدة فى قلوبهم أن تؤسر وتسبى ، فكان لا يقر لهم قرار إلا أن يعودوا بها مكرمة إلى ديارهم .

ومن موضوعات شعرهم المهمة الوصف ، وقد وصفوا كل شيء وقعت عليه أعينهم فى صحرائهم ، وفى العادة يذكرون ذلك بعد غزلهم وتشبيبهم إذ يخرج الشعراء إلى وصف رحلاتهم فى الصحراء، فيتحدثون عن قَطْعهم للمفاوز البعيدة ، فوق إبلهم ، ويأخذون فى وصفها وصفاً مسهبا على نحو ما هو معروف عن طرفة فى وصفه لناقته بمعلقته وقد كاد أن لا يترك فيها عضواً ولا جزءاً دون وصف وتصوير ، والمفضليات والأصمعيات تزخر بأحاديثهم عنها ومقدار ما كانوا يرون فيها من جمال وكانوا يشبهونها بالقصور ويشبهون قوائمها بالأعمدة وقد يشبهونها بالسفن والقناطر ويشبهون قوائمها بجذوع الطلح ويديها بالصخر الغليظ أو بيدى السابح ، وصوتها

---

(١) المفضليات ص ٣٥ ، ١٨٦، ٤١٨. ‍ ‍ بيت ٤ وما بعده ورقم ٥٩ ورقم ١٠٤ بيت ١١ ، ١٢ .

(٢) المفضليات ص ١١٨ ، ص ١٢٥ .

بصوت القصب وخفافها بالمطارق . وقد يشبهونها بالجبل ويشبهون صدرها بالطريق . وكانوا يشبهونها بكثير من الحيوان مثل الظليم والثور وحمار الوحش ، وحينئذ يستطردون إلى وصف هذه الحيوانات وما يكون من عراك بينها وبين كلاب الصيد[١] ، يقول الجاحظ : « ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب هى التى تقتل بقر الوحش ، وإذا كان الشعر مديحاً وقال كأن ناقتى بقرة من صفتها كذا أن تكون الكلابُ هى المقتولة . ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها . وأما فى أكثر ذلك فإنها تكون هى المصابة والكلاب هى السالمة والظافرة وصاحبها الغانم »[٢] . وكأنهم كانوا يتخذون قتل الكلاب فى المديح رمزاً لأعداء الممدوح ، وكانوا فعلا يشبهونهم بالكلاب[٣] .

وعلى نحو ما أكثروا من وصف الإبل أكثروا من وصف الماعز كما أكثروا من وصف الخيل وشبهوها بضروب من السباع المنعوتة بالمخالب وطول الأظفار . ولامرئ القيس قطعة بديعة بمعلقته يصف فيها فرسه الذى اتخذه للصيد ، وفيها يقول :

له أَيطلا ظَبْيٍ وسـاقا نعامَةٍ ... وإرْخاءُ سِرْحانٍ وتقْريب تَتْفُلِ[٤]

يقول أبو عبيدة : « ومما يشبه خلقه من خلق النعامة طول وظيفها[٥] وقصرُ ساقيها وعُرْى نِسْيِيها[٦] ومما يشبه من خلقه خلق الأرنب صغر كعبيها ، ومما يشبه من خلقه خلق الحمار الوحشى غلظ لحمه وظمأ فصوصه وسَراته[٧] وتمحُّص[٨] عصبه وتمكن أرساغه[٩] وعرض صَهوته[١٠] .. ومما يشبه من خلقه خلق الكلب هَرَتُ[١١] شِدقه وطول لسانه وكثرة ريقه وانحدار قَصِّه[١٢] وسبوغ ضلوعه وطول ذراعيه ورُحْب

---

(١) انظر فى ذلك معلقة لبيد والمفضليات رقم ١٧ بيت ٦٤ وما بعده حيث وصف مزرد صائداً مسمياً كلابه الستة .

(٢) الحيوان ٢ / ٢٠ .

(٣) الأصمعيات ص ١٣٠ .

(٤) أيطلا الظبى : خاصرتاه ، الإرخاء : سير السرحان وهو الذئب . والتتفل : الثعلب ، وتقريبه : قفزه ووثبه .

(٥) الوظيف : مستدق الساق والذراع .

(٦) النسى : عرق فى الساق .

(٧) ظمأ هنا : ضمور ، الفصوص : ملتقى كل عظمتين ، سراته : أعلاه .

(٨) تمحص : شدة .

(٩) الرسغ فى الحيوان : المستدق بين الحافر وموصل الوظيف من اليد والرجل .

(١٠) الصهوة : مقعد الفارس على الفرس .

(١١) هرت : اتساع .

(١٢) قصه : صدره .

جلده ولُحوق[١] بطنه »[٢] . وكثيراً ما وصفوا كلاب الصيد وسموها أسماء كثيرة . ولأبى زُبَيْد الطائى قصيدة طريفة يصور فيها معركة بين كلب له وأسد ، وقد حطمه الأسد حطماً[٣] ، وكما ذكروا الأسد ووصفوه وصفوا الذئب كقول طُفَيْل الغَنَوى وقد شبّه فرسه بذئب[٤] :

كسِيدِ الغَضا العادى أَضَلَّ جِراءَهُ   على شَرَفٍ مُسْتَقْبِلَ الريح يَلْحَبُ[٥]

وذكروا الهر والديك والخنزير فى وصفهم لنشاط الناقة فقال أوس بن حجر[٦] :

كأن هِرًّا جَنيبًا عند مَغْرِضها   والتفَّ ديكٌ برجليها وخِنْزيرُ

وقد ذكروا كثيراً الضباع والرخم والعقبان والنسور والغربان وأكلها القتلى[٧] كما ذكروا الُحبارى والضبّ واليربوع والجرذان والجراد والأرانب والضفادع والوعول أو المعز الجبلية . وتعرضوا كثيراً لوصف الحيات والأفاعى ، ويشبه عنترة نفسه إزاء بعض أعدائه بأسود قد علق فيه نابه ، ويقول فى بعض وصفه له[٨] :

رَقُود ضُحَيَّاتٍ كأن لسانه   إذا سمع الأَجراسَ مكحالُ أَرْمَدَا[٩]

وعلى نحو ما وصفوا الحيوان والزواحف وصفوا الطير ، وكثيراً ما يستطردون من وصف فرسهم بالعُقاب إلى وصفها[١٠] ، وكانوا يذكرون الغراب كثيراً ويتشاءمون به ، وفيه يقول عنترة[١١] :

ظَعَنَ الذين فراقَهم أَتوقَّعُ   وجرى بِبَيْنِهِمُ الغرابُ الأَبْقَعُ[١٢]

---

(١) لحوق : ضمور .

(٢) الحيوان ١/٢٧٥ .

(٣) الحيوان ٢/٢٧٤ والأغانى ١١/١٣٢ .

(٤) الحيوان ٤/٤١٦ .

(٥) السيد : الذئب، والغضا : نبت ، وذئاب الغضا أخبث الذئاب، أضل جراءه : فقد أولاده فهو يسرع فى عدوه ، يلحب : يمر مرا سريعاً .

(٦) الحيوان ١/٢٧٧ وديوان أوس ص ٤٢ جنيباً : يجنبها ، مغرضها : موضع الحزام منها، وإنما ذكر الهر لأنه يجمع العض بالناب والخمش بالمخالب، يصفها بشدة تفزعها لفرط نشاطها .

(٧) المفضليات ص ٣٠٤ وانظر ص ٢٥٢ والأصمعيات ص ١١٩ ، ١٧٤ ، ٢٣٤ والحيوان ٧/٢١ .

(٨) الحيوان ٤/٣٠٨ .

(٩) رقود الضحى ، ذاك من شأن الأفاعى تنام فى الضحى وتستيقظ فى الظلام ، والأجراس : الأصوات، مكحال الأرمد : ما يكتحل به ، جعل لسانه كالمكحال فى دقته وسواده .

(١٠) الحيوان ٦/٣٣٩ وما بعدها .

(١١) الحيوان ٣/٤٤٢ ومختار الشعر الجاهلى ص ٣٩٢ .

(١٢) الأبقع : الأسود .

حرق الجناح كأنَّ لَحْيَيْ رأسه　　جَلمانِ بالأَخبار هَشٌّ مولع[١]

إن الذين نَعَبْتَ لى بفراقهم　　هم أَسهروا ليلى التِّمامَ فأَوجعوا[٢]

وكانوا يذكرون القطا والجراد والعصافير والنمل والعنكبوت والحمام ونوْحَه وما يهيج فيهم من شوق وشَجا . وقد أفاض الجاحظ بكتابه الحيوان فيما جاء على ألسنتهم من وصف ذلك كله وتصويره. وينبغي أن لا نعتد بما جاء فيه من قصص أسطورى عن طوق الحمامة والديك والغراب والهدهد والحيات مما ساقه على لسان أمية بن أبي الصلت، فقد حُمل عليه شعر كثير وضعه القصاصون والرواة . وقد استرعى الجاحظ كثرةُ ما جاء على ألسنتهم من وصف فلواتهم[٣] ووصف البرد وقوارصه والحر وهواجره »[٤] وما يجرى فى ديارهم أحياناً من خصب بعد مطر غزير[٥] ، وفى معلقة امرئ القيس قطعة طويلة يصف فيها سيلا عَرِماً نزل فى مواطن بنى أسد بالقرب من تيماء ، ويتردد هذا الوصف فى شعره وشعر شاعرهم عَبيد بن الأبرص .

وكما أكثروا من ذكر الخصب ورطوبة النبات ولدونة الأغصان وكثرة الماء أكثروا من وصف الجدب. وطالما وصفوا وعوثة الصحراء ومخاوفهم فى لياليها من الجن والشياطين . وكادوا لا يتركون شيئاً يتصل بهم إلا وصفوه ، فوصفوا الرعى والمراعى ، ووصفوا الأسلحة والحروب ، ووصفوا الخمر وأوانيها وسقاتها ومجلسها وأثرها ، وكانوا يُقحمونها كما قدمنا فى حماستهم ، ويفتخرون بأنهم يسقونها الصحاب والرفاق على صوت القيان ومع نَحْر الجزور ، يقول ثعلبة بن صُعَيْر فى حماسية له[٦] :

أَسُمَىَّ ما يُدْريك أَنْ رُبَّ فِتْيَةٍ　　بيض الوجوه ذوى نَدًى ومآثرِ

باكرْتهم بسِباء جَوْنٍ ذارعٍ　　قبلَ الصباح وقبل لَغْوِ الطائر[٧]

---

(١) حرق : أسود ، وشبه لحييه بالجلمين لأنه يخبر بالفرقة كما يقطع الجلمان أو المقراضان.

(٢) نعب : صاح ، ليلى التمام : الشديد الطول .

(٣) الحيوان ٦/٢٥٥ وانظر الأصمعيات رقم ٦١ بيت ٢٩ وما بعده والمفضليات رقم ٧٥.

(٤) الحيوان ٥/٧٣ ، ٥/٧٨ وما بعدها وانظر المفضليات رقم ١٢٠ بيت ٥٠ ، ٥١.

(٥) الحيوان ٣/١٢٠ والمفضليات ص ٣٣٥.

(٦) المفضليات ص ١٣٠ .

(٧) السباء : اشتراء الخمر، الجون : الزق الأسود. الذارع : المختلط بالماء .

فقَصَرْتُ يومهمُ برنَّةِ شارِفٍ   وسماع مُدْجِنَةٍ وجَدْوى جازرِ[١]

وهذه الموضوعات التى قدمناها جميعاً كانت تتداخل فى القصيدة الطويلة وكان يتداخل معها ضرب من الحكم والمعانى التهذيبية، فالشاعر ما يزال يُدْلى فى تضاعيف قصيدته بتجاربه، وقد يفرد لها مقطوعات، إذا اتجه بها إلى تقديم وصية لبنيه، على نحو ما صنع عمرو بن الأهتم فى وصيته لابنه التى يستهلها بقوله[٢] :

وإن المجد أوَّلهُ وعُورٌ   ومصدر غِبِّه كرمٌ وخِيرُ[٣]

وممن كثرت الحكمة فى شعرهم زهير والأفوه الأودى وعلقمة بن عَبَدَة، وهى تكثر فى ميمية الأخير وتتوالى فى أبيات متعاقبة من مثل قوله[٤] :

الحمدُ لا يُشْتَرى إلا له ثَمَنٌ   مما يَضِنُّ به الأقوامُ معلومُ

والجود نافيةٌ للمال مَهْلَكَةٌ   والبخلُ باقٍ لأهليه ومذموم

وكلُّ حِصْن وإن طالتْ سلامته   على دعائمــه لا بُدّ مهدوم

ويلخص لنا رأى الجاهليين فى المرأة وما تطلبه من الرجل، فيقول فى بائيته[٥] :

فإن تسألونى بالنساء فإننى   بَصيرٌ بأَدْواءِ النساء طَبيبُ

إذا شاب رأسُ المرء أو قلَّ مالُه   فليس له من وُدِّهن نَصِيبُ

ويظهر أن الحكمة قديمة عندهم، فنحن نجدها فى معلقة عَبِيد بن الأبرص، وفيها يقول :

وكلُّ ذى غَيْبَــةٍ يَئُوبُ   وغائبُ الموت لا يئوبُ

ويقول عَبْدة بن الطبيب[٦] :

والمرءُ ساعٍ لأمرٍ ليس يُدْرِكهُ   والعيشُ شُحٌّ وإشفاقٌ وتأْميلُ

(١) الشارف : الناقة، ورنتها : صوتها عند النحر. المدجنة : القينة تغنى يوم الدجن والغيم. وجدوى الجازر : عطاياه من أطايب اللحم.

(٢) المفضليات ص ٤١٠ وانظر القصيدة رقم ١١٦.

(٣) غبه : عاقبته، الخير : الكرم.

(٤) المفضليات ص ٤٠١.

(٥) المفضليات ص٣٩٢.

(٦) المفضليات ص١٤٢.

ويقول عدى بن رَعْلاء الغسانى [1] :

ليس من ماتَ فاستراح بمَيْتٍ   إنما الميْتُ ميِّتُ الأَحْيَاء

وتلك هى الموضوعات الأساسية التى تنظم فى سلك القصيدة الجاهلية ، فالشاعر يبدؤها بالتشبيب أو النسيب بالأطلال والديار ، ويصف فى أثناء ذلك حبه ، ثم يصف رحلته فى الصحراء ، وهى أول ما يقدمه للمرأة من ضروب جرأته ، وحينئذ يصف ناقته أو فرسه ، وقد يؤخرهما إلى نهاية القصيدة ، ويقدم عليهما غرضه من الحماسة أو الهجاء أو الرثاء أو المديح ، مفتنًّا فى أثناء ذلك فى وصف ما يقع تحت عينه ، وناثراً حكمه وتجاربه .

٤

الخصائص المعنوية

لعل أول ما يلاحَظ على معانى الشاعر الجاهلى أنها معان واضحة بسيطة ليس فيها تكلف ولا بعد ولا إغراق فى الخيال سواء حين يتحدث عن أحاسيسه أو حين يصور ما حوله فى الطبيعة، فهو لا يعرف الغلو ولا المغالاة ، ولا المبالغة التى قد تخرج به عن الحدود المعتدلة .

ومرجع ذلك فى رأينا أنه لم يكن يفرض إرادته الفنية على الأحاسيس والأشياء بل كان يحاول نقلها إلى لوحاته نقلا أميناً، يُبْقى فيه على صورها الحقيقية دون أن يُدخل عليها تعديلا من شأنه أن يمسّ جواهرها . ومن أجل ذلك كان شعره وثيقة دقيقة لمن يريد أن يعرف حياته وبيئته برملها ووديانها ومنعرجاتها ومراعيها وسباعها وحيوانها وزواحفها وطيرها . وعرف القدماء ذلك فكلما تحدثوا عن عادات الجاهليين وألوان حياتهم استشهدوا بأشعارهم ، وحينما كتب الجاحظ كتاب الحيوان وجد فى هذه الأشعار مادة لا تكاد تنفد فى وصفه ووصف طباعه وكل ما يتصل به من سمات ومشخصات . ومعنى ذلك أن الشاعر الجاهلى لم يغتصب الحيوان لنفسه ،

---

(١) الأصمعيات ص ١٧١ .

فيسكب عليه من خياله ما يحيله عن حقيقته . ونستطيع أن نلاحظ ذلك فى وصفه للمعارك الدائرة بينهم ، إذ نراه يعترف بهزيمة قومه إن هُزموا[١] ، وبفراره إن ولّى الأدبار ونكص على أعقابه[٢] ، وفى أثناء ذلك لا يبخل على أعدائه بوصف شجاعتهم وبلائهم فى الحروب ، ولهم فى ذلك قصائد تلقب بالمنصفات ، مر الحديث عنها .

وجاءهم ذلك من أنهم لا يبدلون فى الحقائق ولا يعدّلون فى علاقاتها ومعانيها ، بل يخضعون لها ويضبطون خيالاتهم وانفعالاتهم إزاءها . ونحن بهذا الوصف إنما نقصد إلى جمهور أشعارهم ، فقد تندّ بعض أبيات تحمل ضرباً من المبالغة ، ولكن ذلك يأتى شاذاً ونادراً . ونظن ظناً أن شيوع هذه الروح فيهم هو الذى طبع أفكارهم بنزعة تقريرية ، إذ تعودوا أن يسندوا أقوالهم بذكر الحقيقة عارية دون خداع يموّهها أو طلاء يزيفها . ومن هنا كانت معانيهم محددة تحديداً يبرزها فى أتم ما يكون من ضياء ، ومن ثَمّ تبدو فى كثير من جوانبها كأنها شىء راسخ ثابت . ويتضح ذلك فى حِكمهم التى تصور أحكاماً سليمة وخبرات صائبة كما يتضح فى جوانب كثيرة من تأبينهم ومديحهم وغزلهم وحماستهم ، إذ يقدم الشاعر المعانى منكشفة كأنها أشياء صلبة محسوسة ، فهى حقائق تُسْرَدُ سرداً وقلما شابها الخيال ، إلا ليزيدها إمعاناً فى الوضوح والجلاء . واقرأْ فى أشعاره فستجد معانيه حسية ، واضحة ، لا يقف بينك وبينها أى غموض أو أشراك ذهنية تضل فى ممراتها وشُعَبها الفكرية ، إذ يعرض عليك هذه المعانى دائماً مجسمة فى أشخاص أو فى أشياء. وخُذْ فضائلهم التى طالما أشادوا بها فى حماستهم ومراثيهم ومدائحهم ، فستجدها دائماً تساق فى مادة الإنسان الحسية ، فهو لا يتحول بها إلى معنى ذهنى عام يصور إحساسه بالبشرية جميعها فى هذه الفضيلة أو تلك ، فالكرم مثل البخل والوفاء وغيرهما من الفضائل والرذائل لا بد أن يقترن بشخص معين يتحدثون عنه .

وهذه النزعة فى الشاعر الجاهلى جعلته لا يحلل خواطره ولا عواطفه إزاء ما يتحدث فيه من حب أو غير حب ، فهو لا يعرف التغلغل فى خفايا النفس الإنسانية ولا فى أعماق الأشياء الحسية . وتتضح هذه النزعة فى نفس خياله وتشبيهاته فهو ينتزعها من عالمه المادىّ ، ولنرجعْ مثلا إلى تشبيهاته للمرأة فهو يشبهها بالشمس

(١) انظر مثلا المفضليات رقم ١٠٨ .
(٢) المفضليات رقم ٣٢ بيت ١ — ٣ .

والبدر والبيضة والدرَّة والدُّمْية والرمح والسيف والغمام والبقرة والظبية والقطاة ، ويشبه أسنانها بالأقْحوان وبنانها بالعَنَم وثغرها بالبلُّور وخدها وترائبها بالمرآة وشعرها بالحبال والحيات والعناقيد ووجهها بالدينار وثديها بأنف الظبي ورائحتها بالمسك وبالأترجة وريقها بالخمر وبالعسل وعينها بعين البقرة والغزال وعَجُزَها بالكثيب وساقها بالبرْدية . أما الرجل فيشبهه بالبحر وبالغيث وبالأسد وبالذئب وبالعقاب وبالبعير وبالبدر والقمر وبالرمح والسيف وبالثور والتيس والضبع وبالأفعوان والحية وبالكلب والحمار وبالصخرة وبالصقر وبالفحل .

وعلى هذه الشاكلة من الحسية فى التشبيه الشعرُ الجاهلى جميعه ، فالشاعر يستقى فى أخيلته من العالم الحسى المترامى حوله . وجعلهم تمسكهم بهذه الحسية إذا وصفوا شيئاً أدقّوا النظر فى أجزائه ، وفصّلوا الحديث فيها تفصيلا شديداً ، وكأنما يريدون أن ينقلوه إلى قصائدهم بكل دقائقه ، وكأن الشاعر نحات لا يصنع قصيدة وإنما يصنع تمثالا ، فهو يستوفى ما يصفه بجميع أجزائه وتفاصيله الدقيقة . وخير مثل لذلك وصف طرفة لناقته فى معلقته فقد نعت جميع أعضائها وكل دقيقة فيها وجليلة . ولم يترك منها شيئاً دون وصف أو بيان .

وهذه الحسية فيهم جعلتهم لا يتسعون بمعانيهم ، بل جعلتهم يدورون حول معان تكاد تكون واحدة ، وكأنما اصطلحوا على معان بعينها ، فالشعراء لا ينحرفون عنها يمنة ولا يسرة ، فما يقوله طرفة فى الناقة يقوله فيها غيره ، وما يقوله امرؤ القيس فى بكاء الديار يقوله جميع الشعراء ، واقرأ حماسية كمعلقة عمرو بن كلثوم فستجد الشعراء الحماسيين لا يكادون يأتون بمعنى جديد . وقل ذلك فى غزلهم ومديحهم ورثائهم فالشعراء يتداولون معانى واحدة وتشبيهات وأخيلة واحدة. ومن ثَمَّ تَبْدو فى أشعارهم نزعة واضحة للمحاكاة والتقليد، وجنَى عليهم ذلك ضيقا واضحا فى معانيهم، غير أنه من جهة ثانية أتاح لهم التدقيق فيها وأن يجلوها ويكشفوها أتم كشف وجلاء . واقرأْ فى المفضليات والأصمعيات فستجد دائماً نفس المعانى ، وستجد أيضاً براعة نادرة فى إعادتها وصوغها صوغاً جديداً ، فكل شاعر يحاول أن يعطيها شيئاً من شخصيته، وخُذْ مثلا تشبيه المرأة بالظبية ، فشاعر يشبهها تشبيهاً عاديًّا ، وشاعر يشبهها بها وهى تمد عنقها إلى شجر السَّلَم الناضر ، يريد أن يستتم بذلك منظراً بديعاً

للظبية ، يقول علباء بن أرقم[١] :

فيوما تُوافينـا بوجهٍ مُقَسَّمٍ كأَنْ ظبيةٍ تَعْطُو إلى ناضِرِالسَّلَمْ

وثالث يشبه جيدها بجيد الظبية فى استوائه وطوله وجماله ، يقول الحادرة[٢] :

وتصدَّفتْ حتى اسْتَبَتْكَ بواضحٍ صَلْتٍ كمُنْتَصِب الغزال الأَتْلَع

ورابع يجعل وجه الشبه حَوَر العين ، وخامس يجعله فى التنفس كقول المنخّل اليشكرى :

ولثمتُهـا فتنفَّسَتْ كتنفس الظبى البَهِيرِ

وما يزال كل شاعر يضيف تفصيلا جديداً. وخُذْ مثلا تصويرهم للرجال بالكواكب والنجوم ، يقول عامر المحاربى[٣] :

وكنا نجومًا كلما انقضَّ كوكبٌ بدا زاهرٌ منهنَّ ليس بأَقْتما

ويقول طُفَيل الغنوى فى مديح قوم[٤] :

نجومُ ظلامٍ كلما غاب كوكبٌ بَدا ساطعًا فى حِنْدس الليل كوكبُ

ويقول لقيط بن زُرارة وقد أضاف إلى هذا المعنى زيادة بديعة[٥] :

وإنى من القوم الذين عرفتمُ إذا مات منهم سَيِّدٌ قام صاحبُهْ

نجومُ سماءٍ كلما غارَ كوكبٌ بدا كوكبٌ تأْوى إليه كواكبه

أَضاءَتْ لهم أَحسابُهم ووجوههم دُجَى الليل حتى نظَّم الجَزْعَ ثاقبه[٦]

وألمَّ النابغة بهذه الصورة فنقلها نقلة جديدة ، إذ قال فى النعمان بن المنذر مقارناً بينه وبين الغساسنة[٧] :

(١) الأصمعيات ص ١٧٨ ومقسم : من القسام وهو الجمال ، وأن فى كأن زائدة ، تعطو : تتناول ، والسلم : من أشجار البادية .

(٢) المفضليات ص ٤٤ وتصدفت : أعرضت . بواضح : يريد بعنق ناصع جميل ، وصلت : مشرق ، الأتلع : طويل العنق .

(٣) المفضليات ص ٣٢١ الأقتم : من القتام وهو الغبار .

(٤) الحيوان ٩٤/٣ .

(٥) الحيوان ٩٣/٣ .

(٦) الجزع : خرز فيه سواد وبياض

(٧) الحيوان ٩٥/٣ ومختار الشعر الجاهلى ص ١٧٥ .

وإنك شمسٌ والملوك كواكبٌ   إذا طلعتْ لم يَبْدُ منهن كوكبُ

ومعنى ذلك أن ضيق الدائرة فى معانيهم لم يحل بينهم وبين النفوذ منها إلى دقائق كثيرة ، فقد تحولوا يولدونها ويستنبطون منها كثيراً من الخواطر والصور الطريفة .

وملاحظة ثانية هى أنهم لم يعرضوا علينا معانيهم الحسية جامدة ، بحيث تنشر الملل فى نفوسنا ، فقد أشاعوا فيها الحركة ، وبذلك بثّوا فيها كثيراً من الحيوية ، وما من شك فى أن هذه الحركة مشتقة من حياتهم التى لم تكن تعرف الثبات والاستقرار ، فهم دائماً راحلون وراء الغيث ومساقط الكلأ ، ومن ثَمَّ كانوا إذا وصفوا الحيوان وصفوه متحركاً لا واقفاً جامداً ، وارجعْ إلى وصف طرفة لناقته فستجده يصفها وهى سائرة به فى طريق إلى غاية تصبو إليها نفسه ، يقول :

أمونٍ كألْواح الإرَان نَسَأْتُها   على لاحبٍ كأنه ظَهْرُ بُرْجُدِ[1]

وهو يشبه الطريق بكساء مخطط ، يجد فيه جمالا ، كما يجد فيها روعة وبهاء ، فيستمر فى وصفها وكأنه تدلَّه بها حبًّا ، فهو لا يترك شيئاً دون أن يقيده ، وكأنه يصنع لها تمثالاً يريد أن يحفره حفراً فى أذهان العرب الذين كانوا يعجبون بنوقهم ويودون لو أتيح لهم من ينْصبها لهم تمثالا بديعاً . وعلى هذا النحو كانوا يصفون خيولهم وكانوا ينتقلون منها ومن وصف النوق إلى وصف النعام وبقر الوحش وثورها والأُتن وحمارها ويصورونها لنا وهى تجرى فى الصحراء تطلب الماء ، والصائد إما فى طريقها بكلابه أو على الماء مستتراً منها ، وما تلبث أن تنشب معركة هائلة لا تقل عن معاركهم هولا .

وطبيعى أن يفيض هذا الجزء من قصائدهم بحركة واسعة ، فالحركة أساسه ، وقد يُدخلون هذه الحركة فى المقدمة نفسها ، فالشاعر لا يكتفى بالوقوف بالأطلال وبكاء الديار ، بل كثيراً ما يصور ظُعن حبيبته وصواحبها فى القافلة ، وقد خرجت تطلب مرعى جديداً ، فلا تزال متنقلة من موضع إلى موضع وعينُ الشاعر بإزائها تسجل هذه الرحلة الدائبة تسجيلا بديعاً .

---

(١) أمون : موثقة الخلق ، والإران : تابوت لموتاهم ، ونسأتها : زجرتها ، اللاحب : الطريق البين الواضح الذى أثر فيه المشى . البرجد : كساء مخطط شبه به طرائق الطريق وما فيه من تعاريج وخطوط وآثار .

وهذه الحركة فى حياتهم التى تعنى عدم الثبات والاستقرار ، وبالتالى تعنى عدم التوقف عند شيء وإطالة النظر فيه هى التى جعلت معانيهم سريعة ، أو على الأقل كانت من أهم البواعث على سرعتها ، فالشاعر لا يقف طويلا عند المعنى الذى يلم به بل لا يكاد يمسه حتى يتركه إلى معنى آخر . فحياته لا تثبت ولا تستقر ، وهو كذلك فى معانيه لا يثبت ولا يستقر ، بل ينتقل من معنى إلى معنى فى خفة وسرعة شديدة . ومن ثَمَّ غلب عليه الإيجاز ، فهو لا يعرف الإطناب ولا ما يتصل به من هدوء وسكون ، ولعل هذا هو الذى جعل البيت فى قصائدهم وحدة معنوية قائمة بنفسها ، وتتألف القصيدة من الأبيات أو البيوت المستقلة التى يكتفى فيها كل بيت غالباً بنفسه ، غير متوقف على ما يسبقه ولا على ما يلحقه إلا نادراً .

وربما كان هذا هو السبب الحقيقى فى أن القصيدة الطويلة لا تلمّ بموضوع واحد يرتبط به الشاعر ، بل تجمع طائفة من الموضوعات والعواطف لا تظهر بينها صلة ولا رابطة واضحة ، وكأنها مجموعة من الخواطر يجمع بينها الوزن والقافية وتلك هى كل روابطها ، أما بعد ذلك فهى مفككة ، لأن صاحبها لا يطيل المكث عند عاطفة بعينها أو عند موضوع بعينه . ومن أجل ذلك زعم بعض النقاد أن الاستطراد أساس فى الشعر الجاهلى ، ومن حقنا أن نعطيه اسماً جديداً مشتقًّا من حياته ، وهو التنقل السريع .

وما أشبه القصيدة عندهم بفضائهم الواسع الذى يضم أشياء متباعدة لا تتلاصق ، فهذا الفضاء الرحب الطليق المترامى من حولهم فى غير حدود هو الذى أملى عليهم صورة قصيدتهم ، فتوالت الموضوعات فيها جنباً إلى جنب بدون نسق ولا نظام ولا محاولة لتوجيه فكرى : إنما هى موضوعات أو أشكال متجاورة يأخذ بعضها برقاب بعض فى انطلاق غريب كانطلاق حياة الشاعر فى هذا الفضاء الصحراوى الواسع الذى لا يكاد يتناهى ولا يكاد يحد ، والذى تتراءى فيه الأشياء متناثرة غير متجاورة .

على أن هذه الحركة قد أتاحت لشعرهم ضرباً من الروح القصصية ، لا نراه ماثلا فى وصفهم للحيوان الوحشى فحسب ، بل نراه أيضًا فى وصف الصعاليك لمغامراتهم على نحو ما تعرض علينا ذلك تائية الشنفرى التى أنشدها المفضّل الضبّى والتى يستهلها بقوله[1] :

---

(١) المفضليات ص١٠٨ ، وأجمعت : عزمت أمرها ، واستقلت : ارتحلت .

أَلا أُمُّ عمرو أَجمعتْ فاستقلَّتِ   وما ودَّعتْ جيرانَها إذ تولَّتِ

فإنه يقصّ علينا بعد غزلها الطريف قصة غزوة له مع بعض رفاقه من الصعاليك ، وهو لا يسردها فى إجمال ، بل يسرد تفاصيلها ، إذ يذكر أنهم أعدّوا العُدَّة للغزو والسلب ، يحملون قِسيَّهم الحمر ، وقد خرجوا من واديين : مِشْعَل والجَبا راجلين ، وقد حمَل زادهم تأبط شرًّا الصعلوك المشهور ، وكان يقتِّر عليهم فى الطعام خشية أن تطول بهم الغزوة فيهلكوا جوعاً . ويصف لنا الشنفرى جعبة السهام التى كانت معهم ، وكيف أنهم كانوا يحملون حُساماً صارماً ، بل سيوفاً قاطعة كأنها قِطَع الماء فى الغدير لمعاناً ، بل كأنها أذناب البقر الصغير تحركه ، وقد نهلت وعَلَّتْ من دماء مُحْرِمٍ ساق هَدْيَه إلى الكعبة ، فقتلوه دون غايته وأخذوا ما معه ، كما قتلوا بعض من كانوا يرافقونه ، ومن لم يُقتَل أخذوه أسيراً . ويُنهى القصة مفتخراً بشجاعته وأنه لا يرهب الموت .

ويكثر الصعاليك من قَصَص مثل هذه المغامرة ، ويلقانا فى حماسياتهم كثير من وصف معاركهم ، وقد يحاولون سَرْدها ، وهو سرد تتمشى فيه الروح القصصية على نحو ما تمثِّل ذلك معلقة عمرو بن كلثوم وقصائد بشر بن أبى خازم فى المفضليات ، إذ يتحدث فيها حديثاً مفصلا عن يومى النِّسار والُجفار ، فالقَصَص يتخلل شعرهم ، وقد أفردوا له فى مطوَّلاتهم قطعة وصف الحيوان الوحشى . ونراه ماثلا فى غزلهم على نحو ما مر بنا فى غزلية المنخَّل اليشكرى ، وإنما تمثلنا بقطعة منها ، وهو ماثل فى غزل المرقِّش الأصغر مما رواه صاحب المفضليات . فإذا قلنا بعد ذلك كله إن معانيهم كان يسودها فى بعض جوانبها ضرب من الروح القصصية لم نكن مبالغين ، وهى روح لم تتسع عندهم ، فقد أضعفتها حركتهم وميلهم إلى السرعة والإيجاز . وبذلك لم يظهر عندهم ضرب من ضروب الشعر القصصى ، فقد ظل شعرهم غنائيًّا ذاتيًّا ، يتغنى فيه الشاعر بأهوائه وعواطفه ، غير محاول صُنْعَ قصة ، يجمع لها الأشخاص والمقومات القصصية ، ويرتبها ترتيباً دقيقاً ، فإن شيئاً من ذلك لم يخطر بباله ، إذ كان مشغولا بنفسه ، لا يهمه إلا أن يتغنى بها و بمشاعره .

٥

الخصائص اللفظية

من أهم ما يلاحظ على الشعر الجاهلى أنه كامل الصياغة ، فالتراكيب تامة ولها دائماً رصيد من المدلولات تعبر عنه ، وهى فى الأكثر مدلولات حسية ، والعبارة تستوفى أداء مدلولها ، فلا قصور فيها ولا عجز . وهذا الجانب فى الشعر الجاهلى يصور رقيًّا لغويًّا ، وهو رقى لم يحدث عفواً فقد سبقته تجارب طويلة فى غضون العصور الماضية قبل هذا العصر ، وما زالت هذه التجارب تنمو وتتكامل حتّى أخذت الصياغة الشعرية عندهم هذه الصورة الجاهلية التامة ، فالألفاظ توضع فى مكانها والعبارات تؤدّى معانيها بدون اضطراب .

وقد يكون من الأسباب التى أعانتهم على ذلك أن الشعراء كما أسلفنا كانوا يرددون معانى بعينها ، حتّى لتتحول قصائدهم إلى ما يشبه طريقاً مرسوماً ، يسيرون فيه كما تسير قوافلهم سيراً رتيباً ، وكانوا هم أنفسهم يشعرون بذلك شعوراً دقيقاً ، مما جعل زهيراً يقول بيته المأثور — إن صح أنه له — :

ما أرانا نقول إلا مُعـــارا أو مُعادًا من لفظنـــا مكرورا

فهو يشعر أنهم يبدئون ويعيدون فى ألفاظ ومعان واحدة ، ويجرون على طراز واحد ، طراز تداولته مئات الألسنة بالصقل والتهذيب ، فكل شاعر ينقّح فيه ويهذب ويصفى جهده حتّى يثبت براعته . ولم تكن هناك براعة فى الموضوعات وما يتصل بها من معان إلا ما يأتى نادراً ، فاتجهوا إلى قوالب التعبير ، وبذلك أصبح المدار على القالب لا على المدلول والمضمون ، وبالغوا فى ذلك ، حتّى كان منهم من يُخرج قصيدته فى عام كامل ، يردّد نظره فى صيغها وعباراتها حتّى تصبح تامة مستويه فى بنائها[1] .

وربما دل ذلك على أن مطولاتهم لم تكن تُصْنَعُ دفعة واحدة ، بل كانت تصنع على دفعات ، ولعل هذا هو سبب تكرار التصريع فى طائفة منها ، ولعله أيضاً السبب

---

(١) البيان والتبيين ٢ / ٩ وما بعدها .

فى تفككها واختلاف عواطفها ، فقد كان الشاعر يصنعها فى أزمنة مختلفة . وأغلب الظن أنه كان إذا صنع قطعة عرضها على بعض شعراء قبيلته و بعض من يلزمه من رواته ، فكانوا يروونها بصورة ، وما يلبث أن يعيد فيها النظر فيبدل فى بعض أبياتها ، يبدل كلمة بكلمة ، وقد يحذف بيتاً . ومعنى ذلك أن صناعة المطولات أعدّت منذ العصر الجاهلى لاختلاف الرواية فيها بسبب ما كان يُدخله صاحبها عليها من تعديل وتنقيح . وفى أسماء شعرائهم وألقابهم ما يدل على البراعة فى هذا التنقيح وما يطوى فيه من تجويد ، فقد لقبوا امرأ القيس بن ربيعة التغلبى بالمهلهل لأنه أول من هلهل ألفاظ الشعر وأرقّها[١] ولقبوا عمرو بن سعد شاعر قيس بن ثعلبة بالمرقّش الأكبر لتحسينه شعره وتنميقه[٢] ولقبوا ابن أخيه ربيعة بن سفيان بالمرقّش الأصغر ، كما لقبوا طفيلاً بالمحبّر لتزيينه شعره[٣] ، ولقبوا علقمة بالفحل لجودة أشعاره[٤] ولقبوا غير شاعر بالنابغة فى شعره ، ومن ألقابهم التى تدل على احتفالهم بتنقيح الشعر المثقّب والمتنخّل . وقد استطاعوا حقّاً أن يبهروا العصور التالية بما وفّروه لأشعارهم من صقل وتجويد فى اللفظ والصيغة .

ونحن نعرف أن الصيغة فى الشعر صيغة موسيقية ، وقد أسلفنا كيف أحكموا هذه الصيغه . فقد كان الشاعر يتقيد فى قصيدته بالنغمة الأولى ، وما زالوا يصفّون فى نغم القصيدة ، حتى استوى استواء كاملا ، سواء من حيث اتحاد النغم أو اتحاد القوافى وحركاتها . و برعوا فى تجزئة الأوزان حتى يودعوا شعرهم كل ما يمكن من عذوبة وحلاوة موسيقية على نحو ما نلاحظ فى غزلية المتنخل اليشكرى السابقة . وحقّاً هو فى جمهوره جزل ، ولكنها جزالة تستوفى حظوظاً من الجمال الفنى ، ولذلك ظلت ماثلة فى شعرنا العربى عند شعرائه الممتازين إلى عصورنا الحديثة . واقرأ فى حوليّات زهير وقصائده المطولة وفى غيره من المبرزين أمثال النابغة وعلقمة الفحل والمرقشين والأعشى وطرفة والمتلمس وعنترة ودُريد بن الصّمّة وسلامة بن جندل والحادرة والمثقب العبدى فستجدك أمام قصائد باهرة ، قد أُحكمت صياغتها وضُبطت أدق ضبط ، وسنعرض قطعاً منها فى حديثنا عن الشعراء ، لنصور براعتهم

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٥/٥٧ .

(٢) انظر المفضليات (طبعة لايل) ١/٤١٠ ، ٨٥ ؛

(٣) المفضليات ١/٤١٠ .

(٤) أغانى (طبعة الساسى) ٢١/١١٢ .

فى هذا الجانب وكيف حققوا لموسيقاهم مهما جَزُلَتْ وتضخمت كل ما يمكن من بهاء و رونق .

وقد استعانوا منذ أقدم أشعارهم ، لغرض التأثير فى سامعيهم ، بطائفة من المحسنات اللفظية والمعنوية ، وأكثرها دوراناً فى أشعارهم التشبيه ، فلم يصفوا شيئاً إلا قرنوه بما يماثله ويشبهه من واقعهم الحسى ، فالفرس مثلا يشبَّه من الحيوان بمثل الظبي والأسد والفحل والوعل والذئب والثعلب ويشبَّه من الطير بالعقاب والصقر والقطاة والباز والحمام، ويشبه بالسيف والقناة والرمح والسهم وبالأفعوان والحبل والهراوة والعَسيب والجِذْع وتشبَّه ضلوعه بالحصير وصدره بمداك العروس وغرته بخمار المرأة والشيب المخضوب ومنخره بالكِير وعَرْفه بالقصبة الرطبة وحافره بقَعْب الوليد وعنقه بالرمح والصعدة وعينه بالنقرة والقارورة ولونه بسبائك الفضة وارتفاعه بالخِباء. وكل هذه الأوصاف والتشبيهات مبثوثة فى المفضليات والأصمعيات، ويعرض علينا امرؤ القيس فى وصفه لفرسه بمعلقته طائفة طريفة منها . وعلى نحو ما لاحظنا آنفاً كانوا يحاولون الإطراف فى التشبيه ، حتى يخلبوا ألباب سامعيهم ، وقد يقعون على صور نادرة كتصوير المتنخل اليَشْكرى لغدائر بعض النساء بأنها كالحيات . يقول[1] :

يَعكُفْنَ مثل أساودِ الـ ـتَّنُّوم لم تُعْكَفْ لزُورِ[2]

وكانوا يشبهون المرأة بالبدر والشمس ، وألمّ سُوَيد بن أبى كاهل بهذا التشبيه . وحاول أن يخرجه إخراجاً جديداً فقال[3] :

حرّةٌ تَجْلُو شَتِيتًا واضحًا كشعاع الشمس فى الغَيْم سَطَعْ[4]

فجعل أسنان صاحبته المفلجة البيضاء كشعاع الشمس يبزغ من خلال الغيم . وكانوا يشبهون الرمح بالجمر ولهبه ، وألمّ عَميرة بن جُعَل بهذا التشبيه فأضاف إليه إضافة جديدة، إذ قال[5] :

---

(١) الأصمعيات ص ٥٤ .

(٢) يعكفن : يمشطن شعرهن ، والأساود : الأفاعى ، والتنوم : شجر ، ولم تعكف لزور كناية عن عفتهن .

(٣) المفضليات ص ١٩١ .

(٤) الشتيت : المتفرق يريد أسنانها المفلجة ، واضحاً : أبيض .

(٥) المفضليات ص٢٥٩ ،والرديني : الرمح.

جمعتْ رُدَيْنِيًّا كأنَّ سِنانَهُ　　سَنا لهب لم يتَّصِلْ بدُخانِ

وكان الجاحظ يعجب إعجاباً شديداً بوصف عنترة لبعض الرياض وتصويره للذباب وحركة جناحيه حين يسقط ، إذ يقول[1] :

جادَت عليها كلُّ عَيْنٍ ثَرَّةٍ　　فتركْنَ كلَّ حديقةٍ كالدِّرْهَمِ[2]

فترى الذبابَ بها يُغَنِّى وحده　　هَزِجًا كفعل الشارب المترنِّم

غَرِدًا يَحُكُّ ذِراعَه بذراعهِ　　فعل المُكِبِّ على الزِّنادِ الأَجْذَمِ[3]

فقد شبه قرارات الروضة وحُفَرها بالدراهم ، وشبه صوت الذباب بصوت الشارب المترنم ، وما زال يطلب صورة نادرة حتى وقع على الصورة الأخيرة إذ شبه الذباب فى حركة أجنحته الدائبة حين يسقط برجل مقطوع اليدين يقدح النار من عودين أو زَنْدين فلا تقتدح ، فيستمر فى قدحه لا يفتر .

وبجانب التشبيهات الكثيرة التى تلقانا فى شعرهم نجد الاستعارة بفرعيها من التصريحية والمكنية ، وهى مبثوثة فى أقدم أشعارهم . نجدها عند امرئ القيس ومعاصريه كما نجدها عند من جاءوا بعده ، ومن أمثلتها الطريفة عند امرئ القيس تصويره طول الليل وفتوره وبطئه ببعير جاثم لا يريم ، إذ يقول فى معلقته مخاطباً الليل :

فقلتُ له لما تمطَّى بصُلْبهِ　　وأردف أعجازًا وناءَ بكَلْكَلِ[4]

وأنشد ابن المعتز فى كتابه « البديع » كثيراً من استعاراتهم مثل قول أوس بن حَجر :

وإنى امرؤٌ أعددتُ للحرب بعدما　　رأيتُ لها نابًا من الشرِّ أعْصَلا[5]

وقول عَلقمة بن عَبَدة :

بل كلُّ قوم وإن عَزُّوا وإن كرموا　　عَريفُهم بأثافى الشرِّ مَرْجُومُ[6]

---

(١) الحيوان ٣/٣١٢ ومختار الشعر الجاهلى للسقا ص ٣٧١ .

(٢) العين الثرة هنا : السحابة غزيرة المطر ، وشبه الحديقة بالدرهم فى استدارته .

(٣) الأجذم : مقطوع اليدين .

(٤) الكلكل : الصدر .

(٥) الأعصل : المعوج فى صلابة .

(٦) العريف : الرئيس ، والأثافى : الحجارة التى تنصب عليها القدر ، استعارها لنوائب الدهر .

وقول طُفَيلٍ الغَنَوى فى وصف ناقته :

وجعلتُ كورى فوق ناجيـةٍ يقتاتُ شَحْمَ سَنامها الرَّحْلُ (١)

وقول الحارث بن حِلِّزة اليشكرى :

حتى إذا التفَع الظِّبـاء بـأطْـ راف الظِّلال وقِلْنَ فى الكُنُسِ (٢)

وفى شعرهم كثير من هذه الاستعارات الطريفة ، وسنعرض لطائفة منها ومن التشبيهات فى دراستنا لشعرائهم المبرزين ، وكانوا يضيفون إلى ذلك عناية ببعض المحسنات التى شاعت فى الشعر العباسى وكثُر استخدامها فيه حتى اتخذها بعض الشعراء مذهباً يطبقها على جميع أبياته أو جمهورها ، ونقصد الطباق والجناس ، فلهما أصول فى الجاهلية ، ونحن نجدهما عند امرئ القيس فى وصفه لفرسه إذ يقول :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبلٍ مُدْبرٍ معًا كجلمود صَخْرٍ حطَّهُ السَّيْلُ من عَلِ

كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عن حالِ مَتْنِهِ كما زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بالمتنزَّل (٣)

والطباق واضح فى البيت الأول ومثله الجناس فى البيت الثانى . وقد أنشد المفضل الضبى لعبد الله بن سلمة الغامدى قصيدة كَثُر فى آخرها الجناس كثرة مفرطة ، حتى لكأننا بإزاء شاعر عباسى من شعراء البديع ، يقول عبد الله (٤) :

ولقد أُصاحبُ صاحبًا ذا مَأْقَةٍ بِصِحاب مُطَّلِع الأَذَى نِقْرِيسِ (٥)

ولقد أُزاحم ذا الشَّذَاةِ بِمِزْحَمٍ صَعْبِ البُدَاهَةِ ذى شَذًا وشَرِيسِ (٦)

---

(١) الكور : الرحل ، ناجية : ناقة سريعة.

(٢) التفعت الظباء بالظلال : دخلت فيها واكتنت من الحر . وقلن : أمضين القائلة وهى نصف النهار . والكنس : جمع كناس وهى حفرة تحفرها الحيوانات الوحشية فى أصل شجرة لتستتر فيها .

(٣) الكميت : الأحمر فى سواد ، يزل : يسقط ، يريد أنه أملس المتن . الصفواء : الصخرة الملساء ، المتنزل : النازل عليها .

(٤) المفضليات ص ١٠٧ .

(٥) المأقة : حدة الغضب ، وصحاب : مصدر صاحب ، مطلع الأذى : مالك له فى استعلاء ، والنقريس : الحاذق .

(٦) ذا الشذاة : ذا الأذى . بمزحم : شديد المزاحمة . صعب البداهة : شديد المفاجأة . والشذا : الأذى ، والشريس : الشراسة .

ولقد أداوى داء كلِّ مُعَبَّدٍ بِعَنِيَّةٍ غلَبَتْ على النِّطِّيسِ[1]

فقد جانس فى البيت الأول بين أصاحب وصاحبا وصحاب ، وجانس فى البيت الثانى بين أزاحم و بمزحم والشذاة وشذا وأدخل حرف الشين على كلمة شريس ، وجانس فى البيت الأخير بين أداوى وداء .

وتلك كلها محسنات كان الشاعر الجاهلى يُعْنَى بها حتى يؤثر فى نفوس سامعيه ويخلب ألبابهم ، وهى تصور مدى ما كان يودعه قصيدته من جهد فنى ، وخاصة من حيث التصوير ودقته وبراعته ، فقد كان ما يزال يجهد خياله حتى يأتى فيه بالنادر الطريف .

(١) المعبد : البعير الأجرب ، أراد به الشرير . العنية : من أدوية الجرب . النطيس كالنطاسى : الطبيب الماهر .

الفصل السابع

امرؤ القيس

١

قبيلته وأسرته(١)

امرؤ القيس من قبيلة كندة ، ومن بيت السيادة فيها ، وهى قبيلة يمنية(٢) كانت تنزل فى غربى حضرموت ، وهاجرت منها جماعة كبيرة إلى الشمال مع هجرات اليمنيين المعروفة ، واستقرت جنوبى وادى الرُّمَّة الذى يمتد من شمالى المدينة إلى العراق . وقد احتلت كما مرَّ بنا مكاناً بارزاً فى نجد منذ أواسط القرن الخامس للميلاد ، فإننا نجد على رأسها أميراً يسمى حُجْراً آكل المُرار(٣) تعاقبت الإمارة فى بنيه من بعده ، ويظهر أنه استطاع أن يفرض سيادته على كثير من القبائل الشمالية ، وأنه كان يدين بالطاعة لملوك حمير اليمنيين(٤) .

وهذه الإمارة الكندية النجدية كانت تقابل إمارة المناذرة فى الحيرة والغساسنة فى الشام ، وقد أدى وقوعها بينهما ومحاولتها بسط نفوذها على قبائل معد من حولها إلى أن تصطدم بالإمارتين المجاورتين لها جميعاً ، وهو اصطدام تُرْوَى أخباره منذ قيام حجر آكل المرار ، إذ كثيراً ما كان يشتبك فى حروب مع الغساسنة(٥) . وما زال يمد رقعة ملكه حتى بلغت حدود المناذرة ، ويتوفَّى فيخلفه ابنه عمرو ويحافظ على ما ورث عن أبيه من سلطان ، ويُصهر إليه ملك الحيرة(٦) مما يدل على اتساع نفوذه ، ويعقبه

---

(١) راجع فى كندة وأمرائها كتاب أوليندر السالف ذكره .

(٢) انظر فى ذلك الاشتقاق (طبعة جوتنجن) ٢/٢١٨ والأغانى ٩/٧٧ وهناك من يزعم أن كندة قبيلة عدنانية (انظر الأغانى طبعة دار الكتب ١٣/٧٩ والمفضليات طبعة لايل ١/٤٢٧) ولكن هذا الزعم غير صحيح ، ويدل على ذلك دلالة قاطعة أننا نجد فى أسماء أعلامها كما قدمنا نفس الأسماء اليمنية مثل شرحبيل ومعديكرب ابنى الحارث .

(٣) آكل المرار لقب لحجر ، وأصله فحل الإبل يأكل نبتاً مرا يسمى المرار ، فكأنهم أرادوا به حجراً الفحل .

(٤) الأغانى (طبع الساسى) ١٥/٢٨ وابن خلدون ٢/٢٧٣ وجواد على ٣/٢٢٠ .

(٥) الأغانى ١٥/٨٢ ومابعدها .

(٦) تاريخ الطبرى (طبعة أوربا) ١/٩٠٠ وحمزة الأصفهانى ص ٦٩ .

ابنه الحارث ، وهو أهم أمراء هذه الأسرة ، والمظنون أنه بدأ حكمه حوالى سنة ٤٩٠ للميلاد . ويذكر المؤرخون البيزنطيون أنه كان كثير الإغارة على الحدود الرومانية وكان يقود غاراته ابناه حُجْر ومعد يكرب ، وقد أغار على فلسطين الرومانية فى عامى ٤٩٧ و ٥٠١ للميلاد [١] .

ولا نتقدم فى القرن السادس حتى يعظم سلطان الحارث فى نجد . وحدث أن غضب قُباذ ملك الفرس على المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة بسبب رفضه لمذهب المزدكية ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، فعزله وولى على الحيرة مكانه الحارث ختنه[٢] ، فتحقق له حلم آبائه بتقويض الإمارة اللخمية ، وولّى أبناءه على القبائل ، فجعل — كما تقول بعض الروايات — حُجْراً على أسد وغطفان ، وشرحبيل على بكر ومعد يكرب على تغلب وسلمة على قيس[٣] .

وسرعان ما تطورت الأحداث ، فإن الأحباش استولوا على اليمن وتوفى قُباذ وخلفه كسرى أنوشروان سنة ٥٢٨ وكان يكره مزدك والمزدكية ، فاضطهد أنصارها فى بلاده ، وأعاد المنذر بن ماء السماء إلى الحيرة عاصمته ، وقد أدار مع الحارث معارك طاحنة ، انتهت بقتل الحارث . وتبع المنذر أبناءه يوقع بهم ويؤلب القبائل عليهم ، وسرعان ما سقط معديكرب وسلمة فى معركة تعرف بيوم أُوارة الأول[٤] ويقال إن معد يكرب أصابه الجنون ، وكان شرحبيل قد سقط قبل ذلك فى معركة بينه وبين أخيه سلمة تعرف بيوم الكُلاب الأول[٥] .

أما حُجْر وهو أبو امرئ القيس فقتلته قبيلة بنى أسد ، ويَرْوى صاحب الأغانى أربع روايات مختلفة فى قتله[٦] . أما الأولى فقد رواها عن هشام بن الكلبى (المتوفى سنة ٢٠٤ هـ) وهى تزعم أن حجراً كان له على بنى أسد إتاوة يؤدونها كل عام ، فلما قُتل أبوه أرسل إليهم جُباته فمنعوهم وضربوهم ضرباً مبرحاً ، فسار إليهم حجر بجند من ربيعة وقيس وكنانة ، فاستسلموا له ، فأخذ سادتهم . وجعل يقتلهم بالعصا

---

(١) انظر فى ذلك تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٣ / ٢٤٥ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٣٨ وما بعدها .
(٣) نفس المصدر ص ٢٤٣ وما بعدها .
(٤) نقائض جرير والفرزدق (طبعة بيفان) ص ٨٨٧ وتاريخ ابن الأثير ١ / ٢٢٨ .
(٥) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢ / ٢٠٨ وما بعدها والمفضليات (طبعة لايل) ١ / ٤٢٨ وابن الأثير ١ / ٢٢٧ ومعجم البلدان لياقوت ٧ / ٢٦٩ .
(٦) أغانى (طبعة دار الكتب) ٩ / ٨٢ .

ـ فسُمُّوا عبيدَ العصا ـ وأباح أموالهم ، وطردهم من منازلهم فى جنوبى وادى الرُّمَّة إلى تهامة ، وحبس سيدهم عمرو بن مسعود الأسدى ، وشاعرهم عبيد بن الأبرص وقد استعطفه بقصيدة يقول له فيها :

أنت المليكُ عليهمُ وهمُ العبيدُ إلى القيامه

فأثر ذلك فى نفس حُجْر ، وعفا عنهم ، ولكنهم أضمروا له الانتقام ، وأصابوا منه غِرّة ، فقتلوه فى قُبَّته ، ونهبوا ما كان معه من أموال .

والرواية الثانية رواها أبو الفرج عن أبى عمرو الشيبانى (المتوفى سنة٢١٣هـ) وهى تزعم أن حجراً خاف على نفسه من بنى أسد ، فاستجار بعُوَيْر بن شِجْنة التميمى لبنته هند وأهله ، ثم مال على بعض بنى سعد بن ثعلبة فأدركه عِلْباء بن الحارث الأسدى . وغافله ، وقتله .

والرواية الثالثة رواها أبو الفرج عن الهيثم بن عدى (المتوفى سنة ٢٠٦) وهى تذكر أن حجراً لما استجار عُوَيْر بن شِجْنة لبنيه وأهله تحول عن بنى أسد فأقام فى عشيرته كندة مدة . وجمع لبنى أسد منهم جمعاً عظيما ، وأقبل مُدِلاً بمن معه من الجنود ، فتآمرت بنو أسد بينها ، وقالوا : والله لئن قهركم هذا ليحكمن عليكم حكم الصبى ! وما خير عيش يكون بعد قهر وأنتم بحمد الله أشدّ العرب فموتوا كراماً . فساروا إلى حجر وقد ارتحل نحوهم فلقوه ، فاقتتلوا قتالاً عنيفاً ، وكان صاحب أمرهم عِلباء بن الحارث فحمل على حجر فطعنه ، فقتله ، وانهزمت كندة وفيهم يومئذ امرؤ القيس بن حجر ، فهرب على فرس له شقراء ، وأعجزهم . وقد قتلوا من أهل بيته طائفة وأسروا أخرى وملأوا أيديهم من الغنائم ، وأخذوا جوارى حُجر ونساءه وكل ما كان معه من أموال . واقتسموا ذلك جميعه .

أما الرواية الرابعة فرواها أبو الفرج عن ابن السِّكِّيت (المتوفى سنة ٢٤٤) وهى تزعم أن حجرًا أقبل بعد موت أبيه راجعاً إلى بنى أسد ، وكان قد أساء ولايتهم . وتشاورت بنو أسد فيه . وأجمع أمرهم على إعلان الحرب عليه ، وخرج إليه بعض شجعانهم . فقتلوا من كان يقدم ركبه من غلمانه وسبوا جواريه . وعلم حجر بذلك فقاتلهم غير أنهم هزموه وأسروه ، ووثب منهم فتى كان له عنده ثأر ، فقتله .

والرواية الأولى رواية هشام الكلبي ، وهو متهم فيما يرويه ، فهي رواية ضعيفة ، ومما يدل على فسادها قصيدة عَبيد التي ذُكر في تضاعيفها يوم القيامة : ومن أين له بمعرفة هذا اليوم الذي جاء في القرآن الكريم وهو جاهلي وثني ؟ . ومثلها الروايتان الثانية والرابعة . فأثر الافتعال فيهما واضح ، لسبب بسيط . وهو أن حجرًا يموت غيلة . ولا نرى عشيرته كندة تثأر له أو تشتبك من أجله في حرب مع بني أسد . لذلك نرجح الرواية الثالثة رواية الهيثم بن عدى ، وهي تتفق مع ما ردده عبيد بن الأبرص في شعره مراراً من أن قبيلته نكّلت بكندة وصاحبها حجر ، وكان عبيد معاصراً للحوادث وشاهد عِيان لها ، ومن قوله في ذلك يخاطب امرأ القيس[(١)] :

ورَكْضُكَ لولاه لقيتَ الذي لَقُوا ... فذاك الذي أنجاك مما هنالكا

وهو يشير بذلك في وضوح إلى فرار امرئ القيس من المعركة التي قُتل فيها أبوه ، ونراه يصف هذه المعركة ، ويصرح بهزيمة كندة فيها وقَتْل حُجْر إذ يقول معرّضاً بامرئ القيس وساخراً من وعيده وتهديده لقومه[(٢)] :

يا ذا المخوِّفنـا بقَتْـ ... ـلِ أَبيه إذلالاً وحَيْنا[(٣)]

أزعمتَ أنك قد قتلـ ... ـتَ سَرَاتنا كذباً ومَيْنا[(٤)]

هـلاَّ على حُجْر ابن أُمِّ ... قَطام تبكى لا علينا

هلا سألت جموع كنـ ... ـدةَ يوم ولَّوا أين أينا

أيام نضربُ هامهم ... ببواترٍ حتى انحنينا[(٥)]

ويتكرر في ديوان عبَيد وصف نهاية حجر ومُلك كندة على أسد بهذه الصورة مراراً[(٦)] مما يدل على أن رواية الهيثم بن عدى أكثر قربـًا إلى الصحة والصدق وأن الروايات الأخرى دخلها الفساد والانتحال .

---

(١) ديوان عبيد بن الأبرص (طبعة لايل) ص ٥٣ .

(٢) الديوان ص ٢٧ .

(٣) الحين : الموت .

(٤) السراة : السادة ، المين : الكذب .

(٥) السيوف البواتر : القاطعة .

(٦) انظر ديوان عبيد القصائد رقم ٤ ، ١٧ ، ٢٦ .

٢

حياته

تتردد فى كتب الأدب أسماء مختلفة لامرئ القيس ، فيسمى حُنْدجاً وعدياً ومُلَيْكة[١] . ويُكنى بأبى وهب وأبى زيد وأبى الحارث ويلقّب بذى القروح والملك الضِّليل[٢] ، وأشهر ألقابه امرؤ القيس ، والقيس من أصنامهم فى الجاهلية كانوا يعبدونه وينتسبون إليه . وأبوه حُجْر بن الحارث كما مر بنا . أما أمه ففاطمة بنت ربيعة أخت كليب ومهلهل التغلبيين[٣] . ووهم بعض الرواة فى نسبه ، فقالوا إنه امرؤ القيس بن السِّمْط بن امرئ القيس بن عمرو الكندى ، وإن أمه تَمْلك بنت عمرو بن زُبَيْد بن مَذْحج من رهط عمرو بن معد يكرب[٤] . وهو خلط أوقعهم فيه تشابه اسمه مع اسم هذا الشاعر ، وكان فى الجاهلية ستة عشر شاعراً كلهم يتسمى باسم امرئ القيس .

ولا نعرف سنة مولده ، ويظن أنه وُلد فى أوائل القرن السادس للميلاد ، وليس بين أيدينا أى شىء واضح عن نشأته وكيف أمضى أيامه الأولى فى شبابه إلا أخباراً تغلب عليها الأسطورة ، من ذلك مارواه[٥] هشام الكلبى إذ يزعم أن أباه حجراً طرده وآلى (أقسم) أن لا يقيم معه أنفة من قوله الشعر ، وكانت الملوك تأنف من ذلك ، فكان يسير فى أحياء العرب ومعه أخلاط من شُذّاذ القبائل : من طيئ وكلب وبكر ابن وائل ، فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه فى كل يوم وخرج إلى الصيد ، فتصيّد ثم عاد ، فأكل وأكلوا معه ، وشرب الخمر ، وسقاهم ، وغنته قيانه . ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير ، ثم ينتقل عنه إلى

---

(١) انظر جواد على ٣/٢٥٣ و Olinder ص ٩٥ وشرح المعلقات السبع للزوزنى ص ١ وما بعدها والمؤتلف والمختلف للآمدى ص ٩ وجمهرة أشعار العرب ص ٢٠ والمزهر للسيوطى ٢/٤٢٢ وشرح شواهد المغنى له ص ٦ .

(٢) الأغانى ٩/٧٨ وانظر ترجمته فى الشعر والشعراء لابن قتيبة (طبعة دار المعارف) ١/٥٢ وما بعدها .

(٣) أغانى ٩/٧٧ .

(٤) أغانى ٩/٧٧ .

(٥) أغانى ٩/٨٧ وما بعدها .

غيره . فأتاه خبر أبيه ومقتله وهو بدَمّون من أرض اليمن ، أتاه به رجل من بنى عِجْل يقال له عامر الأعور أخو الوصّاف ، فلما أتاه بذلك قال :

تَطاول الليلُ علىَّ دَمُّونْ دَمُّونُ إنا معشرٌ يمانونْ

وإننا لأَهلنـــا محبُّون

ثم قال : ضيَّعنى صغيراً وحمَّلنى دمه كبيراً ، لا صَحْوَ اليوم ولا سكر غداً ، اليوم خمرٌ وغداً أمرٌ . فذهبت مثلا ، ثم قال :

خليلىَّ لا فى اليوم مَصْحًى لشاربٍ ولا فى غدٍ إذ ذاك ما كان يُشْرَبُ

ثم شرب سبعاً ، فلما صَحِيَ آلى أن لا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يدَّهن بدهن (طيب) ولا يقرب النساء حتى يدرك بثأره ، فلما جَنَّه الليل رأى برقاً ، فقال :

أرِقتُ لبَرْقٍ بليلٍ أهــلْ يضىء سَناه بأعلى الجبَلْ

أتانى حديثٌ فكذَّبْتُــهُ بأمرٍ تزعزعُ منه القُلَلْ(١)

بقتل بنى أسدٍ ربَّهم ألا كلُّ شىء سواه جَلَلْ(٢)

فأين ربيعةُ عن ربِّها وأين تميمٌ وأين الخَوَل(٣)

ألا يحضرون لدى بابِه كما يحضرون إذا ما أكل

وواضح أن هذا الخبر يخالف رواية الهيثم بن عدى السابقة فى مقتل حُجْر والتى تذكر أن امرأ القيس كان مع أبيه فى حربه لبنى أسد وأنه فرّ حين هُزمت كندة وقتل أبوه ، فهو من منحولات ابن الكلبي . ومثله الخبر الذى ساقه ابن قتيبة ، إذ يقول إن أباه طرده لما صنع فى الشعر بفاطمة ابنة عمه ما صنع ، وكان لها عاشقاً ، فطلبها زماناً فلم يصل إليها ، وكان يطلب منها غرّة ، حتى كان منها يوم الغدير بدارة جُلْجل ما كان فقال قصيدته : (قفا نَبْكِ من ذكرى حبيب ومنزل) فلما بلغ ذلك أباه دعا مولى يقال له ربيعة ، فقال له : اقتل امرأ القيس وائتنى بعينيه ،

---

(١) القلل : قم الجبال .

(٢) جلل هنا : هين .

(٣) الخول : العبيد .

فذبح جُؤْذرا[١] ، فأتاه بعينيه . وندم حجر على ذلك ، فقال : أبيت اللعن ! إنى لم أقتله ، قال : فأتنى به . . فردّه إلى أبيه ، فنهاه عن قول الشعر ، ثم إنه قال قصيدته : (ألا انعم صباحاً أيها الطلل البالى) فبلغ ذلك أباه فطرده ، فبلغه مقتل أبيه بدَمّون[٢] . وواضح أن هذا الخبر يلتقى بسابقه ويكتمل بنفس أسلوبه فهو منتحل، صُنع تعليقاً وتوضيحاً لبعض أبيات معلقته التى يذكر فيها صاحبته فاطمة ويذكر معها يوم دارة جُلْجل . ومثل هذين الخبرين ما قاله بعض الرواة من أن أباه طرده لتغزله ببعض نسائه .

والحق أن هذه الأخبار ظاهرة الانتحال هى وكل ما يتصل بها من أشعار يسوقونها على لسانه ، وكأن ابن الكلبى وغيره من الرواة استلهموا ما تدل عليه أشعاره الصحيحة من أنه كان صبًّا بالشراب والصيد ومغازلة النساء ، فلفقوا هذه الأخبار ، وضمنوها بعض الأشعار . وفاتهم أنه عاش فى عصر الوثنية وأنه كان أميراً من أسرة تفرض سيادتها على كثير من القبائل فلا عجب أن يحيا حياة لاهية لا تتورع عن الإثم .

على أن الدهر لم يلبث أن قلب لهذا الفتى العاكف على الصيد واللهو ظهر المجن ، فإذا أبوه يقتل ، وإذا هو موتور ، لا بد له من أخذ ثأره على عادة العرب ، ولا بد أن يجاهد فى سبيل استرداد ملك آبائه وملك كندة قبيلته على بنى أسد قَتَلة أبيه . ويظهر أن بنى أسد خافوا العاقبة، فأرسلوا إليه — فى رواية للخليل بن أحمد — وفداً للمفاوضة ، وعرض عليه الوفد إحدى ثلاث : القصاص أو الفداء أو النَّظِرة (الإمهال)حتى تضع الحوامل ، فتُعْقَد الرايات وتكون الحرب ، فقال : « لقد علمت العربُ أن لا كفء لحُجْر فى دم ، وإنى لن أعتاض به جملا أو ناقة ، فأكتسب بذلك سُبّة الأبد، وفَتّ العَضُد ،وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنّة فى بطون أمهاتها ، ولن أكون لعَطبها سببا، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل القلوب حَنَقاً وفوق الأسنة عَلَقا(دما) ورويداً ينكشف لكم دُجاها عن فرسان كندة وكتائب حمير ، فنهضوا عنه[٣] » وقد عرفوا أنه طالبهم .

---

(١) الجؤذر : ولد البقرة الوحشية .

(٢) انظر الشعر والشعراء ١/٥٤ وشرح شواهد المغنى للسيوطى ص ٦ .

(٣) الأغانى ٩/١٠٣ وما بعدها .

ويلقانا قصص كثير عن طلبه لبنى أسد ، وأكثره مما رواه ابن الكلبي [١] ، إذ يزعم أنه ارتحل حتى نزل بكرا وتغلب فسألهم النصر على بنى أسد . وعلمت بنو أسد بما يدبّرلهم ، فارتحلوا ولجئوا إلى بنى كنانة ، فاختلطوا بهم. وأقبل امرؤ القيس بمن معه من بكر وتغلب حتى انتهى إلى بنى كنانة ، وهو يحسبهم بنى أسد ، فوضع السلاح فيهم . فأعلموه أنهم ليسوا طَلِبَتَهُ . وكان بنو أسد قد عرفوا قدومه بمن معه ، فرحلوا ، فتبعهم حتى لحقهم ، وقاتلهم ، حتى كثرت الجرحى والقتلى فيهم ، وحَجز الليل بينهم ، فهربت بنو أسد. فلما أصبحت بكر وتغلب أبوا أن يتبعوهم ، وقالوا له : قد أصبت ثأرك ، وانصرفوا عنه . ومضى لوجهه حتى لحق حمير ، فاستنصر أزْدَ شنوءة فأبوا أن ينصروه ، فنزل بقَيْل (أمير) يدعى مَرْثد الخير الحميرى فأمدّه بخمسمائة رجل ، وتبعه شذاذ من العرب واستأجر من القبائل رجالا ، فسار بهم إلى بنى أسد ، ويقال إنهم عادوا فتركوه ، ويقال إنه لجأ إلى عمرو بن المنذر ابن ماء السماء وذكّر ما بينهما من صهر فأجاره ، وبلغ المنذر مكانه فطلبه ، فهرب . وفى رواية إن المنذر ألحّ فى طلبه ووجه الجيوش إليه فلجأ إلى الحارث بن شهاب من بنى يربوع بن حنظلة ، فأرسل إليه المنذر مائة من رجاله ينذره بالحرب إن لم يسلم امرأ القيس ومن معه من بنى آكل المُرار . فخرج امرؤ القيس على وجهه حتى نزل فى أرض طيئ وقيل بل نزل قبلهم على سعد بن الضِّباب الإيادى فأجاره ، ثم تحول عنه إلى المعلّى بن تَيم الطائى ، فأكرمه . وولى وجهه نحو عشيرة بنى نَبْهان الطائية ، فبذلت له من مالها ، ثم خرج عنها فنزل بعامر بن جُوَيْن الطائى . وكان المنذر لا يزال يتبعه ، فتحول عن طيئ إلى رجل من بنى فزارة يسمى عمرو بن جابر فدله على السموأل بن عادياء صاحب حصن الأبلق بتيماء ، فلجأ إليه . وهنا يزعم ابن الكلبي وغيره من الرواة أنه طلب منه أن يكتب له إلى الحارث بن جبلة الغسانى بالشام ليوصّله إلى قيصر ، واستودعه أهله وأمواله وما كان معه من سلاح . ومضى حتى انتهى إلى قيصر فى القسطنطينية ، وهو حينئذ جوستنيان فأكرمه ورفع منزلته ، وضم إليه جيشاً كثيفاً . ولما فصَل اندسّ إلى جوستنيان رجل من بنى أسد يقال له الطمّاح فقال له : « إن امرأ القيس غَوِىّ عاهر ، وإنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه

---

(١) الأغانى ٩/٩٠ وما بعدها .

كان يراسل ابنتك ويواصلها، وهو قائل فى ذلك أشعاراً يشهّرها بها فى العرب ، فيفضحها ويفضحك. فبعث إليه القيصر حينئذ بحُلّة وَشْىٍ مسمومة منسوجة بالذهب ، وقال له : إنى أرسلت إليك بحلتى التى كنت ألبسها تكرمة لك ، فإذا وصلتْ إليك فالبسْها باليمن والبركة ، واكتبْ إلىّ بخبرك من منزل منزل . فلما وصلت إليه لبسها واشتد سروره بها، فأسرع فيه السم وسقط جلده، فلذلك سُمِّى ذا القُروح ، وقال فى ذلك :

لقد طمَح الطمَّاحُ من بُعد أَرضه ليُلْبسنى مما يلبَّس أبؤسا[1]

فلو أَنها نفسٌ تموت سَوِيَّةً ولكنها نفسٌ تساقط أنفسا

فلما صار إلى بلدة من بلاد الروم تدعى أنقرة احتُضر بها ، فقال:

رُبَّ خُطْبَةٍ مُسْحَنْفِرَهْ وطَعْنَةٍ مُثْعَنْجِرَه[2]

وجَفْنَةٍ مُتَحَيِّرَه حَلَّتْ بأَرض أنقره[3]

ورأى قبر امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدُفنت فى سفح جبل يقال له عَسيب فسأل عنها، فأُخْبر بقصتها فقال :

أَجارتَنا إن المزار قريبُ وإنى مقيمٌ ما أَقام عَسِيبُ

أَجارتنا إنا غريبان ها هنا وكلُّ غريبٍ للغريب نَسِيبُ

ثم مات فدفن إلى جنب المرأة ، فقبره هناك ! » .

وهذه الأخبار عن امرئ القيس بعد مقتل أبيه ومصيره رويتْ فى جملتها عن ابن الكلبى المتهم فيما يرويه ، والتلفيق فيها بين واضح . ويمكن أن يكون لها أصل ، تشهد به الحوادث ، وهو أن يكون امرؤ القيس حاول عبثاً استرداد ملك آبائه ، ولكنه مات دون تحقيق غايته . ومن الممكن أيضاً أن يكون قد حاول اللجوء إلى الحارث بن جبلة الغسانى وأنه أوصله إلى جوستنيان فى القسطنطينية ، غير أنه مات فى الطريق . ومن المحقق أن قصة ثأر جوستنيان لشرفه منه قصة منتحلة ، نسجها القصاص حين

---

(١) يريد بالأبؤس مالبسه من الحلة المسمومة.

(٢) مسحنفرة : مسهبة ، مثعنجرة : سائلة .

(٣) جفنة متحيرة : ممتلئة طعاماً ودسما .

وجدوه فى شعره يفخر بمغامراته الغرامية ، وكأنهم أرادوا أن لا يخلوه فى القسطنطينية من ضرب من ضروب هذه المغامرات الجريئة ، وقد تمادوا فجعلوه يدخل مع القيصر الحمام وقالوا إنه كان ينادمه، وإن ابنته نظرت إليه فعشقته وواصلته .

والحق أن القصص لعب دوراً واسعاً فى حياة امرئ القيس ، بحيث طُمست معالمها ، سواء قبل مقتل أبيه أو بعده ، ومن ثَمّ ذهب طه حسين إلى أن حياته بتفاصيلها وبما تزعمه من ذهابه إلى قيصر وموته فى رجوعه من عنده إنما هى تمثيل لحياة عبد الرحمن بن الأشعث الكندى الذى ثار على الحجاج وحاول الاستعانة بملك الترك ، وأخفق فى مسعاه[١] . وفيما ذهب إليه طه حسين ضرب من المبالغة والخيال البعيد .

وإذا رجعنا إلى المؤرخين البيزنطيين لم نجد عندهم أى إشارة إلى امرئ القيس ابن حُجْر الكندى وزيارته لبيزنطة وطلبه النصرة منها ضد المنذر بن ماء السماء، وقد ورد عند «بروكوبيوس» اسم شخص يدعى قيساً اقترن اسمه بغزو الحبشة لليمن سنة ٥٢٤ للميلاد ، ويقال إن القيصر طلب منه أن يقود الجيوش ضد الفرس ، وذكر « نونوسوس » أن جوستنيان كلفه بالسفارة لديه[٢] . ومن ثم ظن كوزان دى برسفال أن قيسا المذكور عند هذين المؤرخين هو امرؤ القيس[٣] ، وخاصة حين رآه يزور القسطنطينية ، وأكبر الظن أن هذا مجرد تشابه فى الأسماء .

على أن بعض المصادر التاريخية اليونانية ذكرت فى صراحة اسم شخص يدعى امرأ القيس كان من العرب التابعين لملوك الفرس ، وقد جعل يغير على القبائل فى شمالى الحجاز ويبسط سلطانه عليها وقد استطاع أن يستولى على جزيرة يوتابه Iotabe — جزيرة تيران الحالية فى مدخل خليج العقبة — ويطرد منها عمال المكوس من الروم، وعاد فرأى أن يصانع الروم ، مخافة غزوهم له ، فأرسل إلى بيزنطة أسقف العرب الذين خضعوا لحكمه سنة ٤٧٣ للميلاد ، ليفاوض قيصر فى أن يعينه حاكماً على جنوبى الأردن وساحل خليج العقبة ، ويمنحه لقب فيلارك . ونجح الأسقف فى

---

(١) فى الأدب الجاهلى ص ٢١١ وما بعدها .

(٢) جواد على ٣/٢٦٥ وما بعدها .

(٣) انظر جواد على فى نفس الصفحة .

سفارته ، ودعا القيصر امرأ القيس لزيارة عاصمته ، وبالغ فى إكرامه ، وعاد إلى بلاده[١] .

وواضح ، مما تذكره تلك المصادر اليونانية عن هذا الأمير وأنه كان من العرب التابعين لملوك الفرس ، أنه كان من اللخميين ، ولعل من الطريف أن محمد بن حبيب يذكر فى كتابه « المحبر » أن فيروز ملك الفرس (٤٥٧ — ٤٨٣ م) هو الذى نصب امرأ القيس بن المنذر اللخمى ملكاً ، وإذا رجعنا إلى ملوك الحيرة فى هذا التاريخ لم نجد بينهم من يتسمى بهذا الاسم ، وفى ذلك ما يؤكد ما تذكره المصادر اليونانية من أنه كان ملكاً فى شمالى الحجاز ، وكأنه بدأ كما تقول المصادر اليونانية موالياً للفرس ، ثم استقل عنهم ، وأصفى ولاءه للروم . ومرَّ بنا فى أخبار الحارث الكندى أنه استطاع أن يفرض سلطانه على القبائل العدنانية فى الشمال ، ومر بنا أيضاً أنه كان يُغير فى أواخر القرن الخامس على تخوم الروم ، وكان يقود هذه الغارات ابناه حُجر ومعد يكرب . وقد يكون فى ذلك ما يدل على أن الحارث استطاع أن يقضى على امرئ القيس اللخمى فى شمالى الحجاز وسواحل خليج العقبة ، وكأنه قضى على اللخميين فى غربى الجزيرة ، ومر بنا أنه استطاع أن يخضع إمارة الحيرة لسلطانه ؛ فكأنه قضى على دولتهم فى الغرب والشرق ، وإن كان ذلك لم يدم طويلا ، إذ سرعان ما ظهر المنذر بن ماء السماء يمده كسرى أنو شروان بجيوشه ، فقضى على خصمه الكندى ، وعادت الإمارة اللخمية الشرقية ، أما الإمارة الغربية فلم تعد ، فقد دخلت أملاكها فى ملك الغساسنة .

وإنما أطلنا فى بيان ذلك لندل على أن أخبار امرئ القيس بن حجر الكندى اختلطت فى ذاكرة العرب بأخبار امرئ القيس اللخمى[٢] ، ومن هنا كنا نظن ظنًّا أن امرأ القيس الشاعر الكندى لم يزر قيصر بيزنطة ، وكنا ندفع هذه القصة

---

(١) انظر جواد على ٣/٢٦٧ وما بعدها .

(٢) وبسبب من هذا الخلط قال هيار فى ترجمته له بدائرة المعارف الإسلامية : عمل الإمبراطور جستنيان بنصيحة الحارث بن جبلة الغسانى والى بادية الشام فدعا امرأ القيس إلى القسطنطينية حوالى عام ٥٣٠ م ليستعين به على الفرس ومكث هذا الشاعر طويلا بالقسطنطينية ، ثم استعمل على الشام وعلى القبائل التى تعيش هناك على الحدود ومن ثم لقب بلقب فيلارك أى الوالى ولكنه توفى فى أنقرة بين عامى ٥٣٠ و ٥٤٠ فى أثناء رحيله لتولى منصبه.

الطويلة التى نسجت حول مقتله . غير أننا لا نرتاب فى أنه حاول أن يأخذ بثأر أبيه ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح. ولم يلبث أن مات ، ولا نعرف بالضبط تاريخ موته ، ويغلب أن يكون بين سنتى ٥٣٠ و ٥٤٠ فإن القبائل انتقضت على أبيه وأعمامه منذ سنة ٥٢٨ وهى السنة التى توفّى فيها أو قُتل جده الحارث .

٣

ديوانه

طُبع ديوان امرئ القيس مراراً ، وكان أول من طبعه دى سلان (De Slane) بباريس سنة ١٨٣٧ وقد أخرجه من مخطوطتين لكتاب « دواوين الشعراء الستة » للشنتمرى ، وهى دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عَبدة ، ومعروف أن الشنتمرى يحتفظ فى شرحه لهذه الدواوين برواية الأصمعى ، وبعد أن ينتهى منها فى كل شاعر يضيف إليها بعض الزيادات من روايات أخرى . وقد نشر دى سلان الديوان باسم « نزهة ذوى الكيس وتحفة الأدباء فى قصائد امرئ القيس » وجَرَّدَ نشرته من شرح الشنتمرى .

وعُنى المستشرق ألوارد (Ahlwardt) بنشر الدواوين الستة فى سنة ١٨٧٠ ولم يأخذ برواية الشنتمرى فى ديوان امرئ القيس ، فقد نشره من نسخة مروية عن السكرى ، وألحق به غير قصيدة ومقطوعة مما وجده منسوباً إليه فى كتب الأدب والتاريخ. وطُبع الديوان بعد ذلك من صنعة أبى بكر البطليوسى فى مصر والهند وإيران. وأخرجه حسن السندوبى فى نشرة مرتبة على حروف المعجم ساق فيها كل ما وجده منسوباً إليه فى الكتب الأدبية والتاريخية . كما أخرجه مصطفى السقا مع بقية الشعراء الستة معتمداً على رواية الشنتمرى فى مجموعته التى سماها « مختار الشعر الجاهلى ».

وفى سنة ١٩٥٨ نشر محمد أبو الفضل إبراهيم الديوان نشرة علمية جديدة بدار المعارف فى القاهرة . واعتمد فى نشرته على طائفة من المخطوطات ، استطاع من خلالها أن يوزعه على رواياته . وبدأ برواية الأصمعى نقلا عن نسخة الشنتمرى التى تضم الدواوين الستة كما قدمنا والتى تحتفظ بسند وثيق يصل بين الشنتمرى والأصمعى ، فهى رواية موثقة، وهى تشتمل على ثمان وعشرين قصيدة ومقطوعة

بشرح الشنتمرى ، وأتبعها بتسع عشرة قصيدة ومقطوعة من رواية الطوسى وهى رواية كوفية ، ويلى ذلك زيادات من هذه الرواية نصّ الطوسى على انتحالها ، وتقع فى ٣٢ قصيدة ومقطوعة . ثم زيادات من نُسَخ السكرى وابن النحاس المصرى وأبى سهل عن بعض الكوفيين . وبذلك تبلغ قصائد الديوان ومقطوعاته مائة . وقد ألحق بها أبو الفضل تخريجاً دقيقاً . وإذا أخذنا نبحث فى هذه الروايات لاحظنا تواً أن أعلاها فى الثقة رواية الشنتمرى عن الأصمعى ، فهى موصولة السند ، وقد تلاها زيادات من روايات كوفية ، وبمجرد النظر فى تخريجها نجد كثيراً منها شك فيه الرواة ، ومعنى ذلك أن هذه الزيادات ليست وثيقة ، ولا يصح الأخذ بمضمونها والاعتماد عليها ، ومثلها الزيادات الأخرى عن السكرى وابن النحاس وأبى سهل.

وإذن فالرواية التى ينبغى أن نناقش الديوان ونفحصه على أساسها هى رواية الأصمعى ، وقبل مناقشتها ينبغى أن نلاحظ الشُّبَه العامة التى تحوم حول شعر امرئ القيس ، ولعل أهمها ما جاء على لسان الأصمعى نفسه إذ رُوى عنه أنه كان يقول: « كل شىء فى أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا نتفاً سمعناها من الأعراب وأبى عمرو بن العلاء »[1] وحماد فى أشعاره يقابل ابن الكلبى فى أخباره فأكثرها من منحوله . وفى الموشح للمرزبانى : « يقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه . وعن الرياشى يقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس ليس له ، وإنما هو لفتيان كانوا يكونون معه مثل عمرو بن قميئة وغيره »[2] .

ولا بد أن نضيف إلى ذلك قدم عهد امرئ القيس ، فقد بعدت الرواية بينه وبين عصور التدوين ، وقد أديل من قومه ، ولم يعد لهم شأن منذ زوال دولة آبائه . ولا بد أن نضيف أيضاً أنه كان فى العصر الجاهلى كثير من الشعراء الذين تسموا باسم امرئ القيس ، حتى يقال إنهم بلغوا ستة عشر ، وقد تداخل شعرهم فى شعره . وينبغى أن لا ننسى أبداً أن رواية الأصمعى بشهادته غير وثيقة ، لما دخلها من رواية حماد . وأمامنا الرواة الآخرون غير الأصمعى يلاحظون كثرة ما دخل من انتحال فى شعر امرئ القيس حتى لنرى الطوسى يفرد لذلك فصلين فى نسخته . فصل يذكر فيه القديم المنحول ، وفصل يفرده للمستحدث المصنوع .

---

(١) مراتب النحويين ص٧٢ .

(٢) الموشح ص ٣٤ وانظر ابن سلام ص ١٣٤ .

نحن إذن بإزاء شاعر زُيِّفت أخباره وزيف عليه كثير من أشعاره ، ولذلك ينبغي أن نتلقى رواية الأصمعي بغير قليل من الحذر والاحتراس، وأول ما يلقانا فيها معلقته ، وهي بين المعلقات التي يقال إن حماداً أول من رواها ، غير أن روايته لها شُفعت بروايات أخرى لرواة موثقين فقد رواها المفضل الضبي ورواها الأصمعي إلا أنه أنكر منها أربعة أبيات ، وهي التي تبتدئ بقوله :

وقِرْبَة أقوامٍ جعلت عصامَها . على كاهل مني ذَلولٍ مُرَحَّلِ[١]

لأنها لاتشاكل شعره ، إنما تشاكل شعر الصعاليك ، ومن ثَمَّ نسبها بعض الرواة إلى تأبط شراً[٢] . وتليها قصيدته (ألا عِمْ صباحاً أيها الطلل البالى) وهي من روح القصيدة السابقة ، ولم يشك فيها الرواة ، فهي وثيقة عند المفضل الضبي والأصمعي وأبي عبيدة، ولذلك كنا نثبتها له . أما القصيدة الثالثة (خليليَّ مُرَّا بى على أم جُنْدب) التي يقال إنه نظمها استجابة لزوجته أم جندب حتى تحكم بينه وبين علقمة الفحل أيهما أشعر فإن القدماء شكوا فيها واتهموها هي وما يطوى فيها من قصة أم جندب[٣] على أن من الرواة من لاحظ أنها اختلطت بقصيدة على وزنها ورويها لعلقمة بن عبدة[٤] ، ولعل هذا هو الذى جعل بعض الرواة يصنع قصة المعارضة وأن أم جندب حكمت بين الشاعرين ، غير ملاحظين أن علقمة كان يعيش فى أوائل القرن السابع ، فهو ليس من معاصرى امرئ القيس .

والقصيدة الرابعة (سمالك شوق بعد ما كان أقصرا) تصف رحلته إلى قيصر وصفاً مسهباً ، ويكفى ذلك لردها لأن كل ما يتصل بهذه الرحلة مما وضعه ابن الكلبي وأضرابه . وشك الأصمعي نفسه فى القصيدة الخامسة (أعنِّى على برْق أراه وميضِ) وقال إنها تنسب فى بعض الروايات لأبى دُؤَاد الايادى[٥] . ويمكن أن نقبل القصيدة السادسة (غشيت ديار الحىِّ بالبكرات) وربما كانت مما قاله بعد مقتل أبيه . أما القصيدة السابعة (ألا إن قوماً كنتمُ أمس دونهم) وهي فى مديح عُوَيْر بن

---

(١) عصام القربة : الحبل الذى تحمل به ، مرحل : تعود الرحلة .
(٢) انظر ديوان امرىء القيس (طبع دار المعارف) ص ٣٧٢ .
(٣) الموشح ص ٣٠ .
(٤) ديوان امرئ القيس ص ٣٨١ وانظر كتاب الخيل لأبى عبيدة ص ١٣٦ .
(٥) الديوان ص ٧٢ .

شِجْنة التميمى فلم يروها الطوسى بين ما رواه عن المفضل الضبى (١) ، ولذلك كنا ندفعها لأنها لم تثبت فيما يظهر عند المفضل . وشك أبو عبيدة فى القصيدة الثامنة (لمن طللٌ أبصرته فشجانى) وقال إنها محمولة عليه (٢) . والقصيدة التاسعة (قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان) تذكر خشبات كان يُحْمَلُ عليها فى مرضه، فهى تتصل بقصة رحلته إلى قيصر ، وهى لذلك لا يمكن الاطمئنان إلى صحتها . والمقطوعة العاشرة (دع عنك نهباً صيح فى حَجَرَاته) قيلت فى مديح نَبْهَانِىٍّ أجاره فى أثناء طوافه فى القبائل ومطاردة المنذر له وربما كانت صحيحة . والقصيدة الحادية عشرة (أرانا موضعين لأمر غيب) جيدة ، وهى مما رواه الأصمعى عن أبى عمرو ابن العلاء (٣) . أما القصيدة الثانية عشرة (أماوىّ هل لى عندكم من معرّس) فقد روى أبو عمرو الشيبانى أنها لبشر بن أبى خازم الأسدى (٤) . والقصيدة الثالثة عشرة (ألما على الربع القديم بعسعسا) تشير بعض أبياتها إلى قصة الحلة المسمومة ، ولذلك كنا نرفضها . ويمكن أن نقبل القصيدة الرابعة عشرة التى نظمها فى مديح سعد بن الضباب الإيادى حين أجاره والتى يستهلها بقوله (لعمرك ما قلبى إلى أهله بحُرّ) وهى مما أثبته له الأصمعى وأبو عبيدة والمفضل جميعاً . وكذلك يمكن أن نقبل المقطوعة الخامسة عشرة (لمن الديار غشيتها بسُحام) وهى فى عتاب سُبَيع بن عوف ومما قاله بعد مقتل أبيه .

أما المقطوعة السادسة عشرة (يا دار ماوية بالحائل) فقد أنكرها الطوسى وقال عن أحمد بن حاتم إنه لم يجد أحداً من الرواة يعرفها (٥). ولا ريب فى أن المقطوعة السابعة عشرة (رب رام من بنى ثُعَلٍ) محمولة عليه، لأنها تصف عمرو بن المسبح الطائى ورميه للصيد، وكان من أرمى العرب له ، وزمنه متأخر عن زمن امرئ القيس ، إذ وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم فيمن وفد عليه من العرب (٦) . والمقطوعة الثامنة عشرة (يا هند لا تَنْكحى بوهة) أنكر الآمدى نسبتها إليه ، وقال إنها لامرئ القيس بن مالك الحميرى (٧) . أما المقطوعة التاسعة عشرة (ألا قبح الله البراجم كلها) التى نظمها فى

(١) الديوان ص ٣٩٧ .
(٢) الديوان ص ٣٩٨ .
(٣) الديوان ص ٤٠٢ .
(٤) الديوان ص ٤٠٤ .
(٥) الديوان ص ٤١١ .
(٦) الاشتقاق لابن دريد (طبعة جوتنجن) ٢/٢٣٢ .
(٧) معجم الشعراء ص ١٢ وانظر الديوان ص ١٣ .

هجاء قبائل من تميم حين تخذلت عمه شرحبيل فى يوم الكلاب فقد كان ابن الأعرابى لايعرفها[١] . وأما المقطوعة رقم ٢٠ (إن بنى عوف ابتنوا حَسَباً) التى قالها فى مديح عُوَيْر بن شِجْنة فيمكن أن تكون صحيحة . وأما المقطوعة رقم ٢١ (والله لا يذهب شيخى باطلا) فأغلب الظن أنها منتحلة لأنهم يروون أنه قالها حين بلغه مقتل أبيه ومرّ بنا فى رواية الهيثم بن عدى أنه كان حاضراً مقتله . وقد أنكر الأصمعى المقطوعة رقم ٢٢ (ألا إلا تكن إبلٌ فمعزى)[٢] . ويمكن أن تكون المقطوعة رقم ٢٣ (ألا يا لهف هند إثر قوم) التى يقال إنه نظمها حين أخطأ بنى أسد وأوقع ببنى كنانة صحيحة ، ومثلها المقطوعة رقم ٢٤ التى يمدح فيها المعلّى الطائى والمقطوعة الخامسة والعشرون وأختها السادسة والعشرون ، وهما مما نظمه فى أثناء مطاردة المنذر له . أما المقطوعة السابعة والعشرون (ديمة هَطْلاء فيها وَطف) فمما رواه الأصمعى عن أبى عمرو ابن العلاء عن ذى الرمة[٣] ، وهى لذلك من شعره الوثيق ، أما الثامنة والعشرون التى تدور على إجازة الشطور بينه وبين التوءم اليشكرى ، بحيث يقول امرؤ القيس شطراً ويتم البيت التوءم فأغلب الظن أنها من صنع الرواة ، ولعل اتهامها هو الذى جعل الطوسى لا يرويها بين ما أسند روايته إلى الراوى الثبت المفضل الضبى .

وإذن لا يبقى صحيحاً من رواية الأصمعى سوى القصيدتين الأوليين ، وهما مطولتان ، ومثلهما فى الصحة والثقة القصيدة الحادية عشرة والمقطوعة السابعة والعشرون لأنهما رُويتا عن أبى عمرو بن العلاء ، وتظل بعد ذلك المقطوعات أرقام ٦ ، ١٠ ، ١٤ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ قابلة لأن تكون صحيحة . على أن كثرتها الكثيرة نُظمت — إن صحت — بعد مقتل أبيه ، يتعرض فيها لمن أجاروه ومن ردوه ، وقد رُويت طائفة منها على لسان ابن الكلبى فى أثناء حديثه الذى رواه له صاحب الأغانى عن طلب امرئ القيس لبنى أسد واستعدائه القبائلَ عليهم ، ولذلك قلنا إنها يمكن أن تكون صحيحة . وكأنما الثابت الصحيح له إنما هو المعلقة أو القصيدة الأولى فى ديوانه ، وتاليتها ، ثم ما أنشده له أبو عمرو بن العلاء ، أو بعبارة أخرى القصيدة الحادية عشرة والمقطوعة السابعة والعشرون .

---

(١) الديوان ص ١٤٤ .
(٢) الديوان ص ١٣٧ .
(٣) الديوان ص ١٤٤ .

٤

شعره

حاول طه حسين أن يردَّ شعر امرئ القيس جميعه ، لأنه يمنى من كندة وشعره قرشىّ اللغة ، وقد مرّ بنا فى غير هذا الموضع أن كندة إن كانت يمنية الجنس فقد كانت عدنانية اللغة ، كما مر بنا أن لغة قريش هى التى سادت وذاعت منذ أوائل العصر الجاهلى على لسان جميع الشعراء الشماليين سواء منهم من ينتسب إلى القبائل العدنانية ومن ينتسب إلى القبائل اليمنية ، وقد أسلفنا أن أشعاره وأخباره دخلها وضعٌ كثير . غير أن هذا كله لا ينتهى بنا إلى إنكار شعره جملة ، وقد رأينا أننا لم نُبْق منه إلا على قلة قليلة .

ولعل أول ما يلاحظ على هذه الأشعار القليلة أنها تنقسم قسمين واضحين : قسما نظمه قبل مقتل أبيه وقسما نظمه بعد مقتله . أما القسم الأول فلا يعدو المعلقة ، والمطولة الثانية فى ديوانه (ألا عِمْ صباحاً أيها الطلل البالى) وهما جميعاً مما رواه الأصمعى والمفضل الضبى وأبو عبيدة كما يتبين من تخريجهما فى طبعة الديوان بدار المعارف . وإذا رجعنا إلى المعلقة وجدنا فيها جزءاً خاصًّا بوصف البرق والمطر والسيول ، ونجد نفس الموضوع فى القطعة السابعة والعشرين التى رواها أبو عمرو بن العلاء عن ذى الرمة . ولعل فى ذلك ما يؤكد صحة هذا الجزء على الأقل . ونحن نعرف أن امرأ القيس شبّ فى ديار بنى أسد بالقرب من تيماء[١] ، وأن عبيد بن الأبرص كان يعاصره ، وقد اشتهر بين الرواة بوصفه للمطر وإحسانه فيه[٢] . واجتماعهما على هذا الوصف دليل بيِّن على صحة ما ينسب إلى امرئ القيس منه .

ومعنى ذلك أن المعلقة تحمل بين ثناياها ما يؤكد نسبتها إلى امرئ القيس ، وهو يستهلها بقوله :

قفا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ ... بِسِقْط اللِّوَى بين الدخول فحَوْمَلِ[٣]

---

(١) لعل من أكبر الدلالة على ذلك الأمكنة التى يذكرها فى معلقته فجميعها من منازل بنى أسد .

(٢) ابن سلام ص ٧٦ .

(٣) السقط : منقطع الرمل ، واللوى حيث يلتوى ويرق . وإنما خص منقطع الرمل وملتواه لأنهم كانوا لاينزلون إلا فى صلابة من الأرض ، والدخول وحومل : موضعان .

وقد عدّ القدماء هذا المطلع من مبتكراته ، إذ وقف واستوقف وبكى وأبكى من معه وذكر الحبيبَ والمنزل ، ثم أخذ يصور لنا كيف كان أصحابه يحاولون أن ينفّسوا عنه ، وهو غارق فى ذكرياته وبكائه وإرسال دموعه وزفراته وانتقل انتقالا سريعاً يقصُّ علينا مغامراته مع النساء ، وكأنه يريد أن يستثير صاحبته فاطمة وأن يزرع الغيرة فى قلبها ، فهو يذكر لها بعض صواحبه اللائى أبكينه وبرّح به حبهن مثل أم الحُوَيْرث وأم الرَّباب ، ثم يفيض فى وصف يوم عُنَيْزة مصوراً كيف كان ينال منها وكيف كانت تدلُّ عليه أحياناً ، وفى أثناء ذلك يتعهر ولا يتستّر ، فيقول لعنيزة بيته المشهور :

فمثلكِ حُبْلَى قد طرقتُ ومُرْضِعاً　　فألْهَيْتها عن ذى تمائمَ مُغْيَلِ (١)

ثم يعود فيبثُّ فاطمة حبه مصوراً دلالها ، ومعاتباً لها عتاباً رقيقاً ، فى تلك الأبيات البديعة :

أفاطمَ مهلا بعضَ هذا التدلُّلِ　　وإن كنتِ قد أزمعتِ صَرْمى فأَجْملى (٢)

وإن كنتِ قد ساءَتْك منى خليقةٌ　　فسُلِّى ثيابى من ثيابكِ تَنْسُلِ (٣)

أغرَّكِ منى أن حبك قاتلى　　وأنك مهما تأْمرى القلبَ يَفْعَلِ

وما ذرفَتْ عيناك إلا لتَقْدَحِى　　بِسَهْمَيْكِ فى أَعْشار قلبٍ مُقَتَّلِ (٤)

وما يلبث أن يرجع إلى استثارة فاطمة بمغامرة جريئة له مع مَنْ كنى عنها ببيضة خِدْرٍ لا يرام خباؤها ، مصوراً كيف اقتحم إليها الأهوال والأحراس وكيف انتحى

---

(١) التمائم : جمع تميمة وهى العوذة تعلق على الصبى ، المغيل : المرضع .

(٢) بعض هذا التدلل : أى كفى عن بعضه ، وأزمعت : عزمت ، وأجملى : من التجمل وهو ترك ما يقبح .

(٣) سلى ثيابى من ثيابك : انزعى أمرى من أمرك ، وتنسل : تسقط .

(٤) ذرفت العين : سال دمعها ، الأعشار : القطع ، يقول : ما بكيت إلا لتجرحى قلباً مكسراً .

بها ناحية من الحى يتبادلان فيها الصبابة والغرام ، يقول :

وبَيْضةِ خِدْرٍ لا يُرَامُ خِباؤُها ... تمتَّعْتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ (١)

تجاوزتُ أَحراساً وأَهوال مَعْشرٍ ... علىَّ حِراصٍ لو يُشِرُّون مَقْتَلِي (٢)

إذا ما الثُّرَيَّا فى السماء تعرَّضَتْ ... تعرُّضَ أَثناءِ الوشاحِ المفصَّل (٣)

فجِئتُ وقد نَضَتْ لنومٍ ثيابها ... لَدى السِّترِ إلا لِبْسَةَ المُتَفَضِّل (٤)

فقالتْ يمينُ الله مالك حِيلَةٌ ... وما إنْ أَرى عنك العَمايةَ تَنْجَلى (٥)

خرجتُ بها تمشي تجرُّ وراءَنا ... على أَثَرَيْنَا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّل (٦)

فلما أَجزْنا ساحةَ الحيِّ وانتحى ... بنابَطْنُ حِقْفٍ ذِى رُكام عَقَنْقَل (٧)

إذا التفتتْ نحوى تضوَّعَ ريحُها ... نسيمَ الصَّباجاءتْ بريَّا القَرَنْفُلِ (٨)

إذا قلتُ هاتِى نَوِّلِينى تمايلتْ ... علىَّ هَضيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَل (٩)

فهو يذكر خِدْرها وأحراسها ومنَعتها، وكيف وصل إليها وقد استعدَّت للنوم وما كان بينه وبينها من حوار ، وكيف أطاعته وخرجت معه من الحى إلى مكان بعيد لا تراهما فيه العيون ، وكيف كانت تعفّى آثار أقدامهما بأذيال ثوبها الموشى ، واسترسل يصف محاسنها ومفاتن جسدها وأطرافها ، مصوراً كيف تستصبى الرجال وتعبث بقلوبهم .

---

(١) شبه صاحبته بالبيضة لبياضها ورقتها .

(٢) يشرون : يظهرون .

(٣) يقول : تجاوزت هذه الأحراس حين مالت الثريا للمغيب فأرتك جانباً منها على نحو ما ترى من جانب الوشاح حين يتلقاك بناحية منه ، والمفصل : الذى جعل بين كل خرزتين فيه لؤلؤة .

(٤) نضت : نزعت . اللبسة : هيئة اللباس . المتفضل : اللابس ثوباً واحداً .

(٥) العماية : الغواية والجهالة .

(٦) المرط : إزار من خز ، المرحل : الموشى .

(٧) أجزنا : قطعنا ، والساحة : الفناء . والحقف : المعوج من الرمل ، وركام : بعضه فوق بعض ، وعقنقل : منعقد متداخل . والواو فى وانتحى زائدة لأنها جواب لما .

(٨) تضوع : انتشر . الريا : الرائحة .

(٩) هضيم : ضامر ، الكشح : الخاصرة ، وريا المخلخل : أى أن موضع الخلخال من ساقيها ممتلىء .

ومن يقرأ هذه المغامرات القصصية عند امرئ القيس تفد على ذهنه توًّا مغامرات ابن أبى ربيعة فى غزله ، لا من حيث حواره مع النساء وحكايته لأحاديثهن وكلامهن فحسب ، بل أيضاً من حيث وصف الدبيب إليهن فى الليل ومنعة أحراسهن على نحو ما تصور ذلك رائيته المشهورة :

أَمِنْ آل نُعْمٍ أنتَ غادٍ فَمُبْكِرُ غداةَ غَدٍ أم رائحٌ فَمُهجِّرُ

وقد لاحظ طه حسين هذا التشابه فى غزل الشاعرين ، فأنكر ما ينسب إلى امرئ القيس من هذا الغزل القصصى الصريح وقال إنه انتُحل انتحالا ، انتحله بعض القصاص على غِرار ما وجدوا منه عند ابن أبى ربيعة[1] . وليس هناك ما يمنع أن يكون ابن أبى ربيعة قد عرف غزل امرئ القيس وتأثر به كما تقضى طبيعة التأثر إذ يتأثر اللاحق بالسابق ، ومن التحكم أن نرفض ذلك ، ولعل خيراً من هذا الرفض أن نقارن بين صنيعى الشاعرين فى وصف مثل هذه المغامرات وننفذ إلى ما بينهما من فروق ، فكلاهما حقًّا يتحدث عن زيارته لصواحبه وما يتجشم فيها من أهوال ، وما يكون بينه وبينهن من لهو ، غير أننا نلاحظ عند عمر كما تصور ذلك رائيته تفنناً فى رقة النجوى وفى كلف صواحبه به ، بينما يمضى امرؤ القيس فى وصف مغامراته مع النساء وصفاً حسيًّا حتى ليتحول فى بعض جوانبه إلى صورة من التهتك الخلقى الفاحش، على نحو ما أشرنا إلى ذلك فى حديثنا عن قضية الانتحال .

وكل ما يمكن أن يقال أن هذا المنحى من القصص الغرامى منحى قديم بدأه امرؤ القيس ونمّاه من بعده الأعشى[2] ، ثم كان العصر الأموى فتعلق به عمر بن أبى ربيعة وأضرابه . ولعل من الطريف أنه لا يتضح عند امرئ القيس فى المعلقة وحدها ، فمثلها المطولة (ألا عِمْ صباحاً أيها الطلَلُ البالى) فإنها تذهب نفس المذهب الذى رأيناه فى المعلقة، وهو يفتتحها بالوقوف على أطلال سلمى، ثم يفيض فى وصف مغامراته وعبثه الفاجر مع بعض النساء بالضبط على نحو ما رأينا فى المعلقة ، يقول :

---

(١) فى الأدب الجاهلى ص ٢٢١ .

(٢) ابن سلام ص ٣٥ .

سموتُ إليها بعد ما نام أهلُها — سموَّ حَبابِ الماء حالا على حالِ (١)
فقالتْ : سَباكَ اللهُ إنكَ فاضحى — ألستَ ترى السُّمَّار والناسَ أحوالى (٢)
فقلتُ : يمينَ الله أبرحُ قاعدًا — ولو قطَّعوا رأسى لديكِ وأوصالى
فلما تنازعْنــا الحديثَ وأسمحتْ — هَصرتُ بغُصْنٍ ذى شماريخَ ميَّالِ (٣)
وصِرْنا إلى الحُسْنَى ورقَّ كلامُنــا — ورُضْتُ فذَلَّتْ صعبةً أىَّ إذلالِ (٤)
فأصبحتُ معشوقاً وأصبح بَعْلُها — عليه القَتامُ سَيِّئَ الظنِّ والبالِ (٥)
يَغِطُّ غطيطَ البَكْرِ شُدَّ خِناقُهُ — ليقتلنى والمرءُ ليس بقتَّالِ (٦)
أيقتلنى والمَشْرَفِىُّ مُضــاجعى — ومسنونةٌ زرْقٌ كأَنْيابِ أغْوالِ (٧)

وكأن امرأ القيس هو الذى سبق إلى هذا الغزل الفاحش الصريح ، وتبعه الشعراء من بعده وإن لم يبلغوا مبلغه من الفحش والصراحة وقد تبعوه فى تشبيبه الذى يودعه مقدمات قصائده وما يطوى فيه من بكاء ولوعة .

ورجع فى معلقته بعد حديثه عن بَيْضة الخِدر يصف لصاحبته شقاءه بحبها وأنه لا يستمع فيه إلى نصيحة ناصح ، ولا إلى عذْل عاذل ، ويصور كيف يقتحم إليها الليل المخوف ، ويسترسل فى وصفه فيقول :

وليلٍ كموج البحر أرْخَى سُدولَهُ — علىَّ بأنواع الهموم ليَبْتَلِى (٨)
فقلت له لمــا تمطَّى بصُلْبِهِ — وأردفَ أعجازًا وناءَ بكلْكَلِ (٩)

---

(١) سموت إليها : يريد نهضت إليها شيئاً فشيئاً لئلا يشعر أحد بمكانى فكنت مثل حباب الماء يعلو بعضه بعضا فى رفق ومهل .

(٢) سباك : باعدك وأذهب عقلك .

(٣) تنازعنا : تبادلنا ، وأسمحت : انقادت وسهلت . وهصرت : جذبت : وأراد بالغصن قامتها وبالشماريخ شعرها شبهه بشماريخ النخل لكثرته وغزارته .

(٤) رضت : أذللت ، وذلت : لانت .

(٥) القتام : الغبار يريد أن بعلها ساءه ما رآه من ميلها إليه فأصبح كأنه مغبر كاسف الحال .

(٦) يغط : يردد صوتاً كصوت البكر وهو الشاب من الإبل يشد حبل فى خناقه ، فيسمع له غطيط ، كأنه يريد أن يقول إنه يردد صوتاً كصوت البعير المختنق .

(٧) المشرف : السيف ، والمسنونة الزرق : السهام .

(٨) السدول : الستور .

(٩) تمطى : امتد . بصلبه : بظهره . وفى رواية بجوزه والجوز : الوسط . والكلكل : الصدر ، وناء : نهض .

ألا أيُّها الليل الطويلُ ألا انْجَلِي بِصُبْحٍ وما الإصباحُ فيك بأَمْثَل [1]
فيالك من ليلٍ كأَن نجومه بكل مُغارِ الفتْل شُدَّتْ بِيَذْبُل [2]
كأَن الثُّريَّا عُلِّقَتْ فى مَصَامِها بأَمْرَاس كَتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَل [3]

فهو يتصور الليل بسواده وهمومه كأنه أمواج لا تنتهى ، ويحس كأنه طال وأسرف فى الطول حتى ليظن كأن نجومه شُدَّت بأسباب وأمراس من الجنادل والجبال فهى لا تتحرك ولا تزول ، كأنما سُمِّرتْ فى مكانها ، فهى لا تجرى ولا تسير ، وقد ردَّد الشعراء بعده هذا المعنى طويلا . ونراه يخرج منه إلى وصف فرسه وصيده ولذاته فيه ، وكأنه يريد أن يضع بين يدى صاحبته فروسيته وشجاعته ومهارته فى ركوب الخيل واصطياد الوحش ، يقول :

وقد أغْتَدِى والطيرُ فى وُكُناتها بمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوابدِ هَيْكَلِ [4]
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معاً كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ من عَلِ [5]
كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عن حال مَتْنِهِ كما زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بالمتنَزِّلِ [6]
مِسَحٍّ إذا ما السابحاتُ على الوَنَى أَثَرْنَ غُباراً بالكَدِيدِ المُرَكَّل [7]

---

(١) انجلى : انكشف . وما الإصباح بأمثل : يريد أنه مهموم فى الليل وفى الصبح .

(٢) مغار : شديد . يذبل : جبل .

(٣) المصام : مكانها الذى لا تبرحه ، والأمراس : جمع مرس وهو الحبل . والجندل : الحجارة الكبيرة ، والصم : جمع أصم وهو الصلب الشديد .

(٤) الوكنات : المواضع التى تأوى إليها الطير ليلا ، والمنجرد : الفرس قصير الشعر ، الأوابد : الوحش ، هيكل : ضخم .

(٥) الجلمود : الصخرة الصلبة ، حطه : أسقطه .

(٦) الكميت : الفرس الأحمر فى سواد . يزل : يسقط ، حال المتن : موضعه من وسط الظهر ، الصفواء : الصخرة الملساء ، المتنزل : النازل عليها .

(٧) مسح : عداء يصب الجرى صبا ، السابحات : الخيل المسرعة . الونى : الضعف والفتور . الكديد : ما غلظ من الأرض ، المركل : الذى ركلته الخيل بحوافرها . يريد أن حوافره لا تكاد تمس الأرض ، وهى لذلك لا تثير بها غباراً كما تصنع السابحات .

على العَقْبِ جَيَّاشٍ كأَنَّ اهتزامَهُ ... إِذَا جَاشَ فيه حَمْيُهُ غَلْيُ مِرْجَلِ[١]

يُطِيرُ الغُلامَ الخِفَّ عن صهواتِه ... ويُلْوِى بأَثْوابِ العنيفِ المُثَقَّلِ[٢]

دَرِيرٍ كخُذْروفِ الوليد أَمَرَّه ... تقلُّبُ كَفَّيْهِ بخيطٍ مُوَصَّلِ[٣]

له أَيطلا ظَبْيٍ وساقا نعـامةٍ ... وإِرْخاءُ سِرْحانٍ وتقريبُ تَتْفُلِ[٤]

كأَنَّ على الكِتْفَيْنِ منه إذا انْتَحَى ... مَدَاكَ عَروسٍ أَو صَرَايةَ حَنْظَلِ[٥]

وهو وصف رائع لفرسه الأشقر ، فقد صور سرعته تصويراً بديعاً . وبدأ فجعله قيداً لأوابد الوحش إذا انطلقت فى الصحراء فإنها لا تستطيع إفلاتاً منه كأنه قيد يأخذ بأرجلها . وهو لشدة حركته وسرعته يخيل إليك كأنه يفر ويكرّ فى الوقت نفسه وكأنه يقبل ويدبر فى آن واحد ، وكأنه جلمود صخر يهوى به السيل من ذروة جبل عال ، وإن لبْده لشدة حركته ليسقط عنه وينزلق كما تنزلق الصخرة من منحدر بعيد . وهو يصبُّ الجرى صبًّا ، ويسبق كل الخيل سبقاً ، لا يثير غباراً ولا نقعاً ، إنما هو أن يحركه راكبه فإذا به يغلى غليان القدر لا ينى ولا يفتر ، وإذا راكبه لا يستطيع الثبات عليه ، وما أشبهه فى سرعة انطلاقه بلعبة الخذروف الدوارة التى يلعب بها الصبيان ، إذ يَصلونها بخيط ويسرعون فى إمرارها إسراعاً . وهو فرس ضامر كأنه ظبى نافر ، فله خاصرتاه النحيلتان ، بل لكأنه نعامة خفيفة فله ساقاها الضئيلتان الصلبتان ، وهو يهوى فى الأرض كأنه الذئب الفزع ، ويقفز كأنه الثعلب الخائف ، وإذا اعترضك خُيِّل إليك للمعانه وبريقه أنك تنظر إلى مَداك عروس أو صَراية حنظل . واستطرد امرؤ القيس يتحدث عن صيده ، فوصف سرباً من بقر الوحش عنّ لهم فى الصحراء مصوراً كيف قيّده فرسه ، فإذا هو يلحق بأوائله

---

(١) العقب : جرى بعد جرى ، اهتزامه : صوت جوفه عند الجرى ، الحمى : الغلى ، المرجل : القدر .

(٢) يطير : يسقط ، الخف : الخفيف ، والصهوات : موضع اللبد من ظهره ، ويلوى بأثواب العنيف : يذهب بها . العنيف : الأخرق ، المثقل : الذى لا يحسن الركوب .

(٣) درير : سريع ، خيط موصل : وصلت أجزاؤه ، أمره : أمضاه .

(٤) السرحان : الذئب ، التتفل : الثعلب والإرخاء : العدو ، التقريب : القفز .

(٥) مداك العروس : حجر تسحق عليه طيبها فيبرق ، شبه به الفرس فى بريقه . الصراية : حنظلة صفراء براقة .

تاركاً وراءه ما تخلف منه . فصادوا ما ابتغوا ، وأخذ الطهاة يعدون لهم طعامهم بين مشوى ومطبوخ . وانتقل من ذلك إلى وصف الأمطار والسيول التى ألمت بمنازل قومه بنى أسد بالقرب من تيماء فى شمالى الحجاز ، يقول :

أَحارِ ترَى بَرْقاً كأَنَّ وميضَه ... كَلَمْعِ اليدين فى حَبِىٍّ مُكَلَّلِ (١)

يضِىءُ سَناهُ أَو مصابيحُ راهبٍ ... أَهانَ السَّليطَ فى الذُّبالِ المفتَّلِ (٢)

قعدتُ له وصحبتى بين حامِرٍ ... وبين إكام بُعْدَ ما مُتَأَمَّلِ (٣)

وأَضحى يَسُحُّ الماءَ عن كل فِيقةٍ ... يكبُّ على الأَذقان دَوْحَ الكَنَهْبَلِ (٤)

وتَيْماءَ لم يترك بها جِذْعَ نَخْلَةٍ ... ولا أُطُماً إلا مَشِيدا بجَنْدَلِ (٥)

كأَن طَمِيَّةَ المُجَيْمِرِ غُدْوَةً ... من السَّيْلِ والغُثَّاء فَلْكَةُ مِغْزَلِ (٦)

كأَن أَباناً فى أفانين وَدْقِهِ ... كبيرُ أُناسٍ فى بِجادٍ مُزَمَّلِ (٧)

وأَلقى بصحراء الغَبيط بَعاعَهُ ... نُزُولَ اليمانى ذى العِياب المخوَّلِ (٨)

كأَن سِباعا فيه غَرْقَى غُدَيَّةً ... بأَرْجائه القصوى أَنابيشُ عُنْصلِ (٩)

---

(١) حار : ترخيم حارث يعنى يا حارث ، وميض البرق : لمعانه . الحبى من السحاب : المتراكم ، وكذلك المكلل ، وقيل الحبى : الدانى من الأرض .

(٢) السنا : الضوء ، السليط : الزيت ، الذبال : الفتائل ، وأهانه هنا : أكثر منه ، ويروى أمال بمعنى رعى ، وهى أجود .

(٣) حامر وإكام : موضعان ، بعد ما متأمل : تأملته من مكان بعيد .

(٤) الفيقة : ما بين الحلبتين : يريد أنه يسح ثم يسكن ثم يسح . وعن : معناها هنا بعد ، يكب على الأذقان : يسقط ويلوى على الوجه ، الكنهبل : ماعظم من شجر العضاه ، والدوح : جمع دوحة وهى الشجرة كثيرة الورق والأغصان.

(٥) الأطم : البيت .

(٦) طمية : جبل ، المجيمر : أرض لبنى فزارة ، الغثاء : ما يحمله السيل من فتات الأشجار . وفلكة المغزل : ما استدار فوق رأسه .

(٧) أبان : جبل ، أفانين : ضروب . الودق : المطر ، البجاد : كساء مخطط ، ومزمل : صفة لكبير أناس أى أنه متدثر بثيابه ملتف بها .

(٨) الغبيط : موضع ، البعاع : الثقل ، العياب : الحقائب ، المخول : كثير المتاع والغلمان الذين يصحبونه .

(٩) غدية : حين يصبح الناس ، وأنابيش العنصل : جذور البصل البرى .

على قَطَنٍ بالشَّيْم أيمنُ صَوْبِهِ   وأيْسَرُهُ على السِّتار فيَذْبُلِ[1]

ألْقى بِبُسْيانٍ مع الليل بَرْكَهُ   فأنزل منه العُصْمَ من كل منزلِ[2]

وقد استهل القطعة بوصف وميض البرق وتألقه فى سحاب متراكم ، وشبّه هذا التألق واللمعان بحركة اليدين إذا أشير بهما أو كأنه مصابيح راهب يتوهج ضوؤها بما يمدها من زيت كثير . ويصف كيف جلس هو وأصحابه يتأملونه بين حامر وإكام ، والسحاب يسحّ سحاً ، حتى لتقتلع سيوله كل ما فى طريقها من أشجار العِضاه العظيمة . وتلك تيماء لم تترك بها نخلا ولا بيتاً ، إلا ما شيّد بالصخر ، فقد اجتثت كل ما مرت به وأتت عليه من قواعده وأصوله . وهذا طمية جبل المجيمر التفت به السيول وما تحمل من غثاء ، حتى لكأنه فلكة مغزل . وذاك أبان بما غطاه من هذا السيل والغثاء يشبه شيخاً ملتفاً فى كساء مخطط . وقد ألقى بصحراء الغبيط ثِقْله فنشر به من النباتات والأزهار ما يشبه ضروب الثياب الزاهية الألوان التى ينشرها التاجر اليمانى حين يعرضها للشراء . وما زالت السيول تفيض حتى علت آجام السباع فغرقت فى لججها وتراءت رءوسها للعين كأنها جذور البصل البرى . وقد تراكم السحاب وملأ أقطار السماء حتى ليظن مبصره أن أيمنه على قطن جبل بنى أسد وأيسره على الستار ويذبل مما يلى بلاد البحرين ، وعمّ المطر جبل بسيان حتى أنزل منه الأوعال التى كانت مستقرة به .

ولامرئ القيس مقطوعة فى الغيث والسيل تلتقى فى كثير من معانيها وصورها بهذه القطعة ، وهى ذات الرقم ٢٧ فى ديوانه ، وقد مر بنا أن أبا عمرو بن العلاء رواها عن ذى الرمة ، وهى تمضى على هذا النحو :

دِيمَةٌ هَطْلاءُ فيها وَطَفٌ   طَبَقُ الأرض تَحَرَّى وتَدُرّ[3]

---

(١) قطن : اسم جبل فى ديار بنى أسد ، الشيم : النظر إلى البرق والمطر . الستار و يذبل: جبلان .

(٢) بسيان : جبل ، والبرك : الصدر ، العصم : الأوعال .

(٣) الديمة : المطر الدائم ، هطلاء : كثيرة الهطل ، والوطف : الدنو من الأرض . طبق الأرض : تطبقها وتعمها لكثرة مطرها . تحرى : تعمد إلى الأمكنة وتثبت فيها . وتدر : يكثر ماؤها وترسل درّها .

تخرجُ الوَدَّ إذا ما أَشْجَذَتْ   وتُواريه إذا مـا تَشْتَكِرْ[١]

وتَرَى الضَّبَّ خفيفاً ماهرا   ثانيـا بُرْثُنَهُ ما يَنْعَفِـرْ[٢]

وترى الشَّجْرَاءَ فى رَيِّقِهِ   كرءوسٍ قُطِّعتْ فيها الخُمُرْ[٣]

سـاعةً ثم انتحاها وابِلٌ   ساقِطُ الأكناف واهٍ مُنْهَمِرْ[٤]

راحَ تَمْرِيه الصَّبا ثم انْتَحَى   فيه شُؤْبُوبُ جنوبٍ مُنْفَجِرْ[٥]

ثَجَّ حتى ضـاق عن آذِيِّهِ   عَرْضُ خَيْمٍ فجُفافٍ فَيُسُرْ[٦]

قـد غدا يحملنى فى أَنْفِهِ   لاحِقُ الإطْلَـيْنِ محبوكٌ مُمَرّ[٧]

وهو يصور فى هذه المقطوعة منظراً يماثل المنظر السابق ، فالمطر ينهمر حتى يعم الأرض من حوله ، وهو يدنو لها ويدنو منها بأهدابه، وحيناً يُقلع فتبدو الأوتاد من الأرض ولا يلبث أن يعود وتكثر سيوله فتتوارى عن الأنظار . وتُتْرَعُ القيعان فيخرج الضبُّ من جحره يعدو عدواً سريعاً لما يرى من كثرة المطر . وما تزال السيول تتدفق حتى تغمر الأشجار بل حتى لا يبدو منها إلا أعاليها ، فتتراءى كأنها رءوس معممة قطعت فى ساحة حرب عنيفة . وظل المطر على هذا الانصباب الشديد فترة لم تنكشف بعدها السماء، فقد ألقت السحب بوَبْلها وأثقالها تستدرُّها ريح الصبا الشمالية . ولم تلبث ريح الجنوب أن هبّت فانهمرت الأمطار وعلت السيول حتى ضاقت بها خَيْمْ

---

(١) الود : الوتد ، أشجذت : أقلعت وسكنت . تشتكر : تحتفل ويكثر مطرها . وقيل الود اسم جبل .

(٢) خفيفاً ماهراً : يريد مسرعاً فى عدوه . وبرثن الضب :كالإصبع للإنسان . ومابنعفر : لايصيبه العفر والتراب ، يقصد أنه لا يلصق بالتراب لخفة عدوه .

(٣) الشجراء : الأرض ذات الشجر الكثير، ريق المطر : أوله ، يريد أن المطر يغمر الأشجار فلا يبدو منها إلا أعاليها ، فتتراءى كأنها رءوس قطعت وفيها الخمر وفيها العمائم .

(٤) انتحاها: قصدها . وابل : مطر غزير ، ساقط الأكناف : دان من نواحى الأرض . واه: متخرق ، منهمر : منسكب .

(٥) راح : عاد بالمطر فى آخر النهار . تمريه : تحركه وتديره . الشؤبوب : دفعة المطر ، والجنوب: ريح . منفجر : سائل .

(٦) ثج : سال . الآذى : الموج . وخيم وجفاف ويسر : مواضع .

(٧) يحملنى فى أنفه : يريد فى أنف المطر أى أوله . لاحق الإطلين : فرس ضامر الكشحين ، محبوك: موثق الخلق ومثله ممر ،وأصله من الحبل الممر، وهو المحكم الفتل .

وجُفاف ويُسر .

وأكبر الظن أنه قد اتضحت الآن الموضوعات الأساسية التى كان ينظم فيها امرؤ القيس شعره قبل مقتل أبيه ، وهى التشبيب ، والغزل القصصى الصريح ، ووصف الطبيعة المتحركة بما فيها من خيل ووحش والطبيعة الصامتة بما فيها من أمطار وسيول . فتلك هى الموضوعات التى تستغرق أشعاره الأولى . وتجمعها المعلقة جميعاً ، بينما تقف المطولة الثانية (ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى) عند التشبيب والقصص المادى، ووصف الوحش والفرس،وهو فى أثناء وصفهما يعرض لصيده وما يجده فيه من لذة ومتاع ولهو .

وكُتب لامرئ القيس أن لا تجرى حياته على هذه الوتيرة من الفراغ الذى يعد لاقتناص اللذات فى اتباع المرأة واللهو بها والمتعة بركوب الخيل والصيد عليها وتملّى مناظر الطبيعة ، فقد قُتل أبوه ، وانقلبت حياته من حياة لاهية إلى حياة جادة ومحاولة عاثرة فى الأخذ بثأر أبيه ورَجْع سلطان كندة على بنى أسد ، وكأنه كان يحس ما ينتظره حين قال فى مطولته (ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى) :

كأنِّىَ لم أَركبْ جَوادا للذّةٍ ... ولم أتبطَّن كاعبا ذاتَ خَلْخال

ولم أَسْبَأِ الزِّقَّ الرَّوِىَّ ولم أقل ... لخيلىَ كُرِّى كَرةً بعد إجفالِ[1]

ولعله نظم هذه القصيدة فى إبان الدورة الثانية من حياته .

ونحن لا ننتظر منه فى هذه الدورة سوى الحزن والألم العميق ، فهذا أبوه حُجْر يُقْتل وهؤلاء أعمامه يلقون نفس المصير ،ومن قبلهم قُتل جده الحارث . وهو يسعى فى سبيل الأخذ بثأر أبيه ، والمنذر بن ماء السماء يطلبه وتتحاماه القبائل والعشائر وهو يتنقل فيما بينها يستغيث ولا مغيث . وربما لقى فى أول الأمر شيئاً من العون ، ولكن ذلك لم يستمر ، فقد ازوروا عنه ، وهو يطلب من يجيره ، وعين المنذر تتبعه وسيف المنذر مُصْلَتٌ يلمع أمام عينيه . فكان طبيعيًّا أن يشكو الدهر وأن يتحدث عن مصيره . وهنا تلقانا مقطوعة رواها الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء، تصور حزنه على آبائه

---

(١) أسبأ : أشترى . الزق : دن الخمر .
الروى : المملوء ، الإجفال : الانهزام فى سرعة.

وما تجمع عليه من البلاء، وهي ذات الرقم الحادى عشر فى ديوانه ، وفيها يقول :

أرانا مُوضِعين لأمرِ غَيْبٍ ونُسْحَرُ بالطَّعام وبالشرابِ(١)

عصافيرٌ وذِبَّانٌ ودُودٌ وأجْرَأُ من مُجَلَّحَة الذئاب(٢)

وكلُّ مكارم الأخلاق صارتْ إليه هِمَّتى وبه اكتسابى

فبعضَ اللومِ عاذلتى فإنى ستكفينى التجاربُ وانتسابى

إلى عِرق الثَّرَى وَشَجَتْ عروقى وهذا الموتُ يسلبنى شبابى(٣)

ونفسى سوف يَسْلبها وجِرْمى فيُلْحقنى وشيكا بالتُّرابِ

ألم أُنْضِ المَطِيَّ بكل خَرْقٍ أمقِّ الطول لمَّاع السَّراب(٤)

وأركب فى اللُّهام المَجْر حتى أنال مآكلَ القُحَمِ الرِّغاب(٥)

وقد طوَّفْتُ فى الآفاق حتى رَضِيتُ من الغنيمة بالإيابِ

أبعدَ الحارثِ الملك بن عمرو وبعد الخير حُجْرٍ ذى القِباب(٦)

أُرَجِّى من صروف الدَّهر لِيناً ولم تَغْفُلْ عن الصُّمِّ الهِضاب(٧)

وأعلمُ أننى عمَّا قليـــلٍ سأُنْشَبُ فى شَبَا ظُفُرٍ وناب(٨)

كما لاقى أبى حُجْرٌ وجَدِّى ولا أَنْسى قتيلا بالكُلاب(٩)

فقد ضاع منه الماضى بكل أحلامه ، وهو ينظر أمامه فى الأفق البعيد بل القريب ، فلا يرى إلا وادى العدم الذى يشدُّ إليه الناس جميعاً رحالهم ، وهم

---

(١) موضعين : مسرعين . لأمر غيب : يريد الموت المغيب . ونسحر بالطعام : نتلهى ونخدع .

(٢) مجلحة الذئاب : المصممة التى لا ترجع عما تريد .

(٣) وشجت : اشتبكت واتصلت . ويشير بعرق الثرى إلى آبائه الذين ماتوا .

(٤) أنض : أهزل بطول الرحلة . الخرق : الفلاة . أمق الطول : واسع الطول .

(٥) اللهام : الجيش الكثيف . المجر : الكثير . المآكل هنا : الغنائم ، القحم : جمع قحمة من الاقتحام ويريد التزاحم فى شدة . الرغاب : الواسعة .

(٦) القباب : الخيام الكبيرة .

(٧) الصم المصمتة : الجبال . الهضاب : الصلبة .

(٨) شبا كل شىء : حده . أنشب : أعلق .

(٩) قتيل موقعة الكلاب هو عمه شرحبيل .

يتعللون عنه بالطعام والشراب ، وهو فى انتظارهم ، وهم جادون فى المسير إليه . ويَصْغر الناس وتصغر أطماعهم فى عينه ، ويراهم ضعافاً كالعصافير والذباب والدود ، ومع ذلك يسقطون على أطماعهم كالذئاب الضارية . ويطلب إلى عاذلته أن تكف عن لومه لتركه اللهو ، فإن التجارب غيرت شخصيته خلال ما مر به من أهوال الحياة . وهو ينتسب ، فلا يجد أمامه إلا موتى ، وهو يترقب نفس الأجل المحتوم ، وكأنه شخص آخر سوى هذا الشخص الذى كان يركب الخيل ويُنْضيها فى الفلاة الواسعة ، والذى كثيراً ما انتظم فى جيوش أبيه الكثيفة ، يغنم المغانم الكبيرة . وها هو اليوم يطوف فى الآفاق وراء مجده المضيَّع فلا يظفر إلا بالخيبة واليأس القاتل . وماذا يرجو بعد هذه الصخور الصلبة من آبائه وقد واراها التراب . إنه ينتظره نفس المصير ، فالموت يفتح فاه ، وأظفاره وأنيابه توشك أن تفترسه افتراساً كما افترست جده الحارث وأباه حجراً وعمه شرحبيل يوم الكُلاب .

والمقطوعة رائعة لأنها تصور لنا إحساسه بعبث الكفاح ضد المنذر وكيف كان هذا الإحساس يتعمقه فى تلك الفترة من حياته . وليس له بعد ذلك أشعار تستحق الوقوف عندها سوى بعض مقطوعات قصيرة تتداخل فيها رواية الأصمعى مع رواية هشام بن الكلبى ، وفيها يمدح ويهجو بعض من كانوا يكرمون جواره أو يسيئون هذا الجوار فلا يمدون يد العون إليه ، وهى شظايا صغيرة لا توضح منهجاً فى مديح ولا هجاء .

وأكبر الظن أن فيما قدمنا ما يدل على قيمة امرئ القيس ، فهو الذى نَهج للشعراء الجاهليين من بعده الحديثَ فى بكاء الديار والغزل القصصى ووصف الليل والخيل والصيد والمطر والسيول والشكوى من الدهر . ولعله سُبق بأشعار فى هذه الموضوعات ، ولكنه هو الذى أعطاها النسق النهائى ، مظهراً فى ذلك ضروباً من المهارة الفنية ، جعلت السابقين جميعاً يجمعون على تقديمه ، سواء العرب فى أحاديثهم عنه أو النقاد فى نقدهم للشعر الجاهلى ، يقول ابن سلام : « سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها ، استحسنها العرب واتبعته فيها الشعراء ، منها : استيقاف صحبه والبكاء فى الديار ورقة النسيب وقرب المأخذ ، وشبَّه النساء بالظباء والبيض وشبَّه الخيل بالعقبان والعصى ، وقيَّد الأوابد ، وأجاد فى التشبيه ، وفصَل بين النسيب وبين

المعنى ، وكان أحسن طبقته تشبيهاً »[١] .

وواضح أن هذه الفقرة من كتاب طبقات فحول الشعراء تقرر أن امرأ القيس هو الذى فتح للجاهليين أبواب النسيب والغزل ووصْف النساء والخيل ، وهى تضيف إلى ذلك قرب المأخذ ، بحيث جعل العبارات قريبة المنال لا يشوبها عسر ولا صعوبة ، وأيضاً تضيف أنه فصل بين النسيب والمعنى ، فلم يخلطه بشىء ، بل أسهب فيه وأفرده عما يليه .

وكل من يقرأ المعلقة وما أثبتناه له من شعر يلاحظ استواءً فى العبارات واتساقاً فى ترتيب الألفاظ ، مما يدل على أنه كان يملك أعنة اللغة فى يده ، وقليل جدًّا ما قد نلاحظه عنده من بعض النبو كقوله السابق فى المعلقة :

أحارِ ترى بَرْقًا كأَن وميضَه   كلمع اليدين فى حَبِىٍّ مُكلَّل

يضىء سَناه أو مصابيحُ راهبٍ   أهان السَّليطَ فى الذُّبال المفتَّل

فقد كان ترتيب السياق ونسقه يقتضيان أن يُكمل وصفه للبرق بأنه فى حبى مكلل وسحاب متراكم وأنه يضىء سناه ، ثم يشبهه بلمع اليدين ومصابيح الراهب . ولكن على كل حال مثلُ هذا قليل فى شعره ، إذ قلما نجد فيه اضطراباً فى ترتيب ألفاظه ومعانيه .

وحقًّا ما تقوله الفقرة السابقة عند ابن سلام من أنه أحسن طبقته تشبيهاً ، فتشبيهاته جيدة ، وهى تتراكم فى المعلقة وفى قصيدته (ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى) تراكماً يجعله حقًّا صاحب فن التشبيه فى العصر الجاهلى فالتشبيهات تتلاحق فى صفوف متعاقبة ، وقد عقد لها ابن سلام فصلا فى طبقاته[٢] ، استمده فى جملته من القصيدتين السالفتين . وأول ما يلاحظ فى هذه التشبيهات أنها مستمدة من واقعه الحسى ، وارجعْ إلى تشبيهاته فى المرأة ، فستراه يشبهها بالبيْضَة فى بياضها ورقتها ، كما يشبهها بالدُّرَّة والبقرة الوحشية ، أما ترائبها فكالمرآة وأما شعرها الغزير فكعِذْق النخلة المتداخل ، وأما خصرها فليِّن كالزمام ، وأما ساقها فكالبردىّ فى بياضه ،

---

(١) ابن سلام ص ٤٦ وانظر الشعر والشعراء ١/٥٧ .

(٢) انظر ابن سلام ص ٦٧ وما بعدها .

وأما أصابعها فكمساويك شجر الإسْحل . وكل هذه الأوصاف مبثوثة فى المعلقة . وإذا تركنا حديثه فيها عن المرأة إلى حديثه عن الفرس وجدناه يشبهه بخُذْروف الوليد ومَداك العروس وصَراية الحنظل والصخرة الملساء تسقط من علٍ ، كما يشبهه بالظبي فى خاصرتيه والنعامة فى ساقيه والذئب فى عَدْوه والثعلب فى تقريبه وقفزه . ونحس دائماً أنه يحاول أن يطرف سامعه بما يورد عليه من الصور الغريبة ، كقوله :

كأنَّ دماءَ الهاديات بنَحْرِهِ عُصارةُ حِنَّاءٍ بشيبٍ مرجَّلِ[1]

فدم الوحش الذى صاده امرؤ القيس يلطّخ صدر الفرس فيتراءى كأنه عصارة حنَّاء صُبغ بها شيب، إذ لا يكاد يفترق عن الخضاب فى شيء . ويخرج من ذلك إلى وصف السيل والمطر ، فيفزع إلى التشبيه الكثير ، كأنه لا يرى الشعر شيئاً بدونه ، وهو لذلك يوشِّى به كل شيء يعرض له فى المعلقة ، سواء حين يصف الثريا أو يصف الليل، وقد أبدع فى وصفه لقطعه وأجزائه ، فهى ماتنى تتدافع وتتلاحق غير منتهية ، وألم بالوحش ، فشبه بقره بعذارى دوار ، يقول :

فعنَّ لنا سِرْبٌ كأنَّ نِعَاجَه عَذارَى دُوَارٍ فى المُلاءِ المذيَّلِ[2]

وبذلك عكس الصورة فشبه البقر بالنساء ، وهو تشبيه مقلوب ، تبعه فيه الشعراء ، وأصبح ضرباً من ضروب الخيال التى ينسجونها .

وننتقل معه إلى مطولته (ألا عِم صباحاً أيها الطلل البالى) فتلقانا نفس تشبيهاته للمرأة التى لقيتنا فى معلقته ، فهى كالظبية وبيضة النعامة ، بل هى كالتمثال الجميل يقول :

ويارُبَّ يومٍ قد لهوتُ وليلةٍ بآنسةٍ كأنها خطُّ تمثالِ

ويشبه وجهها فى إشراقه بالمصباح، ويقول إنها لينة ممتلئة كحِقْف الرمل أو ما استدار منه ، ويشبهها بالغصن فى اعتدال قوامها وتثنيها ، أما شعرها فكشماريخ النخل فى تداخله وغزارته . ويعرض لليل ونجومه فيشبهها بمصابيح رهبان ، ويحدثنا

---

(١) الهاديات : المتقدمات من بقر الوحش . مرجل : مسرح .

(٢) السرب : القطيع . النعاج هنا : بقر الوحش. ودوار : صنم كانوا يطوفون به فى الجاهلية. المذيل : الطويل السابغ .

عن شجاعته وأنه لا يرهب زوج مَنْ يغازلها ولا تهديده ، فيقول :

أَيقتُلنى والمشرفىُّ مُضاجعى ومسنونةٌ زُرْقٌ كأَنْياب أَغْوالِ

وهى صورة طريفة ، لأنها تقوم على التخييل والوهم . ويخرج إلى وصف فرسه فيشبهه بالهراوة أو العصا فى ضموره وصلابته ، ويقول إنه ذَعر به قطيعَ بقر ، يجرى البياض والسواد فى سيقانه ، حتى لكأنها وشى برود يمانية بديعة . ويعود إلى فرسه ، فيشبهه بعُقاب تنقضّ انقضاضاً على فريستها ، ويقول إن هذه العقاب تصيد الطير وتحمله إلى وكرها ، فتأكله إلا قلوبه ، فمنها الطرى الغضّ ، ومنها الجاف المتقبض ، ويُعمل خياله ، وما يلبث أن يقول :

كأَنَّ قلوبَ الطير رَطْباً ويابِساً لدى وَكْرها العُنَّابُ والحشَفُ البالى

وواضح أنه يشبه القلوب الرطبة بالعناب واليابسة بالحشف البالى أو التمر الردىء الجاف ، وهو تشبيه كان القدماء يعجبون به لأن امرأ القيس استطاع أن يلائم ملاءمة خيالية بين أشياء متعددة . ويُرْوَى عن بشار أنه قال : ما زلت أحسد امرأ القيس على جَمْعه فى هذا البيت بين تشبيه شيئين بشيئين ، حتى قلت :

كأَن مُثارَ النَّقْعِ فوق رءوسنا وأَسيافَنا ليلٌ تهاوَى كواكبه[1]

فجمعت فيه بين ثلاثة وثلاثة[2] .

ولعلنا لا نُبعد بعد ذلك كله إذا قلنا إن امرأ القيس هو الذى ألهم الشاعر العربى على مر العصور فكرة التشبيه ، بل هو الذى وجهه إلى الإسراف فى استخدامه ، حتى عُدّ ذلك ضرباً رشيقاً من ضروب الزخرف والبديع[3] . وبجانب هذا التشبيه نجد عنده بعض أمثلة للاستعارة المكنية والتصريحية ، وهو يأتى بها فى قلة . من ذلك قوله فى المعلقة يخاطب الليل :

فقلت له لما تمطَّى بصُلْبِهِ وأَردَفَ أَعجازًا وناءَ بكَلْكَلِ

---

(١) النقع : الغبار .

(٢) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٣/١٩٦ .

(٣) انظر كتاب البديع لابن المعتز (طبعة كراتشقوفسكى) ص ٥٨ وما بعدها .

فقد استعار صورة البعير لهذا الليل الذى لا يزول . ومضى فاستعار صورة القيد لفرسه ، فسماه قيد الأوابد فهى لا تفوته ، على نحو ما مر بنا فى بيته :

وقد أغْتدى والطيرُ فى وُكُناتها بمنجردٍ قَيْدِ الأوابد هَيْكلِ

وإذا صحت رواية[1] أمال بدلا من أهان فى قوله يصف البرق :

يضىء سناهُ أو مصابيحُ راهبٍ أمال السَّليطَ فى الذُّبال المفتَّلِ

كان البيت يتضمن استعارة بديعة ، لأن من معانى أمال رعى ، وكأنه استعار صورة رعى الأنْعام للنبات لما يفنيه الذبال من الزيت شيئاً فشيئاً . وإذا تركنا معلقته إلى مطولته (ألا انعم صباحاً) وجدناه يستعير للحُلىّ على نَحْر صاحبته وتوهجه صورةَ الجَمْر ، يقول :

كأنَّ على لبَّاتها جَمْرَ مُصْطَلٍ أَصاب غَضاً جَزْلا وكُفَّ بأَجْذالِ[2]

ومن الحق أن الاستعارة قليلة فى أشعاره ، ولكنها على كل حال مبثوثة فيها ، مثلها مثل لونى البديع المسميين بالطباق والجناس ، ومن أمثلة طباقه قوله فى المعلقة يصف غدائر صاحبته :

غدائرهُ مستشزراتٌ إلى العُلا تضلُّ المَدارى فى مُثَنًّى ومُرْسَلِ[3]

وقوله يصف فرسه :

مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معاً كجلمود صَخْر حَطَّه السَّيل من علِ

ومن أمثلة الجناس قوله فى غزله :

وإن كنتِ قد ساءَتْك منى خليقةٌ فسُلِّى ثيابى من ثيابك تَنْسُلِ

وقوله :

ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انْجَلِى بصُبْحٍ وما الإصباحُ فيك بأَمْثَلِ

---

(١) ابن المعتز ص ٧ .

(٢) الغضا : من أشجار نجد . الجزل : الكثير ، كف : مد . الأجذال : أصول الشجر . يقول إنه جمر لايزال متقداً ؛ لأن بجواره مصطلياً يقلبه ويتعهده ومن حوله أصول شجر الغضا وعيدانه لا يزال يمد بها النار .

(٣) مستشزرات : مفتولات . المدارى : الأمشاط .

ونجانب ذلك كله نجده يعنى بالتلاؤم بين ألفاظه ، فقلما تلقانا فيها لفظة نابية فى حروفها ، وأيضاً نجد عنده عناية واضحة بموسيقاه ، ولعله من أجل ذلك كان يكثر من التصريع على نحو ما صنع فى المعلقة فقد صرّع فيها مراراً ، كما فى بيته الذى أنشدناه آنفاً والذى يخاطب فيه الليل . وفى الحق أن الموسيقى تطّرد فى المعلقة اطراداً ، فلا نحس بنشاز ، سوى الزحافات التى يكثر منها على شاكلة قوله :

فجئت وقد نَضَتْ لنومٍ ثيابها لَدَى السِّتْرِ إلا لِبْسَةَ المتفضِّلِ

فإن التفعيلة الثانية فى حشو البيت « مفاعلن » وليست مفاعيلن . وإذا قرأنا فى المعلقة قوله :

مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معـًا كجلمود صخرٍ حطَّه السَّيْلُ من عَلُ

بضم لام القافية — وهذا ما يقتضيه القياس النحوى تقول : من أسفل الجبل ومن علُ أى من أعلاه فتضم اللام على نية حذف المضاف إليه — أصبح فى البيت إقواء ، وهو يكثر فى الشعر الجاهلى وخاصة قديمه . وأيضاً إذا قرأنا وصفه للسيل وغثائه الملتف بجبل أبان فى قوله :

كأَنَّ أباناً فى أفانين وَدْقه كبيرُ أناسٍ فى بِجادٍ مـزمَّلُ

بضم اللام فى كلمة « مزمل » وهو ما يقتضيه القياس النحوى لأنها صفة لكلمة كبير أناس المرفوعة أصبح فى هذا البيت هو الآخر إقواء ، إذ اختلفت حركة الروىّ ، فأصبحت مرفوعة بينما هى فى بقية القصيدة مجرورة . ويظهر أن هذا لم يكن يكثر عنده .

والحق أنه يعد أباً للشعر الجاهلى بل للشعر العربى جميعه . فقد استوى عنده فى صورة رائعة ، سواء من حيث سبقه إلى فنون أجاد فيها . أو من حيث قدرته على الوصف والتشبيه ، وقد مضى يعنى بأخيلته ومعانيه وألفاظه مما نجده ماثلا فى استعاراته وبعض طباقاته وجناساته . وبذلك أعد الشعراء من بعده للعناية بحُلًى معنوية ولفظية مختلفة .

الفصل الثامن

النابغة الذبيانى

١

قبيلته

النابغة من قبيلة ذُبْيَان الغَطفانية القيسية، إذ تنتسب إلى بَغيض بن رَيْث بن غطفان بن سعد بن قَيْس عَيْلان، وإلى بغيض تنتسب أيضاً قبيلة عَبْس. ومن أهم عشائر ذبيان وبطونها بنو فَزارة وبنو مرَّة وبنو سعد، ومن فزارة بنو مازن، وبنو بدر وفيهم كانت رياسة فزارة فى الجاهلية، ومنهم حذيفة بن بدر وأخوه حَمل. ومن بنى مرة بنو غيظ وبنو سَهْم وبنو صِرْمة وبنو خُصَيْلة وبنو نُشْبة وبنو يربوع عشيرة النابغة، وسيدا بنى مرة غير مدافَعين هَرِم بن سنان والحارث بن عوف ممدوحا زهير بن أبى سُلْمى.

وتظهر قبيلة ذبيان وعشائرها على مسرح التاريخ الجاهلى مع حرب داحس والغَبْراء التى نشبت بينها وبين أختها عبس واستمرت فيما يقول الرواة نحو أربعين عاماً امتدت فيما يُظنّ من سنة ٥٦٨ إلى سنة ٦٠٨ للميلاد. ومرَّ بنا أن السبب فى نشوبها سباق داحس والغبراء، وكان داحس جواداً لقيس بن زهير سيد بنى عبس، وكانت الغبراء فرساً لحَمل بن بدر سيد بنى فزارة. وسبق داحس إلا أن الفزاريين أقاموا له كميناً فى نهاية الشوط نفَّره عن غايته، فسبقته الغبراء. واستشاط قيس غضباً، وطلب الرهان، وبعث حَمل ابنه يطلب منه الرهان المضروب — وقتله قيس. فاستعرت نيران الحرب بين القبيلتين، واشترك فيها أحلافهما، فكان مع عبس بنو عامر، وكان مع ذبيان بنو تميم وبنو أسد، ودارت سلسلة معارك طاحنة، من أهمها يوم المريقب وكان لعبس على ذبيان، وفيه قتَل عنترة ضمضما أبا حُصَين المرى والحارث بن بدر، وممن قُتل فيه أيضاً عوف بن بَدْر، ويوم ذى حسى وكان لذبيان على عبس، ويوم جَفْر الهباءة وكان لعبس

على ذبيان وفيه قُتل حذيفة وحَمل ابنا بدر، ورثاهما قيس خصمهما رثاء حاراً ، يقول فى بعضه(١) :

شفيتُ النفسَ من حَمَلِ بن بَدْرٍ وسيفى من حُذَيْفَةَ قد شفانى
شفيتُ بقتلهم لغليل صَــدْرى ولكنى قطعتُ بهم بَنانى

وثأرتْ ذبيان لنفسها فى معركة الجراجر أو ذات الجراجر . ثم تجمعت ذبيان وأحلافها من تميم وأسد كما تجمعت عبس وعامر ، واشتبكت الفئتان فى يوم شِعْب جبلة . وفيه دارت الدوائر على ذبيان وأحلافها ، إذ أثخنت فيهم عبس وعامر القتل فقُتل لَقيط بن زُرارة التميمى وأسر أخوه حاجب. ولم تلبث ذبيان أن أرقعت بعبس وعامر فى يوم شعواء وقعة منكرة . ورأت عبس أن تقف هذه الحروب التى أتت على الأبطال والرجال . فأرسلتْ وفداً إلى ذبيان يطلب الصلح ، ولقى الوفد سيدى بنى مرة : الحارث بن عَوْف وهَرِم بن سنان . فحملا قومهما على الصلح ، وتحمَّلا ديات القتلى . ويقال إنها بلغت ثلاثة آلاف بعير . وبذلك وضعت هذه الحروب أوزارها ، ويُظَن أنه لم يُكْتَبْ للنابغة أن يرى انفضاضها ، فقد توفِّى قبل ذلك بقليل .

وبينما كانت ذبيان تدير رحى هذه الحروب كانت تدير رحى حروب أخرى مع الغساسنة ، وكان يؤازرها أحلافها من بنى أسد ، ولعل فى ذلك ما يدل على أن القبيلتين جميعاً كانتا تدينان بالولاء للمناذرة خصوم الغساسنة ، فهم يشرعون سيوفهم ويشهرونها فى وجوه خصومهم ، وكانوا آونة ينتصرون عليهم وآونة ينهزمون وتمتلىء أيدى الغساسنة بأسراهم ، مما اضطر النابغة على نحو ما سنرى بعد قليل أن ينزل بالغساسنة ويستعطفهم حتى يردوا إلى هؤلاء الأسرى حريتهم .

وتدل دلائل مختلفة على أن عشائر ذبيان لم تكن دائماً فى رفاق ووئام ، فهى تتجمع لحرب عبس والغساسنة ، ثم تعود فتتناحر داخليًّا ، على نحو ما تصور ذلك أشعار بشَامة بن الغدير والحصين بن الحُمام المرى وزَبَّان بن سيَّار الفزارى والنابغة ، إذ يشيرون إلى بعض المنازعات بين تلك العشائر ، وقد يشيرون إلى معارك وقعت بينها ، فمن ذلك قول الحُصَين بن الحُمام عقب معركة بين عشيرته بنى سهم وبين بنى صِرْمة ، وفيها انتصر الأولون(٢) :

---

(١) عيون الأخبار ٣/٨٨ والمرزوقى على الحماسة ١/٢٠٣ وسمط اللآلى للبكرى ٣٠٥ .

(٢) المفضليات (طبع دار المعارف) ص ٦٥ والهام : الرءوس .

صَبرنا وكان الصبرُ فينا سجيّةً ... بأسيافنا يقْطَعْنَ كفًّا ومِعْصَما

يُفَلِّقْنَ هاماً من رجالٍ أعزّةٍ ... علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما

ونجد يزيد بن سنان أخي هرم بن سنان يطلق زوجه ، وكانت ابنة النابغة ، ويثير على عشيرتها يربوع عشيرتى خصيلة ونُشْبة ، عاقداً بينهما حلفاً سمى حلف المحاش ، وما يزال بيربوع حتى يجليها عن ديارها إلى ديار بنى عُذْرة ، وفى ذلك يقول النابغة :

جَمِّعْ مَحَاشَكَ يا يزيد فإننى ... أعددتُ يَرْبُوعاً لكم وتميما

حَدِبَتْ علىَّ بطونُ ضِنَّةَ كلها ... إنْ ظالما فيهم وإن مظلوما[1]

فلم تكن عشائر ذبيان على صفاء دائماً ، بل كثيراً ما كانت تتحارب وتتقاتل ويعتزل بعضها بعضاً ، وقد تترك عشيرة منازلها إلى منازل جيرانها من عُذْرة وغير عذرة .

وكانت ذبيان كغيرها من قبائل غطفان تعبد فى الجاهلية العُزَّى وتتخذ لها كعبة تحج إليها ، وتقدم لها النذر والقرابين ، وقد هدمها خالد بن الوليد بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم . ومعنى ذلك أن ذبيان ظلت على وثنيتها حتى دخلت فى الإسلام الحنيف .

٢

حياته

هو زياد بن معاوية بن ضِباب بن جَناب[2] بن يَرْبوع ، وأمه عاتكة بنت أنيس من بنى أشجع الذبيانيين ، فهو ذبيانى أباً وأمّاً ، وكان يكنى بأبى أمامة وأبى ثمامة[3] ، وهما ابنتاه ، كما كان يلقب بالنابغة ، وبهذا اللقب اشتهر . واختلف الرواة فى سبب تلقيبه به ، فقيل لقوله فى بعض شعره : (فقد نبغتْ لنا منهم شئون) وقيل لأنه قال الشعر بعد أن كبرتْ سنه ومات قبل أن يُهْتَر ويذهب عقله[4] .

---

(١) ضنة : عشيرة من عذرة .

(٢) هكذا فى ترجمته بالأغانى (طبعة دار الكتب) ١١ / ٣ وفى شرح التبريزى للمعلقات العشر جابر بن يربوع بدلا من جناب بن يربوع.

(٣) انظر الأغانى ١١ / ٣ وترجمته فى الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ / ١٠٨ وما بعدها .

(٤) الأغانى ١١ / ٤ وراجع الشعر والشعراء ١٠٨/١ وشرح المعلقات العشر للتبريزى .

ونظن ظنًّا أنه سمى بذلك لنبوغه فى شعره وتفوقه فيه ، ومن أكبر الدلالة على ذلك أننا نجد مجموعة من الشعراء المخضرمين والإسلاميين تلقَّب بنفس اللقب مثل النابغة الجعدى والنابغة الشيبانى والنابغة التغلبى ، ويميَّز هو منهم باسم النابغة الذبيانى .

ولسنا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته ولا عن شبابه ، وكل ما يحرص الرواة على قوله هو أنه كان من أشراف ذبيان وبيوتاتهم ، وقد يكون فى مصاهرة يزيد أخى هرم ابن سنان له وهو من أشراف ذبيان ما يقطع بذلك . وإذا كنا نجهل نشأته وشبابه فإن فى شعره وأخباره ما يصور لنا الشطر الثانى من حياته ، وهو شطر بدأه بالنزول على النعمان بن المنذر أمير الحيرة[١] ولزومه له يمدحه ويتغنى بمناقبه . ومعروف أن قبائل نجد كانت تدين بالولاء للمناذرة منذ قضوا على دولة كندة ، وكانت تدخل ذبيان فى هذا الولاء ، فطبيعى أن يقصد شاعرها النابغةُ النعمانَ بن المنذر وأن يُضْفى عليه مدائحه . وسُرَّ النعمان بوفوده عليه ، فقربه منه ونادمه ، وأجزل له فى العطايا والصلات ، حتى أصبح شاعره الفَذَّ ، وكان بلاطه يموج بالشعراء من أمثال أوس ابن حَجَر التميمى والمثقِّب العبدى ولبيد العامرى ولكن أحداً منهم لم يكرمه إكرام النابغة ، وقد صور ذلك فى معلقته ، إذ يقول :

الواهب المائةَ المِعْكاءَ زيَّنها ... سَعْدَانُ تُوضِحَ فى أوبارها اللِّبَدِ[٢]

والأُدْمَ قد خُيِّسَتْ فُتْلا مرافقُها ... مشدودةً برِحال الحِيرة الجدُدِ[٣]

والرَّاكضاتِ ذيولَ الرَّيْطِ فانقَهَا ... بَرْدُ الهواجرِ كالغِزْلانِ بالجرَدِ[٤]

والخَيْلَ تَمْزَعُ غَرْباً فى أَعِنَّتِها ... كالطَّيْرِ تنجو من الشُّؤْبوب ذى البَرِدِ[٥]

---

(١) واضح أننا لم نعتد بما ذهب إليه بعض الرواة من أن النابغة لحق عمرو بن هند ومدحه بقصيدة مطلعها :

أتاركة تدللها قطام ... وضنا بالتحية والكلام

وأغلب الظن أنها منتحلة عليه ، وهى ليست على كل حال فى رواية الأصمعى للديوان ، وروى الشنتمرى عن أبى عبيدة أنه مدح بها عمرو بن الحارث الغسانى .

(٢) المعكاء : الغلاظ القوية ، ويريد الإبل . توضح : موضع . السعدان : مراع . لبد الشعر : ما تلبد منه .

(٣) الأدم : النوق البيض . خيست : ذللت . فتلا مرافقها : كناية عن قوة خلقها ومتانتها .

(٤) الراكضات : الساحبات . الريط : ثوب طويل . فانقها : نعمها . الجرد : موضع .

(٥) تمزع غرباً : تسح سحا شديداً . الشؤبوب : السحاب أو دفعات مطره .

فقد كان يعطيه المائة من الإبل الموثقة الخلق المذللة كما كان يعطيه القطيع من الخيل ، غير الجوارى المنعمات . على أن حادثاً حدث اضطره إلى مغادرة بلاط المناذرة والتوجه توًّا إلى بلاط الغساسنة ، إذ أوقعوا بذبيان وأحلافهم من بنى أسد وقعة منكرة على أثر تعديهم على وادى ُأقر الخصيب ، وكانوا قد حموه ومنعوا أن ترتاده القبائل ، وارتادته ذبيان وأسد ، فنكلوا بهما تنكيلا فظيعاً ، وسبوا كثيراً منهما ومن نسائهما . فألم النابغة ألماً شديداً صوّره فى قوله :

لقد نهيتُ بنى ذبيانَ عن أُقُرٍ ... وعن تربُّعِهِم فى كل أَصْفار (١)

وقلتُ يا قوم إن اللَّيْثَ منقبضٌ ... على برَائنه لوثْبــة الضارِى (٢)

لا أعرفَنْ رَبْرَباً حُورًا مدامعُها ... كأَنَّ أبكارها نِعاجُ دُوَّارِ (٣)

ينظرْنَ شَزْرًا إلى من جاءَ عن عُرُضٍ ... بأَوجهٍ منكرات الرِّقِّ أَحرارِ (٤)

يَذْرين دَمعاً على الأَشفار منحدرًا ... يأْمُلْنَ رِحْلَةَ حِصْنٍ وابن سَيَّارِ (٥)

وواضح أنه يصور نساء ذبيان وقد أسرن ، وهن يذرفن الدموع ويتلفتن يميناً وشمالا ، لعل بطلى قومهما حِصْن بن عيينة وزَبَّان بن سيار يقدمان بالجيوش ، فيخلصانهن من ذل الأسر والعار ، وفى بعض الروايات أنه كان بينهن إحدى بناته. وعرض لما صنعت جيوش الغساسنة ببنى أسد ، فقال فى قصيدة أخرى مصوراً ما أصابهم من الجهد والبلاء :

لم يبق غيرُ طريدٍ غيرِ مُنْفَلِتٍ ... وموثَقٍ فى حِبال القِدِّ مسلوبِ (٦)

أَو حُرَّة كمهاة الرَّمْل قد كُبِلتْ ... فوق المعاصم منها والعراقيب (٧)

---

(١) أقر : واد . تربعهم : إقامتهم وقت الربيع . أصفار : شهور الربيع جمع صفر .

(٢) البراثن : الأظفار . الضارى : متعود الافتراس .

(٣) الربرب : القطيع من بقر الوحش تشبه النساء به . حورا : جمع حوراء ، وهى العين الجميلة واضحة البياض والسواد . النعاج : إناث البقر . دوار : اسم صنم كن يطفن به فى الجاهلية .

(٤) النظر الشذر : النظر بمؤخر العين . عرض : جانب .

(٥) الأشفار : جمع شفر ، وهو هدب العين.

(٦) القد : شراك كانوا يشدون به الأسير .

(٧) المهاة : البقرة الوحشية . المعصم : موضع السوار .

تدعو قُعَيْناً وقد عَضّ الحديدُ بها … عَضّ الثِّقافِ على صُمِّ الأنابيبِ[1]

ولم يجد النابغة بدًّا من أن يسعى إلى الغساسنة وأن يمدحهم ، حتّى يكفّوا عن قومه ، ويردوا الحرية إلى من سبوه منهم ، فنزل بعمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر بن جبلة ، ومدحه مدحاً رائعاً كما مدح أخاه النعمان . وأكبرا سفارته لديهما ، فعفوا عمن أسراه ، وكان جزاؤهما من النابغة مديحه الرائع لهما ، وظل عندهما يبالغان فى إكرامه ويبالغ فى مديحهما ، محاولا بكل ما استطاع أن لا يعودا إلى حرب قومه أو حرب أحلافهم . وقد مر بنا أن عشيرته يربوع كانت تنزل أحياناً فى بنى ضنة العذريين وعشائرها من بنى حُنّ ، فتوسع لهم فى ديارها ومراعيها ، وحدثت النعمان نفسه بغزوهم ، فتعرض له النابغة يخوّفه منعتهم ومنعة ديارهم ، ولما رأى منه إصراراً شديداً أرسل إلى عشيرته يدعوها أن تعين بنى حُنّ ، فأعانتها ومُنيت جيوش الغساسنة بالهزيمة ، وفى ذلك يقول :

لقد قلت للنعمان يوم لقيتُه … يريد بنى حُنٍّ ببُرْقةِ صادرِ[2]

تجنَّبْ بنى حُنٍّ فإن لقاءهم … كريهٌ وإن لم تلقَ إلا بصابرِ[3]

عظامُ اللُّهى أولادُ عُذْرَةَ إنهم … لَهاميمُ يَسْتَلْهونها بالحناجرِ[4]

وهم منعُوا وادى القُرَى من عدوهم … بجمعٍ مُبيرٍ للعدوِّ المُكاثِرِ[5]

وعلى هذا النحو كانت سفارته لدى الغساسنة ذات فوائد جليلة لقومه وأحلافهم ، وما زال يرعى مصالحهم عندهم حتّى توفّى عمرو ثم أخوه النعمان ، فرأى أن يعود إلى النعمان بن المنذر ، وكان قد غضب عليه غضباً شديداً ، إذ كان يتخذه داعية له فى قومه ، وكان يرى فى نزوله بالغساسنة ما يدفع ذبيان إلى أن تخرج على ولائها له ، فهذا شاعرها وشريفها النابغة يلجّ فى مديح خصومه . وكأنه يعلن بذلك ولاءه وولاء قبيلته لهم .

---

(١) قعين : عشيرة من أسد . الثقاف : خشبة تقوم بها الرماح . الأنابيب : كعوب الرماح .

(٢) برقة صادر : موضع .

(٣) صابر : شجاع فى الحرب .

(٤) اللهى هنا : المال . لهاميم : جمع لهموم وهو الضخم العظيم . يستلهونها : يبتلعونها ، يصفهم بعظم الحلوق وكثرة الأكل وضخم الأجسام .

(٥) مبير : مهلك .

وبذلك كان ذنب النابغة عظيما ، وقد أخذ يدفع عن نفسه فى اعتذاراته المشهورة التى قدمها إلى النعمان ، فعفا عنه ، وعاد إلى بلاطه من جديد ، وحظى برضاه ونائله الغَمْر إلا أن كسرى لم يلبث أن غضب على النعمان ، فاستدعاه سنة ٦٠٢ للميلاد ، وألقى به فى غياهب السجن حتى مات ، ويقال بل ألقى به تحت أرجل الفيلة .

وواضح أننا لم نأخذ بالروايات[١] التى رواها القدماء فى سبب مفارقة النابغة لبلاط النعمان بن المنذر ووفوده على الغساسنة ، فقد زعموا أنه إنما فارق النعمان خوفاً على حياته ، فإن بعض الشعراء الذين نفسوا عليه مكانته عنده صنعوا على لسانه شعراً هجاه به هجاء مقذعاً ، وفى بعض الروايات أنه كان لأحدهم سيف قاطع كثير الفرند والجوهر ، فذكر النابغة ذلك للنعمان فأخذه ، واضطغن صاحبه على النابغة فوشى به إلى النعمان وحرضه عليه . وفى رواية أن النابغة وصف زوج النعمان المتجردة وصفاً استقصى فيه أعضاءها ، فغار منه المنخل اليشكرى وكان يهواها ، فوسوس إلى الأمير أن هذا الوصف لا يقوله إلا من جرّب ، فغضب النعمان ، وعلم النابغة فهرب إلى الغساسنة . وسنرى فيما بعد أن قصيدته فى المتجردة موضوعة .

وفى الحق أن كل هذه الروايات وما تضم من أشعار مخترعة ، اخترعها الرواة ليفسروا اعتذارات النابغة التى تنبىء بأنه جنى جناية عظيمة ، وأن هناك وشاة أوقعوا بينه وبين النعمان بن المنذر ، ولم تكن هذه الوشاية إلا وفوده على الغساسنة أعداء النعمان وما صاغه من المديح فيهم ، وقد كان يهمّ النعمان أن لا تضع الحرب أوزارها بينهم وبين ذبيان وقبائل نجد الغربية . فلم يكن ذنب النابغة عند النعمان ذنباً شخصيًّا ، وإنما كان ذنباً سياسيًّا . وقد عاد إليه يطلب الصفح والعفو ، لا لأنه بلغه أنه عليل كما تزعم بعض الروايات[٢] .

ونعتقد أن سفارته لقومه فى بلاطى المناذرة والغساسنة هى التى أقلت الإشارات فى شعره إلى حروب داحس والغبراء ، إذ لم يشترك فى وقائعها . ومع ذلك نراه فى بعض شعره يأسى لتحول عبس إلى عامر ومفارقتها لديار أبناء عمومتها من ذبيان ، يقول :

أَبلغْ بنى ذُبْيانَ أَنْ لا أَخاً لهم ... بعَبْسٍ إذا حَلُّوا الدِّماخَ فأَظْلَما[٣]

---

(١) الأغانى ١١/١٢ وما بعدها وانظر ترجمته فى الشعر والشعراء .
(٢) أغانى ١١/٢٩ .
(٣) الدماخ : جبال . أظلم : موضع . يشير بهما إلى منازل بنى عامر .

هُمُ يَردون الموتَ عند لقائهِ   إذا كان وِرْد الموت لابُدَّ أَكْرَما

وكأنه يحرّض قومه أن يعودوا إلى السِّلْم مع عبس مستنصرين بها ضد أعدائهم ، ففيها شجاعة وجرأة وإقدام وغَناء فى الحروب . وليس فى شعره أى إشارة لوعيد أو تهديد لعبس ، وكأنه كان يبقى على القربى والرحم بينه وبينها ، فهو لا يتوعدها غارة ولا يندد بالوقائع التى انتصرت فيها قبيلته . ولكن إذا كان قد ترك عبساً فقد تعرض لغامر حليفتها يهددها ويهدد سادتها وأبطالها من مثل زُرْعة بن عمرو وعامر بن الطفيل بغارات شعواء لقومهما تُسْبَى فيها الأطفال والنساء . وحاول زرعة وبعض بنى عامر أن يدفعوا ذبيان لنقض ما بينها وبين أسد من حلف وعقد حتى تُحْقَن الدماء ، وعلم النابغة بذلك وأن عُيَيْنة بن حِصْن وبعض الذبيانيين يفكرون فى الأمر ، فتولى غضباً ينشد القصائد مسفها بنى عامر وعيينة وداعياً قومه إلى الوفاء بما بينهم وبين أسد من العهود والعقود ، وفى ذلك يقول قصيدته :

قالتْ بنو عامرٍ خالوا بنى أسدٍ   يا بُؤْسَ للجهل ضَرَّارًا لأَقوامِ[1]

يَأْبى البلاءُ فلا نبْغى بهم بدلا   ولا نريد خِلاءً بعد إحكام[2]

وتوجه إلى عيينة يعنفه تعنيفاً شديداً فى قصيدة أخرى ، يقول فى تضاعيفها :

إذا حاولتَ فى أسدٍ فجورًا   فإنى لستُ منك ولستَ منى

وهو موقف يدل على نبله وحرصه على الوفاء ، ويدخل فى ذلك مدحه لبنى أسد وإشادته بشجاعتهم وبلائهم فى الحروب .

وجميع أخباره وأشعاره الصحيحة تدل على أنه كان سيداً شريفاً من سادات قومه ، فهو لا يتفتَّى تفتِّى امرئ القيس وطرفة وأضرابهما ، بل يتراءى سيداً وقوراً ذا خلق وشيم كريمة ، فهو لا يتدنى فى سفاهة ولا يتبذل فى مجون . وفى أشعاره بعض إشارات مسيحية ، وقد جاءه ذلك من إقامته الطويلة فى الحيرة ولدى الغساسنة وكأنه استمع إلى بعض ما يقوله الأحبار والرهبان ، ولكن لا شك فى أنه كان على دين

(١) خالوا : من المخالاة وهى نقض العهد .   الخلاء : نقض العهد كالمخالاة .

(٢) البلاء : يقصد بلاءهم معهم فى الحرب .

آبائه يتعبَّد العُزَّى وغيرها من آلهتهم الوثنية، ويختلف معهم إلى الحج بمكة، وفى معلقته :

فلا لعمرُ الذى مسَّحْتُ كَعْبتَه ... وما هُرِيقَ على الأَنْصاب من جَسدِ

فهو يقدس الدماء التى كانت تُصَبُّ على الأنصاب .

وكان فيه حكمة ، وهى مبثوثة فى شعره ، ويقول ابن حبيب إنه ممن حرَّم الخمر والأزلام فى الجاهلية[1] . وهو بذلك كله يبدو سيداً وقوراً . ويظهر أنه نال شهرة واسعة فى عصره لا عند أمراء الحيرة والغساسنة فحسب بل أيضاً فى داخل الجزيرة وبين الشعراء ، إذ كانوا يعرضون عليه فى المواسم والأسواق أشعارهم . قال صاحب الأغانى : «كان يُضْرَبُ للنابغة قُبَّة من أدَمٍ بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء ، فتعرض عليه أشعارها . وحدث ذات مرة أن أنشده الأعشى أبوبصير ، ثم حسان بن ثابت ثم أنشدته الشعراء ، ثم أنشدته الخنساء بنت عمرو بن الشَّريد :

وإن صَخْرًا لتأْتمُّ الهداةُ بهِ ... كأنه علَمٌ فى رأْسه نارُ[2]

فقال : والله لولا أن أبا بصير أنشدنى آنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس ، فقام حسان فقال : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ، فقال له النابغة : يا بن أخى أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذى هو مُدْرِكى ... وإن خِلْتُ أَن المنتأَى عنك واسعُ

خطاطيفُ حُجْنٌ فى حِبالٍ متينةٍ ... تَمُدُّ بها أَيدٍ إليك نوازِعُ[3]

فخَنَس حسان لقوله[4] » . وفى رواية أخرى أنه لما غضب حسان وقال له أنا أشعر منك ومن أبيك قال له حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول :

لنا الجَفَنات الغُرُّ يَلْمَعْن بالضُّحى ... وأَسيافُنا يَقْطُرْنَ من نجدةٍ دما

---

(١) المحبر لابن حبيب (طبع حيدر آباد) ص ٢٣٨ .

(٢) العلم هنا : الجبل .

(٣) خطاطيف : جمع خطاف وهو حديدة حجناء تستخرج بها الدلاء من البئر، حجن : جمع حجناء وهى المعوجة. نوازع : جواذب . ويقصد قصائده التى يستعطفه بها .

(٤) أغانى ١١/٦ .

ولدنا بنى العَنْقاء وابنَىْ محرقٍ   فأكرمْ بنا خالاً وأكرمْ بنا ابْنَمَا[١]

فقال له النابغة : أنت شاعر ولكنك أقللت أجفانك وأسيافك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك[٢] . وأكبر الظن أن هذه الزيادة فى تلك الرواية من عمل بعض اللغويين الذين يذهبون إلى أن جمع المؤنث السالم ووزن أفعال فى جمع التكسير يدلان على القلة . وفى الحقيقة لم يفتخر حسان بالأبناء دون الآباء ، بل لقد افتخر بالآباء ، وإن كان عبَّر بكلمة ولدنا ، فهى مماحكة لفظية ، وما كان النابغة ليعمد إلى مثل هذه المماحكة والمغالطة . والمهم فى الخبر أنه كان يحكم بين الشعراء فمن أشاد به تألق نجمه ومن أزرى به خمل ذكره .

وقد رجع إلى قبيلته بعد موت النعمان بن المنذر سنة ٦٠٢ وأمضى فيها بقية حياته ، ويظهر أنه لم يعش طويلا ، فليس فى أشعاره أى شىء يتصل بانتهاء حروب داحس والغبراء سنة ٦٠٨ ولو أنه حضر نهايتها لأشاد بموقف سيدى قبيلته : هرم بن سنان والحارث بن عوف فى حقن الدماء بما تحملا من ديات ، ومن ثَمَّ كان لا يبعد عن الصواب ما زعمه لويس شيخو من أنه توفى سنة ٦٠٤[٣] .

٣

ديوانه

لعل أقدم نشرة لديوان النابغة نشرة ديرنبورج له فى المجلة الآسيوية (١٨٦٨ — ١٨٦٩) وقد استخرجها من شرح الشنتمرى للدواوين الستة ، وهى دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة . وسبق أن قلنا فى حديثنا عن ديوان امرئ القيس إن هذا الشرح يحتفظ برواية الأصمعى لتلك الدواوين ، وبعد أن يفرغ منها يضيف إليها بعض قصائد من رواية الكوفيين . وقد اعتمد ديرنبورج فى نشرته لديوان النابغة على مخطوطتين من شرح الشنتمرى وجدهما فى

---

(١) العنقاء : جد الخزرج الأول . محرق : هو الحارث بن جبلة الغسانى ، ومعروف أن الغساسنة كالخزرج من الأزد ، ولذلك يفخر بهم كما يفخر بقومه .

(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ٩ / ٣٤٠ والموشح للمرزبانى ص ٦٠ .

(٣) شعراء النصرانية ص ٦٤٠ .

باريس ومخطوطة ثالثة وجدها فى فينا وهى بشرح البطليوسى . وقد نَشر فى سنة ١٨٩٩ ملحقاً للديوان فى المجلة الآسيوية نقله عن مخطوطة فى مجموعة شيفر وجد بها زيادات جديدة .

ونشر الديوان آلورد فى مجموعة الدواوين الستة التى عُنى بها الشنتمرى ، سنة ١٨٧٠ واستخرج نشرته من عدة مخطوطات إلا أنه لم يكتف بما جاء عند الشنتمرى ، فقد ألحق بتلك الدواوين الستة زيادات وإضافات مما وجده منسوباً فى كتب الأدب إلى كل منهم ، وقد نُشر الديوان فى القاهرة مع هذه الدواوين ، ولكن لا بشرح الشنتمرى وإنما بشرح البطليوسى . ونشر نشرة أخرى باسم «التوضيح والبيان عن شعر نابغة بنى ذبيان » وقام على هذه النشرة مصطفى أدهم سنة ١٩١٠ . ونُشر فى بيروت مع مجموعة دواوين أخرى باسم خمسة دواوين العرب ، وهى دواوين النابغة وعروة ابن الورد والفرزدق وحاتم الطائى وعلقمة الفحل .وقد نشره لويس شيخو فى مجموعته «شعراء النصرانية» معتمداً على نشرة آلوارد. ونشره مصطفى السقا فى مجموعته «مختار الشعر الجاهلى» وهذه المجموعة كما مر بنا هى نفسها مجموعة الدواوين الستة التى عُنى بها الشنتمرى ، وإن كان الناشر لم ينقل معها شرحه ، فقد اختصره ، غير أنه احتفظ بكثير من الإشارات والتعليقات التى بثّها الشنتمرى فيه . وفى دار الكتب المصرية غير مخطوطة من هذا الشرح . وفى مكتبة أحمد الثالث بإستانبول مخطوطة للديوان بشرح ابن السكيت وكذلك فى مكتبة فيض الله مخطوطة أخرى له بشرح الخطيب التبريزى . والمخطوطتان جميعاً مصورتان بمعهد إحياء المخطوطات بالجامعة العربية .

وسنعتمد فى دراستنا للشاعر على شرح الشنتمرى ، لأنه يحتفظ لنا برواية الأصمعى أوثق رواة الشعر الجاهلى ، وهى تنتهى عنده بالقصيدة رقم ٢٢ إذ يقول الشنتمرى بعقبها : « كمل جميع ما رواه الأصمعى من شعر النابغة ، ونصل به قصائد متخيَّرة مما رواه غير الأصمعى إن شاء الله تعالى » وهى سبع قصائد رواها عن الطوسى ، وهو إنما يروى عن ابن الأعرابى وأبى عمرو الشيبانى ، ومعنى ذلك أن هذه القصائد مما أضافه الكوفيون إلى رواية الأصمعى أستاذ البصرة والبصريين. وكأن الأصمعى كان يشك فيها أو كان ينكرها ، ولذلك لم يثبتها فى روايته ، ومن ثَمَّ

لا نستطيع أن نعتمد عليها فى دراسة النابغة ، إنما نعتمد على ما رواه الأصمعى ، ونتخذه أساساً لبحث الشاعر وشعره .

على أننا لا نكاد نمضى فى رواية الأصمعى حتّى نجدها فى حاجة إلى مناقشة ، فإن الأصمعى احتفظ فيها بقصيدته فى المتجردة : (أمن آل ميّة رائحٌ أو مغتد) مع أنه كان لا يسندها كما يقول الشنتمرى . ومعنى ذلك أنها ضعيفة الرواية . ونحن لا نقرؤها حتّى نجدها تتضمن غزلا مفحشاً ، وهو غزل لا يتفق رشخصية النابغة الوقور . ولو أن هذا اللون من الغزل كان دائراً فى شعر النابغة لأمكن أن نقبلها ، ولكنه يأتى شذوذاً فى هذه القصيدة ، ليدلل – كما مر فى غير هذا الموضع – على خبر مصنوع ، وضعه الرواة ليفسروا به السبب فى غضب النعمان بن المنذر على النابغة ، إذ جعلوه يتغزل بزوجه هذا الغزلَ الماجن الذى يندى له الجبين ، وكأنما ضاقت الدنيا على النابغة فلم يجد امرأة يتغزل بها هذا الغزل المفحش سوى زوج النعمان . ولو أن الرواة كانوا متعمقين فى فهم العصر الجاهلى وما كان فيه من منافسة شديدة بين المناذرة والغساسنة ، بل لو أنهم تعمقوا فى درس شعر النابغة لعرفوا أنه اضطر اضطراراً إلى مغادرة بلاط النعمان والتوجه إلى الغساسنة حتّى يفك أسرى قومه عندهم عقب معارك رجحت فيها كفة الغساسنة ، بل لقد هزموهم هزيمة منكرة . و بذلك فقد النعمان داعيته فى ذبيان ، وغضب عليه غضباً شديداً . وما زال النابغة عندهم ، ليرد كيدهم عن قومه ، حتّى إذا دار الزمن وتوفى خصما ذبيان من الغساسنة ، وهما عمرو وأخوه النعمان ، رأى النابغة أن يعود إلى بلاط النعمان بن المنذر ، لا خوفاً على نفسه كما يقول الرواة ، بل خوفاً من تأليبه القبائل على قبيلته . فالموقف كله كان موقفاً سياسيًّا ، ولم يكن موقفاً شخصيًّا ، ولذلك كنا نرد قصيدة المتجردة ، كما نرد كل ما يتصل بقصة هرب النابغة من النعمان ورجوعه إليه حين علم بمرضه ، ومن ثَمَّ كنا نشك فى قصيدته الرائية التى يقول فيها :

ألم تر خير الناس أصبح نَعْشُهُ ... على فتيةٍ قد جاوز الحيَّ سائرا

ونحن لديه نسأل الله خُلْده ... يردُّ لنا مَلْكًا وللأَرض عامرا

فإن الرواة وضعوها وضعاً ، ليصوروا لنا النعمان عليلا ، ونفس أسلوبها وما فى نهايتها من دعاء يدلان على أنها إسلامية ، ومن ثَمَّ ننكرها كما ننكر مقطوعته التى

تتصل بمرض النعمان والتى يتوجه فيها إلى حاجبه عصام قائلا فى مطلعها :

ألم أقسم عليك لتخبرنِّى أمحمولٌ على النَّعْش الهمامُ

وأيضاً فإننا نشك فى قصيدته :

لعمرك ما خشيتُ على يزيدٍ من الفخر المضلَّل ما أتانى

لأن الرواة يقولون إنه هجا بها يزيد بن عمرو بن الصعق الكلابى حين أصاب إبلا للنعمان ، وكلاب عشيرة من عشائر بنى عامر ، وهى قيسية مضرية ، ومع ذلك نجد النابغة يدعوه فيها يمنيًّا إذ يقول فى نهايتها : (ولكن لا أمانة لليمان) وما كان ليضل عنه أنه مضرى لا يمنى ، وكأنما القافية أعوزت فى البيت منتحله ، بل منتحل القصيدة فدعاه يمانيًّا ونسبه إلى اليمن . ومن القصائد التى جاءت فى رواية الأصمعى ويملؤنا الشك فيها قصيدته :

بانتْ سعاد وأمسى حَبْلُها انْجذَمَا واحتلَّتِ الشَّرْعَ فالأَجزاعَ من إضَما

لأنها نسيب خالص ، ولأن بها روحاً إسلامية تتضح فى قوله مخاطباً صاحبته :

حَيَّاك ربى فإنا لا يحلُّ لنا لَهْوُ النساء وإن الدِّين قد عَزما[1]

مُشَمِّرين على خُوصٍ مزنَّمةٍ نرجو الإله ونرجو البِرَّ والطُّعمَا[2]

وإذن فنحن ننكر خمس قصائد فى رواية الأصمعى ونبقى على سبع عشرة ، ومع إبقائنا عليها لا نُخْلِيها من بعض أبيات أدْخلت فى روايتها ، فمن ذلك قصيدته العينية التى يعتذر فيها للنعمان ، فإن الرواة أدخلوا فيها خمسة أبيات تمضى على هذا النحو :

لعمرى وما عمرى علىَّ بهيِّنٍ لقد نطقتْ بُطْلاً علىَّ الأَقارعُ[3]

أقارعُ عوفٍ لا أحاول غيرها وجوهَ قرودٍ تبتغى من تُجادعُ[4]

أتاك امرؤٌ مستبطن لىَ بِغْضَةً له من عدوٍّ مثل ذلك شافع

(١) الدين هنا : الحج . يريد أنهم عزموا عليه . فهو من باب القلب فى التعبير .

(٢) مشمرين : جادين . الخوص : الإبل غائرة العيون . مزنمة : مشدودة بأزمتها ورحالها . الطعم هنا : الرزق .

(٣) الأقارع : بنو قريع بن عوف .

(٤) تجادع : تشاتم . ولفظ وجوه منصوب على الذم .

أتاك بقولٍ هَلْهَلِ النَّسْجِ كاذبٍ ولم يأْتِ بالحق الذى هو ناصعُ
أتاك بقولٍ لم أكن لأقوله ولو كُبِلتْ فى ساعدىَّ الجَوامع[1]

وإنما آدخلوا هذه الأبيات ليشيروا بها إلى ما قالوه من أن السبب فى هربه من النعمان أن مرة بن سعد بن قريع وعبد قيس بن خُفاف نظما هجاء فى النعمان على لسانه ، فلما علم به فَرَّ على وجهه . ونحن ننفى هذه الأبيات عن القصيدة ونبقى على ما عداها ونعده صحيحاً . ونقف نفس الموقف من هذه الأبيات التى جاءت فى معلقته والتى يقول فيها عن النعمان بن المنذر :

ولا أرى فاعلاً فى الناس يُشْبهه ولا أحاشى من الأقوام من أحدِ
إلا سليمانَ إذ قال الإله له قم فى البريَّة فاحدُدْها عن الفَنَد[2]
وخَيِّس الجنَّ إنى قد أذنتُ لهم يَبْنون تَدْمُرَ بالصُّفَّاح والعَمَدِ[3]
فمن أطاعك فانفعْه بطاعته كما أطاعك وادْلُلْه على الرَّشَدِ
ومن عصاك فعاقِبْهُ معاقبةً تَنْهَى الظلومَ ولا تقعد على ضَمَدِ[4]
إلا لمثلك أو من أنت سابقُه سَبْقَ الجواد إذا استولى على الأَمد[5]

وواضح أنه يسترسل فى الحديث عن سليمان كأنه من أهل الكتب السماوية ، وقدكان وثنياً على مذهب قومه ، وبحق رأى طه حسين أن الأبيات أُقحمت على المعلقة إقحاماً[6] . وقد نسبت إلى النابغة أبيات فى غير رواية الأصمعى يقول فيها معتذراً إلى النعمان :

أتيتك عارياً خَلَقاً ثيابى على خَوْفٍ تُظَنُّ بىَ الظنونُ
فألفيتُ الأمانةَ لم تَخُنْها كذلك كان نوحٌ لا يخونُ

---

(١) كبلت : وضعت . الجوامع : الأغلال .
(٢) احددها : امنعها . الفند : الخطأ فى القول والفعل .
(٣) خيس : ذلل . تدمر : مدينة الزباء فى بادية الشام . الصفاح : حجارة عراض . العمد : أساطين الرخام .
(٤) الضمد : الغيظ وشدة الغضب .
(٥) الأمد : الغاية التى تجرى إليها الخيل . والبيت معلق بما قبله أى لا تقعد على غيظ إلا لمن هو مثلك فى الناس أو قريب منك .
(٦) فى الأدب الجاهلى ص ٣٣٧ وما بعدها .

ونفى الجاحظ[١] وابن سلام[٢] أن يكون النابغة قد قال هذا الشعر ، وكأنهما أحسا ما أحسه طه حسين إزاء الأبيات السالفة وأنها خليقة بأن تكون مصنوعة . ومثلها فى المعلقة الأبيات التالية التى تصور فطنة اليمامة وعدّها الدقيق لحمام طائر فى مضيق من الهواء يجعله يشتد فى طيرانه ويسرع إسراعاً :

احْكُمْ كحكم فتاة الحىِّ إذ نظرتْ ... إلى حَمام شِرَاعٍ وارد الثَّمَدِ[٣]

يحفُّه جانبا نيقٍ وتُتْبعه ... مثلَ الزجاجة لم تُكْحَل من الرَّمدِ[٤]

قالتْ ألا ليتما هذا الحمامُ لنا ... إلى حمامتنا ونِصْفُه فقَدِ[٥]

فحسَّبوه فألفوه كما حسبتْ ... تسعاً وتسعين لم تَنْقُص ولم تَزِدِ

فكمَّلتْ مائةً فيها حمامتُها ... وأسرعتْ حِسْبَةً فى ذلك العدد

وهى أبيات واضحة الانتحال . ونحن بعد ذلك نصحح بقية المعلقة ، كما نصحح قصائده ومقطوعاته الأخرى التى جاءت فى رواية الأصمعى باستثناء ما اتهمناه .

٤

شعره

قَرن ابن سلام النابغة إلى امرئ القيس وزهير والأعشى ، فهؤلاء الأربعة فى رأيه هم المقدمون على سائر الشعراء فى الجاهلية[٦] . وتبعه الرواة والنقاد يؤمنون بهذا الحكم ، وأن الأربعة حقًّا هم المجلّون السابقون فى اقتدارهم على تصريف الشعر والنظم فى فنونه المختلفة .

---

(١) الحيوان ٢٤٦/٢ .

(٢) طبقات فحول الشعراء (طبع دار المعارف) ص ٤٩ — ٥٠ .

(٣) فتاة الحى : زرقاء اليمامة . شراع : مجتمعة . الثمد : الماء القليل .

(٤) يحفه : يحيط به . نيق : جبل . وجعل الحمام يمر فى جانبى نيق لأنه إذا مر فى مضيق من الهواء كان أسرع منه إذا اتسع عليه الفضاء . وشبه عين زرقاء اليمامة بالزجاجة فى صفائها . لم تكحل من الرمد : لم يصبها رمد فتكحل منه .

(٥) قد : حسب .

(٦) انظر طبقات فحول الشعراء ص ٤٣ وما بعدها .

وإذا استعرضنا دواوينهم جميعاً وجدنا النابغة يقرب فى ذوقه من أوس بن حجر وزهير ومدرستهما التى اشتهرت عند القدماء بالتجويد والتنقيح ، فهو لا يقبل كل ما يفد على خاطره ، بل لا يزال يثقفه ويصقل فيه حتى يستوى له اللفظ المونق والديباجة الجزلة . وقد أتيح له أن يعيش فى بيئتين متحضرتين هما الحيرة وبلاط الغساسنة ، فرقّ ذوقه وسهل منطقه ولفظه ، وإن كان لم ينس البادية ولغتها وغرابة هذه اللغة .

وقد وقف القدماء طويلا عند إجادته لفنى المديح والاعتذار ، غير أنهم عادوا فقالوا إنه أحد الأشراف الذين غضّ الشعر منهم ، فإنه مدح الملوك وقبل صلتهم ونوالهم ، وكان فى غنى عن هذا القبول . « قيل لأبى عمرو بن العلاء : أفمن مخافة النعمان بن المنذر امتدحه النابغة وأتاه بعد هربه منه أم لغير ذلك؟ فقال : لا ، لعمر الله ما لمخافته فعل ، إن كان لآمنا من أن يوجّه النعمان له جيشاً ، وما كانت عشيرته لتسلمه لأول وهلة ، ولكنه رغب فى عطاياه وعصافيره (إبله) وكان النابغة يأكل ويشرب فى آنية الفضة والذهب من عطايا النعمان وأبيه وجده ، لا يستعمل غير ذلك[1] » .

ويبعد فى رأينا أن يكون قد وفد على أبى النعمان وجده كما يقول أبو عمرو بن العلاء وغيره من الرواة فإن ديوانه برواية الأصمعى يخلو من مديحهما . أما أن تكسبه بالشعر وأخذه نوال المناذرة وكذلك الغساسنة قد غضّ منه وأنزله من مرتبة شرفه فغير صحيح ، لأن وفوده عليهما لم يكن القصد منه التكسب ، وإنما كان القصد رعاية مصالح قبيلته عندهما كما قدمنا ، فقد كان سفيرها فى بلاطهما . وحقّاً إنه يبالغ فى مديحه واعتذاره ، ولكنها مبالغة لا تنتهى إلى ذلة نفس ، بل هى المبالغة التى تأتى من أنه يتحدث إلى أمراء كان لهم سلطان كبير على القبائل العربية ، ويريد أن يصلح ما فسد من قلوبهم عليه وعلى قبيلته .

وليس شعره جميعه مديحاً واعتذاراً فقد رثى النعمان الغسانى ، وهو يقدم لرثائه ومديحه واعتذاراته بالنسيب ووصف ناقته ، وقد يخرج من ذلك إلى وصف الحيوان فى الصحراء وصيده . وأيضاً فى شعره قصائد ومقطوعات تتصل بأحداث قبيلته

---

(١) أغانى ١١/٢٩ وما بعدها .

وأحلافها من بنى أسد وأعدائها من بنى عامر ، وبعبارة أخرى فى شعره فخر وهجاء ، وفى تضاعيف ذلك كله نرى عنده أسراباً من الحكمة والتجربة الصادقة ، وما يدل على وفائه وصدق مودته .

ونحن لا نلمّ بمديحه للغساسنة حتى نؤمن حقّاً بأنه كان شاعراً بارعاً ، يعرف كيف يتخير ألفاظه وكيف ينوع فى معانيه وكيف يستتم صوره . وخير مدائحه فيهم قصيدته البائية ، وهو يستهلها بوصف طول الليل وما تجمع عليه فيه من الهموم ، يقول :

كِلِينى لهمٍّ يا أُميمةُ ناصبِ ... وليلٍ أقاسيه بطىءِ الكواكبِ[1]

تطاولَ حتى قلت ليس بمنقضٍ ... وليس الذى يَرْعَى النجومَ بآيبِ[2]

وصَدْرٍ أَراح الليلُ عازبَ هَمِّهِ ... تضاعفَ فيه الحزنُ من كل جانب[3]

فهو محزون فى أول القصيدة يخاطب بنته أمامة ويشكو لها همومه وأشجانه لما وقع فى قبضة الغساسنة من أسرى قومه ، ونراه يصور طول الليل وهمّه فيه تصويراً بديعاً ، فالكواكب بطيئة لا تجرى ، حتى ليظن أن الصبح الذى يرعى النجوم بأضوائه ويحصدها حصداً لن يؤوب ، والليل يثقل على صدره بما يردّ عليه من موجات الهم والحزن . وهى براعة استهلال رائعة تدل دلالة بينة على أننا بإزاء شاعر يعرف كيف يجسّم معانيه وكيف يعبر عنها تعبيراً واضحاً مستقيما بالصور . وقد خرج من ذلك توّاً إلى مدح عمرو بن الحارث الغسانى وآبائه وعشيرته ، ووقف طويلا عند تصوير جيوشه وما تحقق من انتصارات مدوية ، وأطال فى هذا التصوير قائلا :

إذا ماغَزوا بالجيش حَلَّق فوقهم ... عصائبُ طيرٍ تهتدى بعصائبِ[4]

يُصاحبْنَهم حتى يُغِرْنَ مُغارَهم ... من الضَّاريات بالدماء الدوارب[5]

---

(١) كلينى : دعينى . ناصب : متعب . بطىء الكواكب : كناية عن أنها لا تغور ولا تمضى .

(٢) آيب : راجع . وأراد براعى النجوم الصباح .

(٣) أراح : رد . العازب : البعيد .

(٤) عصائب : جماعات .

(٥) الضاريات : المتعودات . الدوارب : المدربة .

تراهن خَلْفَ القوم خُزْرًا عيونُها … جلوسَ الشيوخ فى ثياب المَرانبِ [١]

جوانحَ قد أيقنَّ أنَّ قبيله … إذا ما التقى الجمعان أولُ غالبِ [٢]

لهنَّ عليهم عادةٌ قد عرفْنها … إذا عُرِّض الخَطِّىُّ فوق الكواثبِ [٣]

على عارفاتٍ للطعان عوابسٍ … بهنَّ كلومٌ بين دامٍ وجالبِ [٤]

إذا استُنْزلوا عنهن للطَّعن أرْقَلُوا … إلى الموت إرقالَ الجمال المَصاعبِ [٥]

فهم يتساقون المنية بينهم … بأيديهم بيضٌ رقاقُ المضاربِ [٦]

يَطير فُضَاضاً بينها كلُّ قَوْنَسٍ … ويتبعها منهم فَراشُ الحواجبِ [٧]

ولا عَيْبَ فيهم غير أن سيوفهم … بهن فلولٌ من قِراع الكتائبِ [٨]

تُوُرِّثْنَ من أزمانِ يومِ حليمةٍ … إلى اليوم قد جرِّبن كلَّ التجاربِ [٩]

تَقُدُّ السَّلوقىَّ المضاعَفَ نَسْجُهُ … وتوقد بالصُّفَّاح نارَ الحُباحبِ [١٠]

بضرب يُزيل الهام عن سَكناته … وطَعْنٍ كإيزاغ المخاضِ الضواربِ [١١]

وهو يبدأ تصويره بأن جماعات الطير من النسور والعقبان تتبع جيش الغساسنة ، تنتظر زادها من أشلاء قتلاهم وربما سبقه الأفوه بقوله :

وترى الطير على آثارنا … رأْىَ عينٍ ثِقَةً أن ستُمارُ [١٢]

---

(١) خزر العيون : جمع أخزر وهو الذى ينظر بمؤخر عينه . المرانب : ثياب سوداء .

(٢) جوانح : مائلات للوقوع .

(٣) الخطى : الرماح . الكواثب : القربوس .

(٤) عارفات : صابرات . كلوم : جروح . دام وجالب : مدم ومتجمد عليه الدم .

(٥) أرقلوا : أسرعوا . المصاعب : النافرة .

(٦) بيض : سيوف .

(٧) فضاضاً : متفرقاً . القونس : أعلى الرأس . فراش الحواجب : عظامها .

(٨) فلول : ثلوم . قراع : مضاربة .

(٩) يوم حليمة : معركة مشهورة انتصر فيها الحارث بن جبلة الغسانى على المنذر بن ماء السماء .

(١٠) السلوقى : الدرع المنسوبة إلى سلوق من أرض اليمن. تقد : تشق . الصفاح : الحجارة ويريد خوذ الجنود . الحباحب : ذباب له شعاع بالليل .

(١١) الهام : جمع هامة وهى الرأس . سكناته : حيث يسكن ويستقر . الإيزاغ : دفع الناقة بولها . المخاض : الحوامل .

(١٢) انظر ديوان الأفوه ص ١٣ . تمار : تعطى الميرة من لحوم القتلى .

غير أن النابغة فصَّل الصورة حتى يحكم المعنى ويكشفه كشفاً دقيقاً ، فالنسور والعقبان خزر العيون ، وهى تشبه فى ألوانها ثياب المرانب السوداء التى يلبسها الشيوخ . وهى تسير خلفهم موقنة بأنها لابد أن تجد زادها من أعدائهم ، وأنها على وشك الوقوع على ما تريد من هذا الزاد . وهى لذلك لا تزال جانحة ، عادة عرفتْها فيهم لا يخلفونها ولا يمطلونها . وقد أعجب القدماء طويلا بهذه الصورة عند النابغة ، فتعاور عليها الشعراء ، وكل منهم يحاول أن يثبت مهارته وقدرته[1]. ويمضى النابغة فيصور شجاعة الجيش ، وما على خيله من أثر للطعان وجروح بين مدم ومتجمد عليه الدم . ونلاحظ هنا الدقة فى الوصف ، وهى دقة استتبعت ضرباً من الطباق . وقد صورهم يتساقون كئوس المنية ، كناية عن جرأتهم فى الحرب واقتحامهم لأهوالها ، ثم صور كيف يثخنون فى أعدائهم ، ولم يلبث أن جاء بصورة طريفة ظاهرها ذم وباطنها مدح شديد ، فالغساسنة لا عيب فيهم إلا عيب واحد ، وهو ليس فى حقيقته عيباً ، بل هو مفخرة من مفاخرهم ، فسيوفهم مفللة من طول قراعها ومضاربتها للكتائب . ومثل هذا التعبير الذى سبق إليه يدل على أنه كان يدقق فى معانيه وألفاظه جميعاً . ولم ينس أن يشير إلى نصرهم القديم فى يوم حَليمة الذى هُزم فيه المناذرة شر هزيمة ، حتى لقد قُتل المنذر بن ماء السماء فى ساحة المعركة . وقد جعل سيوفهم المفللة تشق الدروع المتينة وتمزق أصحابها تمزيقاً مطيحة برءوسهم ومرسلة شرراً لا ينقطع ضياؤه حتى لكأنه أشعة الحباحب ، وسيولا من الدماء كأنها إيزاغ المخاض . حتى إذا استوفى كل ما أراد من تصويرهم بالشجاعة فى ميادين الحروب انتقل يصورهم فى سلمهم متحدثاً عن شيمهم وشمائلهم ودينهم ونعيمهم ، يقول :

لهم شِيمَةٌ لم يُعْطِهـا اللهُ غيرهم ... من الجود ،والأَحلامُ غَيْرُ عَوَازِبِ[2]

مَحلَّتُهم ذاتُ الإله ، ودينُهم ... قويمٌ فما يرجون غيرَ العواقب[3]

---

(١) انظر الصناعتين للعسكرى (طبعة الحلبى) ص ٢٢٥ والوساطة للجرجانى (طبعة الحلبى) ص ٢٧٤ .

(٢) الأحلام : العقول . عوازب : جمع عازب وهو الغائب .

(٣) محلتهم: منزلتهم ، ذات الإله : يقصد كنائسهم .

رقاقُ النِّعـال طيبٌ حُجُزاتُهمْ يُحَيَّوْنَ بالرَّيْحان يوم السَّباسبِ[1]
تحيِّيهمُ بيضُ الولائدِ بينهم وأَكْسيَةُ الإِضْريجِ فوق المَشاجب[2]
يصونون أجسادًا قديماً نَعيمُها بخالصة الأَرْدَانِ خُضْرِ المناكب[3]
ولا يحسبون الخير لا شرَّ بعده ولا يحسبون الشرَّ ضربةَ لازب[4]
حَبَوْتُ بها غَسَّانَ إذ كنتُ لاحقاً بقومى وإذ أَعْيَتْ علىَّ مذاهبى[5]

وهو فى أول الأبيات يصفهم بالجود ورجاحة الأحلام والعقول ، ثم يأخذ فى وصفهم بأنهم متدينون بدين قويم ، وكان الغساسنة نصارى كما مر بنا فى غير هذا الموضع . ويقول إن منازلهم تحل بأمكنة مقدسة ، ولعله يريد كنائسهم ، ولا يلبث أن يقول إنهم يخشون العواقب ، وكأنه يستحثهم على أن يفكوا أسرى قبيلته من أغلالهم . وتحوَّل يصفهم بالترف وما كانوا فيه من رفاهة العيش ، فهم رقاق النعال ، وهم أعفاء ، يحيَّون بالأزهار فى عيد السَّباسب أو يوم الشَّعانين ،وهو من أعياد النصارى ، وهم منعمون يلبسون ثياباً بيض المناكب خضر الأكمام . وعاد يستعطفهم على قومه وأنهم إذا كانوا أهاجوهم واستتبع ذلك شرًّا وبلاء فإن فى الغساسنة خيراً كثيراً . ولم يلبث أن صرح بما جاء من أجله ، فهو إنما يمدح الغساسنة باسم قومه ، وقد ضاقت عليه الدنيا بما رَحُبَتْ بسبب من أُسِرَ منهم عند ممدوحيه ،وكأنه يهيب بهم أن يردوا إليهم حريتهم ، وردوها فعلا لما بهرهم به النابغة من هذا المديح الرائع .

وواضح أن روعة هذا المديح ترجع إلى استيفاء النابغة لمعانيه وعرضها فى معارض بديعة من اللفظ الواضح الجزل ومن الصور المونقة الدقيقة . وقد نفذ فى أثناء ذلك إلى معان حضرية جديدة ، إذ صور دينهم وترفهم وما هم فيه من نعيم . وهو فى ذلك يختلف عن شعراء البادية أمثال زهير فى مديحه ، إذ كانوا لا يعرفون هذه المعانى ولا تلم بخواطرهم ، أما هو فعاش أغلب أيامه فى الحيرة وفى بلاط الغساسنة ،

---

(١) الحجزات : معاقد الثياب . طيب حجزاتهم : كناية عن عفتهم .

(٢) الولائد: الجوارى والإماء . الإضريج : الحرير الأحمر . المشاجب : جمع مشجب وهو أعواد تعلق عليها الثياب .

(٣) الأردان : الأكمام . وخلوصها : نصوع بياضها .

(٤) لازب : لازم .

(٥) بها : يريد قصيدته . أعيت مذاهبه عليه : ضاقت وسدت .

فكان طبيعيًّا أن يختلف ذوقه عن ذوق البدو وأن يأتى بمثل هذه المعانى التى تروق ممدوحيه من الأمراء .

وإذا كان النابغة يتفوق فى المديح تفوقاً ظاهراً فإنه كذلك يتفوق فى الاعتذار ، وكأن ذوقه الحضرى هو الذى أعدَّه لهذا التفوق ، إذ نحس فيه رقة فى اللهجة وإلحاحاً فى التلطف محاولا أن يزيل من نفس النعمان بن المنذر ظنه السيئ فيه . وقد استعان بموهبته فى اختراع الصور والمعانى والتدقيق فيها ، مد بجاً فى ذلك قصائد طوالا تُعَدُّ من أروع ما خلّفه العصر الجاهلى لا لطولها فحسب ، بل لما فيها من صدق اللهجة وسهولة اللفظ وحسن ديباجته . وقد أسعفه فى ذلك ذوقه الحضرى الذى خلصه من خشونة البدو ومن الأنفة الجامحة ، فإذا ذنبه يكبر فى نفسه ، وإذا هو يحس كأنه أتى جريرة لا تغتفر ، فمايني يقدِّم للنعمان المعاذير متخذاً إليه كل ما يستطيع من البراهين ومن سبل التلطف والملاينة . وقد يؤديه ذلك إلى غير قليل من التذلل والاسترحام ، حفاظاً على صداقته القديمة له واستبقاء لوده ، وهو حسن تأتٍّ لا صغار نفس ولا مهانة ، ولا طلباً لعصافير النعمان كما قال أبو عمرو بن العلاء ، وإنما هو الذوق الحضارى الذى اكتسبه النابغة والذى جعله يختلف عن معاصريه ويقترب من ذوق العباسيين المتحضرين ، حين يشعرون بضخم ذنبهم لدى الممدوحين ويأخذون فى التنصل منه ، وتقديم شتى المعاذير . وهو يخلط اعتذاره بمديح النعمان والثناء عليه ، وارجعْ إلى المعلقة فستراه يستهلها بوصف أطلال دارمية ، ثم وصف ناقته التى قطع بها الصحراء إلى مقصده مفتنًّا فى تصويرها ، ومشبهاً لها بثور تناضله كلاب الصيد ، حتى إذا انتهت به إلى النعمان أخذ يمدحه بكرمه الفياض وما وهبه من قطعان الإبل والخيل ومن الجوارى المنعَّمات ، ثم مضى يستعطفه قائلا :

فلا لعمرُ الذى مَسَّحْتُ كَعْبَتَهُ ... وما هُرِيقَ على الأَنصابِ من جَسَدِ [1]

والمؤمنِ العائذاتِ الطير تمسحها ... رُكْبَانُ مكَّةَ بين الغَيْل والسَّعَدِ [2]

---

(١) مسحت : لمست ألتمس البركة . هريق : سال . الجسد : الدم . الأنصاب : الحجارة التى كانوا يذبحون عليها قرابينهم للآلهة .

(٢) المؤمن : الذى آمنها من الخوف . العائذات : اللاجئات إلى الحرم . تمسحها الركبان : يريد أنها تمسح عليها ولا تهيجها بصيد . الغيل والسعد : أجمتان بين مكة ومنى.

ما قلتُ من سَيِّيءٍ مما أُتيتَ بهِ … إذنْ فلا رفعتْ سَوْطى إلىَّ يَدى

إلا مقـــالةَ أَقوامٍ شقيتُ بها … كانت مقالتهمْ قَرْعاً على الكَبِدِ(١)

إذنْ فعاقبنى ربى معـــاقبةً … قَرَّتْ بها عَيْنُ من يأْتيك بالفَنَدِ(٢)

أُنبئتُ أن أَبا قابوسَ أو عـــدنى … ولا قَرَار على زَأْرٍ من الأَسد(٣)

مهلا فـــداءٌ لك الأَقوامُ كلُّهمُ … وما أُثَمِّرُ من مالٍ ومن وَلدِ(٤)

لا تَقْذِفَنِّى برُكْنٍ لا كِفاءَ له … وَإنْ تَأَثَّفك الأَعداءُ بالرِّفَدِ(٥)

وواضح أنه يقسم له بأيمانه الوثنية المغلظة أنه برىء مما يتَّهم به من غدر ، ويستنزل غضب ربه عليه إن كان غير صادق ، ولتشلَّ يده إن كان ما يقول الوشاة صحيحاً . ولا يلبث أن يصور نفسه ضعيفاً أمام النعمان وقوته وبطشه ، ويمثله أسداً جائعاً يزأر ، وقد وقع منه موقع الفريسة . وسرعان ما يعود إلى الاستعطاف ، فالناس جميعاً من غساسنة وغير غساسنة فداء النعمان ، بل إنه ليفديه بماله وولده ، ويقول له لا ترمنى بما لا أطيق منك ، وأنت الذى لا يستطيع الأعداء مهما تآزروا أن يثبتوا له . ويخرج من ذلك إلى مديحه ، ثم يعود إلى استعطافه فيقول :

فما الفُرات إذا هبَّ الرياحُ لَهُ … تَرْمى أَواذيُّه العِبْرين بالزَّبَدِ(٦)

يمـــدُّه كلُّ وادٍ مُتْرَعٍ لَجِبٍ … فيه رُكامٌ من اليَنْبُوتِ والخَضَدِ(٧)

يَظَلُّ من خَوْفه المَلَّاحُ مُعْتَصِماً … بالخَيْزُرانَةِ بعد الأَيْن والنَّجَدِ(٨)

يوماً بأَجْوَد منه سَيْبَ نافلة … ولا يحولُ عطاءُ اليوم دون غَدِ(٩)

---

(١) القرع : الضرب .
(٢) الفند : الكذب .
(٣) أبو قابوس : النعمان بن المنذر .
(٤) أثمر : أنمى وأجمع .
(٥) الكفاء : النظير والمثل . تأثف : تجمع . الرفد : الجماعات من الناس .
(٦) أواذيه : أمواجه . العبرين : الشاطئين .
(٧) مترع : مملوء . لجب : ذو صوت شديد . الينبوت : شجر . الخضد : المحطم من الأشجار .
(٨) الخيزرانة : سكان السفينة . الأين : التعب . النجد : الكرب .
(٩) سيب : عطاء . نافلة : زيادة . يريد أن عطاءه وفر .

هذا الثناءُ فإن تسمعْ به حَسَناً ... فلم أُعَرِّضْ-أبيتَ اللَّعْنَ-بالصَّفَدِ[1]

ها إنَّ ذِى عِذْرَةٌ إلا تكنْ نَفَعَتْ ... فإن صاحبها مشارِكُ النَّكَدِ[2]

وقد بدأ فشبهه بالفرات في كرمه ، ثم أخذ يصف الفرات فى ارتفاع فيضانه ، وعمد إلى تفصيل الصورة ، حتى يبرزها وحتى يظهر مقدرته الفنية فى دقة التصوير ، فهو قد علت أمواجه ورمت شاطئيه بالزبد ، وهو ينساب حاملا ما يقتلعه من الأشجار والنباتات ، وإنه ليعصف بكل ما عليه حتى لنرى الملاح معتصما فى مركبه بسُكّانها يخشى الغرق . وقد نفى أن يكون الفرات فى فيضانه أكرم من النعمان وأكثر سَيْباً . ودائماً يحاول النابغة أن يخترع مثل هذه الصورة ، ليدل على براعته . ونراه يعود إلى استعطاف النعمان ، وأنه قدم له هذا الثناء لا يبغى به نواله ، وإنما يبغى رضاه ، وأنه إن لم يقبل اعتذاره ألقى به فى مهاوى النكد والهم . ومن بديع اعتذاراته قصيدته العينية ، وفيها يقول :

وَعِيدُ أبى قابوسَ فى غير كُنْهِه ... أتانى ودونى راكسٌ فالضواجعُ[3]

فبِتُّ كأنى ساورتْنى ضَئِيلَةٌ ... من الرُّقش فى أنيابها السمُّ ناقعُ[4]

يسهَّد من ليل التِّمامِ سَلِيمُها ... لحَلْى النسَاءِ فى يديه قَعاقعُ[5]

تناذرها الرَّاقون من سوءِ سَمِّها ... تُطلِّقه طورًا ، وطورًا تُراجعُ[6]

أتانى - أبيتَ اللَّعْن - أنك لُمْتَنى ... وتلك التى تَسْتَكُّ منها المسامعُ[7]

(١) الصفد : العطاء . أبيت اللعن : تحية كانوا يحيون بها ملوكهم .

(٢) عذرة : اعتذار . مشارك النكد : حليف نكد وهم .

(٣) فى غير كنهه : كنهه : حقيقته ، يريد على غير ذنب منه . راكس : واد فى منازل بنى أسد . الضواجع : منحنى الوادى .

(٤) ساورتنى : لدغتنى . ضئيلة : أفعى دقيقة الجسم . الرقش : جمع رقشاء ، وهى المنقطة نقطاً بيضاء وسوداء . ناقع : قاتل .

(٥) يسهد : يمنع من النوم . ليل التمام : أطول ليالى الشتاء . السليم : الملدوغ . قعاقع : أصوات . كانوا يجعلون الحلى فى يد الملدوغ اعتقاداً منهم بأنها تشفيه .

(٦) يقول من خبثها لا تجيب الراقى . بل مرة تجيب ومرة لا تجيب . تناذرها الراقون : خوف بعضهم بعضاً منها .

(٧) تستك : تضيق .

مقالةَ أن قد قلتَ سوف أناله ... وذلك من تلقـاء مثلك رائعُ

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً ... وهل يأْثَمَنْ ذو أُمَّةٍ وهو طائع[١]

بمصطَحبات من لَصَافٍ وثَبْرَةٍ ... يَزُرْنَ إلالاً، سَيْرُهُنَّ التَّدافُع[٢]

سَمَاماً تُبارِى الرِّيح خُوصاً عيونُها ... لهن رَذايا بالطريق ودائعُ[٣]

عليهنَّ شُعْثٌ عامدون لِحَجِّهم ... فهنَّ كأطراف الحَنِىِّ خَوَاضع[٤]

لكلَّفتنى ذنب امرئٍ وتركْتَـهُ ... كَذِى العُرِّ يُكْوَى غيره وهْو راتع[٥]

فإن كنتَ لاذو الضِّغْنِ عنى مكذِّبٌ ... ولا حَلِفِى على البراءة نافع

ولا أنا مأمونٌ بشىءٍ أقولُه ... وأنت بأمرٍ لا محالة واقع

فإنك كالليل الذى هو مدركى ... وإن خِلتُ أن المُنْتَأَى عنك واسع[٦]

خطاطيفُ حُجْنٌ فى حبالٍ متينةٍ ... تمدُّ بها أيْدٍ إليك نوازع[٧]

أتوعِد عَبدًا لم يَخُنكَ أمانةً ... وتتركَ عَبدًا ظالماً وهو ضالع[٨]

وأنتَ ربيعٌ يُنعِشُ الناسَ سَيْبُهُ ... وسَيْفٌ أُعيرتْه المنيـةُ قاطع[٩]

أبَى الله إلا عَدْلَه ووفـاءه ... فلا النكْرُ معروفٌ ولا العُرْفُ ضائعُ[١٠]

---

(١) أمة هنا: دين.

(٢) بمصطحبات: أقسم بالإبل التى تصطحب فى المسير إلى الحج. لصاف وثبرة: موضعان فى ديار تميم. إلال: جبل بعرفة. التدافع: العجلة.

(٣) سماما: طائر شديد الطيران شبه به الإبل فى سرعتها. خوصاً: غائرات من شدة السير وإجهاده. رذايا: جمع رذية وهى الساقطة إعياء من الإبل. ودائع: مستودعات فى الطريق. يريد ما سقط منهن إعياء فترك.

(٤) شعث: جمع أشعث وهو المغبر من طول السفر. الحنى: القسى. الخواضع: المتطامنة رءوسها من الأرض.

(٥) العر: الجرب. وكانوا يداوون الإبل منه بكيها.

(٦) المنتأى: المكان النائى البعيد.

(٧) مر شرحه.

(٨) ضالع: مائل عن الحق، ويروى ظالع وهو الجائر المذنب.

(٩) الربيع هنا: الغيث. السيب: العطاء.

(١٠) النكر: المنكر. العرف: المعروف.

وتُسْقَى إذا ما شئتَ غَيرَ مُصَرَّدٍ بزوراءَ فى حافاتها المسك كانع[1]

وهو فى أول هذه الأبيات يقول له: إن وعيدك أتانى وأنا آمن فى قومى وبينى وبينك منازل بنى آسد ومَنْ وراءهم ، فألمت حفظاً للعهد وبت مسهداً ، كأنما لدغتنى أفعى ، وهى صورة بارعة ، وقد أخذ يدقق فيها حتّى يجسم ألمه ، فهى أفعى من الرقش تستودع السم فى أنيابها الحادة ، فمن عضَّتْه لم يطف به النوم من شدة الألم ، وعلق عليه أهله الحلى والخلاخيل حتّى يفيق ويبرأ . وهى من الأفاعى الخبيثة التى قلما أجابت الرقى ، وإن الرقاة والحاوين ليرهبونها ويتخوفون من أن يطأوا حِماها . ويصور النابغة للنعمان فزعه حين أتاه أنه يلومه ، ويحلف له بأيمانه الوثنية ، ويختار هنا الحلف بالإبل التى كانوا ينذرونها لآلهتهم ، ويقف ليعطينا صورة عن هذه الإبل ، فهى تقبل على مكة مسرعة سرعة السهام ، حتّى لكأنها تبارى الريح ، وقد أُجهدت من السير وطول السفر ، حتّى إن بعضها سقط فى الطريق إعياء، فلم ينبعث ولم يستطع براحاً . وقد بقيت منها بقية عليها شعث مغبرون يقصدون الحج ، وقد أخذها النحول حتّى لكأنها القسى الضامرة . وهذا اليمين العظيم يقسم به متنصلا مما سمع عنه من بعض الوشاة أنه انصرف إلى الغساسنة يمدحهم ويهجوه ، وكان حريًّا به أن ينزل سخطه لا عليه ، وإنما على هذا الواشى وإلا فمثله ومثل من وسوس للنعمان مثل البعير السليم يكوى من الجرب ، والأجرب راتع بجانبه لا يصيبه كيّ ولا أذى . وهى صورة أخرى بارعة . ويقول إن كنت لا تكذب من يضطغن علىّ ولا تصدق يمينى ولا حلفى فما أحرانى بالرهبة منك والخوف من بطشك ، ويودع ذلك صورة رائعة ، إذ يتخيل النعمان كالليل ، لا مفر لشخص من أن يطبق عليه . وعاد إلى الاستعطاف فصور قصائده التى يرسل بها إليه ليلين قلبه عليه كأنها خطاطيف معوجة ثُبِّتت فى حبال متينة ، وأيدى النابغة تمد بها إليه ، تريد أن تظفر بعطفه ورضاه . ويصور له أمانته وأنه لا يخون عهده ، بينما من يختانون هذا العهد يقرِّبهم ويرعاهم ، ويختم اعتذاره إليه بمديحه والثناء عليه، فهو غيث منعش لأوليائه وسيف مصلت على أعدائه ، وقد

---

(١) مصرد : من التصريد وهو الشرب دون الرى : زوراء : كأس طويلة من فضة كان النعمان يشرب فيها . كانع : لاصق .

يراه الله لرعيته عادلا وفيًّا ، لايلقى المنكر بالمعروف ولا المعروف بالمنكر ، يجزى على الإساءة إساءة وعلى الإحسان إحساناً ، وانتهى بتمثيل ما هو فيه من نعيم ، فهو يشرب فى كأس مفضضة مُزِج ما فيها بالمسك والطيب . ومن رائع اعتذاراته إليه قوله :

أتانى – أبيتَ اللَّعْنَ – أنك لُمْتَنى ... وتلك التى أهتمُّ منها وأنْصَبُ[1]

فبِتُّ كأن العائداتِ فَرَشْنَنِى ... هَرَاساً به يُعْلَى فِراشى ويُقْشَب[2]

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً ... وليس وراءَ الله للمرء مذهبُ

لئن كنتَ قد بُلِّغْتَ عنى خيانةً ... لمبلغك الواشى أَغَشُّ وأَكْذَبُ

ولكننى كنت امرأً لىَ جانِبٌ ... من الأرض فيه مُسْتَرَادٌ ومَذْهَبُ[3]

ملوكٌ وإخوانٌ إذا ما أتيتُهم ... أحكَّم فى أموالهم وأقرَّبُ

كفعلك فى قومٍ أراك اصطنعتهم ... فلم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا

وإنَّك شمسٌ والملوك كواكبٌ ... إذا طلعتْ لم يبد منهن كوكبُ

فلا تتركَنِّى بالوعيد كأننى ... إلى الناس مَطْلِيٌّ به القارُ أجْرَبُ[4]

ألم تر أن الله أعطاك سُورَةً ... ترى كل مَلْكٍ دونها يَتَذَبْذَبُ[5]

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمُّه ... على شَعَثٍ ،أىُّ الرجال المهذَّب[6]

فإن أكُ مظلوماً فعبدًا ظلمتَه ... وإن تكُ ذا عُتْبَى فمثلُكَ يُعْتِبُ[7]

وواضح أنه يصور نفسه فى أول هذه الأبيات حين بلغه لوم النعمان بمريض ،

---

(١) أنصب : أجهد جهداً شديداً .

(٢) الهراس : شجر كثير الشوك . العائدات : الزائرات فى المرض . فرشننى : بسطن لى . يقشب : يجدد .

(٣) جانب من الأرض : متسع . مستراد : يذهب فيه الإنسان كما يريد . كناية عن إكرام الغساسنة له فى ديارهم .

(٤) القار : القطران ، وكانوا يداوون به الإبل الجربى .

(٥) السورة : المنزلة . يتذبذب : يضطرب ولا يصل إليها .

(٦) شعث : فساد . تلمه : تجمعه وتضمه .

(٧) عتبى : رضا . يعتب : يعطى العتبى والرضا .

قد أخذته آلام المرض وأهله يسوون له فراشه رحمة به وعطفاً عليه . ويحلف له بأنه بريء مما اتهمه به الواشي ، إذ لا يزال يرعى أمانة عهده ، وكل ما هناك أنه ألم بديار الغساسنة ، فأكرموه وحكّموه فى أموالهم ، فوجب عليه أن يشكر لهم يدهم وصنيعهم كما يشكر النعمان من يرعاهم من الشعراء و يغدق عليهم من نواله . وهو بذلك يقيم الحجة على النعمان ، فليس هناك كفران لنعمته عليه ولا جحود لولائه ، وما يلبث أن يرفعه على جميع الملوك من غساسنة وغير غساسنة ، فهو كالشمس الساطعة وغيره من الملوك كالنجوم ، يتوارون فى ضيائه ومجده ، وهى صورة باهرة لاشك أنها تركت أثراً بليغاً فى نفس النعمان . وقد تلاها باستعطافه ، فصور له ماصبّه عليه من غضب بالقار يُصَبُّ على الأجرب فيتحاماه الناس . ويعود إلى بيان منزلة صاحبه وأن غيره من الملوك لا يرتقون إلى مكانته ، بل يضطربون دون سمائه . ويقول له : هَبْ أن مديحى للغساسنة هفوة واعْفُ عنى ، فإن لكل شخص هفوة ، وأين الأخ الذى لا يهفو ولا يعثر ؟ ومثلك حرى بأن لا يظلم أصفياءه ومن يخلصون له الولاء ، فإن ظلمتنى قبلت ظلمك ، وإن أسدلت علىّ عفوك ورضاك فليس غريباً منك ، فمثلك يعتب ويصفح الصفح الجميل .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل دلالة بينة على براعة النابغة فى اعتذاره ومديحه جميعاً ، فقد كان يعرف كيف ينوّع معانيه وكيف يسلك إليها شعاباً لم يسلكها أحد من قبله . والذى لا ريب فيه أن باب الاعتذار والاستعطاف ضيق . ولكنه عرف بمقدرته الخيالية كيف ينفذ منه إلى صور طريفة ومعانٍ دقيقة ، يقوده فى ذلك ذوقه الحضرى الذى نصّب أمام عينه اتصاله بالغساسنة ذَنباً كبيراً وجرماً لا يغتفر فى حق النعمان بن المنذر ، وقد أخذ يتنصل من هذا الجرم تارة ويعظم فضيلة العفو عن المذنب تارة ثانية . وبذلك كان فاتحاً لباب الاعتذار على مصراعيه ، وعلى هَدْيه تبعه الشعراء فى العصور الإسلامية متخذين منه قُدْوتهم .

وإذا كنا أعجبنا باعتذارات النابغة ومديحه فإننا نعجب أيضاً برثائه للنعمان بن الحارث الأصغر الغسانى ، وهو يستهله بالنسيب ثم يصف ناقته مشبهاً لها بحمار وحشى . ويخرج من ذلك إلى الرثاء ، فيقول إنه أحزنه نعى النعمان وإن كان سَرَّ قيساً لما أثخن فيها بحروبه . وهو يعبّر بذلك عن وفائه واعترافه بالجميل ،

ومن ثَمَّ لا يشمت بموت النعمان كما شمتت ذبيان وغيرها من قبائل قيس ، بل إنه ليدعو على أعدائه أن لا يهنئوا بمصرعه ، ويحدثنا عن جيوشه وانتصاراتها فى القبائل . ويقف ليرد على من جهلوا شيمته من الحفاظ على العهد والضن بسابق الود ، فقد ظنوا أنه لن يرثى النعمان ولن يذكره ، ويقول كيف لا يذكره ، وقد حرك موته ما يشبه الداء العضال فى فؤاده ، ونحس أنه سعّر قلبه وأشعل صدره بشعلة من الحزن لا تخبو . وما زال يبكيه متعزياً بأن الموت سنة الأحياء وأنه كأس دائر على الجميع ، حتى قال داعياً له ومترحماً عليه :

سَقَى الغَيْثُ قبرًا بين بُصْرَى وجاسِمٍ ... بغَيْثٍ من الوَسْمِىِّ قطرٌ ووابلُ[1]

ولا زال ريحانٌ ومسكٌ وعَنْبَرٌ ... على منتهاه دِيمَةٌ ثم هاطِلُ[2]

ويُنْبتُ حَوْذاناً وعَوْفاً مُنَوِّرا ... سأُتْبِعُهُ من خير ما قال قائل[3]

وهو يستمطر على قبره شآبيب الغيث ، ولا يكتفى بذلك بل يدعو له أن يظل قبره معطراً بالريحان والمسك والعنبر ، ولا تزال تمده الأمطار بما يـُنْبت عنده النباتات العاطرة من مثل الحوذان والعرف . وحقًّا كان الشعراء حوله ومن قبله يستسقون السحاب لقبور مَنْ يفقدونهم ، ولكنه مدَّ أطناب الصورة بذوقه الحضرى وأضاف إليها الريحان والمسك والعنبر ، ودعا للأرض أن تُنبت من حول النعمان الأزهار والرياض . وهى صورة حضارية تقابل أختها التى مرت فى مديحه لأخيه عمرو .

وقد قدَّم لهذه المرثية كما قلنا بالنسيب ، وهو يقدم به لبعض اعتذاراته مؤتسياً بمن حوله من شعراء الجاهلية إذ كانوا يضعونه غالباً فى مقدمات قصائدهم ، وكأنهم يريدون أن يستوحوا المرأة شعرهم وقصيدهم . ومن نسيبه قوله فى فاتحة معلقته التى أودعها إحدى اعتذاراته :

يا دار مَيَّةَ بالعَلْياء فالسَّنَدِ ... أَقْوَتْ وطال عليها سالفُ الأَبَدِ[4]

وقفتُ فيها أُصَيْلاناً أسائلُها ... عَيَّتْ جواباً وما بالرَّبْع من أَحَدِ[5]

---

(١) بصرى وجاسم : موضعان بالشام . الوسمى : أول المطر . وابل : غزير .

(٢) منتهاه : قبره . الديمه : المطر ليس فيه برق ولا رعد . الهاطل : المطر المتتابع .

(٣) الحوذان والعوف : نباتان طيبا الرائحة .

(٤) العلياء والسند : موضعان . أقوت : خلت . الأبد : الزمن .

(٥) أصيلانا : تصغير أصلان جمع أصيل أو لعله مصدر من أصيل على وزن غفران . عيت : عجزت .

إلا الأوارىَّ لَأْياً ما أُبيِّنها ... والنُّؤْىَ كالحَوْض بالمظلومة الجلَد(١)

رُدَّتْ عليه أقاصيــه ولبَّدَهُ ... ضَرْبُ الوليدة بالمِسْحاة فى الثَّأَدِ(٢)

خَلَّتْ سبيلَ أَتِىٍّ كان يحبسهُ ... ورفَّعتْه إلى السَّجْفين فالنَّضَدِ(٣)

أَمستْ خلاءً وأمسى أهلُها احْتملوا ... أَخْنَى عليها الذى أخنى على لُبَدِ(٤)

وهو يستهلها بنداء دار مية ولا يسمع رجعاً لندائه ولا ردًّا عليه، فقد خلت من سكانها وبارحوها منذ أمد طويل . ويقول إنه وقف بها وقت الأصيل يسائلها ولا من مجيب ، ويصف آثارها وما أبقى الزمن منها ، ويقول لم يبق منها إلا الأوتاد وإلا النؤى . ويطيل فى وصفه ليظهر قدرته الخيالية ، فقد حفرته جارية فى أرض صلبة ، وما زالت ترد أتربته على حوافيه ، باسطة طريقه إلى الخيام ليرد عنها سيول المطر . وقد أبدع فى تسمية الأرض التى لم تحفر بالمظلومة ، وهو أول من أعطاها هذا الاسم ، كأنه أحس إزاء الصخر الذى لا يُحرَثُ ولا يزرع بضرب من الظلم . وقد ختَم نسيبه بإظهار هذه الدار التى رحل عنها أهلها بمظهر بال ، فقد جرَّت الأيام عليها أذيال البِلى والعفاء، كما جرَّتها من قبل على لُبد نَسْر لقمان المشهور بطول عمره وطول سلامته .

وواضح أن هذا النسيب فيه قدرة بارعة على الوصف ، ولكن ليس فيه عاطفة قوية ، وربما رجع ذلك إلى وقار النابغة، فهو ينسب بالمرأة لا ليصور حبًّا ، وإنما ليتمسك بهذا التقليد الثابت عند الجاهليين من افتتاح قصائدهم بوصف آثار الديار وما صنعت بها الأحداث . وقد أوشك فى مقدمته لاعتذاريته العينية أن يصور عواطفه وحبه ولكنه لم يكد يقول :

فكفكفتُ منى عبرةً فَرَدَدْتُها ... على النَّحْر منها مُستَهِلٌّ ودامعُ(٥)

---

(١) الأوارى : الأوتاد وما يربط بها من حبال . النؤى : حفرة حول الخيام تمنع عنها السيول . المظلومة : الأرض صعبة الحفر . الجلد : الصلبة .

(٢) لبده : جمعه . الوليدة : الأمة . الثأد : الثرى الندى .

(٣) خلت : شقت . الأتى : السيل . رفعته : أعلته . السجفان : مصراعا الستر فى الخيمة . النضد : المتاع .

(٤) أخنى عليها : أصابها بآفات الدهر . لبد : نسر للقمان يقولون إنه عمر طويلا .

(٥) كفكف الدمع : مسحه . المستهل : السائل . الدامع : الذى يترقرق فى العين قبل أن يسقط .

حتى أمسك نفسه ، وعاتبها على الصبوة وقد علا رأسه الشيب . ونراه فى معلقته يخرج من الغزل إلى وصف ناقته على عادة الشعراء من حوله ، فيصور قوة متنها وسرعة سيرها ومضائها ، ثم يأخذ فى تشبيهها بثور وحشى ، ويدفعه ذلك إلى وصف صائد وأكلبه وما نشب بينها وبين هذا الثور من عراك ، يقول :

مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ مَوْشِيٍّ أَكارِعُهُ ... طاوى المَصِيرِ كسيفِ الصَّيْقَلِ الفَرِدِ[1]

أَسْرَتْ عليه من الجوزاءِ سَارِيَةٌ ... تُزْجى الشمالُ عليه جامدَ البَرَدِ[2]

فارتاع من صَوْتِ كَلَّابٍ فبات ،له ... طَوْعُ الشَّوامِتِ من خَوْفٍ ومن صَرَدِ[3]

فبثّهنَّ عليــهِ واستمرَّ بهِ ... صُمْعَ الكعوب بَرِيَّاتٍ من الحَرَدِ[4]

وكان ضُمْرَانُ منه حيث يُوزِعُهُ ... طَعْنَ المُعارِك عند المُحْجَرِ النَّجُدِ[5]

شَكَّ الفَرِيصةَ بالمِدْرى فأنفذها ... طَعْنَ المُبَيْطِرِ إذ يَشْفِى من العَضَدِ[6]

كأنه خارجاً من جَنْبِ صَفْحتِهِ ... سَفُّودُ شَرْبٍ نَسُوهُ عند مُفْتَأَدِ[7]

فظلَّ يَعْجُمُ أَعلى الرَّوْقِ مُنْقَبِضاً ... فى حالك اللَّوْن صَدْقٍ غير ذى أَوَدِ[8]

لما رأى واشِقٌ إِقْعَاصَ صاحبِهِ ... ولا سبيل إلى عَقْلٍ ولا قَوَدِ[9]

قالتْ له النفسُ إنى لا أرى طمعاً ... وإنَّ مولاك لم يسلم ولم يَصِدِ[10]

---

(١) وجرة : موضع بنجد . موشى أكارعه : مزينة قوائمه بالنقط . طاوى المصير : ضامر البطن . الصيقل : الحداد . الفرد : المسلول .

(٢) أسرت : جاءت ليلا . الجوزاء : برج فى السماء . سارية : سحابة . تزجى : تدفع . الشمال : ريح الشمال .

(٣) الشوامت : القوائم ويريد بطوعها إسراعها به . والصرد : البرد .

(٤) استمر به : اشتد به وقوى . صمع : ضوامر . بريات : بريئات . الحرد : العرج .

(٥) ضمران : اسم كلب للصائد . يوزعه : يغريه . المحجر : حمى القبيلة . النجد : الشجاع .

(٦) الفريصة : لحم الكتف . المدرى : القرن . المبيطر : معالج الحيوان . العضد : داء يلم بكتفها .

(٧) السفود : الحديدة التى يشوى عليها اللحم . نسوه : تركوه . مفتأد : موضع النار الذى يشوى فيه .

(٨) يعجم : يعلك . صدق : صادق فى الطعن . أود : عوج .

(٩) واشق : اسم كلب آخر للصائد . الإقعاص : القتل السريع . العقل : الدية . القود : القصاص .

(١٠) المولى : الناصر . يسلم هنا : يأسر .

وهو يبدأ برسم صورة هذا الثور ، فقوائمه مزينة بما فيها من نقط ، وهو ضامر كالسيف المسلول ، يجرى فى الصحراء خائفاً متوجساً لما تسقط عليه السماءُ من بَرَد لا ينقطع . ولم يلبث أن ذُعر ذعراً شديداً إذ سمع صوت قانص يهتف بكلابه ، فأسرع فى جَرْيه ، ولمحه القانص فبعث عليه كلابه ، فاشتدت قوائمه وكعوبه مستخرجاً منها كل ما يبتغى من سرعة ، ولكن الكلاب لحقت به ، وكان أول ما لقيه منها ضمران ، ونشب بينهما صراع عنيف ، أهوى فيه الثور على خصمه بقرنيه ، ولم يلبث أن طعنه بأحدهما طعنة نجلاء ، نفذت إلى ظاهر صدره ، فكنت ترى الكلب من وهلته يعلك أعلى القرن وما خرج منه متقبضاً متألماً إلى أن لفظ أنفاسه . ولما رأى واشق ما أصاب أخاه وأنه لن يستطيع أن يعينه ولا أن يدرك بثأره أحجم عن لقاء الثور إبقاء على نفسه ، وقد أخذه اليأس من أن يصيد صاحبه كما كان يبغى ، فدون بغيته الموت والهلاك .

وهذا الوصف أكثر حيوية من النسيب السابق ، لما بثَّ النابغة فى الحيوان من حياة الإنسان وعواطفه وقلقه وطمعه ويأسه ، فالثور خائف يترقب ، والكلاب طامعة تتربص . وتنشب المعركة وكأنها معركة آدمية ، فالثور يطعن طعن الرجل المدافع عن عرينه وحماه . ويُقْتل ضمران . وينظر أخوه واشق فيرى أن القصاص غير ممكن ، وتحدثه نفسه بأنه يطمع فى غير طائل ، وما يلبث أن ينصرف عن المعركة ، وقد قذفت به فى مهاوى اليأس والقنوط . ولا ينسى النابغة مهارته فى التصوير سواء من حيث تمثيل المنظر وتجسيمه أو من حيث التشبيهات وإدخالها فى نسيج الأبيات .

وفى ديوانه فخر وهجاء يتصل بشئون قبيلته البدوية وما كان بينها وبين بنى أسد من حِلْف وبينها وبين بنى عامر من حرب ، وهو فى هذا القسم من شعره لا يتوفر على إحكامه وإظهار مهارته فيه شأنه فى المديح والاعتذار والرثاء ، وكأنه كان يمنعه وقاره أن يتمادى فيه ، وخاصة فى الهجاء ، واقرأْ له هذه الأبيات فى عامر بن الطفيل وقد بلغه أنه يهجوه :

فإن يك عامرٌ قد قال جَهْلا فإن مَطِيَّةَ الجهل السِّبابُ

فَكُنْ كأبيك أو كأبي بَرَاء ... توافقْك الحكومةُ والصوابُ[1]

ولا تذهبْ بحلمِك طامياتٌ ... من الخُيَلاء ليس لهنَّ باب[2]

وإنك سوف تَحْلُمُ أو تناهَى ... إذا ما شِبْتَ أو شاب الغُراب[3]

وهى أبيات تخلو من الإقذاع فى الهجاء المعروف عند الجاهليين ، وهو يعمد فيها بذوقه الحضرى إلى التهكم به والسخرية منه ، فيصفه بالحمق ، ويصغّر إليه نفسه بتفضيل أبيه وعمه عليه ، وينهاه عن الخيلاء ، ويؤمله فى أنه سوف يحلم حين تتقدم به السن أو لعله لا يحلم أبداً . وواضح أن الشطر الثانى فى البيت الأول حكمة سائرة ، وتكثر هذه الحكم عند النابغة يأتى بها فى ثنايا شعره وقصيده ، فتكون شطراً كهذا الشطر ، وقد تكون بيتاً كالبيت الأخير من هذه الأبيات ، وفيما تمثلنا من شعره كثير منها ، ومن رائعها قوله :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمُّهُ ... على شَعَثٍ ، أىُّ الرجال المهذَّبُ

ومما لا شك فيه أنه يدل بهذه الحكم على صدق نظرته ودقة حسه .

وجوانب كثيرة فى شعر النابغة تفصح عن مهارته فى صوغ القصيدة ونظمها ، سواء من حيث ألفاظه أو من حيث صوره ومعانيه ، أما من حيث الألفاظ فإنك لا تقع منها على لفظة نابية ، إنما تقع على الألفاظ المحكمة المستخدمة فى دلالاتها الدقيقة ، ولعل ذلك ما جعله يلتزم الألفاظ البدوية الغريبة حين يصف الديار والصحراء والحيوان الوحشى . أما حين يمدح الملوك أو يرثيهم أو يعتذر إليهم فإنه يستخدم الألفاظ المأنوسة الجزلة الناعمة . وهذه البراعة عنده جعلت نقاد العصر العباسى يقولون : إنه « كان أحسن الجاهليين ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلهم بيتاً[4] » . على أنهم لم يلبثوا أن ادعوا عليه أنه كان يُقْوِى فى شعره محتجين على ذلك ببيت فى قصيدة المتجردة التى وُضعت عليه ، فقد جاء فيها بيت مرفوع الروى ، بينما رويها المطّرد مكسور ، ورووا فى ذلك قصة ، هى أن النابغة قدم

---

(١) أبو براء : عامر بن مالك ملاعب الأسنة وهو عم عامر بن الطفيل .

(٢) طاميات : فائضات ومرتفعات . ليس لهن باب : لا مخرج منهن .

(٣) أو شاب الغراب : ضرب النابغة ذلك مثلا لعامر وأنه لن يحلم أبداً .

(٤) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٤٦ وانظر الشعر والشعراء ١٠٨/١ .

يثرب ، فعاب عليه أهلها ذلك فى قصيدته المذكورة ، فلم يأبه لهم حتى أسمعوه إياه فى غناء ، ففطن إلى ما قالوا ولم يعد إلى ذلك[٢] . ولكن القصيدة كما قدمنا مما نُحل على النابغة ، فحرى أن تكون القصة مثلها منحولة .

وإذا كان النابغة يُعنى بألفاظه عناية راعت السابقين فإنه يعنى كذلك بمعانيه ، وهى عناية أتاحت له كثرة الخواطر فى اعتذارياته على الرغم من ضيق هذا الموضوع ، وأيضاً فإنها أتاحت له ضرباً من ترتيب أفكاره ، ويتضح ذلك فى تنسيقه لموضوعات بعض قصائده ، إذ نراه يحسن التخلص من موضوع إلى موضوع ، وارجعْ إلى معلقته فإنك تراه يخرج من النسيب إلى وصف ناقته خروجاً تسنده المناسبة ، حتى إذا أتم هذا الوصف قال :

فتلك تبلغنى النعمانَ إن له ... فضلا على الناس فى الأَدنى وفى البَعَدِ

وكذلك صنع فى اعتذاريته العينية فإنه خرج من النسيب إلى الاعتذار خروجاً متصلا ، إذ قال إنه كفَّ عن التشبيب والحب لشيبه ولما يشغله من هم ، هو غضب النعمان ، على هذه الشاكلة :

وقد حال همٌّ دون ذلك شاغلٌ ... مكان الشَّغاف تبتغيه الأَصابعُ[٢]

وعيدُ أَبى قابوس فى غير كُنْهِهِ ... أَتانى ودونى راكسٌ فالضَّواجع

وهذه العناية البالغة بالمعانى والألفاظ كان يؤازرها عنده عنايته بالصور وما يُطوَى فيها من تشبيهات واستعارات ؛ ولا نلاحظ عنده الكثرة من الصور فحسب ، بل نلاحظ أيضاً القدرة على الابتكار ومفاجأة السامع بالأخيلة التى تخلب لُبّه ، وخاصة حين يتنصّل للنعمان بن المنذر من ذنبه ، وحين يصور بطشه بمن يغضب عليهم مستعطفاً مسترحماً . وكان له ذوق جيد فى اختيار صوره ومعانيه جميعاً ، وهو ذوق هذبته الحضارة التى نَعِمَ بها فى الحيرة وبلاط الغساسنة ، فإذا هو رقيق الحس رقة شديدة ، وإذا هو يأتى فى مديحه ورثائه بمعان حضارية غير مألوفة للجاهليين . وليس ذلك فحسب ، فإنه يفتح صفحة جديدة هى صفحة

---

(١) ابن سلام ص ٥٥ وما بعدها والأغانى (طبعة دار الكتب) ١١/١٠ .

(٢) الشغاف : حجاب القلب .

الاعتذاريات والاستعطافات وما يجرى فيها من الحس المرهف والشعور الدقيق ، وتسربت من ذلك أسراب فى جميع موضوعات شعره ، حتّى الهجاء .

وإذا أضفنا إلى كل ذلك عند النابغة أخلاقه الرفيعة التى تتمثل فى وقاره وارتفاعه عن الدنيات ووفائه للأصدقاء والأحلاف وحِفاظه الشديد على العهد وسابق الود أمكننا أن نفهم منزلته التى احتلها فى العصر الجاهلى وأسبابها ، إذ جعلوه محكَّماً بين الشعراء فى عُكاظ كما قدمنا ، وكأنه فى رأيهم الشاعر الفذّ الذى لا يُشَقّ غباره والذى لا ينطق عن هوى أو عصبية ، ومن ثَمّ كان حكمه قاطعاً لا يقبل طعناً ولا نقضاً .

الفصل التاسع

زهير بن أبي سلمى

١

قبيلته

هو زهير بن أبي سُلْمى ربيعة بن رياح المزنى . فأبوه من قبيلة مُزَيْنة، وكانت تجاور فى الجاهلية بنى عبد الله بن غطفان حيث كانوا ينزلون فى الحاجر بنجد شرقى المدينة وينزل معهم بنو مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان أخوال أبيه ربيعة . ويحدثنا الرواة أنه أقام فيهم زمناً مع أمه، وحدث أن أغار مع قوم منهم على طيئ وأصابوا نعماً كثيراً وأموالا . ولما رجعوا لم يفردوا له سهماً فى غنائمهم ، فغاضبهم وانطلق بأمه إلى قبيلته مزينة، ثم لم يلبث أن أقبل فى جماعة منها مغيراً على عشيرة أخواله ، ولم يكادوا يتوسطون ديارها حتى تطايروا راجعين وتركوه وحده ، فأقبل حتى دخل فى أخواله، ولم يزل فيهم حتى توفى ومن ثَمَّ وُلد له زهير وأولاده فى منازل بنى مرة وبنى عبد الله بن غطفان[1] . وكان ذلك سبباً فى أن يضطرب الرواة وأن يظن بعضهم أن زهيراً غطفانى القبيلة[2] ، وهو فى الحقيقة مزنى النسب غطفانى النشأة والمَرْبَى، وقد صرَّح ابنه كعب بهذا النسب إذ يقول فى بعض شعره ردًّا على مزرِّد بن ضِرار وقد عَزاه إلى مزينة[3] :

هُمُ الأَصل منى حيث كنتُ وإننى ‌ ‌ ‌ ‌ من المُزَنيين المصفَّيْنَ بالكَرمْ

ويظهر أن ربيعة لم يعش طويلا فى عشيرة أخواله ، ويقول الرواة إن امرأته تزوجت من بعده أوس بن حَجر الشاعر التميمى المشهور . وهنا يلمع فى حياة زهير اسم خاله بَشامة بن الغدير ، فقد كفله هو وإخوته ، ونعرف منهم سلمى كما نعرف أخرى تسمى الخنساء.

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٠/٢٩١ وما بعدها .

(٢) انظر ترجمة زهير فى الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٨٦ .

(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص٨٨ وما بعدها .

وقد عاش زهير فى خلال هذه الحروب التى نشبت بين عَبْس وذُبْيان، حروب داحس والغبراء التى سبق أن تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع ، وقد أسهمت عشيرة أخواله ، فى تلك الحروب وصليت نارها . وأيضاً فإنها صليت نيران حروب أخرى كانت تنشب بينها وبين بعض العشائر الذبيانية ، وفى شعر خاله بَشامة ما يصور تلك الحروب الأخيرة ، فقد روَى له صاحب المفضليات قصيدتين يحرض فيهما عشيرته أن لا يخذلوا حلفاءهم «الحُرَقة» وأن يقفوا معهم ضد بعض العشائر من بنى سعد بن ذبيان . ومعنى ذلك أن الأيام التى عاشها زهير فى عشيرة أخواله الذبيانيين لم تكن أيام استقرار وأمن ، إنما كانت أيام حروب وسفك للدماء، فدائماً تُشَنّ الغارات، ودائماً تجيش القلوب بالأضغان، فتُسَلّ السيوف وتُقْطَع الرقاب. ويعودون من حروبهم دائماً إلى رعى الإبل والأغنام، وإلى صيد بعض الحيوان ، شأن القبائل النجدية فى العصر الجاهلى .

وكانت ذبيان وغيرها من قبائل غطفان تتعبَّد فى الجاهلية العُزَّى، ويقال إنها كانت شجرة أقامت حولها كعبة كانت تحج إليها ، وتُهدِى القرابين ، وقد هدمها خالد بن الوليد بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وربما قال الرواة إنها شجرات ثلاث ، وقد يقولون إنه كان فى الكعبة وثن . وأكبر الظن أن هذا هو الصحيح فقد كان فيها وثن العُزَّى، وكان من حوله شجرات يقدسونها(١) . ومهما يكن فقد كانوا وثنيين ، وظلوا على وثنيتهم إلى ظهور الدين الحنيف .

٢

حياته

ليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأة زهير سوى أنه عاش فى منازل بنى عبد الله ابن غطفان وأخواله من بنى مرة الذبيانيين ، وفى كنف خاله بَشامة بن الغدير ، وكان شاعراً مجيداً كما كان سيداً شريفاً ثريًّا ، يقول ابن سلام : « وكان كثير المال ، وكان

(١) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٥/٩٧ وما بعدها .

ممن فقأ عينَ بعير فى الجاهلية ، وكان الرجل إذا ملك ألف بعير فقأ عين فَحْلها[١] » . وكان بَشامة من أحزم الناس رأياً فكان قومه يستشيرونه ويصدرون عن رأيه ، ولم يكن له ولد ، فلما حضرته الوفاة جعل يقسم ماله فى أهل بيته وأعطى زهيراً نصيباً منه ، ويُرْوَى أنه قال له إنى أعطيتك ما هو أفضل من المال ، فقال زهير : ما هو ؟ فقال له : شعرى[٢] ، وهو لم يرث عنه شعره وماله فقط ، بل ورث عنه أيضاً خلقه الكريم . وفى أخباره أنه تزوج من امرأتين : أم أوفى وهى التى يذكرها كثيراً فى شعره ، ويظهر أن المعيشة لم تستقم بينهما ، فطلقها بعد أن ولدت منه أولاداً ماتوا جميعاً . والثانية التى تزوجها من بعدها هى كبشة بنت عمار الغطفانية ، وهى أم أولاده : كعب وبُجَيْر وسالم ، ومات سالم فى حياته ورثاه ببعض شعره [٣] .

وهو يتحدث فى شعره طويلا عن حروب داحس والغبراء مشيداً بهرم بن سنان والحارث بن عَوْف سيدى بنى مرة اللذين حقنا دماء عبس وذبيان بعد أن طال عليهما الأمد فى تلك الحروب ، إذ تحمَّلا ديات القتلى ، ويقال إنها كانت ثلاثة آلاف بعير أدَّياها فى ثلاث سنين[٤] . واعتدَّ زهير بهذه المنة الجليلة فأشاد بها فى معلقته ، وظل طوال حياته يمدح هرماً ويمجده ، وهرم يُغْدق عليه[٥] . وبذلك أعطى كل منهما صاحبه خير ما يملك ، وقد ذهب ما أعطاه هرم لزهير مع الزمن ، أما ما أعطاه زهير هرماً فخلد على الأيام . ومن طريف ما يُرْوَى فى هذا الصدد أن هرماً « حلف أن لا يمدحه زهير إلا أعطاه ولا يسأله إلا أعطاه ولا يسلم عليه إلا أعطاه : عبداً أو وليدة أو فرساً ، فاستحيا زهير مما كان يقبل منه ، فكان إذا رآه فى مَلأ قال : عِموا صباحاً غير هرم ، وخيركم استثنيت[٦] » . ونراه يشيد بحصن بن حذيفة سيد بنى فزارة الغطفانيين ، وخاصة بحروبه مع أحلافه بنى أسد ضد النعمان بن الحارث الغسانى وما أنزلوا بجيوشه من هزائم منكرة[٧] . وليس فى ديوانه وراء حروب حِصْن وحروب داحس والغبراء إشارة إلى غارات سوى ما كان من غارة الحارث بن وَرْقاء الأسدى فى جماعة من قومه على عشيرته ، وقد أخذ فيما أخذ

---

(١) ابن سلام ص ٥٦٣ .
(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ١٠/٣١٢
(٣) أغانى ١٠/٣١٣ .
(٤) أغانى ١٠/٢٩٧ .
(٥) أغانى ١٠/٣٠٥ .
(٦) أغانى ١٠/٣٠٥ .
(٧) انظر ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص ١٤٣ ومختار الشعر الجاهلى للسقا ص ٢٤٥ .

إبلاً وغلاماً لزهير يسمى يَساراً . وغضب زهير غضباً شديداً، وهدده إن لم يردّ عليه إبله أن يهجوه هجاء مقذعاً ، مذكراً له بما بين عشيرتيهما من مواثيق وعهود نقضها نقضاً ، وخشى الحارث معرة لسانه وما يصبُّ عليه من لعنات فرد عليه ماله وغلامه[١] .

وتدل الدلائل على أنه عاش فى سعة من المال مما ورثه عن خاله وما كان يقدّم له هرم وغيره من أشراف قبيلته من أموال . وكان فيه توقر ونبل ، ولعل ذلك ما جعل شعره يخلو من الفحش والعهر ، فهو من ذوق آخر غير ذوق امرئ القيس المفتون بالنساء وتصوير مغامراته القصصية معهن . ومن غير شك كان وثنياً ، مثله مثل قومه ، وإن كنا نلاحظ عنده بعض أبيات يؤمن فيها باليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب وثواب ، يقول فى معلقته :

فلا تَكْتُمُنَّ اللهَ ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يُكْتَم اللهُ يعلمِ
يؤخَّرْ فيوضَعْ فى كتابٍ فيُدَّخَر ليوم الحساب أو يعجَّلْ فيُنْقَم

وإذا صحت نسبة البيتين إليه كان ذلك دليلا على أنه أحد من تحنفوا فى الجاهلية وشكوا فى دينهم الوثنى[٢] وأغلب الظن أنه لم يفارق دين قومه ، إنما هى خطرات كانت تمر به .

وحياة زهير من الوجهة الأدبية طريفة ، فقد كان أبوه شاعراً، وكذلك كان خاله كما قدمنا ، وأختاه سلمى والخنساء ، وورث عنه الشعر ابناه كعب وبُجَيْر ، واستمر الشعر فى بيته أجيالا ، فقد كان عقبة بن كعب شاعراً ، وكان العوام ابن عقبة شاعراً أيضاً[٣] ويقولون إنه رحل عن البادية وأقام فى البصرة .

فنحن بإزاء شاعر اتصل الشعر فى بيته اتصالا لم يعرف لشاعر جاهلى ممن عاصروه ، وليس هذا فحسب ، فإنه عاش للشعر يعلمه ابنيه بُجَيْراً وكعباً من جهة ، وأناساً آخرين من غير بيته أشهرهم الحطيئة ، فهو تلميذه وخريجه .

---

(١) أغانى ١٠/٣٠٧ وما بعدها .
(٢) انظر فى ذلك المحبر لابن حبيب ص ٢٣٨ حيث يذكر أنه كان ممن حرموا على أنفسهم فى الجاهلية الخمر والسكر والأزلام .
(٣) مقدمة ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص ٩ وقارن بالأغانى ١٠/٣١٤ والشعر والشعراء ١/٩٢ .

وفى أخباره مع ابنه كعب ما يدل على الطريقة التى كان يُخرج بها الشعراء، فقد كان يلقنهم شعره ويروونه عنه ، وما يزالون يتلقنونه ، حتى تنطبع فى أنفسهم طريقة نَظْم الشعر وصوغه ، وهو فى أثناء ذلك يمتحن قدرتهم ، بما يلقى عليهم من أبيات يطلب إليهم أن يجيزوها، بنظم بيت على غرار البيت الذى ينشده فى الوزن والقافية[١]. ويظهر أنه عُمّر طويلا إذ يقال فى بعض الروايات إنه أدرك الإسلام وله مائة سنة ولم يسلم[٢] . ولكن إدراكه الإسلام غير صحيح ، إنما الصحيح أنه مات قبيل الإسلام بمدة قليلة ، والذى أدرك الإسلام حقاً ابناه بجير وكعب ، وقد أسلما وحسن إسلامهما ، ولكعب قصيدة معروفة فى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، وهى ذائعة مشهورة .

٣

ديوانه

طُبع ديوان زهير طبعات مختلفة، لعل أقدمها طبعة ألوارد فى مجموعة العقد الثمين فى دواوين الشعراء الستة الجاهليين ومرّ بنا — فى حديثنا عن ديوان امرئ القيس — أنه استخرجها من شرح الشنتمرى للدواوين الستة: دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعلقمة وعنترة ، وهى برواية الأصمعى غير أنه جردها من الشرح وأضاف إلى تلك الدواوين أشعاراً أخرى مما وجدها فى كتب الأدب والتاريخ . ونشر الديوان لندبرج السويدى بشرح الشنتمرى سنة ١٨٨٩ فى سلسلته التى سماها « طرفا عربية » ، ومكانه فيها الطرفة الثانية ، وطُبع بعد ذلك فى مصر وغيرها طبعات تعتمد على نشرة لندبرج؛ ونشره مصطفى السقا فى مجموعته مختار الشعر الجاهلى ، وهى تتضمن كما مرّ بنا نفس الدواوين الستة التى شرحها الشنتمرى ، وقد أضاف إليها شرحاً مختصراً من شرح الشنتمرى . ونُشرت هذه الدواوين برواية الأعلم البطليوسى ، وهى تلتقى برواية الشنتمرى عنده ، وكأنه هو الآخر عُنى فى عمله برواية الأصمعى .

---

(١) ديوان زهير ص ٢٥٦ .
(٢) أغانى ١٠/٢٩١ .

وواضح أن هذه الطبعات تعتمد على رواية الأصمعى البصرية ، وكانت هناك مخطوطات عدة لرواية ثعلب الكوفية بدار الكتب المصرية ، ورأى القائمون فيها أن ينشروا هذه الرواية ، مستعينين بنسخة منها قديمة تملكها مكتبة الجمعية الألمانية الشرقية فى هلة ،وظهر الديوان بهذه الرواية فى سنة ١٩٤٤ للميلاد .

وإذن فعندنا لديوان زهير روايتان مطبوعتان : رواية الأصمعى البصرية ورواية ثعلب الكوفية ، وتمتاز الأولى بالتشدد ، فهى لا تروى سوى ثمانى عشرة قصيدة ومقطوعة ينهيها الشنتمرى بقوله : « كمل جميع ما رواه الأصمعى من شعر زهير ونصل به بعض الروايات » ويضيف من رواية الكوفيين قصيدتين شك الرواة فى ثانيتهما[١]. وإذا نظرنا فى رواية ثعلب الكوفية وجدناها تضيف عشرات القصائد والمقطوعات ، ومن حين إلى حين تنص على أن هذه القصيدة وتلك المقطوعة من رواية حماد أو ابن الكلبى المعروفين بكثرة الوضع . ومن ثمّ كنا لا نستطيع أن نتخذ من الرواية الكوفية أساساً وثيقاً لدراسة زهير ، فنحن نرفضها رفضاً ، متخذين من رواية الشنتمرى أو بعبارة أخرى رواية الأصمعى أساساً لبحثنا فى زهير وشعره ، وإذا كان هناك قصيدة يمكن أن تضاف إلى هذه المجموعة فهى القصيدة التى تليها فى رواية الشنتمرى ، إذ يظهر أنها صحيحة النسب إلى زهير[٢] . وقد يكون مما يؤكد صحة شعر زهير برواية الأصمعى أن الشعر كما قدمنا اتصل فى ولده أجيالا ، وأن آخرهم العوّام نزل البصرة وأقام فيها ، وأكبر الظن أن أبناءه ظلوا يروون شعره حتى أسلموه أو أسلمه العوام إلى رواة البصرة وعلمائها .

وإذا أخذنا نفحص رواية الأصمعى التى تحتفظ بثمانى عشرة قصيدة ومقطوعة وجدنا الشنتمرى[٣] ينقل عنه أنه كان ينكر ثلاثاً منها ، هى : (أبلغ بنى نوفل عنى وقد بلغوا) و (أبلغ لديك بنى الصَّيْداء كلهم) و (ألا ليت شعرى هل يرى الناس ما أرى) وكان أبو عبيدة ينكر مقطوعته : (إن الرزيّة لا رزية مثلها)

---

(١) انظر الديوان (طبعة دار الكتب) ص١٩٣ .

(٢) أغانى ١٠ /٢٨٩ وفى الديوان ص٢١٩ أن المفضل الضبى كان يرويها .

(٣) راجع مخطوطة الشنتمرى بدار الكتب المصرية رقم ٨١ أدب ش وفى الخزانة التيمورية بدار الكتب نسخة ثانية برقم ٤٥٠ أدب — شعر تيمور .

ويقول إنها لقُراد بن حَنش من شعراء غطفان[١]. ولا يبقى لزهير بعد ذلك من رواية الأصمعى سوى أربع عشرة قصيدة ومقطوعة ، تضاف إليها القصيدة التى رواها المفضل واحتفظ بها الشنتمرى ، وهى : (غَشيتُ دياراً بالبقيع وثَهمد). على أنه ينبغى أن نسقط من قصيدته (لمن الديار بقُنَّة الحَجْر) الأبيات الثلاثة الأولى لأن حماداً زادها فيها كما مر بنا فى حديثنا عن الانتحال . وقد شك الأصمعي فى الحِكَم الملحقة بالمعلقة وقال إنها لِصرْمة بن أبى أنس[٢] الأنصارى ، ويمكن أن يكون لزهير طائفة منها اختلطت على الرواة بطائفة أخرى تماثلها ، نظمها صرمة . وسنرى أن زهيراً كان يكثر من الحِكَم فى شعره .

٤

شعره

لعل الشعر الجاهلى لم يعرف شاعراً عُنى بتنقيحه عناية زهير ، وقد ذهب القدماء يقولون إنه كان يَرْوى شعر زوج أمه أوس بن حَجر الشاعر التميمى المشهور ، كما كان يروى شعر طُفَيْل الغنوى[٣] المعروف ببراعته فى وصف الخيل والصيد ، وأيضاً فإنه كان يروى شعر خاله بَشامة بن الغدير[٤] . وهم لا يقفون بملاحظاتهم عند ذلك ، إذ يقولون إنه خرَّجَ ابنه كعباً فى الشعر كما خرج الحطيئة[٥] .

فنحن إذن بإزاء شاعر ممتاز ، عاش للشعر يرويه ويعلّمه ، أو بعبارة أخرى نحن بإزاء مدرسة يتضح فيها زهير وتلميذاه كعب والحطيئة ، وإذا أردنا أن نبحث لزهير عن أستاذ حقيقى تأثره فى شعره من بين الثلاثة الذين ذكروهم وجدنا أقربهم إلى شعره أوس بن حجر زوج أمه ، فإنه يتأثره فى جميع جوانب فنّه ، يتأثره فى الموضوعات التى عالجها وفى طريقة معالجته لها ، وفيما يصوغه من معان وصور ، وسنشير إلى مواضع ذلك عما قليل .

---

(١) ابن سلام ص ٥٦٨ .
(٢) المعمرين للسجستانى ص ٦٦ .
(٣) العمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ١٣٢/١ وانظر الشعر والشعراء ٨٦/١ .
(٤) أغانى ٣١٢/١٠ .
(٥) أغانى (طبع دار الكتب) ١٦٥/٢ ، ٩١/٨ والشعر والشعراء ٩٣/١ .

وإذا أخذنا نستعرض شعر زهير وجدناه ينتظم فى المديح والغزل ووصف الصيد والهجاء . وفى تضاعيف ذلك يجنح إلى الحكمة ووصف مكارم الأخلاق . وإذا أبدلنا المديح بالتأبين كانت هذه الموضوعات هى نفسها التى يدور فيها شعر أوس ، فإنه لم يؤثر عنه مديح إلا أبياتاً متفرقة ، وإذا كان مديحه فُقد فإن تأبينه خلد على الزمن ، وقد أنشدنا منه قطعة فى غير هذا الموضع ، وهو يلتقى فيه بزهير حين يشيد بفضائل فَضالة بن كَلَدَة ومناقبه ، التى يعود بها إلى المثل العربى الكريم للمروءة .

وتلمع بين مدائح زهير معلقته ، وقد نظمها مشيداً بهَرِم بن سنان والحارث بن عوف حين سعيا بالصلح بين ذبيان وعبس فأعلنا أنهما يتحملان ديات القتلى حتى تضع الحرب أوزارها بين القبيلتين المتناحرتين ، وتصادف فى أثناء ذلك أن قتل الحُصَيْن بن ضَمْضَم عبسيًّا ثأراً لأخيه هَرِم بن ضَمْضَم ، وكان قتله وَرْد بن حابس العبسى ، فثارت عبس وشهرت سيوفها تريد أن تعيد الحرب جَذَعَةً ، وسرعان ما تقدم الحارث لهم بمائة من الإبل وبابنه ليختاروا إما الدية وإما قتل فلذة كبده ، فقبلوا الدية ودخلوا فى الصلح ، وانتهت الحرب الدامية . وهنا نرى زهيراً يشيد بهذه المكرمة الجليلة ناعياً على حُصَيْن فعلته التى كادت تودى بفكرة الصلح ، لاهجاً بالثناء على السيدين وما قدما للقبيلتين من ديات حقنت الدماء ، يقول :

يميناً لَنِعْمَ السيدان وُجِدْتُما	على كل حالٍ من سَحيلٍ ومُبْرَمِ [١]
تداركتما عَبْساً وذُبْيَانَ بعد ما	تفانوا ودَقُّوا بينهم عِطْرَ مَنْشِمِ [٢]
وقد قلتما إن نُدْرِك السِّلْمَ واسعاً	بمالٍ ومعروفٍ من الأمر نَسْلَم
فأصبحتما منها على خير مَوْطِنٍ	بعيدين فيها من عُقوق ومَأْثَمِ [٣]
عظيمين فى عُلْيَا مَعَدٍّ وغيرها	ومن يَسْتَبِح كنزًا من المجد يَعْظُمِ [٤]

---

(١) السحيل : غير المبرم . يريد أنهما خير عشيرتهما فى كل أمر ، أبرماه أو لم يبرماه .

(٢) منشم : امرأة عطارة كانت فى مكة ، غمس قوم أيديهم فى عطرها وتعاهدوا على الحرب حتى فنوا عن آخرهم . يشبه قبيلتى عبس وذبيان بهم .

(٣) يريد أنهما لم يشتركا فى تلك الحروب ، فهما يؤديان عن غيرهما الديات .

(٤) يريد بعليا معد رؤساءها وأشرافها . يعظم : يصبح عظيما .

وجعلته هذه المأثرة يشيد بالسلم والسلام ، فكان بذلك شذوذاً على ذوق الجاهليين وأشعارهم التى تدوّى بفكرة الأخذ بالثأر والترامى على الحرب ترامى الفراش على النار . وقد مضى يصور الحرب فى صورة بشعة ، فيقول :

وما الحرب إلَّا مَا علمتم وذقتمُ ... وما هو عنها بالحديثِ المرجَّمِ [١]
متى تبعثوها تبعثــوها ذَميمةً ... وتَضْرَ إذا أَضْرَيْتُموهافتَضْرَمِ [٢]
فتَعْرُكْكُمُ عَرْكَ الرَّحَى بثِفالها ... وتَلْقَحْ كِشافاً ثم تَحْمِلْ فَتُتْئِمِ [٣]
فتنتجْ لكم غلمانَ أَشْأَمَ ، كلُّهم ... كأَحمر عادٍ ثم تُرْضِعْ فتَفْطِمِ [٤]
فتُغْلِلْ لكم ما لا تُغِلُّ لأَهلها ... قُرًى بالعراق من قَفِيزٍ ودرْهَمِ [٥]

وأنت تراه يصور الحرب فى صور مخيفة قبيحة ، فهى تارة أسد ضار ، وتارة ثانية نار مشتعلة ، وتارة ثالثة رَحًى تطحن الناس ، وتارة رابعة تلد ، ولكنها لا تلد إلا ذرارىَ شؤم . ووسع التهكم ، فقال إنهم يربحون منها ما لا يربحه أهل العراق من الغلال والدراهم ، وهو بذلك يدعو إلى السلام وأن يتحول العرب من هذه الحروب والمعارك الطاحنة إلى حياة السلم الوادعة الآمنة التى تنتشر فيها الأخوة والمحبة والرحمة . ونراه يصور ما هم فيه من بوار تصويراً بديعاً ، فيقول :

رَعَوْا ما رعوا من ظِمْئهم ثم أوردوا ... غِماراً تسيل بالرِّماحِ وبالدَّمِ [٦]
فقضَّوْا منايا بينهم ثم أَصدروا ... إلى كَلَأٍ مُسْتوبَلٍ مُتَوَخَّمِ [٧]

فهم بحروبهم المستعرة كأنهم يرعون مراعى وخيمة وبيلة فى سلمهم . وسرعان ما يردون موارد لا تشفى غليلهم ، موارد تزخر بالرماح والدماء .

---

(١) المرجم : المظنون .

(٢) تبعثوها : تهيجوها ، تضر : من ضرى الأسد إذا تهيأ للفريسة ، وأضرى : درب وعود ، وتضرم : تشتعل .

(٣) تعرككم : تطحنكم ؛ الثفال : جلد يجعل تحت الرحى حين تطحن ، ومن أجل ذلك ذكره ، يريد أنها طاحنة . وتلقح كشافاً : تحمل كل عام ، وذلك أردأ النتاج . تتئم : تلد توءماً .

(٤) أشأم : مشئوم ، وأحمر عاد : أراد أحمر ثمود وهو قدار عاقر الناقة ، وكان شؤماً لقومه .

(٥) القفيز : مكيال فى العراق .

(٦) الظمأ : ما بين الوردين أو الشربتين ، والغمار : المياه الكثيرة .

(٧) أصدروا : رجعوا ضد أوردوا ، مستوبل : مستثقل ، ومثلها متوخم أى إنه كريه تعافه الإبل .

نحن إذن بإزاء شخصية ممتازة من شخصيات الشعر الجاهلى شخصية فيها برٌّ ورحمة وفيها نزعة قوية إلى الخير . وليس معنى ذلك أنه تخلص فى مديحه لهرم ابن سنان وابن عمه الحارث بن عوف من الصورة الجاهلية التى تشيد بالشجاعة والكرم المتهور ، فنحن نراه فى قصيدة ثانية يتحدث عنهما وعن عشيرتهما على هذه الشاكلة :

إذا فَزِعُوا طاروا إلى مُسْتغيثهم ... طوالَ الرّماح لاضعافٌ ولاعُزْلُ[1]

بِخَيْلٍ عليها جِنَّةٌ عبْقَرِيَّةٌ ... جديرون يوماً أن ينالوا فيَسْتَعْلوا

وإن يُقْتَلوا فيُشْتَفَى بدمائهم ... وكانوا قديماً من مناياهم القتلُ

عليها أُسودٌ ضارياتٌ لَبُوسهم ... سَوَابغُ بِيضٌ لا تُخَرِّقُها النَّبْلُ[2]

إذا لَقِحتْ حربٌ عوانٌ مُضِرَّةٌ ... ضَروسٌ تُهِرُّ الناسَ أنيابُها عُصْلُ[3]

قُضاعيَّةٌ أو أُختُها مُضرِيَّةٌ ... يُحَرَّق فى حافاتها الحطبُ الجَزْلُ[4]

همُ خيرُ حىٍّ من مَعَدٍّ علمتُهم ... لهم نائلٌ فى قومهم ولهم فَضْلُ[5]

وهو يصف سيدى بنى مرة وعشيرتيهما بالشجاعة ونجدة من يستغيث بهم ، حتى ليكادون يطيرون إليه طيراناً بسوا بقهم وخيلهم وكأنهم جنّة . وانظرْ إليهم حين تدور المعارك فستراهم أسوداً ضارية ، لا يرهبون الموت ، حين تشتد الحرب وتعض الناس بأنيابها وتحرقهم بنيرانها . وهم يحاربون فى كل مكان ، لا يخشون أحداً ، يحاربون قضاعة ومضراً . وهم يضيفون إلى هذه الشجاعة كرماً مفرطاً ، وفى كل قتيل منهم ثأر . ومن ثم كانوا يُشْتَفَى بدمائهم ، إنهم خير معد شجاعة وكرماً فياضاً . ولا يلبث زهير أن يقول :

---

(١) العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه.

(٢) لبوسهم سوابغ : لبسهم دروع تامة .

(٣) لقحت : حملت ، يريد اشتدت . حرب عوان : مكررة قوتل فيها مرة بعد مرة . ضروس : شديدة . تهر الناس : تخيفهم . عصل : قوية تطحن طحناً .

(٤) الجزل : الغليظ ضد الرقيق .

(٥) النائل : العطاء .

إذا السنَّةُ الشهباءُ بالناس أجحفتْ ... ونال كرامَ المال فى الحَجْرَةِ الأَكْلُ[١]
رأيتَ ذوى الحاجات حول بيوتهم ... قَطِيناً بها حتى إذا نبتَ البقْلُ[٢]
هنالك إن يُسْتَخْبَلوا المال يُخْبِلوا ... وإن يُسْأَلوا يُعْطُوا وإن يَيْسِرُوا يُغْلُوا[٣]
وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوههم ... وأنديةٌ ينتابُها القول والفعل[٤]
على مُكْثريهم رِزْقُ من يعتريهمُ ... وعند المُقِلِّين السَّماحَةُ والبذْلُ[٥]
وإن جئتهم ألفيتَ حولَ بيوتهم ... مجالسَ قد يُشْفَى بأحلامها الجهل[٦]
وإن قام فيهم حاملٌ قال قاعدٌ ... رَشَدْتَ ، فلا غُرْمٌ عليك ولا خَذْلُ[٧]
وما يَكُ من خَيْرٍ أتوه فإنما ... توارثَه آباءُ آبائهم قَبْلُ
وهل يُنْبِتُ الخَطِّىَّ إلَّا وَشِيجُه ... وتُغْرَسُ إلَّا فى منابتها النَّخْلُ[٨]

وهو يستمر هنا فى مديحه لهم بالكرم فى السنين المجدبة ، حتى إن الناس ليرحلون إليهم ويقطنون حول خيامهم ، وكلما سألوهم شيئاً وهبوه لهم ، وهم فى أثناء ذلك يقامرون بخير إبلهم ، حتى يطعموها السائلين والمحتاجين . ولما استتم هذه الصورة وصفهم بجمال الوجوه وجمال الكلام فى مجالسهم ، ولم يُخْلِ مكثراً ولا مقلا منهم من سماحة وفضل وبِرّ . وأشاد بمجالسهم ، وأنهم عقلاء حلماء يشفون بآرائهم الصائبة جهل الجهلاء . وهم متعاونون ، إن حمل منهم أحد حمالة لم يخذلوه ، بل أعانوه . وذكر فضل آبائهم ، وأحسابهم ، فقال إنهم ورثة مجد قديم توارثه الأبناء عن الآباء ، وساق دليلا على ذكاء الفروع بذكاء الأصول من الرماح والنخيل ، فلا يولد الكريم إلا فى البيت الكريم .

وظل زهير على شاكلة هذه القصيدة وسابقتها يدبج مدائحه فى هرم بن سنان ،

---

(١) السنة الشهباء : المجدبة ، الحجرة : السنة شديدة البرد .
(٢) قطينا : ساكنين .
(٣) استخبال المال : أن يسألوهم شيئاً فيعطوهم إياه . ييسروا : يتقامروا . يغلوا : يختاروا سمان الإبل :
(٤) المقامات والأندية : المجالس .
(٥) يعتريهم : ينزل بهم .
(٦) الجهل : الحمق .
(٧) الحامل : الذى يحمل الحمالة ، وهى الدية ، ويريد أى مغرم .
(٨) الخطى : الرماح ، ووشيجه : أغصانه .

ومن أروعها داليته التى رواها المفضل الضبي والتى يقول فيها مصوراً كرمه وشجاعته وفصاحته وسَبْقه إلى المآثر المحمودة :

سواءٌ عليه أىَّ حِينٍ أتيتَه ... أساعَةَ نَحسٍ تُتَّقَى أم بأسْعُدِ(١)

ومِدْرَهُ حَرْبٍ حَمْيُها يُتَّقَى به ... شديدُ الرِّجام باللسان وباليد(٢)

إذا ابتدرتْ قَيْسُ بن عيلانَ غاية ... من المجد مَنْ يَسْبِقْ إليها يُسَوَّدِ

سبقتَ إليها كل طَلْقٍ مُبَرِّزٍ ... سبوقٍ إلى الغايات غيرِ مُجلَّدِ(٣)

فلو كان حَمْدٌ يُخْلِدُ الناسَ لم تَمُتْ ... ولكنَّ حَمْدَ الناس ليس بمُخْلِدِ

فهو يعطى فى السعة وفى القلة ، ويدفع عن قومه بلسانه وبيده وسلاحه ، وإذا تسابق الناس إلى غاية من غايات المجد كان السابق المجلى ، ولو أن حمداً يخلد به مستحقه لكان هرم أول خالد لكثرة مناقبه ومكارمه . وله فيه قصيدة رائية بديعة يقول فى تضاعيفها :

دَعْ ذا وعَدِّ القول فى هَرِمٍ ... خَيْرِ البُدَاةِ وسَيِّدِ الحَضْرِ

ولنِعْمَ حَشْوُ الدِّرْعِ أنت إذا ... دُعِيَتْ نزالِ وَلُجَّ فى الذُّعْرِ(٤)

حَدِبٌ على المَوْلى الضَّرِيك إذا ... نابتْ عليه نوائبُ الدَّهْرِ(٥)

ويَقيك ما وقَّى الأكارمَ من ... حُوبٍ تُسَبُّ به ومن غَدْرِ(٦)

ولأنت تَفْرِى ما خَلَقْتَ وبعـ ... ـضُ القوم يَخْلُقُ ثم لاَ يفْرِى(٧)

والسِّتْرُ دون الفاحشات وما ... يلقاك دون الخير من سِتْرِ

أثنى عليك بما علمتُ وما ... سَلَّفْتَ فى النَّجَدَاتِ والذِّكْرِ

(١) يريد بساعتى النحس والسعد أوقات القلة والكثرة فى المال .

(٢) المدره : المدافع عن قومه . وحمى الحرب : شدتها . والرجام : المراماة فى الحرب وفى الخطب والكلام .

(٣) الطلق هنا : المعطاء، وأصله الفرس السابق الذى لا يلوى على شىء . المجلد : الذى يضرب ويجلد . والتشبيه واضح .

(٤) الدعاء فى الحرب نزال : حين تشتد فيتداعى الفرسان بالنزول عن الخيل والتقارع بالسيوف . ولج فى الذعر : اشتد الخوف .

(٥) الضريك : الفقير المجهد .

(٦) الحوب : الإثم .

(٧) تفرى : تقطع . يخلق : يقدر . يريد أنه إذا عزم على أمر أنفذه .

وعلى هذا النحو يبدئ ويعيد فى هـرِم ، وقد تراءى له فى الصورة المثالية للسيد البدوى الجاهلى ، فهو شجاع فى معترك الحرب وهو كريم فى معترك المسغبة والجوع ، وليس بفحَّاش ولا غادر ، وإذا صمم اندفع يُمْضى ما صمم عليه ، لا يستره عن الخير ستر ، بينما تقوم الأستار بينه وبين كل فاحشة . وشاعرنا يثنى عليه بما عرف من فضله وبما قدم من مآثر النجدة وإغاثة الضعفاء واحتمال كل بلاء. ودائماً تلقانا فى مدائحه لهرم هذه المثالية الرائعة ، بل هذه القطع المتوهجة، ومن رائع ما قاله فيه :

قد جعل المبتغون الخيرَ فى هَرِمٍ والســائلون إلى أبوابه طُرُقا

إن تَلْقَ يوماً على عِلاَّته هرماً تَلْقَ السماحة منه والنَّدَى خُلُقا

ليْثٌ بِعثَّرَ يصطادُ الرجالَ إذا ما كذَّب الليثُ عن أقرانه صَدقا[١]

يطعنهم ما ارْتَموْا حتى إذا اطَّعنوا ضاربَ حتى إذا ما ضاربوا اعْتَنَقَا[٢]

هذا وليس كمن يَعْيَا بخُطَّتِهِ وَسْطَ النَّدِىِّ إذا ما ناطقٌ نطَقَا

فهو لكرمه الفياض يسعى إليه الناس من كل حـَدَبٍ ، ويسلكون إلى أبوابه كل طريق ، حتى لقد أصبحت الطرق إليه مذللة ممهدة ، وهو يجزل لهم فى العطاء حتى حين تضيق ذات يده . وهو يجمع إلى الكرم المفرط الشجاعة المفرطة ، حتى ليتفوق على الليث فى جرأته وطلبه لفريسته ، إنه يطعن الطعنات النجلاء ، وما يزال على ذلك حتى تنحسر غمرة الحرب ، فإذا كان السلم رأيته وسط الندىّ يبهرك بمقوله كما يبهرك بيده وسلاحه وطعانه ونزاله .

وقد أضفى حـُللا من هذا المديح الرائع على سيد بنى فزارة حـِصْن بن حـُذَيْفة ، وكانت له مواقع مأثورة فى حروب قومه مع عـَبْس وغيرها من القبائل ، وفيه يقول :

---

(١) عثر : موضع . كذب الليث : نكل عن لقاء أقرانه .

(٢) ارتموا : تراموا بالنبل ، اطعنوا : تطاعنوا بالسيوف . اعتنق قرنه فى الحرب : أخذ بعنقه ، كناية عن قتله . يقول إذا ترامى المتحاربون بالنبال أبى هرم إلا أن يطعن بسيفه ، وإذا تطاعنوا ضرب بسيفه ضربات مميتة وإذا ما تضاربوا صرع خصومه . فهو سابق فى كل حال .

وأبيضَ فياضٍ يداه غمــامةٌ   على مُعْتَفِيه ما تُغِبُّ فواضِلُهْ[١]
بكرْتُ عليــه غُدْوَةً فرأيتُه   قُعُودًا لديه بالصَّرِيم عَواذِلُهْ[٢]
فأَقْصَرْنَ منه عن كريمٍ مرزَّإٍ   عَزومٍ على الأَمر الذى هو فاعِلُه[٣]
أَخى ثقةٍ لا تُتْلِفُ الخمرُ مالَهُ   ولكنه قد يُهْلِكُ المال نائِلُه[٤]
تراه إذا ما جئته متهــلِّلاً   كأنك تعطيه الذى أنت سائلُهْ[٥]

وهو يمدحه بنقائه من العيوب وأنه كريم مفرط فى كرمه حتى لتشبه يداه سحابة ، فما تزالان تهطلان على قاصديه بالعطايا ، وعبثاً يهتف به العواذل أن يكفّ عن كثرة نواله . إنه مثال للرجل الفاضل الذى لا ينفق أمواله فى لهو إنما ينفقها فى الصنيع الجميل . وإنه ليقبل على معتفيه بالبشر والطلاقة ، حتى ليكادون يظنون أنهم المسئولون لا السائلون . وظل بعد ذلك يمدحه بحسن جداله للخصوم ومنطقه الصائب وكياسته وحلمه ، وأشار إلى وراثته الطيبة عن آبائه فهو شريف حسيب ، كما أشار إلى بلائه فى حروبه مع الغساسنة .

وهذه القطع المختلفة التى أنشدناها من مديحه تدل على براعة واضحة ، فقد كان يحسن التعبير عما فى نفسه ، وكان يحرص على الاقتصاد فى القول فلا يسرف ولا يغلو ، بل يمثل ممدوحه بخصاله التى كان يشغف بها الجاهليون ويرونها أمارة السيادة والشرف . ولاحظ ذلك قديماً عمر بن الخطاب، فقال : « كان لا يمتدح الرجل إلا بما يكون فيه[٦] » فهو يعتدل فى الثناء ، وهو يمثل شخصية البدوى الحقيقى الذى يحيط كلامه بالصدق والبساطة ، وإذا أحس إزاء صفة من الصفات أو معنى من المعانى بأنه يكاد يخرج عن حدّه أحاطه بما يجعل قوله مقبولا فيقدم لفظة « لو » ونحوها حتى لا يتجاوز القصد ، كما نرى فى قوله يصف هرما وأجداده :

---

(١) المعتفون : السائلون . الفواضل : العطايا . وأبيض كناية عن نقائه من المساوئ . وتغب : تنقطع .
(٢) الصريم : الصباح . عواذله : لائموه .
(٣) أقصرن : كففن . مرزأ : مصاب فى ما له لكثرة ما يبذل منه .
(٤) النائل : العطاء .
(٥) متهللا : طلق الوجه .
(٦) أغانى ١٠/٢٩٠ .

لو نال حَىٌّ من الدنيا بمكرُمةٍ أُفْقَ السماء لنالتْ كَفُّه الأفقا

وقوله :

لو كنتَ من شَىْءٍ سوى بشَرٍ كنتَ المنوَّرَ ليلةَ البدْرِ

فهو لا يطلق القول فى مثل هذين المعنيين إطلاقاً ، بل يجعلهما فى حيز « لو » حتى يخرج من باب المبالغة الذى أوشك على الدخول فيه .

وكان يقدِّم لقصائده بالغزل والتشبيب ، متبعاً سنة الجاهليين فى الوقوف بالأطلال وذكر الديار ، ونحس عنده إحساساً واضحاً بأنه لم يكن ممن شغف الحبُّ قلوبهم ، فهو يتغزل ، كى يرضى سامعيه ، لا لكى يرضى نفسه ، وبعبارة أخرى هو يتغزل أخذاً بتقليد متَّبع ، ولذلك نراه يختم غزله أحياناً بقوله : « فعد عما ترى » أو « دعْ ذا » كأنه يريد أن يكف قلبه عن مثل هذا الحب الذى لا يتلاءم مع وقاره . وقد يعلن فى أول قصيدته إعلاناً أن قلبه قد انصرف عن صاحبته على شاكلة قوله :

صَحا القلبُ عن سلمى وقد كاد لا يسْلو وأقْفَرَ من سَلْمَى التَّعانيقُ فالثَّقَلُ[1]

ولعل من الطريف أن أستاذه أوس بن حجر كان يشركه فى هذا الجانب ، فهما جميعاً لا يتغزلان للغزل ، وإنما يتغزلان جرياً على التقاليد . وقد يلم زهير بأثر الحب فى النفس فيبدع فى تصويره ، وهو فى هذا التصوير لا يمثل عاطفة ولا مشاعر حقيقية ، وإنما يمثل قدرته الفنية كقوله فى وصف دموعه :

كأَنَّ عينى وقد سَال السَّليلُ بهم وجيرةٌ ما همُ لو أَنهم أَمَمُ[2]
غرْبٌ على بَكْرَةٍ أَو لؤلؤٌ قَلِقٌ فى السِّلك خان به رَبَّاتِه النُّظُمُ[3]

فهم قد ساروا سيراً سريعاً ، فأبعدوا ولو كانوا جيرة لقصدهم بالزيارة ، وإن دموعه لتتساقط من عينه تساقط الماء من الغرب أو الدلو ، أو تساقط اللؤلؤ من

---

(١) التعانيق والثقل : موضعان .

(٢) سال السليل بهم : السليل : واد . وسال بهم : ساروا سيراً سريعاً . وما فى قوله ما هم زائدة . وأمم : قريبون يزارون .

(٣) الغرب : الدلو . قلق : لا يستقر لانقطاع الخيط . رباته : صواحبه . النظم : جمع نظام وهو الخيط أو السلك .

عقد انقطع سلكه . وبهاتين الصورتين البديعتين صوَّر زهير الدموع ، وهى ليست دموع حب ، وإنما كل ما فى الأمر أنه شاعر يعرف كيف يصور دموع الحب . وبهذا القياس نفسه تصويره لأسماء فى قوله :

قامتْ تَراءَى بذى ضالٍ لتحزُننى ولا محالةَ أَن يشتاق من عَشِقا[١]

بجيــد مُغْزِلةٍ أدماءَ خاذلة من الظباء تُراعى شادنا خَرِقا[٢]

كأَن ريقتَها بعد الكَرى اغتبقتْ من طيِّب الرَّاحِ لما يَعْدُ أَن عَتُقا[٣]

شَجَّ السُّقاةُ على ناجودها شَبِماً من ماء لِينةَ لا طَرْقاً ولا رَنقا[٤]

فهو يصور جيدها بجيد ظبية بيضاء ، امتلأ قلبها بحب ابنها ، فهى عاكفة عليه . كما يصور ريقها بخمر معتقة مزجت بالماء لشدتّها وحدتّها . وهما صورتان أريدتا لأنفسهما . أو بعبارة أخرى رسمهما زهير ليدل سامعيه على قدرته فى التصوير . أما بعد ذلك فلا عاطفة ولا حبّ حقيقى ، ولذلك يكرر دائماً أن قلبه صحا عن حبه . وأنه راجَع نفسه فكفَّت عن الهوى وما يتبع الهوى ، على شاكلة قوله :

لقد طالبتُها ولكل شىء وإن طالتْ لجاجَتُه انتهاءُ

فهو ليس من العشاق ولا ممن يشغلون أنفسهم بالغزل وبيان لوعة الحب ، وإنما هو يتحدث فى ذلك مترسماً سنناً موضوعة كى يظهر قدرته على التصوير الفنى . ولعله من أجل ذلك ملأ مقدماته الغزلية بوصف الظعن ، وكأنه يريد بها أن يتلافى ما يفوته من وصف الحب والصبابة على نحو ما رأينا عند امرئ القيس ، وفى الوقت نفسه يريد أن يدلّ على براعته فى الوصف الدقيق ، فهو يستقصى ويدقق ، وما يزال يتبع صاحبته وصواحبها وهن راحلات فى نجد مع عشيرتهن من واد إلى

---

(١) تراءى : تتبدى وتظهر . وذو ضال : موضع به الضال وهو السدر .
(٢) الجيد : العنق ، مغزلة : الظبية التى معها غزال . أدماء: بيضاء . خاذلة : مقيمة على ولدها لا تتبع الظباء . الشادن : الذى شدن أى تحرك ولم يقو بعد . الخرق : الضعيف .
(٣) الكرى : النوم . اغتبقت : من الغبوق وهو شرب الليل ، لما يعد أن عتقا . يريد أن الخمر معتقة ولم تفسد .
(٤) شج : صب . الناجود : أول ما يخرج من الخمر أو إناؤها . الشبم : الماء البارد . لينة : اسم بئر . الطرق والرنق : الكدر .

واد ، محاولا أن يحفر الصورة فى أذهاننا حَفْراً على نحو ما نجد فى معلقته إذ يقول :

تبصَّرْ خليلى هل ترى من ظَعائنٍ ... تحمَّلْن بالعَلْياء من فوق جُرْثُمِ[١]

عَلوْن بأنماطٍ عِتاقٍ وكِلَّة ... وِرادٍ حواشيها مشاكهة الدَّم[٢]

وورَّكن فى السُّوبان يعلون مَتْنَهُ ... عليهن دلُّ الناعم المتنعِّمِ[٣]

وفيهن ملْهًى للصديق ومنظرٌ ... أنيقٌ لعَيْنِ الناظر المتوسِّم[٤]

بكرْنَ بكُورًا واسْتحَرْنَ بِسُحْرَةٍ ... فهنَّ لوادى الرَّس كاليَدِ للفمِ[٥]

جعلْنَ القَنان عن يمين وحَزْنَهُ ... ومَنْ بالقَنان من مُحِلٍّ ومُحْرِمِ[٦]

ظَهَرْنَ من السُّوبان ثم جَزَعْنَهُ ... على كل قَيْنِىٍّ قَشِيبٍ ومُفْأمِ[٧]

كأن فُتَاتَ العِهْنِ فى كل منزلٍ ... نزلْنَ به حَبُّ الفَنا لم يُحَطَّمِ[٨]

فلما وَرَدْن الماءَ زُرْقاً جِمامُهُ ... وَضَعْن عِصِىَّ الحاضر المتخيِّمِ[٩]

وواضح أنه يصور الرحلة التى سلكتْها ظعن صاحبته ، وهن يعلون الروابى ويهبطن الوديان ، وعلى هوادجهن الكلل والستائر الحمراء وعلى وجوههن دلال النعمة ، والأصدقاء من الشباب يطلبونهن ليملئوا النظر بحسنهن ويتمتعوا برؤيتهن ، وهن يقطعن وادياً إثر واد ، ويمررن على منازل الأحلاف والأعداء ، يأخذن فى طريق ويعدلن عن طريق ، وفى أثناء ذلك ينزلن ثم يرحلن وقد خلفن وراءهن فُتات

(١) الظعائن : النساء الراحلات فى الهوادج . العلياء : اسم موضع . جرثم : ماء لبنى أسد أحلاف ذبيان .
(٢) الأنماط : الستائر على الهوادج . وراد : حمراء . مشاكهة : مشابهة .
(٣) وركن : ثنين أرجلهن للراحة . السوبان : واد فى ديار بنى تميم . متنه : ظهره . دل الناعم : أثر النعمة .
(٤) المتوسم : المتفرس فى الوجه .
(٥) بكرن : رحلن صباحاً . استحرن : رحلن سحراً . كاليد للفم أى إن ما يقصدنه لا يخطئنه كما لا تخطئ اليد الفم .
(٦) القنان : جبل لبنى أسد . حزنه : أرضه الصعبة الغليظة . المحل : الحليف ضد المحرم .
(٧) جزعنه : قطعنه . القينى : الرحل . قشيب : جديد . مفأم : واسع رحب .
(٨) العهن : الصوف . حب الفنا : عنب الثعلب .
(٩) جمامه : سطحه ومجتمعه . ووضع العصى كناية عن الإقامة .

الصوف المتساقط من هوادجهن ورحالهن كأنه حَبُّ الفنا . حتى إذا انتهين إلى الماء الذي يطلبنه والمرعى الذى يلتمسنه ألقين مع عشائرهن عصا الترحال . وكان زهير يبدع فى مثل هذا التصوير الذى يعرض به عرضاً حيًّا مليئاً بالحركة ظُعن صواحبه ، وهى ترحل فى الصحراء تلك الرحلة الدائبة ، ومعها العشائر ، طلباً للآبار ومساقط الغيث والكلأ . وهو تصوير للتصوير فحسب ، فليس فيه وصف حب ، إلا ما قد يأتى عفواً أو عرضاً كالبيت الرابع من هذه القطعة ، وكان حريًّا به أن يقف ليصور جمال هؤلاء النساء وأثره فى نفسه وفى الشباب من حوله غير أن ذلك لم يكن يعنيه ، إنما كان يعنيه الوصف للوصف ، فهو يصوِّر قدرته الفنية لا عواطفه ولا مشاعره ، ومن غير شك كان يحسن الوصف والتصوير لا بما يسوقه من صور بيانية فحسب ، بل بما يعمد إليه من رسم دقائق المنظر الذى يصفه وبما يبث فيه من حياة وحركة .

ولزهير هجاء فى بعض القبائل التى كانت تُغير على عشيرته ، وخاصة فى الحارث بن وَرْقاء أحد بنى أسد الذى أغار على قبيلته ونهب غلامه يَساراً وبعض أمواله ، وهو فيما صحَّ من هذا الهجاء لا يوغل فى الإقذاع وهتك الأعراض إيغال أستاذه أوس والجاهليين من حوله ، بل يُبْقى على مهجوه وعلى نفسه، عامداً إلى السخرية كقوله فى عشيرة حِصْن من بنى عُلَيْم الكلبيين :

وما أدرى وسوف إخالُ أدرى. أَقومٌ آلُ حِصْنٍ أم نساءُ

فإن تكُنِ النساءُ مخبَّآتٍ فحُقَّ لكل مُحْصنَةٍ هِدَاءُ[1]

فهن نساء خُبِّئْنَ فى الخدور ، وينبغى أن يزوَّجن . وهى سخرية مرة ، تحمل كل ما يريد من وصفهم بالجبن . وكان يجد فى مثلها ما يكفيه عن الإقذاع المفحش . وكأنما كان الإقذاع لا يتفق ووقاره ، فتحاشاه ، بينما كان أستاذه أوس من جهة وتلميذه الحطيئة من جهة ثانية يقذعان فيه ، وقد استعار منه تلميذه هذه الأداة أداة السخرية فأشاعها فى أهاجيه على شاكلة قوله المشهور فى الزبرقان ابن بدر :

---

(١) الهداء : الزفاف .

دَعِ المكارمَ لا ترحلْ لبُغْيتها ... واقعدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسى

فجعل مروءته لا تبلغ به إلا أن يأكل ويلبس . وليس بين أيدينا رثاء مأثور صحيح لزهير .

ولم نتحدث حتى الآن عن أهم الموضوعات التى تتجلّى فيها براعة زهير ودقة فنه فى التصوير ، ونقصد وصف الوحش والصيد ، وقد أشاد القدماء كثيراً ببراعة أستاذه أوس فى هذا الباب[1] ، ووقفوا عند معان وصور اقتبسها منه زهير ، ولكن من الحق أنه نمّى هذا الموضوع ، بحيث يعد فى الطليعة من شعراء الجاهلية فى وصف الوحش والصيد . وكأنى به كان يخبرُ اللغة خبرة أوسع من خبرة أستاذه ، وكان له خيال دقيق ساعده على تجسيم الصور وتمثيل الحيوان بكل ما يتصل به من منظر وهيئة وحركة ، وهو يعرض علينا ذلك تارة فى بيت أو أبيات قليلة ، وتارة فى قطع كبيرة، وكأننا إزاء شريط يُعْرَض فى دار من دور الخيالة، واقرأ له هذا البيت فى معلقته يصف رسوم دار صاحبته ، وقد ألمّ بها بعد عشرين عاماً ؛ فلم يجد بها إلا بقر الوحش والظباء ، يقول :

بها العِينُ والآرامُ يمشين خِلْفَةً ... وأطلاؤها يَنهضْنَ من كلِّ مَجْثَمِ[2]

وهو بيت واحد ، ولكنه عرف كيف يعرض علينا منظر البقر والظباء فى بعض مواضع البادية عرضاً كاملا إذ نتمثلها وهى تمشى فى جهات متضادة ، وأطلاؤها أو أولادها تنتثر هنا وهناك ، ناهضة من كل موضع . وانظر إليه يصور ناقته بظليم فى بيتين ، يودعهما وصفاً دقيقاً له إذ يعرض هيئته وسرعة حركته وذعره الدائم وانطلاقه المستمر فى الصحراء كأنه مجنون لا يلوى على شيء ، يقول :

كأن الرَّحْلَ منها فوق صَعْلٍ ... من الظِّلْمان جُؤْجُؤه هواءُ[3]

أَصَكَّ مُصلَّمِ الأُذُنَيْنِ أَجْنَى ... له بالسِّيِّ تَنُّومٌ وآءُ[4]

---

(١) خزانة الأدب للبغدادى ٢/٢٣٥ .

(٢) العين : بقر الوحش ، والآرام : الظباء البيض. خلفة: من جهات متضادة . الأطلاء: أولاد الوحش . مجثم : مربض .

(٣) الصعل : صغير الرأس . الظلمان : جمع ظليم . الجؤجؤ: الصدر . هواء : فارغ .

(٤) أصك : متقارب العرقوبين . مصلم : مقطوع . أجنى من الجنا ، وهو إدراك الثمار ونضجها . السى : موضع . التنوم والآء من أشجار البادية .

وتلك صورة كاملة للظليم أو ذكر النعام فهو صغير الرأس متقارب العرقوبين ليس لأذنيه حجم . وهو ليس ظليماً صغيراً فقد أدرك ، وهو هنالك يرعى فى السِّيِّ بعض أشجار البادية . وماذا بقى من هيئة الظليم ؟ إنه لم يبق شىء إلا سرعته وحركته الدائبة ، وهو يصورهما تصويراً دقيقاً فى قوله « جؤجؤه هواء » فصدره فارغ كأنما لا قلب أو لا عقل له ، فهو يعتسف الصحراء اعتساف مجنون يسرع فى العدو هرباً من كل شبح ، فلا يكاد يقف . ولما تمت له هذه الصورة بتفاصيلها الدقيقة الجسمية والنفسية انتقل يصور ناقته فى سرعتها بحمار وحش يسوق أتنه سوقاً عنيفاً ليرد بها ماء ، وهو لا يغفل عنها ، وهى خاضعة لمشيئته ، يدعوها فى كل فجر فتجيب ، وصوّر هذا الدعاء تصويراً بديعاً ، فقال :

كأَنَّ سَحِيله فى كلِّ فجرٍ ... على أَحْساءِ يَمْئودٍ دُعـاءُ(١)

فهو ينادى أتنه كل صباح كى يرد بها الحياض والمناهل ، وهى تلبيه . وكأنه يرسم بذلك صورة عشيرة تتبع شيخها حين يدعوها . واقرأ له هذه القطعة الطويلة فى وصف النبات والمطر والفرس والصيد فستلقاك خصائصه فى التصوير مجتمعة :

وغيثٍ من الوسمِىِّ حُوٍّ تِلاعُهُ ... أجابت رَوَابيه النِّجاءَ هوَاطِلُهْ(٢)

هبطتُ بمَمْسودِ النواشرِ سابحٍ ... ممَرٍّ أسيلِ الخَد نَهْدٍ مرَاكِلُهْ(٣)

تميمٍ فَلَوْناهُ فأُكْمل صُنْعُه ... فتمّ وعزَّتْه يداه وكاهله(٤)

أَمينٍ شَظاه لم يُخَرَّق صِفاقُه ... بِمنقبةٍ ولم تقطَّع أَباجِلُه(٥)

إذا ما غدونا نبتغى الصيد مرَّةً ... متى نَرَهُ فإننا لا نُخاتِلُهْ(٦)

---

(١) السحيل : نهيق الحمار . يمئود : موضع . الأحساء : جمع حسى ، وهو الموضع كثير المياه .

(٢) الغيث : المطر . الوسمى : أول الغيث . حو : سوداء . تلاعه : مسايله ، وهى سوداء لسواد أطراف النبات . النجاء : المرتفعة .

(٣) النواشر : عصب الذراع . ممسود : مفتول : ممر : محكم الخلق . أسيل : ناعم . نهد : ضخم . المراكل : مواضع ركل الفارس من الفرس يريد أنه ضخم الجوف .

(٤) تميم : تام الخلقة . فلوناه : فطمناه . عزته : قوته .

(٥) أمين : قوى . شظاه : عظامه اللاصقة بالذراع . الصفاق : الجلدة الباطنة وراء البشرة ، لم يخرق بمنقبة : لم يداو بآلة بيطار . الأباجل : عروق فى اليد .

(٦) لا نخاتله : لا نأخذه بالخديعة .

فبينــا نُبَغى الصَّيْدَ جاء غلامنا ... يَدِبُّ ويُخْفى شَخْصَه ويُضائلُه(١)

فقال : شِياهٌ راتعاتٌ بقَفْرَةٍ ... بمُسْتأسِدِ القُرْيان حُوٌّ مَسايلُه(٢)

ثلاثٌ كأقواس السَّرَاءِ ومِسْحَلٌ ... قد اخضرَّ من لَسِّ الغَميرِ جَحافله(٣)

وقد خَرَّم الطُّرَّادُ عنه جِحاشَهُ ... فلم تبق إلَّا نفسُه وحَــلائله(٤)

فقال : أميرى ما ترى رأىَ ما نرى ... أنختِلُهُ عن نفسِه أم نُصاوله(٥)

فبِتْنا عُراةً عند رأس جَوادنا ... يُزاولنـــا عن نفسه ونزاولُه(٦)

ونضربه حتى اطمأنَّ قَــذَالُهُ ... ولم يطمئنَّ قلبــه وخَصائله(٧)

ومُلْجِمُنا ما إن ينالُ قَذَالَهُ ... ولا قدماه الأَرضَ إلَّا أناملُه

فلَأْياً بلأْىٍ ما حملنـــا وَليدنا ... على ظهر محبوكٍ ظِمــاءٍ مفاصِلُه(٨)

فقلت له : سَدِّدْ وأَبْصِرْ طــريقَه ... وما هو فيه عن وصاتىَ شاغلُه

وقلت : تعلَّمْ أن للصيد غِرَّةً ... وإلَّا تُضيِّعها فإنك قاتلُه(٩)

فتبِّع آثارَ الشياهِ وليــدُنا ... كشؤبوب غَيْثٍ يَحْفِشُ الأُكْمَ وابلُه(١٠)

نظرتُ إليــه نظرةً فرأيتُه ... على كل حالٍ مرةً هو حاملُه(١١)

يُثِرْنَ الحَصَا فى وجهه وهْو لاحقٌ ... سِراعٌ تَواليه صِيابٌ أوائلُه(١٢)

---

(١) نبغى : نبتغى ونطلب . يدب : يمشى راجلا ببطء . يضائل : يصغر .

(٢) الشياه هنا : الأتن . القريان : مجارى الماء . مستأسد النبت : ما طال منه . حو : سوداء .

(٣) السراء : شجر تصنع منه القسى . المسحل : حمار الوحش . جحافله : شفاهه . الغمير : نبت . لسه : أكله .

(٤) خرم : نفر وأبعد . حلائله : زوجاته من الأتن .

(٥) نختله : نخادعه . نصاوله : نجاهره .

(٦) عراة : فى أرض عارية من الشجر . وقيل عراة من العرواء : وهى الرعدة عند الحرص . يزاولنا : يدفعنا لشدة نشاطه .

(٧) القذال : مؤخر الرأس . خصائله : لحم العصب .

(٨) محبوك : متين . ظماء مفاصله : قليلة اللحم لا تترهل .

(٩) الغرة : الغفلة .

(١٠) الشؤبوب : الدفعة من المطر . يحفش يملأ .

(١١) يقول إن الفرس كان يحمل فى كل حال الغلام ، يحمله على الطمع وعلى اليأس .

(١٢) التوالى : الأواخر يريد الرجلين والعجز . ويقصد بأوائله يديه وصدره . وصياب : سراع .

فردَّ علينا العَيْرَ من دون إلْفِهِ ... على رَغْمِهِ يَدْمَى نَسَاهُ وفائلُه[1]

وهو فى مستهل هذه الأبيات يصف مطراً يتساقط على بعض المرتفعات والوهاد ، وقد انتشر فيها النبات الضارب إلى السواد ، وهو يتبل مع بعض رفاقه على فرس محكم الخلق ، فُطم منذ عهد قريب . فهو أشد ما يكون قوة . لم يصبه مرض ولا علة . ويعرض علينا هيئته وخلقته كاملة . وسنراه بعد قليل يصور أحاسيسه وهواجسه ، فتكتمل صورتيه الجسدية والنفسية . ويستطرد إلى وصف الصيد فيذكر أن غلامه الذى ذهب يستطلع الحيوانات الوحشية فى الصحراء جاء يدبّ ويخفى شخصه ويضائله . وبهذه العبارة الموجزة رسمه لنا رسماً دقيقاً ، رسم حركته وسيره وأنه كان يحاول أن يخفى شخصه حتى لا تفزع الوحوش . وأخبرهم أنه رأى غير بعيد ثلاث أتُنٍ وحشية ، وهى ضامرة كأقواس السَّراء ، ومعها حمارها وقد أقبل على الطعام من النبات حتى اخضرت مشافره . واخضرار المشافر لمسة من لمسات زهير الذى كان يبتغى الدقة فى التصوير بما يعطى من ألوان الأشياء وما يذكر من تفاصيلها . وينتقل فيحدثنا أنهم باتوا يروضون الجواد ، حتى كان الصباح . فألجمه الغلام ، وهو لا يكاد يطوله لضخامته . وزهير يوصيه كيف يتبع فريسته . ويبدع زهير فى هذا الجزء من وصفه ، فهم منذ أخبرهم الغلام بخبر الصيد مفزَّعون لشدة ما هم فيه من حرص على طلب الصيد والحصول عليه ، وقد أحسّ الجواد ما هم فيه وما ينتظره فى الصباح الباكر ، فأخذه الخوف من جميع أطرافه ، فهو يجاهدهم وهم يجاهدونه ويضربونه ، حتى اطمأن وأمكنهم منه ، غير أن قلبه وأعصابه لم تطمئن ، فلا يزال يستحوذ عليه الفزع والخوف الشديد . ولم يكن الغلام من هذه الحالة النفسية غير بعيد ، فقد كان زهير يوصيه كيف يطارد الصيد وهو فى شغل عنه بمخاوفه وما ينتظره فى تلك المعركة . وزهير بهذا كله يعد مصوّراً بارعاً ، إذ يصور الهيئات الجسدية والأحوال النفسية فيما يصفه ، وكأنما كانت له عين كبيرة تعرف كيف تلتقط قسمات الجسد وسرائر النفس ، لا نفس الإنسان وحده بل أيضاً نفس الحيوان وما يلم بهما جميعاً من وساوس وهواجس . وقد مضى يصور مطاردة الغلام — ولعله غلامه يسار — للأتن وحمارها وكيف انصبّ عليها كأنه شؤبوب

(١) العير : حمار الوحش . والنسا والفائل : عرقان .

أو صاعقة من السماء . وهي تثير الحصى في وجه فرسه . والفرس لا ينثني عنها حتى أفرد الحمار من دون صواحبه وصاده الغلام : وجاء به جريحاً تنزف دماؤه .

وواضح أن زهيراً استتم في هذا الوصف الدقيق كل براعته سواء من حيث توشيته بالتشبيهات. أو من حيث ملؤه بالحياة والحركة الجسدية والنفسية . وله قطعة لا تقل عن هذه القطعة جمالا وروعة في قصيدته الدالية التي رواها المفضل الضبي ، وفيها يصف بقرة وحشية شبَّه بها ناقته في سرعتها ، ومضى يستكمل وصفها مستطرداً إلى مطاردة الصائد لها بينما تفترس السباع أحد أفلاذ كبدها ، يقول :

كَخَنْساءَ سَفْعاءِ الملاَطِمِ حُرَّةٍ ... مُسافرةٍ مَزْءودةٍ أمِّ فَرْقَدِ[١]

غدتْ بسلاحٍ مثلُه يُتَّقَى به ... ويُؤْمِنُ جَأْشَ الخائفِ المتوحِّدِ[٢]

وسامعتين تعرف العِتْق فيهما ... إلى جِذْرِ مَدْلوكِ الكعوب محدَّدِ[٣]

وناظرتين تَطْحَران قَذاهما ... كأنهما مكحولتان بإثْمِدِ[٤]

طَباها ضَحاءٌ أو خلاَءٌ فخالفتْ ... إليه السِّباعُ في كِناسٍ ومرْقَدِ[٥]

أضاعتْ فلم تُغْفَرْ لها غَفلاتُها ... فلاقتْ بياناً عند آخر معْهدِ[٦]

دَماً عند شِلْوٍ تَحْجِلُ الطيرُ حوله ... وبَضْعَ لِحَامٍ في إهابٍ مقدَّدِ[٧]

---

(١) الخنساء : بقرة الوحش سميت بذلك لتأخر أنفها ومثلها الظباء لأنها جميعاً فطس خنس . سفعاء الملاطم : السفع سواد في حمرة . والملاطم : الخدان . مزءودة : مذعورة ، مسافرة : ترحل من موضع إلى موضع . الفرقد : ولد البقرة .

(٢) يريد زهير بالسلاح قرني البقرة. الجأش : الصدر . المتوحد : الوحيد المنفرد .

(٣) سامعتين : أذنين . العتق : الأصالة . ومعرفة العتق كناية عن أنهما محددتان منتصبتان. إلى جذر : إلى هنا بمعنى مع ، والجذر : الأصل .. مدلوك : أملس . والكعوب : جمع كعب وهو ما بين العقدتين في القرن . وزهير يريد بالشطر الثاني وصف قرنيها بأنهما أملسان محددا الرأس .

(٤) ناظرتين : عينين . تطحران قذاهما : ترميان به وتنفيانه . الإثمد : كحل أسود .

(٥) طباها : دعاها. ضحاء : رعي الضحى . خلاء : خلو المكان . فخالفت إليه السباع : أي اختلفت إلى ولد البقرة . الكناس : بيت في الشجر تستتر فيه البقر أو تستر أولادها من الحر والبرد .

(٦) أضاعت : تركت ولدها وغفلت عنه . البيان : ما استبانته عند ما رجعت ووجدت بقايا ولدها من بعض الجلود واللحم والدماء . آخر معهد : آخر موضع تركته فيه .

(٧) الشلو : بقية الجسد . البضع : جمع بضعة وهي القطعة . اللحام : جمع لحم . الإهاب : الجلد . المقدد : المشقق الخرق .

وتنفضُ عنها غيبَ كلِّ خميلةٍ ... وتخشى رُماةَ الغَوْثِ من كل مَرْصَدِ(١)

فجالتْ على وحْشِيِّها وكأنها ... مُسربَلَةٌ في رازقيٍّ مُعضَّدِ(٢)

ولم تدر وشْكَ البَيْنِ حتى رأَتهمُ ... وقد قعدوا أنفاقَها كل مقْعدِ(٣)

وثاروا بها من جانبيها كليهما ... وجالتْ وإن يُجْشِمْنها الشَّدَّ تَجْهَدِ(٤)

تَبذُّ الأُلى يأْتينها من ورائها ... وإن تتقدَّمها السوابقُ تَصْطَدِ(٥)

فأَنقذها من غَمْرَةِ الموتِ أَنها ... رأَتْ أَنها إن تَنْظُرِ النَّبْلَ تُقْصَدِ(٦)

نجَاءٌ مُجِدٌّ ليس فيه وتيرةٌ ... وتَذْبِيبُها عنها بأَسْحَمَ مِذْوَدِ(٧)

وجَدَّتْ فألقتْ بينهنَّ وبينها ... غُبارًا كما فارتْ دواخِنُ غَرْقَدِ(٨)

بملتئماتٍ كالخَذاريفِ قُوبلتْ ... إلى جَوْشَنٍ خاظِي الطريقةِ مُسْنَدِ(٩)

وزهير يستهل حديثه عن البقرة بوصفها الجسدى والنفسى فهى خنساء فى خدودها حمرة مشربة بسواد . وهى طليقة فى الصحراء ترحل من موضع إلى موضع مذعورة فقد خلفت ولداً لها فى كناس . وهى تخشى عليه من السبع والإنسان . وإنها لشاكية السلاح . كأنها معدَّة خلقة لكفاح أعدائها ونزالهم ، فقد برز لها قرنان وإنهما حريان بأن يقياها الخطر ويؤمِّنا وحدتها وخوفها ، إذ هما محددان أملسان كأنهما السيوف القاطعة ، ومن ورائهما أذنان ترهف بهما السمع خشية العدو المفاجئ وباصرتان

---

(١) تنفض : تنظر هل ترى ما تكره . الخميلة : الرملة بها شجر . الغوث : قبيلة من طيئ تشتهر برماتها وقناصها .

(٢) جالت : ذهبت وجاءت . الوحشى : الجانب الذى لا يركب منه وهو الأيمن يريد أنها مالت على عطفها الأيمن . مسربلة : لابسة سربالا وهو القميص . الرازقى : ثوب أبيض . معضد : مخطط .

(٣) وشك البين : سرعته ، والبين هنا : فقدها لولدها . الأنفاق : الطرق والمسالك .

(٤) يجشمنها الشد : يكلفنها العدو ويحملنها عليه . تجهد : تسرع وتجتهد .

(٥) تبذ : تسبق . تصطد : تضرب بقرنيها ما يتقدمها من الكلاب .

(٦) تنظر النبل : يريد زهير تنتظر أصحابها وهم الرماة . تقصد : تقتل .

(٧) النجاء : سرعة العدو . الوتيرة : التلبث والانتظار . تذبيبها : دفاعها . الأسحم : الأسود . المذود : قرنها الذى تذود به عن نفسها .

(٨) جدت : أسرعت فى العدو . الدواخن : جمع دخان . الغرقد : شجر .

(٩) الملتئمات هنا : القوائم شبهها بالخذاريف . إلى جوشن : مع صدر . خاظى الطريقة : مكتنز اللحم فى أعلى الصدر . مسند : مرتفع .

سوداوان كأنهما مكحولتان تحدّ بهما النظر إلى ما حولها .

وعلى هذا النحو يعرض علينا زهير تلك البقرة بهيئة جسدها وهيئة نفسها ، لنستعد إلى ماسيفجؤها من كوارث . وهو يثبت هيئتها فى نفوسنا بما يصوره من تفاصيل جسدها ولون خديها وعينيها . ولا يلبث أن يصور لنا فاجعتها فى ولدها ، وقد أعدّنا لذلك منذ البيت الأول ، فهى مسافرة ، مسرعة فى العودة ، وقد أخذها الذعر . لقد خرجت تطلب الرى والرعى ، وعاودها الحنين إلى ولدها ، بل عاودها الخوف الشديد ، وكأنها تعرف أنها تركته وراءها للسباع ، وعادت ويالهول ما رأت ، لقد رأت بقايا ابنها من أشلاء وجلود ودماء ، والطير تحجل حوله ، فأخذها الحزن الشديد . إن أملها فى الحياة فقدته . وقد عادت تجرى فى الصحراء مذعورة تتلفت يميناً وشمالا تنظر هل هناك ما تخشاه ، وإنها لتخشى رماة عشيرة الغَوْث الذين تعودوا أن يطاردوها بسهامهم وكلابهم من كل مرصد ، ومرت على جانبها الأيمن ، كأنها تظنه أكثر أمناً ، وهى تتراءى فى لونها الأبيض وقوائمها المخططة كأنها الثوب الناصع الجميل ، ولم تكن تدرى أن الموت يرصدها ، حتى رأت رأى العين رماة الغوث . وقد أخذوا عليها جميع الطرق والمسالك ، وأرسلوا عليها كلاب الصيد ، فولت مسرعة ، والكلاب تلاحقها وهى تارة تسبق أولاها ، وتارة تلحقها الكلاب فتنوشها بقرنيها ، وما زالت تعدو حتى أفلتت من غمرة الموت يسعفها قرنها الأسود وما أثارته بينها وبين الكلاب من غبار كأنه الدخان . ويصور زهير سرعة قوائمها وخفة حركتها بخذاريف الصبيان التى يديرونها دوراناً سريعاً بخيوط يشدونها إلى أيديهم ، وقد سبقه امرؤ القيس إلى هذه الصورة فى وصف سرعة فرسه . إذ قال فيه كما مرّ فى غير هذا الموضع :

دريرٍ كخُذْروف الوليد أمَرَّه   تقلُّب كفَّيه بخيط مُوَصَّلِ

وقد حاول زهير أن يضيف زيادة جديدة فجعل القوائم متمات متناسقات كما جعلها متقابلات ، فهى كخذاريف لا كخذروف واحد ، يقابل بعضها بعضاً.

والحق أننا نحس إزاء زهير أنه استوفى كل ما كان ينتظر الشاعر الجاهلى من براعة فى التصوير . وكان يحفّ هذه البراعة بضروب من الوقار تتضح فى مدائحه وأهاجيه وغزلياته جميعاً . فهو يحتفظ بكرامته دائماً ، ولعل ذلك ما جعله ينفر من

الخمر والميسر كما قدمنا فى غير هذا الموضع . واقرأ مدائحه وأنعم النظر فيها فستراه يمثل لك فى هَرِمٍ والحارث بن أبى عَوْف وحِصْن بن حذيفة صورة السيد الفاضل ، لا من حيث الشجاعة والكرم فحسب ، بل أيضاً من حيث الحلم والعفو عن المسىء فى العشيرة والدفع بالمعروف من القول والحدب على الفقراء وتجنب الفواحش والآثام . واقترنت هذه الصورة المثالية للسيد الفاضل فى شعره بكثير من الحكم والدعوة إلى مكارم الأخلاق . وقد ذيِّل المعلقة بطائفة من الأبيات التى تذهب هذا المذهب ، وقدمنا أن الأصمعى كان يشك فيها ويقول إنها لشاعر أنصارى يسمى صِرْمَة ، ويظهر أن حِكماً له اختلطت بحكم لهذا الشاعر ، ونستطيع أن نفرد منها له مثل قوله :

ومَنْ يَعْصِ أَطرافَ الزِّجاج فإنه ... يطيع العَوالى رُكِّبَتْ كلَّ لَهْذَمِ[1]

فإن هذا البيت يتفق وما لاحظناه عنده من ميله إلى إخراج أفكاره ومعانيه فى صور متلاحقة . فقد أراد أن يقول من أبىَ الصلح لم يكن له بد من الحرب ، فلم يقل ذلك مباشرة ، بل ذهب يبحث عن صورة تمثل الصلح عندهم ، وسرعان ما لمعت فى خياله عادة كانت معروفة لديهم ، وهى أن يستقبلوا أعداءهم إذا أرادوا الصلح بأزجة الرماح ؛ ومن ثم قال « ومن يعص أطراف الزجاج » يريد « ومن لا يطع الدعوة إلى الصلح والسلام » ومضى يمثِّل الدخول فى الحرب بإطاعة أسنة الرماح والسيوف . وفكرة البيت متصلة بالمعلقة وما تدعو إليه من السلام والاستجابة إلى الصلح. وقد تكون الأبيات التى تتصل بفكرة الحياة والموت صحيحة النسبة إلى زهير لأنها تتصل كالبيت السابق بموضوع القصيدة ، كقوله :

رأيت المنايا خَبْطَ عَشْواءَ من تُصِبْ ... تُمِتْه ومن تُخْطِئْ يعمَّر فيهرمِ

وفى البيت أيضاً صورة بديعة ، إذ يشبه الموت بناقة عشواء لا تبصر طريقها ، فهى تخبط الطريق خبطاً أعمى ليس له نظام ولا قياس . والتفكير فى الحياة والموت يكثر عند زهير كقوله فى إحدى قصائده لهرم :

---

(١) الزجاج : جمع زج وهو الحديدة فى أسفل الرمح . والعوالى : سنان السيوف والرماح . اللهذم : السنان القاطع . وواضح أنه جعل رفع كعوب الرماح كناية عن الصلح والمسالمة إذ كانت تلك عادتهم فى الجاهلية .

تزوَّدْ إلى يوم المماتِ فإنَّه ولو كرهتْه النفسُ آخرُ موْعِدِ

وإذا أخذنا نقرأ فى أشعاره لقيتنا فيها حِكم كثيرة ، وهو ينثرها نثراً خلال الموضوعات المختلفة التى يلم بها ، فمن ذلك قوله :

وكنتُ إذا ما جئت يوماً لحاجةٍ مضت وأَجَمَّتْ ، حاجةُ الغدِ ما تَخلُو[١]

وقوله الذى أنشدناه :

وهل يُنبت الخَطِّىَّ إلا وَشِيجُهُ وتُغْرَسُ إلا فى مَنابتها النَّخْلُ

وقوله :

كذلك خِيمُهُم ، ولكلِّ قومٍ إذا مسَّتهم الضَّراءُ خِيمُ[٢]

وقوله الذى أنشدناه :

فلو كان حَمْدٌ يُخلد الناسَ لم تَمُتْ ولكنَّ حَمْدَ الناسِ ليس بمُخْلِدِ

وقوله :

فإن الحقَّ مقْطعُــهُ ثلاثٌ يمينٌ أَو نِفارٌ أَو جِــلاءُ[٣]

وكان عمر بن الخطاب يُعْجَبُ بهذا البيت ويتعجب من صحة القسمة فيه ، ويقول : لو أدركته لوليته القضاء لحسن معرفته ودقة حكمه[٤] .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يوضح مكانة زهير فى الشعر الجاهلى ، فقد كان شاعراً من طراز ممتاز ، شاعراً له نظراته فى الحياة والأخلاق ، وهو إلى ذلك شاعر مصور يحسن أدوات صناعته من جميع وجوهها ، فقد تمرَّس بنماذج أوْسٍ وغيره من فحول الجاهلية ، ولم يكد ينظم أشعاره حتى ذاع اسمه فى القبائل ، فالتمسه بعض الشبان يتعلمون عليه هذه الصناعة الدقيقة التى يحسنها إلى أبعد حد ، ونبغ

---

(١) مضت وأجمت : مضت حاجة الأمس ودنت حاجة الغد . ما تخلو : يريد : لا يخلو المرء من حاجة ، فحاجة من عاش لا تنقضى .

(٢) الخيم : الشيمة والخلق .

(٣) النفار : المنافرة إلى شيوخ القبائل للحكم . الجلاء : انكشاف الأمر .

(٤) الصناعتين للعسكرى (طبعة عيسى الحلبى) ص ٣٤٢ .

منهم الحطيئة ، ولقّن الشعر ولديه بُجَيْرًا وكعباً ، وطار صيت الأخير فى العصر التالى عصر المخضرمين .

نحن إذن بإزاء شاعر ممتاز خَبَرَ صناعة الشعر الجاهلى وعرف أساليبها ، واستطاع أن يؤدّى أجمل صورة لها فى لفظه وقوالبه وصيغه ، وقد لاحظ القدماء ذلك وعبروا عنه عبارات مختلفة ، فقالوا إنه كان يصنع قصائده الطويلة فى حول كامل وإنه صنع سبع حَوْليّات(١) . ويَنْسُبُ الجاحظ هذا القول إلى زهير نفسه ، فيقول : « كان زهير بن أبى سلمى يسمى كبار قصائده الحوليات ، ولذلك قال الحطيئة : خير الشعر الحولىّ المحكك (يقصد شعر أستاذه وشعره) وقال الأصمعى : زهير بن أبى سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر ، وكذلك كل من جوّد فى شعره ووقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى يُخْرِج أبيات القصيدة كلها مستوية فى الجودة(٢) » . ويعلق الجاحظ على صنعة زهير وشعره فى موضع آخر ، فيقول : « من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا (كاملا) وزمناً طويلا يردّد فيها نظره ويجيل فيها عقله ويقلّب فيها رأيه ، اتهاماً لعقله وتتبعاً على نفسه ، فيجعل عقله زماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، إشفاقاً على أدبه ، وإحرازاً لما خوّله الله من نعمته ، وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات ، ليصير قائلها فحلا خِنذيذاً (تامًّا) وشاعراً مفلقاً(٣) » .

وسواء سمّى زهير قصائده الطويلة بالحوليات أو سماها الرواة بهذا الاسم فإن هذه التسمية تدل على مدى ما أحس به القدماء تلقاء مطولاته ، فقد أحسوا فيها بجهد شديد ، وتصوروا أن هذا الجهد يستنفد آماداً بعيدة من الزمن ، وتخيلوها حولا كاملا ، ومضوا يسمون زهيراً والحطيئة وأضرابهما عبيد الشعر لما شعروا عندهم من طول الثّقاف والتنقيح والتجويد والتحبير ، وكأنهم يُلغون حريتهم وإرادتهم ، فهم عبيد فن الشعر ، يخضعون لإرادته الفنية وما يَنطوى فى هذه الإرادة من تنسيق محكم للألفاظ والصيغ . ويظهر أن زهيراً كان يُعْرَفُ بذلك من قديم ، فهم يروون عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول : « زهير شاعر الشعراء لأنه كان لا يعاظل فى

---

(١) الخصائص لابن جنى (طبع دار الكتب المصرية) ١ / ٣٢٤ .

(٢) البيان والتبيين (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢ / ١٣ .

(٣) المصدر نفسه ٢ / ٩ .

الكلام، وكان يتجنب وحشيّ الشعر ولم يمدح أحداً إلا بما فيه[١]» . والمعاظلة بين الكلام المداخلة فيه بحيث لا ينضَّد نضداً مستوياً . والحق أن صياغة زهير تستوفى حظوظاً بديعة من صفاء التعبير ونقائه وخلوصه من الأدران التى قد تؤذيه، وارجعْ إلى القِطَع التى أنشدناها له فى المديح ،فإنك ستجدها متوهجة ، وما ذلك إلا من دقة التعبير وصَقْله إلى أبعد غاية وصل إليها شاعر جاهلى . والذى لا ريب فيه أنه كان يستولى على لغته ويسيطر عليها ويجمع منها خير ما فيها من ألفاظ وكلمات ، وما يزال ينسِّقها حتى تتراءى كأنها عقود من الجواهر . وعلى نحو ما كان يستوفى حظوظاً مختلفة من الجمال فى عباراته وصيغه كان يستوفى ضروباً من الإتقان والكمال فى موسيقاه ، فليس فيها نشاز من إقواء وليس فيها اجتلاب قافية وإكراهها على إحلالها فى أماكنها ، فقوافيه تتمكن فى مواضعها ، ومهما ضاق عليه هذا الموضع نفذ منه على أجمل صورة . وانظر إلى قوله فى معلقته :

وأعلمُ ما فى اليــوم والأمس قبله ولكننى عن عِلْمِ ما فى غَــدٍ عَمِى

فقد وصل إلى القافية ، فوجد نفسه مضيَّقاً عليه ، ولم يلبث أن نفذ إلى كلمة « عمى » فتمَّم البيت فى غير عسر ولا مشقة . ومن ذلك قوله :

هم يضربون حَبِيكَ البَيْض إذ لَحِقُوا لا ينكصون إذا ما استُلْحِموا وحَمُوا[٢]

فقد نفذ من الدرب الضيق فى القافية ، بما جاء به من كلمة « حموا » ولم ينفذ فحسب ، فقد استخدم كلمة تتناسق فى حروفها مع الفعل السابق لها ، فهى كلمة من نفس أسرتها ، وهو ما يعبر عنه علماء البيان العربى باسم الجناس ، وله أمثلة مختلفة فى شعره كقوله الذى أنشدناه :

كأَن عينى وقد سال السَّليلُ بهم وجيرةٌ ما همُ لو أنهم أَمَمُ

فقد جانس بين سال والسليل ، وتعلق بحرف الميم فى ألفاظ الشطر الثانى ، فأحدث بينها تلاؤماً واضحاً . ومن أمثلة الجناس عنده :

وقد قلتما إن ندرِكِ السِّلْمَ واسعاً بمــالٍ ومعروف من القول نَسْلَمِ

---

(١) أغانى ١٠/٢٨٩ .

(٢) حبيك البيض : طرائقه . البيض : خوذهم فى الحرب . استلحموا : من التلاحم والخلطة فى القتال . حموا : اشتد غضبهم .

وقوله :

تقِيٌّ نقِيّ لم يُكثِّر غنيمةً بنهكة ذى القُرْبى ولا بِحَقَلَّدِ(١)

وعلى نحو ما كان يستخدم الجناس كان يستخدم الطباق ، وله أمثلة كثيرة عنده كقوله الذى أنشدناه فى وصفه للظُّعن :

جعلنَ القَنانَ عن يمين وحَزْنه ومَنْ بالقنان من مُحِلٍّ ومُحْرِمِ

وقوله :

يمينا لنعم السيدان وُجدتُما على كل حالٍ من سَحيلٍ ومُبْرَمِ

وقوله :

وقد كنت من سَلمى سِنيناً ثمانياً على صِيرِ أمرٍ ما يَمُرُّ وما يَحْلُو(٢)

وقوله الذى أنشدناه :

ليثٌ بعثَّرَ يصطاد الرجالَ إذا ما كذَّب الليث عن أقرانه صَدقا

على أن زهيراً إنما كان يستخدم الطباق والجناس من حين إلى حين فهما ليسا لونين فاقعين فى شعره. إنما اللون الناقع فى شعره هو التصوير. إذ كان يودعه كل مهارته، وكان يأبى أن يُخْرج كثيراً من أبياته إلا ويوشِّيها به . بحيث لا نبعد إذا قلنا إنه شاعر التصوير فى الجاهلية . ومن ثَمَّ كثرت عنده التشبيهات والاستعارات كثرة مفرطة . وكان يسعفه بها خيال متوثب متهيئ ليخرج من جديد ما سمعه من أستاذه أوس وغيره . وليضيف إلى ذلك ثروة من عنده . ثروة خيالية تنعقد فيها مشابهات كثيرة بين الأشياء . وهى مشابهات من شأنها أن تجعلنا نحس بأننا ندخل معه فى عالم خيالى حالم . وخاصة حين تلقانا استعاراته وما يملؤها به من أشباح وأرواح. فإننا نستشف معه كثيراً من الأشياء وعلاقاتها بعضها ببعض . كما نستشف الجمال فى داخلها ونشعر بغير قليل من المتاع .

---

(١) النهكة : الإضرار . الحقلد : بخيل السيء الخلق . يقول إنه لا يكثر ماله بظلم أقربائه ، وليس ببخيل لئيم .

(٢) صير أمر : منتهى وما يصير إليه .

وارجعْ إلى ما عرضناه من أشعاره فستجد التشبيهات تتراكم فيها ، وستراه دائماً حين يفكر فى شيء يلمع فى ذهنه نظيره ، محاولا أن يربط بين الشبيه والشبيه بعلاقة لا تنفصم . وهى علاقات ننتقل بينها معجبين ، بل هى مشاهد تجلب لنا البهجة والمسرة . إذ كان يعرف كيف يأتى منها بالنادر الطريف على شاكلة قوله الذى أنشدناه فى وصفه للظُّعن وقَصْدها إلى غايتها :

بكرْنَ بُكورًا واسْتَحَرْنَ بسُحْرَةٍ ... فهنَّ لوادى الرَّسِّ كاليد للفَمِ

وليس كل ما يلاحظ عنده كثرة التشبيهات ولا وقوعه على نوادرها ، بل لعل أهم ما يلاحظ أنه يعنى بتفصيل التشبيه إذ لا يزال يلحّ على الصورة التى يعرضها ، وكأنه يريد أن يستوفيها بجميع دقائقها وتفصيلها استيفاء ، كقوله فى وصف بعض صواحبه :

تنازعها المَها شَبَهاً ودُرُّ النُّـ ... حُورِ وشاكهتْ فيها الظِّباءُ[1]

فأمّا ما فُوَيْقَ العِقْد منها ... فمن أَدْماءَ مَرْتَعُها الخَلاءُ[2]

وأما المُقْلَتان فمن مهاةٍ ... وللدُّرِّ المـلاحةُ والصفاءُ

فهو لا يشبه صاحبته ببقر الوحش والدر والظباء تشبيهاً عامًّا ويمضى ، بل يعود إلى تفصيل تشبيهه ، فهى تشبه الظباء فى جيدها الطويل الجميل وبقر الوحش فى سواد عينيها الفاتنتين والدر فى ملاحته وصفائه ولمعانه وبهائه .

وإذا كان زهير أتقن لون التشبيه من حيث كثرة الصور والتعمق فيها والإلحاح عليها بالتفاصيل فإنه أتقن لون الاستعارة إتقاناً لعل شاعراً جاهليًّا لم يبلغ مبلغه فيه ، وارجعْ إلى معلقته وإلى صور الحرب التى أنشدناها فإنك تجد الاستعارات فيها تتلاحق . فالحرب أسد ضار ، بل هى نار مشتعلة ، بل هى رحى تطحن الناس ، بل هى ناقة تنتج غلمان شؤم ، بل هى أرض مغلة غلة قبيحة ليس فيها منافع للناس إنما فيها الموت الزؤام . وقد مثَّل — كما مرَّ بنا — حياة العرب فى حروبهم الدائرة وما يتخللهـا من فترات راحة بصورة قوم يرعون مراعى وخيمة ، حتى

---

(١) المها : بقر الوحش . شاكهت : شابهت .

(٢) الأدماء : الظبية البيضاء . الخلاء : الموضع الخالى .

إذا أخذهم الظمأ الشديد وردوا على مياه وخيمة ، بل على دماء مسفوحة . ونراه فى نفس المعلقة يصف شجاعاً ويصوره فى صورة أسد فيقول :

لدى أسدٍ شاكى السِّلاحِ مقذَّفٍ له لِبَدٌ أظفـــارُه لم تُقَلَّمِ[1]

وواضح أنه استتم فى استعارته صورة الأسد بشعره المسترسل على منكبيه وأظفاره المسنونة التى لم تقلَّم يوماً والتى إن نشبت فى شىء أتت عليه .

ولم يكن زهير يكثر من الاستعارة فى شعره فحسب ، بل كان أيضاً يحاول أن يأتى فيها بالصور النادرة الغريبة كقوله فى أحد مطالعه :

صَحا القلبُ عن سَلْمَى وأَقْصَر باطلُه وعُرِّىَ أفراسُ الصِّبا ورَواحِلُهْ[2]

وهو فى الشطر الأول يقول إن قلبه كفَّ عن حب سلمى ، وقد أراد على طريقته أن يعبر عن هذا المعنى بصورة ، فذهب يتخيل ، وبعد به خياله ، فإذا هو يتصور أسباب حبه وصبوته التى كان دائماً يلزمها أفراساً ورواحل يركبها إلى صاحبته، وكان طريقه إليها مشغولا دائماً بهذه الرواحل والأفراس . وقد انتهى اليوم كل شىء ، فقد انصرف عن سلمى وحبها ، ولم تعد تشغله أسباب صبوته القديمة . وهى صورة بعيدة لا تقع إلا فى ذهن يكثر من التخيل والإغراق فى التصور، ذهن يتعمق فى الأشياء والمعانى ، حتى يتخيلها أحياء حقيقية .

وأكبر الظن أننا لا نغلو إذا قلنا إن زهيراً كان شاعراً مصوراً ، فالتصوير أساس فنه . وكأنما تحوَّل عقله إلى آلة لاقطة ، وهى ليست آلة فوتوغرافية ، بل هى آلة خالقة ، آلة تفكر فى الأشياء من خلال أشياء أخرى فتعقد ما لا يحصى من مشابهات ومشاكلات ، وما تلبث أن تتمثل فيما يقع تحت حسها أشباحاً وأطيافاً تتراءى لها واضحة تمام الوضوح .

ومهما تحدثنا فى هذا الجانب فلن نستطيع أن نوفِّى زهيراً حقه من بيان مقدرته التصويرية ، وكأنى به كان الثمرةَ النهائية للجهود الفنية التى أودعها الجاهليون أشعارهم، فهو من جهة قد صقل أسلوبه إلى أبعد غاية من الصقل، ومن جهة ثانية

---

(١) شاكى السلاح : تام السلاح . مقذف : غليظ اللحم . لبدة الأسد : ما تلبد على كتفيه من شعره .

(٢) أقصر : كف . الأفراس : جمع فرس . الرواحل : الإبل .

عُنِى بموسيقاه وألحانه عناية واسعة بحيث لا يبدو فيها أى شذوذ ؛ ومن جهة ثالثة استتمّ فن التصوير بفرعيه من التشبيه والاستعارة .

وكل هذه ألوان جمال نُعْجَبُ بها عند زهير . فهو شاعر الجمال ؛ وهو شاعر الحقيقة بحِكمه ، وهو شاعر الخير بدعوته إلى السلام وبما رسمه للفضيلة من مُثُل فيمن مدحهم ، حتى ليُرْوَى أن عمر بن الخطاب استمع إلى بعض قطعه المتألقة فى مديح هرم ، فقال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]

والحق أنه يصور مثلا جيداً من أمثلة الشعر الجاهلى . فقد انتهى عنده هذا الشعر إلى صورة رفيعة للخير والحق والجمال . وكان ما يزال يجهد نفسه فى رسم خطوط هذه الصورة إجهاداً عَبَّرَ عنه القدماء بأنه حَوْلِىّ صاحب حوليات . وهل يمكن أن نتصوره محققاً لهذه البراعة التى وصفناها بدون جهد عنيف كان يستنفد منه آماداً طويلة من الزمن ؟ إن كل جانب فى شعره يدفعنا دفعاً إلى الإيمان بأنه كان يعانى طويلا فى صنع قصائده وما يتخذه لها من هذا الإطار الفنى الدقيق .

---

(١) أغانى ١٠/٣٠٤ .

الفصل العاشر

الأعشى

١

قبيلته

ينتسب الأعشى إلى قبيلة بكر بن وائل الكبيرة التى كانت تمتد فروعها وبطونها فى شرقى الجزيرة من وادى الفرات إلى اليمامة . ومن أهم هذه الفروع والبطون شيبان ويَشْكر وجُشَم وعِجْل ، ثم حنيفة وقيس بن ثعلبة وكانتا تنزلان فى اليمامة ، وتتشعب قيس شعباً أهمها مالك بن ضُبَيْعة ومن عشائرهم بنو عَبْدان وبنو كعب ، وربيعة ابن ضبيعة ومن بيوتاتهم بنو جَحْدر ، وسعد بن ضبيعة وإليهم ينتمى الأعشى .

وتاريخ عشيرة بنى سعد بن ضبيعة فى العصر الجاهلى يندمج فى تاريخ قبيلتها الكبيرة ، فقد وقفت معها فى حروب البسوس التى ظلت أربعين عاماً ، كما وقفت معها فى يوم الكُلاب ، ودخلت معها بعد هذا اليوم فيما دخلت فيه من الولاء للمناذرة وطالما نصرتهم فى حروبهم مع الغساسنة . ولما طلب كسرى أبرويز النعمانَ بن المنذر احتمى هو وأسرته ببنى شيبان إحدى قبائل بكر وخلّف عند سيدهم هانئ بن قبيصة الشيبانى أولاده وسلاحه الذى يقال إنه بلغ نحو ألف درع . وقتل كسرى النعمان كما مرَّ فى غير هذا الموضع وولّى على الحيرة إياس بن قبيصة الطائى ، فثارت شيبان وقبائل بكر ضده وأخذت جموعها تغير على سواد العراق ، فاضطر كسرى أن ينازلها . ودارت على جيوشه الدوائر فى يوم ذى قار المشهور الذى انتصر فيه العرب على الفرس ، وقد اختلف المؤرخون فى توقيت تاريخه[1] .

ولم تشترك قيس بن ثعلبة فى هذه الحروب وحدها ، فقد أسهمت مع بنى حنيفة

---

(١) انظر فى يوم ذى قار الأغانى (طبعة الساسى) ٢٠/١٣٢ والطبرى (طبعة دى غويه) ١/١٠١٥ ، ١/١٠٢٨ وما بعدها . وابن الأثير ١/٢٩٠ والعقد الفريد ٦/١١١ . وراجع معجم ما استعجم للبكرى ومعجم البلدان لياقوت فى « ذى قار » .

وغيرها من البكريين فى حروب ضد تميم وغيرها من القبائل . وقد تقع حروب ومناوشات داخلية بين عشائرها ، مثلها مثل بقية العشائر فى الجاهلية إذ كانت كثيراً ما تنشب بينها خلافات تؤدى إلى بعض الدماء . ويظهر أنها على الرغم من استقرارها فى اليمامة وسكناها بعض القرى مثل « منفوحة » كانت تنزع إلى حياة البداوة وما يتصل بها من رعى الإبل والغنم ، ولعل ذلك ما جعل الأعشى يهجو إياداً فى بعض شعره بأنها تعتمد على الزراعة يقول[1]:

لسنا كمن جعلتْ إيادُ دارها   تَكْرِيتَ تنظر حَبَّها أن يُحْصَدَا

جعـــل الإلهُ طعامنا فى مالنا   رزقاً تضمَّنه لنا لن يَنْفَدَا[2]

مثلَ الهضاب جِزارةً لسيوفنا   فإذا تُراع فإنها لن تُطْرَدا[3]

ضَمِنتْ لنا أعجازُهن قُدورنا   وضُروعُهنَّ لنا الصَّريحَ الأَجْرَدَا[4]

وواضح أنه يصرِّح بأن إياد تعتمد على الزراعة والحصاد ، أما هم فما لهم الإبلُ التى لا تنفد ، وهى إبل ضخمة كالهضاب ، يعقرونها لضيوفهم ، ولا يلم بها من يروعها أو يغير عليها خوفاً من بَسالتهم ، وهى تملأ قدورهم بلحمها وبيوتهم بألبانها .

وعلى العكس كان أبناء عمومتهم من بنى حنيفة أكثر استقراراً ، وقد اتخذوا الحِجر قصبةً لهم ، وكان سيدهم فى أواخر العصر الجاهلى هَوْذَة بن على ، وكان يحمى القوافل الفارسية فى طريقها إلى اليمن ، ولعله من أجل ذلك وقف بعيداً بقبيلته عن يوم ذى قار ، فلم تشترك فيها . وأغلب الظن أن هذه القبيلة لم تعتمد على الرعى وحده شأن قبيلة الأعشى ، بل كانت تعتمد أيضاً على الزراعة ، فكانت نصف حضرية . وقد شاعت فيها النصرانية ، أما قيس بن ثعلبة فظلت فى جملتها وثنية تعبد الأصنام . وليس هذا كله ما بينهما من خلاف ، فبينما حنيفة لا يُعْرَفُ

---

(١) ديوان الأعشى طبعة جاير . القصيدة رقم ٣٤ ، الأبيات : ٣٣ وما بعده .

(٢) المال هنا : الإبل .

(٣) جزارة : مصدر جزره أى ذبحه ومنه يسمى البعير جزوراً .

(٤) الصريح : اللبن الخالص . الأجرد : الصافى .

لها شاعر مذكور فى الجاهلية[١] إذا قيس كثيرة الشعر والشعراء ، وقد يكون ذلك بسبب بداوة قيس وكثرة الحروب التى عانتها ، يقول ابن سلام : « وبالطائف شعر وليس بالكثير ، وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التى تكون بين الأحياء . والذى قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذى قلل شعر عُمان[٢] » ونقول أيضاً إنه الذى قلل شعر حنيفة فى اليمامة .

أما قيس بن ثعلبة فقد كانت كثيرة الحروب ، فكانت تغير ويُغار عليها ؛ وفى أثناء ذلك ينشد لها شعراؤها القصائد والأناشيد المحمِّسة ، فنما الشعر فيها وازدهر ، وقد اشتهر فيها غير شاعر من مثل المرقِّش الأكبر والمرقش الأصغر والمتلمِّس وابن أخته طرفة والمسيَّب بن علس . وقد أنشدنا فى غير هذا الموضع قطعة طرفة فى المعلقة التى يصور فيها فتوته وأنه ينفق حياته فى الكرم والحرب والنساء والخمر . ونجد هذه الروح فى شعر المرقشين ، كما نجد عندهما غزلا خفيفاً رقيقاً ؛ ولكل منهما قصة عشق مأثورة .

٢

حياته

عاش الأعشى فى أواخر العصر الجاهلى ، وليس بين أيدينا شىء واضح عن نشأته ، وكل ما يقوله الرواة أنه وُلد بمنفوحة فى اليمامة وأن أباه كان يلقَّب بقتيل الجوع « لأنه دخل غاراً يستظلّ فيه من الحرّ ، فوقعت صخرة عظيمة من الجبل ؛ فسدَّت فم الغار ، فمات فيه جوعاً » ، وفى ذلك يقول جُهُنَّام يهجوه ، وكانا يتهاجيان :

أبوك قَتيلُ الجوع قَيْسُ بنُ جَنْدَلٍ　　　وخالُك عَبْدٌ من خُماعةَ راضعُ[٣]

وخُماعة — فيما يظهر — جدٌ بعيد لأمه ، وهى أخت المسيّب بن علس ، وعنه حمل الشعرَ الأعشى ، إذ كان راويته ، ولا شك فى أنه روى لغيره من شعراء قبيلته ، فهو امتداد لهم جميعاً .

---

(١) ابن سلام ص ٢٣٤ .
(٢) ابن سلام ص ٢١٧ .
(٣) أغانى (طبعة دار الكتب) ٩ / ١٠٨ .

واسم الأعشى ميمون ، وإنما سمى الأعشى لضعف بصره ، ومن أجل ذلك كان يكنى بأبى بصير[١] . وإذا كنا لا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته فإنه يتبين لنا من أخباره ومن اسمه « صَنَّاجة[٢] العرب » أنه انتقل بالشعر الجاهلى نقلة ، فإن كلمة صنَّاجة تعنى أنه كان يتغنى بشعره ، ويبالغون فى ذلك حتى يجعلوا كسرى يستمع لبعض غنائه فيه[٣] ! !

وتدلّ أخباره وأشعاره على أنه كان كثير التنقل والأسفار البعيدة فى أنحاء الجزيرة يمدح سادتها وأشرافها ، وفى ديوانه مديح للأسود بن المنذر وأخيه النعمان وإياس بن قبيصة الطائى والى الحيرة من بعده ، ويظهر أنه كان يقيم بها كثيراً . وفيه أيضاً مديح لقيس بن معديكرب الكندى ولسلامة ذى فائش أحد أمراء اليمن ولبنى عبد المَدَان بن الديّان سادة نجران ولهَوْذَة بن على سيد بنى حنيفة . وكان يفد على سوق عكاظ . ويمدح من يمرّ به فى طريقه إليها من شيوخ العرب وأشرافهم[٤].

ولا يكتفى الرواة بما يدل عليه شعره من الرحلة إلى الحيرة واليمن وديار كندة فى حضرموت ونَجْران وعكاظ بل يذهبون به إلى الفرس وعُمان وبلاد الشام متغلغلا فيها إلى حمص وأورشليم (بيت المقدس) ويجتازون به البحر إلى نجاشى الحبشة ، ويُجْرون على لسانه شعراً يتحدث فيه عن هذه الرحلات البعيدة ، فيقول[٥] :

وقد طُفْتُ للمـــال آفاقَه   عُمـــانَ فَحِمصَ فأورِيشَلِمْ
أتيتُ النجاشىَّ فى أَرضِهِ   وأَرض النَّبيط وأَرضَ العجمْ

وأكبر الظن أنه لم يصنع شيئاً من ذلك وأنه إنما اقتصر فى أسفاره ورحلاته على أطراف اليمن ونجد والحيرة يمدح شيوخ العرب وسادتهم . ووقع — كما يقول الرواة — فى بعض رحلاته بديار بنى عامر ومعه هداياه من بعض ممدوحيه ، فخشى على نفسه وعلى هداياه ، فاستجار بعلقمة بن عُلاثة ، فقال له قد أجرتك ، فقال له الأعشى من الجن والإنس ؟ قال : نعم ، قال الأعشى : ومن الموت ،

---

(١) ذهب ابن قتيبة إلى أنه كان أعمى . انظر الشعر والشعراء (طبع دار المعارف) ١/٢١٢.
(٢) أغانى ٩/١٠٩ .
(٣) أغانى ٩/١١٥ والشعر والشعراء ١/٢١٤.
(٤) أغانى ٩/١١٣ وما بعدها .
(٥) ديوانه القصيدة رقم ٤ وقارن بالقصيدة رقم ٦٣ .

فقال : لا . وتمضى القصة فتذكر أن علقمة كان قد اختلف مع ابن عمه عامر ابن الطُّفَيْل على سيادة القبيلة ، وتنافرا منافرة حادة، اشترك فيها كثير من الشعراء، فكان مع علقمة مروان بن سُراقة والحطيئة ومع عامر لبيد الشاعر المشهور . ولما لم يُجِرْ علقمة الأعشى من الموت أتى عامر بن الطفيل فقال له : أجِرْنى قال : قد أجرتك . قال : من الجن والإنس ؟ قال : نعم . قال : ومن الموت قال : نعم . قال : وكيف تجيرنى من الموت ؟ قال : إن مت وأنت فى جوارى بعثت إلى أهلك الدية . فقال : الآن علمت أنك قد أجرتنى من الموت . فمدح عامراً وهجا علقمة[1] .

والأعشى فى شعره لا يعيش لمديح السادة والأشراف وأخذ نوالهم فحسب ، بل هو يعيش أيضاً لقبيلته ومنازعاتها الكثيرة مع بكر ضد الفرس ، ففى ديوانه مطولة يهددهم فيها ويتوعدهم كما يتوعد من يقف معهم من العرب مثل إياد[2] ، وهو يعيش كذلك فى منازعات قبيلته مع بنى شيبان ، فيتعرض بالوعيد والتهديد ليزيد بن مُسْهِر الشيبانى ، على نحو ما تصور ذلك معلقته . فإذا حدثت منازعات صغرى بين عشيرته وأبناء عمومتهم من عشائر قيس بن ثعلبة ناصرها ذاكراً ما بينهم وبينها من أواصر الرحم ، على نحو ما نرى فى قصائده التى وجهها إلى بنى جَحْدَر وبنى عَبْدان . وقد اصطدم عند الأخيرين بشاعرهم جُهُنَّام ، فتهاجيا طويلا .

ويقال إنه لما سمع بالرسول صلى الله عليه وسلم وانتصاراته وانتشار دعوته رغب فى الوفود عليه ومديحه، وعلمت قريش بذلك فتعرضت له تمنعه، وكان مما قاله له أبو سفيان بن حَرْب: إنه ينهاك عن خلال ويحرِّمها عليك، وكلُّها باك رافق ولك موافق ، قال : وما هنّ ؟ فقال أبو سفيان : الزنا والقمار والرِّبا والخمر . فعدل عن وجهته ، وأهدته قريش مائة من الإبل ، فأخذها وانطلق إلى بلده معرضاً عن الرسول ودعوته ، فلما كان بقاع منفوحة رمى به بعيره، فقتله[3] سنة ٦٢٩ للميلاد .

وهذه الخلال التى ذكرها أبو سفيان والتى جعلته يصدّ عن لقاء الرسول الكريم تدل على أنه كان وثنيًّا مغرقاً فى وثنيته ، وفى شعره نفسه ما يصوِّر معالم هذه الوثنية ،

---

(١) انظر فى هذه المنافرة وصلة الأعشى بها الأغانى (طبعة الساسى) ١٥/٥٥ وديوان الأعشى ص ١٦٥ .

(٢) الديوان ، القصيدة رقم ٣٤ .

(٣) أغانى ٩/١٢٥ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٢١٢ .

إذ نراه كثير الحديث عن القيان مثل هُرَيْرة وقُتَيْلة وجُبَيْرة . بل إنه ليتحدث عن البغايا اللائى يبعن أعراضهن[١] . ويقرنه ابن سلام فى هذا الصدد بامرئ القيس فيقول : « وكان من الشعراء من يتألَّه فى جاهليته ويتعفف فى شعره ولا يستهر بالفواحش . . ومنهم من كان يتعهَّر ولا يبقى على نفسه ولا يتستر : منهم امرؤ القيس ومنهم الأعشى[٢] » . وقد تمدح فى شعره كثيراً بالقمار كقوله مفتخراً بعشيرته[٣] :

من شبابٍ تراهمُ غير مِيلٍ وكهـولاً مَراجِحاً أَحْلاما[٤]
ولقد تُصْلَقُ القِدَاحُ على النِّـ يب إذا كان يَسْرُهنَّ غَرامـا[٥]

فهم يضربون قداح الميسر على النوق الضخمة التى يتأبى غيرهم أن يضربها عليها اعتزازاً بها . أما الخمر فهو أكبر شاعر تغنى بها فى الجاهلية .

وطبيعى لمن تكون حياته على هذا النحو من المجون والإثم فيه أن يكون وثنيًّا متعمقاً فى وثنيته وأن لا يعتنق الإسلام ولا غير الإسلام من الأديان السماوية ، وقد زعم لويس شيخو أنه كان نصرانيًّا ، وشاركه فى هذا الزعم بعض المستشرقين مستدلين على ذلك بأنه كان يمدح أساقفة نجران ويتصل بالبيئات المسيحية فى الحيرة وبمثل قوله فى القصيدة رقم أربع وثلاثين :

رَبِّى كريـمٌ لايكدِّر نعمةً وإذا يناشَدُ بالمهارق أَنْشَدَا

والمهارق هنا الصحف الدينية . فكأنه يعترف بأنه نصرانى : ترتِّل لربه الأناشيد الكنسية ، غير أن هذا ليس حتماً ، فقد تكون لدى الوثنيين من الجاهليين مهارق كانوا يتلون فيها بعض أدعيتهم ، وقد يكون البيت دخيلا على القصيدة ، وسنعرف بعد قليل أن راوى ديوانه كان مسيحيًّا ، وأغلب الظن أنه هو الذى أدخل هذا البيت فى القصيدة ، كما أدخل فى قصيدة أخرى قَسمه بالمسيح فى قوله[٦] :

---

(١) الديوان ، القصيدة رقم ٢٢ .
(٢) ابن سلام ص ٣٤ ويستهر فى الفواحش : يتبجح بذكرها ويفصح عما حقه أن يكتم .
(٣) الديوان ، القصيدة رقم ٣٨ .
(٤) ميل : جمع أميل وهو الجبان . مراجحاً : راجحى العقول .
(٥) تصلق : تضرب. النيب : الإبل الكبيرة. اليسر : القمار .
(٦) انظر الديوان ، القصيدة رقم ٢٣ البيت ١٦ .

وإني وربِّ الساجدين عَشِيَّةً | وما صَكَّ ناقوسَ النصارى أَبِيلُها[١]

وقد جعله فى قصيدة ثالثة يقسم براهب اللُّجِّ ، بل بثوبه[٢]. وقد يكون فى ذلك ما يدل على أن القصيدتين جميعاً موضوعتان فقد كان الأعشى وثنيًّا غالياً فى وثنيته ، كما تدل على ذلك خلاله التى وصفناها فى شعره ، وأيضاً أقسامه الوثنية التى رواها نفس هذا الراوى المسيحى ، إذ نراه يقسم بالكواكب والنجوم[٣] ، كما يقسم بالكعبة التى يحج إليها العرب وبما يهدون إليها من القرابين فى مثل قوله[٤] :

إنى لعمرُ الذى خطَّت مَناسِمُها | تَخْدِى وسِيق إليه البَاقِرُ الغُيُــلُ[٥]

والحق أنه لم يكن نصرانيًّا ، إنما كان وثنيًّا على دين آبائه ، وقد احتفظ فى وثنيته بكل ما كان فيها من إثم وفجور .

٣

ديوانه

للأعشى ديوان كبير نشره جاير فى لندن[٦] سنة ١٩٢٨ وقد اعتمد فى نشره على مخطوطة فى الإسكوريال برواية ثعلب المتوفى سنة ٢٩١ للهجرة ثم مخطوطة دار الكتب المصرية ونسختين نُقلتا عنها فى استراسبورج وزاخو ، ومخطوطة فى باريس وأخرى فى ليدن . وأضاف إلى الديوان ملحقين بما وجده من شعر الأعشى فى كتب الأدب وما وجده من أشعار لمن لقِّبوا بالأعشى وهم كثيرون .

وكان اعتماده الأساسى على مخطوطة الإسكوريال ، لأنها برواية ثعلب ، وعلى الرغم من أنها تنقص أوراقاً من نهايتها تحتفظ للأعشى بسبع وسبعين قصيدة ومقطوعة . وقد أضاف إليها خمس قصائد من المخطوطات الخمس الأخرى ، وجميعها تتفق فى رواية خمس عشرة قصيدة له . كما تتفق فى أنها مجهولة النسب . ولذلك لا يمكن الاعتماد

---

(١) صك : ضرب . الأبيل : الراهب .
(٢) القصيدة رقم ١٥ البيت ٤٤ .
(٣) القصيدة رقم ٢٧ البيت ١٨ .
(٤) القصيدة رقم ٦ البيت ٦٢ .
(٥) خطت : شقت التراب . المناسم : جمع منسم وهو طرف الخف . تخدى : تسرع فى السير مع اضطراب . الباقر : اسم جمع للبقر . الغيل : جمع غيول وهو الكثير .
(٦) شرح محمد حسين هذا الديوان ونشره بمكتبة الآداب بالقاهرة سنة ١٩٥٠ .

على هذه المخطوطات وأغلب الظن أنها مختارات جُمعت من نسخة ثعلب ، وليس رواية مقابلة لها . وقد صورت دار الكتب المصرية مخطوطة من المكتبة المتوكلية اليمنية بها ست وأربعون قصيدة ومقطوعة للأعشى ، ويفجؤنا كاتبها فى فاتحتها بأن هذا كتاب فيه من شعر الأعشى ، فهى لا تتضمن ديوانه إنما تتضمن مختارات منه ؛ وهى مختارات تدل على أنها جُمعت من نفس الرواية الكوفية ؛ وإن كنا نجد فيها قصائد غير مثبتة فى رواية ثعلب ، ولكن هذا لا يقوم دليلا على أنها لم تشتق من روايته ، فروايته التى نشرها جاير كما قدمنا غير كاملة ؛ إذ تنقص بعض أوراق . ومعنى ذلك أننا نفتقد فى شعر الأعشى الرواية البصرية ، فيما عدا القصيدتين رقم ٦ ، ١١ فقد نصّ شارح الديوان على أن أبا عبيدة قرأ الأولى على أبى عمرو بن العلاء وأن الأصمعى سمع أبا عمرو ينشد الثانية حفظاً . ونصّ الشارح أيضاً على أن القصائد ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٦٦ برواية أبى عمرو ، وظن جاير — كما ذكر فى مقدمته — أنه أبو عمرو بن العلاء ، وليس بصحيح إنما هو أبو عمرو الشيبانى ، فهو الذى كانت تُروَى عنه الدواوين ، وهو راوية كوفى ينقل عنه السكرى وثعلب وأضرابهما من رواة الدواوين . على أن الشارح نصّ فى القصائد ١ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ أنها من رواية أبى عبيدة البصرى ، وإن كنا نلاحظ أن القدماء شكوا فى القصيدة رقم ٦٠ وقالوا إنها لابن دأب[1] . على كل حال ليس بين أيدينا رواية بصرية كاملة للديوان ، إنما بين أيدينا رواية كوفية فيها إشارات إلى بعض ما تضمنته الرواية البصرية .

فإذا لاحظنا أن الرواية الكوفية للشعر الجاهلى غير دقيقة وأنها تتزيد فيه كما لاحظنا سابقاً فى دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير كان من الواجب ألا نقبل روايتها لديوان الأعشى دون احتياط واحتراس شديد ، وقد تصادف أن راويته الذى حمله عنه وأذاعه فى الناس كان نصرانيًّا معمَّراً هو يحيى[2] أو يونس بن متى وأن هذا الراوى من الممكن أن يكون قد عبث بالديوان فأدخل فيه ما ليس منه ؛ ليزيد بعض المعانى المسيحية ، وقد رُوِىَ عنه أنه كان يقول : «كان الأعشى قَدَريًّا إذ يقول :

استأْثرَ اللهُ بالوفاء وبالـ ... ـعَدْلِ وولَّى الملامةَ الرجُلا

---

(١) الديوان ص ٢٠٧ .

(٢) الأغانى ٩ / ١١٢ ومصادر الشعر الجاهلى ص ٢٣٨ .

فسأله سائل : من أين أخذ الأعشى قوله ومذهبه فأجاب : « من قِبَل العِباديين نصارى الحيرة ، كان يأتيهم يشترى منهم الخمر ، فلقّنوه ذلك[١] » . ويبعد أن يكون الأعشى حقًّا قد تغلغل نظره كل هذا التغلغل ، فإذا هو يقول بالقدر وأن الإنسان حُرٌّ فى تصرفاته ، ولا يكتفى بذلك ، بل يقول بالعدل على الله كما تقول المعتزلة ، والمعقول أن يكون يحيى هو الذى وضع البيت ، بل لقد شك ابن قتيبة فى القصيدة جميعها ، وقال بعد أن روى طائفة من أبياتها هذا شعر منحول[٢] . وينبغى أن نشك كما شك ابن قتيبة فى قصائد الأعشى الأخرى التى تصور أفكاراً مسيحية أو أفكاراً إسلامية ، أما الأفكار المسيحية فلأن راويه الذى نشره نصرانى ، وأما الثانية فلأنها معان جديدة لم تعرفها الجاهلية ، لا هى ولا كل ما يتصل بها من ألفاظ القرآن وأساليبه . ويصور ذلك تصويراً واضحاً قصيدته رقم ١٧ التى قالوا إنه مدح بها الرسول صلوات الله عليه ، مع أنه — كما قدمنا — لم يلقه وصدّته قريش عن لقائه ، وبمجرد أن نقرأ القصيدة وقوله فيها :

إذا أنت لم تَرْحَلْ بزادٍ من التُّقَى ... ولاقيتَ بعد الموت من قد تزوَّدا

نَدِمتَ على أن لا تكون كمثلهِ ... وأنك لم تُرْصِدْ لما كان أَرْصَدَا[٣]

فإياك والميْتَـــات لا تـأكلنَّها ... ولا تـأخذَنْ سهماً حديدًا لِتَفْصِدَا[٤]

وذا النُّصُبَ المنصوبَ لا تَنْسُكَنَّه ... ولا تَعْبُدِ الأوْثانَ والله فاعبُدَا[٥]

وصَلِّ على حينِ العشيَّاتِ والضُّحَى ... ولا تحمَدِ الشيطانَ واللهَ فاحْمَدَا

ولا السائلَ المحرومَ لا تتركَنَّهُ ... لعاقبةٍ ولا الأسيرَ المقيَّدا

ولا تَسْخَرَنْ من بائسٍ ذى ضرارةٍ ... ولا تحسبنَّ المرء يوماً مخلَّدَا[٦]

ولا تقربنَّ جارةً إنَّ سِرَّها ... عليك حرامٌ فانْكِحَنْ أوتأبَّدَا[٧]

---

(١) الأغانى ٩ / ١١٣ وما بعدها .
(٢) الشعر والشعراء (طبعة دار المعارف) ص ١٤ .
(٣) أرصد : أعد وهيأ .
(٤) يشير إلى أنه لابد من الذبح كما تقضى تعاليم الإسلام .
(٥) النصب : حجارة كانوا ينصبونها حول الكعبة ويقدسونها أو هى الأوثان .
(٦) الضرارة : ذهاب البصر أو النقص فى الأنفس والأموال .
(٧) السر هنا : البضع . النكاح : الزواج . التأبد : البعد عن النساء والتعزب .

نعرف توًّا أنها موضوعة ، لا لأنه فيها يدعو إلى تعاليم إسلامية فحسب ، بل لأنه ينظم فيها آيات قرآنية من مثل قوله تعالى: (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) وقد نظم فى البيتين الثالث والرابع قوله تعالى : (حُرِّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به) أما فى البيت الخامس فنظم قوله تبارك وتعالى : (واذكر ربك كثيراً وسَبِّحْ بالعشى والإبكار) . ونظم فى البيت السادس قوله جَلَّ وعز : (والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) . وفى البيت السابع نظم قوله جَلَّ ذكره : (يا أيها الذين آمنوا لا يَسْخَرْ قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم) أما البيت الثامن فنظم فيه مثل قوله تعالى : (ولا تَقْربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) وقوله : (ولْيَسْتَعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يُغْنِيَهم الله من فضله) .

وواضح من هذا كله أن القصيدة منتحلة ، وهى لا تتفق فى شىء ونفسية الأعشى ، وما كان ليسمع القرآن ويؤمن بتعاليمه على هذا النحو ، ثم ينصرف عن رسوله الكريم وهديه . ونحن لا نشك فقط فى هذه القصيدة ، بل نشك كذلك فى القصائد الأخرى التى تردِّدُ معانى الإسلام ومثاليته الخلقية أو تردد بعض المعانى المسيحية . وبهذا القياس نتهم قصيدته رقم ٥ لقوله فيها يمدح قيس بن معد يكرب الكندى :

وما أَيْبُلِىٌّ على هَيْكَلٍ ... بناه وصلَّبَ فيه وصارا(١)

يُراوِحُ من صَلوات المليـ ... ـك طورًا سجودًا وطورًا جُؤَارا(٢)

بأَعظم منه تُقًى فى الحساب ... إذا النَّسَماتُ نَفَضْنَ الغُبارا

وواضح أنه يصفه بالتقوى وأنه يراقب ربه ، ويقول إن الراهب الذى يصلِّب له فى هيكله ويصلى له ساجداً ويتضرع ليس أعظم منه تقوى وخشية ، حين تهب الريح اللينة نافضة للغبار . وقد نظم منتحلها قوله تعالى : « فإنه يعلم السرَّ وأخفى » فقال :

عطـاءَ الإلهِ فإن الإلـ ... ـه يسمع فى الغامضاتِ السِّرارا

---

(١) أيبلى : راهب . الهيكل : موضع فى صدر الكنيسة توضع فيه القرابين . صلب : صور الصليب بيده . صار : سكن .
(٢) الجؤار : التضرع بالدعاء .

ومثلها القصيدة رقم ١٥ التى أنشد فيها منتحلها قسمه بثوبى راهب اللج فقال :

وإنى وثَوْبَىْ راهبِ اللُّجِّ والتى ... بناها قُصَىٌّ والمُضاضُ بن جُرْهُمِ (١)

وحقًّا أنه أضاف إلى ثياب الراهب القسم بالكعبة ، ولكن مما يزيد الشبهة فى القصيدة أننا نجد فيها هذا البيت ، يهجو به خصمه :

وما جعل الرحمنُ بيتك فى العُلا ... بأَجْيادِ غربىِّ الفِناء المحرَّم (٢)

ولم تشع كلمة الرحمن بين الشعراء إلا فى الإسلام أخذاً من قوله تعالى : (بسم الله الرحمن الرحيم) ، وقد دارت فى القرآن الكريم . ونقف نفس الموقف من القصيدة رقم ٢٣ للبيت الذى مر بنا والذى يقسم فيه بالمسيح وضرب الراهب للناقوس ، ومما لا شك فيه أن قوله فى قصيدة النعمان رقم ٢٨ :

فلا تحسبنِّى كافرًا لك نعمةً ... علىَّ شهيدٌ شاهدُ اللهِ فاشْهَدِ

مما يضعفها ، لأنه يلخص فكرة الملائكة الشاهدين المعروفة فى الإسلام . بد شك ابن قتيبة فى القصيدة رقم ٣٥ وبها بيت القدر الذى أنشده يحيى بن متى فيما أسلفنا . وتكاد تكون القصيدة رقم ٦٦ فى كثير من أبياتها نظماً لمواد قرآنية على هذه الشاكلة :

وربَّك لا تشركْ به إن شِرْكَهُ ... يَحُطُّ من الخيرات تلك البواقيا

بل اللهَ فاعبدْ لا شريك لوجهه ... يكنْ لك فيما تكدحُ اليوم راعيا

وقد مضى واضعها يدعو إلى تقوى الله وصلة الرحم وردّ الأمانات إلى أهلها والتعفف عن الجارة ، ويقول محذراً من معصية الله : « فإنك لا تخفى على الله خافياً » ويقول أيضاً : « كفى بكلام الله عن ذاك ناهياً ». فلاشك فى أن هذه القصيدة إسلامية . على أنها تلفتنا إلى شىء مهم ، وهو أن الأعشى أضيفت إليه أشعار تذهب مذهب العظة والاعتبار ، ولا نرتاب فى أن يحيى بن متى لعب فى ذلك

---

(١) اللج : غدير عند دير هند . ويريد بثوبيه أعماله الصالحة. ومعروف أن أمر الكعبة كان إلى جرهم ثم صار إلى قصى .

(٢) أجياد : موضع فى بطحاء مكة ، والفناء المحرم : حرم مكة .

دوراً كبيراً ، وقد تبعه القُصَّاص والوعاظ المسلمون يزيدون فى النسيج خيوطاً ، فإذا الأعشى كأنه واعظ من وعاظ الكوفة ، يتحدث إلى الناس حديث عظة عن الدهر وتقلباته والموت وما طوى من الملوك وأسباب ترفهم ونعيمهم ، وكيف يأتى على الناس ، فالكل إلى فناء ، ولا يبقى سوى وجه ربك ذى الجلال والإكرام . ولا يبدو ذلك فى قصيدة من ديوانه أو قصيدتين . بل إنه يجرى فى قصائد كثيرة ، واقرأ قصيدته ذات الرقم ٢ فإنك ستراه يستهلها بالحديث عن حياة الإنسان وما يلقى فيها من العناء والشقاء بالموت وما ينزل به من الأمراض والأحزان ، وكيف أن أحداً لا يستطيع الفرار من المنية ، ويسترسل فى الحديث عمن مات من الملوك الأولين . وفجأة يخرج إلى الحديث عن لذاته . ولعل من الطريف أن القدماء أنكروا القصيدة[1] . ومثلها القصيدة رقم ٤ وفيها يتحدث عن طوافه فى البلاد ، وقد أنشدنا منها فيما مر البيتين اللذين يذكر فيهما أنه زار أوريشليم والنجاشى فى أرضه، ولكن ليس هذا هو الذى نقف عنده فحسب ، فقد مضى يتحدث عن قصة حصن الحضْر وتخريب سابور له بجنوده ، ويُنْهِى قصته تلك بقوله

وفى ذاك للمُؤْتَسِى أُسْـوةٌ ومَأْرِبُ قَفَّى عليها العَرِمْ[2]

ويمضى فى هذه القصة قصة سد مأرب وخرابه وتشتت حمير فى البلاد ، متخذاً من ذلك عظة جديدة . وعلى هذا المثال قصيدته رقم ١٣ وفيها يحدثنا عن زرقاء اليمامة وكيف عصاها أهلها ولم يأتمروا بأمرها حين خوفتهم جيوشاً قادمة ، هى جيوش حسان تُبَّع ، وقدمت الجيوش فجعلت عاليها سافلها وحطمتهم حطماً ، وقد شك القدماء فى القصيدة وأنكروها[3] . وليس فى القصيدة رقم ١٤ ذكر للملوك الأولين ، ولكنها تحمل وصية خلقية بها كثير من الخيوط الإسلامية تجعلها أشبه بموعظة ، إذ لا يعد القريب قريب النسب ، وإنما هو قريب الود والبر ، ويقول إنه ليس عاقًّا ولا ذا نميمة ، وإنه لا ينتظر من الناس جزاءه وإنما ينتظره من ربه . ومثل هذه المعانى تجعلنا نشك فيها كما نشك فى القصيدة رقم ٣٣ وفيها حديث طويل عن فناء الحياة وأن كل شىء فيها إلى زوال ، فالكل هالك كما هلك ساسان

---

(١) انظر الموشح للمرزبانى ص ٤٩ .

(٢) العرم : سيل مشهور .

(٣) الموشح ص ٤٩ .

ملك الفرس وهرقل ملك الروم وكسرى شاهنشاه ، وهذا عادياء لم يغنه حصنه بتيماء الذى بناه سليمان ، ويسهب فى وصف الحصن ، وكذلك كان أمر النعمان إذ لم تنفعه أمواله ولا ما كان يُجبى إليه ، فلم يَنْجُ من القضاء . ومن هذا النمط نفسه قصيدته رقم ٣٦ التى يقول فيها :

إنما نحن كشىءٍ فاسدٍ فإذا أصلحه اللهُ صَلحْ

ويحدثنا عن هلاك الملوك الأولين مثل عمرو بن هند حديثاً كله عظة واعتبار ، فإن الناس هالكون لا محالة ، وكذلك يصنع فى قصيدته رقم ٣٩ ، ومثلها رقم ٥٣ أما القصيدة رقم ٥٤ فإنه يتحدث فيها عن قصر ريمان قصر الحميريين الذى تداوله الحبش والفرس وما أصابه من البلى والخراب . وقد أنكر القدماء نسبة المقطوعة رقم ٥٦ [١] إليه كما أنكروا أختها رقم ٦٠ وأشرنا إلى ذلك فيما أسلفنا ، وأبيات الأخيرة تختلط بأبيات القصيدة رقم ٧٢ ولذلك كنا نتهمها هى الأخرى ، وأنكر القدماء القصيدة رقم ٦٢ وقالوا إنها تختلط بشعر لنابغة بنى شيبان [٢] . ونراه فى القصيدة رقم ٧٩ يدعو لإياس بن قبيصة أن يجزيه الله جزاء نوح إذ أوحى إليه أن يصنع الفلك ليعصمه من الطوفان . ونلتقى فى نهاية الديوان بالقصيدة رقم ٨٢ وهى تلتقى فى بعض أبياتها بقصيدة رواها المفضل الضبى فى المفضليات لعوف بن الأحوص وهى فيها ذات الرقم ٣٦ ونسب الجاحظ بعض أبياتها فى الحيوان إلى مضرِّس [٣] بن زرارة ابن لقيط .

وليست هذه القصائد وحدها فى الديوان هى التى ينبغى أن لا نطمئن إليها ، لما يداخلها من الوعظ والمعانى الإسلامية والمسيحية ، فقد أضاف إليه الرواة الوضاعون غير قليل من القصائد والأشعار ، ويمكننا معرفة وضعها من عرضها على تقاليد الشعر الجاهلى وأسلوب الأعشى نفسه فى مطولاته التى لا يعتورها الشك . وقد تأخذ القصيدة شكلا قصصيًّا غير مألوف لدى الشعراء الجاهليين . وإذا أخذنا نقرأ فى الديوان على هذه الأسس وجدنا غير قليل من القصائد يستوقفنا ، من ذلك القصيدة رقم ١٢ لما يصور فيها من قصة عماه وقائده ، وتدل رحلاته الكثيرة أنه كان ضعيف

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٦٦ وانظر الديوان ص ٢٠٤ .

(٢) الديوان ص ٢٠٨ .

(٣) الحيوان ٥/٧٨ .

البصر ولم يكن مكفوفاً ، ومثلها القصيدة رقم ٢٠ للين أسلوبها وضعفه، وهو أشبه بأساليب العباسيين . ونراه فى القصيدة رقم ٢٥ يسوق فى تفصيل قصة السموأل وما كان من إيداع امرئ القيس عنده مائة درع قبل رحيله إلى قيصر وحصار الحارث بن ظالم أو الحارث الغسانى له حتى يأخذها وتحصنه منه بحصنه ، ومفاجأته له بأحد أبنائه ، وكان يصطاد ، وقوله له إما أن تسلم الأدراع إلىّ وإما أن أقتل ابنك ، وأبى السموأل أن يسلم الأمانة وفاءً ، وقتل الحارث ابنه تحت عينه . وهى قصة مشكوك فى أصلها ، ويزيدها شكًّا فى قصيدة الأعشى أنه رواها مفصلة بصورة تدل على أنها موضوعة ، وربما وضعها أحد أولاد السموأل فى الإسلام ، ومن أجل ذلك نشك فى القطعة رقم ٢٤ التى تقدّم لها . وإذا تقدمنا فى الديوان وأعدنا النظر فى القصيدة رقم ٣٩ التى اتهمناها لما فيها من حديث عن هلاك القرى والأمم لاحظنا أنها تتضمن فى نحو عشرين بيتاً قصة غزلية ، يصور لنا فيها كيف بعث لصاحبته رسولا شيطاناً لا يخشى الرقباء ، وكيف تخلص إليها هذا الرسول فنازعها الحديث مخافتاً ، حتى إذا أنكرته ظل يغويها حتى أسلس له قيادها ، فشاورها متى يأتيها الأعشى وكيف يدخل إليها ، ويحدثنا أنه ألم بها وقد غفل الرقباء ، وبات إلى جنبها لا يفصلهما حجاب ، ويمضى فيصف مبيته عندها وصفاً صريحاً . وليس من ريب فى أن هذه القصة تعلن بدورها عن انتحال القصيدة وأنها موضوعة ، ولكن ليس هذا ما نريده ، إنما نريد أن نقول إنه ينبغى أن نشك فيما يجرى مجرى هذه القصيدة المنتحلة وقصتها الغزلية . ومن أجل ذلك كنا نشك فى القصيدة رقم ٥٢ وخاصة أنها غزل ووصف خالص ، وليس لها موضوع من مديح أو فخر أو هجاء كما تعودنا عنده ، ومما يزيدنا شكًّا فيها استرساله فى الخيال مع كل ما يشبّه صاحبته به ، وخاصة حين شبه مذاق ريقها بطعم الزنجبيل والتفاح ممزوجين بعسل النحل . فقد أخذ فى وصف من يشتار العسل ويجنيه ، ولم يكن العسل واشتياره مما تُعْرَفُ به قيس بن ثعلبة فى الجاهلية ، إنما كانت تعرف به هذيل . ونقف نفس الموقف من القصيدة رقم ٥٥ لكثرة ما فيها من ألفاظ فارسية ، وكذلك القصيدة رقم ٦٣ لأنها تفتقد الغرض الواضح ، وكأن من نحلوها الأعشى أرادوا بها أن يجروا على لسانه حديثه عن أسفاره البعيدة إلى الغساسنة فى الشام وبنى الجُلُنْداء

فى عُمان وغيرهم . وليس فى القصيدتين رقمى ٦٤ و ٦٥ غرض واضح إنما فيهما غزل وخمر أو غزل ووصف ، ولذلك كنا نشك فيهما كما نشك فى القصيدة رقم ٧٦ ؛ لأنها كما يقول رواتها فى مديح قيس بن معد يكرب ، وليس له فيها سوى ثلاثة أبيات فى مطالعها ثم تمضى القصيدة فى الغزل والخمر ، وهى صورة معكوسة للصورة الطبيعية عنده ، إذ يبدأ بالغزل ، ثم يطيل فى المدح . ونحن نشك أيضاً فى القصيدة التى تليها برقم ٧٧ لا لغزلها الماجن فحسب ، بل لأن هذا الغزل يستنفد منها ٢٤ بيتاً ، ويليه وصف للناقة فى ٣ أبيات وفخر لا يتجاوز ٥ أبيات . ومثلها القصيدة رقم ٧٨ إذ نراه يصور فيها لهوه ومجونه فى ٢٢ بيتاً ، ثم يترك لممدوحه ٥أبيات. ومثلهما القصيدة رقم ٨٠ وهى غزل خالص أُودع فى أسلوب ركيك . أما القصيدة رقم ٨١ فاعتذار لعلقمة بن عُلاثة أجراه الوضاعون على لسانه حتى يمحوا هجاءه المقذع فيه ، وما كان ليهجوه فى قصيدتين مطولتين ويدور هجاؤه له فى العرب ثم يعتذر له بستة أبيات .

وإذا أضفنا إلى هذه القصائد التى شككنا فيها مقطوعاته القصيرة التى لا تتجاوز أحياناً بيتاً والتى لا نستطيع أن نقيم عليها مراصد نمتحنها بها لقصرها وهى ذوات الأرقام ٣١ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ . ٥١ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ استطعنا أن ندرس ما بقى له دراسة نطمئن إليها على الأقل بعض الاطمئنان . ولم يبق له قليل بعد هذا الفحص للديوان ، بل إنه كثير ، إذ يتضمن القصائد ذوات الأرقام : ١ ، ٣ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٣ . على أن أعلاها ثقة هى القصائد ذوات الأرقام ١ ، ٦ ، ١١ ، ٢٩ ، ٣٤ ؛ لأن الشارح أسند الأولى والاثنتين الأخيرتين إلى أبى عبيدة كما أسند الثانية والثالثة إلى أبى عمرو بن العلاء ، فتلك القصائد إذن من رواية البصرة التى نرفعها على رواية الكوفة فى التوثيق . على أننا نضرب صفحاً عما ألحقه جاير ناشر الديوان به من أبيات وأشعار وجدها تنسب للأعشى فى بعض الكتب ، إذ بمجرد النظر فيها نعرف خطأ نسبتها إليه أو على الأقل خطأ نسبة الكثير الأكثر منها .

٤

شعره

يمتاز الأعشى بكثرة قصائده الطويلة ، كما يمتاز بكثرة تصرفه فى فنون الشعر من مديح وهجاء وفخر ووصف وخمر وغزل . أما المديح فقد قالوا إنه أول من سأل بالشعر واستجدى بالقريض[1] واتخذه متْجَراً يطوف به البلاد[2] ، وحقًّا سبقه غير شاعر إلى المديح كزهير والنابغة ، ولكن أحداً منهم لم يحرص على الاستعطاء وطلب النوال كما حرص الأعشى فقد طاف فى أطراف الجزيرة العربية يمدح السادة والأمراء ، ذاكراً ما يفيضون عليه من الإبل والجياد والإماء وصحاف الفضة وثياب الخز والديباج ، منوهاً فى أثناء ذلك بسؤاله لهم ، غير مُبْقٍ على شيء من نفسه . ومعانى المديح عنده لا تفترق عن المعانى العامة فى مدائح الجاهليين ، فهو ما يني يمدح بالكرم والشجاعة والوفاء وعَوْن الضعفاء فى القبيلة ، وكثيراً ما يعرض لجيوش ممدوحه إذا كان أميراً أو شيخاً لقبيلته مصوراً ما تنزله على الأعداء من التقتيل والنكال ، وقد يطيل فى وصف ما تشنه من غارات على الأعداء ، وفى تضاعيف ذلك يورد على ممدوحه ثناء مفرطاً .

ومن أهم ما يميز مديحه بالقياس إلى الجاهليين كثرة إسرافه فيه ، ولا نقصد الإسراف فى الأوصاف من حيث هى وإنما نقصد الغلوّ فيها والإفراط ، بحيث يُعَدّ مقدمة لمبالغات العباسيين فى مدائحهم ، وقد يكون ذلك من أثر رغبته الشديدة فى العطاء ، وقد يكون من أثر الحضارات التى ألمّ بها فى طوافه ، وهذا هو معنى ما نقوله من أنه يشبه العباسيين ، فذوقه فى المديح يقترب من ذوقهم وما نعرفه عندهم من غلوّ دفعهم إليه ملق الخلفاء والوزراء بنفس الباعث الذى بعث الأعشى على إفراطه فى مديحه ، ونقصد طلب النوال والعطاء الجزيل . واقرأ له هذه القطعة من مديحه لقيس بن معديكرب إذ يقول :

وسَعَى لِكِنْدَةَ سَعْىَ غيرِ مُواكِلٍ قَيْسٌ فَضَرَّ عـدوَّها وبَنَى لها

---

(١) ابن سلام ص ٥٤ .

(٢) العمدة لابن رشيق (الطبعة الأولى) ١/ ٤٩ .

وأهــان صالحَ مالِهِ لفقيرها ... وأسَى وأصلحَ بينها وسعى لها[1]

فترى له ضُراً على أعــدائِه ... وترى لنعمته على مَنْ نالها

أثراً من الخَيْرِ المزيِّن أهــلَهُ ... كالغيث صابَ ببلدةٍ فأسالها[2]

وإذا تجيء كتيبــة ملمومةٌ ... خَرْساءُ يخشى الدَّارِعون نِزالها[3]

كنتَ المقدَّم غير لابسٍ جُنَّةٍ ... بالسيف تضرب مُعْلِماً أبطالها[4]

وعلمتَ أن النفسَ تَلْقَى حَتْفَها ... ما كان خالقُها المليكُ قضى لها

فإنك تحس فيه روح العصر العباسى ، لا من حيث سهولة اللفظ فحسب ، ولا من حيث المقابلة بين المعانى فحسب ، بل من حيث ما يجرى فى ذلك من أثر رقة الذوق بتأثير الحضارة ؛ وهى رقة دفعته إلى الغلو فى وصف شجاعة ممدوحه ، فإذا هو بجرأته وبسالته يقتحم ميادين الحرب بدون ترس يحميه ؛ وبيده سيفه يضرب به فى الأقران تاركاً فيهم آثاره ، وقد آمن بينه وبين نفسه بأن الإنسان لابد أن سيموت ، فلا داعى للخوف ، فلكل امرئ أجل مضروب ، لا يتأخر عنه ولا يتقدم . واقرأ له هذه القطعة فى مديحه لهَوْذَةَ بن على سيد بنى حنيفة :

إلى هَوْذَةَ الوهَّابِ أهديتُ مِدْحَتِى ... أُرَجِّى نوالاً فاضلاً من عَطائكا

سمعتُ برَحْبِ الباع والجود والنَّدَى ... فأدْلَيْتُ دَلْوِى فاستقتْ برِشائكا[5]

فتًى يحمل الأعباءَ لو كان غيرُهُ ... من الناسِ لم يَنْهَضْ بها متماسكا

وأنت الذى عوَّدْتنى أن تَرِيشنى ... وأنت الذى آويْتَنى فى ظِلالكا[6]

وإنك فيما نابنى بى مُوزَعٌ ... بخيرٍ وإنى مولَعٌ بثَنائكا[7]

---

(١) أسى : داوى .

(٢) صاب المطر : سقط وانصب .

(٣) ملمومة : مجتمعة . خرساء : لا يسمع لها صوت من كثرة الدروع أى ليس لها قعقعة .

(٤) الجنة : الترس .

(٥) الباع : الكرم وكذلك الندى . الرشاء : حبل الدلو .

(٦) تريشنى : تعيننى وتغنينى .

(٧) هكذا رواية البيت فى المخطوطة اليمنية وهو مضطرب فى الديوان . موزع : مولع .

وجدتَ عليًّا بانياً فورِثْتَــهُ ... وطَلْقاً وشيبانَ الجوادَ ومالكا[١]

بحورٌ تَقُوتُ الناسَ فى كل لَزْبَةٍ ... أبوك وأعمــامٌ همُ هؤلائكا[٢]

وما ذاك إلا أن كفَّيْك بالنَّدَى ... تجــودان بالإعطاء قبل سؤالكا

يقولون فى الأكفاء أكبرُ هَمِّه ... ألا رُبَّ منهم من يعيش بمالكا[٣]

وجــدتَ انْهدامَ ثُلْمَةٍ فبنيتَها ... فأنعمتَ إذ ألحقتَها ببنائكا[٤]

وربَّيْتَ أيتاماً وأنعشتَ صِبْيَةً ... وأدْرَكْتَ شأوَ السَّبْقِ دون عنائكا[٥]

ولم يَسْعَ فى العلياء سَعْيَك ماجدٌ ... ولاذو إنًى فى الحىِّ مثلَ إنائكا[٦]

فإنك تحس المبالغة فى المديح واضحة ، وهو يمزجها بالتبذل فى السؤال تبذلا لم يعرف فى عصره ، وكل ذلك واضح فيه رقة اللهجة وأن الأعشى من ذوق يخالف ذوق الجاهليين ، وهو ذوق جاءه من طول اختلاطه بأهل الحضر .

ولا نشك فى أن هذا الذوق هو الذى جعله فى أهاجيه ينحو نحو السخرية من مهجوه فى كثير من شعره ، وكأنما يجد فيه مرارة أشد وألذع من مرارة الهجاء المقذع ، واقرأ معلقته أو قصيدته السادسة فى الديوان التى وجّه بها إلى يزيد بن مُسْهِر الشيبانى ، وكان قد قتل أحدُ بنى قيس بن ثعلبة رجلا من قومه ، فحمّسهم للثأر لقتيلهم ، فتعرض له الأعشى يهدده ويهجوه مستهلا تهديده وهجاءه بقوله :

أَبْلِغْ يزيدَ بنى شيبانَ مَأْلُكَةً ... أبا ثُبَيْتٍ أما تنفكُّ تَأْتَكِلُ[٧]

أَلَستَ منتهياً عن نَحْتِ أَثْلَتِنا ... ولستَ ضائرَها ما أَطَّتِ الإبِلُ[٨]

---

(١) واضح من الشطر الثانى أن مالكا وشيبان وطلقاً أعمام هوذة .

(٢) لزبة : شدة وأزمة .

(٣) يريد بالشطر الأول أن ممدوحه يتهم بأنه يغلل أكفاءه .

(٤) الثلمة : فرجة المهدوم أو ما فيه من شقوق .

(٥) هكذا رواية البيت فى المخطوطة اليمنية وبه بعض الاضطراب فى الديوان .

(٦) إنى : مقصور إناء .

(٧) مألكة : رسالة . تأتكل : تسمى بالشر أو تغضب وتغلى حتى لكأنك تأكل نفسك .

(٨) الأثلة : شجرة . ونحت أثلته : تنقصه وعابه . أطت : أنت . ويريد بقوله ما أطت الإبل التأبيد .

كناطحٍ صخرةً يوماً ليُوهِنَها فلم يَضِرْها وأوهى قَرْنَهُ الوَعِلُ[١]

وواضح أنه يوبخه ساخراً منه مزدرياً له، إذ يقول: يا أبا ثُبَيْت أما تنفك تسعى بالشر والفساد وتقع فى أعراضنا بالذم والقدح ؟ ألست منتهياً عن ذمنا وتنقصنا ؟ وإنك مهما أتيت من قوارع الطعن لن تضر أصلنا الشامخ مدى الدهر ، وما مثلك إلا كمثل وَعْل ينطح صخرة ليضعفها ، فاستعصت عليه ولم يضرها ولم يوهنها إنما ضر قرنه وأوهنه . وارجع إلى قصيدتيه اللتين يهجو بهما علقمة بن عُلاثة ، فستجده يعمد إلى هذا اللون من السخرية المرة بعلقمة ، إذ يقول له فى أولاهما موازناً بينه وبين خصمه ومنافره عامر بن الطفيل :

علقمَ ما أنت إلى عامرٍ الناقضِ الأَوتارَ والواترِ[٢]
يا عَجبَ الدَّهرِ متى سُوِّيا كم ضاحكٍ من ذا وكم ساخرِ
ولستَ بالأكثر منهم حَصىً وإنما العِزَّة للكاثرِ[٣]
علقمَ لا تَسْفَهْ ولا تجعلَنْ عِرْضكَ للوارد والصادرِ
ولستَ فى السِّلْم بذى نائلٍ ولستَ فى الهيجاء بالجاسرِ[٤]

وهذا من أشد الهجاء وأمضّه ، ولو أنه شتم وأفحش لعُدّ سفيهاً ، أما أن يهجو على هذا النحو من التعريض فإنه يجعل الظنون تتسع كما يجعل النفوس تتعلق بمعنى كلامه وتُكثر من تأويله . وهو يشير فى الأبيات إلى حكم هرم بن قُطْبة حين تنافر إليه علقمة وعامر ، فسوّى بينهما فى عبارته المأثورة : « إنكما كرُكْبَتَى البعير الأدْرَم (الفحل) تقعان على الأرض معاً » والأعشى يردّ هذا الحكم وينقضه قائلا : أين الثَّرَى من الثُّرَيَّا . وقد مضى فى القصيدة الثانية يذمه ، ولم يكن من أبياتها بيت أشد إيلاماً لعلقمة من قوله :

تبيتون فى المشْتَى مِلاءً بطونُكم وجاراتُكم غَرْثَى يَبِتْن خَمائصا[٥]

(١) الوعل : ضرب من الماعز الجبلى .
(٢) الأوتار : جمع وتر وهو الثأر . وناقضها : الآخذ بثأره . الواتر : الذى يترك ثأره فى الأعداء فلا يستطيعون نقضه .
(٣) الحصى هنا : العدد .
(٤) النائل : العطاء . الجاسر : الجرىء .
(٥) المشتّى : زمن الشتاء . غرثى : جائعة . خمائص : ضامرات البطون .

حتى لقد زعم الرواة أنه بكى حين سمعه . وواضح أنه لم يجعله بخيلا فحسب ، بل جعله هو وعشيرته يملأون بطونهم ويتشخصون فى ليالى الشتاء الباردة على حين يشتد كلَبُ الجوع والمسغبة على جاراتهم . واختار النساء لينزع من قلوبهم كل عطف ورحمة ، فهم ليسوا بخلاء فحسب ، بل إن قلوبهم لأشد قسوة من الحجارة . واستمعْ إليه يسخر من كسرى قبل وقعة ذى قار :

واقعُدْ عليكَ التاجُ مُعْتصباً بهِ   لا تطلبنَّ سَوامَنا فتُعَبَّدَا[١]

وفى كلمة «اقعد» من الهجاء ما يفوق كل إقذاع ، إذ يستخفّ به و بجيوشه التى يعدّها لقتالهم وقتال شيبان، وكأنه يلوّح له أنه إن هاجمهم مُنِىَ بهزيمة تطيح بتاجه. ولعلنا الآن نفهم ما كان يقال عن الأعشى من أنه « إذا مدح رفع وإذا هجا وضع » ، فهو إذا مدح غالى فى مدحه حتى رفع ممدوحه على جميع الناس ، وإذا هجا أوجع لا بالشتم والهجاء المقذع وإنما بالتهكم والسخرية والاستهزاء .

والأعشى كثير الفخر فى شعره بقبيلته وعشيرته ، وهو يجمع لهما ضروب المفاخر والمناقب التى كانوا يعتزون بها فى الجاهلية من الجود فى الجدب والشجاعة فى الحرب والرعى فى المكان المخوف وإغاثة المستصرخ . وكثيراً ما يضمن هجاءه لمن يختلف معهم من قبيلته الكبرى بكر وقبيلته الصغرى قيس بن ثعلبة فخراً مدوياً ، كقوله فى معلقته التى أشرنا إليها آنفاً متوعداً يزيد بن مُسْهِر الشيبانى ومفتخراً بشجاعة قبيلته وما أثخنتْ فى القبائل من جراح :

سائلْ بنى أَسدٍ عنَّا فقد علموا   أَنْ سوف يأْتيك من أَنْبائنا شَكَلُ[٢]

واسأَلْ قُشَيْرًا وعبد الله كلَّهمُ   واسأَلْ ربيعةَ عنا كيف نَفْتَعِلُ[٣]

إنا نقــاتلهم حتى نقتِّلَهم   عند اللقاء وهم جاروا وهم جَهِلُوا

لئنْ مُنِيتَ بنا عن غِبٍّ معركةٍ   لم تُلفنا من دِماءِ القوم نَنْتَفِلُ[٤]

---

(١) السوام : الإبل الراعية ويقصد بها الأعشى ديار العرب . تعبد : تصبح كالعبد ، يريد أنه يهزم ويقهر .

(٢) شكل : أزواج مختلفة يريد خبراً من بعد خبر .

(٣) نفتعل هنا : نفعل العظائم .

(٤) غب : عقب ، يقصد أنهم لا يتعبون من لقاء الأعداء ، فإن لقيهم بعد معركة فسيجدهم على أتم استعداد للقاء. ننتفل: ننتفى، و يروى ننتقل .

قد نَخْضِبُ العَيْرَ من مكنون فائِلِه ... وقد يَشيط على أرماحنا البَطَلُ[١]

نحن الفوارسُ يومَ العَيْن ضاحيةً ... جَنْبَىْ فُطَيْمَةَ لا مِيل ولا عُزُلُ[٢]

قالوا الركوبَ فقلنا تلك عادتنا ... أو تنزلون فإنا مَعشَرٌ نُزُلُ[٣]

وقد ذهب بعض القدماء إلى أن البيت الأخير أشجعُ بيتٍ لما صوَّر فيه الأعشى قومه وأنهم يحسنون الطعان فرساناً كما يحسنون الضراب راجلين منوهاً بأن تلك سجية لهم دَرَّج عليها شيوخهم وشبابهم .

ونراه يكثر من وصف الصحراء وناقته ، وهذا طبيعي لكثرة رحلاته وأسفاره . وهو فى هذا الموضوع يجرى على عادة الجاهليين ، فيصور الأودية وما يجرى فيها من ظلام أو سَموم أو مياه أمطار كما يصور طرقها الوعثة ورمالها ومناهلها ووحشها وعزيف الجن ليلا بها ، يقول فى معلقته :

وبلدةٍ مثلِ ظهر التُّرْسِ موحشةٍ ... للجنِّ بالليل فى حافاتها زجَلُ[٤]

لا يَتَنَمَّى لها بالقيْظِ يركبُها ... إلا الذين لهم فيها أتَوْا مَهَلُ[٥]

جاوزْتُها بطَليحٍ جَسْرةٍ سُرُحٍ ... فى مِرْفَقَيْها إذا استعرضتَها فَتَلُ[٦]

وواضح أنه فى هذه الأبيات يفخر بتحمله لمشقات السفر فى مثل هذه الأرض الوعرة الصلبة الموحشة التى لا يسمع فيها صوت سوى صوت الجن والتى لا يركبها فى حمارَّة القيظ واشتعال الرمال إلا من تعود الصبر واحتمال المكاره . ويقول إنه يقطع مثل هذه الأرض بناقة نِضْوِ أسفار ضامرة موثَّقة الخلق صلبة قوية . وهو

---

(١) العير : حمار الوحش استعاره للفارس لأن العير يتقدم الأتن : الفائل : القناة الدموية كالشريان . يشيط : يهلك .

(٢) يوم العين : يوم كان بين بنى قيس بن ثعلبة وشيبان بجنب موضع فى البحرين يسمى فطيمة . ميل : جمع أميل وهو الجبان . عزل : جمع أعزل : من لا سلاح له .

(٣) يريد بالنزول التضارب بالسيوف .

(٤) البلدة : القطعة من الأرض . وشبهها بالترس لبيان أنها غليظة وصعبة على من ينفذ فيها . موحشة : كثيرة الوحش . زجل : صوت . حافاتها : نواحيها .

(٥) يتنمى : يرتفع . القيظ : شدة الصيف . مهل : أناة وصبر .

(٦) طليح : مهزولة لكثرة أسفارها . جسرة : ضخمة . سرح : سريعة . فتل : قوة وصلابة .

لا يطيل فى وصف أعضاء الناقة صنيع طرفة ، بل يقتضب الحديث عنها غالباً ، ويكثر حين يلم ببيان سرعتها أن يشبهها بحمار وحش أو ثور أو نعامة ، ويطيل فى وصف ما يلمُّ به منها على عادة الجاهليين. واقرأْ هذه القطعة :

وفلاةٍ كأنهــا ظَهْرُ تُرْسٍ	ليس إلا الرجيعَ فيها عَلاقُ[1]
قد تجاوزتُها وتَحْتِى مرُوحٌ	عنتريسٌ نَعَّابةٌ مِعْنَاقُ[2]
عِرْمِسٌ تَرْجُمُ الإكامَ بأخفا	فِ صِلابٍ منها الحصى أفْلاقُ[3]
وكأن القُتود والعِجْلَةَ الوَفْـ	راءَ لمَّا تَواهَقَ السُّوَّاقُ[4]
فوق مُسْتَبقِلٍ أضرَّ به الصَّيْـ	فُ وزَرُّ الفُحولِ والتَّنْهاقُ[5]
أو فريدٍ طاوٍ تضيَّفَ أَرْطَا	ةً عليه من الغصونِ رُوَاقُ[6]
أخرجتْه شَهْباءُ مُسْبِلَةُ الوَدْ	قِ رجوسٌ قُدَّامها فُرَّاقُ[7]
وتعادَى عنــه النهارُ تُوارِيـ	ـه عِراضُ الرِّمال والدَّرْداقُ[8]
وتَلَتْه غُضْفٌ طواردُ كالنَّحْـ	ـل مغاريثُ همُّهن اللَّحاقُ[9]

وهو يصور فيها فلاة مقفرة ، لا تجد فيها الإبل ما تأكله سوى الاجترار ، ويقول إنه تجاوزها بناقة نشيطة قوية مسرعة سرعة شديدة ، كانت ترجم المرتفعات بأخفافها الصلبة ، فتشق ما فيها من حصى شقًّا وسرعان ما يشبهها فى سرعتها بحمار وحش ، يقاسى من لظى الصيف وعضّ أمثاله وتنهاقها عليه ،

---

(١) الرجيع : ما تجتره من طعامها . العلاق : ما تطعمه الإبل من الشجر .

(٢) مروح : نشيطة . عنتريس : صلبة . نعابة: تمد عنقها فى سيرها . معناق : من العنق وهو سير واسع للإبل .

(٣) عرمس : صلبة . الإكام : المرتفعات .

(٤) القتود : الرحل بأدواته . العجلة : المزادة ، وهى قربة الماء . الوفراء : كثيرة المياه . السواق : طويل الساق . تواهق : مد عنقه فى السير. وتلك رواية المخطوطة اليمنية ، والبيت فى الديوان مضطرب .

(٥) مستبقل : حمار وحش يأكل البقل ، زر : طرد وعض .

(٦) فريد : منفرد ، ويقصد ثور الوحش . طاو : جائع . الأرطاة : من أشجار البادية . رواق البيت : شقته التى دون شقته العليا . وتلك رواية المخطوطة اليمنية .

(٧) شهباء : سحابة بيضاء يصدعها سواد . مسبلة : مرسلة . الودق : المطر . رجوس : مرعدة . فراق : جمع فارق وهى السحابة المنفردة .

(٨) تعادى : تباعد . الدرداق : دك متلبد من الرمال .

(٩) الغضف : كلاب الصيد مسترخية الآذان . مغاريث : جائعة .

فهو يسرع لا يلوى . ولا يمضى طويلا مع هذا الحمار ، بل يتركه إلى ثور وحش يشبه به ناقته ، ويصوره طاوياً فى ليلة من ليالى الشتاء القاسية ، وقد بات مستظلا بأغصان أرطاة ، والمطر يسقط من حوله والفزع يأخذه من كل جانب، ولم تلبث نفسه أن راودته على الخروج من كناسه ؛ فخرج يتوارى فى عراض الرمال وكثبانها ؛ ولم تلبث كلاب الصيد أن رأته فأسرعت تحاول اللحاق به ، وأسرع يحاول فَوْتَها . والأعشى يشبه ناقته به وهى تترامى فوق الرمال مسرعة كأنما شىء يطابها .

وتتكرر مثل هذه الصورة لا عند الأعشى وحده ، بل عند جميع شعراء الجاهلية ، إذ يشبهون الناقة بوحش الفلاة ، وخاصة حين يناضل كلاب الصيد ؛ وإن كنا نلاحظ أن الأعشى لا يطيل فى تصوير ذلك إطالة النابغة أو لبيد أو غيرهما من الجاهليين ، وربما جاءه ذلك من ذوقه المتحضر ، فكان يوجز فى وصف الصحراء والناقة والحيوانات الوحشية ، على حين كان يتسع فى الحديث عن الخمر والغزل .

وحقًّا نجد عند الجاهليين تعرضاً كثيراً للخمر ، ولكنهم عادة يسوقونها مع الحديث عن فتوتهم وكرمهم وبذلهم ، على نحو ما نرى فى معلقة طرفة ، أما عند الأعشى فإننا نجدها فى فاتحة كثير من قصائده تالية لبعض غزله ، ونحس كأنها لذته من الدنيا ، فهو يطيل الحديث عنها وعن تأثيرها فى نفوس شاربيها ، وكأنه يتدسها تقديساً ، فهى وثنه وصنمه ، ولذلك لم يكد يسمع من قريش — كما أسلفنا — أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحرمها حتى كفَّ عن لقائه وانصرف لساعته .

وهو يجيد وصفها إجادة لفتت القدماء إليه ، فقالوا إنه أشعر الجاهليين إذا طرب[1] ، يقصدون إذا شرب الخمر ووصفها ، وهو وصف يفيض بالحيوية ، إذ يجسِّم فيه بيئتها ومجالسها وما يُنْشَرُ فيها من الورود والرياحين وما يقوم فيها من السقاة والمغنين والإماء الخليعات اللائى يَلْبَسْنَ الشفوف الرقيقة وما يضربُ عليه العازفون من آلات طرب كالصَّنْج والعود ، واستمعْ إليه يقول فى معلقته :

---

(١) أغانى ٩/١٠٨ .

وقد غدوتُ إلى الحانوت يتبعنى ... شاوٍ مِشَلٌ شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ(١)

فى فتيةٍ كسيوف الهند قد علموا ... أن ليس يَدْفَعُ عن ذى الحيلةِ الحِيَل

نازعْتُهم قُضُبَ الرَّيْحان مُتَّكئاً ... وقهوةً مُزَّةً راووقُها خَضِلُ(٢)

لا يَسْتفيقون منها وهْى راهنةٌ ... إلا بهاتِ وإن عَلُّوا وإن نَهِلُوا(٣)

يَسْعى بها ذو زُجاجاتٍ لهُ نُطَفٌ ... مُقَلِّصٌ أسفلَ السِّرْبالِ مُعْتَمِلُ(٤)

ومستجيبٍ تخالُ الصَّنْجَ يَسْمعُهُ ... إذا تُرَجِّع فيه القَيْنَةُ الفُضُلُ(٥)

والساحِباتِ ذيولَ الخَزِّ آونَةً ... والرَّافلاتِ على أعْجازها العِجَلُ(٦)

من كل ذلك يومٌ قد لهوتُ بهِ ... وفى التجارب طولُ اللَّهْوِ والغَزَلُ

وهو يصف فى الأبيات يوماً من أيام لهوه غدا فيه إلى خمار مع رفيق ناشطٍ خفيف الحركة طيب النفس فى فتية كسيوف الهند مضاء وقوة ورونقاً . ويقول إنهم تجاذبوا أغصان الريحان وخمرة مزة ما زالوا يتعاطونها ، فراووقها لا يجف ، وهم لا يسأمون من تعاطيها ولا يفيقون من شربها إلا ليقولوا للساقى : هات ، ويكررون هذه اللفظة مهما شربوا . ويصف الساقى بأنه غلام أو شاب حدث ، كان يعلِّق فى أذنه قُرطاً ويلبس قميصاً قصيراً ، وقد طُبع على العمل بجد ونشاط . ويضيف إلى ذلك وصف عود كانت ألحانه تتسق مع صنج كانت تعزف عليه وتغنى قينة فى ثوب واحد رقيق ، ومن ورائها نساء ترفل فى ثياب الخز والحرير . وقد علت أعجازهن كأنها قرب ممتلئة ، فهى تهتز وترتجّ . ويختم أبياته بأنه تمتّع بكل ذلك

(١) غدوت : ذهبت . شاو : يشوى اللحم . ومعنى مشل شلول شلشل شول أنه خفيف الحركة نشيط .

(٢) قضب : جمع قضيب وهو الغصن ، القهوة : الخمر . الراووق : الوعاء الذى تروق فيه الخمر . خضل : ندى ، كنى بذلك عن اتصال شربهم.

(٣) علوا : من العلل وهو الشرب بعد الشرب تباعاً ، نهلوا : من النهل ، وهو أول الشرب . إلا بهات : إلا بمقدار قولهم هات .

(٤) ذو زجاجات : يريد الساقى . نطف : جمع نطفة وهى القرط به لؤلؤة صافية . مقلص أسفل السربال : قصير القميص . معتمل : مطبوع على العمل والنشاط .

(٥) المستجيب : العود ذو الأوتار لأنه يجيب صاحبه كما يجيب الصنج وهو الآخر من آلات الطرب . وجعل الصنج يسمعه كناية بذلك عن اتساق ألحانهما . القينة : الأمة المغنية . الفضل : اللابسة ثوباً واحداً .

(٦) العجل : جمع عجلة بكسر العين وسكون الجيم وهى قربة الماء .

ولَهِمًا به وجرّبه مراراً وتكراراً .

والأعشى لا يصف مجالس الخمر فحسب ، بل يصف وصفاً دقيقاً أوانيها وألوانها وما تفعله بعقول شاربيها وما تُحدِث فى قلوبهم من نشوة ، مما يدل على أنه كان مشغوفاً بها مفتوناً ، بل سكّيراً مغرقاً فى السكر ، وهو فى ذلك يقترب من ذوق جماعة المجّان فى العصر العباسى أمثال أبى نواس ، وفى الوقت نفسه يفترق من ذوق معاصريه الذين لم يكونوا يسرفون على أنفسهم إسرافه فى اللهو والمجون . ولا نشك فى أن هذا جاءه من أثر الحضارات التى ألمّ بها فى الحيرة وغير الحيرة ، بحيث تحوّل مدمناً لها ، يلازم حوانيتها ، فإن ولّى وجهه نحو منازل قومه حمل منها ما يكفيه هو ورفاقه هناك ، فينهلون ويَعلّون ولا يفيقون . وهو فى أثناء ذلك ينشدهم ما ينظمه فيها ، وهم يصفقون استحساناً . ولم يكن يحسن وصفها فحسب ، بل كان يُضفى عليه حيوية بما يمزجه به من قصص على شاكلة قوله :

أتانى يُؤَامِرُنى فى الشَّمو ... ل ليلا فقلتُ له : غَادِها[1]

أَرَحْنا نباكرُ جِدَّ الصَّبو ... حِ قبل النفوس وحُسَّادها[2]

فَقُمْنَا ولما يَصِحْ دِيكُنا ... إلى جَوْنَةٍ عند حدَّادها[3]

تنخَّلها من بِكارِ القِطـافِ ... أُزَيْرِقُ آمِنُ إكْسادها[4]

فقلتُ له : هٰذه هاتِها ... بأَدْماءَ فى حَبْل مُقْتَادِها[5]

فقال : تزيدوننى تسعةً ... وما ذاك عَدْلاً لأَندادها[6]

فقلتُ لِمنْصَفِنا : أَعْطِهِ ... فلما رأى حَضْرَ شُهَّادهـا[7]

أضاءَ مِظَلَّتَه بالسِّرا ... جِ والليلُ غامِرُ جُدَّادِها[8]

---

(١) يؤامرنى : يشاورنى . الشمول : الخمر . غادها : انطلق بنا إليها .

(٢) جد : نشاط . الصبوح : خمرة الصباح .

(٣) جونة : جرة وخابية. حدادها : خمارها.

(٤) تنخلها : تخيرها . بكار القطاف : أول ما يقطف . أزيرق : أزرق العينين . آمن إكسادها : آمن من كسادها لا يخاف .

(٥) أدماء : ناقة بيضاء . مقتادها : غلامها الذى يرعاها .

(٦) أندادها : أمثالها .

(٧) منصف : خادم . حضر : حضور . شهادها هنا : الدراهم .

(٨) مظلته : حانوته أو خباءه . الجداد : الأهداب والأستار .

دَرَاهمُنا كُلُّها جَيِّــدٌ فلا تحبِسنَّا بِتَنْقَادِهـا[١]
فقام فصبَّ لنا قَهْوَةً تُسَكِّننا بعد إرْعادها[٢]
كُمَيْتاً تكشَّفُ عن حُمْرةٍ إذا صرَّحتْ بعد إزْبادها[٣]
كحَوْصَلة الرَّأْلِ فى جَرْيها إذا جُلِيَتْ بعد إقْعادها[٤]
وجال علينـــا بإبريقهِ مخضَّبُ كفٍّ بِفرْصادها[٥]
فباتتْ رِكابٌ بـأكْوارِها لدينـــا وخيلٌ بِـألْبادها[٦]
ورُحْنـــا تنعِّمنا نشوةٌ تجورُ بنا بعد إقْصَادِها[٧]

ولا تختلف هذه الأبيات المنتزعة من القصيدة الثامنة فى الديوان عن خمريات أبى نواس وأضرابه فى شىء ، لولا ذكره للأكوار والألباد فى نهايتها ، ولوحذفنا بيتهما لأصبحنا إزاء خمرية عباسية تعتمد على القصص والإطراف به . وهو فى أولها يذكر أن فتى طرقه قبل أن يسفر الصباح يدعوه أن يذهبا معاً لتناول الخمر . وذهبا فى هزيع الليل الأخير –قبل أن تصيح الديكة وقبل أن يسبقهما أى كاشح حسود– إلى حانوت خمار أعجمى ، كُنى عنه بزرقة العين ، وهو خمار حاذق لصنعته ، استخلص خمره من بكار القطاف ، وهى خمر معتقة ومثلها لا يكسد ولا يبور . وطلبا إليه أن يسقيهما بناقة قاداها إليه ، وهى واقفة ببابه مزمومة بحبل غلامها ، فلم تكفه وطلب فوقها تسعة دراهم ، مشيداً بخمره وأن هذا الثمن ليس كفؤاً لها ، ويقول الأعشى إنه قال لصاحبه : اعطه ما يريد . ويضىء الخمار خباءه أو حانوته ، ويعدّ الدراهم ويتبينها خشية زيفها ، حتى إذا اطمأن لها وللأعشى ورفيقه أو رفاقه قام ، فناولهم خمراً تمشت فى أجسادهم ، فسكنوا إليها ، وهى خمر حمراء

---

(١) تنقادها : نقدها وعدها حتى يتبين زائفها من صحيحها .
(٢) تسكننا : نسكن إليها .
(٣) كيتاً : حمراء . صرحت : ذهب زبدها .
(٤) الرأل : فرخ النعام . شبه الخمر بحوصلته فى الحمرة . جليت : أخرجت ، مأخوذ من جلوة العروس. القاعدة ، إذا قعدت عن الطلب . وانظر الحيوان ١٤/٤ .
(٥) الفرصاد : التوت الأحمر .
(٦) الأكوار : الرحال . الألباد : جمع لبد وهو قطعة الصوف توضع تحت السرج
(٧) إقصاد : قصد واعتدال .

فاقعة كأنها الفرصاد أو التوت الأحمر ، وما يزال صاحبها يسقيهم ، وهم بها مشغوفون ، حتى انبثقت أضواء الصباح ، فنهضوا بركابهم وخيلهم ، تستخفهم النشوة استخفافاً خرجوا به عن أطوارهم وما تعودوه فى صحوهم من قصد واعتدال .

وأنت تراه قد وصف الخمر ودنّها ولونها وخمّارها وحانوتها وتعرّض لصياح الديكة فى السحر ومساومة صاحبها فى ثمنها وأثرها فى النفس وما تصيب به شاربها من انتشاء يتمشى فى المفاصل . وهذه المعانى جميعها تدور فيها وفى أفلاكها خمريات العباسيين . واستمعْ إليه يقول :

وأَدْكنَ عاتقٍ جَحْلٍ سِبَحْلٍ — صَبحْتُ بِراحِهِ شَرْباً كِرَامَا[1]
من اللاتى حُمِلْن على الرَّوايا — كريحِ المِسْكِ تَسْتَلُّ الزُّكاما[2]
مُشَعْشَعةً كأَنَّ على قَرَاها — إذا ما صَرَّحتْ قِطَعاً سَهاما[3]
تخيَّرها أخو عاناتَ شهرًا — ورَجَّى أَوْلَها عاماً فعاما[4]
يؤمِّل أَن تكون له ثراءً — فأَغلق دونها وغَلا سِواما[5]
فأَعطينا الوفاءَ بهـا وكُنَّا — نُهين لمثلها فينا السَّواما[6]
كأَنَّ شُعاع قَرْن الشمس فيها — إذا ما فُتَّ عنْ فيها الختاما[7]

وواضح أنه يتحدث عن دن من دنان الخمر أسود عتيق ، صَبَحَ به رفاقه ، ويقول إنه من نادر الدنان التى تجتلب من البلاد البعيدة والتى تنفذ رائحة خمرها بطيبها إلى الأنف ، فتستلُّ منه الزكام . ويصف هذه الخمر فيقول إنها مروَّقة صافية كأنها بياض الحرّ أو سرابه اللامع ، وقد انتقاها صاحبها فى «عانات» ، وظل

(١) أدكن : هو الدن لأنه يطلى بالقطران . عاتق : قديم . الجحل : السقاء الكبير أو القربة الكبيرة . سبحل : ضخم . الشرب : جماعة الشاربين . صبحت : ناولت ، وهو خمر الصباح .
(٢) الروايا : جمع راوية وهو البعير .
(٣) مشعشعة : مروقة . قراها : ظهرها . صرحت : صفت . السهام : وهج الصيف وما يكون معه من البياض .
(٤) عانات : بلد بالشام . أولها : ما تؤول إليه من ثمن غال .
(٥) السوام : بكسر السين المساومة فى البيع والمغالاة .
(٦) السوام : بفتح السين الإبل الراعية .
(٧) قرن الشمس : أول ما يبدو منها فى الصباح . الختام : السداد .

يعلق عليها الآمال عاماً بعد عام ، مغالياً فى ثمنها ، حتى اشتريناها منه ، ويصورها وهى تستقط من دَنّها بشعاع الشمس الوهاج ، وهى من الصور التى أكثر العباسيون من تداولها ، كما أكثروا من الحديث عن رائحتها ووصف دِنانها ، ومن قوله فى كأس من كئوسها :

وكأْسٍ كَعيْنِ الديكِ باكرتُ حَدَّها ... بفتيانِ صِدْقٍ والنواقيسُ تضربُ[1]
سُلافٍ كأنَّ الزعفرانَ وعَنْدَماً ... يصفَّق فى ناجودها ثم تُقْطَبُ[2]

وهو يشبهها بعين الديك فى صفائها ، ويقول إنه باكرها أو باكر سورتها برفاق مخلصين ، يشربونها معه فى الأديرة على قرع النواقيس ، ويحدثنا عن رائحتها وأثرها فى نفسه ، حتى ليتصورها زعفراناً أحمر خُلط بصبغ العندم ، وقد سطعت منه رائحة زكية . وعلى هذا النحو ما يزال يصف الخمر وصف مفتون بها ، معلناً أنه لا يستطيع عنها انصرافاً ، فهى كل لذته ومتاعه ، يقول :

وكأْسٍ شربتُ على لذَّةٍ ... وأُخرى تداويتُ منها بها
لكى يعلم الناسُ أنى امرؤٌ ... أتيتُ المعيشةَ من بابها

وما ينى يتحدث عن مجالسها وما ينثر فيها من ورود وما يكون فيها من قيان وآلات طرب ، بنفس الصورة التى تلقانا عند أصحاب الخمر والمجون فى العصر العباسى . ونحن إنما سقنا ما وثّقناه من أشعاره ، ومن يرجع إلى ديوانه وما رفضناه من قصائده يستطيع أن يلاحظ عبث الرواة بشعره ، فقد أجروا على لسانه خمرية تزخر بالألفاظ الفارسية ، وكأنه فارسى أباً وأماً ممن أتقنوا الشعر العربى فى العصر العباسى وأتقنوا فن الخمرية بنوع خاص ، وهل تفترق قصيدته رقم ٥٥ من قصائد أبى نواس وأضرابه فى شىء ؟ إنها تكتظ بأسماء الرياحين والأزهار وآلات الطرب الفارسية ، ولا يبخل عليه واضعها بذكره لنيل مصر فى تضاعيفها وإجرائه على لسان الأعشى بعض ما كان يجرى على لسان أبى نواس ونظرائه من أن صاحبها مجوسى يصلى عليها

---

(١) باكر : شربها فى الصباح الباكر . حدها : سورتها وحدتها .

(٢) السلاف : أجود الخمر . العندم : شجر عروقه حمراء يصبغ به . يصفق : يروق . ناجودها : جرتها . تقطب : تمزج .

ويزمزم . فماذا بقى لمجان الفرس فى العصر العباسى . وقُل ذلك نفسه فى قصيدته رقم ٣٦ وقد رفضناها لما فيها من حديث عن هلاك الملوك الأولين ، وهى ترفض أيضاً لما فيها من صور خمرية تنبو على ذوق الجاهليين ، إذ يوصَف زقُّها الأسود وقد طُلى بالقار وطُرح على الثرى بحبشى نام وانبطح ، كما يوصَف السكارى وقد تمددوا على الأرض وخذلتهم أرجلهم من غير كسَحٍ فلا يستطيعون حراكاً بالحبال الممدودة لصيد بعض الطير .

وإذا تركنا خمره إلى غزله لاحظنا أنه لا يقف طويلا عند الأطلال صنيع غيره من الجاهليين ، بل يأخذ فى وصف صاحبته ووصف عواطفه نحوها ، وقد يعمد إلى نفس الصورة القصصية المبثوثة فى معلقة امرئ القيس ، فيتحدث عن مغامراته ووصوله إلى محبوباته من المتزوجات على شاكلة قوله :

فظلِلْتُ أرعاها وظلَّ يَحُوطُها حتى دنوتُ إذا الظلامُ دَنا لَهَا
فرميتُ غفلةَ عَيْنِهِ عن شاتِه فأَصبتُ حَبَّةَ قلبِه وطِحالَها[1]
حَفِظَ النهارَ وبات عنها غافلاً فَخلتْ لصاحبِ لَذَّةٍ وخلا لها

فهو يخالس الزوج ويخاتله ، حتى يظفر ببغيته . وطبيعى أن يكون غزله ماديًّا صريحاً لما رأينا من لهوه وخمره ، غير أننا نلاحظ عنده رقة فى الغزل وشدة فى الوله والتعلق بالمحبوبة ، حتى إن روحه لتكاد تسقط من بين جنبيه جزعاً وصبابة . وخاصة حين الوداع . واستمعْ إليه يقول فى فاتحة معلقته :

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ وهل تطيقُ وداعاً أَيها الرَّجُلُ

فهو يأمر قلبه أن يودعها قبل الرحيل . وسرعان ما يرجع إلى نفسه ينكر ما ظنه فيها من الصبر على الوداع . وهى صبابة لا نعرفها عند الجاهليين ، إنما نعرفها عند الأعشى صاحب الذوق الرقيق الذى أثرت فيه الحضارة ، وحوَّلته دقيقَ الحس دقة شديدة فإذا هو يتذلل فى حبه ويخضع ، وامْضِ معه فى المعلقة فستجده يشبِّب بصاحبته منحرفاً عن طريقة الجاهليين فى بكاء آثار الديار والأطلال ، فهى موضوع حبه وغزله ، ولا داعى لأن يذهب بعيداً مع الذكريات . وإذن

---

(١) الشاة هنا : كناية عن المرأة .

فليأخذ فى وصفها مفتناً فى ذلك افتناناً ، فتارة يصف بَشرتها وشعرها وعوارضها وتارة يصف مشيتها الوانية وحَليها ، وتارة يصف تعلق الناس بطلعتها الفاتنة وما تغرق فيه من ترف ونعيم وعطور ، ولا يلبث أن يُورد علينا هذا البيت الغريب :

عُلِّقْتُها عرَضاً وعُلِّقَتْ رجلا غيرى وعُلِّق أخرى غيرَها الرَّجُلُ

وهو يصور فيه شقاءه بحبها ، فهو يحبها ، وهى تعرض عنه ، وتحب رجلا آخر ، والرجل يعرض عنها ويحب فتاة أو امرأة ثانية . وسرعان ما يعود ، فيتذكر كيف كانت تشفق عليه وعلى نفسها حين زارها ذات مرة ، فقال :

قالتْ هُرَيْرَةُ لما جئتُ زائرَها وَيْلِي عليك ووَيْلِي منك يا رَجُلُ

فقد بالغ فى وصف ارتياعها وخوفها على نفسها وعليه ، حتى إنها لتتفجع وتتوجع إشفاقاً وضعفاً . ولعل فى هذا كله ما يوضح غزل الأعشى وأنه يمتاز من ناحية بأنه حسى مادى ومن ناحية أخرى برقته المفرطة وتصويره لعواطف المحبين وأحاسيسهم التى يحسون بها ولا يستطيعون كَظْمها ولا كتمها ، بل يندفعون فى تصويرها معبرين عن ولههم وعشقهم .

والحق أن الأعشى فى شعره جميعه يعد تمهيداً للشعر الحضرى الذى ظهر من بعده . سواء فى غزله وخمره أو فى هجائه ومديحه ، فهو فى هذه الموضوعات جميعاً يفصح عن ذوق متحضر ، سواء فى خطاب الأمراء والأشراف والخضوع لهم أو فى خطاب النساء والتذلل لهن أو فى اللعب بمهجويّه والاستهزاء بهم والاستخفاف ، أو فى وصف الخمر ومجالسها ودنانها وكئوسها .

ولعلنا بعد ذلك لا نعجب إذا رأيناه يشبه العباسيين فى مبالغاتهم ، فقد كان يسرف على نفسه مثلهم فى تصور ممدوحيه ، فإذا هو يقول فى هَوْذة بن على الحنفى :

فَتًى لو يُبارى الشمسَ ألقتْ قناعَها أَو القمرَ السَّارِى لألْقَى المقالِدَا[1]

فهو لو يبارى الشمس لألقت قناعها خجلا ولو بارى القمر لذلّ له وانقاد صَغاراً . وهى مبالغة مفرطة ، ومثلها قوله متغزلا :

---

(١) ألقى المقالد : ذل وانقاد ، وفى رواية ينادى بدلا من يبا[illegible] الس

لو أَسندتْ مَيْتاً إلى نَحْرِها عاشَ ولم يُنْقَلْ إلى قابِرِ
حتّى يقولَ الناسُ مما رأَوا يا عجباً للميِّتِ الناشرِ[١]

فلو ضمت ميتاً إلى نحرها لدبت فيه الحياة من جديد ، وعجب الناس لما يرون من هذا الميت المبعوث . ويبالغ الأعشى أو قل يزيد مبالغته إفراطاً ، فيقول إن هذا الميت حين يبعث إلى دنياه يخلد فيها ولا ينقل إلى مقبرة من المقابر .

ولا يلاحظ عنده إطرافه بمثل هذه المبالغات فحسب ، بل يلاحظ أيضاً تعمقه فى صنع الأخيلة والصور ، فإذا هو يقع منها على مبتكرات كثيرة ، نلاحظها لا فى موضوعه الجديد فحسب ، ونقصد الخمر ، وإنما فى أقدم الموضوعات وأكثرها دخولا فى البداوة ، ونقصد وصف الناقة ، إذ يقول فى بعض شعره إنها تجترع الآكام اجتراعاً ، لما تَطْوى منها ، يقول :

إذا ما الآثماتُ وَنَيْنَ حطَّتْ على العِلاَّتِ تَجْتَرِعُ الإكاما[٢]

ويقول مصوراً سرعة ناقته فى الهاجرة :

بِجُلالةٍ سُرُحٍ كأَنَّ بِدَفِّها هِرًّا إذا انتعلَ المَطِىُّ ظِلالَها[٣]

فهى تجرى مذعورة كأن هِرًّا يخدشها ، وليس ذلك الذى يلفتنا عنده ، إنما يلفتنا أنه عبر عن تقلص الظلال فى الهاجرة بأنه لم يبق لناقته إلا ظل أخفافها ، وهى تنتعله فى خُطاها . وتكثر عنده الصور المخترعة فى الخمر ، وهى مبثوثة فيما أنشدناه من شعره .

ومن أهم ما يلاحظ عنده سهولة لفظه بالقياس إلى معاصريه وسابقيه من قبيلته أمثال طرفة ، وما نشك فى أن هذا يرجع إلى أنه تأثر بالحضارة ، فرقّت معانيه ، ورقت ألفاظه رقة لم تعرف لشاعر جاهلى ، وليس لفظه وحده الذى رَقّ ، بل إن نفسه رقّت هى الأخرى ولانت ، فإذا هو يأتى بخمرياته وغزلياته السابقة . وحقًّا تأثر النابغة مثله بالحضارة ، ولكنا نحس عنده أنه يُبَقّى على كثير من بداوته ، ولذلك

---

(١) الناشر : المنشور أو المبعوث .

(٢) الآثمات هنا : الوانيات . العلات : الحالات المختلفة . حطت : أسرعت . الإكام : المرتفعات .

(٣) جلالة : ناقة ضخمة . سرح : سهلة . الدف : الجانب .

لم يرقّ غزله ولا خاض فى الخمر . أما الأعشى فأقبل على اللهو والطرب والعكوف على الخمر والاستماع إلى القيان . فكان طبيعيًّا أن يسهل الشعر عنده بأكثر مما يسهل عند النابغة ، وأن تظهر فيه رقة الحضارة ونعومتها .

ولا يظهر تأثير الحضارة فى سهولة ألفاظه فحسب . بل يظهر أيضاً فى خفة أوزانه وجمال موسيقاها . وكأنما أثر فيه كثرة استماعه للمغنيات والغناء ، فإذا هو يُحيل شعره ألحاناً وأنغاماً خالصة . وهو كثير التنويع فى أوزانه يستخدم منها التام والمجزوء . ويُحسن هذا الاستخدام إلى أقصى الحدود ، إذ كان يقتدر على الإتيان بالألفاظ العذبة والكلمات الرشيقة والقوافى المتمكنة .

على أنه ينبغى أن نلاحظ شيئين ، هما كثرة ما نُحِلَ عليه . وقد أدّى ذلك إلى دخول ألفاظ فارسية فى بعض قصائده ، حَمل عليه من أجلها المرزبانى فى كتاب الموشح ، والذى لا شك فيه أن هذا من صُنْع المنتحلين ، ولا يصح أن نحمل على الأعشى بسببه بل ننحّى عنه هذا الشعر على نحو ما نحينا عنه القصيدة رقم ٥٥ . أما الشيء الثانى فهو أن الأسلوب عند الأعشى ينفك قليلا عن صورة الأسلوب الجاهلى ، ولذلك مظهر واضح هو أننا نفتقد عنده الأبيات المفردة التى تدور فى الحكم والأمثال ، وكأنما لم تكن لديه مقدرة زهير والنابغة فى التركيز وحشد المعانى فى الألفاظ القليلة . وربما كان هذا هو سبب كثرة التضمين فى أشعاره كقوله فى مطلع قصيدته الأولى فى ديوانه :

ما بكاءُ الكبيرِ بالأطلالِ ... وسؤالى فهل تردُّ سؤالى
دِمْنَةً قَفْرَةً تَعَاورها الصَّيْـ ... ـفُ بريحين من صَباً وشَمال[1]

فقد جاء بفاعل تردّ فى أول البيت الثانى ، ومن ذلك قوله فى قصيدته التى يفخر فيها بتغلُّب شيبان على الفرس فى يوم ذى قار :

ولله عَيْنا مَنْ رأى من عِصابة ... أشدّ على أيدى السُّعاة من التى[2]

---

(١) الدمنة : آثار الدار. الصبا : ريح جنوبية لينة . تعاورها : تتداولها .

(٢) السعاة : الذين يسعون فى الحرب ويهيجونها .

أَتتْنَا من البَطْحاءِ يَبْرُقُ بَيْضُها ... وقد رُفعتْ راياتُها فاستقلَّتِ (١)

وهو يوازن فى البيتين بين بنى شيبان وجيوش الفرس ، فيقول ألا سلمت عينا من رأى عصابة بنى شيبان وإنها لأشد على من يثيرون الحروب من تلك التى أتتنا من البطحاء تبرق خوذاتها وتخفق راياتها . وواضح أنه فصل بين الصلة والموصول فى البيتين . وكأنه لم يعترف بأن للبيت الأول نهاية يقف عندها . وهذا التضمين فى شعره أكثر من أن نمثل له ، فليرجع إليه من أراد ، والمهم أنه يدل على انفكاك التعبير عنده ، فهو لا يتمه فى البيت ، بل يتمه فى بيت ثان أو أبيات ، ولعل ذلك هو سبب كثرة صيغة التفضيل التى اشتهر بها فى شعره ، وذلك أنه حين يبتغى تفضيل شيء على شيء يجعل المفضل عليه مبتدأ منفيًّا بما ، ثم يسترسل فى وصفه ، حتى إذا استوفى ما أراد من هذا الوصف جاء بخبر المبتدأ ، على شاكلة قوله فى المعلقة يصف صاحبته وما ينتشر من طيبها :

ماروضةٌ من رياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ ... خَضْراءُ جادَ عليها مُسْبلٌ هَطِلُ (٢)

يُضاحكُ الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ ... مؤزَّرٌ بِعَميمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ (٣)

يوماً بـأطيبَ منها نَشْرَ رائحةٍ ... ولابـأحْسَنَ منها إذْ دَنَا الأُصُلُ (٤)

فقد بدأ بالمبتدأ وهو الروضة ، ووصفها فى بيتين مادحاً جمالها وما تمدها به الأمطار وكيف تضاحك الشمسَ أزهارُها ونباتاتها ، ثم قال إن هذه الروضة على حسنها وشذاها العطر ليست أطيب من صاحبته شذى ولا أبهى منظراً .

وواضح من كل ماقدمنا أن الأعشى يُعَدُّ حلقة مهمة من حلقات الشعر الجاهلى ، وهى حلقة تضيف جديداً واضحاً إلى هذا الشعر سواء فى موضوعاته أو فى معانيه أو فى أحاسيسه أو فى سهولة ألفاظه أو فى خفة أوزانه وجمال أنغامه وألحانه .

---

(١) البطحاء : موضع بقرب ذى قار . البيض : الخوذ . استقلت : ارتفعت وعلت .

(٢) الحزن : ما غلظ من الأرض وارتفع . وعندهم رياض الحزن أجود وأنضر من رياض المنخفضات . مسبل هطل : كثير الأمطار .

(٣) كوكب : أراد به ما طال من النبات . شرق : ريان من الماء . وأراد بالمضاحكة تفتح الأزهار . مؤزر : لابس إزارا . عميم النبت : ما اجتمع منه وتكاثر . مكتهل : تام .

(٤) الأصل : جمع أصيل وهو الوقت قبل الغروب .

الفصل الحادى عشر

طوائف من الشعراء

١

الفرسان

رأينا القبائل فى الجاهلية تعيش معيشة حربية ، فهى كتائب تنزل للرعى ، وفى الوقت نفسه تجهز بالأسلحة كى تدفع خصومها عن مراعيها، أو تغير عليهم وتسبى نساءهم وتنهب أموالهم من الإبل وغير الإبل . وكانوا يحاربون راجلين وركباناً على الإبل والخيل ، وكانوا يرون فى الثانية مزية على الأولى لسرعتها فى الطِّراد والإغارة، فأحبوها وعُنوا بها وبتربيتها وصيانتها واستنتاج كرائمها وترويضها للحروب والسباق . وقد دارت أوصافهم لها فى شعرهم الجاهلى ، فلم يكادوا يتركون عضواً من أعضائها إلا وصفوه ، ولا خصلة ولا عيباً إلا ذكروهما، وفى معلقة امرئ القيس صورة من وصفهم لخيلهم، وممن اشتهر بوصفها أبو دُوَاد الإيادى وطُفيل الغنوى وسلامة بن جَنْدل التميمى .

واشتهر كذلك جماعة من الفرسان الذين أظهروا بطولة نادرة فى حربهم عليها لخصومهم وأقرانهم ، وهم كثيرون ، فقد كان لكل قبيلة فارسها أو فرسانها الذين يتدربون على ركوب الخيل طويلا وكيف يقفزون عليها ويشهرون سيوفهم ويلوّحون برماحهم وكيف يسددون ضرباتهم إلى أعدائهم . وتلقانا دائماً أسماؤهم وخاصة فى حروبهم الطويلة مثل حرب البَسُوس وفارسها المهلهل التغلبى ، وهو الذى أشعل نيرانها ثأراً لأخيه كليب ، ويقال إنه أول من هلهل الشعر وأرقّه[١] . وشعره يدور فى رثاء أخيه وتوعُّد قبيلة بكر بما سينزله بها من هزائم لا تقل شدة ولا فتكاً عن هزائمها السابقة ، وكانت الحرب كما قدمنا فى غير هذا الموضع بين بكر وقبيلته تغلب

---

(١) انظر أخباره فى الأغانى (طبعة دار الكتب) ٥/٣٤ والشعر والشعراء ١/٢٥٦ وخزانة الأدب للبغدادى ١/٣٠٢ .

سِجالا ، تارة تنتصر هذه وتارة تنتصر تلك . وكان لا ينى يحمِّس قومه ويدعوهم إلى مواصلة القتال ، مفصحاً فى أثناء ذلك عن رغبة حارة فى الانتقام ، واسمعه يقول : [1]

وإنى قد تركتُ بواردات ... بُجَيْرًا فى دَمٍ مثلِ العَبيرِ [2]

وهمّام بن مرّةَ قد تركنا ... عليه القَشْعمان من النُّسورِ [3]

وصبَّحنا الوُخومَ بيوم سَوْءٍ ... يُدافعن الأَسنَّةَ بالنُّحورِ [4]

كأنا غُدْوَةً وبَنِى أبينا ... بجَوْفِ عُنَيْزَةٍ رَحَيا مُديرِ [5]

فلولا الريحُ أُسْمِعَ أهلُ حِجْرٍ ... صَليلَ البَيْضِ يُقْرَع بالذكورِ [6]

وواضح أنه يفخر بانتصاراته على بكر فى موقعة واردات وموقعة عنيزة ، وقد قَتَل فى الأولى بجير بن الحارث بن عُبَاد أحد فرسان بكر كما قتل همام بن مرة أخا جساس ، وكم قتلوا من عشيرة الوخوم ، ولم يكن يوم عنيزة بأقل من يوم واردات فيما اصطلته بكر من حرّ اللقاء .

ومن فرسانهم المشهورين عامر بن الطُّفَيل [7] فارس بنى عامر بن صعصعة أقوى عشائر هوازن وأشدها بأساً . وكان بنو عامر ينتشرون فى أواسط نجد شرقى الحجاز . وجنوبى منازل عبس وذبيان ، وغربى منازل بنى تميم ، وكانت مراعيهم تمتد جنوباً حتى بنى حنيفة فى اليمامة وبنى الحارث بن كعب فى نجران ومذحج فى شمالى اليمن . ولما نشبت الحروب بين عبس وذبيان أخذوا صف عبس ، فاصطدمت بذبيان وأحلافها . وقد جعلهم انتشارهم فى أواسط نجد يحاربون

---

(١) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ١٧٤ والأغانى ٥/٥٣ .

(٢) واردات : موضع سميت به موقعة حدثت فيه بين بكر وتغلب فى حرب البسوس . العبير : الزعفران .

(٣) القشعم من النسور : الضخم ، وهمام : أخو جساس قاتل كليب .

(٤) الوخوم : عشيرة من بكر .

(٥) عنيزة : موضع سميت به إحدى وقائع حرب البسوس . والرحيان إذا أدارهما مدير أثرت كل منهما فى الأخرى ، والصورة واضحة .

(٦) حجر : قرية باليمامة . البيض : خوَد الحرب . يقرع : يضرب . والذكور : أجود السيوف وأيبسها وأشدها .

(٧) انظر أخبار عامر فى الأغانى (طبعة الساسى) ١٥/٥٠ ، وراجع ترجمته الشعر والشعراء ١/٢٩٣ وانظر الخزانة ١/٤٧٣ ، ٣/٤٩٢ والمعمرين ص ٦٠ وشرح النقائض فى يوم فيف الريح ص ٤٦٩ وشعب جبلة ص ٦٥٤ وتاريخ ابن كثير ٥/٥٦ والسيرة النبوية ٤/٢١٣ .

قبائل كثيرة مضرية ويمنية .

ولعامر بن الطفيل ديوان نشره لايل مع ديوان عبيد بن الأبرص فى سلسلة جب التذكارية ، وهو فيه دائم الحديث عن فروسيته وحسن بلائه فى حروب قومه مع ذبيان فى يوم الرقم ويوم ساحوق وغيرهما من الأيام . وقد أظهر بطولة نادرة فى يوم فيف الريح وكان لقومه على بنى الحارث بن كعب النجرانيين وعشائر مذحج ، وتغنَّى به طويلا فى شعره على شاكلة قوله [١] :

لقد علمتْ عُلْيا هوازنَ أننى ... أنا الفارسُ الحامى حقيقةَ جعفرِ [٢]

وقد علِم المزنوقُ أنى أكُرُّهُ ... على جَمْعهم كرَّ المَنيحِ المشهَّرِ [٣]

إذا ازورَّ من وَقْع الرماح زَجَرْتُهُ ... وقلتُ له : ارجعْ مقبلاً غير مُدْبرِ [٤]

وأنبأْتُه أن الفِرار خَــزَايةٌ ... على المرء ما لم يُبْلِ جهدًا ويُعْذِرِ [٥]

ألستَ ترى أرماحهم فىَّ شُرَّعا ... وأنت حِصانٌ ماجِدُ العِرْق فاصبرِ [٦]

وقد علموا أنى أكُرُّ عليهمُ ... عشية فَيْفِ الريح كَرَّ المدوِّرِ [٧]

وما رِمْتُ حتى بَلَّ نحْرِى وصدْرَه ... نجيعٌ كهُدَّابِ الدِّمَقْسِ المُسَيَّرِ [٨]

وهو يصور فى هذه القطعة اقتحامه للحروب ، وكيف أنه لا يتخلَّى عن بسالته الحربية ، حتى يحمى عشيرته وضعفاءها ونساءها ، ويقول إنه لا يزال يردّ إلى الحرب فرسه المزنوق كلما خرج منها ، وإن ازورَّ عنها أو انحرف دفعه فيها دفْعاً ، أما الفرار وعاره فدونه الموت ، ويدعو فرسه إلى التأسى به ، فالرماح تنوشه من كل جانب وهو يهجم على أعدائه غير مبال ، ويدعو فرسه إلى الصبر معه ، حتى

---

(١) المفضليات ص ٣٦١ .

(٢) عليا هوازن : مجموعة من قبائلها هى سعد وجشم ونصر وثقيف . وحقيقة : حمى . جعفر : عشيرة عامر ، وهى جعفر بن كلاب ابن ربيعة بن عامر .

(٣) المزنوق : اسم فرسه . المنيح : من قداح الميسر ويكثر جولانه فى القداح . فكلما خرج منها رد فيها .

(٤) ازور : مال وانحرف .

(٥) خزاية : خزى . يعذر : يأتى بعذر .

(٦) شرعاً : مسددة .

(٧) المدور : الذى يطوف بالدوار وهو من أصنامهم .

(٨) ما رمت : ما برحت . النجيع : الدم . الدمقس : الحرير . المسير : برود من اليمن بها خطوط .

ينالا شرف النصر جميعاً ، ويلدع أمام عينيه يوم فيف الريح وما أظهر فيه من بسالة ، ويقول إنه لم يبرح موضعه فى ميدان القتال ، حتّى غرق نحره وصدر فرسه بالدماء .

واشتهر عامر كما مر بنا بمنافرته لعلقمة بن عُلاثة ابن عمه ، بسبب منافستهما على سيادة عشيرتهما ، وقد احتكما إلى هَرِم بن قُطْبة الفزارى ، فسوّى بينهما –كما مر بنا– فى عبارته المأثورة إذ قال لهما : « أنتما كركبتى البعير الأدْرَم (الفحل) تقعان إلى الأرض معاً » . وقد تقدم أن الأعشى كان ممن وقفوا فى صف عامر ضد علقمة . وقد وفد عامر على الرسول صلى الله عليه وسلم سنة تسع للهجرة . غير أن الله لم يوفقه للإسلام ، فمضى على وجهه ، والرسول غضبان عليه . ولم يلبث أن مات بالطاعون عن اثنتين وستين سنة .

ولا نغلو إذا قلنا إن أهم فارس احتفظت به ذاكرة العرب فى أجيالهم التالية إلى يومنا الحاضر هو عنترة بن شداد [1] (وقيل ابن عمرو بن شداد) العَبْسىّ ، وكان أبوه من أشراف عبس ، أما أمه فكانت حبشية يقال لها زبيبة ، وقد ورث عنها سواده ، ولذلك كان يعد من أغربة العرب . كما ورث عنها تشقق شفتيه ، ولذلك كان يقال له عنترة الفَلْحاء. وكان من عادة العرب فى الجاهلية إذا استولدوا الإماء أن يسترقّوا أبناءهم ولا يلحقوهم بأنسابهم إلا إذا أظهروا نجابة وشجاعة . ومن ثم لم يعترف شداد بعنترة ابناً له إلا بعد ما أبداه من بسالة فى حروب داحس والغبراء ، وقد ظل يذكر هذا الجرح الذى أصابه فى الصميم ، وفى ذلك يقول [2] :

إنى امرؤٌ من خير عَبْس مَنْصِباً ... شَطْرى ، وأَحْمى سائرى بالمُنْصُلِ [3]
وإذا الكتيبةُ أحجمتْ وتلاحظتْ ... أُلفِيتُ خيْرًا من مُعَمٍّ مُخْوَلِ [4]

وواضح أنه يشير إلى كرم أصله الأبوى أو شطره الأول ، أما شطره الثانى من جهة أمه فتنوب عنه شجاعته واقتحامه للحروب ، حتّى غدا فى قومه خيراً ممن

---

(١) انظر فى عنترة الأغانى (طبعة دار الكتب) ٨/٢٣٧ والشعر والشعراء ١/٢٠٤ وما بعدها والخزانة ١/٥٩ وراجع ديوانه برواية الأصمعى ، فى مخطوطة الشنتمرى « شرح الدواوين الستة » بدار الكتب المصرية . وقد طبع مصطفى السقا نص المخطوطة بشرح مختصر فى مجموعة « مختار الشعر الجاهلى » . وطبع الديوان طبعات أخرى فى بيروت والقاهرة وليدن .

(٢) مختار الشعر الجاهلى ص ٣٨٨ .

(٣) منصباً : أصلا . المنصل : السيف .

(٤) تلاحظت : نظرت من يقدم على العدو .

عمه وخاله من سادتهم ، إذ لا يغنى القبيلة أحد غناءَه ولا يذود عن حماها ذياده ، ويصوِّر لنا فى نفس القصيدة شجاعته وجرأته تصويراً باهراً إذ يقول :

بكَرت تخوِّفنى الحُتوفَ كأَننى أَصبحتُ عن غَرض الحتوفِ بِمَعْزِلِ (١)

فأَجبتُهـا إن المنيَّـة مَنْهَلٌ لا بد أن أُسْقَى بكأْسِ المنْهَلِ (٢)

فاقْنَىْ حياءَكِ لا أَبالكِ واعلمى أَنى امروٌّ سأَموت إن لم أُقْتَلِ (٣)

إن المنيَّـةَ لو تمثَّل مُثِّلَتْ مِثْلى إذا نزلوا بِضَنْكِ المنزلِ (٤)

والخيلُ ساهِمـةُ الوجوه كأَنما تُسْقَى فوارسُها نقِيعَ الحَنْظلِ (٥)

فهو لا يستمع إلى تخويف صاحبته له مما قد يلقاه من المكاره والمتالف بسبب تهافته على الحروب ، بل إنه ليصمّ أذنيه عن ندائها قائلا لها إن المنية مورد كل إنسان ولابد أن أموت ، فليكن موتى شريفاً فى ميدان الحروب . ويدعوها أن تصون حياءها ، فهو ميت على كل حال ، وخير له أن يموت مناضلا عن قومه مدافعاً عن نسائهم وأطفالهم وضعفائهم . ولا يلبث إحساسه ببطولته أن يتضخم فى نفسه ، فإذا هو يتصور أن المنية لو خلقت فى مثال لكانت فى مثل صورته وخلقته ، وهو يقتحم الصفوف ، والخيل ساهمة من هول الحرب ، والفرسان كالحة وجوههم كأنما يشربون من نقيع الحنظل .

وقد طارت شهرة عنترة بالفروسية والشجاعة النادرة منذ الجاهلية ، وما زالت ذكراه عالقة بأذهان العرب إلى اليوم ، فهو مثلهم الأعلى فى البسالة والبطولة الحربية ، وقد اتُّخذت من أخباره نواةٌ للملحمة المعروفة باسمه والتى يمكن أن تعد إلياذةَ العرب ، وهو فيها يحارب فى الجزيرة العربية وخارجها فى الحبشة وإيران وبلاد الروم والفرنج وشمال إفريقية والأندلس ، وينازل الصليبيين ، وبذلك كانت هذه القصة أو السيرة تلخص تاريخ العرب وملحمة فروسيتهم فى الجاهلية وفى الفتوح الإسلامية وبعد الفتوح فى حروبهم مع الروم والصليبيين فى الشرق والغرب .

ونحن لا نُعْنَى الآن بعنترة الأسطورة ، إنما نعنى بعنترة الفارس الجاهلى الذى

---

(١) الحتوف : المتالف .

(٢) منهل : مورد .

(٣) اقنى : احفظى وصونى .

(٤) الضنك : الضيق .

(٥) ساهمة : متغيرة .

دوّخ الأقران والأبطال فى حروب داحس والغبراء ، وبذلك غسل مذمة ولادته ولونه وفلَـحَ شفتيه ، والذى لاشك فيه أنه كان على خلق عظيم وأنه كان يجمع إلى فروسيته المادية فروسية معنوية أو خلقية .

ولا بد أن نلاحظ بصفة عامة أن الفروسية الجاهلية بعثت فى نفوس أصحابها ضرباً من التسامى والإحساس بالمروءة الكاملة فإذا هم يتغنون دائماً بمجموعة من الفضائل والخصال الحميدة ، واقرأْ فيهم فستراهم يتحدثون عن كرمهم الفياض ووفائهم وحلمهم وأنفتهم وعزتهم وصبرهم على الشدائد وتحمل المشاق وحفاظهم على العهد وحماية الجار . وهو جانب واضح فى أشعار عنترة ، ونظن ظنًّا أنه نمَّاه عنده ما قصه الرواة من أنه طلب عَبْلة من عمه مالك فأباها عليه لسواده ، ولأنه ابن أمة ، وقد ظل يتغنى بها طوال حياته تغنى المحب المحروم ، وهو تغن نستشف فيه غير قليل من الإحساس بالحزن واليأس. ومن ثَمّ كان يمكن أن يُعَدّ أباً لشعر الحب العذرى عند العرب ، كما يعد فعلا أباً للفروسية العربية بخصالها وخلالها النبيلة السامية التى استرعت أنظار الصليبيين ، فاتخذوا منها مثالا لفروسيتهم وما انطوى فيها من حب عُذْرى[١] .

وَردِّدِ البَصَر فى أشعار عنترة فستجده يأسر لبَّك بمثله الخلقية الرفيعة ، فهو مع فروسيته وبذله لنفسه فى سبيل قومه سمح السجايا سهل المخالطة والمعاشرة لا يبغى على غيره ولا يحتمل البغى ولا يظلم ولكنه لا يستكين للظلم ، فإن ظُلم تحوَّل كالإعصار العاصف حتى يأتى على ظالمه . وقد يشرب الخمر ولكنها لا تفسد مروءته ، وإذا دعاه داعى المكرمات لبّى باذلا كل ما يملك عن طيب نفس ، يقول ــ فى معلقته ــ مخاطباً ابنة عمه عبلة التى شُغف قلبه بها حبًّا :

أَثْنِى علىَّ بما علمتِ فإننى ... سَمْحٌ مُخالقتى إذا لم أُظْلَمِ

فإذا ظُلمتُ فإن ظُلمىَ باسلٌ ... مُرٌّ مَذاقتهُ كطعم العَلْقَمِ[٢]

---

(١) انظر قصة الحضارة لول ديورانت الجزء الثالث من المجلد الرابع ، الفصل الخامس الخاص بالفروسية ص ٤٤٦ وما بعدها .

(٢) باسل : كريه .

وإذا شربتُ فإننى مستهلكٌ مالى ، وعِرْضى وافرٌ لمْ يكْلَمِ[١]
وإذا صحوتُ فما أقصِّرعن نَدًى وكما علمتِ شمائلى وتكرُّمى

ويتحدث إليها عن فروسيته وبسالته فى الطعن والنزال وصراع الأقران وكيف ينصبُّ عليهم كالقضاء النازل أو كشواظ من نار يحرق ويُصْمى. ولا يلبث أن يعود إلى الحديث عن كرم نفسه وشرف طباعه ، فيقول :

يخبرْك من شَهد الوقائع أننى أغْشى الوَغَى وأعفُّ عند المْغنَمِ[٢]

فهو يَقْدُم فى أهوال الحروب وخطوبها، أما عند الأسلاب فيتردد ويحجم ويتعفف وكأنه ليس صاحبها . إنه لا يحارب من أجل الأسلاب والغنائم ، وإنما يحارب ليكسب لقومه شرف الانتصار . وما يزال يحدثنا فى شعره عن كرامته ، وشعوره القوى بعزته وأنه لا يقبل الضيم والهوان ، يقول فى لاميته[٣] :

ولقد أَبِيتُ على الطَّوَى وأَظَلُّه حتّى أنال به كريمَ المأْكَلِ

فالجوع حتّى الموت خير من الطعام الخبيث الدنىء . وعلى هذه الشاكلة ما تزال تلقانا فى أشعاره معان نبيلة ، وهى معان ارتفعت عنده إلى أروع صورة للنبل الخلقى ، حتّى لنراه يرقُّ لأقرانه الذين يسفك دماءهم ، يقول — فى معلقته — وقد أخذه التأثر والانفعال الشديد لبطشه بأحدهم :

فشككتُ بالرُّمْحِ الطويل ثيابَهُ ليس الكريمُ على القَنَا بمحرَّمِ[٤]

فهو يرفع من قدر خصمه ، فيدعوه كريماً ، ويقول إنه مات ميتة الأبطال الشرفاء فى ساحة القتال . وكان يجيش بنفسه إحساس عميق نحو فرسه الذى يعايشه ويعاشره حين تنال منه سيوف أعدائه ورماحهم ، يقول مصوراً آلامه وجروحه الجسدية وقروحه النفسية :

---

(١) يكلم : يجرح .

(٢) الوغى : الحرب .

(٣) مختار الشعر الجاهلى للسقا ص ٣٨٧ ، والطوى : ضمور البطن ، ويريد به الجوع الشديد .

(٤) يريد بالثياب جسده وبدنه .

فازورَ من وَقْـع القَنا بِلبَانهِ   وشكا إلىَّ بعَـبْرةٍ وتَحَمْحُمِ[١]
لو كان يَدْرِى ما المحاورةُ اشتكى   ولكان لو عَلِمَ الكلامَ مُكَلِّمِى

وكأنما فرسه بضْعة من نفسه . وبهذه الرقة والرحمة كان يعامل النساء سبيات وغير سبيات ، فإذا سبي امرأة لم يقربها إلا بعد أداء صداقها إلى أهلها . وكما للسبية حُرْمتها كذلك لامرأة جاره ، وخاصة إذا كانت زوجة صديق ؛ فإنه يغض طرفه عنها ولا يُتْبعها قلبه وهواه ، يقول[٢] :

ما استمتُ أنثى نفسَها فى موطنٍ   حتى أوفِّىَ مَهْرَها مولاها[٣]
أغْشَى فتاةَ الحىِّ عند حَلِيلها   وإذا غزَا فى الحرب لا أغشاها[٤]
وأغضُّ طَرْفى ما بدتْ لى جارتى   حتى يوارِى جـارتى مأْواها
إنى امروٌّ سَمْحُ الخليقة ماجِدٌ   لا أُتْبِعُ النفسَ اللَّجوجَ هواها

وعنترة بهذا كله يصور لنا المروءة الجاهلية الكاملة ؛ وهى مروءة طرَّزها حب عذرى عفيف لابنة عمه عبلة . وحقًّا إن هذا الحب إنما شاع فى بوادى نجد فى أثناء العصر الأموى ، بسبب المعانى الروحية التى بثَّها الإسلام فى نفوس العرب ، وهو لم يشع فى الجاهلية ؛ إنما ظهر عند بعض الأفراد من الفرسان مثل عنترة ، فقد كان يتسامى لا فى خلقه فحسب ، بل أيضاً فى حبه ، وقد جعله ذلك يستشعر غير قليل من الأسى والحزن حين رفض عمه يده ، فلم يزوجه من ابنته . ومضى يحبها حبًّا عنيفاً ، أو قل حبًّا يائساً محروماً فيه طهارة النفس ونقاؤها وفيه الفؤاد الملذَّع الذى يكظم حزنه فتفضحه عبراته ، يقول[٥] :

أفمن بكاء حمامةٍ فى أيْكةٍ   ذرفت دموعُك فوق ظهر المِحْمَلِ[٦]

---

(١) ازور : مال وانحرف . اللبان : الصدر . التحمحم : صهيل فيه شبه الأنين

(٢) مختار الشعر الجاهلى ص ٤٠٩ .

(٣) استام المرأة : راودها عن نفسها . الموطن هنا : موطن القتال .

(٤) أغشى : أزور .

(٥) مختار الشعر الجاهلى ٣٨٧ .

(٦) أيكة : شجرة . ذرفت : سالت . المحمل : علاقة السيف .

فالحمام يهيجه كما يهيجه النسيم الذى يهب من صَوْبها ، وكما تهيجه الرسوم والأطلال ، إذ يعبث الحنين بعقله وبقلبه ، يقول فى معلقته :

حُيِّيتَ من طَلَلٍ تقادمَ عهدهُ أَقْوَى وأقفرَ بعد أمِّ الهَيْثَمِ [١]

ولقد نزلتِ — فلا تَظُنِّى غيره — منى بمنزلة المُحَبِّ المُكْرَم

ودائماً نراه يعبِّر عن ظمأ شديد إلى رؤيتها ، لا لغاية حسية ، ولكن ليمتع طرفه بجمالها . ومن أهم ما يلاحظ عنده أنه يقدم لها فى معلقته وغير معلقته مغامراته الحربية ، فمن أجلها يحارب ويستبسل فى القتال ، ومن أجلها يذود عن قومه ويحمى حماهم ، ومن أجلها يسوق كل مناقبه ومحامده . وكان حين يشتد القتال يلمع خيالها أمام عينيه فيندفع كالثور الهائج ، يقول :

ولقد ذكرتكِ والرِّماحُ نواهلٌ منِّى وبِيضُ الهندِ تَقْطُرُ من دمى

فوَدِدْتُ تقبيلَ السيوفِ لأنها لمعتْ كبارقِ ثَغْرِك المتبسِّم

فهو دائم الذكر لها فى وغَى الحرب ، حتى حين تعبث به سيوف أعدائه ورماحهم ، إنه من أجلها يحارب ويخاطر ويغامر ، فلا غرو أن يذكرها فى ساعات القتال الحرجة ، فإذا هو يتحول إلى أسد ضار لا يعبس ، بل يبتسم ، لأنها تتراءى له من خلال بريق السيوف ، فيؤمن بأنه منتصر .

وعلى هذا النحو تكاملت الفروسية عند عنترة ، فلم تصبح فروسية حربية فحسب ، بل أصبحت فروسية خلقية سامية ، فيها الحب الطاهر العفيف الذى يجعل من المحبوبة مثلا أعلى والذى يرتفع صاحبه عن الغايات الجسدية الحسية إلى غايات روحية تنم عن صفاء النفس ونقاء القلب ، وفيها التسامى عن الدنايا والنقائص الذى يملأ النفوس بالأنفة والإباء والعزة والكرامة والحس المرهف والشعور الدقيق . ويقال إنه قُتل فى غارة له على بنى نَبْهان الطائيين بعد أن تقدمت به السن ، إذ أصابه أحد رماتهم بسهم من سهامه ، ويقال بل مات حتف أنفه [٢] .

---

(١) أقوى وأقفر : خلا ممن كان يسكنه . (٢) انظر الأغانى ٨/٢٤٥ .

٢

الصعاليك (١)

الصعلوك فى اللغة الفقير الذى لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة ، ولم تقف هذه اللفظة فى الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخالصة ، فقد أخذت تدل على من يتجردون للغارات وقطع الطرق . ويمكن أن نميز فيهم ثلاث مجموعات : مجموعة من الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم مثل حاجز الأزدى وقيس بن الحَدّادية وأبى الطمحان القَيْنى ، ومجموعة من أبناء الحبشيات السود ، ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل السُّلَيْك بن السُّلَكة وتأبّط شرًّا والشَّنْفَرى ، وكانوا يَشْركون أمهاتهم فى سوادهم فسموا هم وأضرابهم باسم أغربة العرب ، ومجموعة ثالثة لم تكن من الخُلعاء ولا أبناء الإماء الحبشيات ، غير أنها احترفت الصعلكة احترافاً ، وحينئذ قد تكون أفراداً مثل عُرْوَة بن الوَرْد العبسى ، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتى هُذَيل وفَهْم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالى .

وتتردد فى أشعارهم جميعاً صيحات الفقر والجوع ، كما تموج أنفسهم بثورة عارمة على الأغنياء والأشحّاء ، ويمتازون بالشجاعة والصبر عند البأس وشدة المراس والمضاء وسرعة العَدْو حتى ليسمون بالعدّائين ، وحتى لتضرب الأمثال بهم فى شدة العدو ، فيقال : « أعدى من السُّلَيْك » و « أعدى من الشَّنْفَرى » وتُرْوى عنهم أقاصيص كثيرة فى هذا الجانب ، من ذلك ما يقال عن تأبط شرًّا من أنه « كان أعْدَى ذى رِجْلين وذى ساقين وذى عينين ، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة ، فكان ينظر إلى الظباء ، فينتقى على نظره أسمنها ، ثم يجرى خلفه ، فلا يفوته ، حتى يأخذه فيذبحه بسيفه ، ثم يشويه فيأكله (٢) » . وكما كانوا يحسنون العدو كان كثير منهم يحسن ركوب الخيل والإغارة عليها ، ويقال إنه كان للسليك فرس يسمى النَّحّام (٣) ،

---

(١) راجع بحثاً فى الشعراء الصعاليك ليوسف خليف (طبع دار المعارف) .

(٢) الأغانى ١٨ / ٢١٠ .

(٣) ذيل الأمالى للقالى ص ١٨٨ .

وللشنفرى فرس يسمى اليَحْمُوم(١)، أما اسم فرس عروة بن الورد فقَرْمَل(٢). وكانوا يغيرون أحياناً فرادى وأحياناً فى جماعات .

وكانت أكثر المناطق التى يغيرون عليها مناطق الخصب، وكانوا يرصدون طرق القوافل التجارية وقوافل الحجاج القاصدة إلى مكة ، ومعنى ذلك أنهم كانوا ينتشرون حولها فى جبال السَّراة كما كانوا ينتشرون بالقرب من الطائف والمدينة وأطراف اليمن الشمالية فنى كل هذه الجهات يكثر هؤلاء الذؤبان من قطَّاع الطرق وقراصنة الصحراء . وهم فى أشعارهم يتغنون بمغامراتهم ونراهم فى أثناء ذلك يتمدحون بالكرم كما نرى فيهم كثيراً من البر بالأقارب والأهل ، وأيضاً فإننا نحس عندهم غير قليل من الترفع والشعور بالكرامة فى الحياة ، ويصوِّر لنا ذلك أبو خِراش الهُذَلِىّ فيقول(٣) :

وإنى لأُثْوِى الجوعَ حتى يملَّنى	فيذهبَ لم يَدْنَسْ ثيابى ولا جِرْمى(٤)
وأغتبقُ الماءَ القَراح فأنتهى	إذا الزادُ أمسَى للمُزَلَّج ذا طعمِ(٥)
أردُّ شُجاعَ البطن قد تعلمينه	وأوثِرُ غيرى من عِيالك بالطُّعْم
مخافة أن أحْيَا بِرغْمٍ وذلَّةٍ	وللموتُ خيرٌ من حياةٍ على رَغْمِ

فهو يفتخر لزوجه بأنه يصبر على الجوع ، حتى ينكشف عنه ، دون أن يلحقه فيه ضيم . وإنه ليكفيه الماء القراح بينما يتخم من حوله أشحاء النفوس بالطعام ؛ أما هو فحتى إن وجد الطعام آثر به عياله وأولاده . وكل ذلك يصنعه حتى لا يوصم بعار الذل . وسنرى عما قليل عروة بن الورد يعبِّر عن مثالية خلقية رفيعة لا تقل جمالا عن مثالية عنترة . وكأنما تحولت الصعلكة فى أواخر العصر الجاهلى إلى نظام يشبه نظام الفروسية، وهى حقًّا تقوم على السلب والنهب ، ولكنهم كانوا لا يسلبون ولا ينهبون سيداً كريماً ، واقرأْ فى صعاليك هذيل من مثل أبى كبير والأعلم وفى السليك وتأبط شرًّا وغيرهم فستجد للصعلوك مثاليته فى الحياة أو على

---

(١) ديوانه المطبوع فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٤٠ .

(٢) ديوانه (طبع الجزائر) ص ١٢٠ .

(٣) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب المصرية) ٢/١٢٧ والأغانى ٢١/٤٢ .

(٤) أثوى : أطيل حبسه .

(٥) أغتبق : أشرب عشاء . القراح : الصافى . المزلج : البخيل .

الأقل ستجد من بينهم من يصورون مستوى خلقيًّا رفيعاً من البِرّ، وإن كان ذلك لا يمنع من أن فريقاً منهم عاش سفّاحاً لا يرعى عهداً ولا ذمة. ونقف قليلا عند أكثرهم دوراناً على الألسنة، وهم تأبط شرًّا والشنفرى وعروة بن الورد.

أما تأبط شرًّا فمن قبيلة فهم واسمه ثابت [1] بن جابر بن سفيان ويعد فى أغربة العرب، إذ كان ابن أمة حبشية سوداء، فورث عنها سوادها، وقيل بل أمة حرة من فَهْم تسمى أميمة. واختلف القدماء فى تعليل لقبه «تأبط شرًّا» فقيل لقبته به أمه إذ تأبط سيفاً وخرج، فلما سُئلت عنه قالت: تأبط شرًّا ومضى لوجهه، وقيل بل سمته أو لقبته بذلك لأنها رأته يتأبط جراباً مليئاً بالأفاعى. وربما كانت قبيلته هى التى لقبته بهذا اللقب لكثرة ما كان يرتكب من جنايات وجرائر، أى إنه يحمل دائماً فى أطوائه شرًّا يريد أن ينفذه. ويظهر أن أباه مات وهو صغير، فتزوجت أمه بأبى كبير الهذلى، وكان صعلوكاً كبيراً، فخرَّجه على شاكلته، وربما كان لسواده وتعيير عشيرته له به وبأنه ابن أمة أثر فى تصعلكه. وكان يرافق الشَّنْفَرى فى كثير من غاراته كما كان يرافقهما صعلوك آخر يسمى عمرو بن برّاق. وليس له ديوان شعر مطبوع، غير أن له أشعاراً كثيرة منثورة فى كتب الأدب، وتُرْوَى له مغامرات مختلفة، وهى مطبوعة بطابع القصص الشعبى، مما أتاح للانتحال أن يلعب دوراً واسعاً فيما نُسب إليه من أشعار، فمن ذلك لاميته التى أنشدها أبو تمام فى حماسته يرثى بها خاله والتى تستهل بقوله: «إن بالشِّعْب الذى دون سَلْع» فقد ذكر الرواة أنها مما نحله إياه خلف الأحمر [2]. ويمكن أن نُدْخل فى هذا الباب من الانتحال ما يُرْوَى له من أشعار يقص علينا فيها لقاءه للجنّ أو للغول. وقد روى له صاحب المفضليات قصيدة طويلة جعلها فاتحة كتابه، وهو يستهلها بالحديث عن الطيف، ولا يلبث أن يحدثنا عن إحدى غاراته أو مغامراته الفاشلة مع صاحبيه الشنفرى وعمرو بن براق على بَجيلة فى الطائف، إذا أرْصَدُوا لهم كميناً على ماء أوثقهم غير أنه وصاحبيه دبروا حيلة بارعة، نجوا بها عَدْواً على الأقدام، ويصور لنا عدوه وشدّه السريع حينئذ فيقول:

---

(١) انظر ترجمته فى الأغانى ١٨/ ٢٠٩ والشعر والشعراء ١/ ٢٧١ وشرح شواهد المغنى للسيوطى ص ١٩، ٤٣ والخزانة ١/ ٦٦.

(٢) انظر تعليق التبريزى على القصيدة فى شرحه لديوان الحماسة.

ليلةَ صاحوا وأَغْرَوْا بى سِراعَهُمُ ... بالعَيْكَتَين لدى مَعْدَى ابنِ برّاقِ(١)

كأنما حَثْحَثُوا حُصًّا قَوادِمُهُ ... أو أُمَّ خِشْفٍ بِذى شَثٍّ وطُبّاقِ(٢)

لا شىءَ أسرعُ منى ليس ذا عُذَرٍ ... وذا جناحٍ بجنْب الرَّيْدِ خَفّاقِ(٣)

حتى نجوتُ ولما ينْزِعوا سلَبى ... بِوالهٍ من قَبِيضِ الشَّدِّ غَيْداقِ(٤)

وواضح أنه يذكر كيف فات عَدّائى بجيلة ليلة صاحوا به وأسرعوا من خلفه هو وصاحبه ابن براق ، ويقول إنهم أثاروه حتى غدا أسرع من الظليم والظبية ، وحتى أصبحت الخيل الجياد لا تلحق شأوه ، بل حتى الطير أصبحت تقصر عن عَدْوه ، وكأنما جُنَّ جنونه. ويمضى فيرسم لنا صورة الصعلوك من أمثاله الذى يقدره ويجلّه ، قائلا :

لكنما عِوَلِى إن كنتُ ذا عِوَلٍ ... على بَصِيرٍ بكسبِ الحمدِ سَبّاقِ(٥)

سبَّاقِ غاياتِ مَجْدٍ فى عشيرتِهِ ... مُرجِّعِ الصَّوْتِ هدًّا بين أَرْفاقِ(٦)

عارى الظَّنابيبِ مُمْتَدٍّ نَواشِرُهُ ... مِدْلاجِ أَدْهَمَ واهى الماء غَسّاقِ(٧)

حَمّالِ ألويةٍ شَهّادِ أَنْدِيةٍ ... قَوّالِ مُحْكَمةٍ جوّابِ آفاقِ(٨)

فذاك هَمِّى وغَزْوِى أستغيثُ بهِ ... إذا استغثتَ بضافى الرأس نَعّاقِ(٩)

---

(١) العيكتان : موضع . معدى : عدو .

(٢) حثحثوا : حركوا وأثاروا . القوادم : مقدم الرأس من ريش الجناحين . الحص : جمع أحص وهو ما تناثر ريشه وتكسر لسرعته ، يريد بذلك ظليم . الخشف : ولد الظبية . شث وطباق : من نباتات الصحراء .

(٣) ذا عذر : الفرس . والعذر : ما أقبل من شعر الناصية على الوجه . وذا جناح : يريد الطير . الريد : حرف الجبل .

(٤) سلب : ما يسلب فى الحرب . واله : ذاهب العقل . القبيض : السريع . الشد : العدو . غيداق : واسع .

(٥) عول : استغاثة . وأصله رفع الصوت كالعويل .

(٦) مرجع الصوت : يصيح آمراً ناهياً أرفاق : رفاق . الهد : الصوت الغليظ .

(٧) عارى الظنابيب : خفيف اللحم . وأصل الظنبوب عظم الساق . النواشر : عروق ظاهر الذراع . ممتد النواشر كناية عن طول الذراع واكتمال الخلق . الأدهم : الليل . واهى الماء : مطره شديد . غساق : شديد الظلمة.

(٨) المحكمة : الكلمة الفاصلة .

(٩) غزوى هنا : مقصدى . ضافى الرأس : كثير الشعر لا يتعاهده لكثرة غزوه . نعاق : يكثر من الصياح .

فهو إنما يعوِّل على هذا الصعلوك المثالى الذى يشركه فى غزواته والذى يتصف بسبقه إلى المحامد فى عشيرته ، كما يتصف بجهارة صوته وزعامته بين الرفاق وبضمور جسمه وقوته وصلابته وجرأته فى اقتحام الليالى المظلمة الممطرة حتى إذا كانت الحرب كان المقدم فيها الذى يحمل لواءها . وإذا كانت السلم كان ذا رأى صائب يتردد فى مجالس العشيرة وأنديتها . ولا ينسى أن يضيف إلى هذه الخصال خصلة الكرم ، ويجعلها حواراً بينه وبين شخص يعذله على كثرة كرمه وإفراطه فيه ، حتى إنه لا يبقى على شيء لغده ، ويزجره زجراً شديداً ، يقول :

بلْ مَنْ لعَذَّالةٍ خَذَّالةٍ أَشِبٍ ... حَرَّقَ باللوم جِلْدى أىَّ تَحْرَاقِ[١]

يقول أَهلكتَ مالا لو قنعتَ بهِ ... من ثوبِ صِدْقٍ ومن بَزٍّ وأَعْلاقِ[٢]

عاذلتى إن بعضَ اللَّوْم مَعْنَفَةٌ ... وهل متاعٌ وإن أبقيتُه باقِ[٣]

ولعل فى هذه الأبيات وما سبقها ما يدل فى وضوح على أن الصعلوك الذى كان يقطع الطريق فى الجاهلية كانت تنعكس عليه أحياناً صفاتُ الفروسية وما بعثت لعصره من سمو فى الأخلاق . وما زال تأبط شرا يقوم بمغامراته حتى قُتل فى إحدى غاراته بمنازل هُذَيْل .

أما الشَّنْفَرى فكان من عشيرة الإواس[٤] بن الحجْر الأزدية اليمنية ، فهو قحطانى النسب ، ويدل اسمه ، ومعناه الغليظ الشفاه[٥] ، أن دماء حبشية كانت جرى فيه من قبل أمه ، فهى أمة حبشية ، وقد ورث عنها سوادها ولذلك عُدّ فى غربة العرب . ولا نراه ينشأ فى قبيلة الأزد ، إنما ينشأ فى قبيلة فَهْم ، ويضطرب الرواة فى سبب نزوله مع أمه وأخ له بها ، وربما كان أقرب ما يروونه من ذلك أن قبيلته قتلت أباه ، فتحولت أمه عنها إلى بنى فهم ، ومما يرجح ذلك أننا نجده يخص بغزواته بنى سلامان الأزديين معلناً فى أشعاره أنه يقتصُّ لنفسه منهم . وبقا

---

(١) العذالة : كثير العذل . الخزالة : كثير الخذلان لصاحبه . أشب : معترض . يريد من يعيننى على هذا العذالة .

(٢) ثوب صدق : ضد ثوب سوء . البز : الثياب والسلاح . الأعلاق : كرائم المال .

(٣) معنفة : عنف .

(٤) انظر فى ترجمة الشنفرى الأغانى (طبع الساسى) ٢١/٨٧ وخزانة الأدب ٢/١٤ وما بعدها وشرح المفضليات لابن الأنبارى ١٩٥ وما بعدها وذيل الأمالى ص ٢٠٨ وما بعدها ، والشعراء الصعاليك ص ٣٢٨ .

(٥) خزانة الأدب ٢/١٦ .

إن الذى روّضه على الصعلكة وقطع الطرق تأبط شرا . فكان يغير معه ، حتى صار لا يُقام لسبيله[١]. وما زال يغير على الأزد ، وينكل بها ، حتى قَتَل . فيما يقص الرواة ، تسعة وتسعين ، انتقاماً لأبيه . وأخيراً يرصدون له كميناً ، فيقع فيه ، ويمثّلون به تمثيلا فظيعاً ، يقطّعون فيه جسده تقطيعاً ، ويرمون به للسباع . ويقال إن رجلا عثر بجمجمته ، فعقرته ، فمات . وبذلك يبلغ قتلاه من الأزد مائة . وخيوط الأسطورة واضحة فى مقتل الرجل المكمل للمائة ، وتلعب هذه الخيوط فى أخباره جميعاً كما تلعب فى أخبار تأبط شرا رفيقه .

وللشنفرى ديوان شعر صغير طُبع فى لجنة التأليف والترجمة والنشر بمجموعة الطرائف الأدبية . ومما اشتهر له لامية العرب . وهى مما نُحل عليه ، فقد نصَّ الرواة على أنها من صنع خلف الأحمر[٢] ، وقد أحكم صناعتها وساق فيها اسم موضع فى جنوبى اليمن هو إحاطة ليدل على أن قائلها كان يتجول فى هذه الأنحاء ، وحتى يكون ذلك أدعى إلى تصديقها والثقة بها . وهى تصور تصويراً حيًّا حياة الصعلوك الجاهلى وروحه البدوية الوحشية . وبجانب هذه القصيدة المنتحلة نجد له قصيدته التائية الطويلة التى رواها المفضل فى مفضلياته ، ثم مجموعة من المقطوعات ، ويبدو فى أشعاره على شاكلة تأبط شرا هزيلا نحيلا يلبس ثياباً بالية ونعالا ممزقة . ولو لم يصلنا إلا تائيته لكان ذلك كافياً فى تصور حياته ومغامراته ، وقد سبق أن تمثلنا بأبيات منها فى وصف زوجته أميمة نعتها فيها بأخلاقية مثالية ممتازة ، ثم مضى يصف غارة أغارها على بنى سلامان فى جمع من رفاقه الصعاليك وعلى رأسهم تأبط شرا ، ونراه فى مستهل وصفه يحدثنا أنه كان يقودهم ويعرفنا بالطريق الذى سلكوه ، وأنهم كانوا راجلين ، يقتحمون الصعاب ، غير هيابين ولا وَجِلين ، يقول :

وباضعة حُمْرِ القِسِىِّ بعثتُها ... ومَنْ يَغْزُ يَغْنَمْ مَرَّةً ويَشَمَّتِ[٣]

خرجنا من الوادى الذى بين مِشْعَلٍ ... وبين الجَبَا ، هيهات ، أَنشأْتُ سُرْبَتى[٤]

---

(١) شرح المفضليات ص ١٩٦ وما بعدها .

(٢) الأمالى للقالى (الطبعة الأولى) ١ / ١٥٧ .

(٣) باضعة : قاطعة . ويريد بها رفاقه الصعاليك ، بعثتها : غزوت بها . حمر القسى ، يقال إنها تحمر لقدمها وطول تعرضها للشمس . يشمت : يخيب ويفشل .

(٤) مشعل والجبا : موضعان . السربة : الجماعة . أنشأت : أظهرت من مكان بعيد .

أُمَشِّى على الأرض التى لن تضرَّنى لأَنْكِىَ قوماً أو أصادف حُمَّتِى(١)
أُمَشِّى على أَيْنِ الغَزاةِ وبُعْدِها يقرِّبنى منها رَوَاحِى وغُدْوَتى(٢)

وهو يعترف فى البيت الأول بأنهم قد يرجعون خائبين أو مهزومين من غاراتهم أو غزواتهم ، ولكن ذلك لا يردهم عن الغزو ، بل يدفعهم دفعاً إليه ، فهم لا يتهيبون الموت ولا وعثاء الطريق . ويصور لنا كيف كان تأبط شرا يحمل زادهم ويقتّر عليهم فى الطعام خيفة أن تطول الغزاة بهم فيموتوا جوعاً . ويقص علينا ذلك فى مداعبة طريفة له ، إذ يدعوه أمهم ، وهو وأصحابه عيالها ، يقول :

وأمُّ عيالٍ قد شَهِدْتُ تَقُوتَهم إذا أَطْعَمَتْهُمْ أَوْتَحَتْ وأَقلَّتِ(٣)
تخاف علينا العيْلَ إنْ هى أَكثرتْ ونحن جياعٌ ، أَىَّ آلٍ تَأَلَّتِ(٤)
مُصَعْلِكَةٌ لا يَقْصُر السِّتْرُ دونها ولا تُرْتَجَى للبَيْتِ إن لم تُبَيِّتِ(٥)
لها وَفْضَةٌ فيها ثلاثون سَيْحَفاً إذا آنَسَتْ أولى العَدِىِّ اقْشَعَرَّتِ(٦)
وتأْتى العَدِىَّ بارزا نِصْفُ ساقها تَجُولُ كعَيْر العانةِ المتلفِّتِ(٧)
إذا فزعوا طارتْ بأَبيضَ صارمٍ ورامتْ بما فى جَفْرها ثم سَلَّتِ(٨)
حُسامٍ كلون المِلْحِ صافٍ حَدِيدُهُ جُرازٍ كأَقْطاعِ الغَدِيرِ المنعَّتِ(٩)
تراها كأَذْنابِ الحَسِيلِ صَوَادِرًا وقد نَهِلَتْ من الدِّماءِ وعَلَّتِ(١٠)

---

(١) لن تضرنى : لن يخيفنى بها شىء . أنكى العدو : أصيب منه . الحمة : المنية .

(٢) أمشى : إشارة إلى غزوه على رجليه . أين : تعب .

(٣) أم عيال هنا : تأبط شراً . تقوتهم : تطعمهم . أوتحت : أقلت وقترت .

(٤) العيل : الفقر وفقد الطعام . أى آل تألت : أى سياسة ساست من آله بمعنى ساسه .

(٥) مصعلكة بكسر اللام : صاحبة صعاليك . لا يقصر الستر دونها : لا تغطى أمرها

(٦) وفضة : جعبة . سيحف : سهم عريض النصل . العدى : العداءون أو الرجالة . اقشعرت : تهيأت للقتال .

(٧) بارزاً نصف ساقها : كناية عن الجد فى الأمر . العير : حمار الوحش . العانة : جماعة أتنه الوحشية .

(٨) فزعوا : دهمهم محاربون وتهيأوا لقتالهم . أبيض صارم : سيف قاطع . الجفر : الجعبة . رامت بمافيه أى بسهامه . سلت السيف : شهرته .

(٩) جراز : قاطع . أقطاع الغدير : قطع الماء فيه . شبه السيف بها فى اللمعان والبريق .

(١٠) الحسيل : جمع حسيلة . وهى أولاد البقر . والنهل : الشرب الأول والعلل : الشرب المكرر .

وواضح أنه ينتقل من تصوير شحّ هذه الأم بالطعام إلى بيان أنها ليست أمًّا حقيقية ، فهى صاحبة صعاليك . لا تتخذ الستر ولا تبيت فى الخيام . ولها جعبة سهام ، تناضل بها عن أصحابها حين يفجؤهم بعض الأعداء ، وما تزال ترعاهم رعاية حمار الوحش لأتنه ، حتى إذا دهمهم غزاة أو مغيرون بادرت إلى سهامها ، ثم نازلتهم هى ومن معها بسيوفهم القاطعة اللامعة التى تنهل من دمائهم وتعل ، فترى وكأنها أذناب الحسيل ، وهى أولاد البقر المستأنسة . ووقف لايل فى ترجمته للمفضليات عند هذا التشبيه واتخذ منه دليلا على أصل الشنفرى وأنه يمنى حقًّا ؛ لأن البقر المستأنس كما يقول لم يعرف عند العرب قديماً إلا فى بلاد اليمن [1] .

ونمضى مع الشنفرى فى القصيدة فإذا هو يحدثنا عن أهداف غارته وأنه كان يقصد بها بنى سلامان ، حتى يأخذ بثأره لأبيه ويشفى حقده وغليله ، يقول :

جَزَيْنا سلامانَ بنَ مُفْرِجَ قَرْضَها ... بما قَدَّمت أيديهمُ وأَزَلَّت [2]

وهُنِّئَ بى قومٌ وما إن هَنَأْتُهمْ ... وأَصبحتُ فى قومٍ وليسوا بمَنْبِتى [3]

شفينا بعبـــد الله بعضَ غَليلِنا ... وعوفٍ لدى المعْدَى أوانَ استهلَّتِ [4]

وإنى لحُلْوٌ إنْ أُريدتْ حلاوتى ... ومُرٌّ إذا نَفْسُ العَزُوفِ استمرَّتِ [5]

وهو يصرح بأنه جزَى بنى سلامان بما قدمت أيديهم ، ويأسى أن يكونوا قومه ولا ينتفعوا به وبيأسه ، وأن يقعد لهم ويقعدوا له ، لما بينه وبينهم من ثأر قديم ، ويحدثنا أنه شفى بعض غليله بقتله لرجلين منهم هما عبد الله وعوف ، ويقول إنه حلو لأصدقائه مر على أعدائه كأنه الحنظل . وهكذا كانت حياته غارات ومغامرات ، حتى أصاب أعداؤه منه مقتلا فقتلوه .

وثالث صعاليك الجاهلية المشهورين عروة بن الوَرْد العبسى [6] ، وكان أبوه

---

(١) راجع ترجمة المفضليات للايل ٢/ ٦٨

(٢) أزلت : قدمت .

(٣) معنى الشطر الأول أن الأزد يهنئون به وبشجاعته لأنه منهم وفى الوقت نفسه هو لا يهنئهم لأنهم لا ينتفعون به. وهو يشير فى وضوح إلى أنه ينزل فى بنى فهم وليس منهم .

(٤) الغليل فى أصله حرارة العطش ، وهو هنا العطش إلى القتل . المعدى : موضع العدو ، والمراد ساحة المعركة ، أوان استهلت : فى الوقت الذى ارتفعت فيه الأصوات للحرب .

(٥) العزوف : المنصرف عن الشىء . استمرت : من المرارة .

(٦) راجع فى ترجمة عروة الأغانى (طبعة دار الكتب) ٣/ ٧٣ والشعر والشعراء ٢/ ٦٥٧ والخزانة ٤/ ١٩٤ والشعراء الصعاليك ص ٣٢٠.

من شجعان قبيلته وأشرافهم ، ومن ثَمَّ كان له دور بارز فى حرب داحس والغبراء [١].
أما أمه فكانت من نَهْد من قضاعة ، وهى عشيرة وضيعة لم تعرف بشرف ولا خطر ، فآذى ذلك نفسه ، إذ أحس فى أعماقه من قِبَلها بعار لا يُمْحى ، يقول [٢] :

وما بِىَ من عارٍ إخالُ علمتُه ... سوى أن أخوالى ـ إذا نُسبوا ـ نَهْدُ

فهى عاره ، الذى حلَّت البلية عليه منه ، والذى دفعه دفعًا إلى الثورة على الأغنياء ، وهى ثورة كانت مهذبة ، إذ لم يتحول إلى سافك دماء ولا إلى متشرد يرود مجاهل الصحراء ، فقبيلته لم تخلعه ، بل ظل ينزل فيها مرموق الجانب لسيرة كانت تروع معاصريه ومن جاءوا بعدهم ، إذ اتخذ من صعلكته بابًا من أبواب المروءة والتعاون الاجتماعى بينه وبين فقراء قبيلته وضعفائها ، ومن أجل ذلك لُقِّب عروة الصعاليك لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا فى غزواتهم وضاقت بهم الدنيا . وفى الأغانى « كان عروة بن الورد ، إذا أصابت الناس سنة (أزمة جدب) شديدة وتركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف ، يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته فى الشدة ، ثم يَحْفر لهم الأسراب ، ويَكْنُفُ عليهم الكُنُفَ (الحظائر) ويكسبهم . ومن قَوِىَ منهم ـ إما مريضٌ يبرأ من مرضه أو ضعيف تثوب قوته ـ خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباقين فى ذلك نصيباً . حتى إذا أخصب الناس وألبَنُوا وذهبت السنة ألحق كلَّ إنسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها ، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى ، فلذلك سمى عروة الصعاليك [٣] » . وفى خبر آخر أن عبساً كانت إذا أجدبت أتى ناس منها ممن أصابهم جوع شديد وبؤس فجلسوا أمام بيت عروة ، حتى إذا أبصروا به صرخوا ، وقالوا أيا أبا الصعاليك أغثنا ، فكان يرق لهم ويخرج بهم فيصيب معاشهم [٤] .

وعروة بذلك كله يعبر عن نفس كبيرة ، فهو لا يغزو للغزو والنهب والسلب كالشَّنْفَرى وتأبط شرا ، وإنما يغزو ليعين الهُلاَّك والفقراء والمرضى والمستضعفين من قبيلته ، والطريف أنه لم يكن يُغير على كريم يبذل ماله للناس ، بل كان يتخير

---

(١) أغانى ٣/٨٨ .
(٢) ديوانه ص ١٥٧ .
(٣) أغانى ٣/٧٨ وما بعدها والشعر والشعراء ٢/٦٥٧ .
(٤) أغانى ٣/٨١ .

لغارته من عُرفوا بالشح والبخل ومن لا يمدون يد العون للمحتاج فى قبائلهم ، فلا يرعون ضعفاً ولا قرابة ولا حقاً من حقوق أقوامهم[1] . وبذلك كله تصبح الصعلكة عنده ضرباً من ضروب النبل الخلقى ، وكأنها أصبحت صِنْواً للفروسية ، بل لعلها تتقدمها فى هذه الناحية من التضامن الاجتماعى بين الصعلوك والمعوزين فى قبيلته . وبلغ عروة من ذلك أنه كان لا يؤثر نفسه بشيء على من يرعاهم من صعاليكه ، فلهم مثل حظه غزوا معه أو قعد بهم المرض أو الضعف . وهو يضرب بذلك مثلا رفيعاً فى الرحمة والشفقة والبذل والإيثار .

ولعروة ديوان برواية ابن السكيت ، طُبع مراراً ، فى جوتنجن والجزائر والقاهرة وبيروت ، وتتردد أشعاره فيه هذه المعانى الكريمة التى قدمناها ، وهى معان جعلت معاصريه ومن جاءوا بعدهم يعجبون به إعجاباً شديداً ، فقد كانت قبيلته تأتمّ به فى خلاله وخصاله ، وكان معاوية يقول : « لو كان لعروة بن الوَرْد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم[2] » أما عبد الملك بن مروان فكان يقول : « من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد »[3] وكان يقول أيضاً : ما يسرُّنى أن أحداً من العرب ولدنى ممن لم يلدنى إلا عروة بن الورد لقوله :

إنى امرؤٌ عافى إنائىَ شِرْكةٌ وأنت امرؤٌ عافى إنائِك واحدُ[4]

أتهزأ منى أن سمنتَ وأن ترى بجسمى شحوبَ الحق ، والحقُّ جاهدُ

أُفرِّق جِسْمى فى جسوم كثيرةٍ وأَحْسُو قَراحَ الماء ، والماءُ باردُ[5]

وعروة يعبّر عن معنى إنسانى رفيع ، إذ تعرَّض له بعض أصحابه يعيبه بأنه مُضْنىً هزيل شاحب اللون ، فقال له : إننى يشركنى كثيرون من العفاة والسائلين ذوى الحاجة فى إنائى أو طعامى ، أما أنت فلا يشركك أحد ، ولذلك سمنت أما أنا فأصبحت ضامراً نحيلا ، وما شحوب وجهى إلا أثر من آثار نهوضى بحقوق هؤلاء المحتاجين والمعوزين ، فلست أنا الخليق بالهزؤ والسخرية ، إنما الخليق بذلك السمين

---

(١) أغانى ٣/٨١ .

(٢) أغانى ٣/٧٣ .

(٣) أغانى ٣/٧٤ .

(٤) العافى : طالب المعروف . ويريد بقوله : عافى إنائك واحد أنه يأكل وحده .

(٥) حسا الماء : شربه شيئاً بعدشيء . القراح : الخالص الذى لا يخالطه لبن ولا غيره .

البـطين . وما لبث أن قال : إنه يقسم طعامه بينه وبين الفقراء أو بعبارة أدق يقسم جسمه فى جسومهم ، بل كثيراً ما يؤثرهم على نفسه بكل طعامه مع جوعه ومسغبته مكتفياً بشرب الماء البارد ، على حين يعصف الشتاء بزمهريره . والذى لا ريب فيه أنه طمح إلى مثل نبيل فى البرّ والإيثار ودفع غوائل البؤس والشقاء عن البؤساء والضعفاء . ونحن نقف عند قصيدة أنشدها له الأصمعى فى أصمعياته[1] ، وهى بذلك من أوثق شعره وأصدقه . وهو يستهلها بتوجيه الخطاب إلى امرأته سلمى التى تلومه على كثرة مخاطراته ومغامراته فى الغزوات والغارات ، وقد ردّ عليها بأنه يبغى حسن الأحدوثة وبقاءها ، وأنه إنما يرمى بنفسه فى المهالك من أجلها ، حتّى يغنيها ، وحتّى لا تشعر بالحاجة من بعده أو بالذل والهوان ، وهى تماريه شفقة عليه :

تقول : لكَ الويلاتُ هل أنتَ تاركٌ ضُبُوءًا بِرَجْلٍ تارة وبِمَنْسِرِ[2]

فهى تقول له إنك لن تنتهى عن غاراتك بالصعاليك من الراجلين تارة ومن الفرسان تارة ثانية ، وحرى بك أن تكف عن ذلك ، حتّى لا تلقى حتفك ، ويردّ عليها :

أَبَى الخَفْضَ من يَغْشاكِ من ذى قرابةٍ ومن كلِّ سوداءِ المعاصم تَعْترى[3]
ومُسْتَهْنِئٍ ، زيدٌ أبوه ، فلا أرى له مَدْفَعاً ، فاقْنَىْ حياءكِ واصْبرِى[4]

فهو لا يستطيع القعود عن الغزو كما تريد زوجه ، لما عليه من واجبات وحقوق لأقربائه المحتاجين من قبيلته ، ونسائها المعوزات ، والعُفاة ، طلّاب العطاء من الضعفاء ، فهو إنما يغزو من أجل الوفاء بحقوق هؤلاء جميعاً . ويعرض عليها صورتين للصعلوك ، صورة رديئة ، وصورة جيدة ، أما الصورة الأولى ففيها يتراءى الصعلوك خاملا ، حسبه أن ينال أكلة من فتات مائدة ، لا يهمه أهله ولا عياله

---

(١) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ٣٥ .

(٢) ضبوء : غزو . رجل : جمع راجل ضد راكب . المنسر كمجلس ومنبر : الجماعة من الخيل بين الثلاثين والأربعين .

(٣) الخفض : الدعة ولين العيش . ويريد بسوداء المعاصم التى أجهدها الجوع والهزال . تعترى : تغشى .

(٤) مستهنئ : طالب للهنء وهو العطاء ، وزيد من أجداد عروة يريد أنه قريبه . اقنى حياءك : صونيه واحفظيه .

ولا قوتهم ، يقول :

لَحَى اللهُ صُعْلوكاً إذا جنَّ ليلُه ... مُصَافى المُشاشِ آلِفاً كلَّ مَجْزَرِ[١]

يَعُدُّ الغِنى من دهره كلَّ ليلـةٍ ... أَصاب قِراها من صديق ميسَّرِ[٢]

ينامُ عِشـاءً ثم يُصْبح قاعِدًا ... يَحُتُّ الحصَا عن جنْبِه المتعفِّرِ[٣]

يُعين نسـاءَ الحيِّ ما يستعنَّه ... فيُضْحى طَلِيحاً كالبعير المحسَّرِ[٤]

وواضح أنه ينعته بأنه ضعيف الهمة فحسبه لقمة تشبعه، مما يتساقط من فضلات الموسرين . وإنه لينام ملء جفونه فليس هناك ما يشغله ، وحتى هو فى النهار ليس هناك ما يعمله سوى خدمة النساء ، فهو ذليل مهين يعيش عالة على مجتمعه . ومثل هذا الصعلوك جدير بكل ملامة ، لأنه يَحْيَا حياة وضيعة . أما الصعلوك الآخر الشريف فهو جدير بكل ثناء وتشجيع من الزوجة وغير الزوجة ، يقول فى وصفه :

ولله صعلوكٌ صحيفةُ وجهـهِ ... كضَوْءِ شِهابِ القابسِ المتنوِّرِ[٥]

مُطِـلاًّ على أعدائهِ يَزْجُرونه ... بساحتهم زَجْرَ المَنِيحِ المشهَّرِ[٦]

وإن بَعُدُوا لا يأْمنون اقترابَهُ ... تشوُّف أهلِ الغائبِ المتنظَّرِ[٧]

فذلك إن يَلْقَ المنيَّةَ يلْقَهـا ... حَميدًا ، وإن يَسْتَغْنِ يوماً فأَجْدِرِ

فهذا هو الصعلوك الذى يعجب به عروة ، صعلوك وجهه مشرق بأعماله المجيدة ، لا يزال يطل على أعدائه ويشرف عليهم ، فيظفر منهم بكل ما يريد ، على الرغم من صياحهم به وزجرهم له . وهم مهما بعدوا لا يأمنون غزوه ، بل إنهم لينتظرونه

---

(١) لحى : قبح ولعن . المشاش : رءوس العظام اللينة . المجزر : موضع الجزر .

(٢) قراها : طعامها . ميسر : غنى كثرت إبله .

(٣) يحث : يحرك .

(٤) الطليح : المعيى ، ومثله المحسر .

(٥) صحيفة الوجه : بشرته . الشهاب : شعلة ساطعة من النار . القابس : الذى يقبس النار أو يأخذها . المتنور : المضيء .

(٦) مطلا : مشرفاً . يزجرونه : يصيحون به كما يزجر القدح إذا ضرب . المنيح : قدح سريع الخروج ولا نصيب له . المشهر : المشهور .

(٧) تشوف : تطلع . المتنظر : المنتظر قدومه .

انتظار أهل الغائب له ، علماً منهم بأنه لابد راجع إليهم ومصيب منهم . ويقول إن مثل هذا الصعلوك المغامر الجرىء إن يمت تظل ذكراه خالدة لمحامده ومناقبه . ويمضى فيحدثنا عن غزواته وغاياتها ، يقول :

أيهلك مُعْتَمٌ وزيدٌ ولم أقُمْ على نَدَبٍ يوماًولى نفسُ مُخْطِرِ(١)

ستُفْزِعُ بعد اليَأْسِ منْ لا يخافنا كواسِعُ فى أُخْرَى السَّوام المُنفَّرِ(٢)

نُطاعِنُ عنها أولَ القوم بالقَنَا وبِيضٍ خِفافٍ وقْعُهُنَّ مُشَهَّرُ(٣)

ويوماً على غاراتِ نَجْد وأهلِه ويوماً بأرضٍ ذات شَثٍّ وعَرْعَرِ(٤)

يُريح علىَّ الليلُ أضيافَ ماجدٍ كريمٍ ومالى سارحاً مالُ مُقْتِرِ(٥)

وهو فى أول هذه الأبيات يستنكر أن تهلك عشيرتا معتم وزيد ، وهو قاعد فى الحى ، لا يخاطر بنفسه من أجلهما فذلك عار ما بعده عار . لقد خُلق لرعاية الضعفاء والهلاّك من قبيلته ، وهو لذلك لابد مقتحم مع رفاقه من الصعاليك الفرسان حِمَى بعض القبائل ليسوقوا منها ما يشاءون من الإبل السائمة ، وهم يهجمون تارة فى الحجاز وتارة فى نجد . وكل ذلك حتى يغنم ما يقدِّمه لضيفانه ، وكم يغنم ! إلا أنه لا يُبْقى على شىء فى يده ؛ فماله مال مقتر أو فقير مقل .

والحق أن عروة كان صعلوكاً شريفاً ، وأنه استطاع أن يرفع الصعلكة وأن يجعلها ضرباً من ضروب السيادة والمروءة ، إذ كان يستشعر فى قوة فكرة التضامن الاجتماعى وما يطوى فيها من إيثار وبِرٍّ بالفقراء ، فهو لا يسعى لنفسه فحسب ، وإنما يسعى قبل كل شىء للمعوزين من عشيرته حتى يدفع عنهم كل ما يجدون من بؤس وشقاء .

---

(١) معتم وزيد : بطنان من عبس . ندب : خطر .

(٢) كواسع : خيل تطرد إبلا وتكسعها . السوام : الإبل السائمة . أخرى : آخر . المنفر : المذعور .

(٣) بيض : سيوف . وفى البيت إقواء . ورواية الديوان : ذات لون مشبر ، ولو صحت لم يكن فى البيت إقواء .

(٤) الشث والعرعر : من أشجار البادية .

(٥) يريح : يرد . ويقصد بالماجد الكريم نفسه ، كما يقصد بماله إبله . سارحاً : سائماً فى المرعى . مقتر : فقير مقل .

٣

شعراء آخرون

مرّ بنا فى غير هذا الموضع أن جماعات من اليهود نزلت فى أواخر القرن الأول للميلاد وأوائل الثانى بالمدينة والواحات المنثورة فى شماليها بالحجاز مثل فدَك وخَيْبر ووادى القُرَى وتَيْماء ، واضطرتهم مواطنهم الجديدة إلى تعلم العربية ، وإن ظلوا على دينهم ، ومما يلفت النظر أنهم لم يتركوا أى أثر مكتوب ، وقد عنى هؤلاء اليهود بالزراعة والصناعات اليدوية . وأخبارهم فى الجاهلية توحى بأن العرب لم يأمنوهم ، إذ كانوا يعدونهم من أعدائهم ، وكانوا يزدرونهم ازدراء شديداً ، ومَنْ يتابع موقفهم من الإسلام وكيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم اضطُرَّ — لكيدهم له ونقضهم لما بينهم وبينه من عهود موثقة مراراً وتكراراً — إلى إجلائهم عن المدينة ، وأتمّ عمر من بعده هذا الإجلاء عن الجزيرة ، مَنْ يتابع ذلك يعرف أن العرب كانوا فى الجاهلية يجفونهم وينفرون منهم ومن دينهم ، فلم يؤثّروا فيهم شيئاً ، وعلى العكس نجد اليهود يتعلمون العربية ، وينفذ بعضهم إلى النظْم بها .

على أنه ينبغى أن نحتاط إزاء ما يحدثنا الرواة عن شعرائهم وأشعارهم ، فلا نثق بكل ما رووه فى هذا الصدد ، فقد يكون بعض أبنائهم ممن أسلموا هم الذين زيفوا هذه الأشعار ووضعوها على ألسنتهم . ويظهر أن هذا الوضع قديم فنحن نجد ابن سلام يفتح لشعرائهم فصلا[1] فى كتابه « طبقات فحول الشعراء » يسوق فيه ذكر ثمانية من شعرائهم وينشد لكل شاعر بعض ما اشتهر له ، وهم على التوالى السموأل بن الغريض بن عادياء ، والربيع بن أبى الحُقَيْق ، وكعب بن الأشرف ، وشُرَيح بن عمران ، وشعية بن الغريض أخو السموأل ، وأبو قيس بن رفاعة ، وأبو الذيّال ، ودرهم بن يزيد . ويضيف أبو الفرج فى الأغانى[2] وابن هشام فى السيرة النبوية أسماء أخرى مثل أوس بن دنىّ وسمّاك والغريض بن السموأل .

---

(١) ابن سلام ص ٢٣٥ .

(٢) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ / ٩٤ وما بعدها.

وأشهرهم جميعاً السموأل[١] صاحب حصن الأبلق بتيماء ، وكان معاصراً لامرئ القيس ، ومرت بنا أسطورته معه وما قالوا من أن امرأ القيس استودعه سلاحه ، فسار إليه الحارث بن أبي شمر الغسانى أو الحارث بن ظالم المرى على اختلاف الروايات ، فطلب منه سلاح امرئ القيس ، فأغلق حصنه من دونه ؛ وتصادف أن كان له ابن خارج الحصن ، فأخذه الحارث ؛ وهدده إن لم يعطه السلاح قَتَل ابنه ، فقال له : اقتله ، فلن أعطيه لك . وبذلك وَفَى على غير عادة قومه ! وسبق أن قلنا إن هذا من باب الأساطير كما سبق أن اتهمنا قصيدة الأعشى التي عرضت لهذه القصة فى إسهاب . ومما نُسب إلى السموأل خطأً القصيدةُ المشهورة :

إذا المرءُ لم يَدْنَس من اللُّؤْم عِرْضُه ... فكلُّ رداءٍ يَرْتديه جميلُ

وهى لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى[٢] ، وهو شاعر إسلامى . وقد نشر لويس شيخو ديواناً له برواية نفطويه فى مجلة المشرق ببيروت سنة ١٩٠٩ وهى رواية ضعيفة ، إذ تشتمل على مقطوعات كثيرة يتضح فيها أنها منحولة . وروى الأصمعى تائية له[٣] ، لا نكاد نقرأ فيها حتى نحس أثر الصنعة والانتحال ، وهى تستهلّ بالحديث عن نشأة الإنسان وحياته وبعثه بعد موته على هذا النمط :

نُطْفَةٌ ما مُنِيتُ يومَ مُنِيتُ ... أُمِرَتْ أَمْرَها وفيها وُبِيتُ[٤]

كنَّها اللهُ فى مكانٍ خَفِيٍّ ... وخَفِيٌّ مكانُها لو خَفِيتُ

أنا مَيْتٌ إذ ذاك ثُمَّتَ حَيٌّ ... ثم بعدَ الحياة للبعْثِ مَيْتُ

وصلة هذه الأبيات بما جاء فى القرآن الكريم عن نشأة الإنسان وأنه من نُطْفَةٍ يُمْنَى وأنه يحيى ثم يموت ثم يُبْعَثُ ؛ فهو ينتقل من موت إلى حياة ؛ وما حياته الثانية فى الآخرة بمستغربة ، إنها تلى موته وحياته الأولى التى تحوّل إليها من ماء دافق يخرج من بين الصُّلْب والترائب ويقول جلّ وعز : (أو لم يَرَ الإنسانُ أنا خلقناه

---

(١) انظر ترجمته فى الأغانى ١٩/٩٨ .

(٢) شرح المرزوقى على ديوان الحماسة لأبى تمام (طبع لجنة التأليف) ١/١١٠ .

(٣) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ٨٤ وراجع ابن سلام ص ٢٣٦ .

(٤) ما منيت : ما زائدة . ومنيت : قدرت وخلقت . وبيت : هيئت .

من نُطْفَة فإذا هو خَصِيم مبين ،وضرب لنا مثلا ونَسِيَ خَلْقَه قال من يُحيِي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) . وتردَّدُ هذا المعنى فى الذكر الحكيم هو الذى يجعلنا نشك فى هذه القصيدة ، ونعتقد اعتقاداً أنها نُظِمت فى العصور الإسلامية على هَدْى التنزيل العزيز ،ويدل على ذلك دلالة قاطعة أننا نحس إزاء بعض أبياتها أنها نظمٌ مباشر لبعض آى القرآن الكريم مثل :

ليت شعرى ! وأشعرنَّ إذا ما قِيل إقرأْ عُنْوانها وقريتُ[1]

وأصل هذا البيت قوله تعالى فى سورة الإسراء: (وكلَّ إنسان ألزمناه طائره فى عُنُقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابكَ كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) وعلى هذه الشاكلة :

مَيْتَ دَهْرٍ قد كنتُ ثم حييتُ وحياتى رَهْنٌ بأَن سأَموتُ

فإن البيت ترديد لمثل قوله سبحانه : (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه تُرْجَعُون) .

والحق أن الشعر المضاف إلى يهود الجاهلية من أمثال السموأل ينبغى أن نحذر منه ، وخاصة حين يُعلى من أخلاقهم ويسمو بها ، أو حين يندمج فى بعض ما يردده القرآن الكريم من أفكار ومعان لم تكن معروفة قبله ، ولعله من أجل ذلك لم يرو المفضل الضبي فى مفضلياته شعراً ليهودى ، وكأنه لم يثبت عنده شعر لهم .

وإذا كان العرب الشماليون فى الجاهلية استشعروا البغضاء لليهود فلم يتهود منهم أحد ، فإنهم لم يحسوا نفس الإحساس إزاء النصرانية والنصارى ، وإن ظلوا فى الجملة يحتفظون بدينهم الوثنى ويرون فيه رمز استقلالهم وسيادتهم ، وأنه ينبغى أن لا تتخطفهم الديانات من حولهم . وكانت المسيحية أمامهم فى الشام ديناً للدولة ، ودخل فيها الغساسنة كما قدمنا فى غير هذا الموضع ، وكانت منتشرة بين الآراميين فيما بين النهرين بالعراق ، واعتنقها اللخميون فى أواخر القرن

---

(١) رواية هذا الشطر فى ابن سلام: « قربوها منشورة فقريت» . وقريت : لغة فى قرأت .

السادس للميلاد ، وكانت منتشرة قبل اعتناقهم لها فى جمهور عربى من سكان الحيرة سمى بالعِباديين ، وتشير الكلمة التى سُمّوا بها ، إلى أنهم عباد الله ، وكانوا أخلاطاً من قبائل شتى . وقد انتشرت فى الجنوب بنجران فكانت مركزاً مهمًّا من مراكزها ، كما عُرفت فى بعض القبائل الشمالية والشرقية مثل قضاعة وكلب وطيئ وبكر وتغلب وتنوخ وتميم ، ويزعم اليعقوبى أن نفراً من مكة تنصروا قبيل الإسلام[1] . وكل ذلك معناه أن المسيحية كانت منبثة فى الجزيرة وأن كثيرين من العرب الجاهليين دخلوا فيها ، ويتردد عند شعرائهم الوثنيين ذكر الراهب المسيحى ، وكأنه كان شخصية شعبية معروفة للجميع .

وأشهر شعراء المسيحية فى الجاهلية عَدِىُّ بن زيد[2] شاعر الحيرة المشهور ، وهو من العِباديين ومن بيت شريف من بيوتهم النصرانية ، خدم أبوه فى دواوين الفرس وفى دواوين المناذرة بالحيرة ، ولما أيفع ابنه عدى عُنى بتربيته وتأديبه على الطريقة الفارسية ، فكان يُحْسِن لغة الفرس كما كان يحسن لغة العرب وتعلَّمَ الرمى بالنشَّاب ولعب العجم على الخيل بالصَّوالجة . ولم يلبث أن التحق بديوان كسرى أبرويز بن هرمز (٥٩٠ — ٦٢٨ م) وعُهِد إليه فيه بالشئون العربية ، ويقال إن كسرى أرسله إلى ملك الروم فى بيزنطة بهدية ، فلما أتاه بها أكرمه . وفى أثناء عودته مرَّ بدمشق وهناك انطلق لسانه بالشعر . وعاد إلى الحيرة فوجد أباه قد توفى . وظل مدة متنقلا بين الحيرة والمدائن ، وما نلبث أن نرى الأمور تفسد بينه وبين النعمان أبى قابوس ، مع أنهم يقولون إنه لعب دوراً فى توليته على الحيرة بعد أبيه دون بقية إخوته . ويقال إن الذى أفسد ما بينهما بعض بنى مَرِينا ، إذ زعموا للنعمان أنه يقول إنه عامله وإنه هو الذى ولاه ما ولاّه . فاضطغن عليه النعمان ، وانتهز فرصة مجيئه من لدن كسرى ذات مرة ، وأمر بحبسه ولم يُجْدِه عنده استعطافه ولا ما نظمه من أشعار فى مديحه . وعلم كسرى فكتب إلى النعمان يأمره

---

(١) تاريخ اليعقوبى (طبعة أوربا) ٢٩٨/١ وراجع المحبر لابن حبيب ص ٧١ ، وابن هشام ٢٣٩/١ .

(٢) انظر فى عدى بن زيد الأغانى (طبعة دار الكتب) ٩٧/٢ وما بعدها ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ١٧٦/١ وخزانة الأدب ١٨٤/١ وما بعدها والموشح للمرزبانى ص ٧٢ وكتاب لويس شيخو : « النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » .

بإطلاقه ، غير ن الرسول وجد عدياً قد مات فى سجنه مختنقاً . وغضب كسرى حين علم بذلك على النعمان غضباً شديداً ، وربما كان هذا الغضب أهم الأسباب فى قضائه عليه كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع .

وأهم الموضوعات التى يدور فيها شعر عَدِىّ الخمرُ ، وذكرُ الموت والفناء، وهو فى الموضوع الأول يعد أباً لشعراء الخمر فى الجاهلية من مثل الأعشى ، ثم لمن ظهروا فى العصور الإسلامية بعد ذلك من مثل الوليد بن يزيد وأبى نواس. وفى أخبار الوليد أنه كان من ندمائه القاسم بن الطويل العبادى ، وكان أديباً ظريفاً شاعراً، وكان لا يصبر عنه ، ونظن ظنّاً أنه هو الذى وصله بشعر عدى، إذ كان يرويه له ويغنّى فيه معبد وغيره من المغنين بمثل هذا الصوت[1] :

بَكَرَ العاذلون فى وَضَح الصُّبْـ ... ـح يقولون لى ألا تَسْتفيقُ

لستُ أَدرى وقد جفانى خليلى ... أعدوٌّ ياومنى أم صديقُ

ثم قالوا ألا اصْبَحُونا فقامتْ ... قَيْنَةٌ فى يَمينها إبْريقُ[2]

قدَّمتْه على عُقارٍ كعين الـ ... ـدِّيك صَفّى سُلافَها الرَّاووق[3]

وواضح أن الأبيات من نفس الألحان والأنغام المعروفة للوليد ومَنْ جاءوا بعده من شعراء الخمريات ، وكأن القاسم العبادى هو الذى وجه الوليد ليحتذى فى خمرياته على أسلوب عدى وليجرى فى طريقته .

ويروى الرواة لعدى بجانب شعره فى الخمر أشعاراً فى الفناء وزوال الحياة ، وهى تجرى فى أسلوبين : أسلوب يتحدث عن الحياة والموت وأن الدنيا غير باقية ، وأسلوب قصصى يتخذ من التاريخ وهلاك الملوك والأوائل وسيلة إلى العظة والعبرة ، ومن الأسلوب الأول قوله على لسان المقابر[4] :

من رآنا فليحدِّثْ نفسَه ... أنه موفٍ على قَرْنِ زوالِ[5]

وصروف الدَّهر لا يبْقَى لها ... ولما تأتى به صُمٌّ الجبالِ

---

(١) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٧/٦٥ .

(٢) اصبحونا : اسقونا خمر الصباح .

(٣) الراووق : الدن .

(٤) الأغانى ٢/١٣٤ .

(٥) قرن : طرف .

رُبَّ رَكْبٍ قد أناخوا عندنا يشربون الخمرَ بالماء الزُّلالِ[1]
عُمِّرُوا دهرًا بعيشٍ حَسَنٍ آمِنِى دَهْرِهِمُ غيرَ عِجالِ
ثم أَضْحَوْا عَصَف الدهرُ بهم وكذاك الدهرُ يُودى بالرجالِ
وكذاك الدهرُ يرمى بالفتَى فى طِلاب العيش حالا بعد حالِ

فالدنيا إلى زوال وكلٌّ من عليها فان، حتى صُمُّ الجبال، ولا يغرنك ما يغرق فيه بعض الناس من ترف ونعيم، فعمَّا قليل يعصف بهم الدهر كما عصف بمن قبلهم . ومن الأسلوب الثانى قوله[2] :

أيُّها الشامتُ المعيِّر بالدَّهْـ ـرِ أأنتَ المبرَّأُ الموفورُ
أم لديك العهدُ الوثيقُ من الأيَّـ ـام بل أنت جاهلٌ مغرورُ
من رأيت المَنون خَلَّدْن أم مَنْ ذا عليه من أن يضام خفير[3]
أين كسرى : كسرى الملوك أنوشِرْ وانُ أم أينَ قبله سابورُ
وبنو الأَصْفر الكرامُ ملوكُ الـ رّوم لم يبق منهمُ مذكور

ويستمر فى ذكر ملوك مختلفين شيدوا قصوراً شامخة، وانتهى أمرهم إلى الفناء، وطوتهم الحُفَر والقبور كأن لم يكونوا شيئاً مذكورا ، إلى أن يقول :

ثم بعد الفلاح والملك والإمَّـ ـةِ وارتهمُ هناك القبورُ[4]
ثم صاروا كأنهم وَرَقٌ جَـ ـفَّ فألْوتْ به الصَّبَا والدَّبورُ[5]

ويكثر البحترى فى حماسته من إنشاد مثل هذه الأبيات لعدى بن زيد التى يتحدث فيها عن الحياة والموت ومصير الملوك السابقين . ونحن لا نطمئن إلى كل هذه الأشعار . بل نقف منها موقفنا من نظيرها عند الأعشى ؛ فإن القُصَّاص والوعاظ على ما يظهر أضافوا إليه أشعاراً كثيرة حتى ليمكن القول بأن أكثر ماروى له من أشعار منحول عليه ؛ ولعل ذلك ما جعل اللغويين

---

(١) الزلال : الصافى العذب .
(٢) الأغانى ٢/١٣٨ .
(٣) المنون : الموت ، وأعاد عليه الضمير مجموعاً.
(٤) الإمة : النعمة .
(٥) ألوت : ذهبت . الصبا والدبور : ريحان .

يرفضون الاستشهاد بشعره ، ولاحظ ابن سلام كثرة الوضع عليه فقال : « عدى بن زيد كان يسكن الحيرة ومراكز الريف فلان لسانه وسهل منطقه ، فحمل عليه شيء كثير وتخليصه شديد[١] » وأكبر الظن أن هذا هو السبب فى أن المفضل والأصمعي لم يثبتا له فى مجموعتيهما شيئاً من شعره . وقد قلنا فى غير هذا الموضع إنه لا يفصح فى شعره عن فكرة التثليث المسيحية ، وينبغى أن لا نغلو فى فهم مسيحية أمثال عدى فى الجاهلية ، فإنها لم تكن تتعمق نفوسهم ، وإن كان من المؤكد أنها أثرت فيهم ، بل لقد سقط منها تأثيرات إلى الشعراء الوثنيين فرأيناهم يذكرون أحياناً الرهبان والنواقيس ومحاريب الكنائس وقد يذكرون بعض الأنبياء مما جعل لويس شيخو يسلك أكثر شعراء الجاهلية فى النصرانية ، وهو مخطئ فى ذلك خطأ بيناً .

وربما كان أهم شاعر جاهلى وثنى ظهر عنده واضحاً التأثر بأهل الكتاب أمية[٢] ابن أبى الصلت الثقفى ، وهو من الطائف ويقال إنه اتصل بالأحبار وتحنف ولبس المسوح وتنسك . وكان يزور مكة قبل البعثة ، وله مدائح فى سيد من سادتها المشهورين هو عبد الله بن جُدْعان ، الذى يقول له فى بعض مدائحه[٣] :

أأذكرُ حاجتى أم قد كفانى ... حَياؤك إن شيمتَك الحياءُ
كريمٌ لا يغيِّره صباحٌ ... عن الخُلُقِ الكريم ولامساءُ
وأرضُك كلُّ مكرمةٍ بنتْها ... بنو تَيْمٍ وأنتَ لهم سماءُ[٤]

ويقول أيضاً[٥] :

عطاؤك زَيْنٌ لامرئٍ قد حبَوْتَهُ ... بخيْرٍ ، وما كل العطاء يَزِينُ
وليس بشَيْنٍ لامرئٍ بَذْلُ وَجْهِهِ ... إليك ، كما بعضُ السؤالِ يشِينُ

ولما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومه أضلَّه الله فعاداه ، وزيَّن له

---

(١) ابن سلام ص ١١٧ وانظر الحيوان ٧ / ١٤٩ والشعر والشعراء ١ / ١٧٦ .

(٢) انظر فى أمية الأغانى (طبعة الساسى) ١٦ / ٦٩ وطبعة دار الكتب ٨ / ٣٢٧ وما بعدها وابن سلام ص ٢٢٠ وما بعدها وخزانة الأدب ١ / ١٣٠ وحياة الحيوان للدميرى ٢ / ١٥٤ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١ / ٤٢٩ .

(٣) ابن سلام ص ٢٢٢ والأغانى ٨ / ٣٢٨ .

(٤) بنو تيم : عشيرة عبد الله بن جدعان .

(٥) ابن سلام ص ٢٢٢ والأغانى ٨ / ٣٢٨ .

الشيطان سوء عمله وأغواه، فلم يُسْلِم، بل أخذ فى معاندة الرسول ومحادَّته بلسانه، ولما هُزِمَتْ قريش فى موقعة بدر هزيمتها المشهورة . فقُتِل كثير من رجالها وسادتها حزَّ ذلك فى نفسه ، فناح على قَتْلاها بقصيدة طويلة يقول فيها[1] :

ماذا ببَدْرٍ فالعَقَنْـ ـقَلِ من مَرَازِبَةٍ جَحَاجِحْ[2]
هلَّا بكيتَ على الكِرا م بنى الكرام أُولى الممادِحْ

وجمع له شولتهس Schulthess مجموعة من أبياته ترجمها إلى الألمانية ونشرها فى ليبزج سنة ١٩١١ وفى سنة ١٩٣٦ نشر له بشير يموت فى بيروت طائفة من أشعاره باسم ديوان أمية . وتدور هذه الأشعار فى موضوعين أساسيين أما الموضوع الأول فيتحدث فيه عن خلق السموات والأرض ونشأة الكون مستدلا بذلك على وجود الله ، ومتحدثاً عن الموت والفناء والبعث والنشور والعذاب والثواب على شاكلة قوله[3] :

إلهُ العالمين وكل أَرضٍ وربُّ الراسياتِ من الجبالِ
بناها وابْتَنَى سَبْعاً شِداداً بلا عَمَدٍ يُرَيْنَ ولا رِحال[4]
وسوَّاها وزيَّنها بنورٍ من الشمس المضيئة والهلال
ومن شُهبٍ تَلأْلأُ فى دُجاها مراميها أشدّ من النِّصال[5]
وشقَّ الأَرض فانبجستْ عيوناً وأنهارًا من العَذْب الزُّلالِ[6]
وكلُّ معمَّرٍ لا بُدَّ يوماً وذى دُنيا يصير إلى زوالِ
ويَفْنَى بعد جِدَّتِه ويَبْلَى سوى الباقى المقدّس ذى الجلال
وسِيق المجرمون وهم عراةٌ إلى ذات المقامع والنَّكال[7]
فنادوا وَيْلَنا وَيْلاً طويلا وعَجُّوا فى سلاسلها الطِّوَالِ[8]

(١) ابن سلام ص ٢٢١ .
(٢) العقنقل : كثيب رمل ببدر . المرازبة : جمع مرزبان وهو رئيس القوم المقدم عليهم . الجحاجح : جمع جحجاح وهو السيد الكريم .
(٣) ديوان أمية (طبعة شولتهس) ص٣٠ .
(٤) السبع الشداد : السموات السبع .
(٥) النصال : جمع نصل وهو حد السيف .
(٦) انبجست : انفجرت .
(٧) المقامع : محاجن من حديد يضرب بها الحيوان الشكس .
(٨) عجوا : صاحوا ورفعوا أصواتهم .

فليسوا ميّتين فيستريحوا وكلهمُ بحرِّ النـارِ صالِ
وحَلَّ المتقون بدارِ صِدْقٍ وعَيْشٍ ناعمٍ تحت الظلال

وهذه المعانى تستمد من القرآن الكريم بصورة واضحة . وأساوبها ضعيف واهن ، ولذلك كنا نظن ظنًّا أنها وما يماثلها مما نُحل على أمية . والموضوع الثانى الذى يدور فيه شعره ليس أقل من الموضوع الأول اتهاماً ، بل لعل الاتهام فيه أوضح ، إذ نراه يقص علينا سير الأنبياء، قَصَصاً لا يكاد يفترق فى شىء عما جاء فى القرآن الكريم كقوله فى رؤية إبراهيم أنه يذبح ابنه إسماعيل وما كان من افتدائه بذبح عظيم[1] :

ولإبراهيمَ الموفِّى بالنَّـذْ رِ احتساباً وحامل الأَجْزالِ[2]
بِكْرَهُ لم يكن ليَصْبِرَ عَنْهُ أَو يراه فى معشرٍ أَقْتالِ
يا بُنَىَّ إنَّنِى نذرتك لِلَّـ هِ شحيطافاصْبِرْفِدًى لك حالى[3]
فأَجاب الغلامُ : أَنْ قال فوهُ كلُّ شىءٍ لله غيرَ انتحال
فاقْضِ ما قد نذرتَ لله واكْفُفْ عن دمى أَن يمسَّه سرْبالى[4]
بينما يخلع السَّرابيل عنه فكَّه ربُّه بكَبْشٍ جُلال[5]
قال : خُذْهُ وأَرسل ابنك إنِّى للذى إن فعلتما غـيرُ قالِ

وواضح أن هذا شعر ركيك ساقط الأساوب نظمه بعض القصاص والوعاظ فى عصور متأخرة عن الجاهلية . وقد ذهب هيار يزعم حين اطلع على شعر أمية أنه اكتشف فيه مصدراً من مصادر القرآن الكريم[6] ، ولو كان له علم بالعربية وأساليب الجاهليين لعرف أنه وقع على أشعار منتحلة بينة الانتحال ، ولما تورط فى هذا الخطأ البيِّن، وقد رد عليه غير واحد من المستشرقين[7] . ويظهر

(١) ديوان أمية ص ٣٣ .
(٢) الأجزال : العظام .
(٣) شحيطاً : ذبيحا .
(٤) سربالى : ثوبى .
(٥) جلال : عظيم .
(٦) انظر الجزء العاشر من المجلة الآسيوية قسم ٤ (١٩٠٤) ص ١٢٥ .
(٧) انظر تاريخ الآداب العربية لبروكلمان ١/ ١١٣ ودائرة المعارف الإسلامية فى «أمية» .

أن الانتحال على أمية قديم ، ففى ابن سلام أن الحسن بن على بن أبى طالب استنشد النابغة الجعدىّ بعض شعره ، فأنشده قصيدته :

الحمدُ لله لا شريكَ لَهُ   من لم يَقُلها فنفسَه ظَلما

فقال له : « يا أبا ليلى ما كنا نروى هذه الأبيات إلا لأمية بن أبى الصلت ، قال : يا بن رسول الله ! والله إنى لأول الناس قالها[1] » وكأن اختلاطاً حدث بين شعر النابغة الجعدى وأمية . ومما نحلوا أمية من قديم أيضاً أشعار مختلفة فى قصص الحيوان والطير وبعض الزواحف كالحيات ، ويشركه عدى فى بعض هذه الجوانب ، وكأن القصاص والوعاظ أجروا على لسانهما كثيراً من الشعر الذى أرادوا به إلى العظة والاعتبار ، وإنما نقول إنهم نحلوهما ذلك من قديم ، لأننا نجد الجاحظ ينشد لهما أشعاراً كثيرة فى هذا الاتجاه[2].

وواضح مما قدمناه أن ما رُوى من أشعار على ألسنة اليهود ومن تنصَّر من العرب فى الجاهلية وكذلك من تحنَّف كأمية دخله وضع كثير ، ولذلك ينبغى أن نحترس منه وأن لا نتسع فى الحكم عن طريقه على ديانات القوم ومعتقداتهم ، إذ يجرى فيه الانتحال ، وقد دخله كثير من الغُثاء والإسفاف فى اللفظ والتعبير .

---

(١) ابن سلام ص ١٠٦ وما بعدها .

(٢) انظر مثلا الحيوان ٢ / ٣٢٠ وما بعدها ، ٣ / ٥١١ ، ٤ / ١٩٦ وما بعدها .

الفصل الثانى عشر

النثر الجاهلى

١

صور النثر الجاهلى

حين نتحدث عن النثر الجاهلى ننحّى النثر العادىّ الذى يتخاطب به الناس فى شئون حياتهم اليومية ، فإن هذا الضرب من النثر لا يعدّ شيء منه أدباً إلا ما قد يجرى فيه من أمثال ، إنما الذى يُعَدُّ أدباً حقًّا هو النثر الذى يقصد به صاحبه إلى التأثير فى نفوس السامعين والذى يحتفل فيه من أجل ذلك بالصياغة وجمال الأداء ، وهو أنواع ، منه ما يكون قَصصا وما يكون خطابة وما يكون رسائل أدبية محبَّرة . ويسمّى بعض الباحثين النوع الأخير باسم النثر الفنى .

وليس بين أيدينا وثائق جاهلية صحيحة تدل على أن الجاهليين عرفوا الرسائل الأدبية وتداولوها ، وليس معنى ذلك أنهم لم يعرفوا الكتابة ، فقد عرفوها ، غير أن صعوبة وسائلها جعلتهم لا يستخدمونها فى الأغراض الأدبية الشعرية والنثرية ، ومن ثَمّ استخدموها فقط فى الأغراض السياسية والتجارية[١] . ولا ينقض ذلك ما جاء فى السيرة النبوية من أن سُوَيْد بن الصامت قدم مكة حاجًّا ومعتمراً .. فتصدّى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به ، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام ، فقال له سُوَيد : فلعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذى معك ؟ قال : مجلّة لقمان ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعْرِضْها علىّ ، فعرضها عليه ؛ فقال له : إن هذا لكلام حسن . والذى معى أفضل من هذا : قرآن أنزله الله علىّ ، هو هُدًى ونور ، فتلا عليه رسول الله القرآن ، ودعاه إلى الإسلام فلم يَبْعُدْ منه ، وقال : إن هذا القول حسن[٢] .. »

(١) انظر الفن ومذاهبه فى النثر العربى (الطبعة الثالثة بدار المعارف) ص ١٩ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبى) ٢/ ٦٨ .

وهذا الخبر إنما يفيد أنه كان عندهم صحيفة بها بعض أمثال وحكم مما كانوا ينسبونه إلى لقمان ، ووجود مثل هذه الصحيفة لا يدل على أنهم استخدموا الكتابة فى التعبير عن وجدانهم نثراً وشعراً ، فقد كانت محدودة الانتشار بينهم ، ومن التعسف أن نزعم ذلك لمجرد الظن ، بينما تنقصنا أو تعوزنا النصوص الحسية . وإذا كنا نفتقد الأدلة المادية على وجود رسائل أدبية فى العصر الجاهلى فمن المحقق أنه وُجدت عندهم ألوان مختلفة من القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهان . ومن المؤكد أنهم كانوا يُشْغَفون بالقصص شغفاً شديداً . وساعدتهم على ذلك أوقات فراغهم الواسعة فى الصحراء، فكانوا حين يُرْخى الليل سُدوله يجتمعون للسمر ، وما يبدأ أحدهم فى مضرب من مضارب خيامهم بقوله : كان وكان ، حتى يرهف الجميع أسماعهم إليه ، وقد يشترك بعضهم معه فى الحديث ، وشبابُ الحى وشيوخه ونساؤه وفتياته المخدرات وراء الأخبية كل هؤلاء يتابعون الحديث فى شوق ولهفة .

ومن غير شك كان يُفيض القَصَّاص على قصصه من خياله وفنه ، حتى يبهر سامعيه ، وحتى يملك عليهم قلوبهم فيحولهم من الشفقة إلى محبة الانتقام ومن الضحك إلى الجِدّ ، وعيونهم تلمع فى وجوههم السمْر وقلوبهم تخفق من آن إلى آن، وليس بين أيدينا شىء من أصول هذا القَصَصِ الذى كان يدور بينهم ، غير أن اللغويين والرواة فى العصر العباسى دوّنوا لنا ما انتهى إليهم منه. وطبيعى أن تتغير وتتحرّف أصوله فى أثناء هذه الرحلة الطويلة التى قطعتها من العصر الجاهلى إلى القرن الثانى الهجرى ، وإن كان من الحق أنها ظلت تحتفظ بكثير من سمات القصص القديم وظلت تنبض بروحه وحيويته .

ويمكننا بواسطة ما دوّنه العباسيون أن نعرف ألوان هذا القَصص الذى كانوا يتناقلونه بينهم ، وربما كان أكثر هذه الألوان شيوعاً على ألسنتهم أيامهم وحروبهم وما سجّله أبطالهم فيها من انتصارات مروّعة وما مُنيت به بعض قبائلهم من هزائم منكرة، وقد ظلوا يقصُّون هذه الأيام والحروب إلى أن تناولها منهم لغويّو القرن الثانى للهجرة ورُواته، فدونوها تدويناً منظماً على نحو ما هو معروف عن أبى عبيدة فى شرحه لنقائض جرير والفرزدق ، وتوالى من بعده التأليف فيها والعناية بها على نحو ما تقدم فى غير هذا الموضع .

وكانوا يقصون كثيراً عن ملوكهم من المناذرة والغساسنة ومن سبقوهم أو عاصروهم مثل ملوك الدولة الحميرية ومثل الزبـَّاء ، مما نجده مبثوثاً فى تاريخ الطبرى وفى السيرة النبوية لابن هشام ، وسقط من ذلك كثير إلى أبى الفرج فى أغانيه ، ومن المحقق أن كثيرا من هذا القـَصص يخالف التاريخ الحقيقى لهؤلاء الملوك، على نحو ما هو معروف عن قصة الزباء ، فإنها لا تتفق فى شيء ووثائق التاريخ الرومانى الصحيحة[١] حتى اسمها وهو زنوبيا Zenobia حـُرِّف إلى الزباء ، وربما جاء هذا التحريف من أن أباها كان يـُدْعى زباى ، فنسبوها إليه وقالوا بنت زباى ، ومع مر الزمن حذفوا كلمة بنت ، وأبدلوا الياء المتطرفة بعد الألف حسب قواعدهم الصرفية همزة ، وأدخلوا على الاسم أداة التعريف فأصبحت الزباء .

وعلى نحو ما كانوا يقصّون عن ملوكهم وأبطالهم كانوا يقصّون عن ملوك الأمم من حولهم وشُجْعانهم ،يدل على ذلك ما جاء فى السيرة النبوية من أن النَّضْر بن الحارث كان من شياطين قريش وممن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويَنْصِبُ له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رُسْتم وإسْفنديار ،فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسًا، فذكّر فيه بالله،وحذّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله خـَلَفـَه فى مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسنُ حديثًا منه ، فهلم إلىّ ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورُسْتم وإسْفنديار[٢] . . »

ومما لا ريب فيه أنهم كانوا يقصرن كثيرًا عن كُهـَّانهم وشعرائهم وسادتهم ، وهو قـَصَص استمدت منه كتب التاريخ والشعر والأدب مـَعِينًا لا ينضب من الأخبار ، وارجعْ إلى تراجم صاحب الأغانى فستراها تحفل بمادة غنية من القصص ، وقد بثوا فيها غير قليل من قصَص ِ الهوى ، كقصة المرقِّش الأكبر وصاحبته أسماء بنت عوف ،وما كان من عشقه لها وهو غلام ومحاولته خطبتها من أبيها، واعتذار الأب له بحداثة سنه وأنه لم يـُعْرفْ بعد بشجاعة، وما كان من انطلاق المرقِّش إلى بعض الملوك ومديحه له وبقائه عنده زمنًا، وفى هذه الأثناء أصاب عـَوْفًا زمان شديد،

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٣/٩٩ وما بعدها .

(٢) السيرة النبوية (طبعة الحلبى) ١/٣٢١

فأتاه رجل من مُراد. فأرغبه فى المال، فزوجه ابنته على مائة من الإبل، ورحل بها إلى أهله . وقال إخوة المرقّش لا تخبروه بخبرها حين يرجع ، بل قولوا له إنها ماتت ، وذبحوا لذلك كبشًا ، أكلوا لحمه ودفنوا عظامه ، فلما قدم المرقش قالوا له إنها ماتت ، ولم يلبث أن عرف الحقيقة بعد أن ظل مدة يعود قبر الكبش ويزوره . وخرج المرقش يطلب أسماء ، وبعد مغامرات يتعرف على راعى زوجها . ويرسل إليه أن يحدثها عنه ، فيقول له : إنى لا أستطيع أن أدنو منها ، ولكن تأتينى جاريتها كل ليلة ، فأحلب لها عنزًا ، فتأتيها بلبنها ، فقال له مرقش : خذ خاتمى هذا ، فإذا حلبتَ فألقه فى اللبن ، فإنها ستعرفه . وإنك مصيب بذلك خيرًا لم يصبه راع قط إن أنت فعلت ذلك . فأخذ الراعى الخاتم . ولما راحت الجارية بالقدح وحلب لها العنز طرح الخاتم فيه، فانطلقت الجارية به وتركته بين يدى أسماء. فلما سكنت الرَّغْوة أخذته فشربته، وكذلك كانت تصنع . فقرع الخاتم ثنيّتها، فأخذته واستضاءتْ بالنار ، فعرفته ، فقالت للجارية : ما هذا الخاتم ؟ قالت : مالى به علم . فأرسلتها إلى مولاها وهو بنجران ، فأقبل فزعًا، فقال لها : لم دعوتنى ؟ قالت له : ادْعُ عبدك راعىَ غنمك ، فدعاه، فقالت : سَلْه أين وجد هذا الخاتم ، قال : وجدته مع رجل فى كَهْف خَبّان، فقال لى : اطرحه فى اللبن الذى تشرب به أسماء، فإنك مصيب به خيرًا، وما أخبرنى مَنْ هو ،ولقد تركته بآخر رمَقٍ . فقال له زوجها : وما هذا الخاتم؟ قالت : خاتم مرقّش، فأعْجِل الساعة فى طلبه . فركب فرسه وحملها على فرس آخر وسارا حتى طرَقاه من ليلتهما ، فاحتملاه إلى أهلهما ، فمات عند أسماء وقال : قبل أن يموت :

سَرَى ليلا خيالٌ من سُلَيْمى ... فأَرَّقنى وأَصحابى هجودُ

فبِتُّ أُدِير أَمرى كلَّ حالٍ ... وأَذكر أَهلها وهمُ بَعيد

سكنَّ ببلدةٍ وسكنتُ أُخرى ... وقُطِّعتِ المواثقُ والعهودُ

فما بالى أَفِى ويُخَانُ عَهْدِى ... وما بالى أُصادُ ولا أَصيدُ

ثم مات فدفن فى أرض مُراد(١).

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٢٩/٦ وما بعدها .

ولم نَسُق هذه القصة مؤمنين بأنها نفس قصة المرقش التى دارت فى الجاهلية بلغتها وبجميع تفاصيلها ، ولكننا سقناها لندل بطوابعها على صورة أمثالها فى الجاهلية ، وما كان يتيح القصّاص لمثلها من عناصر التشويق ، تارة بما يضيف إلى القصة من خياله ، وتارة بما يضيف إليها من أشعار ، وقد يضيف إليها أمثالا ، على نحو ما نعرف فى قصة الزبّاء ، وهى تتضمن عند الضّبّى اثنى عشر مثلا[1] .

وإذا صح ما ذهب إليه بروكلمان من أن تعرف أحد العاشقين على الآخر عن طريق الخاتم شائع فى كثير من الحكايات عند أمم غير العرب[2] كان معنى ذلك أن قصص الجاهليين حتى فى الحب تسربت إليها عناصر من حكايات العشق المماثلة عند الأمم الأجنبية . ويدخل فى هذا الجانب بعض خرافاتهم عن الحيوانات التى يلتقون فيها بخرافات الأجانب[3] ، كخرافة الحية والفأس ، وقد رواها الضبى على هذه الشاكلة[4] :

« زعموا أن أخوين كانا فيما مضى فى إبل لهما ، فأجدبت بلادهما ، وكان قريبًا منهما واد فيه حية ، قد حمته من كل أحد ، فقال أحدهما الآخر : يا فلان لو أنى أتيت هذا الوادى المُكْلِئ ، فرعيت فيه إبلى وأصلحتها ، فقال له أخوه : إنى أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحداً لم يهبط ذاك الوادى إلا أهلكته ، قال : فوالله لأهبطنّ . فهبط ذلك الوادى ، فرعا إبله به زمانًا ، ثم إن الحية لدغته ، فقتلته . فقال أخوه : ما فى الحياة بعد أخى خير ، ولأطلبن الحية فأقتلها أو لأتبعنّ أخى . فهبط ذلك الوادى ، فطلب الحية ليقتلها ، فقالت : ألست ترى أنى قتلت أخاك ، فهل لك فى الصلح ، فأدعك بهذا الوادى ، فتكون به ، وأعطيك ما بقيتَ ديناراً فى كل يوم . قال : أفاعلة أنتِ ؟ قالت : نعم ، قال : فإنى أفعل . فحلف لها وأعطاها المواثيق ، لا يضيرها . وجعلت تعطيه كل يوم ديناراً ، فكثر ماله ونمت إبله ، حتى كان من أحسن الناس حالا . ثم إنه ذكر أخاه ، فقال : كيف ينفعنى العيش ، وأنا أنظر إلى قاتل أخى فلان ؟ . فعمد إلى فأس ، فأحدّها ، ثم قعد لها ، فمرت به ، فتبعها ، فضربها فأخطأها ، ودخلت الجحر ،

---

(١) أمثال العرب للمفضل الضبى (الطبعة الأولى بالقاهرة) ص ٨١ وما بعدها .

(٢) انظر تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١/١٠٢ .

(٣) انظر كتاب الأمثال فى النثر العربى القديم لعبد المجيد عابدين ص ٤٢ .

(٤) أمثال العرب للضبى ص ١٠٦ .

فرمى الفأس بالجبل فوقع فوق جُحْرها، فأثّر فيه . فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذى كانت تعطيه ، ولما رأى ذلك تخوّف شرها وندم ، فقال لها : هل لك فى أن نتواثق (نتعاهد) ونعود إلى ما كنا عليه ، فقالت : كيف أعاهدك ؟ وهذا أثر فأسك وأنت فاجر ، لا تبالى العهد . فكان حديث الحية والفأس مثلا مشهوراً من أمثال العرب ، قال نابغة بنى ذبيان (من قصيدة يعاتب بها بنى مرة) :

وإنى لألقى من ذوى الضِّغْن منهمُ بلا عَثْرة ، والنفس لا بُدَّ عَاثِره
كما لقيتْ ذاتُ الصَّفَا من حليفها وما انفكَّتِ الأَمثالُ فى الناس سَائره

ويُنْشِدُ الضبي بقية القطعة التى يتحدث فيها النابغة عن قصة الحية مع هذا الراعى الذى اختان عهده . ونحن نشك فى الأبيات كما نشك فى أن القصة حافظت على الأصل الجاهلى، وإن كنا فى الوقت نفسه نظن ظَنّـًا أنها تعطينا جانباً من روح القصص الجاهلى ، وأنه كان يلتقى فى بعض جوانبه بقصص الحيوان المعروف عند الهنود، والذى تسرب منهم إلى الأمم الأخرى على نحو ما نعرف فى قصص إيسوب اليونانى، وبين قصصه الزارع والحية[1] ، وكأنما تسرب هذا النوع من الهند إلى العرب واليونان جميعًا .

ومما لا شك فيه أن عرب الجاهلية قَصّوا كثيراً عن الجن والعفاريت والشياطين ، وقد زعموا أنها تتحوّل فى أى صورة شاءت إلا الغول فإنها دائماً تبدو فى صورة امرأة عدا رجليها ، فلا بد أن تكونا رجلى حمار . وكثيراً ما تتراءى الجن فى صورة الثيران والكلاب والنعام والنسور . وكانوا يزعمون أن أهم منازلها أرض وبار وصحراء الدهناء ويَبْرين . ومن غير شك دخل كثير من قصصهم عنها فى كتب الأساطير والعجائب التى ألفت فى العصر العباسى .

ونحن لم نسق ذلك لنؤكد أنه بقيت لنا من القصص الجاهلى بقية صالحة للدراسة ، فإن شيئا من هذا القصص الذى يضاف إلى الجاهليين لم يصلنا مدوناً مكتوبًا . ولذلك كنا نتهمه جملة ، وإن كنا بعد هذا الاتهام نعود فنزعم أنه يصور لنا مادة قصصهم وروحه وطبيعته وكثيراً من ملامحه ، ولكن لا بصورة دقيقة ، وإنما بصورة عامة .

---

(١) انظر الأمثال فى النثر العربى القديم ص٤٣ .

٢

الأمثال

إذا كان القصص الذى أضيف إلى الجاهليين لا يحمل لنا صورة دقيقة للنثر الجاهلى بحكم تأخره فى التدوين فإن الأمثال تحمل لنا غير قليل من هذه الصورة ، إذ أن من شأنها أن لا تغيَّر ، وأن تظل طويلا بصورتها الأصلية، بحكم إيجازها وكثرة دورانها على الألسنة . وقد سارع العرب إلى تدوينها منذ أواسط القرن الأول للهجرة،إذ ألف فيها صُحار العَبْدى أحد النسابين فى أيام معاوية بن أبى سفيان (٤١-٦٠ هـ) كتاباً كما ألف فيها عُبيد بن شَرِيَّة معاصره كتاباً آخر ،ويقول صاحب الفهرست إنه رآه فى نحو خمسين ورقة[1] . وإذا انتقلنا إلى القرن الثانى وجدنا التأليف فى الأمثال يكثر ، إذ أخذ علماء الكوفة والبصرة جميعاً يهتمون بها ويؤلفون فيها ، وقد وصلنا عن هذا القرن كتاب أمثال العرب للمفضل الضبى ، ونمضى إلى القرن الثالث ، فيؤلف أبو عبيد القاسم بن سلام فيها كتاباً يشرحه من بعده أبو عُبيد البكرى باسم « فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال لأبى عبيد القاسم بن سلام » . وما تزال المؤلفات فى الأمثال تتوالى ، حتى يؤلف أبو هلال العسكرى كتابه « جمهرة الأمثال » ويخلفه الميدانى ، فيؤلف كتابه « مجمع الأمثال » وهو يقول فى مقدمته إنه رجع فيه إلى ما يربو على خمسين كتاباً .

ومن يرجع إلى هذه الكتب يجدهم يسوقون الكلمة السائرة التى تسمى مثلا ، ولا يكتفون بذلك ، بل يقفون غالباً لسرد القصة أو الأسطورة التى تمخض عنها المثل، وقد تتمخضُ عن أمثال أخرى فترْوَى فى تضاعيفها . وموقفنا من هذه الأقاصيص والأساطير لا يختلف عن موقفنا من القصص الجاهلى بعامة ، فنحن لا نتخذ منها صورة للنثر الجاهلى وإن اختلجت بروحه وطبيعته وحيويته ، لنفس السبب الذى ذكرناه ، وهو تأخر تدوينها . أما الأمثال نفسها فمن المحقق أن طائفة كبيرة مما روته الكتب السالفة يتحتم أن تكون جاهلية، وخاصة أكثر ما رواه عُبيد ابن شَرِيَّة، ولو أن كتابه لم يسقط من يد الزمن ووصلنا لاطمأننا إلى ما يرويه

(١) الفهرست ص ١٣٢ .

من هذه الأمثال ، غير أنه فُقد . ولم يحاول من جاءوا بعده أن يفردوا الأمثال الجاهلية من الإسلامية ، إذ دَرَج أكثرهم على ترتيب الأمثال حسب الحروف الاولى على نحو ما ترتِّب المعاجم ألفاظها ، فهم يرتبونها أو يؤلفونها فى تسعة وعشرين باباً بعدد أبواب الحروف الهجائية . وبذلك أصبح من الصعب تمييز جاهليها من إسلاميها فى كثير من الأحيان ، ومع ذلك قد يورد أصحاب هذه الكتب مع ما يروونه من الأمثال إشارات تدل على جاهليتها وقدمها ، وهى تتخذ عندهم طريقين : الطريق الأول أن يسوقوا مع المثل قصة جاهلية تفسره ، أو أن يساق هو فى أثناء قصة جاهلية ، كتلك الأمثال التى نقرؤها فى قصة الزبَّاء من مثل : « لايطاع لقصير أمرٌ » و« لأمرٍ ما جدَعَ قصيرٌ أنفه » و« بيدى لا بيد عمرو » وقد بلغت أمثال هذه القصة عند الميدانى ثمانية عشر مثلا . ومن هذا الطريق ما يتصل بأحداث أو أساطير جاهلية كالذى زعموا أن النعمان بن امرئ القيس اللخمى ابتنى قصراً له يسمى الخوَرْنق ، بناه له رومى يسمى سنِمَّار ، فلما أتمه قال له سنمار : إنى أعرف موضع آجرَّة لو زالت لسقط القصر كله ، فقال له النعمان : أيعرفها أحد غيرك ؟ فقال : لا ، فقال : لا جرم لأدَعَنَّها وما يعرفها أحد ، ثم أمر به فرُمى من أعلى القصر إلى أسفله فتقطع ، فضرب به الجاهليون المثل فقالوا : جزاء سِنِمَّار .

وأما الطريق الثانى فهو أن ينسبوا المثل إلى جاهليين ، فحينئذ يتعين زمنه وتاريخه ، وهناك كثيرون اشتهروا فيهم بالحكمة والأمثال السائرة ، ومنهم من يُغْرِق فى القدم مثل لُقْمان عاد ، تلك القبيلة اليمنية التى كانت تنزل فى الأحقاف ، والتى بادت ولم تبق منها باقية فى الجاهلية ، وقد ظل اسم لقمان يدور على ألسنة شعرائهم [١] وظلوا يذكرونه بالحكمة والبيان والحلم . يقول الجاحظ : « من القدماء ممن كان يُذْكَرُ بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنَّكْرَاء لقمان عاد » وينص على أنه غير لقمان الحكيم المذكور فى القرآن الكريم [٢] كما ينص على ذلك المفسرون [٣] . ولقدم لقمان حفَّت الأسطورة به وبحياته وكل ما يتصل بصلاته مع الناس والنساء . فقال الأخباريون إنه كان عملاقاً كبير الرأس قويًّا قوة

---

(١) البيان والتبيين ١/١٨٣ وما بعدها و ٣/٣٠٤ .

(٢) البيان والتبيين ١/١٨٤ .

(٣) قصص الأنبياء للثعلبى (طبعة القاهرة) ٣٤٠ وتفسير أبى حيان ٧/١٨٦ وانظر خزانة الأدب للبغدادى ٢/٧٧ .

خارقة حكيماً حكمة بالغة ، وقالوا إنه عاش عمر سبعة نسور وأن كل نسر منها عاش ثمانين سنة وكان لُبَد آخرها ، وبه ضربوا المثل فى طول العمر فقالوا « طال الأبد على لبد »[١] . ونُسبت إلى لقمان فى عصور متأخرة طائفة من الأقاصيص أريد بها إلى العظة والاعتبار ، وسميت أمثال لقمان ، وهى مكتوبة بأسلوب ركيك ضعيف . وقد زعم هلر « Heller » كاتب مادة لقمان فى دائرة المعارف الإسلامية أن شخصية لقمان مرت بثلاث مراحل : (ا) مرحلة جاهلية وفيها يتراءى لقمان عاد الأسطورى الذى يقال إنه عاش عمر سبعة نسور وكلما هلك منها نسر خلفه نسر آخر ، حتى كان لُبَد الذى ذكره شعراؤهم كثيراً . (ب) مرحلة قرآنية ، وفيها نجد للقمان سورة خاصة به فى الذكر الحكيم وقد ربط بعض المفسرين بين لقمان هذا وبين بلعام حكيم بنى إسرائيل فسردوا له نفس نسبه إذ قالوا إنه لقمان بن باعور[٢] بن ناحور ابن تارخ . (ج) مرحلة متأخرة ، وهى مرحلة نُسج فيها ولفق قصص كثير حول لقمان كما يصور ذلك كتاب « أمثال لقمان » .

ومن المحقق أن « هلر » مخطئ فيما ذهب إليه من هذا التطور لشخصية لقمان ، لسبب بسيط ، وهو ما قلناه من أن قدماءنا فرّقوا بين لقمان عاد ولقمان القرآن الكريم ، فهما ليسا شخصا واحداً بل هما شخصان . وبينما تُعنى بالأول كتب الأمثال نجد الثانى تُعنى به وبوصاياه كتب الفقه والتفسير مثل موطأ مالك وتفسير أبى حيان ، وقد روى الجاحظ طرفاً من تعاليمه ، وهى تُطْبَعُ بطابع دينى[٣] .

واشتهر فى الجاهلية بينهم كثيرون بهذا اللون من الأمثال وما يتصل بها من حكم ، يقول الجاحظ : « ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء أكثم بن صَيْفى وربيعة بن حُذار وهرم بن قُطْبة وعامر بن الظَّرِب ولَبيد بن ربيعة »[٤] وأحكمهم أكثم بن صيفى التميمى وعامر بن الظَّرِب العدْوانى ، فأما أكثم فكان من المعمَّرين[٥] ،

---

(١) انظر المعمرين للسجستانى ص ٣ وأخبار عبيد بن شرية ص ٣٥٦ والخزانة ٧٧/٢ والميدانى ٣٧٥/١ .

(٢) انظر الثعلبى ٣٤٠ وتفسير أبى حيان ١٨٦/٧ .

(٣) البيان والتبيين ١٤٩/٢ .

(٤) البيان والتبيين ٣٦٥/١ .

(٥) انظر فى أكثم المعمرين للسجستانى ص ١٠ والأغانى (طبعة الساسى) ٧٠/١٥ ومجمع الأمثال ١٤٥/٢ وجمهرة الأمثال للعسكرى على هامشه ١٢٠/١ .

ويقال إنه لحق الإسلام وحاول أن يعلن إسلامه فركب متوجهاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، غير أنه مات فى الطريق . وتدور على لسانه حكم وأمثال كثيرة ، وقد ساق السيوطى فى المزهر طائفة منها نقلا عن ابن دريد فى أماليه، وهى تجرى على هذا النسق[١] :

« رُبَّ عَجُلةٍ تهب رَيْثا[٢]. ادَّرِعوا الليل فإن الليل أخفَى للوَيْل . المرء يعجز لا محالة . لا جماعة لمن اختلف . لكل امرئ سلطانٌ على أخيه حتى يأخذ السلاح ، فإنه كفى بالمشرفية واعظاً . أسرع العقوبات عقوبة البغْى . شر النُّصْرة التعدِّى . آلم الأخلاق أضيقها . أسوأ الآداب سرعة العقاب . رُبَّ قول أنفذ من صَوْل[٣] . الحرُّ حُرٌّ وإن مسَّه الضر . العبد عبد وإن ساعده الجدّ[٤] . إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد . رُبَّ كلام ليس فيه اكتتام . حافظ على الصديق ولو فى الحريق . ليس من العدل سرعة العذل . ليس بيسير تقويم العسير . إذا بالغت فى النصيحة هجمتْ بك على الفضيحة . لو أنصف المظلوم لم يبق فينا ملُوم . قد يبلغ الخَضْم بالقَضْم[٥] . استأن أخاك فإن مع اليوم غدا ! . كل ذات بَعْل ستَئِيم[٦] . الحر عزوف . لا تطمع فى كل ما تسمع » .

وعامر مثل أكثم يدخل فى المعمرين[٧] ، ويقال إنه « لما أسنّ واعتراه النسيان أمر ابنته أن تَقْرَع بالعصا إذا هو فَهَّ[٨] عن الحكم وجارَ عن القصد . وكانت من حكيمات العرب حتى جاوزت فى ذلك مقدار صُحَر بنت لقمان وهند بنت الخُسّ وجمعة بنت حابس . . وقال المتلمس فى ذلك :

لذى الحِلم قبل اليوم ما تُقْرَعُ العَصَا وما عُلِم الإنسانُ إلا ليعلما[٩] »

وكان مثل أكثم حكماً للعرب تحتكم إليه ، وافتخر بذلك ذو الإصبع العَدْوانى فى بعض شعره فقال[١٠] :

---

(١) المزهر للسيوطى (طبعة الحلبى) ١/١

(٢) الريث : البطء أى رب عجلة تفوّت على صاحبها حاجته

(٣) الصول : الاستطالة فى الحرب .

(٤) الجد : الحظ .

(٥) الخضم : الأكل ملء الفم . القضم : الأكل بأطراف الأسنان .

(٦) تئيم : يهلك عنها الزوج .

(٧) انظر المعمرين ص ٤٤ وأمثال الميدانى فى المثل : إن العصا قرعت لذى الحلم .

(٨) فه : حاد وجار وانحرف .

(٩) البيان والتبيين ٣/٣٨ .

(١٠) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٣/٩٠ .

ومنا حَـكَمٌ يَقْضِى فلا يُنْقَضُ ما يقْضِى

وتنسب إليه حكم ووصايا كثيرة لقومه(١) .

وأكثر حكمهم وأمثالهم لا يعيِّنون قائلها ، وهذا طبيعى لأنها تنبعث غالباً من أناس مجهولين من عامة القبائل، ممن لا يمجّدون ولا يحفل بهم الناس، وهم أيضاً لا يحفلون بأنفسهم لأنهم من العامة ، والعامة عادة لا يهتمون بنسبة فضل إليهم . ولا بد أن نلاحظ أن بعض أمثالهم يخفى المعنى المراد منه . ومن أجل ذلك كان لا يفهم إلا بالرجوع إلى كتب الأمثال، كقولهم: « بِعَيْنٍ ما أرينّك » فإن معناه : أسرعْ ، وهو معنى لا يتبادر إلى السامع من ظاهر اللفظ ، ومن ثم علّق عليه أبو هلال العسكرى بقوله : « هو من الكلام الذى قد عُرف معناه سماعاً من غير أن يدل عليه لفظه(٢) » . ولا بد أن نلاحظ أيضاً أن الأمثال لا تتغير ، فتقول : « الصيف ضَيَّعتِ اللبن» (٣) بكسر التاء إذا خاطبت الواحد والواحدة والاثنين والاثنتين والجماعة . ومن ثم كانوا يستجيزون فى المثل مخالفة النحو وقواعد التصريف والجمع ، . فى أمثالهم : « أعط القوسَ باريها(٤) » بتسكين الياء فى باريها والقياس فتحها ، وفيها أيضا : « أجناؤها أبناؤها » جمع جان و بان ، والقياس : « جُناتها بُناتها » لأن فاعلا لا يجمع على أفعال .

وإذا كانت بعض الأمثال تخالف نظام التصريف والنحو فإن الكثرة الكثيرة لا تشذ على هذا النظام ، بل إن طائفة منها تدخل فى الصياغة الجاهلية البليغة ، إذ نطق بها بعض بلغائهم وفصحائهم من أمثال أكثم بن صَيْفى وعامر بن الظَّرِب ، وكان خطباؤهم المفوّهون كثيراً ما يعمدون إلى حشْدها فى خطابتهم ، يقول الجاحظ : « كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثّلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع (٥)» وتبع شعراؤهم خطباءَهم يودعونها أشعارهم. ومن ثَمَّ كنا نجد كثيراً منها يتم له لحنه الموسيقى ، فإذا هو شطر

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٤٠١ ، ٢/ ١٩٩ .

(٢) جمهرة الأمثال للعسكرى على هامش مجمع الأمثال للميدانى ١/ ١٦٨ .

(٣) يضرب هذا المثل لمن يطلب حاجته بعد فوت أوانها .

(٤) أى استعن على ما تعمل بأهل الحذق والمهارة .

(٥) البيان والتبيين ١/ ٢٧١ .

أو بيت . وكثيراً ما نلاحظ فى بعض عباراتها احتفالا بتوازن الكلمات توازناً ينتهى بها إلى السجع كما نلاحظ فى بعض جوانبها اهتماماً بالتصوير ، ومن أجل ذلك يقول النَّظَّام إنها « نهاية البلاغة لما تشتمل عليه من حسن التشبيه وجودة الكناية[1] »

واقرأ هذه الأمثال :

تجوع الحُرَّة ولا تأكل بثَدْيَيْها[2] — المقدرة تُذْهِب الحفيظة — مقتلُ الرجل بين فكَّيه[3] — إنما المرءُ بأصغريه : قلبه ولسانه — من استرعى الذئبَ ظلم — فى الجريرة تشترك العشيرة[4] — وقد يأتيك بالأخبار من لم تزوِّد[5] — كذى العُرِّ يُكْوَى غيره وهو راتع[6] — استَنْوَق الجمل[7] — كالمستجير من الرَّمضاء بالنار[8] — حلَبَ الدَّهرَ اشْطُرَه[9] — يَخْبِط خَبْط عَشْواء[10] — المنيَّة ولا الدنيَّة[11] — تحت الرَّغوة اللبَنُ الصَّرِيح[12] — هُدْنَةٌ على دَخَن[13] — رمتْنى بدائها وانسلَّتْ .

فإنك تحس جمال الصياغة وأن صاحب المثل قد يعمد إلى ضرب من التنغيم الموسيقى للفظه ، فإذا هو يسجع فيه أو إذا هو ينظمه شطراً من بيت . وقد يعمد إلى ضرب من الأخيلة ، ليجسِّم المعنى ويزيده حدة وقوة. والحق أن كل شىء يؤكد أن العرب فى الجاهلية عُنُوا بمنطقهم واستظهار ضروب من الجمال فيه ؛ سواء ضربوا أمثالهم أو تحدثوا أو خطبوا ، وقد وصفهم جلَّ وعز أو وصف فريقاً منهم بقوله : « ولتعرفَنَّهم فى لَحْنِ القول » وقوله : « ومن الناس مَن يُعْجِبك قوله فى الحياة الدنيا » . وكأنما أصبحت المقدرة البيانية عندهم سليقة من سلائقهم ؛ ولذلك لم يكن عجباً أن تكون آية الرسول صلى الله عليه وسلم على صدق رسالته معجزةً بلاغية لا يستطيعون أن يجاروها هى القرآن الكريم . « وإنه لكتابٌ عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

---

(١) مجمع الأمثال ١/٥ .

(٢) يضرب فى صيانة الرجل الكريم نفسه عن المكاسب الخسيسة .

(٣) بين فكيه : أى لسانه وما يتكلم به .

(٤) الجريرة : الجناية .

(٥) شطر بيت لطرفة .

(٦) شطر بيت للنابغة .

(٧) استنوق : أصبح ناقة . يضرب مثلا لمن يظهر أن عنده رأياً ثم يتضح عجزه .

(٨) الرمضاء : الأرض شديدة الحرارة .

(٩) أشطره : الأشطر : أخلاف الناقة . يضرب مثلا لمن عرك الدهر .

(١٠) العشواء : الناقة ضعيفة البصر . يضرب مثلا فى التعثر .

(١١) الدنية : العمل الدنىء .

(١٢) الصريح : الخالص .

(١٣) دخن : حقد .

٣

الخطابة

ليس بين أيدينا نصوص وثيقة من الخطابة الجاهلية ، لما قلناه من بعد المسافة بين العصر الذى قيلتْ فيه وعصور تدوينها ، ولذلك كان ينبغى أن نحترس مما رواه منها صاحب الأمالى وصاحب العقد الفريد ، فأكثره أو جمهوره منحول . على أن اتهامنا لنصوصها لا ينتهى بنا إلى إنكارها على الجاهليين ، بل إنه لا ينتهى بنا إلى إنكار ازدهارها كما حاول بعض الباحثين[١] ، فقد كان كل شيء عندهم يؤهل لهذا الازدهار ، إذ لم يكن ينقصهم شيء من الحرية ، وكثرت المنازعات والخصومات بينهم والدعوة إلى الحرب مرة وإلى السلم مرة أخرى . وقد اتخذوا من مجالسهم فى مضارب خيامهم ومن أسواقهم ومن ساحات الأمراء ووفاداتهم عليهم ميادين لإظهار براعتهم وتفننهم فى المقال وحَوْك الكلام ، وأسعفتهم فى ذلك ملكاتهم البيانية وما فُطروا عليه من خلابة ولَسَن وبيان وفصاحة وحضور بديهة ، حتى ليقول الجاحظ : « وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام . . عند المقارعة أو المناقلة أو عند صراع أو فى حرب ، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا (أفواجاً) وتنثال عليه الألفاظ انثيالا . . وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر ، وله أقهر ، وكل واحد فى نفسه أنطق ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم للكلام أوجد ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر . . من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب[٢] » .

وكل ذلك عمل على ازدهار الخطابة فى الجاهلية ، وأن تتناول أغراضاً مختلفة ، فقد استخدموها فى منافراتهم ومفاخراتهم بالأحساب والأنساب والمآثر والمناقب ، كمنافرة علقمة بن عُلاثة وعامر بن الطفيل إلى هَرِم بن قُطْبة الفزارى[٣] ومنافرة

---

(١) فى الأدب الجاهلى لطه حسين ص ٣٧٤ .

(٢) البيان والتبيين ٣ / ٢٨ .

(٣) أغانى (ساسى) ١٥ / ٥١ .

القعقاع بن معبد التميمي وخالد بن مالك النهشلي إلى ربيعة بن حُذار الأسدي[١] . واستخدموها في الحض على القتال وبعث الموجدة في نفوس قبائلهم ودفعها إلى نيران الحرب وترامیهم في أوارها كأنهم الفراش ، يقول أبو زُبَيْد الطائي[٢] :

وخطيبٍ إذا تمعَّرتِ الأَوْ   جهُ يوماً في مأْقِطٍ مشهودِ[٣]

ويقول عامر المحاربي في مديح قومه[٤] :

وهم يدْعَمُونَ القولَ في كل موطنٍ   بكل خطيبٍ يترك القوم كُظَّما[٥]

يقوم فلا يَعْيا الكلامَ خطيبُنا   إذا الكربُ أنْسى الجِبْسَ أن يتكلما[٦]

وكما كان يدعو خطباؤهم إلى الحرب وسفك الدماء كانوا يدعون إلى الصلح وإصلاح ذات البَيْن وأن تضع الحرب أوزارها . يقول ربيعة بن مقروم الضبي[٧] :

ومتى تَقُمْ عند اجتماع عشيرةٍ   خطباؤنا بين العشيرة يُفْصَلِ

وكانوا كثيراً ما يخطبون في وفادتهم على الأمراء . إذ يقف رئيس الوفد بين يدي الأمير من الغساسنة أو المناذرة ، فيحييه ، متحدثاً بلسان قومه . وفي السيرة النبوية ما يصور جانباً من هذه الوفود ، إذ وفد كثير منها على الرسول منذ السنة الثامنة ، وكان يقوم خطيب الوفد بين يديه متحدثاً ، ويرد عليه خطيب الرسول على نحو ما هو معروف عن وفد تميم وخُطْبة عُطارد بن حاجب بن زُرارة بين يديه[٨] . وكان ذلك سنة شائعة بينهم في الجاهلية حين يفدون على الأمراء أو على من له رياسة وسيادة . يقول أوس بن حجر في رثاء فضالة بن كَلَدة[٩] :

أَبادُلَيْجَةَ مَنْ يكْفِي العشيرةَ إذ   أمسوا من الخَطْبِ في نارٍ وبَلْبالِ

أم من يكون خطيبَ القوم إذ حَفلوا   لدى الملوك ذوى أَيْد وأَفْضال[١٠]

---

(١) البيان والتبيين ٢/٢٧٢ .
(٢) البيان والتبيين ١/١٧٦ .
(٣) تمعرت الوجوه : تغيرت واصفرت . المأقط : موضع القتال .
(٤) المفضليات ، القصيدة ٩١ .
(٥) كظما : جمع كاظم وهو الساكت غيظاً .
(٦) الجبس : الجبان المنقطع .
(٧) أغاني (ساسي) ٩/٩٣١ .
(٨) تاريخ الطبري ، القسم الأول ص ١٧١١ والأغاني (طبعة دار الكتب) ٤/١٤٦ .
(٩) نقد الشعر لقدامة (طبعة الجوائب) ص ٣٥ وديوان أوس (طبعة بيروت) ص ١٠٣
(١٠) أيد : قوة .

وقد يَتَنَبرون فى الأسواق العظام ينصحون قومهم ويرشدونهم . على نحو ما هو معروف عن قُس وخطبته بسوق عكاظ ، وربما نصح الخطيب عشيرته وقومه الأقربين ، كبعض ما يُرْوَى عن عامر بن الظَّرب وأكثم بن صيفى . وكان من عادتهم فى الزواج ، وخاصة زواج أشرافهم وأبنائهم أن يتقدم عن الخاطب سيد من عشيرته ، يخطب باسمه الفتاة التى يريد الاقتران بها . وخطْبة أبى طالب السيدة خديجة للرسول صلى الله عليه وسلم مشهورة ، ويقول الجاحظ : « كانت خطبة قريش فى الجاهلية — يعنى خطبة النساء — : باسمك اللهم ذُكرتْ فلانة ، وفلان بها مشغوف ، باسمك اللهم ، لك ما سألت ، ولنا ما أعطيت »[١] . ويقول كان من عادة العرب فى هذه الخطبة أن يطيل الخاطب ويقصِّر المجيب[٢] . ويتحدث عن خطابتهم عامة فيقول : « اعلم أن جميع خطب العرب من أهل المدَر والوَبَر والبدو والحضر على ضربين منها الطوال ، ومنها القصار ، ولكل ذلك مكان يليق به وموضع يحسن فيه . ومن الطوال ما يكون مستوياً فى الجودة ، ومتشاكلا فى استواء الصنعة ، ومنها ذوات الفِقَر الحسان والنُّتف الجياد . . ووجدنا عددَ القصار أكثر ورواةَ العلم إلى حفظها أسرع[٣] » .

وليس كل ما يدل على ازدهار الخطابة فى الجاهلية ما رأيناه آنفاً من تعدد أنواعها وخَوْضها فى أغراض مختلفة من المصاهرة أو الوفادة على الأمراء أو النصح والإرشاد أو الدعوة إلى الحرب أو الكفِّ عن القتال أو فى المنافرات والمفاخرات ، فقد استقر فى نفوس العباسيين وعلى رأسهم الجاحظ أنهم كانوا يكثرون من الخطب وأن قبيلة من القبائل بل عشيرة من العشائر لم تكن تخلو من خطيب ، وهو يسوق فى البيان والتبيين أثباتاً طويلة بأسمائهم ومواقفهم مُورداً من حين إلى حين فقراً وشظايا من أقوالهم . ولعل من الخير أن نعرض أطرافاً من ذلك ، حتى تتضح لنا هذه النهضة الخطابية عندهم من بعض وجوهها ، وخاصة أننا لا نطمئن إلى ما يروى لهم فى كتب الأدب والتاريخ من خطب ، ومن ثَمَّ سنعمد عمداً إلى سرد أسماء خطبائهم من جهة وإنشاد بعض الأشعار التى تصور بيانهم وبراعتهم فى هذا اللون من ألوان نثرهم ، لما هو معروف من أن الشعر يمكن أن ينقل عن طريق الرواية آماداً من الأزمنة بفضل ما فيه من موسيقى تحفظه من الاضطراب على ألسنة الرواة

---

(١) البيان والتبيين ١/٤٠٨ .

(٢) البيان والتبيين ١/١١٦ .

(٣) البيان والتبيين ٢/٧ .

وتحولُ بينه وبين دخول خلل واسع فى صُورَه الأصلية .

وإذا رجعنا نستعرض أسماء خطبائهم وجدنا البيان والتبيين يموج بهم ، من مثل قيس بن شمَّاس فى يثرب ، وابنه ثابت وهو خطيب النبي صلى الله عليه وسلم . ومن خطباء الأنصار أيضاً سعد بن الربيع ، وهو الذى اعترضت ابنتُه النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : من أنت ؟ قالت : ابنة الخطيب النقيب الشهيد سعد ابن الربيع[١] . أما مكة فمن قدماء خطبائها هاشم وأمية ونُفَيْل بن عبد العزى جد عمر بن الخطاب ، وإليه تنافر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية[٢]. ويظهر أنه كان فيها خطباء كثيرون ، وربما كان مما هيأ لكثرتهم وجود دار الندوة بها ، وهى تشبه مجلس شيوخ مصغراً ، كانوا يجتمعون فيها ويخطبون ويتحاورون[٣] ، وممن عُرف فيها بالخطابة عُتْبة بن ربيعة وسُهَيل بن عمرو الأعلم ، وهو الذى قال فيه عمر للرسول صلى الله عليه وسلم : « يا رسول الله ! انزع ثَنِيَّتَيه[٤] السُّفليين حتى يُدْلعَ[٥] لسانه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً » فقال الرسول عليه السلام : « لا أمثِّل فيمثِّل الله بى ، وإن كنت نبيًّا ، دعه يا عمر ، فعسى أن يقوم مقاماً تحمده[٦] »

وممن اشتهروا بالخطابة فى القبائل عامر بن الظَّرِب فى عَدوان وربيعة[٧] بن حُذار فى أسَد وحنظلة بن ضرار فى ضَبَّة وقد طال عمره حتى أدرك يوم الجمل[٨] ، وعمرو ابن كلثوم فى تغلب[٩] وهانئ بن قبيصة فى شيبان ، وهو خطيب يوم ذى قار[١٠] ، وزهير بن جَناب فى كَلْب وقُضاعة[١١] ، وابن عمار فى طيء ، وهو خطيب مَذْحِج كلها[١٢] . ومن خطبائهم لبيد بن ربيعة العامرى ، ومن قوله[١٣] :

وأَخْلُفُ قُسًّا ليتنى ولو آننى   وأُعْيى على لقمانَ حكمَ التدبُّر

وهَيْذان بن شَيْخ الذى قال فيه الرسول صلوات الله عليه : ربَّ خطيب من عَبْس[١٤] ، وخُوَيْلد بن عمرو والعُشَراء بن جابر الغطفانيان[١٥] ، ومن خطباء

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٥٨ – ٣٦٠ .
(٢) تاريخ الطبرى ، القسم الأول ص ١٠٩١ .
(٣) السيرة النبوية (طبعة الحلبى) ٢/١٢٤
(٤) الثنيتان : الأضراس فى مقدم الفم .
(٥) يدلع : يسترخى ، فلا يحسن النطق .
(٦) البيان والتبيين ١/٣١٧ .
(٧) نفس المصدر ١/٣٦٥ والأغانى (ساسى) ١٠/٦١ .
(٨) نفس المصدر ١/٣٤١ .
(٩) نفس المصدر ٢/١٤١ .
(١٠) أغانى (ساسى) ٢٠/١٣٧
(١١) نفس المصدر ٢١/٦٥ .
(١٢) البيان والتبيين ١/٣٤٩ .
(١٣) البيان والتبيين ١/١٨٩ .
(١٤) البيان والتبيين ١/٢٧٣ .
(١٥) نفس المصدر ١/٣٥٠ .

غطفان أيضاً قيس بن خارجة بن سنان الذى خطب فى حرب داحس والغبراء يوماً إلى الليل[١] وهَرِم بن قُطْبة الفزارى[٢] الذى احتكم إليه علقمة بن عُلاثة وعامر بن الطفيل، فقال لهما — كما مر بنا —: « أنتما كركبتى البعير الأدْرَم (الفحل) تقعان على الأرض معاً[٣] ».

ومن خطباء تميم المفوَّهين أكثم بن صيفىّ وضَمْرة بن ضَمْرة، ويروى أنه لما دخل على النعمان بن المنذر زَرَى عليه للذى رأى من دَمامته وقصره وقلته، فقال للنعمان : « تسمعُ بالمُعَيْدِىّ لاأن تراه» فقال: أبيتَ اللّعن! « إن الرجال لاتُكال بالقُفْزان[٤] ولاتوزن بالميزان، وليستْ بمُسُوكٍ[٥] يُسْتَقَى بها، وإنما المرء بأصْغرَيه: بقلبه ولسانه، إن صال صال بِجَنَان، وإن قال قال ببيان[٦] » . ومن خطباء تميم أيضاً عُطارد بن حاجب بن زُرارة وهو خطيب وفدها، كما مر بنا بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنهم عمرو بن الأهتم المنقرىّ ، ولم يكن فى بادية العرب فى زمانه أخطب منه[٧] ، ويروى أن الرسول سأله عن الزِّبْرِقان بن بدر فقال « مانعٌ لحوزته ، مطاعٌ فى أدْنيه » فقال الزِّبرقان: « أما إنه قد علم أكثر مما قال ، ولكنه حسدنى شرفى » فقال عمرو : « أما لئن قال ما قال ، فو الله ما علمته إلا ضَيِّق الصدر ، زَمِرُ[٨] المروءة ، لئيم الخال، حديث الغنى . فلما رأى أنه قد خالف قوله الآخر قوله الأول ورأى الإنكار فى عينى رسول الله قال : « يا رسول الله ! رضيتُ فقلتُ أحسن ما علمت ، وغضبتُ فقلت أقبح ما علمت ، وما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الآخرة » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : « إن من البيان لسحراً[٩] » . ومن خطباء بنى منقر التميميين أيضاً قيس بن عاصم الذى قال فيه الرسول صلوات الله عليه حين رآه : هذا سيدُ أهل الوبر[١٠] ، وهو الذى قال فيه عَبْدة بن الطبيب حين مات[١١] :

وما كان قيسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحدٍ ... ولكنهُ بُنْيانُ قومٍ تهدَّما

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٦ .
(٢) البيان والتبيين ١/٣٦٥ .
(٣) أغانى (ساسى) ١٥/٥١ .
(٤) القفزان: جمع قفيز، وهو مكيال عراق .
(٥) المسوك : جمع مسك وهو الجلد .
(٦) البيان والتبيين ١/١٧١ .
(٧) البيان والتبيين ١/٣٥٥ .
(٨) زمر : قليل .
(٩) البيان والتبيين ١/٥٣ .
(١٠) البيان والتبيين ٢/٣٣ .
(١١) البيان والتبيين ٢/٣٥٣ .

ومن خطباء إياد قُسُّ بن ساعدة، وهو الذى قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وَعُوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت[١] . ويقول الجاحظ : « ولإياد خصلة ليست لأحد من العرب ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى رَوَى كلام قُسّ بن ساعدة وموقفَه على جمله بعكاظ وموعظته ، وهو الذى رواه لقريش وللعرب ، وهو الذى عجَّب من حُسْنه وأظهر من تصويبه . وهذا إسنادٌ تعجز عنه الأمانى وتنقطع دونه الآمال[٢] » . على أن ابن حَجر اتهم هذا الإسناد[٣] ، وخاصة بعد توسُّع الرواة فى خطبة قس وتحميلهم لها إشارات بقرب مبعث الرسول عليه السلام ، ومما لا ريب فيه أن لها أصلا صحيحاً تزيَّد فيه الرواة .

وواضح أن هذه كثرة من الخطباء الجاهليين ، إن لم يصح ما أُثر عنهم من خطب فإن من المحقق أنهم خطبوا كثيراً فى أقوامهم وقبائلهم وإلا ما اشتهروا بالبراعة فى هذا اللون من ألوان اللَّسَن والبيان . وكان مما بعثهم على إحسانه حاجتهم إليه فى مواطن ومواقف عدة . وكان قلما يرتفع نجم سيد من سادتهم إلا والخطابة صفة من صفاته وسجية من سجاياه ، حتى تساق له القلوب بأزمتها وتُجمع له النفوس المختلفة من أقطارها . وكل شيء يؤكد أن منزلة الخطيب عندهم كانت فوق منزلة الشاعر ، فهى قرين السؤدد والشرف والرياسة . يقول أبو عمرو بن العلاء : « كان الشاعر فى الجاهلية يقدَّم على الخطيب لفَرْط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيِّد عليهم مآثرهم . ويفخم شأنهم ، ويهوِّل على عدوهم ومَنْ غزاهم ، ويهيِّب من فرسانهم ، ويخوِّف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم ، فيراقب شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر[٤] » . وعلى هدى هذا القول مضى الجاحظ يقول : « كان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب ، وهم إليه أحوج لرده مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم ، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر[٥] » .

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٠٨ .
(٢) نفس المصدر ١/٥٢ .
(٣) السيرة الحلبية (طبعة مصر) ١/٢١٠ وقارن باللآلئ المصنوعة للسيوطى ١/٩٥ .
(٤) البيان والتبيين ١/٢٤١ .
(٥) البيان والتبيين ٤/٨٣ .

وربما كان من أسباب ذلك أن الشاعر – إذا استثنينا زهيراً – كان هو الذى يهيج النفوس للحرب بما يدعو للأخذ بالثأر ، أما الخطيب فكان غالباً يدعو إلى السلم وأن تضع الحرب بين القبائل المتخاصمة أوزارها ، وكثيراً ما يقف من قومه موقف الناصح الأمين يهديهم ويرشدهم ، أما الشاعر فأكثر مواقفه هجاء وتنابذ بالألقاب والأحساب والمآثر والمعايب .

وقد تعارف خطباؤهم على جملة من السنن والتقاليد فى خطابتهم ، فكانوا يخطبون على رَواحلهم فى الأسواق العظام والمجامع الكبار[1] ، وقد لاثوا العمائم على رءوسهم ، وفى أثناء خطابتهم كانوا يمسكون بالعِصِىّ والمخاصر والقضبان والقَنا والقِسِىّ راكبين أو واقفين على مرتفع من الأرض ، وأشار إلى ذلك لبيد إذ يقول[2] :

ما إنْ أهابُ إذاالسُّرادِقُ عَمَّهُ   قَرْعُ القِسِىِّ وأُرْعِشَ الرِّعْدِيدُ

ووقفت الشعوبية طويلاً عند عادة خطباء العرب من اتخاذ العصى والمخاصر ، وردّ عليهم الجاحظ فى بيانه مبيناً فوائد العصا ، ومن قوله فى تلك العادة : « إن حَمْل العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة والتهيؤ للإطناب والإطالة ، وذلك شىء خاص فى خطباء العرب ومقصور عليهم ومنسوب إليهم ، حتى إنهم ليذهبون فى حوائجهم ، والمخاصرُ بأيديهم إلفاً لها وتوقعاً لبعض ما يوجب حملها والإشارة بها[3] »

وكانوا يمدحون فى الخطيب ثبات الجنان وحضور البديهة وقلة التلفت وكثرة الريق وجهارة الصوت وقوته ، وكانوا يعيبون فيه التنحنح والارتعاش والحَصَرَ والتعثر فى الكلام ، يقول النَّمِر بن تَوْلَب[4] :

أعِذْنِى رَبِّ من حَصَرٍ وعِىٍّ   ومن نَفْسٍ أعالجُها علاجـا

ويقول أبو العِيال الهذلى :

ولا حَصِرٌ بخُطْبَتِهِ   إذا ما عَزَّتِ الخُطَبُ

وذموا فى الخطيب أن يُكثر من مَسّه لذقنه وشوار به ولحيته ، وكأنما رأوا فى ذلك

---

(١) البيان والتبيين ٣/٧ .

(٢) نفس المصدر ١/٣٧٢ ، ٣/٩ .

(٣) البيان والتبيين ٣/١١٧ .

(٤) انظر فى هذا البيت وتاليه البيان والتبيين ١/٣ .

ضرباً من الخرق فى استخدام الجوارح ، يقول معن بن أوس المزّنى فى بعض هجائه[1] :

إذا اجتمع القبائلُ جئتَ رِدْفاً وراءَ الماسحين لك السِّبالا[2]
فلا تُعْطَى عَصَا الخُطباء فيهم وقد تُكْفَى المقادةَ والمقـالا

وكثيراً ما كانوا يتزيدون فى جهارة الصوت وينتحلون سعة الأشداق وهَدل الشفاه ، ومن أجل ذلك قال الرسول صلوات الله عليه : إياى والتشادق ، وقال : أبغضكم إلىّ الثرثارون المُتَفَيْهِقون[3] .

وإذا ذهبنا نستنطِق النصوص عن أساليب خطابتهم ، وهل كانوا يعمدون فيها إلى الأسلوب المرسل أو إلى الأسلوب المسجّع وجدنا أنفسنا بإزاء تراث متّهم لا يمكن الاعتماد عليه فى الاستنتاج ، لما قلنا مراراً من أن حقباً متطاولة تفصل بين العصر الذى دُوِّنت فيه تلك الخطب والآخر الذى قيلت فيه . ومع أن الكثْرة الكثيرة من هذه الخطب منتحلة نلاحظ أن من نحلوها الجاهليين إنما قاسوها على أمثلة رُويت لهم ، فإذا لاحظنا أن أكثر مفاخراتهم ومنافراتهم رُوِىَ مسجوعاً كان معنى ذلك أنه ثبت عند من نحلوا الجاهليين هذه المفاخرات والمنافرات أنهم كانوا يسجعون فيها . وتستطيع أن ترجع إلى منافرة عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية وتحكيمهما لنُفَيْل بن عبد العُزّى فى تاريخ الطبرى[4] فستجدها مسجوعة ، ومثلها منافرة جرير بن عبد الله البَجلى وخالد بن أرْطاة الكلبي إلى الأقرع بن حابس ، فقد رُويت فى شرح نقائض جرير والفرزدق لأبى عبيدة ، وهى مسجوعة[5] . ومثلهما منافرة علقمة بن عُلاثة وعامر بن الطُّفَيْل المروية فى كتاب الأغانى ، فهى الأخرى مبنية على السجع[6] . ويجعل الجاحظ ذلك قاعدة عامة أو كالقاعدة العامة ، فيقول : « إن ضَمْرة بن ضمرة وهَرِم بن قُطبة والأقرع بن حابس ونُفَيْل بن عبد العُزّى كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع ، وكذلك ربيعة بن حُذار[7] »

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٧٢ .
(٢) السبال : مقدم اللحية . يهجوه بأنه ليس رئيساً ولا خطيباً .
(٣) البيان والتبيين ١/١٣ . المتفيهق : الذى يفتح بالكلام جوانب فمه ويملؤه به .
(٤) الطبرى ، القسم الأول ص ١٠٩١ .
(٥) النقائض ١/١٤١ .
(٦) أغانى (طبعة الساسى) ١٥/٥١ .
(٧) البيان والتبيين ١/٢٩٠ .

كما يقول فى موضع آخر إنهم كانوا يستخدمون الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة ، بينما كانوا يستعملون المنثور المرسل فى خطب الصلح وسل السخيمة وعند المعاقدة والمعاهدة . وكأنهم عرفوا فى الجاهلية لونين من الخطابة لوناً مسجوعاً ولوناً مرسلا . ولا تظن أنهم فى خطابتهم المرسلة لم يكونوا يروون فقد كانوا يعمدون إلى ما يثير السامعين من كلم بليغ ، حتى يؤثروا فيهم ويبلغوا ما يريدون من استمالتهم ، يقول الجاحظ : « لم نرهم يستعملون مثل تدبيرهم فى طوال القصائد وفى صنعة طوال الخطب . وكانوا إذا احتاجوا إلى الرأى فى معاظم التدبير ومهمات الأمور ميثوه[1] فى صدورهم وقيدوه على أنفسهم . فإذا قومه الثقاف ، وأدخل الكير ، وقام على الخلاص أبرزوه محككاً منقحاً ومصفى من الأدناس مهذباً[2] » .

ومن يقرأ الفقر القصار والمحاورات المختصرة التى بقيت من تراثهم ، تلك التى يرويها الجاحظ ، يشعر حقاً أنهم كانوا يبتغون التجويد فى كلامهم ، تارة بما يصوغونه فيه من سجع ، وتارة أخرى بما يخرجونه فيه من استعارات وأخيلة . ودائماً يعنون ببهاء اللفظ وقوته ونصاعته ، كما يعنون بوضوح الحجة ، وتصور أشعارهم جوانب من ذلك كقول لبيد لهرم بن قطبة حين احتكم إليه عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة[3] :

إنك قد أوتيت حُكْماً معجبا   فَطَبِّقِ المَفْصِلَ واغْنَمْ طَيِّبا

وواضح أنه يقول له : إنك قد أوتيت حكماً فاصلا قاطعاً يفصل بين الحق والباطل كما يفصل الجزار الحاذق مَفْصِلَ العظمين . ومن ذلك قولهم فلان يفل الحزّ ويصيب المَفْصِل ويضع الهناء مواضع النُّقَبِ[4] . والعبارة الأخيرة مستعارة من صنيع الحاذق حين يلمّ الجرب بإبله فيضع دواءه فى مواضعه الدقيقة ، يمثلون بذلك للمصيب الموجز فى خطابته وبيانه ، كما مثلوه فى التعبيرين الأولين بالجزار الحاذق الذى يصيب عين الموضع من جَزوره سواء فى العظم أو فى اللحم . وقد يشبهون كلامهم بالسهام المصمية ، ومن ثم استخدموا كلمة مِدْرَه للشجاع والخطيب المفلق فى الوقت نفسه ، وأصل معناها المُرامى ، فاستعيرت من رامى السهام لرامى الكلام

---

(١) ميثوه : ذللوه .

(٢) البيان والتبيين ٢/ ١٤ .

(٣) البيان والتبيين ١/ ١٠٩ .

(٤) نفس المصدر ١/ ١٠٧ . الهناء : القطران . والنقب : أول ما يبدو من الجرب فى الإبل .

الذى يبلغ به ما يريد من إصابة خصمه والنكاية به ، يقول زهير بن أبى سلمى[١] :

وَمِدْرَهُ حَرْبٍ حَمْيُها يُتَّقَى بِهِ ... شديدُ الرِّجام باللسان وباليَدِ

ونراهم يصفون خطباءهم بأنهم مصاقع ولُسْن، وافتخروا بذلك طويلا على نحو ما نجد عند قيس بن عاصم المِنْقَرى يصف ما فيه وفى عشيرته بنى مِنْقَر من الخطابة والفصاحة[٢] :

إنى امرؤٌ لا يَعْتَرِى خُلُقِى ... دَنَسٌ يُفَنِّدُه ولا أَفْنُ[٣]

من «مِنْقَرٍ» فى بيت مكرُمةٍ ... والأَصلُ ينبت حوله الغُصْنُ

خطباءُ حين يقوم قائلهم ... بيض الوجوه مصاقعٌ لُسْن

وقد حذروا طويلا من شدة وقع اللسان ، وقالوا إن جرح اللسان كجرح اليد وإنه عضب وقاطع كالسيف ، يقول طرفة[٤] :

بِحُسام سيفك أو لسانك وال ... كَلِمُ الأَصيلُ كأَرْغَب الكَلْمِ

ولعل مما يدل دلالة قاطعة على أنهم أحسوا بجمال ما يلفظ به خطباؤهم أننا نراهم يشبهون كلامهم بالثياب الموشَّاة وبالحُلل والدِّيباج وأشباه ذلك ، يقول أبو قُرْدودة الطائى فى رثاء ابن عَمَّار خطيب مَذْحِج وقد مات مقتولا[٥] :

ومنطقٍ خُرِّق بالعَواسلِ ... لَذٍّ كَوَشْى اليُمْنَةِ المَرَاحلِ[٦]

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على أن الخطابة كانت مزدهرة فى الجاهلية . فقد كانوا على حظ كبير من الحرية ، وكانوا يخطبون فى كل مرتقف : فى المفاخرات وفى الدعوة إلى السلم أو الحرب وفى النصح والإرشاد وفى الصهر والزواج . وابتغوا دائماً فى كلامهم أن يؤثر فى نفوس سامعيهم بما حققوا له من ضروب بيان وبلاغة .

---

(١) ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص ٢٢٣ .

(٢) البيان والتبيين ١ /٢١٩ .

(٣) يفند : ينقض ويضعف . الأفن : ضعف الرأى .

(٤) البيان والتبيين ١ /١٥٦ . أرغب : أوسع : الكلم بسكون اللام : الجرح .

(٥) البيان والتبيين ١ /٣٤٩ .

(٦) العواسل : الرماح . المراحل : جمع مرحل وهو ما نقش فيه تصاوير الرحال .

٤

سجع الكهان

كانت فى الجاهلية طائفة تزعم أنها تطلع على الغيب وتعرف ما يأتى به الغد بما يُلْقِى إليها توابعها من الجن ، وكان واحدها يسمَّى كاهناً كما يسمى تابعه الذى يوحى إليه باسم « الرَّئِيّ » . وأكثرهم كان يخدم ببيوت أصنامهم وأوثانهم ، فكانت لهم قداسة دينية ، وكانوا يلجأون إليهم فى كل شئونهم ، وقد يتخذونهم حُكاماً فى خصوماتهم ومنافراتهم على نحو ما كان من منافرة هاشم ابن عبد مناف وأمية بن عبدشمس واحتكامهما إلى الكاهن الخزاعى ، وقد نفَّر هاشماً على أمية[١] . وكانوا يستشيرونهم ويصدرون عن آرائهم فى كثير من شئونهم كوفاء زوجة أو قتل رجل أو نَحْر ناقة[٢] ، أو قعود عن نُصْرة أحلاف[٣] ، أو نهوض لحرب ، ففى أخبار بنى أسد أن حجراً أبا امرئ القيس رَقَّ لهم ، فبعث فى إثرهم فأقبلوا حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهَّن كاهنهم ، وهو عوف بن ربيعة ، فقال لبنى أسد : « يا عبادى ! قالوا لبيك ربَّنا ، قال : من الملك الأصْهب ، الغلاَّب غير المغلَّب ، فى الإبل كأنها الرَّبْرب[٤] ، لا يعلق رأسه الصَّخَب ، هذا دمه يَنْثعِب[٥] ، وهذا غداً أولُ من يُسْلَبُ ، قالوا : من هو يا ربَّنا ؟ قال : لولا أن تجيش نفس جاشية ، لأخبرتكم أنه حُجْر ضاحية . فركبوا كل صعب وذَلول فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حُجْر فهجموا على قُبَّته » وقتلوه[٦] . وكثيراً ما كانوا ينذرون قبائلهم بوقوع غزو وغير منتظر[٧] ، كما كانوا كثيراً ما يفسرون رُؤاهم وأحلامهم[٨] .

فمنزلة كهَّانهم فى الجاهلية كانت كبيرة ، إذ كانوا يعتقدون أنه يوحَى إليهم ، ولعل ذلك ما جعل نفوذ الكاهن يتجاوز قبيلته إلى كثير من القبائل التى تجاورها ،

---

(١) السيرة الحلبية ١ / ٤ .

(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ١١ / ١١٨

(٣) أغانى ١١ / ١٤٠ .

(٤) الربرب : القطيع من الظباء .

(٥) ينثعب : يسيل .

(٦) أغانى ٩ / ٨٤ .

(٧) الأمالى للقالى ١ / ١٢٦ والسيرة النبوية ١ / ٤٣ ، ٢٢١ .

(٨) السيرة النبوية ١ / ١٥ وما بعدها .

ومن ثَمّ كان العرب يقصدون كثيرين منهم من مناطق بعيدة، ومما يلاحَظ أنهم كانوا يَكثُرون فى اليمن وفى بيوت عبادتها الوثنية، وخاصة مَنْ يتعمقون فى القدم، ولعل فى ذلك ما يدل على الصلة القديمة بين وثنية عرب الجنوب وعرب الشمال. وتلقانا فى كتب التاريخ والأدب أسماء كثيرين منهم وقد يبالغ القُصَّاص، فيرسمون لبعضهم صوراً خيالية، فمن ذلك أن شِقّ بن الصَّعْب كان شق إنسان أو شطره فله عين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة، وأن سطيح بن ربيعة الذئبى لم يكن فيه عظم سوى جمجمته وأن وجهه كان فى صدره ولم يكن له عنق[1]، وربما كان أحدب. ومن كهانهم فى أواخر العصر الجاهلى سَوَاد بن قارب الدَّوْسىّ وقد أدرك الإسلام ودخل فيه[2]، ومنهم المأمور الحارثى، كاهن بنى الحارث بن كعب[3]، وخُنافر الحميرى، وكان يقول إنه أسلم بمشورة تابعه «شِصار[4]». وأكهنهم عُزَّى سَلِمة، يقول الجاحظ: «أكهن العرب وأسجعهم سَلِمة بن أبى حَيَّة وهو الذى يقال له عزَّى سَلِمة[5]». ومن قوله[6]: «والأرض والسماء، والعُقاب والصَّقْعاء، واقعةٌ ببَقْعاء، لقد نَفَّر المجدُ بنى العُشَراء للمجد والسناء[7]». ونجد بجانب هؤلاء الكهان جماعة من الكاهنات، وربما كُنّ فى الأصل من النساء اللائى يهبن أنفسهن للآلهة ومعابدها، ومن أشهرهن الشَّعْثاء[8] وكاهنة ذى الخَلَصَة[9] والكاهنة السَّعْدية[10] والزرقاء[11] بنت زهير والغَيْطلة القرشية[12] وزَبْراء كاهنة بنى رِئام، ويروى أنها أنذرتهم غارة عليهم فقالت: «واللوح الخافق والليل الغاسق والصباح الشارق والنَّجْم الطارق والمُزْن الوادق، إن شجر الوادى ليأدو خَتْلا، ويَحْرُق أنياباً عُصْلا، وإن صخر الطَّوْد ليُنذِر ثُكْلا، لا تجدون عنه مَعْلا[13]».

---

(١) عجائب المخلوقات للقزوينى ١٧١/١.

(٢) السيرة النبوية ٢٣٣/١.

(٣) الأمالى ٢٧٦/١ واسمه فيه المأمون، وانظر ١٥١/٣ والأغانى ٧٠/١٥.

(٤) الأمالى ١٣٣/١.

(٥) البيان والتبيين ٣٥٨/١.

(٦) نفس المصدر ٢٩٠/١.

(٧) الصقعاء: الشمس، بقعاء: ماء أو موضع. نفر: حكم بالغلبة. بنو العشراء: عشيرة من فزارة. السناء: الرفعة.

(٨) مجمع الأمثال للميدانى ٩١/١.

(٩) نفس المصدر ٢٢٣/١.

(١٠) نفس المصدر ٥٤/٢.

(١١) أغانى (دار الكتب) ٨١/١٣.

(١٢) سيرة ابن هشام ٢٢١/١.

(١٣) اللوح هنا: الريح. الوادق: الممطر. يأدو: يختل. يحرق أنياباً عصلا: كناية عن الغضب والشر. عصلا: معوجة. الطود: الجبل. المعل: الملجأ. انظر الأمالى ١٢٦/١.

ونحن لا نطمئن إلى ما يُرْوَى فى كتب التاريخ والأدب من أقوال جرتْ على ألسنة هؤلاء الكهان والكاهنات ، فإن بُعْد المسافة بين عصور التدوين والعصر الجاهلى يجعلنا نتهم مثل هذه الأقوال ، إذ من الصعب أن تُرْوى بنصها وقد مضى عليها نحو قرنين من الزمان . وإنما استشهدنا ببعض منها لندل على أنه ثبت فى أذهان من تحدثوا عن الكهّان والكاهنات فى الجاهلية أنهم كانوا يعتمدون على السجع فى كلامهم ، ولذلك حين أجروا ألسنتهم بالكلام جعلوه مسجوعاً على شاكلة ما رويناه من أقوالهم . ومعنى ذلك أنه وُجد فى العصر الجاهلى سجع كان يقوله الكهان ، وقد اختلط الأمر على بعض قريش فى أول نزول الذكر الحكيم . فقرنوه بسجع كهنتهم وردّ عليهم القرآن الكريم بمثل قوله جلّ وعز : (ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) وقال سبحانه وتعالى : (فذكر ، فما أنت بنعمة ربك بكاهن) وقال : (إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) .

ومما يدل على أن كهنتهم كانوا يسجعون ، بل كانوا لا يتكلمون إلا بالسجع . الحديثُ المرويُّ عن أبى هريرة ، فقد حدّث أنه « اقتتلت امرأتان من هُذَيل . فرمتْ إحداهما الأخرى بحجر ، فقتلتها وما فى بطنها . فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقضى رسولُ الله أن دِيَةَ جَنينها غُرَّة : عبد أو وليدة ، وقضى بدية المرأة على عاقلتها[1] . . . فقال حمل بن النابغة الهُذَلى : يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهلّ[2] . فمثل ذلك يُطَلّ[3] . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما هذا من إخوان الكُهّان . من أجل سجعه الذى سجع[4] » . ويقول الجاحظ : « كان حازى (كاهن) جُهَينة وشِقّ وسطيح وعُزَّى سلمة وأشباههم يتكهنون ويحكمون بالأسجاع[5] » .

وإذا صح أن ما يروى فى كتب التاريخ والأدب من سجع الكهان تقليد دقيق لما كانوا يأتون به من هذا السجع لاحظنا أنهم لم يكونوا يسجعون فحسب .

---

(١) عاقلة المرأة : عصبتها الذين يتضامنون معها فى دفع الدية .

(٢) استهل : صاح .

(٣) يطل : يهدر دمه .

(٤) صحيح مسلم (طبعة الآستانة) ٥/ ١١٠ وانظر موطأ مالك (طبع حجر بالقاهرة) ٢/ ١٩٢ .

(٥) البيان والتبيين ١/ ٢٨٩ وما بعدها .

بل كانوا يعمدون أيضاً إلى ألفاظ غامضة مبهمة ، حتى يتركوا فسحة لدى السامعين كي يؤوّل كل منهم ما يسمعه حسب فهمه وظروفه . ومن ثم دخل الرمز فى كثير من أقوالهم ، إذ يومئون إلى ما يريدون إيماء ، وقلما صرحوا أو وضّحوا ، بل دائماً يأتون المعانى من بعيد ، بل قل إنهم كانوا لا يحبون أن يصوروا فى وضوح معنى ، ويتخذوا له أشباحاً واضحة من اللفظ تدل عليه ، لأن ذلك يتعارض مع تنبؤهم الذى يقوم على الإبهام والوهم واختيار الألفاظ التى تخدع السامع وجوهاً من الخُدَع ، ومن ثَمّ كان من أهم ما يميز أسجاعهم عدم وضوح الدلالة وأن يكثر فيها الاختلاف والتأويل .

وليس هذا كل ما يلاحَظ على السجع الذى يضاف إليهم ، فإنه يلاحَظُ عليه أيضاً كثرة الأقسام والأيمان بالكواكب والنجوم والرياح والسحب والليل الداجى والصبح المنير والأشجار والبحار وكثير من الطير . وفى ذلك ما يدل على اعتقادهم فى هذه الأشياء وأن بها قوى وأرواحاً خفية ، ومن أجل ذلك يحلفون بها ، ليؤكدوا كلامهم وليبلغوا ما يريدون من التأثير فى نفوس هؤلاء الوثنيين .

وهذا السجع الدينى كان يقابله — كما قدمنا — سجع آخر فى خطابتهم ، بل فى كلامهم وأمثالهم التى دارت بينهم . ولعل فى ذلك كله ما يدل على أن الجاهليين عُنوا بنثرهم كما عنوا بشعرهم ، فقد ذهبوا يحاولون تحقيق قيم صوتية وتصويرية مختلفة فيه تكفل له جمال الصياغة وروعة الأداء .

خاتمة

خلاصة

حاولتُ فى الصحف السابقة أن أؤرخ للأدب العربى فى العصر الجاهلى ، فتحدثت عن صفة الجزيرة العربية وتاريخها القديم ، وكيف أنها كانت مهد الساميين ، إذ خرجوا منها موجة فى إثر موجة ، وكانت موجة العرب الجنوبيين الذين يمّموا حوض المحيط الهندى آخر موجاتهم ، وكانت تفصلهم من عرب الشمال صحراوات واسعة جعلتهم يستقلون عنهم فى لغتهم وخصائصها النحوية ، كما جعلتهم يستقلون عنهم فى حضارتهم . ومع ذلك فقد ظلت قائمة بين الجنوبيين والشماليين أو القحطانيين والعدنانيين صلات اقتصادية ودينية وسياسية أتاحت لهم ضروباً من التداخل والتشابك . واستطاع الشماليون أن ينفذوا فى آخر الأمر إلى صورة خطهم العربى المعروف .

ومضيتُ أتحدث عن العصر الجاهلى وحدّدته بنحو قرن ونصف قبل الإسلام ، أما ما قبل ذلك فهو الجاهلية الأولى ، وكل ما بأيدينا من شعر قديم إنما يرجع إلى العصر الجاهلى أو الجاهلية الثانية . ونحن نفاجأ فى أول هذا العصر باكتمال الخط العربى ، كما نفاجأ بهذا الشعر الناضج الذى يضاف إلى الجاهليين . وأخبارهم واضحة تمام الوضوح ، فقد كانت تقوم فى الشمال إمارات الغساسنة والمناذرة وكندة ، بينما كانت تتجمع قلوب العرب حول مكة ، فهى بيت كعبتهم وعبادتهم الوثنية ، وهى مركز تجارتهم وقوافلهم التى تربط بين حوضى المحيط الهندى والبحر المتوسط ، ووراءها قبائلهم البدوية ، وكانت تنتظم قسمين كبيرين من عرب الشمال العدنانيين وعرب الجنوب القحطانيين الذين هاجروا من ديارهم إلى ديار الشماليين منذ أزمان بعيدة . وكانت كل قبيلة وحدة قائمة بنفسها ، وهى وحدة دعمتها وشائج متينة من العصبية . وكان لكل قبيلة سيد ومجلس يضم شيوخ عشائرها ، وواجبات السيد دائماً أكبر من حقوقه ، ومن ورائه أفراد قبيلته متضامنين أوثق ما يكون التضامن ، وخاصة حين يُطْلب ثأر أو تنشب حرب ، وقد تحولوا بجزيرتهم إلى ما يشبه ميداناً حربيًّا كبيراً ، فى كل مكان عراك وقتال وفى كل مكان دماء تسيل . ولهم حروب

مشهورة سجّلها علماء اللغة والأدب فى العصر العباسى كحرب البَسُوس وحرب داحس والغبْراء .

وانتقلتُ من ذلك أبحث فى حياتهم وأحوالهم الاجتماعية ولاحظت أن مجتمع القبيلة كان يتألف من ثلاث طبقات ، هى أبناؤها ومواليها وعبيدها ، وكان أهم شىء يشدُّ من بنيان هذا المجتمع حرصهم على الشرف وما سموه المروءة ، إذ كان كل منهم يحرص على البذل والشجاعة والوفاء وحماية الجار وإباء الضيم ، وتخلّلت ذلك آفات ، أهمها : الخمر والقمار واستباحة النساء . وقد تأخذ هذه الآفات عند بعض الشباب أمثال طَرَفة شكل فتوة جامحة . ومن المؤكد أنه كان للمرأة الحرة عندهم منزلة كريمة . ولم تكن معيشتهم واحدة ، فقد كانت الزراعة منتشرة فى الجنوب والشرق وواحات الحجاز ، وكان أهل مكة يعيشون على التجارة ، على حين كان البدو يعيشون على رَعْى الأغنام والأنعام وصيد الحيوان ، وكان بينهم سادة يملكون مئات الإبل وصعاليك لا يملكون شيئاً . ومع أنهم كانوا على صلة بالحضارات المجاورة كانوا لا يزالون أقرب إلى طور البداوة ، وكان علم الأنساب أهم علومهم ، ولم يكن لهم وراءه إلا معارف محدودة تقوم على التجربة الناقصة كبعض معارفهم الطبية والفلكية . وكانت كثرتهم وثنية تتعبّد لآلهة وأصنام وأوثان كثيرة ، وكانت الكعبة فى مكة أكبر معابدهم ، وكانوا يحجون إليها فى أشهر معلومات . على أن نفراً منهم شكّوا فى أواخر هذا العصر فى دينهم الوثنى والتمسوا دين إبراهيم ويسمّون المتحنِّفة والحنفاء وكأنما كانوا إرهاصاً لظهور الإسلام والدعوة المحمدية . وكانت النصرانية فى أثناء ذلك تنتشر فى القبائل المحاذية للشام والعراق بينما كان كثير من اليهود ينزلون فى واحات الحجاز وفى اليمن ، وتعربت كثرتهم إلا أن العرب ظلوا يزدرونهم وينفرون من دينهم .

ولما تمّ لى بيان هذه الجوانب أخذت أبحث فى اللغة العربية وعناصرها السامية القديمة ، ووقفت عند أقدم لهجاتها المثبتة فى النقوش ، وهى الثمودية واللّحيانية والصّفوية ، تلك التى كتبتْ نقوشها بالخط المُسند الجنوبى ، ثم اللهجة النبطية ، وكانت نقوشها تكتب بالخط الآرامى ، ومنه نشأ تطور الخط العربى فى الحجاز . وتختلف هذه اللهجات الأربع اختلافات كثيرة عن لغة الجاهليين ، وإن كان

من المؤكد أن اللهجة النبطية أقربها جميعاً إليها ، وقد أخذت فى الدثور منذ القرن الثالث للميلاد ، بينما أخذت تحل محلها مقدمات الفصحى بحيث لا نصل إلى نهاية القرن الخامس وأوائل السادس الميلادى حتى تتكامل تكاملا تامًّا وتعمّ بين القبائل النجدية وفى الحيرة وبين الغساسنة ، وتصبح هى اللغة العامة المتداولة بين الشعراء . وكانت هناك لهجات قبلية كثيرة ولكن الفصحى ظفرت بها جميعاً فى المجال الأدبى ، بحيث كان الشعراء فى كل قبيلة ينظمون بها مرتفعين عن لهجاتهم القبلية أو المحلية . وقد حار المستشرقون طويلا فى معرفة اللهجة التى سادت بين القبائل فى الشمال وأصبحت اللهجة الأدبية الشائعة على كل لسان، وأثبتُّ أنها لهجة قريش ، إذ تآزرت بواعث دينية واقتصادية وسياسية على أن تتم لها هذه السيادة منذ أوائل العصر الجاهلى .

وبحثتُ عقب ذلك فى رواية الشعر الجاهلى وتدوينه ، مبيناً كيف تضافرت جهود القبائل العربية ورجالاتها وشعرائها على حمْله جيلاً بعد جيل، حتى تسلّمه منهم طبقة من الرواة المحترفين فى البصرة والكوفة . وكان بينهم الثقة الذى لا يرتفع شك إلى روايته مثل المفضل الضبى والأصمعى والمتهم الذى يجمع العلماء على إبطال روايته مثل حماد وخلف الأحمر . وفى تضاعيف ذلك كان الشعر الجاهلى يدوَّن، بحيث لا نصل إلى أوائل القرن الثالث للهجرة حتى يتكامل تدوينه . والذى لا شك فيه أنه دخله انتحال كثير ، ولم يكن القدماء غائبين عن ذلك ، فقد نصّوا على كل ما شكّوا فيه من رُواة ومن شعر ، حتى يحيطوه بسياج من التوثيق ، أو بعبارة أدق حتى يحيطوا الصحيح منه . ومنذ أواسط القرن الماضى يلم المستشرقون بالمشكلة ، واندفع منهم مرجليوث فى هذا القرن يزعم أن الشعر الجاهلى جميعه منحول على أهله ، وهبّ كثير من المستشرقين يردُّون عليه ، وممن ذهب مذهبه فى تعميم الحكم على الشعر الجاهلى بالانتحال والوضع طه حسين ، وإن لم يتسع بحكمه اتساع مرجليوث ، وعلى هَدْى من آراء طه حسين ومرجليوث جميعاً تناول القضية بلاشير فى الجزء الأول من كتابه « تاريخ الأدب العربى » . وقد ناقشتُ آراءه وآراء غيره من الباحثين ، وانتهيت إلى أن هناك شعراً منتحلا كثيراً لا سبيل إلى الثقة به ، ولكنْ بجانبه شعر صحيح رواه الثقات وعلى رأسهم المفضل الضبى

والأصمعى ، وهو الذى نستند عليه فى دراسة الأدب الجاهلى ، دراسة نُخضعه فيها لبحث داخلى دقيق . ومن أجل ذلك وقفتُ عند مصادره لأدلّ على قيمتها ومدى توثقها .

ومضيت أبحث فى خصائص الشعر الجاهلى ، فتحدثت عن نشأته وأنها انطمرت فى ثنايا الجاهلية الأولى، بحيث لا نجد منذ أوائل العصر الجاهلى أو الجاهلية الثانية شيئاً نستبين منه طفولته ، إنما نجد هذه الصورة النموذجية المعروفة للقصيدة الجاهلية ، وهى صورة شاعت بين القبائل جميعاً ، وكان للقبائل المضرية منها بالذات الحظ الأوفر . ووقفتُ عند موضوعاته ، ولاحظت فيها بقايا من الصلة القديمة بين شعرهم والأناشيد الدينية التى كانوا يرتلونها لآلهتهم ، كما وقفت عند معانيه ولاحظت أنها حسية تغلب عليها السطحية والتقريرية والسرعة السريعة، أما ألفاظه فكاملة الصياغة حافلة بالصقل والتجويد، زاخرة بقيم موسيقية وتصويرية كثيرة.

وأفردتُ بعد ذلك فصولا لأربعة من الشعراء ، يعدهم النقاد السابقين المجلّين فى العصر الجاهلى ، وهم امرؤ القيس والنابغة وزهير والأعشى . واعتمدت فى دراسة الثلاثة الأولين على رواية الأصمعى لدواوينهم ، وبدأت بامرئ القيس ، فتحدثت عن حياته وكيف دخلتها الأسطورة ، ثم تحدثت عن ديوانه ، وبحثته بحثاً داخلياً ، فإذا أكثر ما يضاف إليه تشوبه الريبة بشهادة الأصمعى ، واستظهرت أن تكون المعلقة وتاليتها فى ديوانه صحيحتين فى جملتهما ومثلهما القصيدتان الحادية عشرة والسابعة والعشرون لأنهما من رواية أبى عمرو بن العلاء ، الثقة الصدوق . ولا يبقى له بعد ذلك إلا مقطوعات قصيرة تعرّض فيها لمن أجاروه ومن رفضوا جواره . واستطعتُ من خلال هذه النصوص القليلة أن أوزّع شعره على دورتين فى حياته، دورة غلب عليه فيها اللهو والعبث، ودورة ثانية غلب عليه فيها الحزن والإحساس بسوء المصير . وأخيراً صورتُ خصائصه الفنية مبيناً منزلته فى الشعر الجاهلى وكيف عُدّ أباه غير منازع ولا مدافع .

وبحثتُ بعده النابغة الذبيانى . فتحدثت عن حياته ، وكيف أمضاها فى بلاط المناذرة والغساسنة سفيراً لقومه الذبيانيين ، وكيف كان يحتلّ بين الشعراء مكانة مرموقة فى داخل الجزيرة وفى مكة وسوق عكاظ . وبحثتُ فى ديوانه على ضوء رواية

الأصمعى ، وأنكرت منها خمس قصائد على رأسها قصيدته فى المتجردة .وشعره من هذه الناحية أوثق من شعر امرئ القيس لأنه أقرب منه عهداً ، ولم تدخل الأسطورة فى حياته ولا فى شعره . ووقفتُ عندما اشتهر به من مديح واعتذار ، مبينًا قدرته على الوصف ورَصْف الموضوعات وتنسيق المعانى وابتكار الصور والأخيلة ، يهديه فى ذلك كله ذوق مهذب ، هذبته الحضارة التى نعم بها فى الحيرة وعند الغساسنة ، فإذا هو صاحب حسٍّ دقيق وشعور رقيق .

وكان يعاصره زهير بن أبى سُلمى المزنى ، وقد نشأ فى بنى مرة الذبيانيين بحيث عُدَّ فيهم ، وتصادف أن كان خاله شاعراً وأن كان زوج أمه أوس بن حَجر من كبار الشعراء الجاهليين ، فحَمَل عنهما جميعًا الشعر ، وعاش له يتعلمه ويعلمه شعراء من بيته ومن غير بيته ، بحيث أصبح أستاذاً لمدرسة عُرفت به . وقد وقفتُ عند ديوانه وأسقطت منه ما أسقطه الأصمعى . ولاحظت أن الشعر عنده انتهى إلى صورة مثالية من التنقيح والتحبير فى قوالبه وصيغه تحبيراً لاحظه القدماء إزاء بعض مطولاته: فقالوا إنه يصنع القصيدة فى حول كامل وإن له سبع حوليَّات . وهو يضم إلى هذا التحبير عناية بعيدة بالتشبيهات والاستعارات ، بحيث يُعَدّ حقًّا شاعر التصوير فى العصر الجاهلى وكان يكثر من الحِكم ومن الدعوة إلى الخير والسلام . فلا نغلو إذا قلنا إن شعره يعد صورة رفيعة للخير والحق والجمال .

وانتقلتُ إلى الأعشى ، فتحدثت عن حياته التى كان ينفقها متنقلا فى أنحاء الجزيرة ، ثم عرضت لديوانه ، واضطررت لبحثه من خلال رواية يكثر فيها الانتحال . وتصادف أن كان راويةُ شعره مسيحيًّا ، فنحله كثيراً من الأفكار المسيحية ، وتداول شعره القُصَّاصُ والوعَّاظ المسلمون . فأضافوا إليه أشعاراً كثيرة ، لغرض العظة والاعتبار . كما أضاف إليه الرواة غير قصيدة ، كقصيدته رقم ٢٤ التى تحكى قصة وفاء السموأل . وجعلنا هذا كلُّه نشك فى كثير من قصائده وأشعاره ، وإذا بنا نرفض أكثرها ، ولا نُبْقى له إلا على نحو عشرين قصيدة . وقد لاحظتُ عليه غلوًّا فى المديح وتأثراً دقيقًا بالحضارة التى عاصرته فى الحيرة ، حتى ليقترب شعره من شعر العباسيين لا فى معانيه فحسب ، بل أيضًا فى سهولة ألفاظه وخفة أوزانه . ونفس الموضوعين الأساسيين اللذين يدور فيهما شعره لا يختلفان

فى شيء عما نقرؤه للعباسيين ونقصد وصفه للخمر وغزله وتدلهه فيه وما قد يلاحَظ عنده من المبالغة المسرفة وكثرة التضمين .

وخرجتُ من هؤلاء الشعراء المبرزين إلى دراسة طوائف من الشعراء اتفقوا فى اتجاه من اتجاهات الحياة الجاهلية ، فدرستُ أولا الفرسان وما يصوِّرون فى أشعارهم من بطولتهم ومثاليتهم الخلقية الرفيعة . ثم درست الصعاليك وما يصورونه فى أشعارهم من غاراتهم وما نحسُّه عند نفر منهم من تسام وعون للفقراء والمعوزين . ثم بحثت فى شعراء اليهود مبينًا كثرة ما نُحل عليهم . ووقفت عند النصارى من الشعراء أمثال عدىّ بن زيد العِبادى ، ولاحظت أن شعراً كثيراً زيِّف عليه . ولا نبالغ إذا قلنا إن أكثر ما يضاف إلى أمية بن أبى الصَّلْت ، إن لم يكن كله، موضوع منتحل . وتدور الأشعار المضافة إليه فى موضوعين أساسيين ، هما نشأة الكون وما يتصل بها من خلق السموات والأرض ، والموت أو الفناء وما يعقبه من العذاب والثواب .

ولما فرغتُ من بحث الشعر الجاهلى وشعرائه انتقلت أبحث فى النثر الجاهلى ، فلاحظت أن الجاهليين لم يعرفوا الرسائل الأدبية المحبرة ، ولكنهم عرفوا القصص والأمثال والخطابة وسجع الكُهَّان . ومن الحق أنهم لم يدوِّنوا شيئًا من قصصهم ، غير أن ما أضافه العباسيون إليهم يصورِّ غير قليل من روحه وطبيعته . وعرضتُ لأمثالهم وما كان من ازدهار الخطابة بينهم واصطلاحهم فيها على طائفة من السُّنن والتقاليد . وكان كُهَّانهم يحاولون التأثير البالغ فى نفوس سامعيهم بما يسوقون إليهم من أسجاع وألفاظ غريبة وأقسام وأيمان موهمة . وكل ذلك يؤكد أن الجاهليين حاولوا فى نثرهم ما حاولوه فى شعرهم من روعة الأداء ، حتى يستأثروا بقلوب سامعيهم ويخلبوا عقولهم وألبابهم .

تعليق

واضح أن الصورة السابقة للأدب الجاهلى إنما تُعْنى بإبراز خطوطه الأساسية ، ومن المحقق أن هناك خطوطًا صغرى لا يبرزها البحث ، فنحن مثلا إنما تحدثنا عن الشعراء المجلّين ، وتركنا كثيرين لم نكد نلمّ بهم إلا بعض اقتباسات من

أشعارهم نثرناها نثراً فى بعض الفصول . وإنما تركنا تفصيل الحديث عنهم ، إما لأن ما وصلنا من أشعارهم قليل لا يسوِّى صورة أدبية تامة لهم ، وإما لأن الانتحال باد فى كثير مما يضاف إليهم من أشعار وأخبار . ولنقفْ قليلا عند أصحاب المعلقات الذين لم نفردهم بالدرس ، وهم عمرو بن كلثوم والحارث بن حِلِّزة وعَبيد بن الأبرص وطرفة وعنترة ولبيد ، فأما عمرو والحارث فإنهما مُقِلاَّن ، وقد تشكك ابن سلام فى شعر عَبيد بن الأبرص ولم يصحح له سوى المعلقة وقال إن شعره مضطرب ذاهب[١] . أما طرفة فيقول ابن سلام إنه أشعر الناس واحدة[٢] ، وهى قوله :

لخَوْلَةَ أطلالٌ ببُرْقَةِ ثَهْمَدِ وقفتُ بها أبكى وأبْكى إلى الغَدِ[٣]

وفيها أبدع فى وصف ناقته ، إذ لم يترك فيها صغيرة ولا كبيرة إلا رسمها ، وكأنه يريد أن ينحت لها تمثالا ، لا يغادر ذاكرة الجاهليين . والتصوير والحكمة جميعًا يتداخلان فى شعره ، وهو من هذه الناحية يشبه النابغة وزهيراً ، على أنهما يتقدمانه ويفضلانه . وأيضًا فإنه مقل والأسطورة تجرى فى أخباره ، ولذلك كله لم نفرده بالبحث . وأما عنترة فقد تحدثنا عنه فى تضاعيف كلامنا عن الفرسان . ولبيد مع أنه لحق الجاهلية عاش طويلا فى الإسلام ، فأولى أن يدرس فى المخضرمين .

وقل ذلك نفسه فيمن تركناهم من شعراء الجاهلية غير أصحاب المعلقات ، فقد تركنا أوس بن حَجر لأن فنه يندمج فى فن تلميذه زهير ، ولأن الرواة خلطوا بين أشعاره وأشعار ابنه شُرَيْح[٤] وعَبيد[٥] بن الأبرص . ونرى ابن سلام يسلك معه فى طبقته — وهى الثانية — بشر بن أبى خازم الأسدى وهو مقل . وفى شعره مصنوع كثير[٦] . وجميع الطبقة الثالثة عند ابن سلام من المخضرمين ، أما الطبقة الرابعة فسلك فيها طرفة وعبيداً ومرَّ رأينا فى أشعارهما . ونراه يضم إليهما عدىّ بن زيد العبادى ، وأسلفنا الحديث عنه بين أصحاب الديانات السماوية ، كما يضم علقمة ابن عَبدة ويذكر له ثلاث قصائد جياد ، ويقول : لا شىء له بعدهن يُذْكَر[٧] .

---

(١) ابن سلام ص ١١٦ .

(٢) ابن سلام ص ١١٥ .

(٣) الرواية المشهورة للشطر الثانى فى البيت :
« تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد » .

(٤) الحيوان ٢٧٩/٦ .

(٥) ابن سلام ص ٧٦ — ٧٧ .

(٦) الحيوان ٢٧٩/٦ .

(٧) ابن سلام ص ١١٧ .

وهو يشتهر بإحسانه لوصف الظَّلِيم ونعامته[١] . وممن ذكرهم ابن سلام فى الطبقة الخامسة الأسود بن يعفر النَّهْشَلى التميمى ، ويقول ابن سلام : « له واحدة طويلة رائعة لاحقة بأجود الشعر لو كان شَفَعَها بمثلها قدمناه على مرتبته»[٢] .
أما الطبقة السادسة فنظم فيها عمرو بن كلثوم والحارث بن حِلِّزة وعنترة ، وقد عرضنا لهم بالحديث فيما أسلفنا . وجعل الطبقة السابعة لأربعة مقلين هم حُصَين ابن الُحمام المرىّ والمتلمس (خال طرفة) والمسيّب بن عَلَس (خال الأعشى) وسلامة بن جَنْدل السَّعْدى التميمى . أما الطبقة الثامنة فنظم فيها عمرو بن قَميئة (عم طرفة) وعوف بن عطية بن الخَرِع ، وهما مقلان . وجعل فى الطبقة التاسعة الحادرة أو الحويدرة ، وقصيدته[٣] :

بكرتْ سُمَيَّةُ بُكْرَةً فتمتَّعِ   وغَدَتْ غدوّ مفارقٍ لم يَرْبَعِ

من جيد الشعر ومختاره ، وليس له وراءها شعر يذكر . أما الطبقة العاشرة فجميعها مخضرمون أو إسلاميون . وأفرد لأصحاب المراثى فصلا ، ولكنه لم يسلك بينهم جاهليا . وتحدث عقب ذلك عن شعراء القرى العربية ، وأهمهم أمية ابن أبى الصَّلت شاعر الطائف ، ومرَّ بنا فى حديثنا عن أصحاب الديانات كثرةُ ما وضع عليه من أشعار . وفى قبيلة عبد القيس بالبحرين شعر جيد ، وربما كان خير شعرائها المثقِّب العبدى المعاصر للنعمان بن المنذر ، وهو يُسْلك فى المقلين .
وليس وراء هؤلاء الذين ذكرهم ابن سلام شعراء فيهم غَناء ، سوى الصعاليك ، وقد أفردناهم بالحديث . ومما لاشك فيه أن الأسطورة تغلب على أخبارهم ، لاندراج كثيرين منهم فى القصص الشعبي ، ويشبههم فى هذا الجانب حاتم الطائى الذى طالما تحدث الرواة عن كرمه . وواضح من ذلك كله أننا لم نتسع فى الترجمة لشعراء الجاهلية ، لقلة ما بأيدينا من شعر وثيق لهم يقفنا على خصائصهم ، ومن ثَمَّ اكتفينا بالترجمة للطبقة الأولى منهم تلك التى عُنى الرواة بدواوينها وأجمعوا على تقديمها وأنها لا تبارَى فى حسن الدِّيباجة ورونق الكلام .

---

(١) الحيوان ٤/٣٦٦ .
(٢) ابن سلام ص ١٢٣ .
(٣) المفضليات رقم ٨ . يربع بالمكان : يقيم .

فهرس الموضوعات

صفحة

صفحة

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

فى الدراسات القرآنية

- سورة الرحمن وسور قصار : عرض ودراسة
الطبعة الأولى ٤٠٤ صفحات

فى تاريخ الأدب العربى

- العصر الجاهلى
الطبعة الثامنة ٤٣٥ صفحة
- العصر الإسلامى
الطبعة السابعة ٤٩١ صفحة
- العصر العباسى الأول
الطبعة السادسة ٥٧٦ صفحة
- العصر العباسى الثانى
الطبعة الثالثة ٦٥٧ صفحة

فى مكتبة الدراسات الأدبية

- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
الطبعة التاسعة ٥٢٣ صفحة
- الفن ومذاهبه فى النثر العربى
الطبعة الثامنة ٣٩٩ صفحة
- التطور والتجديد فى الشعر الأموى
الطبعة السادسة ٣٣٩ صفحة
- دراسات فى الشعر العربى المعاصر
الطبعة الخامسة ٢٨٩ صفحة
- شوقى شاعر العصر الحديث
الطبعة السابعة ٢٨٦ صفحة
- الأدب العربى المعاصر فى مصر
الطبعة الخامسة ٣٠٧ صفحات
- البارودى رائد الشعر الحديث
الطبعة الثالثة ٢٣٠ صفحة
- البحث الأدبى : طبيعته . مناهجه . أصوله . مصادره
الطبعة الثالثة ٢٧٨ صفحة
- الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية
الطبعة الثالثة ٣٣١ صفحة
- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
الطبعة الأولى ٢٥٣ صفحة

فى الدراسات النقدية

- فى النقد الأدبى
الطبعة الخامسة ٢٥٠ صفحة
- فصول فى الشعر ونقده
الطبعة الثانية ٣٦٦ صفحة

فى الدراسات البلاغية واللغوية

- البلاغة : تطور وتاريخ
الطبعة الثالثة ٣٨١ صفحة
- المدارس النحوية
الطبعة الثالثة ٣٧٥ صفحة

فى مجموعة نوابغ الفكر العربى

- ابن زيدون
الطبعة السابعة ١١٩ صفحة

فى مجموعة فنون الأدب العربى

- الرثاء
الطبعة الثانية ١٠٨ صفحات
- المقامة
الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة
- النقد
الطبعة الثالثة ١١٢ صفحة
- الترجمة الشخصية
الطبعة الثانية ١٢٨ صفحة
- الرحلات
الطبعة الثانية ١٢٨ صفحة

فى التراث المحقق

- المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد
الجزء الأول – الطبعة الثانية ٤٦٨ صفحة
الجزء الثانى – الطبعة الثانية ٥٧٢ صفحة
- كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد
الطبعة الأولى ٧٨٨ صفحة

فى سلسلة اقرأ

- العقاد
- الطلولة فى الشعر العربى